الأستاذ الدكتور

محمد راتب النابلسي

موسوعة أسماء الله الحسنى

الجزء الثاني

دار المكتبي





مَوْسُوعَةُ

أَسْمَاءِ ٱللَّهِ ٱلحُسْنَى

الأستاذ الدكتور

محمد راتب النابلسي

ٱلجُزْءُ ٱلثَّانِي

دار المكتبي

الله

الاسم هو الله ، يقول الله عزّ وجل في القرآن الكريم :

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد : ١٩] .

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ، هذه الكلمة هي كلمة التوحيد ، فالإسلام كله والإيمان كله والإحسان كله ، جُمِعَ في هذه الكلمة ، والمسلمون يرددون هذه الكلمة كثيراً في كل وقت ، وفي كل مناسبة إلى درجة أنهم غفلوا عن معناها ، وحينما نقول : إنّ هذه الكلمة شعار الإسلام ، فمعنى ذلك أن الدين كله أساسه قائم على هذه الكلمات ، ألَم يقل المولى عز وجل :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ الأنبياء : ٢٥] .

« لا إله إلا الله » فحوى رسالات الأنبياء جميعاً ، فالشيء الدقيق هو أنْ تضغط ديناً بكامله ، وأنْ تجمع الشرائع السماوية ، وأنْ تجمع رسالات الأنبياء جميعاً في كلمات معدودة ، وكلمة التوحيد هذه « لا إله إلا الله » نرددها كل يوم عشرات المرات ، بل مئات المرات ، ولو عرفنا حقيقتها لكنا في حال آخر غير هذا الحال .

عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ كَرِيزٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي : لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ » .

أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي :« لا إله إلا الله » ، ولا إله إلا الله حِصنٌ مَن دخلها أَمِنَ من عذاب الله ، لا إله إلا الله كلمة التوحيد ويجب أن نقف عند هذه الكلمة ، ونستوحي منها دروساً كثيرة .

بادىء ذي بدء نقف عند المعنى اللغوي لهذه الكلمة ؛ لا إله إلا الله ، يقول علماء التوحيد : **« الله عَلَمٌ على الذات الكاملة ، الله سبحانه وتعالى ، والكون ممكن الوجود ، وهو ما سوى الله »** ، فالله عَلَمٌ على الذات الكاملة عَلَم على الخالق ، عَلَم على البارىء ، المصور ، المسير ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، أسماء الله الحُسنى كلها جُمعت في (الله) ، عَلَم على الذات ، قال بعضهم : (الله) اسم الذات الأعظم ، لكن إذا أردت أن تشير إلى الذات الكاملة ، المتصف بصفات الوجود ، وصفات الكمال ، وصفات الوحدانية فقل (الله) : علم على الذات ، جُمعت أسماء الله الحُسنى كلها في كلمة الله ، بعضهم قال : اسم الله الأعظم (الله) ، وبعضهم قال : (الرحمن الرحيم) ، وبعضهم قال : أي اسم لله تأثرت به في أعماقك ، وتتفاعل معه ، فهو اسم الله الأعظم ، على كلٍّ في هذه الكلمة لا إله إلا الله ، أسماء الله الحُسنى كلها مجموعة في (الله) .

وبعدُ فما معنى إله ؟

في المعجم جاء : أَلَهَ يَأْلَهُ إِلَهَةً وأُلوهَةً وأُلوهِيَةً ، يعني عَبَدَ

عبادة ، فألَهَ بمعنى عَبَدَ الإله المعبود ، لكن أَلِهَ يَأْلَهُ أَلَهاً أيْ : تحَيَّرَ ، أَلِهَ إليه أيْ : لَجأَ إليه ، هذه هي المعاني المستفادة من معنى أَلَهَ يَأْلَهُ إِلَهَةً وأُلوهَةً وأُلوهِيَةً ، أي : عَبدَ ، فعَبَدَ ليس معناها أطاع ، بل أَطاعَ وأحبَّ فمن أطاع ولم يحب لم يعبد الله ، فالعبادة هي الحب مع غاية الطاعة .

فأحب وأطاع بمعنى (عَبَدَ) ، مَن المعبود ؟ هو الله ، بعض ما يقوله العلماء حول هذه الكلمة : « **لا معبود بحق إلا الله** » ، من الذي يستحق العبادة ؟ هو الخالق ، إذاً لا خالق إلا الله ، من الذي يستحق العبادة ؟ هو الرازق ، هو المُعطي ، هو المانع ، هو الرافع ، هو الخافض ، هو المُعِزّ ، هو المُذِلّ ، هو الفعّال ، لِمَا يُريد ، هو العزيز ، هو الجبار ، هو القهار ، فإذا قُلت : لا إله أي : لا معبود ؛ من هو المعبود ؟ هو الجبّار ، مَن هو المعبود ؟ هو القوي ، من هو المعبود ؟ هو المسيّر ، من هو المعبود ؟ هو الخالق هو البارىء المصور الرازق المانع هو المعطي الرافع والخافض ، فالذي يستحق العبادة هو الرازق ، إذاً (لا إله إلا الله) : أي : لامعبود إلا الله ، لا رازق إلا الله ، فإذا قُلت : لا إله إلا الله ، أيْ : لا مُعطي ولا مانع ولا رافع ولاخافض ولا مُعِزّ ولا مُذِلّ ولا رازق ولا وهّاب ولا مُغْنٍ ولا مُبْدٍ ولا مُعيد إلاّ الله ، كُلُّ الأسماء الحُسنى إذا جُمعت هي الله ؛ أيْ هو المعبود الحق .

إذاً : أَلَهَ يَأْلَهُ إِلَهَةً وأُلوهَةً أي : عَبَد يَعبُد ، والعبادة هي غاية الخضوع مع غاية الحب ، ولن تُحب ولن تُطيع إلا إذا عرفت الله عزّ وجل ، فالعبادة ثلاث مراحل : معرفةٌ وطاعة مع حب وسعادة .

المعنى الثاني : أَلِهَ ونحن بصددها الآن ، أَلِهَ يَأْلَهُ أَلَهاً أيْ تحَيَّرَ ، الإنسان يتحيّر بمَن ؟ بالصغير أم بالكبير ؟ بالجليل أم بالحقير ؟ بالغني أم بالفقير ؟ فالتحيُّر من معاني العظمة تَحار فيه الألباب تَحارُ فيه العقول تَحارُ فيه النفوس تَحارُ فيه الأفئدة ، إذاً من جهة هو معبود ، فلماذا هو معبود ؟ لأنه خالق ، ولماذا هو معبود ؟ لأنه رازق ، لماذا هو معبود ؟ لأنه فعّال ، لماذا هو معبود ؟ لأنه قوي ، لماذا هو معبود ؟ لأنه مُحيٍ ومُميت ، مُعِزّ ومُذِلّ . .إلخ ، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني : لماذا هو معبود ؟ عظمته تَحارُ فيها العقول أَلِهَ يَأْلَهُ أَلَهاً أيْ : تحَيَّرَ .

والمعنى الثالث : أَلِهَ إليه أي : لجأ إليه يعني : لا ملجأ لك أيها الإنسان إلا (الله) ، فمعنى « لا إله إلا الله » لا معبود ولا عظيم ولا ملجأ إلا الله ، لكن هذه الـ(لا) نافية للجنس ، ما الفرق بين الـ(لا) النافية للجنس والـ(لا) النافية نفياً عادياً ؟

قد تقول مثلاً : لا طالبَ في الصف بل طالبة ، فجنس الذكور ليس موجوداً أما إذا قلت : لا طالبٌ في الصف بل طالبان ، في الحالة الثانية نفيت أنت ماذا ؟ نفيت المُفرد ، فـ(لا) التي تنفي المفرد تُسمى (لا) الحجازية ، أما (لا) التي تنفي الجنس تُسمى (لا) النافية للجنس ، فإذا قال لك أحدهم : هل عندك خُبزٌ ؟ فقلت : لا خبزَ عندي ، فالمقصود لا خبز ولا قمح ولا طحين ، ولا أي شيء من أنواع القمح ، لا خبزَ عندي بل لحم ، أما لا خبزٌ عندي فقد نفيت المفرد ، وقد يكون عندك أجناس القمح ، أما الخبز فقد نفيته وحده .

إذاً (لا إلهَ) تنفي أن يكون في الكون إله غير الله عزّ وجل ؛ بعض العلماء قال : المعنى الأول قاله ابن عباس رضي الله عنه « لا إله إلا الله » أيْ : لا نافع ولاضار ولا مُعِزّ ولا مُذِلّ ولا مُعطيَ ولا مانعَ إلا الله ، هذا التفسير لابن عباس رضي الله عنه ، وبعضهم قال : « لا إله يرجى فضله ، ولا إله يُخاف عدله ، ولا إله يُؤمن جَوْرُه ، ولا إله يُؤكل رزقه ، ولا إله يترك أمره ، ولا إله يُسأل مغفرته ، ولا إله يرتكب نهيه ، ولا إله يحرم فضله ، إلا الله الذي هو رب المؤمنين ، وغفار ذنوب المؤمنين ، وملجأ المؤمنين ، وستار المخطئين ، غاية رجاء الراجين ، ومنتهى مقصد العارفين » .

أنا أتمنى من الإخوة القرّاء الأكارم أن يتحققوا ويتوقفوا مليّاً عند هذه الكلمة ، فهي كلمة الإسلام الأولى ، هذه كلمة التوحيد ، الدين كله مجموع في هذه الكلمة ، قال بعضهم : (لا إله إلا الله) إشارةُ المعرفة والتوحيد بلسان الحمد والتسديد إلى الملك الحميد .

تعلمون أنَّ نهاية العلم التوحيد ، ونهاية العمل التقوى ، أنت إذا وحَّدتَ واتقيت ملكت زمام أمرك ، والحقيقة أنك عندما تُوحِّد وتستقيم فلن تشعر أن هناك جِهات أخرى تملك أمرك ، وإنك موزّع بينها جميعاً . فمتى توحِّد وجهتك إلى الله عزّ وجل ؟ ومتى تعبده وحده ؟ متى تُطيعه وحده ؟ متى تُقبل عليه وحده ؟ متى ترجوه وحده ؟ متى تخافه وحده ؟ متى تطمع بعطائِهِ وحده ؟ إذا أيقنت أنه لا إله غيره .

قضية دقيقة جداً ما دام هُناك شعور بوجود جهة في الأرض بإمكانها أن تنفعك ، أو أنَّ جهةً أخرى بالأرض بإمكانها أن تضرك .

فأنت في هذه الحالة لن تستطيع أن تعبد الله وحده ، لذلك فإن الله عزّ وجل لم يأمُرْكَ أن تعبده إلا بعد أن طمْأنك إلى أنَّ الأمر كله عائد إليه فلا إله إلا الله لك أن تفهمها على النحو التالي : الإله هو المعبود .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

[البقرة : ٢١]

إذاً (لا إله إلا الله) أي لا معبود بحق إلا الله ، من الذي ينبغي أن يُعبد ؟ هو الرازق ، من الذي ينبغي أن يُعبد ؟ هو المُعطي والمانع ، والرافع والخافض ، والمُعِزّ ، والمُذِلّ ، والقوي ، والقهّار ، والجبّار ، فكُلُّ الأسماء الحُسنى بمجموعها تدل على أن صاحب الأسماء الحُسنى يستحق العبادة فهو المعبود ، هذا هو المعنى الأول .

أَلِهَ يَأْلَهُ أَلَهاً : تحيَّر ، هو العظيم : الله عزّ وجل لا نهاية لقوته ، مهما عرفت عنه فهو أعظم ، لا نهاية لجبروته ، لجماله ، لرحمته ، لعدالته لحبه لعباده ، أيْ : منتهى النهايات هو الله .

والمعنى الرابع : وقال بعضهم : (لا إله) للرغبة ، إذا رغبت فالله وحده هو الذي يجب أنْ ترغب فيه ، و(لا إله) للرهبة إلا الله ، وإذا خِفت فينبغي ألا تخاف إلا من الله ، فإذا حدّثتْك نفسك أن تخاف فليس في الكون كله جهة ينبغي أن تخاف منها إلا الله ، وإذا حدَّثتْك نفسك أن تُحب فهناك في الكون أشياء جميلة ، وهناك أشخاص ، وهناك نساء ، وهناك أماكن ، وهناك بيوت ، وهناك مركبات إذا حدَّثتْك نفسك أن تُحب شيئاً يجب ألا تُحب إلا الله .

فالمعنى الرابع ، أي : لا إله للرغبة إلا الله ، ولا إله للرهبة إلا الله ، فهو الذي يكشف الكُربة ، والدليل ما قاله علي رضي الله

عنه : « لا يخافنَّ العبد إلا ذنبه ولا يرجُوَنَّ إلا ربه »[١] . فَحَالَةَ التوحيد مع المؤمن حالة مريحة ، بالعكس حالة التوحيد هي الصحة النفسيّة وخِلاف التوحيد حالة مرضية ، فحينما يشعر شخص أن إنساناً من بني جلدته أمْره بيده وهو لا يُحبه وهو يتمنى تحطيمه ، هذا الشعور وحده شعور مَرَضيّ ، شعور يسحق ، شعور يدمّر ، أنت إذا توهمت أن أمرك بغير يد الله عزّ وجل فهذا الوهم وحده يكفي لِسحق الإنسان ، فيجب إذا أردت أن تُحب ألا تُحب إلا الله ، وإذا راودك خوف فلا تخف إلا من الله ، وإذا أردت أن تعتمد على جهة فلا ينبغي لك أن تعتمد إلا على الله ، وإذا أردت أن تثق بجهة فلا ينبغي لك أن تثق إلا بالله .

كلمة معبود ، تعني لا معبود بحق ، وعلماء السلف الصالح ضغطوا كل هذه المعاني بكلمة معبود ، الذي يستحق العبادة ، هل يستحق العبادة إنسان ؟ إنسان سَيَموت ؛ انسان كان في العَدَم ، ثم حَدث ، ثم سيَنْتهي إلى عدم ، هذا لا يستحق العبادة .

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأَبِي : « يَا حُصَيْنُ كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا ؟ » قَالَ أَبِي : سَبْعَةً سِتَّةً فِي الأَرْضِ وَوَاحِداً فِي السَّمَاءِ ، قَالَ : « فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ ؟ » قَالَ : الَّذِي فِي السَّمَاءِ ، قَالَ : « يَا حُصَيْنُ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَسْلَمْتَ عَلَّمْتُكَ كَلِمَتَيْنِ تَنْفَعَانِكَ » قَالَ : فَلَمَّا أَسْلَمَ حُصَيْنٌ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِيَ الْكَلِمَتَيْنِ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف من قول عليٍّ رضي الله عنه بلفظ : « لا يرجُ عبد إلا ربه ، ولا يخف إلا ذنبه » ، والبيهقي عن علي بلفظ « لا يخاف العبد إلا ذنبه ولا يرجو إلا ربّه » .

اللَّتَيْنِ وَعَدْتَنِي ، فَقَالَ : « **قُلِ اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي ، وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي** » . [رواه الترمذي] .

لا تحتاج أنت إلى آلهة الأرض ، هذا هو سبب الصحة النفسية ، فالإنسان أمره كله بيد جهة واحدة يسعى إليها ، يُرضيها ، يخافها ، يرجوها ، يُطيع أمرها .

هناك نصوص كثيرة حول هذه الكلمة ، كلمة التوحيد ، وهناك أحاديث كثيرة جداً ، كما أن هناك آثاراً عند السلف الصالح كثيرة جداً ، فكلمة التوحيد : « (لا إله إلا الله) لا يسبقها عمل ، ولا تترك ذنباً » [ابن ماجه من حديث أم هانىء] ، فقبل أن تتحقق من أنه لا إله إلا الله أنت في حياتك آلهة كثيرة ، دعْك مما يجب أن يُقال في العالم الإسلامي ، كُن مع الحقيقة ، هناك شخص مثلاً توحيده ضعيف في حياته ، أشخاص كثيرون لهم تأثير عليه ، فإذا توجّه إليهم وسعى إلى إرضائهم ، وخاف من غضبهم ، وعلّقَ عليهم الآمال فهذا هو الشِّرك ، فإذا كنت ترجو زيداً وتخشى عُبيداً ، وتطمع بما عند فلان ، وتخاف من عِلاّن ، فالعمل الصالح الخالص لن يكون لله عزّ وجل .

لا يسبقها عمل ، قبل أن تؤمن بلا إله إلا الله ، عملك مَشوبٌ بالشِّرك ، ترجو غير الله ، وتخاف غير الله ، وتُعلّق الأمر على غير الله ، وإذا تحققت منها لا تترك ذنباً ، لماذا تعصي الله من أجل أن يرضى عنك زيد ؟ ، فَزَيْد بِيَدِ الله .

ولا أعتقد أن أحداً يخفى عليه ما رويته من قبل من أنَّ يزيد بن عبد الملك أصدر توجيهاً إلى والي البصرة عمر بن هبيرة ، وكان عند هذا الوالي حين وصل التوجيه الحسنُ البصري وهو من كبار التابعين ،

فجاء التوجيه مخالفاً لِما يجب أن يكون ، مخالفاً للحق ، فوقع الوالي في حيرة من أمره! هذا الوالي قال للحسن البصري : ماذا أفعل ؟ أجابَهُ بكلمة واحدة تتلخص بكامل التوحيد ، قال له : « **اعلم أن الله يَمْنَعُك من يزيد ، ولكن يزيد لا يمنعك من الله** » .

إذاً هو المعبود بحقٍّ ، فأنت حينما ترى إنساناً يعصي الله ليُرضي فلاناً ، ويُقصّر في أعماله الصالحة ليُرضي زيداً ، ويقترف الآثام ليُرضي عبيداً ، هذا توحيده ضعيف جداً ، إذاً في الحياة اليومية أشخاص يراهم آلهة يراهم يستحقون العبادة ، ويستحقون الطاعة ، ويستحقون الخضوع ، ويستحقون الحب فما هو التوحيد ؟ أن تتخلص مما سِوى الله عزّ وجل مُطلقاً ، لا حباً ولا كراهيةً ، ولا خوفاً ولا طمعاً ، ولا أملاً ولا إرضاءً .

أفضل الذِّكر لا إله إلا الله ، فالعدوُّ لما جاءته المِحنة فَزِعَ إلى هذا الذِّكر ، من هو هذا العدوّ ؟ فرعون ، حينما أدركه الغرق فَزِعَ إلى كلمة التوحيد وقال : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ .

أحياناً الكافر باعتبار أن بين يديه أوراقاً رابحة كثيرة ومنها أن ماله ينقذه ، مركز قوي يُنْقذه ، أتباعه يعينونه ، فهؤلاء كلهم في نظره آلهة ، فحينما يُقدّر الله له شيئاً كريهاً ، وكل هذه الآلهة التي توهّمها لا تستطيع أن تفعل شيئاً ، عندئذٍ يُسْقَط في يده ويندم ويقول : لا إله إلا الله .

قد يظن الإنسان أن المال كل شيء في مقتبل حياته ، لكنه كلما امتد به العمر يرى أن حجم المال يصغُر إلى أن يعدّهُ شيئاً ، ولكن ليس كل شيء فإذا جاء الموت لا يرى إلا الله ، وأن هذا المال عاريّة

مستَرَدَّة ، وأنَّ الله ملَّكه إياه ليتقرّب إليه ، أُريد أن أُوسع معنى الألوهية قال تعالى :

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٣] .

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ ، إذا أحببت شيئاً وعصيت الله من أجله فقد عبدته ، والعوام يقولون : تزوج فتاة يعبدها ، ما معنى يعبدها ؟ يُحبُّها ويثق بها وَيَمْحضها كل إخلاصِهِ فيه وكل طاعته ولو أمرتْه بمعصية ، فالعِبادة كما أقول دائماً غاية الحب مع غاية الطاعة ، فإذا مَنَحت تلك الطاعة وذاك الحب لغير الله عزّ وجل فذاك هو الجهل ، ولذلك فحينما قالوا : نهاية العلم التوحيد ، فعندها ترى أن كل الخلق دُمىً يحركها الله عزّ وجل :

﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٥ـ٥٦] .

فقال : إنّ هذا العدو ، عدو الله عزّ وجل حينما أدركه الغرق لجأ إلى الله وقال :

﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٩٠] .

أمَّا نبيُّ الله سيدنا يونس فحين ابتلعَهُ بطنُ الحوت ، ودخل في ظلمات ثلاث فقال تعالى عنه :

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] .

لماذا قُبِلَت هذه الكلمة من سيدنا يونس ، ولم تُقبل من فرعون ؟

كلاهما في المحنة قال : لا إله إلا الله ، العلماء قالوا : « **فرعون ما عَرَفَ الله قبل المحنة ، لذلك ما نفعته عند المحنة ، سيدنا يونس عَرَفَ الله قبل المحنة فلما جاءت المحنة نفعته هذه الكلمة** » هذا أول فرق ، فرعون ماذا قال :

﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٣ـ٢٤] .

أما يونس فنادى وهو مكظوم :

﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

[الصافات : ١٤٣ـ١٤٤]

إني أدعوك لتلاحظ جميع الناس ، فحينما يقع أحدهم في مأزق ، أو يعاني من مرضٍ عُضال ، أو يتعرض لمشكلةٍ كبيرة ، أو أمامه شبح مصيبة ، ينسى كُلَّ الشركاء ويتجه إلى الله وحده ، فليته عرف هذه الحقيقة وهو في الرخاء! أما حينما تداهمه المصيبة ، وحينما تحدق به مدلهمات الأمور وحينما يُسْقَط في يده فهو لا يرى إلا الله .

حدثني أخ صديق أنّ طائرة تُقِلُّ خبراء من بلاد ترفع شعار « لا إله » أي : الله غير موجود ، مُلحِدون ، فهذه الطائرة مرت بسحابة مكهربة ، وفي أجواء هوائية عاصفة ، وفي طقس قاسٍ فصار بعضهم يقول : يا الله ، والقرآن ذكر ذلك الإنسان الذي إذا ركب البحر ، وهاج البحر وماج ، وأصبحت السفينة العظيمة كأنها ريشة في مهب الرياح ، فعندئذٍ ما رأى إلا الله ، إذاً فواقعياً أنَّ المؤمن يرى أن الله وحده بيده كل شيء ، هذا يؤكده قوله تعالى ، والآية دقيقة الدلالة جداً : ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾[الشورى : ٥٣] .

لنسأل الآن : بِيَدِ مَن كانت الأمور ؟ كانت بيد الله ، ولا تزال بيد الله ، وهي دائماً بيد الله ولكن أهل الدنيا المُعرِضون يرَوْن الأمر بيد غير الله ، أما المؤمن فإنه وهو في الدنيا يرى دائماً أن الأمر بيد الله ، لذلك ماتعلّمت العَبِيد أفضل من التوحيد .

هناك شيءٌ آخر : وهو أنَّ سيدنا يونس قال « **لا إله إلا أنت سبحانك** » بكلمة أنت يخاطبه ، أما فرعون فماذا قال : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ، سيدنا يونس قال : ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ ﴾ وكأنه يرى الله معه ، أما فرعون فسمع أنه يوجد إله لموسى بيده كل شيء ، فلما شرع في الغرق شعَر أن إله موسى هو الذي أغرقه فقال : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ، فذِكرُ ضمير الغائب دليل على أنه غير مُتحقق ، لذلك إعرفْني في الرخاء أعرفْك في الشِدّة ، قُبلتْ (لا إله إلا الله) من سيدنا يونس لأنه كان من المُسبحين ، ولم تُقبل من فرعون لأنه لم يكن من المُسبحين .

حينما تقع في محنة مهما كان مستوى إيمانك ، ومهما كان نوع عقيدتك ، ومهما كان مستوى توحيدك تقول : يا الله! لكن إذا كان إيمانك قبل المحنة عظيماً تقول : يا الله لا إله إلا أنت ، لك عنده رصيد ، لك عنده سابقة عمل صالح ، لك عنده معرفة برحمته ، لك عنده معرفة بعَفوه بقُدرَته بِحُبِّهِ ، قال العلماء : فرعون حينما ذكر هذه الكلمة ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ، ما قالها تعبداً ، بل قالها من أجل خلاصِه ، شتَّان بين من يضطر إلى الإيمان بالله ومن يؤمن بالله طواعية .

إن كل إنسان يعلم أن العالم كان مقسوماً إلى شرق وغرب ، وإلى

أُمم تقدّس الفرد ، وإلى أُمم تقدّس المجموع ، كِلا الفريقين تطرَّفا وعادا إلى الوسط ، والإسلام وسَطي ، لم يعودا إلى الإسلام إيماناً به ولا اعتقاداً بأنه منهج الله عزّ وجل ، ولكن طبيعة الظروف التي رافقت هذا التطرف ألجأتْهم إلى الوسَطيّة ، فالذين آمنوا بالفرد إيماناً مطلقاً على حِساب المجموع اضطروا إلى أنْ يعودوا إلى حقوق المجموع ، والذين آمنوا بالمجموع على حِساب الفرد اضطروا إلى أن يرعوا حقوق الفرد ، إذاً عادوا إلى الوسط هذا معنى قوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ ، ففِرعون حينما قال : لا إله إلا الله قبل أن يغرق قالها ليتخلّص من الغرق ، هذا يُفسّر لنا أن بني إسرائيل حينما خرجوا من البحر رَأَوْا قوماً يعكُفون على أصنام لهم ، قالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ؟ ألم تروا أن البحر أصبح طريقاً يبَساً قال العلماء : إنهم آمنوا بموسى ليتخلصوا من فرعون ، إيمانهم مشوب بمصلحة لذلك أرقى أنواع الإيمان أن تؤمن بأن الله عزّ وجل هو الخالق ويستحق العبادة .

قال بعضهم : إن كل الطاعات يرفعها مَلَكٌ إلى رب العِزة إلا كلمة لا إله إلا الله فتصعد وحدها ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر : ١٠] .

هناك نقطة دقيقة الدلالة جداً « من ازداد علماً ، ولم يزدد هدىً لم يزدد من الله إلا بعداً » كأنّ هناك خطَ العلم وخط الهدى خط العلم أن تقرأ كتاباً وتفهمه وتستوعبه وتحفظه ، أن تستمع إلى محاضرة ، وأن تقف عند دقائقها وخطوطها الرئيسة ، والأدلة التي قيلت حول أفكارها ، هذا هو العِلم : أن تقتبس معلومات ، حقائق ، أفكاراً ، تصورات ، قناعات ، فما هو الهدى إذاً ؟ من ازداد علماً ولم يزدد هدىً ، خط الهُدى مُقصّر عن خط العِلم كأن الهُدى أن تعرف أن الله سبحانه وتعالى : لا إله إلا الله ، لا إله إلا هو ، أنْ توحده وتعبده ، يمكن أن أقول : الدين كله أن توحِّد الله وأن تعبده . في القرآن وردت قصص أنبياء كثيرين ، وكلهم يقول لقومه أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٧٣] .

هذه الآية وردت مكررةً عشر مرات أو أقل : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ ، فصار ديننا أن تؤمن أنه لا إله إلا الله وأن تعبده ، نهاية العلم التوحيد ، ونهاية العمل طاعة الله عز وجل .

يقال إن العبد إذا قال : لا إله إلا الله أعطاه من الثواب ما كان مقسوماً لكل كافر وكافرة من الجنة لو أنهما لم يكفرا ، والسبب أنه عندما قال هذه الكلمة فكأنه قد رد على كل كافر وكافرة فلا جرم أن يستحق الثوابَ ، ماذا أمرنا الله عزّ وجل بالقرآن ؟

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ [محمد : ١٩] .

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ والعِلم يقتضي البحث والدرس ، واليقين والتدقيق والتمحيص ، واستحضار الأدلة وانتهاء بقناعة ثابتة ، أما الذي يبقى علمه في ترددٍ وفي شك ، فهذا ليس علماً :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] .

بعضهم قال في تفسير :

﴿ حم (١) عسق ﴾ [الشورى : ١ـ٢] .

الحاء حلمه وحكمه وحجته ، والميم ملكه ومجده ، والعَين عظمته وعلوه وعزته وعلمه وعدله ، والسين سناؤه وسره ، والقاف قهره وقدرته ، كأن الله تبارك وتعالى يقول : بحلمي وحكمتي وحجتي ، ومجدي وملكي ، وعظمتي وعدلي وعلمي ، وعزتي وعلوي ، وسري وسنائي ، وقدرتي وقهري ، لا أعذب في النار من قال : لا إله إلا الله ، لماذا لا يعذب ؟ لأنه عرف أن الأمر كله بيد الله عزّ وجل فاستقام على أمره ،خلاصة هذا الدين أن عرف أن الأمر كله راجع إليه .

بالمناسبة أذكر للقراء الكرام بعض آيات التوحيد فهناك في القرآن آيات في التوحيد رائعة في الدلالة والبيان فمنها قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٢٣] .

وقوله تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

﴿ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ هذه الآية دليل على فكرة دقيقة جداً ؛ أنه لا يوجد في الكون شرٌ مُطلق ، ومعنى الشر المُطلق الشر المُراد لذاته .

أيضاً :

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٦] .

وقوله تعالى :

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ١٧] .

وقوله تعالى :

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : ٦٢] أيُّ شيءٍ خَلقَه أمره عائد إليه .

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١] .

وقوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [العنكبوت : ٢٢] .

وقوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

وقوله تعالى :

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان : ٢٢] .

وقوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد : ٤١] .

وقوله تعالى :

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر : ٢] .

وقوله تعالى :

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل : ٦٣] .

وقوله تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف : ٨٤] .

وعَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ كَرِيزٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ** » [موطأ مالك] .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ : « يَا

غُلامُ إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » [رواه الترمذي] .

فإذا قام الإنسان بجمع الآيات التي في التوحيد وحفظها ، فهذا كنز قرآني كبير يبثُّ في المرء الاطمئنان ، ويدرأ عنه أسباب الخوف دائماً فلا يشعر أن جهة في الأرض يمكن أن تلحق به الأذى ، وإذا شعر أن الله وحده بيده كل شيء ، وهو رحيم غني ، ودود ، قدير عليم ، فهذا الشعور مُسعد ومُطمئن .

من فوائد هذه الكلمة أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول : إذا أقعد المؤمن في قبره أتي ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ . [البخاري] عن البراء .

ـ إن الله تعالى قد حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله . [متفق عليه] عن عتبان بن مالك .

ـ ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصاً إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنبت الكبائر . [الترمذي] عن أبي هريرة .

إذاً فالشيء المخيف جداً وهو القبر ، الشيء المخيف حقاً الوحشة والغربة في القبر ، ألم يقل المولى عز وجل :

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٦] .

من ستة آلاف سنة : يعرضون عليها غدواً وعشياً ، أما أهل (لا إله إلا الله) فلا وحشة في قبورهم ، والقبر المُخيف يغدو روضة من رياض الجنة ، لماذا ؟ لأنهم عرفوا الله فاستقاموا على أمره ، ووحّدوه فاستقاموا على أمره .

كثيراً ما كنت أضرب المثل التالي : دخلت إلى دائرة حكومية فيها مئة موظف ومعك معاملة ، لن يستطيع أحد أن يكتب لك : موافق ، وتأخذ ثمار هذه المعاملة إلا المدير العام ، فهل يمكن أن تتجه إلى غيره ؟ كأنْ ترجو آذِناً أو أن ترجو موظفاً بسيطاً ؟ مادامت صلاحية التوقيع للمدير فقط فأنت تتجه إليه وحده ، وما أكثر ما ذكرت أن الله قال :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨] .

ومن الممكن أن يكون لك مبلغٌ كبيرٌ في مدينة ، وأن تركب القطار الذي يوصلك للمدينة ، ويمكن أن ترتكب ألف غلطة في القطار ، لكن القطار في طريقه إلى المدينة ، وسوف يصل في الوقت المحدد ، وسوف تقبض هذا المبلغ ، قد تركب في الدرجة السادسة ، وتكون ابتعت بطاقة من الدرجة الأولى ، قد تختار عربة فيها شبان أخلاقهم شرسة ، قد تركب في جهة مخالفة لجهة سير القطار ، هذا ممكن! قد تُحِس بالجوع الشديد ولا تدري أنه في بعض القاطرات مطعم ، هذه كلها غلطات ، ولكن القطار في طريقه للمدينة ، وسوف يصل في الوقت المناسب ، وسوف تقبض هذا المبلغ .

إذاً : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ

بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ ، لكن هناك غلطة لا تُغتفر كأن تتجه إلى قطار خط سيره باتجاه معاكس ، ولا يوصلك إلى هذه المدينة المطلوبة ، أو قطار متوقف لا علاقة له بالحركة أبداً ، هُنا المشكلة فالشِّركُ بالله خطير ، فلماذا خطير ؟ لأنك تتجه إلى ما سِوى الله عزّ وجل ، وما سِوى الله لن يغني عنك شيئاً ، فلماذا الإيمان إذاً عظيم ؟ لأنك تتجه إلى من بيده كل شيء .

إذاً : إذا أردتم أعزائي القراء الكرام التفصيل ففصلوا ، وإذا أردتم الإيجاز فأوجزوا الإيجاز : « **لا معبود بحق إلا الله** » ، لا يستحق أحد أن تعبده إلا الله ولا إله إلا الله ، نهايةُ العلم ، وطاعتُه نهايةُ العمل :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ أَوْ يُمْسِي : اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ ، وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلائِكَتَكَ وَجَمِيعَ خَلْقِكَ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لا إِلَهَ إلا أَنْتَ ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ ، أَعْتَقَ اللهُ رُبُعَهُ مِنَ النَّارِ ، فَمَنْ قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَعْتَقَ اللهُ نِصْفَهُ ، وَمَنْ قَالَهَا ثَلاثاً أَعْتَقَ اللهُ ثَلاثَةَ أَرْبَاعِهِ ، فَإِنْ قَالَهَا أَرْبَعًا أَعْتَقَهُ اللهُ مِنَ النَّارِ** » [رواه أبو داود] .

ينقذه من النار ، في الحقيقة بالعصور الأخيرة صرت تسمع كلاماً ليس له معنى ، وصارت هناك شهادات مزوّرة ، أما في الأصل حينما تشهد أنه لا إله إلا الله فمعنى هذا أنك تراه رؤية حق ، وتؤمن به إيمان صدق ، وعندئذٍ تُطبّق أمر الله عزّ وجل ، وإذا كان آخر الزمان لم يكن لشيء من طاعة الناس فضل كفضل لا إله إلا الله ، لأن صلاتهم وصيامهم يشوبها أنواع من الرياء والسمعة ولا إخلاص في شيء منها ، أما كلمة « لا إله إلا الله » فهي ذِكرُ الله ، قال ﷺ : « أفضل الذكر لا إله

إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله » . والمؤمن لا يذكرها إلا من صميم قلبه ، هذه من فوائد لا إله إلا الله ، والحقيقة أن الإنسان كي ينال شهادة علمية فلابُدَّ أن يبذل جهداً ملموساً ولذلك ، فلكي يتحقق من هذه الكلمة لابُدَّ من بذل جهد وعناء ، فإنسان دون جهد ودون تضحية بجزء من وقته الثمين ودون متابعة وتأمل وبحث فلن يصل إلى الإيمان بهذه الكلمة ، وإن لم يؤمن بها حقاً فعمله مشوب بالشِّرك :

﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤] .

متى يعصي الانسانُ الله عز وجل ؟ إذا رأيت شيئاً دون رضاه هو أثمن من رضاه ، فمثلاً مَن يقول : (الله أكبر) ، ويعصي ربه كأن أطاع زوجته وعصى ربه ، فرؤيته القلبية أنّ رضاها أثمن من رضا الله عزّ وجل ، حينما تُؤْثِر شيئاً مما سوى الله على طاعة الله فأنت ترى هذا الشيء أكبر من الله لأنك جعلت إرضاء الله في الدرجة الثانية ، وإرضاء هذا الشخص عندك أحق وأولى ، فكلما تحقق الإنسان من كلمة لا إله إلا الله انضبط عمله واستقامت رؤيته وصحت .

كلمةُ التوحيد هذه هي شِعار الإسلام ، وهذه الكلمة التي يقولها الإنسان إذا دخل في الإسلام (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فيها التوحيد ، والإيمان بالرسالة ، ثم الطاعة ، والإيمان بأنه « لا إله إلا الله » ، والإيمان برسالة النبي ﷺ ، ثم عبادة الله من خلال طاعة الله ورسوله ، ثم يستقيم على ذلك ما عاش ، فهذا هو الدين .

بقيت لدينا في البحث نقطة ذات بعد عملي تتلخص فيما يلي :

إذا رأيت المُستقيم قد أكرمه الله ، ورأيت المُرابي محَقَه الله ، ورأيت المُنحرف المُعتدي دمَّره الله ، وإذا رأيت أن هناك أفعالاً مؤداها العدالة فهذا شيء يمكن أن يُرسّخ إيمانك(بلا إله إلا الله) فإيماننا يزداد بهذه الكلمة عن طريق التفكُّر في الكون أولاً ، وعن طريق تدبُّر آيات الله ثانياً ، وعن طريق النظر في أفعال الله ثالثاً .

إلا أن التحفُّظ في آخر هذا البحث هو : أن الله سبحانه وتعالى جعل الدنيا دار عمل ، وجعل الآخرة دار جزاء ، أما إذا جازى المسيء في الدنيا فهذا جزاء ردعي لبقية المسيئين ، وإذا أكرم المُحسن فهذا إكرام تشجيعي لبقية المُحسنين ، لكن الحساب الكامل نجده في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

* * *



الاسم هو النور ، النور من أسماء الله الحسنى التي وردت في أحاديث رسول الله ﷺ .

في اللغة النور هو الضوء أياً كان ، لا نحب أن ندخل في تفسير النور العلمي الذي يعني : الإشعاع ، وهو تفاعل في بنية الذرة ، موجات تخرج من الذرة إلى الفضاء ، وكيف أنَّ الجسم إذا سارَ بسرعة الضوء أصبحت كتلته صفراً وحجمه لا نهائياً ، هذه موضوعات في الفيزياء لها مجال آخر .

على كُلٍّ في اللغة النور هو الضوء أياً كان ، أو شعاعه ، موجاته أو سطوعه ، تألُّقه ، هناك موجات لا تُرى بالعين ، النور هو الضياء والسناء الذي يُعين على الإبصار ، أنتم موجودون ، ولكم أعين ولكن هذه الأعين لا قيمة لها دون هذا الضوء الذي يُعَدّ وسيطاً بينكم وبين المرئيات ، النور والضياء والسناء الذي يُعين على الإبصار .

النور نوعان : دنيوي وأخروي .

الدنيَوي نوعان :

١ـ معقول بِعَيْن البصيرة .

٢ـ محسوس بعَيْن البصر .

معقول بعين البصيرة : أحياناً تكون الفكرةُ الواضحةُ أو الأسلوب الذي تَعلَّمه الإنسان في حل المشكلات ، يُعَدّ نوراً مجازياً ، أحياناً يعاني إنسان من مشكلة في آلة وعنده خبرة ، يجعل هذا الشيء مكان هذا الشيء ، ويصل هذا الشيء بهذا الشيء فتعمل هذه الآلة ، هذه الخبرة التي يملكها ، أو هذا الأسلوب الجاهز في حل هذه المشكلة يمكن أن نسميَه نوراً .

فالنور نوعان : نور معقول بعين البصيرة ، قد يواجه الإنسان مشكلة لا يستطيع أن يفعل شيئاً إزاءها كأنه في ظلام ، ثم تلمع في ذهنه فكرة فتحل تلك المشكلة بهذه الفكرة ، فإذا شبهناها بالنور فالتشبيه صحيح ، فالنور معقول بِعَين البصيرة ، ومحسوس بعين البصر ، مِن هنا قالوا العلم نور ، العلم يحرسك ، وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالإنفاق .

العقل نور ، القرآن الكريم نور ، أوضح مَثلٍ قارورة تحوي مادة كيميائية أنت لا تعرف هذه المادة ، يا ترى أهي مادة تلتهب! ؟ تنفجر! سامة! مادة مؤذية! نافعة! مخدّرة! مسرطنة! مادة في قارورة إذا كُتب على هذه القارورة لُصاقة كلور الصوديوم ، هذه الكلمة كأنها نور ، كأن شيئاً لا تراه سلّطت عليه ضوءاً فعرفته ، كذلك هذه اللُّصاقة نور ، فالنور مادي : محسوس ؛ معنوي ؛ معقول .

المحسوس كنور القمر وضوء الشمس ، ومن النور المعقول قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ [المائدة : ١٥] .

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ ﴾ ، الإنسان خُلق في الأرض ، لماذا خُلق ؟ ماذا يجب أن يفعل ؟ أيأكل ويشرب وينام وانتهى الأمر ؟! أم عليه مهمة لا يعرفها ؟ متى يموت ؟ لماذا يموت ؟ لماذا يعيش ؟ يُحسن ، يُسيء ، يصدق يكذب ، يُؤتَمن يخون ، ماذا يفعل ؟ يأتيه كتاب من الله يقول له : أنت خُلقت لجنة عرضها السموات والأرض ، أنت خُلقت في الدنيا لتعمل عملاً صالحاً يدخلك الجنة ، أنت لا يُسعدك إلا أن تتصل بالله عزّ وجل ، لا تَسلم إلا إذا أطعت الله ، لا تسعد إلا بالتقرب إلى الله ، الله الذي خلق السموات والأرض هو إلهٌ عظيم ، ربٌّ كريم ، سميعٌ بصير ، عليم قوي ، مُجيب ، هذا القرآن عرّفك الله ، عرّفك الكون ، عرّفك حقيقة الحياة ، عرّفك حقيقة الإنسان ، قال لك افعل ولا تفعل ، بيَّنَ لك الحلال والحرام ، الخير والشر ، الحق والباطل ، ما ينبغي وما لا ينبغي ، نشأةُ العالَم ومصيرُ العالَم ، تاريخ الأمم والشعوب ، قصص الأنبياء ، مشاهد يوم القيامة .

إنّ النور للمؤمن يورثه راحة لا يعرفها غيره إطلاقاً ، كل الأمور واضحة عنده جلية ، كل شيء واضح ، يعرف أن لهذا الكون خالقاً ، ويعرف أن لهذا الكون مربّياً ، ولهذا الكون مسيِّراً ، وأن الله موجود وواحد وكامل ، وأنَّ أسماءَه كلها حُسنى ، وأنَّ صِفاتِه كلها فُضلى ، وأنَّ الله عزّ وجل سميعٌ قريب ، مجيبٌ رحيم ، ودود ، الدنيا مزرعة الآخرة ، الإنسان يسعد بطاعة الله ، يشقى بمعصية الله ، هذا الكتاب الذي بين أيدينا يقدِّم لنا راحة لا تُعدّ ولا تُحصى ، ولا تُوصف ، راحة التوازن ، أحياناً يعتري الإنسانَ غموضٌ فيبقى في قلق منه ، فإذا اتضح تبدد القلق ، فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة : ١٥] .

هذا الكتاب هو النور ، أحياناً تشتري آلة ولها تعليمات ، مثلا : اضغط على المفتاح يحدث كذا ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، فتظهر على الشاشة هذه الكلمة ، افعل كذا افعل كذا ، كأنك تمشي على طريق واضح مستقيم ، فذلك القرآن الكريم نور ، ومن النور المحسوس ذاك ، والنور المعقول القرآن الكريم فهو نور معقول ، فمن المحسوس كما علمت قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٥] .

﴿ جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ ، والإنسان قد يقف عند الشمس قليلاً ، يُقدّر علماء الفلك أن عُمر الشمس لا يقل عن خمسة آلاف مليون عام ، وأنها لن تنطفىء قبل خمسة آلاف مليون عام ، وأنها تُصدر من الطاقة الحرارية والضوئية ما لا سبيل إلى وصفها ، فبيننا وبين الشمس مئة وستة وخمسون مليون كيلو متراً ، ومع ذلك لا تستطيع أن تتعرض لأشعة الشمس طويلاً في الصيف ، فكيف أشعتها هناك ؟ لِسان اللهَب لا يقل عن مليون كيلو مترٍ ، الحرارة ستة آلاف درجة على سطحها ، في حين أن في مركزها عشرين مليون درجة ، هذه تتسع الحرارة لمليون وثلاثمئة ألف أرض ، وكنت أذكر دائماً أنَّ في بُرج العقرب نجماً أحمر اللون اسمه قلب العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس : ٥] .

مَن أبدع أصل النور ؟ الله عز وجل .

إنَّ النور تفاعُل يجري في مادة في بُنيتها النووية ، هذا التفاعل يُنتج موجات ، هذا النور ينتشر ، هل له وزن ؟ ليس له وزن ، حجمه لا نهائي ، كتلته صفر ، بل إنَّ بعض علماء الفيزياء يقولون : إنَّ أيَّ جسم لو سار بسرعة الضوء ، ـ الضوء سرعته ثلاثمئة ألف كيلو متراً بالثانية ـ أيُّ جسم ، لو أتينا بكتلة حديد استطعنا أن نقذفها بسرعة الضوء فتصبح نوراً ، وكتلتها صفر ، وحجمها لا نهائي ، موضوع النور يحتاج إلى جلسات علمية خاصّة .

على كلٍّ النور المحسوس كضوء الشمس والقمر ، فنورهما نور محسوس ، والقرآن الذي فيه تعليمات الصانع نور معقول ، التعليمات النظرية نور ، البيان نور ، الدليل نور ، التفصيل نور ، التوجيهات نور ، أحد العلماء الكبار له تفسير عميق للنور : فهو يعرف النور في حق الله تعالى بأنه ظاهر ، النور شيءٌ ظاهر ، أحياناً ضوءٌ صغير جداً ضئيل جداً في الظلام الدامس يكون ظاهراً جداً ، فالنور الشيء الظاهر . أيُّ شيء ليس له إشعاع ليس ظاهراً ، أحياناً يقود الإنسان سيارته بالليل يصدُر ضوءاً عالياً ، يرى نُقاط مُضيئة في بعض الحيوانات هي عيونها ، فالنور الشيء الظاهر ، لذلك قيل : « **هو الظاهر الذي به كل ظهور ، ظاهر مُظهِر** » ، لعلَّ النور الخافت جداً ظاهر لكنه ليس مُظهراً ، أحياناً قطعة فحم متأججة واضحة لكن هذه القطعة المتأججة لا تنير غرفة ، أما المصباح الكهربائي فينير غرفة .

وقيل أيضاً : النور هو الشيء الظاهر الذي به كل ظهور ، فالنور هو الشيء الظاهر في نفسه المُظهر لغيره ، مصباح تُسلِّطه على مكانٍ فترى السُّجاد والكُرسي والقلم والورقة والمِحبرة والمُسجّلة ، فهذا

المصباح أظهر غَيْرَهُ ، ثم يقول هذا الإمام : العدم ظلام والحادِث نور ، الشيء الموجود نور ، والمعدوم ظلام ، هذا معنى أعمق .

من لوازم الشيء الموجود أنه ظاهر مُنير ، من لوازم الشيء المعدوم أنه مُختفٍ ، قال : مهما قوبِل الوجود بالعدم كان الظهور علامة الوجود ، والخفاء علامة العدم ، إذا قابلنا الوجود بالعدم كان الظهور علامة الوجود ، والخفاء علامة العدم ، وقال : ولا ظلام أظلم من العدم ، فالمُنَزَّهُ عن ظلمة العدم ، بل عن إمكان العدم ، المُظهر لِكُلّ الأشياء من ظلمة العدم إلى نور الوجود يُسمى نوراً ؛ وهو الله المُنزَّه عن ظلمة العدم ، بل عن إمكان العدم ، الظاهر لنفسه المُظهِر لغيره من ظلمة العدم إلى نور الوجود يسمى نوراً وهو الله عز وجل ، وهو معنى قوله تعالى :

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٣٥] .

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ظاهر بذاته ، مُظِهرٌ لغيره ، ظاهر بذاته ، مُنزَّه عن العدم ، بل عن إمكان العدم ، مُظهرٌ غيرَه من ظُلمة العدم إلى نور الوجود ، إنَّ الذات الظاهرة المُظهرة هي النور وهي الله عزّ وجل ، والوجود نورٌ فائض على الأشياء كلها من نورِ ذاته ، إذاً هو نور السموات والأرض .

النور الهادي الرشيد الذي يُرشد بهِدايته من يشاء فيُبين له الحق ، ويُلهمه اتباعه ، هُناك أشياء عويصة جداً ، يأتي مُخترع فيُعمِل ذهنه

سنوات طويلة ، وفجأة تلمع أمامه فِكرة جديدة ، هذه الفِكرة التي لمعت أمامه في رأي أهل الدين من إلهام الله عزّ وجل ، لأنَّ الله نور وقد قذف في قلبه وذهنه هذه الحقيقة فالتَمَعَتْ ، فسُمِّي عند الناس مُكتشفاً أو مُخترعاً ، وفي الحقيقة لقد تلقّى هذه الومضة من الله عزّ وجل .فالاختراع إذاً بارقة .

حدثني صديق عما يُسمّى زَرْعَ الأسنان ، جسم الإنسان كما تعلمون يرفض الأجسام الغريبة ، مرةً وضع عالمٌ مِلقطاً من معدن معين على قطعة عظم ونسيه في المخبر ، بعد حين التأم العظم حول المعدن فانتبه هذا العالم إلى أن هذا المعدن يمكن أن يدخل في فك الإنسان ويلتئم النسيج العظمي حوله ، هذه بارقة ، فلقد أمكن الآن زراعة الأسنان بأن نضع وَتَداً ضمن الفك فنبني عليه سِناً ، فهذه إذاً بارقة ، نظر هذا العالم إلى هذا المِلقط وقد وُضع على قطعة عظم بعد حين نما العظم عليه ، لذا يقولون : إن الاختراع أو الإبداع قفزة في المجهول ، لمعة في الذهن ، إلهام من الله عزّ وجل ، والدليل كما قال الله عزّ وجل :

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس : ٦٩] .

نفى عن نبيه الشِّعر ، بالمعنى المُخالف من أن الذين يُبدعون الشِّعر يُلهَمون من الله عزّ وجل ، معنى ذلك أنَّ كُلَّ اختراع ، وكُلَّ اكتشاف هو في الحقيقة إلقاء من الله عزّ وجل في ذهن هذا العالم كبارقة أو ومضة ، إلاّ أنَّ هذا الإلقاء يحتاج إلى ثمن ، الثمن هو الصدق في البحث ، لذلك قال بعض العلماء : العبقرية تسعة وتسعون بالمئة منها جهد وعرق ، وواحد بالمئة إلهام ، فثمن هذه البارقة ،

ثمن هذه الومضة ، ثمن هذه الفكرة الرائعة ، ثمن هذا الاكتشاف هو البحث الدؤوب ، فالبحث الدؤوب هو ثمن هذا الاختراع .

وهذا ينتهي بنا إلى معنى آخر ، هو معنى الصدق ، الله عزّ وجل لا يتعامل مع الناس بتمنياتهم ، ولكن يتعامل بصدقهم وإخلاصهم ، قال ابن عباس : « **هادي السماوات والأرض** » ، لو أن إنساناً أضاع إبرة في الليل ولا يوجد ضوء فلَن يراها في الليل ، أما في النهار فسوف يراها لأنه اهتدى بنور الشمس ، إذا اهتديت إلى حقيقة الإنسان وإلى سِرِّ وجوده وإلى غاية وجوده ، فمن الذي هداك ؟ هو الله ، إذاً الله نور وهو الهادي لا يَعْلَم العباد إلا ما علَّمهم الله عزّ وجل ، ولا يُدرِكون إلا ما يَسَّر الله لهم إدراكه ، النور هو الظاهر الذي ظهر به كل ظهور ، فإن الظاهر في ذاته المُظهر لغيره يسمى نوراً وهو الله عزّ وجل .

قال بعض العارفين : « **النور هو الذي نوَّر المعالم فأوجدها من العدم** » ، فنقلُ الشيء من العدم إلى الوجود نور ، وخصّصها بِتِلك المواهب في حضرة القِدم ، الشيء له خصائص ، كُلُّ نبات ، كُلُّ حيوان ، كُلُّ جماد ، كل المعادن ؛ لها خصائص ، الله عزّ وجل الذي أبدعها من عدم وأظهرها إلى حيِّز الوجود وأعطاها خصائِصها :

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾

[طه : ٤٩-٥٠]

الذهب مثلاً لا يتأثر بِكُل العوامل المحيطة به لا بماء ولا بملوحة ولا برطوبة ، ولا يتأكسد ، ولا يتأثر .

قرأت مقالة عن سفينة غَرِقَتْ قبل مئة وعشرين عاماً ، وعليها خمسة أطنان من الذهب استطاعوا أن يصلوا إليها الآن ، وأن

يستخرجوا تلك السبائك ، ولما استخرجت هذه السبائك نظرت إلى صور السبائك فكأنها صُبَّت الآن ، مئة وعشرون سنة في قاع البحر والذهب هو هو لم يتأثر ، الله عزّ وجل أعطى الذهب خصائص ، أعطى الماس خصائص ، أعطى الفضة خصائص ، أعطى الرصاص خصائص ، أعطى الحديد خصائص ، هناك شيء جديد ، بالنور أَظهَر وخَصّص . الحديد لا يُصهر إلا في ألف وخمسمئة درجة ، لكن الرصاص يُصهر في مئة درجة ، على موقد عادي ينصهر معدن الرصاص فكُل معدن ظهر وخُصِّص نُقِلَ من العدم إلى الوجود فأُعطيَ خصائصه ، والنور هو الذي نوَّر الموجود الظاهر بالشمس والكواكب ، ونوَّر عالم الأرواح برسول الله ﷺ ، أحياناً تجد إنساناً موصولاً بالله عزّ وجل تشعر بأُنسٍ معه وبسرور كأنه يُنعِشُك ، هذا نور الله عزّ وجل ، الله عزّ وجل خلق نوراً محسوساً نور الشمس والقمر ، وفي الليل عندنا إضاءة اصطناعية ، لكنه إذا تجلّى على قلب الإنسان تألّق هذا القلب ، طبعاً هناك آيات ، وأدعوك ألا تقبل مني شيئاً ما دون دليل :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال : ٢٩] .

وقال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد : ٢٨] .

فإذا طلبت مني أن أوجز الدين كله في كلمة قلت : المؤمن ذو نور ، والكافر أعمى ، قال الله :

﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم : ٨] .

أما هؤلاء الكفار فهم في ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، فالكافر في ظلام :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤] .

ما كان أعمى العينين في الدنيا ؛ فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ، نوَّر القلوب برسول الله ﷺ لذلك :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

الذي شعر به أصحابُ رسول الله من رسول الله ﷺ شيءٌ لا يوصف كانوا إذا جلسوا معه ارتاحت قلوبهم ، واطمأنت نفوسهم ، وكأنهم في جنة .

عَنْ أَبِي عُثْمَانَ عَنْ حَنْظَلَةَ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرْنَا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ حَتَّى كَانَا رَأْيَ عَيْنٍ فَقُمْتُ إِلَى أَهْلِي فَضَحِكْتُ وَلَعِبْتُ مَعَ أَهْلِي وَوَلَدِي فَذَكَرْتُ مَا كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ يَا أَبَا بَكْرٍ نَافَقَ حَنْظَلَةُ ، قَالَ : وَمَا ذَاكَ ؟ قُلْتُ : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرْنَا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي فَضَحِكْتُ وَلَعِبْتُ مَعَ وَلَدِي وَأَهْلِي فَقَالَ إِنَّا لَنَفْعَلُ ذَاكَ ، قَالَ : فَذَهَبْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ : « يَا حَنْظَلَةُ لَوْ كُنْتُمْ تَكُونُونَ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا تَكُونُونَ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ وَأَنْتُمْ عَلَى فُرُشِكُمْ وَبِالطُّرُقِ . يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً » [رواه ابن سعد] .

فالله نور ، إن اتصلت به أخذت من نوره المعنوي ، وشعرت براحة ، لك رُؤية صحيحة ، الأمر كله ؛ أنَّ إنساناً مؤمناً يرى رؤية صحيحة وإنساناً كافراً أعمى ، فالأعمى في متاهة ، والذي يرى رؤية صحيحة يتحرك على هُدى من ربه ، قال العلماء : نوَّر الله عالم الأرواح برسول الله ﷺ ونوَّر القلوب بأنوار العلوم ، ونوَّر العارفين بأنوار التجليّات ، النور هو الذي نوَّر قلوب الصادقين بتوحيدهم ، ونوَّر أسرار المحبين بتأييده ، وقيل : هو الذي حسَّن الأبشار بالتصوير ـ فأعطاك شكلاً جميلاً ـ والأسرار بالتنوير ، وقيل : هو الذي أحيا قلوب العارفين بنور معرفته وأحيا نفوس العابدين بنور عبادته ، وقيل : هو الذي يَهدي القلوب إلى إيثار الحق واصطفائه ، ويَهدي الأسرار إلى مناجاته واجتبائه قال الله :

﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٣٥] .

المشكاة : كُوَّةٌ في الجدار ، فيها مصباح ، المشكاة هي الصبر والمصباح هو القلب ؛ لا قلب الجسد بل قلب النفس :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] .

﴿ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ .

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينوِّر قلوبنا بنوره ، المؤمن رؤيته واضحة تماماً مُرتاح من أيِّ مشكلة يُحسن التصرف ، يملِك زِمام

الأمر ، ينظر بنورٍ ساطع يكشف دقائق الأمور وملابسات الحوادث ، يقف الموقف السليم ، ينطِق بالكلمة المُناسبة ، يفعل الفِعل المناسب ، مرتاح ويُريح الآخرين ، الإنسان إذا كان في عمىً أساء التصرف ، أساء الكلام وأساء الحركة وأساء الموقف ، يتخبّط خبطةَ عشواء ، وهذا كله واضح .

قال بعض العارفين : « **النور معناه الظاهر في نفسه ، بوجوده الذي لا يقبل العدم ، المظهر لغيره بإخراجه من ظلمة العدم إلى نور الوجود ، وجوده سبحانه وتعالى نورٌ فائض على الأشياء كلها ، وهو الذي مدَّ جميع المخلوقات بالأنوار الحِسيّة والمعنوية ، فعينك تحتاج إلى نور حسي ، وقلبك يحتاج إلى نور الوحي** » .

لقد وصلنا إلى موضوع أنا أَعُدَّهُ من أخطر الموضوعات ، فأنت لك عين ترى بها الأشياء ، ولك عقلٌ تُدرك به الحقائق ، فإذا قُلت لك : المعادن تتمدد بالحرارة ، فأنت ترى ميزان الزئبق ، ضع يدك عليه فالخط يرتفع ، وترى بعينك أنَّ هذا المعدن الرجراج الزئبقي يتمدد بالحرارة ، لكن تقول : رأيت العِلم نافعاً فكيف ترى العِلم ؟ لا يُرى بالعَين لكن ترى إنساناً مُتعلماً مُتَّزناً يُحسن التصرّف حكيماً سعيدًا في بيته يُحسن معاملة زوجته ، يُحسن كسب المال ، يُحسن معاملة الناس ، مورده المالي حلال ، تراه صادقاً أميناً محبوباً مُعززاً مُبجلاً ، لأنه مُتعلّم ، لأنه حصّل عِلماً دينياً ، لأنه عَرَفَ الله عزّ وجل فهو في سعادة ، فتقول إذاً رأيت العِلمَ نافعاً ، أما إنْ رأيت معدن الزئبق يتمدد فهذه رؤية حِسيّة ، أما رأيت العِلمَ نافعاً فهذه رؤية قلبية .

لذلك رأى نوعان : القلبية تتعدى إلى مفعولين ، والحسية تتعدى إلى مفعول واحد ، رأيت الشمس ساطعةً ، ماذا تُعرب كلمة ساطعةً ؟ حال ، رأيت العِلمَ نافعاً ، ماذا تعرب نافعاً ؟ مفعول به ثانٍ ، لأنَّ رَأى القلبية تنصب مفعولين ، لكن رأى البصرية تنصب مفعولاً به واحداً ، والاسم المنصوب الثاني يُعدُّ حالاً ، فالرؤية الحسية أساسُها ضوء الشمس أوالقمر أوالكهرباء ، والرؤية العقلية المعنوية أساسُها نور الله عز وجل .

شكَوْت إلى وكِيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأنبـأنـي بـأن العلـم نـور ونـور الله لا يُهـدى لعـاصـي

إذاً أنت بحاجة إلى نور الشمس ، لترى عَينك الأشياء ، وأنت بحاجة إلى نور الله ليعرف عقلك حقائق الأشياء ، ماذا نستنبط من هذا ؟ أنَّ الإنسان مهما كان ذكياً ، مهما كان عبقرياً ، مهما كان ألمعياً ، إن لم يستعن بنور الله ، فهو في عمى ، لذلك تجد بعض الناس وهُم في أعلى درجات الذكاء يرتكبون حماقات لا توصف . وبعض العلماء يرى أن الله تعالى سمَّى نفسه نوراً لأنَّ منه النور ، هو منوِّر الآفاق بالنجوم والأنوار ، ومنوِّر الأبدان بآثار العبادات ، ومنوِّر القلوب بالدلائل والحُجج .

سبحان الله! فإذا اتصل الإنسانُ بالله عز وجل وجدت على وجهه نوراً وقد يكون ملوناً ، لكن يوجد نور في وجهه ، فالنور الذي في وجه الإنسان ـ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ـ بعضهم يفهم أن في جبهته أثراً ، لا ، ثُمَّ لا ، كان النبي عليه الصلاة والسلام له وجه كالشمس ، وتَصف بعض الأحاديث الشريفة أن الواحدة من الحور

العين لو أطلّت على أهل الأرض لَغَلَبَ نور وجهها ضوء الشمس والقمر .

ثم ها نحن قد انتهينا إلى معنى ثالث ، وهي أن العِبادة تُكسب الوجه نوراً ، لذلك :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢-٢٣] .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [عبس : ٣٨-٤٢] .

إذاً العبادات تنوِّر الوجه .

قالوا : الطاعة هي زينة النفوس والأشباح ، والمعارف زينة القلوب والأرواح ، والله عزّ وجل يزيد قلب المؤمن نوراً على نور ، يُؤيده بنور البرهان ، ثم يؤيده بنور العرفان ، قال تعالى :

﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٣٥] .

لتعلم أن هناك برهانًا بيانيًا ، كما أنَّ هناك عرفاناً إشراقياً ، أنت ممكن أن تعرف أن هذه المادة كلور الصوديوم من لصاقة ، لكن هناك من يعرف هذه المادة دون لُصاقة ، هذه أرقى وأدق ، هُناك نور إشراقي ونور بياني ، وقال بعضهم : الله جلّ جلاله يهدي القلوب بنوره إلى محاسن الأخلاق ، ليُؤْثِر العبد الحقَّ ويدع الباطل .

إنَّ للنور معاني كثيرة ، ومن معاني النور الفرعية نور العِلم والمعرفة ؛ وهو انبلاج الحقيقة لقلب المؤمن ، لذلك عندنا في اللغة ظاهرة تُسمى الاشتقاق . فكما تعلمون أنَّ في اللغة اسماً وفعلاً ، والفعل ماضٍ ، ومضارع ، وأمر ، والاسم : اسم ذات ، واسم

معنى ، واسم الذات : هو أسماء الأشياء ، إنسان ، نبات ، حيوان ، جماد ، وأسماء المعاني هي المصادر ، لكن عِندنا شيء اسمه اشتقاق كُبَّار ، فمثلاً كلمة : عَلِمَ ـ عَين ، لام ، ميم ـ إذا غيَّرت ترتيب هذه الحروف عَلِمَ لمع ملع أيضاً عمل فهي ستة تقاليب ، كل هذه التقاليب الستة لابُدَّ أن يكون لها قاسمٌ مشترك بينها ، وهو الظهور بعد الخفاء ، عَلِمَ ، لمع ، ملع ، قاسمٌ مشترك بين كل التقاليب الثُّلاثية هو الظهور بعد الخفاء ، هذا هو العلم ؛ إنه إشراقة معينة تشرق على قلوب مؤمنة .

إذاً هناك نور العلم والمعرفة ، وهو انبلاج الحقيقة أمام المؤمن العارف ، كأنها مشهودة أمام عَين اليقين ، كما يُعبّر أهل المعرفة ، وقد ذُكر اسم النور منسوباً إلى الله تعالى في مواطن من كتاب الله وأشهرها قوله تعالى :

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور : ٣٥] .

قال بعضهم : نوَّرها بالشمس والقمر ، ونوَّر القلوب بالحقائق :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١] .

نوَّرَها بالشمس والقمر ، هذا النور الحسي ، ونوَّر قلوبَ المؤمنين بأنواره التي كشفت لهم الحقائق .

يقول الإمام ابن عباس رضي الله عنه : « الله هادي السماوات والأرض » ، مَثَل هُداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يُضيء قبل أن تمسه النار ، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوءٍ ، فيزداد نوراً على نور ، في سورة التوبة قال تعالى :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢] .

إذا أراد إنسان أن يقاوم الحق فكأنه أراد أن يُطفىء نور الله عزّ وجل ، وفي سورة الزُّمر قال تعالى :

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر : ٢٢] .

وفي السورة نفسها :

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٦٩] .

وفي سورة الصف :

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [الصف : ٨] .

« مادة النور »وردت في كتاب الله في أكثر من أربعين مرة ، بعض العلماء يرى أن النور هو اسم الله الأعظم ، لكن يَرِد علينا سؤال وهو :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ » . [رواه الترمذي] .

مِن بين هذه الأسماء اسم الله الأعظم لكنه غير معروف وغير مُحدد ، بعضهم قال : « رب العالمين » اسم الله الأعظم ، وبعضهم قال : « الرحمن » اسم الله الأعظم ، وبعضهم قال :« الله » اسم الله الأعظم ، وبعضهم قال : « النور » اسم الله الأعظم ، لماذا لم يُحدِّد ربنا اسمه العظيم ؟ من أجل أن تتعمق في كل أسمائه ، فيغلب على ظنك نتيجة المعالجة والتعمق في دراستها أن أحدها اسم الله الأعظم .

الإنسان يطلب العِلم ليكون قلبه منوَّراً .

عَنْ دَاوُدَ بْنِ عَلِيٍّ ابْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : سَمِعْتُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ يَقُولُ لَيْلَةً حِينَ فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ : « **اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي نُوراً فِي قَلْبِي ، وَنُوراً فِي قَبْرِي ، وَنُوراً مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ ، وَنُوراً مِنْ خَلْفِي ، وَنُورًا عَنْ يَمِينِي ، وَنُورًا عَنْ شِمَالِي ، وَنُوراً مِنْ فَوْقِي ، وَنُوراً مِنْ تَحْتِي ، وَنُوراً فِي سَمْعِي ، وَنُورًا فِي بَصَرِي ، وَنُوراً فِي شَعْرِي ، وَنُوراً فِي بَشَرِي ، وَنُوراً فِي لَحْمِي ، وَنُوراً فِي دَمِي ، وَنُوراً فِي عِظَامِي ، اللَّهُمَّ أَعْظِمْ لِي نُورًا ، وَأَعْطِنِي نُوراً ، وَاجْعَلْ لِي نُورًا** » . [رواه الترمذي] .

إقبالُكَ على الله ، اتصالُكَ به ، دعاؤك له ، طاعتك إياه ، تُكسبك هذا النور وهذا النور من أثمن عطاءات الله عزّ وجل ، إنسان منوَّرٌ يرى الحقيقة أي أن قلبه مُنير ، كذلك شخص سمعه منوّر فإذا استمع إلى كلام ما ، فكأن عنده ميزاناً فيقول لك : هذا الكلام غلط ، وهذا صواب ، بصره منوَّرٌ إذا نظر إلى الجبل يرى عظمة الله عزّ وجل على حين أن الكافر ينظر إلى أعلى جبل يرى مناسيبه جميلة جداً كي يتزحلق على الثلج ، لا يتعامل مع الأشياء إلا بالنفع ، أما المؤمن فإنه يتعامل معها بالمعرفة ، فإذا رأى نوراً إذْ في نظره عِبرة ، إذا استمع قيَّم تقييماً صحيحاً ، فما كل شيء يسمعه يقبله ، إذا تحرك فإلى الخير ، في يده نور إذا أعطى يعطي بالعدل ، في رجله نور إذا مشى مشى إلى طاعة الله عزّ وجل ، فمعنى النور أن يهديَك إلى ما يُرضي الله ، وثانياً : ويكون عندك ميزان فالنور ميزان وهدىً .

ورد في بعض الأدعية : إلهي أنت النور ، والكُل في ظلام

العدم ، وأنت الظاهر وليس في الحوادث تأثير في القدم ، أشرقْ على قلبي معنى اسمك النورِ ، فأشهد بنورك الحقائق وأتجمل بالمعارف ، وأدلهم على الرب الجواد إنك على كل شيء قدير ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

الحَفِيظُ

من أسماء الله الحسنى ، الحفيظ ، قبل أن نمضي في الحديث عن معناه اللغوي وعن آثاره في الآفاق وعن علاقته بالمؤمن لابُدَّ من مقدمة .

الإنسان ـ كما تعلمون ـ مفطور على حُب وجوده ، وعلى حب سلامة وجوده ، فكم من التدابير التي يتخذها للحِفاظ على ماله ، أو للحِفاظ على صحته ، أو للحِفاظ على أولاده ؟ يعني جزءٌ كبيرٌ جداً من نشاط الإنسان في الدنيا في سبيل الحِفاظ على وجوده ، أو على سلامة وجوده ، أو على دخله أو على صحته ، أو على مُكتسباته ، أو على ما بيده ، فالحِفاظ على الشيء لا يَقِلُّ عن تحصيله ، فأنت في الأصل تُحصّل شيئاً وتُحافظ عليه ، فنشاط الحِفاظ على ما أنت فيه لا يقل عن نشاط تحصيل هذا الذي بين يديك ، فالإنسان حينما يحاول أن يُحافظ على حياته أو على سلامته أو على صحته أو على أولاده في حياته أو بعد مماته ، حينما يُحاول الحِفاظ على دخله وإنتاجه وعلى بيعه ومكانته وسمعته ، فهو يعمل وفق غرائزه ودوافعه .

أكرِّر أن نشاط الحِفاظ على المكتسبات لا يقلُّ عن النشاط الذي

يُحصّل به ما تحت يديه ، تُحصّل هذا الدخل وتُحافظ عليه ، تُحصل هذه اللياقة البدنية وتُحافظ عليها ، تُحصل هذه السُمعة وتُحافظ عليها ، بل إنَّ نشاط المُحافظة على الشيء ربما كان أكثر من نشاط تحصيله ، فالإنسان أحياناً يصل إلى مرتبةٍ ومنصبٍ ويبذل أربعة أخماس وقته في الحِفاظ على هذا المنصب ، وكأن هذا الحِفاظ شُغلُه الشاغل ، لذلك فالإنسان حينما ينسى الله عز وجل ، أو حينما ينسى اسم الله الحفيظ ، أو حينما ينسى أن الله هو الحافظ أولاً وآخراً ، حينما يتجاهل أن الحِفظَ بيد الله وحده وأنه مهما كُنت ذكياً ، ومهما كنت أريباً ، ومهما كنت ذا خبرة عريقة ، مهما أخذت من الاحتياطات ، مهما اتخذت من الأسباب ، مهما أقمت من السدود مهما حصنت نفسك ، إذا أراد الله بك شيئاً فلا بُدَّ أن يصل إليك ، فالحِفاظ الحقيقي لايكون بأخذ الأسباب وحدها ، بل بأخذ الأسباب والاعتماد على الله عز وجل فكم من إنسان دُمرت حياته من خطأٍ بسيط في صحته .

اليوم سمعت حادثة : إنسان مرِض وكان مرضه معقولاً وليس خطيراً ، ليس مرضاً عضالاً ، مرضٌ علاجه ممكن وهناك أدويةٌ فعالةٌ في شفائه ، ذهب إلى صيدلي ، الصيدلي غائب ومكانه موظف فأعطى الموظف لهذا المريض دواء آخر ، فأُعطِي دواءً مكان دواء ، وقيل له : ضع الحبة تحت لسانك ، تفاقم هذا الأمر لدجة أنه كاد أن يودي بحياته . فأنت مهما كنت ذكياً وذهبت إلى صيدلي وأعطاك دواءً استعملته ، فقد يخطىء الصيدلي في تعيين الدواء فيُسبب الدواءُ المغلوط مضاعفات للمرض ، فأنت بحاجة إلى حفظ الله .

فالإنسان فيه شيء فطري للحِفاظ ، بدأت البحث بأن أكدت أن

الإنسان مفطور على حُب وجوده ، وهذا كلام واقعي وهناك كلام يُقال للاستهلاك كلام يُقال لغير ماأراد الله عزّ وجل ، اما في الحقيقة فإن أيّ إنسان على وجه الأرض مفطور على حُب وجوده وعلى حُب سلامة وجوده وعلى كمال وجوده ، وعلى استمرار وجوده . جزء كبير من نشاط يبذله في الحِفاظ على هذا المستوى إما على دخله أو على لياقته أو على صحته أو على مكانته أو على منصبه أو على سُمعته أو على مابيده .

وحينما يتجاهل الإنسان اسم الله الحفيظ ، وحينما يتجاهل اسم الله الحافظ فقد يقع في سوء فعله :

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾ ، حينما يأخذ الإنسان بأسباب الحِفظ المادية وينسى أن مُسبب الأسباب هو الله عز وجل ، حينما يأخذ بالأسباب المادية للحِفظ ويأتيه بأس الله من حيث لايحتسب مما يجعل حياته كلها جحيماً لعِلّة تُصيب جسده ، فمثلاً شخص حصّلَ دكتوراه وتزوج امرأةً غريبة تروق له وعاد بها إلى بلده ووصل إلى أرفع المناصب ثم فَقَدَ بصره فزاره صديق له ، فقال له : والله يافلان أتمنى ألاّ أحمل هذه الشهادة ، وألاّ أكون متزوجاً ، وأن أقوم على قارعة الطريق أتكفف الناس وأن يردَّ الله إليّ بصري!

﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾ ، الإنسان عُرضة لأخطار لاتنتهي في الدنيا والوقائع بين أيديكم ، تجد إنساناً بأعلى درجات الذكاء ، لكن غلطة بسيطة مثل أن يكون السائق نائماً وهناك رجل ماش على اليمين

فصدمته السيارة وأُصيب في عموده الفقري أدى إلى شللٍ كامل طول حياته ، فمن يحميه ويحفظه من الغوائل ؟ فالله خير حافظاً ، فلابد من التوكل حقاً .

أردت أن يكون الإسم في بحثي اليوم اسم الحفيظ لأُبيِّن أنه مهما أخذ الإنسان بأسباب الحِفظ فقد يُؤتى الحَذِرَ من مأمنه ، مثلاً كيف يُحصّن المال ؟ يجب أن يُحصَّن المال لابِوضع أقفال ، والأقفال ذات الأرقام . . لا . ففي مراسيل أبي داود عن الحسن مرسلاً « حصنوا أموالكم بالزكاة » .

يجب أن تحفظ المال كما أرسل لك الله وبيَّن الطريق لِحِفظه ، وليس كما يصل إلى علمك من أساليب ، يعني أساليب مُعقدة جداً مبنية على التكنولوجيا ، وهكذا .

أنا سمعت عن رجلٍ يعمل في الصياغة استورد صندوقَ حديدٍ من إحدى قارات الأرض ، وله مواصفات تحتاج إلى كُتيِّب لوصفها ، إلكترون على تصفيح على . . ، واستطاع أُناس أن ينزلوا إلى دكانه بالليل وأن يثقبوا الصندوق من سقفه ، وأن يأخذوا كل مافيه ، فقد اعتمد هو على هذا الصندوق في حِفظ ماله ونسي الله تعالى ، طبعاً حِفظ المال بند من بنود هذا البحث ، وهناك حِفاظ على الصحة . . إلخ ، حينما ينسى الله عزّ وجل ويأخذ بكل أسباب حِفظ الصحة ويعتمد عليها يأتي عَطَب غير متوقع ، أساساً هناك عشرات الأمراض بل مئات الأمراض حتى الآن لاتُعرف أسبابها ، يُقال لك فقر دم غير مُصنّع ، يعني معامل كريات الدم التي في نِقي العظام توقفت فجأةً بلا سبب عن صنع كريات الدم ، الإنسان يحتاج كل أسبوع إلى ستمئة

سنتمتر دم مادام حيًّا أو يموت ، إنّ كل الذكاء والاحتياطات لاتُجدي مع هذا المرض ، وهذا المرض ليس له أسباب ، فلو أخذ الإنسان بِكُلِّ أسباب الصحة إلا أنّ هناك أمراضاً ليس لها أسباب مادية .

رأيت شخصاً دنياه في درجة خيالية ، ومع ذلك أصابه نمو زائد في دماغه ، وانتهى إلى موت عاجل ، فأنا أتمنى أن نستوعب جميعاً معنى اسم الحفيظ ، فما لم يتولّ الله جلَّ في عُلاه حِفظَ صحتك وحِفظ سمعتك وحِفظ أهلك وحِفظ مالك فالخطر ماثل ، أحياناً إبريق شاي يُحركه طفل فيسكبه على وجهه ، فيصبح هذا الطفل مصدر شقاء وأبيه لمدة خمسين سنة ، أليس كذلك ؟ إبريق شاي غلطة بسيطة جداً تُدمّر أُسرة ، فمهْما حافظت على ماتملك ؛ من الأشياء المادية والمعنوية ، وتجاهلت اسم الله الحفيظ ، فاعتمادك على أسباب مادية اعتماد عجز وضياع .

شخص في أعلى درجات نجاحه الدنيوي ، عدة مشاريع متنوّعة في البلدة وأرباحها كبيرة في أعلى مستوى ، وصحته في غاية السلامة ، وهو ذو مكانة اجتماعية وعلاقات رفيعة كما يقولون باللغة الدارجة ، حوله أعوان وأتباع وجيش من المنتفعين ، مكانة وتعظيم وجاه وأرباح وكل ستة أشهر يذهب إلى أوروبا وينزل في أجمل فنادقها ، حدث شيء قد لا يخطر على البال وهو أنه أراد أن يُصلح قطعة كهربائية ، فعامل الكهرباء قال له : سأضعها لك في مكان مرتفع فهي أجمل فأجازه في رفعها ، في اليوم التالي اضطُر إلى أن يتعامل معها ، فصعد على الكرسي لعُلُوِّها ، فانكسر الكرسي فوقع على مقعدته فنقل إلى المستشفى حوالي ثمانية عشر يوماً كان في عِداد الموتى ، وترك

عشرين مليوناً بالعملة الصعبة ، فهذا دُمِّرت حياته بأتفه الأسباب إذاً ، « حصنوا أموالكم بالزكاة » .

حصِّن نفسك من المصائب بالاستقامة ، هناك نقطة دقيقة الدلالة جداً وهي : يُؤتى الحذِر من مأمنه ، ومن آيات الله العظيمة ، أن طبيباً مختصاً بالهضم والأمور مدروسة عنده بعمق وفهم ، فليكن آيةً للناس ، أُصيب بقَرْحَة وما نجا منها ، بل أودت به ، هناك طبيب بأمريكا ذكرته من قبل مؤمن بالجري يومياً ، والجري نافع ورياضة ممتازة وجيدة ، وأنا معه بهذا ، يجري كل يوم ساعتين ، كتب مقالاً وأجْرَوا معه مقابلات وكان يظن نفسه أنه آخر إنسان يموت بالقلب ، فإذا مات كل من حوله فسيكون آخرهم ، لأنه يجري كل يوم ، وجعل اعتماده على الجري دون الله تعالى فأُصيب بنَوْبَة قاسية جداً وهو يجري ، فكان فيها حتفه ، لقد أخطأ إذ وكَل أمره للجري والرياضة وجعله بديل حِفظ الله عزّ وجل وهذا لايغني من الله شيئاً ، هُنا دِقّة العِلم مُمكن أن تجري وتلعب الرياضة وتنظم طعامك وتجتنب المواد الكيماوية ، يُمكن أن تعتني بصحتك إلى أعلى درجة وهذا كله صحيح ، لكن لايعني أن تنسى الله عزّ وجل ، أن تنسى أن الله هو الحافظ . وملخص الملخص : اعقل وتوكل .

دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في المرضة التي مات فيها فقال له ياأمير المؤمنين! إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال وتركتهم عالةً ولا بد من شيء يصلحهم فلو أوصيت بهم إلي أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مئونتهم إن شاء الله فقال عمر أجلسوني فأجلسوه ، فقال : الحمد لله ، أبالله تخوفني يا مسلمة ؟ أما ما ذكرت من أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال

وتركتهم عالة فإني لم أمنعهم حقا هو لهم ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظراتك من أهل بيتي فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله فجعل الله من أمره يسراً ورزقه من حيث لا يحتسب ، ورجل غيَّر وفجر فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه ، ادعوا لي بني فدعوهم ، وهو يومئذ اثنا عشر غلاماً فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه حتى اغرورقت عيناه بالدمع ثم قال : بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم ، يا بني! إني قد تركتكم من الله بخير إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله ، يا بني! ميلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار ، قوموا ـ يا بني ـ عصمكم الله ورزقكم ، قالوا : فما احتاج أحد من ولد عمر ولا افتقر .

وذكر أن أبا جعفر المنصور قال لعمرو بن عبيد عظني ، قال : بما رأيتُ ، أو بما سمعتُ ؟ فقال : بل بما رأيتَ ، فقال : توفي عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وخلف أحد عشر ابناً ، وبلغت قيمة تركته سبعة عشر ديناراً ، فكفن بخمسة دنانير واشتري له موضع قبره بدينارين وأصاب كل واحد من أولاده ثمانية عشر قيراطاً ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابناً فحصل لكل واحد من ورثته مما خلفه عشرة آلاف دينار ، فرأيت رجلاً من أولاد عمر بن عبد العزيز قد حمل على مائة فرس في سبيل الله ، ورأيت رجلاً من أولاد هشام يسأل الناس .

فقد جعل ثقته بالمال دون الله تعالى ، فأردى أولاده ، والله الذي

لا إله إلا هو! حدثني رجل أثق به من إخواننا الكرام أنَّ إنساناً كثيرة أملاكه ، أنواع أملاكه عديدة من معامل إلى محال تجارية إلى مزارع إلى بيوت بالمصايف إلى بيوت على شاطىء البحر ، تُوفيَ وكان هدفه الأكبر تأمين المال لأولاده من بعده ، ترك أموالاً لا تأكلها النيران ، والقصة طويلة جداً ، فخلال سنتين تكفف أولاده من بعده ، إذ عقدوا صفقةً كبيرة جداً مع شخص خارج القطر وشحنوا البضاعة واختفى الشخص ، واضطروا إلى الاقتراض من جهات أخرى ثم عجزوا ، والقصة كما قلت طويلة لكن المُهِم كما أن الله عز وجل قادر وأنه إذا أعطى أدهش ، كذلك فهو إذا سلب أدهش ، من كل شيء انقلب حالهم إلى لا شيء .

فالحِفظ كيف يكون ؟ أوجز للقراء الكرام : لن تَستَحِقَّ حِفظ الله عزّ وجل إلا إذا طبَّقت منهجه ، فهناك مظلة فإذا طبقت منهج الله عزّ وجل فأنت تحت مظلة رعاية الله عزّ وجل في الدنيا ثم في الآخرة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبي ﷺ قَالَ : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لاظِلَّ إلا ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ ورَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ فَأَخْفَى حَتَّى لاتَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ » .

أنا أخشى ما أخشاه أن أخرج عن ظِلّ الله عزّ وجل ، كيف تخرج ؟ بالمعاصي ، إذا كنت مستقيماً فأنت في ظِلّ الله ، أنت في حِفظه ، أنت في رعايته ، و لاينسى أحد قول الله تعالى :

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ .

هذه معيّة خاصة ، وليست معيّةً عامة ، معك بالحِفظ ، معك بالتأييد ، معك بالتوفيق ، معك بالرعاية ، معك بالإكرام تُحِس بشكل صارخ أنَّ الله يُحبك ، وأن الله يحفظُك ، وأن الله يُلهِمُك ، وأنه يُوفِّقُك ، وأنه يُسدد خُطاك ، وأنه مُنطِقكَ بالحق ، وأنه يرفع لك شأنك ، ويرفع لك ذِكرك هذه تلمسها لمس اليد ، بل إني أقول : إن ارتباط المؤمن بالإيمان هذا الارتباط الشديد ليس لأن أفكاره في الإيمان مُقنعة لا . أجل هي مُقنعة والعقيدة صحيحة والأفكار سليمة لأمور واضحة ، لكنَّ الذي يَشُدُّكَ إلى الله عزَّ وجل ليس وضوح الأفكار ولا دقة البراهين ، بل هذه المعاملة التي عاملك الله بها بعد أن اصطلحت معه ، فأراك من فضله ومن لُطفه ومن عنايته ومن حِفظه ومن توفيقه .

فلذلك شعورك بالحِفاظ على ما في يديك هو شعور طبيعي وهذه فطرتك ، لكن السلوك للحِفاظ على ما في يديك لن يجعلك تنحو منحىً ماديًا ، كأن ترى أنه لابُدَّ من وضع الأقفال ، ولابُدَّ من تَمَلُّق فلان ، فبقائي بهذا المكان مرهون برضائه عني ، فما الذي يُرضيه ؟ معصية الله ، إذاً سأعصي الله من أجل أن يرضى حتى أبقى في مكانتي وهذا هو الجهل وهو الذي يقع فيه معظم الناس ، هو يُريد أن يُحافظ على ما بيده عن طريق إرضاء الناس ، يرضيه ويعصي الله فتجدّ ظروف

لم تكن في الحُسبان ، وتقلِب الموازين ، ويغضب ذاك عليه من غير سبب ويخسر الدنيا والآخرة .

لذلك أكرر هاتين الكلمتين : من آثر دنياه على آخرته خسرهُما معاً ، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهُما معاً ، لكن حتى أكون واقعياً ربنا عز وجل ـ وهذا يعرف من طريق تعامل رب العزة مع العباد ـ أحياناً يُغلِق لك كلَّ الأبواب إلا طريقاً واحداً مسموحاً وهو غير مشروع ، هُنا الامتحان إذْ كُلُّ الأبواب التي تُرضيه مغلقة وبابٌ واحد لا يُرضيه مفتوح على مِصرَاعيه ، فماذا تفعل ؟ هُنا الامتحان . فإن قلت لن أعصي الله ولو قُطعت إرْباً إرْباً فأنت هكذا يا عبدي ؟ وأنا لن أتخلّى عنك وسأقلب لك كُلَّ الموازين بحيث سيغدو عدوك صديقك ، وسأُيَسّر لك أعمالك وستأتيك الدنيا وهي راغمة لأنك آثرت طاعتي على الدنيا ، عندئذ تأتيك الدنيا وهي راغمة .

أي من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً ، أتمنى على الله عزّ وجل أن يُمكنني من توضيح هذه الحقيقة ، فبالأسواق بين التجار قوانين إذْ هناك طريقة في البيع شائعة مُتعارف عليها وتحفظ بها مالك وتربح ، لكن ربما هذه الطريقة فيها شُبْهَة في الدين ، فأنت إذا أردت تطبيق قواعد الدين في التعامل بهذه الطريقة تخسر ، فاحذر أن تضحي بعلاقتك بربك وتأخذ بأساليب الناس الملتوية . فتخسر كل شيء .

شخص أُعطي أرضاً فسأل شيخاً له فقال : يا بُنيّ هذه ليست لك ، هذه لفلان من الناس وهي غير مشروعةٍ لك ، اذهب إلى صاحبها واشتر الأرض منه ، فذهب إليه وطلب شراءها منه ، وقال لي شيخي : يَحرُم عليّ أخْذُها ، وليس معي ثمنها الآن إلا أنّ معي أساور

زوجتي أبيعها وأقترض ، واطلب أنت ما تُريد ثمنًا لهذه الأرض ، فنظر إليه وقال له : يا بُنيّ ذهب من أرضي أربعمئة دونم أرض ، ما جاءني أحد كما جئت أنت ، فاذهب وهذه هدية مني لك خذها حلالاً ، موقفه الورع جعلها حلالاً له .

وليُصغِ الإنسان سمعه لهذه الكلمة : زوال الكون أهون على الله من أن تدع شيئاً مخافةً منه ثم يُضيِّعك الله عزّ وجل ، واللهِ زوال الكون أهون على الله من أن تقف موقفاً فيه مرضاة الله عزّ وجل ويتخلى عن نصرتك . يا رب أنا لا أعصيك ومهما بلغ الثمن لن أعصيَك . أتفعل هذا عن طيبِ خاطر وتضيع ؟ لا والله ، لذلك توجد قوانين مُستنبطة من التعامُل اليومي ، فهذا الذي توهّم أن بقاءه في هذا المكان مَنوط بإرضاء فُلان وفُلان ، وجعلت إرضاءه عن طريق معصية الله عزّ وجل ، فهذا الذي أرضيتَه وأسخطتَ الله عز وجل فلابُدَّ من أن يَسخَط الله عليك ويُسخِط ذاك الإنسان عليك ، وإذا أغضبت إنساناً من أجل طاعة الله فلابُدَّ من أن يرضى الله عنك وأن يُرضِي عنك هذا الإنسان ، ومن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً ، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً ، فموضوع الحِفظ يلخصه قول الله عزّ وجل إذ يقول في مُحكم كتابه : ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ .

قد يسافر الإنسان فهل يضمن أثناء سفره ألا يصاب ابنه بحادث سيارة مثلاً ؟ هل يضمن ألا يقع خلل في بيته ؟ هل يضمن عدم دخول شخص معتدٍ إلى بيته في غيابه ؟ ؟وهل وهل وهل. . ؟ أمّا المؤمن فإنه إذا أزمع السفر دعا بهذا الدعاء : « **اللهم أنت الصاحب في السفر**

والخليفة في الأهل والمال »[1] تشعر أن أعصابك تخدَّرت ، لأنَّ الله يملك البيت ، يحفظ مالك وأولادك وأهلك وكل شيء ، ترى كيف حَفظَ الله لك ولدك من حادث خطير ، لا تقل : نجا بأعجوبة ، فهذا كلام البله ، هذا حِفظُ الله عزّ وجل ، قال : ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ .

لتعلم أن ما عند الله لن تناله إلا إذا اتبعت منهجه ، حِفظ المال بتأدية الزكاة ، حِفظ الجوارح بطاعة الله ، عَين تغض عن محارم الله ، عَين تبكي من خشية الله هل ترثها ؟ لا بل ترثك ، فهُناك فرقٌ بين أن ترثها وبين أن ترثك .

عَنْ خَالِدِ بْنِ أَبِي عِمْرَانَ أَنَّ ابْنَ عُمَرَ قَالَ : قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلاءِ الدَّعَوَاتِ لأَصْحَابِهِ : **« اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا ، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا ، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا ، وَلا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا ، وَلا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا ، وَلا مَبْلَغَ عِلْمِنَا ، وَلا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لا يَرْحَمُنَا »** .

---

(١) قطعة من حديث أوله : عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى السفر كبر ثلاثاً ثم قال : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، اللهم! إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ماترضى ، اللهم! هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده ، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل والمال ، اللهم! إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل. . . » الحديث [رواه مسلم] .

فالمؤمن مادام لسانه ينطق بالحق ، وبصره ينظر إلى آيات الله لا إلى عورات المسلمين ، وسمعه يستمع به الحق ، مادام المسلم هكذا ، فأغلب الظن أن الله سبحانه وتعالى يحفظ له هذه الجوارح فهناك حالة تُسمى حالة الأمن ، المؤمن يشعُر بأنَّ الله عزّ وجل لن يُضيِّعه . هذا معنى قوله تعالى :

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[الأنعام : ٨١] .

إذاً : ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ ﴾ ، الأب دائماً حريص على أولاده حرصاً لا حدود له ، لكن لو حصل خلل بالخلايا الداخلية ونمت هذه الخلايا نمواً عشوائياً ، فالأب ماذا بيده أن يفعل ؟ بيده أن يتألم فقط ، أما الإله كل شيء بيده ، ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ ﴾ فالذي يحفظ هو الله عزّ وجل .

أقسم لي رجل بالله يقود سيارته في طريق طويل ونام وهو بسرعة عالية ورأى مناماً ، واستيقظ في الوقت المناسب قبل أن يواجه حادثًا مُروِّعًا مُدمِّراً ، إذا أنقذه الله من التردي في الهاوية .

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٦٤] .

فإذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ تُلاحظ أنَّ من حِكمة ربنا عزّ وجل أنه من اعتمد على ذاته واتكل على نفسه ، من اعتمد على ذكائه ، على ماله ، على معارفه ، على أصدقائه ، على اتصالاته . مثل هذا الإنسان فبأتفه الأسباب يُدمَّر .

وقد قيل : أوحى الله عز وجل إلى داود : وعزتي مامن

عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده السموات بمن فيها والأرض بمن فيها إلا جعلت له مابين ذلك مخرجاً وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء بين يديه وأرسخت الهواء من تحت قدميه وما من عبد يطيعني إلا وأنا معطيه قبل أن يسألني ومستجيب له قبل أن يدعوني وغافر له قبل أن يستغفرني .

لذلك أقوى شيء يشدك إلى الدين معاملة الله لك بعد أن تصطلح معه ؛ إذ تشعُر أنك ضمن عناية وتوفيق وإلهام وتسديد وحِفظ وتأييد ونصرة ، فالله يُلهمك مثلاً ألا تسافر لوجود هلاك بذاك السفر ، تجد إنساناً قبل يوم من الاجتياح سحب كل ماله وجاء إلى منطقته ، على حين أن غيره خسر كل ماله بفارق يوم واحد فقط ، من ألهمك ؟ الله عزّ وجل مِنْ قَبْلُ ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ﴾ .

﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ ، كفار قريش أليست معارضتهم لرسول الله كان هدفها الحِفاظ على ما هم فيه ؟ هذا أمر واقعي ، وليس من باب القيل والقال ، فزعماء قريش حينما عارضوا النبي ﷺوكفروا به وكادوا له وأخرجوه وحاربوه ، واضطهدوا أصحابه ، أليس من أجل أن يحافظوا على مكانتهم في مكة وعلى زعامتهم وعلى أموالهم وعلى شأنهم في الجزيرة ؟ ، ما الذي حصل ؟ إنهم دُمروا وإنهم قُتِّلوا وإنهم مُزِّقوا وإنهم شُرِّدوا ، من الذي انتصر عليهم ؟ رسول الله ﷺ وأصحابه الذين اتّبعوه ، وهذا شيء مُتكرر دائماً يؤكده قوله تعالى :

﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

الأمور تدور وتدور ولا تستقر إلا على تكريم المؤمن وحِفظه ، ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ . بعد كل هذا الإيضاح لا بد من الوقوف عند معاني الحفيظ . إن هذا الاسم له معنيان :

ـ المعنى الأول : حفيظ بمعنى عليم :

فالله لا ينسى ، حفيظ لا ينسى ، كُلُّ أعمالك وكل أقوالك وكل مواقفك وكل عطاءاتك وكل منعك وكل الصِّراعات التي في ذهنك ، كل ما أنت فيه محفوظ عند الله عزّ وجل ، الآن تجد من يقول لك الإضبارة سحبناها ونجونا من المخالفة بعد أن سحبنا الضبط ، وانتهت المشكلة ، أو أن الإضبارة اختفت وضاعت ، فمثلاً الآن هناك كمبيوتر وعن طريقه تصدر النتائج الجامعية فممكن لشخص أن يمحو كل النتائج لخمس آلاف طالب طبعاً ، فلو افترضنا أن شخصاً محا كل ذاكرة الكمبيوتر فأين الطلاب ودراساتهم ونجاحاتهم ؟ لقد ضاع كل شيء ، فمُمكن أن يكون إنسان أذكى من إنسان آخر يسحب الوثيقة أو يسحب الإضبارة أو يسحب التقرير يسحب الضبط ، أمّا الله عزّ وجل حفيظ فلا توجد قوة لإلغاء ما عنده ، فكلٌّ محفوظ ومسجل . فهُنا شعورك أن أعمالك كلها مُسجَّلة ، قال تعالى :

﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [آل عمران : ١٨١] .

وما قولك : إنَّ الله عزّ وجل يوم القيامة يعرِض أعمالَك كُلَّها عليك بصورها بوقائعها ، هذا معنى قوله تعالى :

﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ [المطففين : ٩] .

﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ قال : مرقوم من الرَّقْمِ وهو الوَشْم ، ومرقوم من

الرَّقم ، فكُلُّ مخالفة وصورتها . فأبلغ طريقة بالمخالفات تأتي بالتنبيه فيقال لك : عليك مخالفة ، ثم تُراجع ليعطوك الصورة ، ألم تكن في هذا الطريق ؟ هذه سيارتك وهذه صورتها وهذا الضبط ، فأرقى أنواع الضبط أن تأتي المخالفة مع الصورة ، ﴿ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴾ أو مُرَقَّم يستحيل أن تُنزع منه صفحة ، مثل المالية ، هذا الدفتر صفحاته كذا ، توقيعه كذا ، بعت بيعاً ثم تقول سأنزع هذه الصفحة ، هذا لا يُمكن إذْ إنك ستجد صفحةً عند موظف المالية ، فما قولك : إن الله عز وجل يوم القيامة يَعرِض عليك كل أعمالك ، لماذا وقفت هذا الموقف ؟ ﴿ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴾ .

قد تكون أعمال لها مظهر مقبول ، لكنْ مخبؤُها غير مقبول ، فربنا عزّ وجل يُطلعك على مخبئك ، على نياتك ، على حقيقتك ، هذا معنى حفيظ ، أول معنى حفيظ عليم ، كل أعمالك مُسجَّلة ، فالسجلاّت العقارية بمدينة ما موضوعة بمكان ، والمكان أصابه قصف فضاعت كُلُّ الأملاك ، لا ، لأنه كله مصور بميكرو فيلم موضوع في أماكن حصينة ، لو دُمر هذا البناء هذه السجلات كلها مصورة صورًا دقيقة جداً ، مخبَّأة في مكان حصين ، هذه كلها بعض معاني الحفيظ ، الله حفيظ يعني كل شيء مُسجّل ، يعلم كل شيء وربنا عزّ وجل يقول عن نفسه :

﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه : ٥٢] .

فالله سبحانه لا ينسى أبداً ، فالحِفظ الأول ضد السهو والنسيان ، وهو يعود إلى معنى العِلم ، فهو تعالى حفيظ للأشياء بمعنى أنه يعلمها جُملةً وتفصيلاً علماً لا يتبدّل ولا يتغيّر لا بالزوال ولا بالسهو

ولا بالنسيان ، هذا المعنى الأول فأنت تعامُلكَ مع الله عزّ وجل على أنه حفيظ ، لو أدّيت مبلغًا لجهة وسجل لك في قيودها ، هذا الموقف مُسجَّل ، فمثلاً الابتسامة مُسجَّلة ، فإن ابتسمت ابتسامة في وجه إنسان خائف وطمْأنتَه فهذه مُسجَّلة ، إنسان اعتذر إليك وأنت قوي فقلت له : لا عليك أنا أودُّك ولك مكانة عندي طمْأنته وارتاح ، نام المسكين مطمئناً فهذه مُسجَّلة ، ابتسامتك عطاؤك منعك كرمك تضحيتك هذه كلها عبادات مُسجَّلة . وهذا هو المعنى الأول .

ـ المعنى الثاني : الحفيظ أيْ ضِدُّ التضييع :

الأول ضد النسيان والثاني ضد التضييع ، فمعنى حفيظ أي الله عزّ وجل لا يُضيّع المؤمن بل يَحفَظ له عملَه ويكافئه عليه في الدنيا والآخرة ، فالمُستقيم موفّق ومن يغض بصره عن محارم الله كذلك ،فالمكافأة سعادة زوجية ، من يضبط لسانه سُمعتُه عالية ، من يضبط جوارحه يحفظها الله له ، اطّلع على استقامتك وعلى عملك وسجله لك ، هذا هو المعنى الأول ، وكافأك عليه ؛ إذًا عِلْم ومكافأة ، أما المعنى الثاني فهو أنه حفظ لك نتائج هذا العمل ، فلذلك الله عزّ وجل في القرآن يبشر المؤمنين :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] .

إنّ هذه المعاني تنقسم إلى قسمين : الحِفاظ في الدُّنيا والحِفاظ في الآخرة أن يحفظ لك دينك ، تجد شخصاً له بداية رائعة ثم انتكس وترك الصلاة وانغمس في المعاصي والموبقات ، لذلك إبراهيم عليه السلام قال :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم : ٣٥] .

فإذا لم ينتكس الإنسان ، وإذا لم تزل قدمه ، وإذا لم يعتقد عقيدةً زائغة ، ولا تعلّق بأهل الكفر فهذا مِن فضل الله عليه ، فالإنسان إذا قطع مرحلةً بعيدة في مسيرة حياته وهو مُحافظ على إيمانه وعلى استقامته وعلى صِلته بالله عز وجل وعلى نقائه وعلى طُهرِه وعلى إخلاصه فهذه نعمة كبيرة جداً ، كم من شخص بدأ بدايةً مُشرقة ثم انتكس ، يؤكد هذا قوله تعالى :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٠] .

أُناس كثيرون يدخلون مداخل شتى وهم صادقون ، فإذا دخلوا هذه المداخل وتألقت أمامهم الدنيا أغرتْهم وحرفتهم وساقتهم إلى الضلالات وخرج كاذباً ، لقد دخل صادقاً وخرج كاذباً ، دخل مخلصاً وخرج خائناً ، دخل مُطيعاً وخرج عاصياً ، دخل مُتعبداً وخرج متكبراً ؛ فلذلك الدعاء :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٠] .

البطولة لا أن تدخل بل أن تخرج ، فممكن أن يُدَل شخص على مسجد فيرجِع إلى الله شيء جميل ، تجده انسجم وتأثّر وتفاعل ، عارِض طفيف واجهه كأن يتزوج فترك الدين كله ؛ زوجته لم تنسجم مع هذا الدين السميك بزعمها فترك دينه من أجل زوجته ، هذا خرج مخرجاً كاذباً ، دخل صادقاً فخرج كاذباً .

فإذاً أحد معاني الحفيظ أن يحفظ الله لكَ دينك ، أن تَسلَم عقيدتك من الشُّبُهات ومن الشِّرك الخفيّ ومن عقيدةٍ زائغة ، وأن تسلم لك جوارحك من المعاصي والآثام ، أن يسلم لك دخْلك من الشبهات ، لهذا سيدنا يوسف قال :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣٣] .

إذاً يجب أن ينشأ عندك طلب من الله دائم ، يا رب احفظ لي ديني واستقامتي وإخلاصي لك ونقائي وحبي لك ولأنبيائك وللمؤمنين ، وباعد بيني وبين أن أحب أهل الدنيا والكَفَرة والمُفسدين ، هذا المعنى الأول ، والمؤمن متواضع ، يقول لك : نسأل الله أن يُتمم لنا بخير .

محمد بن عبد الله بن عمرويه ويعرف بابن علم قال سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول : لما حضرت أبي الوفاة جلست عنده وبيدي الخرقة لأشد بها لحييه ، فجعل يعرق ثم يفيق ثم يفتح عينيه ، ويقول بيده هكذا : لا بعد ، ففعل هذا مرة وثانية فلما كان في الثالثة قلت له : ياأبة! أي شيء هذا ؟ قد لهجت به في هذا الوقت تعرق حتى نقول قد قبضت ثم تعود فتقول : لا لا ، فقال لي : يابني ماتدري! قلت : لا ، قال : إبليس لعنه الله قائم حذائي عاض علي أنامله ، يقول لي : ياأحمد فتني فأقول له : لا ، بعد ، حتى أموت .

فالإنسان معرَّض لخطر الفساد تحت خطر إغراء الدنيا ، أما إذا قال : أنا لا أغلط ، ولن أدع هذا الطريق ، فلعل فيه كِبر مما قد تَزلّ القدم معه ، إذاً معنى الحفيظ أن يحفظ الله لك إيمانك وعقيدتك

واستقامتك ورغبتك في الحق ، لهذا سيدنا عمر كانت إذا أصابته مصيبة قال : « الحمد لله ثلاثاً ؛ الحمد لله إذ لم تكن في ديني » ، هذا هو الكلام الدقيق ، الحمد لله ما شربت خمراً ، وما ارتكبت معصية ، وما كفرت وما نافقت ، المال ليس له قيمة عندئذ .

هناك نقطة دقيقة الحساسية جداً ، وهي أن الإنسان إذا كان دينه غاليًا على قلبه ونفسه وأراد الله عزّ وجل أن يمتحنه بمصيبة فحينها ليس من مانع إذا قال : إنّ ديني سليم والحمد لله إذ لم تكن المصيبة في ديني وهذه أكبر نعمة ، قد تجد شخصاً ليس عنده مشكلة ، ولكنه يشرب الخمر ، ليس لديه مشكلة في دخله ، ومعمله ، وفي حياته اليومية وفي صحته وأولاده لكنه لا يصلي ، هناك من ليس لديه أية مشكلة في الدنيا لكنه يعتقد أن الدين كله خرافة . هذه مصيبة ، بل هي كبرى المصائب .

تُوفي قبل أيام شخص ، قال من يعرفه : إنّه خلال اثنين وخمسين سنة ما دخل إلى المسجد إلا مرة واحدة ، دخل ليُصلَّى عليه . هذه مصيبة قَدِمَ على مجهول ، فالحمد لله إذ لم تكن في ديني ، فهذا شيء مهم جداً مادامت القضية في الدنيا ، فالدنيا زائلة أما بالدين فمشكلة كبيرة ، « والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها » ، هناك مصيبة بالحديد يُجَلَّسُ الحديدُ فهذه ليست بابنه فهي نعمة ، هناك مُصاب بالحديد يُجَلَّسُ ثم يُبَخّ وتنحل المشكلة ، احترقت غرفة نرمّمها ونَدهَنها ، وهذه أهون مما لو كانت المشكلة بابنه أو بزوجته أو بصحته ، « والحمد لله إذ أُلْهِمتُ الصبر عليها » ، وكان شريح يقول : « إني **لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات أحمد إذ لم يكن أعظم منها ، وأحمد إذ رزقني الصبر عليها ، وأحمد إذ وفقني للاسترجاع لما**

أرجو من الثواب ، وأحمد إذ لم يجعلها في ديني » . فالصبر نعمة ، فالصابر يعني أنه عالِم يعلم أنَّ الله عزّ وجل صاحب الأمر كله ، أفعاله كلها حكيمة فيها عدل وفيها رحمة وفيها لُطف وفيها تكريم ورأفة ، يا رب لك الحمد هكذا شئت وأنا راضٍ بقضائك ، هذا المؤمن ، هذا إذاً معنى أول للحفيظ ، ووردت آيات كثيرة فيما يخص حفظ الدين :

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٧٤] .

إذاً فالله ثبّته ، والله يعصمك من الناس ، ربّنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذْ هديتنا ، رب اشرح لي صدري ويسّر لي أمري ، هذه كلها أدعيةُ القرآن ، أي أنت إذا كنت مؤمناً ومستقيماً وصادقاً ومُحباً للحق لك مجالِسُكَ العلمية أُطلبْ من الله عزّ وجل أن يحفظها عليك ، في إحدى الحجّات التي أكرمني الله بها وأنا في الطواف قلت : يا رب أنا أضعف خلقك شرفتني بخدمتك وخدمة عبادك ، إن علمت صدقي في هذا فاحفظها لي واحفظني لها ، يا رب احفظ هذه الدعوة ، احفظها ، وإن علمت خلاف ذلك فعالجني قبل أن أموت ، فالإنسان لابُدَّ أن يسأل الله عزّ وجل ، يسأل الحفيظ أن يحفظ له إيمانه ، دينَه وتألقه .

واللهِ أعرف رجلاً : طيلة عشرين سنة أو خمس وعشرين وهو ينتمي إلى طريق الإيمان ، فأغرته امرأة وسقط سقوطاً مُريعاً وترك الصلاة وجاءته المصائب من كل جهة ، ما حُفظ له دينه .

المعنى الثاني : أن يحفظ لك دُنياك ، أهم شيء صحتك ، وجودك ، سلامتك ، أهلك ، أولادك ، ومالك ، قال تعالى :

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء : ٤٢] .

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ [الرعد : ١١] .

﴿ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [التغابن : ٤] .

كلمة من يكلؤكم ؟ من يرعاكم ؟ لا أشُك أن كُل واحد مِنّا كان على خطر أنقذه الله منه ، يقال أحياناً : كان بيننا وبين الموت المحقق سنتمتر ، كدنا أن نهلك لولا أن لطف الله بنا ، فهذا حِفظُ الله عزّ وجل .

هناك معنى ثالث وهو أنَّ الله عزّ وجل إذا خلق الشيء ، استمراره يحتاج إلى حِفظٍ من الله عزّ وجل ، والدليل :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [فاطر : ٤١] .

فأنت مخلوق وبقاؤك بيد الله ، عزّ وجل ، بقاء السموات بيد الله ، بقاء الشمس بيد الله ، بقاء الأرض بيد الله ، بقاؤها على خط سيرها بيد الله ، لأنهما إن زالتا ما يمسكهما من أحد من بعده ؟ هذا معنى الحفيظ فلابُدَّ من أن تستسلم لله عزّ وجل ، وأدقُّ ما في البحث أنك مفطور على حُبّ وجودك ، وسلامة وجودك ، وكمال وجودك ، واستمرار وجودك ، وجزءٌ كبيرٌ من نشاطِك مصروف بالحِفاظ على ما أنت فيه ، فإذا سلكت وسائل الحِفاظ المادية وغاب عنك اسم الله الحفيظ الذي بيده كل شيء فقد أخطأت الهدف وضللت الطريق ، ولن تنال حفظ الله عزّ وجل إلاّ إذا طبّقت منهجه ، لذلك لا ينفع حذر من قدر ، ولكن ينفع الدعاء مما نزل ومما لم ينزل ، فادعوا الله عبادَ الله .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ ، فَإِنَّهُ لا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَقُولُ بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي ، وَبِكَ أَرْفَعُهُ ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا ، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ » .

[رواه البخاري] .

فالإنسان إذا نام بين حالتين : إمّا أن يستيقظ وإمّا ألاّ يستيقظ ، فإن لم يستيقظ فيسأل الله أن يرحمه كما فعل النبي ﷺ ، وإن استيقظ يسأله أن يحفظه ؛ أن يحفظ له دينه وأن يحفظ له دنياه .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي ، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي ، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي ، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ » . [رواه مسلم] .

وأختم هذا البحث داعياً بما دعا به النبي صلى الله عليه وسلم :

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادةً لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

* * *



اسم الولي ، الله سبحانه وتعالى ولي الذين آمنوا ، وهو من أقرب الأسماء إلى المؤمن ، والحياة كما ترون محفوفة بالمخاطر ، يمكن أن تنقلب حياة الإنسان إلى كتلة من الشقاء لأتفه الأسباب ، فمن هي الجهة التي تحمي المؤمن وتحفظه وتربيه وترشده وترعاه وتؤيده وتنصره وتدافع عنه وتوقظه وتلفت نظره ؟ الله هو الولي ،هذا الاسم ورد في القرآن الكريم في آيات كثيرة جداً ، أول هذه الآيات وأوضحها :

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

يعني أن صاحب الأسماء الحسنى هو خالق الكون الرب المسير العليم الحكيم الرحيم الغني القوي ، هذه الذات الكاملة ، هذه الذات التي لا حدود لقدرتها ولا لرحمتها ولا لقوتها ولا لغناها ، الله هو ذاته على علوِّه وعظمته وجلاله ، الله ولي الذين آمنوا ، مثلاً يمكن أن يكون في قصر العدل آلاف المحامين إلا أربعة أو خمسة في قمة هؤلاء ، إذا سألت واحداً له قضية مَن محاميك ؟ يقول لك فلان يذكر

اسمه بملء فمه ويفتخر ، المحامي الفلاني اللامع القدير المتمرس الخبير القوي صاحب الحجة صاحب الاطلاع هو وكيلي ، ألا تكفينا آية ؟ ألا تكفينا هذه الآية أنك إذا آمنت وإذا استقمت كان خالق الكون وَلِيَّك ، خالق السموات والأرض هل لك خصوم ؟ كلهم بيده ، حركتهم وأفكارهم وخططهم وقوتهم وأسلحتهم ، كلها بيد الله عز وجل ، فإذا كنت مع الله عز وجل من يستطيع أن يقف في وجهك ؟ من يستطيع أن يكيد لك ؟ من يستطيع أن ينال منك ؟ من يستطيع أن يقهرك ؟ من يستطيع أن يحيف عليك ؟ ألا تكفينا هذه الآية ؟

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

ما عليك إلا أن تؤمن ، دعونا نقترب من طبيعة الحياة ، هذا الذي له صلة بشخص قوي يعتز به ، ويثني عليه ، ويحتمي به ، ويهدد به ، ويستعلي به ويتطاول به ، يقول لك : معي رقم هاتفه وهو الذي قال لي خبِّرني عند كل بادرة ، و الله عز وجل الذي رفع السموات بغير عمدٍ يقول : لك إذا آمنت بي فأنا وَلِيُّك ، وأنا أُدافع عنك وأنا أنصرك ، وأنا أحفظك وأُؤيّدك وأنا أحميك وأنت بِعيني .

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور : ٤٨] .

الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور . الكفر ظلمات بعضها فوق بعض ، متاهات تُرّهات أضاليل أكاذيب حقائق مُزوَّرة ، أفكار هدامة تناقضات تمزقات ، أفكار مهترئة لا تقف على قدميها ، هذا هو الكفر أباطيل وظلمات ، المعاصي ظلمة ، الكفر

ظلمة ، الشرك ظلمة ، فهذا مشرك على عاصٍ على ملحد على فاسق على منافق على منحرف على دجال على أناني على صاحب حظ ، الله قال ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ﴾ ، أما المؤمن فيخرجه الله من الظلمات إلى النور ، نور الحق ، نور الهدى ، نور المنهج ، نور معرفة حقيقة الحياة ، وحقيقة الكون وحقيقة الإنسان وماذا قبل الدنيا ؟ وماذا في الدنيا ؟ وماذا بعد الدنيا ؟ هذه هي الآية : ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ .

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة :٢٥٧] .

سيدنا يوسف ماذا فعل به إخوته ؟ ألقَوْه في غيابة الجب ، تآمروا على قتله ، حسدوه ، ضاقت نفوسهم به ، ومع أن الله عز وجل مكنهم أن يضعوه في غيابة الجب ، ومع أن الله عز وجل أقدرهم على أن يضعوه في قعر بئر ، لكن انظروا إذا كان الله ولي المؤمن كيف يكون المصير ؟ صار عزيز مصر هذا الذي أُلقي في البئر لِيَموت يقيناً ، كيف أن الله ألْهَم قافلة وأحوجها إلى الماء ، وأرسلت واردها ، فأدلى دلوه .

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [يوسف : ١٩] .

قال : يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة ، وباعوه في مصر ، واشتراه العزيز وقال لامرأته : أكرمي مثواه ، إذا الله عز وجل تولى أمرك ، واللهِ الذي لا إله إلا هو لا تستطيع قوى الأرض مجتمعةً أن ينالوا منك ، وإذا تخلى الله عنك تنقضي الحياة على أتفه سبب ، يموت حَتْفَ أنفِه ، ماذا قال سيدنا يوسف حينما توجَّه إلى الله جل

وَعَلاَ ؟ ، قال : ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف : ١٠١] .

﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ ﴾ ، فيا أخي المؤمن ناج ربك ، قل له : يا رب ليس لي رب إلا أنت ، أنت وليّي ، حسبي الله ونعم الوكيل ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً ، أليس لك مع الله ساعة مناجاة وابتهال وتضرع وخشوع وإقبال ودعاء ؟ هكذا ناجِهِ وتوسل إليه ، لا تعتمد على زوجتك ولا على ولدك ولا على أخيك ولا على صديقك ولا على صحتك ولا على مالك .

تجد طبيباً ذا اختصاص بجهاز الهضم من الطراز الأول مُصابٌ بِقَرْحَة لأنه يتوهم أنه طبيب يعلم ما ينبغي وما لا ينبغي اعتمد على علمه ولم يعتمد على الله عز وجل فأُصيب في اختصاصه وهذا من حكمة الله عز وجل .

أيها القراء الأكارم ؛ أكاد أقول هناك حالتان لا ثالثة لهما : ـ وأنا واللهِ أعني ما أقول ـ أنت بين حالتين : إما أن يتولى الله أمرك ، وإما أن يكلك إلى نفسك : يتولى الله أمرك إذا كنت عبداً له وافتقرت إليه وتوكلت عليه وأقبلت عليه ، ويتخلى عنك أو يكلك إلى نفسك إذا قلت : أنا . ولا أدل على ذلك من قصتين شهيرتين عظيمتين قرآنيتين لمعركتين من معارك رسول الله ﷺ :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[آل عمران : ١٢٣]

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ

أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥] .

أنت في عملك وفي بيتك وفي اختصاصك ومع زوجتك وجيرانك ومع دراستك وكسبك للمال ، حينما تعتمد على الله يتولى الله أمرك ، وحينما تعتمد على نفسك يكلك الله إليها ، قال سيدنا يوسف : أنت وليي في الدنيا والآخرة ، دعاء لطيف ، والمؤمنون ماذا يقولون ؟

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

الإيمان ليس كلاماً تسمعه ولا أفكاراً تتوهمها ولا طقوساً تؤديها ، الإيمان اعتقاد يقيني واتصال بالله ، وأن تكون حسن العلاقة مع الله عز وجل ، تسأله وتناجيه تدعوه وتتوكل عليه ترجوه تستغفره .

﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾[الأنعام: ٦٢] .

ما معنى كلمة الحق ؟ أي لا مولى بحق إلا الله ، فالناس لضعف إيمانهم ولشركهم الخفي يعتقدون أن زيداً أو عُبيداً قوي ويَدْعَمُهم ويأخذ بيَدهم ويحفظهم ،هذا وليٌّ باطل ، الولي الحق هو الله جلَّ في علاه . أيُّ جهة دون الله إذا اتخذتها ولياً فأنت مبطل لأن الذي اتخذته ولياً باطل والباطل لا يقوم على قدميه ، زائل ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ اسمعوا قوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد : ١١] .

مثلهما مثل طفلين أحدهما بلا أب ولا أم ولا مال ولا بيت ، ينام

بالطرقات وبالحدائق ، قلبه ممتلىء خوفاً ، وآخر له أب مقتدر وعالم وديِّن وغني وللطفل غرفة خاصة به ، إذا مرض يؤخذ فوراً إلى الطبيب ، ويقدم له أحسن دواء وأرقى مستشفى ، إذا لم يحرز قصب السبق بالرياضيات يوفر له أساتذة يأتونه إلى البيت ، هذا الطفل له أب ولي يقوم عليه والآخر دون أب ولا أم ولا جهة تحميه ، حالته تعيسة جداً هذا معنى قوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد : ١١] .

ولله المثل الأعلى ، فالكافر لا ولي له لأنه رفض أن يكون الله وليَّه وأدار ظهره للدينِ والقرآن ، والحياة كلها مفاجآت ؛ تجد إنساناً بأعلى مكان وأعلى مرتبة وفجأةً يصبح أشلاء قال تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد : ١١] .

وقال تعالى :

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : ٦٢] .

والمعنى الأول للولي هو المُتَوَلِّي ، والمتولي هو الذي يقوم بالأمر كوَلي اليتيم يرعاه بدراسته وصحته وجسمه وغذائه وطعامه وأخلاقه وعلمه ، أيُّ خلل يسارِ إلى معالجته يعطيه ويحفظه ويُوَلِّيه ، الولي مِن الفعل تولى ، وتولى الأمر : دَبَّرَهُ وأقام عليه ، إذْ يستحيل أن يكون الابن بدمشق والأب بلندن ويربي الأب ابْنَهُ تربيةً جيِّدة ، فالقرب من لوازم الولي ؟ أجل ، القرب ، لذلك روي عنه عليه الصلاة والسلام : « **أيما امرأة قَعَدَت على بيْت أوْلادِها فهي معي في الجنة** » [ابن بشران عن انس] ، ولا تستطيع المرأة أن تربي أولادها وهي غائبة عنهم لا طعام ولا عناية ولا غسيل ولا نظافة ولا تربية ولا دراسة ،

فالوَلِيُّ هو المُرَبِّي الذي يتولى شؤون عبده كلها ، حاله كحال الصحة ، فإذا الإنسان خالف منهج صحته هناك أجهزة الإنذار لا يموت مباشرة ، فأجهزة الإنذار تنبهه ، هذا أهمل أسنانه تأتيه آلام فالآلام جرس إنذار مبكِّر ، فربنا عز وجل تولى تربية أجسامنا ؛ فهذا النسيج اللحمي يلتئم حسب الظاهر من تلقاء نفسه ، لكن لولا أن الله سبحانه وتعالى خلقه بطريقة يلتئم بها لما التأم ، هل سمعت مرةً أن شخصاً كسرت سيارته والتأم الكسر وحده ؟! هل يتم هذا في عالم السيارات ؟ أما في عالم البشر فممكن ، إذْ وظيفة الطبيب العظمي أن يضع العظمة بجانب العظمة وانتهى دوره ويتولى الله جل في علاه أن تلتئم العَظْمَتَان إذ الخلايا العظمية بعد اكتمال نُمُوِّ الإنسان تنام وتدخل في سُبات : ثلاثين سنة ، خمسين سنة ، فإذا حصل كسر تستيقظ ويَلْتئِم الكسر ، فالله هو الولي ، يتولى أمورك ، يعتني بك ويربيك ، ويلاحظ أحوالك إقبالك وإدبارك وانحرافك واستقامتك وإخلاصك ورياءك ؛ بل إن الإنسان يُعالج في كل ثانية ، لا يحدث شيء على وجه الأرض إلا بحكمة مطلقة وخير مطلق ومعالجة مطلقة ، وهذا هو معنى ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ وهو ولي كل خلقه حتى الكافر ، فالكافر يُتَولى ولكن بطريقة أخرى .

المعنى الثاني لكلمة ولي : الناصر ، قوله تعالى :

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] .

ينصر بعضهم بعضاً ، وقوله تعالى :

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت : ٣١] .

أيْ ننصركم على عدوكم في الدنيا والآخرة ، وأولياء السلطان أنصاره ، فالمعنى الأول : الولي هو المربي الذي يتولى أمر عباده جميعاً ، والمعنى الثاني الولي : الناصر .

والمعنى الثالث : المُحِبُّ ، والدليل قوله تعالى :

﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

أيْ يحبهم ، إذاً هو يرعاكم وينصركم ويحبكم ، لكن لو فتحنا كتب اللغة على معنى الولي لَوَجدنا أن الولي يُطلق على المُعْتِق والمُعْتَقِ أيْ على السيِّد والعَبْد في وقت واحدٍ ، وعلى الناصِر وعلى الجار ، وعلى ابن العم وعلى الحليف وعلى القيِّم بالأمر ، فهذه المعاني المتباعدة المختلفة أليس لها خيط يضمها جميعاً ؟ قالوا المعنى الذي يجمعها جميعاً ؛ الوَلِي : القريب والدليل حينما قال الله عز وجل :

﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة : ٣٤] .

و معنى أولى لك فأولى أيْ اقترب منك ما أنذرك الله به ، ويكاد أن يتحقق ، أيضاً قوله تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : ١٢٣] .

فكل معاني الولاية تصل فيما بينها أواصر معنى واحد يجمعها ، وهو أن الله جل في عُلاه مع عباده والدليل قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] .

هذه المعية العامة وقوله تعالى :

﴿ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٣٦] .

هذه المعية الخاصة ، موضوع القرب يحتاج إلى تفصيل .

إذا أمسك أحدهم مذياعاً موصولاً بمأخذ كهربائي وضمه إلى صدره وجعله بين جوانحه واشتد عليه أيهما أقرب إلى المذياع الذي ضمه بين جوانحه أم الكهرباء التي يعمل بها ؟ الكهرباء الذي تغذيه ولذلك : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] .

﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ فمهما شعرت أنَّ زوجتك أو ابنك أو جارك أو شريكك قريب ، فالله عز وجل أقرب إليك من نفسك .

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

[الأنفال : ٢٤]

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ فالمراقبة أساسها الشعور أن الله معك ، أحياناً بالصيف يرتدي الإنسان قميصاً داخلياً فإذا طُرق بابه ، فأول شيء يفعله أن يرتدي عباءته ويستحي أن يظهر أمام الضيف بقميص داخلي ، من أرقى أحوال المؤمن حال المراقبة ، فيوقن أن الله معه في خلوته وجلوته وفي سفره وحضره ، والإيمان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، هذا هو حال المؤمن مع الله ، هو حال الإحساس أن الله معه يستحي من الله عز وجل ، لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى مستأجراً استأجر أجيراً فأراد أن يغتسل فاغتسل أمام الناس عُرياناً ، فقال له النبي عليه الصلاة

والسلام : « **أراكَ لا تستحي من ربك ، خذْ أَجارَتَكَ لا حاجة لنا بك** » بلغني أنه في بعض الدول التي تؤمن أنه (لا إله) والتي أزالها الله ، أن طالبًا جامعيًا ذهب ليدرس في جامعتها فوجد مراحيضها بلا حواجز ، فمئة طالب يدخلون إلى هذا البهو الكبير ، يقضون حوائجهم بعضهم أمام بعض ، والحمامات كذلك كلهم لا يستحيون من الله ، فالإنسان يظهر حياؤه في ستر عورته ، ويحرص على أن يظهر أمام الناس بأجمل مظهر ، أما هذا الذي لا يبالي ولا يرعوي فهو إنسان لا يستحي من الله ، قال له أراك لا تستحي من ربك خذ أجارتك لا حاجة لنا بك ، فالله قريب وهو الولي الحميد ، تُوكل تربية ابنك إلى معلم يكون قاسياً يضربه ضرباً مبرِّحاً أو بالعكس يهمله ، قد يكون هناك معلم يدخل إلى الصف يُلقي درساً ولا يعطي وظيفة ، فالطالب طيلة السنة مستمع ، والمعلم ألقى الدروس والطلاب في واد وهو في واد ، ما أمسك بيده قلماً ولا شرح بيتاً شعرياً مثلاً ، فهذا الطفل لا تنمو قدراته العلمية إذْ نمو العلم بالممارسة ، فهذا ولي غير حميد .

وحظ المؤمن من هذا الاسم أن يكون ولياً لله عز وجل ، والتعريف الدقيق هو :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٦٣] .

فإذا كنت تحب أن يكون الله وليّك ؟ فكن وليّه بالإيمان به والاستقامة على أمره ، وعندها يصبح خالق الكون وليّك .

تشعر أن الله هو الذي ساق لك هذا وصرف عنك هذا ، وفرّج عنك وضيّق عليك . . فأنت مؤمن لشعورك أن الله هو مربيك ، لا لأنَّ

الإيمان منطقي كما يحلو لبعضهم أن يدَّعي ، حدثني أخ أنه ذهب متنزهاً يومَ جمعةٍ ، ومن عادته حضور درس علم في هذا اليوم ، ففقد في رحلته هذه وثائق سيارته ومبلغاً من المال ، لقد ربّاه الله ولقّنه درساً والنبي عليه الصلاة والسلام يقول : « **أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ** » [متفق عليه] من حديث عائشة ، أفضل خروج تخرجه من بيتك هو أن تتجه إلى مجلس علمٍ ، إذا خرجت من بيتك متجهاً إلى مجلس علم ، أتُحِبّ أن يكون الله وليَّك ؟إن كان كذلك وضعت الملائكة لك أجنحتها رضا بما تصنع ، وهذا ملخَّص مفيد إن شاء الله تعالى .

الحياة ممتلئة بالمخاطر ومخيفة ، وفيها منزلَقات ؛ زرتُ صديقاً لي في بيته وهو في أوج صحته وفي أعلى درجات الترف ، بعد يومين شعر بضيق التنفس فإذا به يعاني من مرض خطير ، فالإنسان بلحظة تصبح حياته جحيماً ، إذا كنت صالحاً وألمَّ بك مرض فقل الحمد لله ، لكن المصيبة أن تكون غارقاً في المعاصي والشهوات ، وحقوق العباد متعلقة برقبتك ويداهمك المرض العضال ، فهذه الصحابية الجليلة وهي امرأة من بني دينار أصيب أبوها وزوجها وأخوها بمعركة أُحد ، وهي تقول : ما فعل رسول الله! أرونيه حتى أنظر إليه! حتى رأته بأم عينيها فقالت : يا رسول الله! كل مصيبة بعدك جَلَلٌ [ابن هشام بسند حسن إلى سعد] .

فإذا كنت مستقيماً على شرع الله ، دخلك حلال ، وتغض بصرك ، وتخشع في صلاتك ، وتتلو كتاب ربك ، ولك مجلس علم ، فكل مصيبة بعد هذا تهون ، لي قاعدة ألتزمها في حياتي خلاصتها أنني لا أيأس : فإذا وقعت مشكلة أقول هذه لاتتعدى اليومين إن شاء الله

وهذه لا تتعدى ساعة فكل حال يزول مع الزمن ، فكل مصائب الناس تجد أولها صعباً وآخرها سهلاً ، مات شخص تحزن عليه وبعد شهرين تنساه ، أذكر القارىء الكريم : إذا كنت مع الله كان الله معك .

و إذا أردت أن يكون الله وليّك يجب أن تكون وليّه ، وكي تكون ولياً لله فالقضية سهلة جداً ؛ إذْ يكفي أن تكون مؤمناً به ومستقيماً على صراطه .

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : ٦٢] .

تواجه الشاب عدةُ عقبات فيما يخص مستقبله ، هل هو مشرق أم عابسٍ مكفهر ؟ هل زواجه ناجح ؟ هل ذريته صالحة ؟ إذا كان هذا الشاب مؤمناً بالله فإنه يقول :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ٥١] .

كلمة هو مولانا لها معنى دقيق ، أيْ : لن يصيبنا إلا الخير ، فما دام الله هو مولانا فلن يصيبنا إلا الخير .

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التغابن : ١٣] .

بعضهم قال : الولي من نصر أولياءه وقهر أعداءه ، والولي بحُسن رعايته منصور ، والعدو بحكم شقاقه مقهور ، والأمور تدور ، وحياتنا لا تستقر إلا بنصر المؤمن وقهر الكافر ، فالعبرة بالاستقرار ، المؤمن يُبتلى لكن لا تستقر حياته إلا بإكرام الله له ، والكافر تجده مشتتاً وهناك لا تستقر حياته إلا على الهلاك ، إذا أردت الجواب الدقيق فراقب شيخوخة مؤمن وشيخوخة كافر ، المؤمن كلما تقدمت سنه ازداد عقلاً وعلماً ونوراً ومكانة بين أولاده وإخوانه وجيرانه

ومجتمعه ، جالسه وانظر إلى وجهه ، فلعل مجالسة العلماء قربة إلى الله انظر طِيبَ سريرته ، وانظر إلى علاقاته الطيّبة ، تراه عفُوًّا سمحاً كريماً متواضعاً ثم انظر إلى إنسان أمضى عمره في الشهوات ، انظر إلى شيخوخة عمر .

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [النحل : ٧٠] .

لذلك لا يُعتَمد على فترة الشباب لأن المعوّل عليه خريف العمر ، هناك رجل صالح ذهب إلى المدينة المنوَّرة لِيُجاور النبي عليه الصلاة والسلام ، قيل رأى النبي ﷺ في منامه يقول له : عملك في بلدك خير من مجاورتي ، إذا جاورتني تسعدُ ولا ترقى وتوقف عملك ، في الحج نسعد جدًّا عند رسول الله ﷺ ، أما في بلدنا فنعمل الصالحات فنرْقى ، هناك نأكل وننام ونزور ونبكي ، ونعود إلى بلدنا ، لكن في بلدنا نعين على الإنفاق ، فهناك أماكن يسعد بها الإنسان ولا يرقى ، وأماكن يرقى ويسعد فعاد إلى الشام وأسَّس مدرسة دينيَّة وهي موجودة حتى الآن ، وعلَّم فيها ثمانين عامًا حتى كان يقول لبعض تلاميذه : يا بني كان أبوك تلميذي ، وكان جدّك تلميذي ، وعاش ستَّة وتسعين عامًا بِقامة منتَصِبة ، وَبَصرٍ حادّ ، وسمع مرهف ، وأسنان منتظمة ، ونشاط في الجسد ، وقوَّة في الروح ، وكل من سأله : ما هذه الصحَّة يا شيخ ؟ يقول : يا بني حفظناها في الصِّغر ، فَحَفظها الله علينا في الكبر! لا أظن أن إنساناً غض بصره عن محارم الله إلا حفظ الله له عينيه ، وما أصغى بأذنيهِ لكلام الله ولكلام النبي العدنان ﷺ إلا حفظ الله له سمعه ، وآخَرُ سار إلى المساجد يحفظ الله له رجليه ، وذاك أنفق بيده اليمنى صان الله يديه ، واعلم أنَّهُ ما من عشرة

ولا اختلاج عِرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله عنه أكثر ، فالولي بحُسن رعايته منصور والعدو بحكم شقاقه مقهور ، يقول الناس : ذاك إنسان فطس ، تعبيراً عن موته فهو غارق في الشهوات والزنى والانحراف ، فإذا أمضى حياته في المعاصي يكون هيّناً على الناس .

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ [الدخان : ٢٩] .

أما المؤمن فهو غالٍ على الله عز وجل وعلى الناس ، لذلك صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، مرةً كنت متجهاً إلى سوق الحميدية وجدت شخصاً ميتاً ، غِبْتُ ستة ساعات ورجعت ولم يأتِ قاضي التحقيق بعد . ومرة كنت في تعزية وجلس أمامي عالم جليل سألته عن صحته وحاله ثم قام من التعزية وخرج فشاهده شخص لا يعرفه ـ واحتراماً لهذا العالم ـ أوصله بالسيارة إلى بيته ، وبيته في الطابق الرابع وبعدها صعد ودخل بيته وغيّر ثوبه ، وأسلم روحه إلى ربه ، فلو أراد أن يستأجر مركبة لما وصل ، فسبحان الله ذاك مات بالطريق وهذا مات بفراشه ، وتجد من يموت بالمرحاض ، قال ﷺ « صنائع المعروف تقي مصارع السوء » [الطبراني من حديث ابي امامة] ، ألا تريد شَيْخوخة منوَّرة ؟ وشَيخوخة فيها وقار ، خالية من خرف فكن ولي الله ، أسمعُ قِصصًا عن المتقدِّمين في السنّ زوجته تعيِّره وأولاده يقولون له إذا تكلم : اصمت! لقد سمعنا هذه القصة منك آلاف المرات ، ويصبح عبئًا عليهم ، فهذا لم يحفظ نفسه وجوارحه في الصِّغَر ، لذا فاحْفظها في الصِّغَر يحفظها الله عليك في الكِبَر ، فمن عاش تقياً عاش قوياً . زرت عالماً عمره خمس وثمانون سنة ما يزال قوياً ، يذهب إلى عمله كل يوم ، وله عمل رسمي فهنأته على نشاطه

وسلامة جسمه ، وهناك بعض العلماء في مصر عاش مئة وثلاثين سنة ويتمتَّع بأعلى درجات الصحَّة ، فالقاعدة : الأتقى هو الأقوى ، والعاقبة للمتقين ، والقضيّة واضحة تمامًا ، من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت ، حدثني طبيب أن مريضاً أُصيب بضيق في الشرايين والحل هو أن يُكثر الناس الكلام معه كي يفكر فإذا فكر توسعت الشرايين وتغذى الدّماغ ، أما قارىء القرآن والمصلي فيحدث معهما نشاط ذهني من هذه الصلاة فقلما تجد إنساناً مصلياً ومن المكثرين لقراءة القرآن يصل إلى درجة الخرف .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠ـ٣٢] .

أكثر شيء في بحثنا هذا أن تكون ولياً لله ، حتى تستحق أن يكون الله وليَّك ، والحياة مزرعة الآخرة ، بها ترقى ، وليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ، فهذا الذي ينسحب من الحياة دراسة وعملاً وهو عبء على الآخرين فهو ليس كاملاً في إيمانه ، ولا من ترك آخرته لدنياه ،أهمل الآخرة وغاص في الدنيا ثم فوجىء بالموت ولكن من أخذ من كليهما فإن الأولى مطية للثانية .

﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

وقوله تعالى :

﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] .

الله ولي الخلق جميعاً صالحهم وطالحهم ، مؤمنهم وكافرهم ، ولايته للصالحين إكرامهم ، وولايته للكافر تربيته وتأديبه ، والدليل :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٧] .

الآية الأولى :

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الشورى : ٩] .

فالله هو الولي ، وهذه تعني شيئاً بالبلاغة ، هذه تعني القصر أيْ لا وَلِيَّ إلا الله ، فمن اتخذ غير الله ولياً بقي بلا ولي ؛ لأن ما سوى الله لا يُسمى ولياً .

الآية الثانية :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [الشورى : ٢٨] .

تحوي هذه الآية معنىً إضافياً ، فأول آية ﴿هو الولي﴾ أيْ لا ولي إلا الله ، أما الآية الثانية فهي ﴿ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ تشير هذه الآية إلى أن ولاية الله مطلقة في كمالها ، مثلاً قد تجد أماً مهملة وأباً مهملاً ومقصراً ، أما الله عز وجل إذا تولى مؤمناً فولايته مطلقة في كمالها وصوابها .

الآية الثالثة :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

تشير هذه الآية إلى أنه لا بد لك من ولي ، فإما أن يكون الله وليك ، وإما أن يكون الشيطان وليك ، إما أن تتحرك بإلهام الملائكة من الله ، وإما أن تتحرك بوساوس الشياطين ، فلا بد أن تكون عبداً ، عبداً لله أو عبداً لعبدٍ لئيم ، تجد الذين استنكفوا عن عبادة الله أذلهم الله أمام من هم أصغر منهم وحقرهم أمام الآخرين ، فإما أن يكون الله وليك ، أو لا بد أن يكون الشيطان وليك ، فالشيطان يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا يعلمون ، ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً .

الآية الرابعة :

﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية : ١٩] .

الولاية هنا مجازية لا بمعناها الحقيقي وإنما بمعناها المعاكس ، أي الظالمون يُورِّط بعضهم بعضاً في التهلكة والهلاك ، قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ والمتقون هم الطائعون ، فالله يتولى المتقي ، والظالم يتولى الظالم ، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ .

آية أخرى :

﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف : ١٩٦] .

إذا جاء التولي مع الصالحين كان ذلك تولياً بالإكرام ، أما إذا لم يكن الإنسان صالحاً فإن يتولاه الله بالمعالجة .

آية أخرى :

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥] .

إذا نظرت في التاريخ طالعك : أبو جهل وأبو لهب وأمية بن خلف ؛ هؤلاء ما مصيرهم ؟ قُتِلوا في بدر ثم قذفوا في البئر ، وخاطبهم النبي ﷺ فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - : أَنَّ رسولَ الله - ﷺ - ترك قَتلى بدر ثلاثاً ، ثم أتاهم ، فقام عليهم ، فناداهم ، فقال : ياأبا جهل بن هشام ، ياأميَّةَ بن خَلَف ، ياعُتبةَ بن ربيعة ، ياشيبة بن ربيعة ، أَليس قَد وجدتُم ماوعدَ ربكم حقّا ، فَإِني قد وجدت ماوَعَدني رَبي حقّاً ؟ فسمِعَ عمر بن الخطّاب قولَ النبيِّ - ﷺ - ، فقال : يارسول الله ، كيف يَسمعون ؟ أو أنَّى يُجيبون ، وقد جيَّفُوا ؟ قال : والذي نَفسي بيدِه ، ماأَنتُم بأسمعَ لما أقولُ منهم ، ولكنهم لا يَقْدرونَ أن يُجيبوا ، ثم أُمر بهم فسُحِبوا ، فأَلقوا في قَليب بدر . [أخرجه مسلم] .

والنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام رفعهم الله مكاناً عليًا ، أُنظر عبْر التاريخ فكل الذين والوا الله ورسوله أكرمهم الله عز وجل ورفع قدرهم وحفظهم ، والذين وَالوا الشيطان أُهلكوا ودُمِّروا وأصبحوا في مزبلة التاريخ ؛ إذاً هي إحدى المنزلتين ، إما في سجل الخالدين وإما في مزبلة التاريخ ، الذي وقف مع الحق ونصر دين الله عز وجل نصره الله عز وجل :

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [يونس : ٦٢-٦٤] .

ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة فالله يعطيك في هذه الدنيا بعض النفحات وبعض التجليات وبعض المؤانسات والرصيد يوم القيامة .

﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

لكن لهم البشرى في الحياة الدنيا ، حتى إن بعض العلماء قال : حينما قال النبي ﷺ : « **أبو بكر في الجنة** » أيْ الآن في الجنة ؛ جنة القرب لأن المبشر بالجنة له جنة في الدنيا ، والدليل :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦] .

فالأولى في الدنيا ، إذاً ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ .

الآية الأخيرة :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

فبِفضْل تولية الله للمؤمنين صاروا أولياء متحابين بعدما كانوا أعداء متباغضين .

وكذلك قوله :

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ٤٥] .

فالله عز وجل إذا تولى أمر قوم كفاهم ، ولقد تقوم ذات يوم بزيارة طبيب ثم تقول والله ما استفدت شيئًا ، أريد طبيبًا آخر ، أو توكّل محاميًا فلا يعجبك فتريد آخر ، لكن إذا تولاك الله تعالى فهو الذي يُطمئنُك ، قال تعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ٤٥] .

* * *

المحصي

الاسم هو المحصي قال الله عز وجل في القرآن الكريم :

﴿ لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم : ٩٤] .

أذكر القارىء الكريم بحديث لرسول الله ﷺ وطالما ذكرته في أبحاثي : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِئَةً إلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ » .

[رواه البخاري ومسلم] .

يتوهم المتوهمون أن الإحصاء هو العد ؛ فمن عدها دخل الجنة ، وهذا خطأ في فهم كلمة أحصاها ، وهناك قاعدة وهي أن الشيء العظيم لا يصح أن يتوقف على شيء ضعيف ، فهذه التفسيرات والتأويلات السطحية لهذا الحديث ليست صحيحة ، فدخول الجنة التي خُلق الإنسان من أجلها ، والتي كُلِّف أن يعرف الله ، وأن يستقيم على أمره لا تكون فقط بِعَدِّ هذه الأسماء ، فليس معنى الإحصاء هو العد ، وهناك قاعدة في اللغة وهي : الاختلاف في المبنى دليل على الاختلاف في المعنى ، قال الله :

﴿ لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم : ٩٤] .

فالعد شيء والإحصاء شيء آخر ، فالعد معروف تقول : عندي ثلاثون كتاباً ، أما الإحصاء فأن تقول : قرأت كل هذه الكتب وفهمتها صفحة صفحة ، قيَّمتها ، وعرفت أخطاءها وصوابها وفوائدها ؛ فالإحصاء يعني العِلم الدقيق ، ولو سألت عن عدد الموظفين في مؤسسة وقيل لك : مئة وثمانون فهذا عدٌّ ، أما إن ذُكِرتْ لك أوصافُهم ؛ قدراتهم وكفاءاتهم ، أوضاعهم المعاشية ، والاقتصادية والفكرية صار إحصاءً ، فالإحصاء هو الذي يفيد العلم ، فالمحصي هو اسم متعلق بعِلم الله عز وجل ، لكن هناك مع الإحصاء جزئيات وتفاصيل ومعلومات دقيقة جداً ، فالذي يملك معلومات كلية وإجمالية شمولية شيء ، والذي يملك أدق المعلومات مع فروعها شيء آخر ، فهذا الأخير هو الإحصاء ، لذلك قالوا : الإحصاء هو الإحاطة بتفاصيل كثيرة للأشياء وليس هو التعداد ، وإذا قلت : هذا أمر لا أحصيه أي لا أطيق ضبطه ، والله سبحانه وتعالى هو المحصي الذي يحصي الأعمال ويعدها يوم اللقاء ، فالإنسان لا يستطيع أن يعدَّ كم يوماً عاشه وكم نزهة قام بها وكم كلمة لفظها ، لكن الله سبحانه وتعالى يعلم كل أعمالك بدقائقها وتفاصيلها ومناسباتها ودوافعها وأهدافها ، كل هذا تراه يوم القيامة رأي العَيْن وهذا هو معنى المحصي .

الله هو المحصي أي هو الذي يحصي الأعمال ويهيئها بتفاصيلها ليوم القيامة أو ليوم الحساب أو ليوم الجزاء أو ليوم الثواب والعقاب ، وقيل : المحصي هو العليم بدقائق الأمور وبأسرار المقدور ، هو بالمظاهر بصير وبالبواطن خبير ، وهو المحصي للطاعات والمحصي لجميع الحالات ، والمحصي لأنفاس الخلائق والخبير بخفي

الوساوس وهو العليم بجميع الموجودات وعدد حركاتها وسكناتها وشؤونها ، قال تعالى :

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

فالإنسان إذا أيقن أن الله عز وجل يحصي عليه كل حركاته وكل أنفاسه وكل أفعاله وكل وساوسه وكل ما تنطوي عليه نفسه من نيات وبواعث وأهداف وصراعات كان شأنه مع الله شأناً آخر ، ومن العلماء من يرى أن المحصي هو العالم ، فأدق المعلومات وجزئياتها إذا أضيفت إلى عِلم الله عز وجل صار الاسم هو المحصي ، والمحصي هو المطلق الذي ينكشف في علمه حدُّ كل معلوم ،أحياناً تسأل شخصاً سؤالاً فيقول لك : لا أعرف ، وآخر تسأله عن تقدير عدد الطلاب مثلاً فيقول لك : لا بد من أن أراجع السّجلات ، فأكثر الناس لا يستطيعون ـ طبعاً إذا كانوا صادقين ـ الإدلاء بمعلومات دقيقة ،لأنهم يفتقرون إلى سجلات ومحاسبين ، لكن الله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء بدقة .

العبد إذا أمكنه أن يُحصي بعلمه بعض المعلومات فهو يعجز عن أكثرها ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ لم يقل الله تعالى وإن تعدوا نعم الله وإنما جاءت بالمفرد ، والسؤال هل النعمة الواحدة تُعد ؟ استنبط العلماء أن النعمة الواحدة لو أمضيت كل حياتك تَعُدُّ خيراتها وبركاتها ومنافعها تنقضي حياتك ولا تنقضي منافعها ، فهذا من إعجاز القرآن الكريم ، ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ ﴾ ؛ فأنتم عاجزون عن إحصائها فلأَنْ تكونوا عاجزين عن شكرها من باب أولى ، كلكم يعلم أن الإنسان إذا رُزِق مولوداً تتابعت الهدايا الكثيرة يتمكن بسهرة

واحدة أن يحصي مجموع هذه الهدايا ، أما مكافأة أصحاب هذه الهدايا فيحتاج إلى مال كثير ، وإلى جهد كبير ، وإلى أمد طويل ، ففرق كبير بين إحصاء هذه الهدايا والمكافأة عليها ، فربنا عز وجل أثبت لنا عجزنا عن إحصاء النعم ، فما بالُكم عن شكر النعم! فأنتم عاجزون عن إحصائها ، فلأَنْ تكونوا عاجزين عن شكرها من باب أولى ، لذلك فالإنسان في موضوع الإحصاء يبدو ضعيفاً جداً ، فأيُّ مدير مثلاً أراد أن يتخذ قراراً دقيقاً في مؤسسة يحتاج إلى طاقم من المحاسبين والمستشارين ، فمعنى الإحصاء في حديث رسول الله هو العِلم ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِئَةً إلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ » . [رواه البخاري ومسلم] .

وقيل : المحصي هو المحيط بكل شيء جملة وتفصيلاً لا تخفى عليه خافية لا في الأرض ولا في السماء ، وقال بعض العلماء : المحصي هو الذي بالظاهر راقب أنفاسك وبالباطن راقب حواسك ، وقيل المحصي هو الحافظ لأعداد طاعتك ، العالِم بجميع حالتك ، فأنت أمام الله مكشوف ولا تخفى عليه من خلقه خافية أبداً ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ فمن باب أولى كل حركاتك وسكناتك بعلم الله عز وجل ، فلما أمر الله عز وجل أم موسى رضي الله عنها أن تلقي ابنها في اليم ، كانت حركات الموجات وحركة الصندوق بعلم الله عز وجل و سَوْقه إلى الشاطىء كان بعلم الله عز وجل ، ونزول امرأة فرعون بالذات في هذه اللحظة بعلم الله عز وجل ، فهذا هو الإحصاء ؛ علمٌ بالدقائق والتفاصيل ، فأكثر الناس علمهم بالكليات والإجمال أما التفاصيل فيقول لك لا أعرف ، فتركيب الدواء مثلاً

يمكن أن يقال عنه هو نافع لكذا ، أما عن تفاصيله فعليك الرجوع إلى التعليمات الموجودة بالوصفة ، إذاً العالم بالدقائق هو الذي يستلزم اسم المحصي ، الإمام الرازي يقول : إن هذا الإحصاء راجع إلى علم الله سبحانه وتعالى بعدد أجزاء الموجودات وعدد حركاتها وسكناتها .

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [هود : ٦] .

فالدابة وردت نكرة في الآية ، والتنكير هنا تنكير شمول ، أيُّ دابة على وجه الأرض ؛ نملة ، حشرة ، جرثومة ، فيروس ، الذي لا يُرى حتى بالمجهر الإلكتروني ، فأي شيء يدب على وجه الأرض فهو دابة ، فكلمة : « مِن » تفيد استغراق أفراد النوع ، دابةً دابةً استقصاءً ، رزقها على الله ويعلم مستقرها ومستودعها ، هذه الدابة أين مستقرها ومستودع رزقها ؟ إذا كان رزقها قمحاً فأين هو ؟ بالجزيرة مثلاً أو ببلد ما أو مستورد ؟ يعلم مستقرها ومستودعها هذا هو المحصي .

ومن المعاني المهمة لكلمة المحصي هي : أن الله عز وجل يحصي لك أعمالك ؛ الصالحة والطالحة فكل شيء مسجل خيراً وشراً ، أعمالك الجليلة مسجلة والصغيرة مسجلة ، وهذا المعنى يجعلك إذا أحسست أنك مراقب وكل حركاتك مسجلة فهذا يستدعي أن تكون منضبطاً ، ونقف عند بعض الآيات التي ورد فيها لفظ المحصي ، علماً أن كلمة المحصي لم ترد في القرآن الكريم ولكن وردت مادة الإحصاء وفي مواضع كثيرة .

ففي سورة مريم :

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم : ٩٣-٩٤] .

في سورة يس :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس : ١٢] .

وفي سورة النبأ :

﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴾ [النبأ : ٢٩] .

فكل هذه الآيات ورد فيها فعل الإحصاء ، لذلك حظ العبد من هذا الاسم هو : أنه متى علم أن الله يحصي عليه كل حركاته وسكناته وخواطره وأنفاسه ونياته شعر أن الله عز وجل بالمرصاد ، وعليه أن يكون في وضع يستحي فيه من الله عز وجل ، فيجب أن تراقب قلبك ، ولتعلم أن الله عز وجل يراقبك ، لذلك سيدنا عمر يقول : « **فتعاهَدْ قلبك** » ، فنحن دائماً نتعاهد أجسامنا ، بحيث نسرع لوقاية أيّ عضو أُصيب ، أما المؤمن فإنه يتعاهد قلبه كذلك ويخشى أن يرى الله عز وجل في قلبه شيئاً لا يرضيه ، ولذلك قالوا القلب منظر الرب ، كأن الله يقول : « **عبدي طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت قلبك ساعة ؟** » ، ومن الآداب التي يجب أن يتحلى بها المؤمن أن يحصي هو أيضاً أخطاءه ويحصي أفعاله ويحصي أيامه ، ويحصي نِعَمَ الله عليه ، فهناك شخص أعرفه يسجِّل أخطاءهُ ليستغفر الله عز وجل عند تذكرها ويُقابل كلّ خطيئة بِعَمل صالح ، مع أنّ الإحصاء بين العبد والربّ فيه فرق وبَون شاسع ، ولكن يجب أن تُعلِّمَ نفْسك أن

تُحصي أيّامك ، يقول : مضى من عمري كذا ، فهل بقي لي بِقَدر ما مضى ؟! واللهِ هذا سؤال دقيق ونافع جداً ، وهو سؤال محرِج ؛ كيف مضَتْ هذه السنوات الأربعون ، أوالثلاثون ، إذًا مضى من عمري أكثر ممَّا بقي ، وهذا الذي مضى كلمْح البصر ، فالذي بقي أقلّ ، فكيف أشغل هذه الأيام والليالي ؟ كيف سأُنظِّم برنامجي ؟ وكيف سأطلب العلم ؟ وما العمل الذي سألقى به الله تعالى ؟ فالعبد إذا أحصى أخطاءه واستغفر الله منها كان هذا حافزاً إلى طاعة ربه وابتعاده من الغفلة ، بعضهم دعا ربه سبحانه وتعالى فقال : إلهي أنت المحصي لحركات العباد والمحيط بعمل أهل الجفاء وأهل الوداد أحصيت جميع الأسرار في الإنسان وجمعت فيه سائر الأكوان ، اكشف عن قلوبنا الحجاب حتى نشهد في أنفسنا أنوار المعطي الوهاب وامنحنا نور المراقبة حتى نراقب جميع أعمالنا ونحصي سائر أحوالنا إنك على كل شيء قدير .

الحقيقة أن أسماء الله الحسنى مهما تحدثنا عنها فلن نوفيها حقّها لأن الله عز وجل لا نهاية لكماله ، فمن أسماء الله الحسنى الأخرى : الحفيظ ، ربنا عز وجل قال :

﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ : ٢١] .

اخترت هذا الاسم مع الاسم الأول لشدة العلاقة بينهما ، فالله سبحانه وتعالى حفيظ ؛ حفظ لنا القرآن الكريم قال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

وهذا من النعم العظمى ، تقرأ القرآن وأنت واثق أنه كلام الله حقاً ، فالله هو الذي تولى حفظه حتى لو أن الإنسان أخطأ في القرآن

لصاح به الصبية في كل مكان ، فهو المنقول بالتواتر ، وحِفْظ الله له جعله مصوناً عن تحريف المبطلين مهما كانت قوتهم ، سمعت مرة أن الأجانب طبعوا خمسين ألف نسخة في تركية وحذفوا كلمة واحدة من قوله تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

حذفوا كلمة [غير] فجُمعت كل تلك النسخ وحرِّقت وهذا من حفظ الله للقرآن الكريم ، وحفظ الله هذا القرآن بأن سخر له علماء أجلاء ، قوله تعالى :

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ [الرعد : ١١] .

﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ﴾ فهذا حفظ الله للإنسان كذلك بالإضافة لحفظ القرآن بأن سخر له ملائكة يحفظونه وربنا عز وجل يقول :

﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود : ٥٧] .

والنبي عليه الصلاة والسلام علمنا أن نقرأ قبل النوم آية الكرسي وقال : « لن يزال عليك من الله حافظ » [رواه البخاري] ، فقد تصيبك أخطار في الليل فالله هو الحافظ ، ومعنى حفيظ كذلك : يحفظ الأعمال قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ وهذا المعنى الثالث وهناك معانٍ أخرى في قوله تعالى : ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ وقوله :

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر : ٤١] .

فهو سبحانه الذي يحفظ الوجود من الاضطراب ثم العدم ، خلق

الكون ويحفظ بقاءه وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ ومَن يحفظ للأرض توقيتها ومسارها ؟ هو الله جل جلاله .

وهو الذي يحفظ لك دينك ولو تخلى عنه لزلت به شبهة أو شهوة ، فسلامة دين المرء دليل على حفظ الله له من كل سوء ، ومن معنى الحفيظ : الوكيل ، قال تعالى :

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود : ٥٧] .

فمعنى الحفيظ ومعنى المحصي تجمعهما قواسم مشتركة ، فالحفيظ حفظ لك القرآن الكريم ، والحفيظ حفظك من شر ما خلق ، ألا تقرأ قوله تعالى :

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق] .

فعلى المؤمن أن يُعوِّد نفسه قراءة المعوذات كل يوم ، لكن هل هناك فرق بين الاستعاذة بالله واللياذ بالله ؟

الاستعاذة من الشر واللياذ في الخير ، لاذ بالله ليرزقه طفلاً ، لاذ بالله ليرزقه رزقاً حسناً واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، فالعياذ من الشر واللياذ في الخير ، الإنسان يستعيذ أحياناً من الشيطان الرجيم ولا يرى نتيجة لهذه الاستعاذة فكيف نجيبه ؟ فالاستعاذة ليست مجدية إلا إذا كان القلب حاضراً ، فإذا كانت الاستعاذة لفظية فهذه لا تقدم ولا تؤخر ، وربنا عز وجل يقول : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ فهناك مخلوقات شريرة ، يحمل الإيدز بأمريكا مئتان وأربعون

ألف شخص مات منهم مئة وأربعون ألفاً ، ومليون إنسان يحملون هذا المرض في مختلف أصقاع الأرض فهذا : من شر ما خلق ، ويقدرون أنه بعد خمس سنوات أو عشر سيصبح الرقم فلكياً ، ولا يشغل العالم الغربي اليوم إلا هذا المرض ، والنبي عليه الصلاة والسلام قال :

« يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمِ الَّذِينَ مَضَوْا . . ». [رواه ابن ماجه] .

فما ظهرت الفاحشة في قوم حتى يُعلنوا بها إلا أصابتهم الأسقام التي لم تكن في أسلافهم ، النمو العشوائي للخلايا هو كذلك من الأمراض المزمنة التي تُحير العلماء ، فهذا من يحفظك منه ؟ الله خير حافظاً ، العلماء يقولون : المؤمن يجتهد أن يحفظ نفسه من اتباع الشبهات والبدع ، فحظك من هذا الاسم أن تحفظ نفسك من الشبهات والبدع ، والبدع جدٌّ خطيرة ، وأخطر من هذا أن تحمل عقائد ليست صحيحة ، فخطأٌ في العقيدة يَنسحب على جميع أعمالك ، فالمؤمن دائماً مع مراجعة نفسه ، فالحفظ هنا هو حفظ نفسك من العقائد الزائغة ، وكذلك أن تحفظ جوارحك من المعاصي والآثام ، ومما يدفع المرء للمعصيةِ الشهوةُ والغضب ، فهما سببا الطغيان . فالزنى معصية كبيرة جداً ، ذكره الله تعالى بين قتلين ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ۖ ﴾ .

فجاء النهي عن الزنا بين النهي عن قتلين فالزنى كالقتل تماماً ،

وكيفية التخلص من هذا هو البعد عن أسباب الزنى وليسَ الزنى ؛ وأسباب الزنى الخلوة والمصافحة والاختلاط والنظر هذه كلها تجعل بينك وبين الزنى هامشاً أمامياً ، إذاً قوام الأمر حفظ النفس من عقائد مضلة والجوارح من أسباب الشهوات .

ذكر الله في القرآن عبداً من عباده اتصف باسم الحفيظ ؟ قال تعالى :

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٥] .

فهذا من التخلق بكمالات الله ، فالمؤمن من علاماته الحفظ ألا يضيع ما تحت يديه ، وغير المؤمن من علاماته التِّيه ، قال الله تعالى :
﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨] .

فالمؤمن فطِن وكيِّس قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء : ٧١] .

إن الحفيظ هو الذي هداك إلى التوحيد وخصك في الخدمة بأنواع الحفظ والتسديد ، إذا هداك الله إلى التوحيد وجعلك ممن تخدم الخلق فهذا من كرم الله عز وجل وتحقيقاً لاسم الحفيظ ، وقيل أيضا : الحفيظ هو الذي صانك في حال المحنة عن الشكوى ، وفي حال النعمة عن البلوى ، فإذا راجت تجارتك فاحفظ دينك ، وإذا كسرت فاحفظ مالك ، ويحفظ الله المرء من الشياطين إذا استعاذ به المستعيذ ، سيدنا موسى حينما رأى هذا القبطي وقد اعتدى عليه المعتدون قال : ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ في بعض الأحيان يقوم بعضهم بارتكاب جريمة من أجل شيء زهيد ، وعلى هذا يجب على الإنسان أن يستعيذ من ساعة الغفلة عن الله عز وجل ،

فالحفيظ يحفظ لك عقيدتك وجسمك وأهلك ومالك .

وهذا معنى آخر من معاني الحفيظ : أن الله سبحانه وتعالى لا ينسى قال تعالى : ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ ، فالإنسان قد ينسى ولكن الله تعالى منزه عن ذلك . الحفيظ أيضاً هو الذي يقوم بالرعاية والعناية .

خلقت فيهم عيوناً يبصرون بها ... وقد خلقت بهم للسمع آذانا

لو لم تكن أنت يا رباه حافظهم ... لم تشهد الأرض فوق الأرض إنسانا

العين حفظها الله لنا ؟ موضوعة في مكان محفوظ وآمن ، افترض أنها وضعت على الجبين لفُقِئت منذ أول سقطة يسقطها الإنسان فسبحان الله الذي وضعها في مكان حصين مكين ، كذلك الجمجمة بمفاصلها المتداخلة ،الشرايين مكانها داخلي ، والأوردة مكانها خارجي ، فلو عُكس الأمر لصار الضغط عالياً فكل هذا من حفظ الله ، إذا جاع الإنسان ؛ السبب الوحيد لجوعه هو : افتقاد كمية من السكر في الكبد وليس في الدم بديل ، فلو جاء خبرٌ مفزعٌ لهذا الجائع لزال عنه الجوع ، فمن حفظ الله لنا أنه جعل لنا الإحساس بالجوع يبدأ عندما تنقص كميات السكر في الكبد ، ومن حفظ الله لنا أنه جعل لنا في العظام أعصاباً حسية ، فلو انعدمت لمشى الإنسان بعد انكسار رجله عليها دون أن يشعر حتى يتفاقم الكسر ، وهذا من نعمة الله أن جعل لنا أعصاباً حتى إذا أُصبنا تُرسل تنبيهات ألَم كي نبقى على حالنا ولا نتحرك وكي يسهل العلاج بعد الكسر ، ومِن حفظِه أن جعل كل الأطعمة السامة مُرَّةً ، فجسمنا يحمل مناعةً تحارب الجراثيم ، فلو أمعن المرء النظر إلى جسمه لكفاه أن يدرك حقيقة حفظ الله لنا .

* * *



الاسم هو الخبير ، والخبير من أسماء الله الحسنى كما أنه لا يخفى على القراء الكرام أن أسماء الله كلها حسنى ، قال تعالى :

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ، وكمال الله جل جلاله كمال مطلق ، على حين أن كمال الإنسان كمال نسبي ، فعدل الله مطلق ، وقدرتُه مطلقة ، ورحمتُه مطلقة ، وعلمه مطلق .

ومن المعلوم عند القارىء الكريم أن الخبير صرفياً وزنه فَعِيل ، ومن معاني فعيل مُفْعِل فخبير بمعنى مُخبِر ، ويراد به أنه متكلم ، وأن القرآن كلام الله عز وجل ، والمعنى الآخر للخبير هو الذي يعلم كل شيء ولا يغيب عن علمه صغيرة ولا كبيرة ، وهو العالم بكُنْه كل شيء ، ومطلع على كل حقيقة مهما دقت أو خفيت ، العليم بدقائق الأمور لا تخفى عليه خافية ، يعلم الداء والدواء ، العلم بظاهر الأشياء وبواطنها بشكلها وحقيقتها وبجلائلها ودقائقها بما تراه عينك وبما يخفى عنها ، يقول أحد العلماء : الخبير هو الذي لا تغرب عنه الأخبار الباطنة ، ولا يجري في الملك والملكوت شيء إلا بعلمه ، ولا تتحرك ذرة ولا تسكن إلا بعلمه ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا

بعلمه ، وقيل : الخبير الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ولا تتحرك حركةٌ ولا تسكن ساكنةٌ في السماء والأرض إلا يعلم مستقرها ومستودعها . لكن قد يسأل سائل : أليس هذا هو العليم ؟ هذا كله يمكن أن يكون شرحاً لاسم العليم فما لنا نتحدث عن اسم الخبير بما يشبه اسم العليم ؟ الحقيقة أن العلماء فرقوا بين العليم والخبير .

فالخبير يفيد معنى العليم ، ولكن العليم لا يفيد معنى الخبير ، لذلك اسم الخبير هو عليم ومع العلم شيء آخر ، وسوف أُوضِّح عن طريق الأمثلة الفرق الدقيق بين العليم والخبير ، وهناك آية في القرآن الكريم ورد فيها اسم الخبير ، وسأجعلها أساسًا لهذا البحث ، وقد ثبت في القرآن لفظ الخبير أكثر من أربعين مرة فقال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٣٤] .

لو أنني أمسكت هذا الكأس ووضعته في هذا المكان ، أنتم جميعاً رأيتم أنني نقلته من مكان لآخر فذا هو العلم ، ولكن لماذا نقلته ؟ ما الدوافع التي حملتني على نقله ، وما الخواطر التي خطرت ببالي حين نقلته ، وماذا أبتغي بنقله ، وما الباعث على نقله ، علمُك أنه انتقل من مكانٍ لآخر هذا يسمى علماً . أما الخبير فمنه إنه إذا قال الله عز وجل : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فهذا يعني أنه يمكن أن تعمل عملاً لا يشك أحد من الخلق أنه عمل طيب ، وتكون النية ليست طيبة ، فالله خبير بما تعمل ، قد تدعي شيئاً وأنت على خلافه ، وقد تريد

شيئاً في الظاهر ، ولكنك في الباطن لا تريده ، وقد ترحب وأنت تبغض، وقد تغضب وأنت تحبّ ، حقيقة العمل ومؤدّى العمل هي للخبير ، فهو الذي يعلم ذلك ، فالخبرة العلم بدقائق الأمور وببواطنها وبواعثها وبأهدافها البعيدة وبما يخامر فاعلها من مَشاعر .

آية ثانية :

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٣٤] .

من باب الطرفة نقول : هذه أسرة تزورها ذات يوم من أيام الشتاء صديقة الزوجة وتجلس مع الزوجة في غرفة مجاورة ، يقول الزوج تعالي إلى هنا فالغرفة هنا أدفأ ، يا ترى هل هذا الذي ذكره هو الحقيقة ، أم هناك شيء يخفيه ولا نعلمه ؟ فالله خبير والأعمال بِحَجمها وتفاصيلها ، وبواعثها وأهدافها وأبعادها وبمقاصدها وخلفياتها وجزئياتها لا يعلمها إلا الله ، فالله هو الخبير ، قال تعالى :

﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران : ١٥٣] .

قد تجد إنساناً يعمل عملاً طيباً ، وربما ساق الله له بعض المصائب فتقول : لِمَ أصيب وأعماله طيبة ؟ أنت لا تعلم لأن الله هو الخبير ، لم يَسُق الله له هذا الحادث إلا لحكمة بالِغةٍ ورحمة به ، فالله بما تعملون خبير ، مثلٌ آخر ؛ طبيب له الحق أن يرى موضع الألم من المرأة ، لكنه إن نظر إلى موضع آخر لا تشكو منه فهل على وجه الأرض جهة تكشف خيانة بصره ؟ لا . . إلا الله ، قال تعالى :

﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] .

وقال تعالى :

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ [الحديد : ٢٢] .

فإذا أرسل الله عز وجل مصيبة فلا تحزنوا لمجيئها ، ولا تفرحوا بما آتاكم فالله خبير بما تعملون ، حكمة الله اقتضت أن يرسل عليكم هذه المصيبة ، إنسان صالح هو في حركة انتقال من بيته إلى مسجده وبالعكس ، رزقه الله تعالى مبلغاً كبيراً من المال ، هل سيبقى على حاله أم يتغير ؟ هذا لا نعلمه ، لكن الله يعلمه فالله خبير بما تعملون ، عَلِم ما كان وعلمَ ما يكون وعلمَ ما سيكون وعلمَ ما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، إن من عباد الله من لا يصلحه إلا الفقر فإذا أغناه أفسد عليه دينه ، وإن من عباد الله من لا يصلحه إلا الغنى فإذا أفقره أفسد عليه دينه ، فمن الذي يعلم حقيقة النفس ، كنت مرة في طريقي فرأيتُ جداراً منهاراً بسبب هبوب عاصفة هوجاء بلغت سرعتها مئة وثمانين كيلومتراً في الساعة ، فهذا الذي بنى الجدار هل يعرف السرعة التي ينهدم فيها الجدار ؟ لا يعرف ونحن إذا أردنا أن نعرف لا بد من التجارب ، فبعض المعامل من أجل أن تعرف مقاومة الآلات ، تضعها في ظروف صعبة بمركَبة تنتقل بِسرعة مئة كيلو متر وأمامها جدار من الإسمنت المسلّح ، طبعًا يحتالون على أن تنطلق من غير سائق ترتطم بهذا الجدار ، فيختبرون مقاومة هذا المعدن وهذا الهيكل على سرعة مئة كيلو متر ، ماذا فعل بها هذا الصَّدم الشديد ؟ وإلى أي مكان وصل هذا الصّدم ، ويبنون على هذه التجربة خبرتهم!

إن الإنسان الذي صنع هيكل مركبة وغلّفها وهيَّأها ، لا يعرف في حال اصطدامها بِجدار مدى تأثير الجدار فيها إلا بعد الاختبار ، فنحن لا نعلم إلا بالتجربة ، فخبرة الله قديمة ، وخبرة الإنسان مكتسبة ، والدليل أن خلق الإنسان لم يطرأ عليه أيُّ تغيير منذ خلقه الله سبحانه وتعالى . فالبشر من العصور القديمة وحتى الآن لم يطرأ تغيير على خلقهم . ولكننا إذا نظرنا إلى سيارة صنعت سنة ألف وتسعمئة مثلاً ، ترى بينها وبين التي صنعت سنة ألف وتسعمئة وخمسة وتسعين بَوْناً شاسعاً غير معقول ، فالقطار الأول الذي صنع قديماً ألزمتهم الجهات المؤولة أن يمشي إنسانٌ أمامه كي يحذر الناس منه حينما يسير ؛ فسرعته كانت تعادل سرعة الإنسان أما الآن فالقطار ينطلق بسرعة ثلاثمئة وستين كيلومتراً في الساعة والتطورات ما زالت تأتي بالجديد ، فالإنسان خبرته مكتسبة وحادثة ، أما الله فخبرته قديمة بدليل أن كل شيء خلقه الله خلقه منذ اللحظة الأولى في أبدع صورة وفي أكمل حال وما زال على صورته وحاله . قال تعالى :

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل : ٨٨] .

مرة كنت عند أحد إخواننا الكرام الذين يعملون في إصلاح السيارات ورأيت عندهم قطعة ميكانيكيّة مُلقاة على الأرض فقلتُ : ما قِصَّة هذه القطعة ؟ فقال : جاءَت وجبة مركبات فيها هذه القطعة ، وبعد عشرة آلاف كيلو متراً من استعمال المركبة ، تكسر من هذا المكان وأشار إليه ، ويوجد فيها منطقة ضعيفة ، والذي صنع هذه الآلة لم يكن يتخيَّل أنَّ هذا المكان ضعيف على التحمّل وبذل الجهد ، ومنها علمت أنّ كلّ تعديل يطرأ على مركبة أو على آلة دليل

نقص في الخبرة ، والنقص في الخبرة يتلافونه في العام القادم! فالتطويرات التي تطرأ على خبرة الإنسان دليل على أن خبرته ناقصة ومكتسبة وحادثة ، أما خلق الله الكامل والذي لا يزال كاملاً وسيبقى كاملاً فهو دليل على أن خبرة الله قديمة ، حليب الأم مثلاً فقير إلى الحديد وهو معدن أساسي جداً في تكوين خضاب الدم ، لو فحصنا طحال وليد رضيع نجد أن فيه كمية حديد تكفيه عامين إلى أن يتمكن من أن يأكل غذاءً منوّعاً ، فمن فعل هذا ؟ الخبير ، ولماذا جُعل ثقب بين الأُذين والأُذين في القلب ، كشفه العالم بوتال وهذا الثقب وظيفته أنه مادام الطفل في بطن أمه ولا يلزمه هواء ولا يتنفس والرئة معطلة ، لذلك بدل أن يدور الدم إلى الرئة ويعود إلى الأُذين ينتقل من أُذين إلى أُذين ، وحينما يولد الطفل تحدث له جلطة لتغلق هذا الثقب كما قال العلماء ، وعندها تنتقل الدورة التي كانت من الأذين إلى الأذين فتصبح من الأذين إلى الرئة كل هذا من صنع الخبير ، ويلح علينا الآن سؤال هام ؛ لماذا لا نجد في أظافرنا وشعورنا أعصاباً حسية ؟ فلو كان الأمر كذلك لاحتجنا إلى الذهاب إلى المستشفى لتقليم أظافرنا وشعورنا ولاحتجنا إلى تخدير . فهذا هو الخبير الذي أعطى كل شيء خلقه ، إذ لم يجعل أعصاب الحس في الأظافر ولا في الشعر ولكنّه جعل أعصاب الحس في العظام! فإذا انكسر العظم تألّم الإنسان أشد الألم ، فالشعور بالألم أربعة أخماس العلاج! كذلك لو دققت في خلق الإنسان وفي خلق الحيوان والنبات لرأيت العجب العجاب ، لو ترك الفلاح الشجرة بلا سقيا ما الذي يحصل ؟ ستستهلك هذه الشجرة ماء الورق ثم ماء الغصن ثم ماء الفروع ثم ماء الجذع ثم ماء الجذور وآخر ماء تستهلكه هو الماء الذي في آخر الجذر ، فلو كانت الشجرة

تستهلك الماء ابتداءً من الجذور لماتت كل الأشجار لمجرد توقفنا عن سقياها مرة واحدة ولكن الله رحمة بنا جعل الدورة معاكسة ، ولماذا ينكمش الماء إذا بردناه ؟ أما إذا وصل إلى درجة زائد أربعة فيزداد حجمه ، هذه الظاهرة لولاها لما كانت حياة على سطح الأرض ، كل هذا من فعل الخبير ، قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

حتى العدل مع الكافر قُربة إلى الله ، قد تقرّبه إلى الإيمان حينما تعدل مع الكافر ، فهل هذا ابتغاء مرضاة الله أو خوف من الإنسان ؟ من يكشف ما إذا كان هذا الإحسان صادراً عن خوف من الناس أوعن ابتغاء مرضاة الله ؛ هو الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ، وفي آية أخرى :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٨] .

وقوله تعالى :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

[الأنعام : ١٠٣]

لو احتال طبيب أسنان على قلع ضرس طفل فمهما يهون على الطفل ومهما يداعبه فإن الطفل يشعر بالألم ، إما بألم الحقنة المخدِّرة أو بألم الضرس مباشرة ، لكن الله الخبير إذا أراد تبديل أسنان هذا الطفل فهل يتألم لا إطلاقاً فهو لا يشعر بسقوط أسنانه اللبنية وتبديلها .

ويقول الله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٦] .

ورد اسم الخبير كما قلنا في أربعين آية من كتاب الله ، والخبير هو الذي يعلم البواعث والخواطر ، يعلم الخلفيات والملابسات ويعلم حقيقة كل شيء ، ويعلم الاحتمالات فنحن البشر لا نعلم حقيقة الشيء إلا بالتجارب ، حتى إذا أردنا صنع دواء نزرعه في الجراثيم كي نتعرف إلى مدى مفعوله ، إما أن يقتل تلك الجراثيم فهو فاعل ، وإما أن تبقى حية كما كانت فهو غير فاعل ، فعلوم البشر كلها أساسها التجربة ، لذلك سموه بالعلم التجريبي لكن علم الله وخبرته لا يفتقر إلى التجربة ، قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحج : ٦٣] .

في مواضع كثيرة جاء اسم الخبير مقروناً باسم اللطيف فهناك علاقة بين الخبرة واللُّطف ، آية أخرى :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور : ٣٠] .

فهذا الذي يغض بصره أمام الملأ ويتصنع ثم إذا خلا بنفسه ومد بصره إلى الحرام ، هل يستطيع أحد أن يعرف إخلاص هذا المرء ورياءه ؟ لا أحد ولكن اللطيف الخبير أعلم بحاله من نفسه ، لذلك قال تعالى في آخر الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

إذا علمت أن الله يعلم وهو خبير بِسِرِّك وجهرك وسريرتك

وعلانيتك وخَلْوَتك وجَلْوَتك وبواعثك وخواطرك ومقاصدك وخلفياتك والمؤدَّى الذي تبتغيه من عملك ، وعلمت أن الله خبير وأنك في قبضته ، فما التطبيقات العملية لهذا الاسم ؟ أنت مكشوف أمامه ولا تخفى على الله منك خافية ، علانيتك كسرِّك ، وجهرك كسِرِّك ، فهذا يجعلك تستقيم على طاعته وألا تخشى معه أحداً آخر وهذه هي أول ثمرة للإيمان باسم الخبير ، يقول أحد الأئمة : من أدب المؤمن مع اسم الخبير أنه مَن عرف أن الله خبير بأفعاله وأقواله وأعماله كان محترزاً في أقواله وأعماله وواثقاً بجميع اختياره ، وأنه ما قُسم له لن يفوته ، ومالم يُقسم له لن يُدركه ، إذاً أولُ ثمرة الاستقامةُ والرضا والاستسلام ، ومن أدرك وأيقن « اسم الخبير » يرى أن جميع الحوادث من الله سبحانه وتعالى ، فتهون عليه الأمور بخلاف من يضيف بعض الحوادث إلى الحق وبعضها إلى الخلق ، وأنه هو الفعال لما يريد وكل الأمور بيده ، من خلال هذا نقول : إنك إذا أيقنت من « اسم الخبير » أنه هوالمطلع على سرِّك وهو عليم بِخَفيِّ أمرك وما في صدرك يكفي لرفع همتك إليه واستحضار حاجتك في قلبك من غير أن تنطق بلسانك وهي فكرة دقيقة جداً ، عِلْمكَ أن الله مُطَّلِعٌ على قلبك يجعلك تناديه نداءً خفياً كما فعل سيدنا زكريا .

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [مريم : ٣] .

وبعضهم تجده يجهر بالدعاء وكأنه يناجي بعيداً ، فالمؤمن إذا عرف اسم الخبير ناجاه في سرِّه وسأله في سرِّه ودعاه في سرِّه ، ولم يحتج إلى رفع صوته بالدعاء ، فإذا كنت يا الله معي في كل حالي فأنا في غنى عن حَمْل زادي ، بعضهم ينصح المؤمنين أنّ مَن كانت به حاجة إلى الله أن يقرأ قوله تعالى :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] .

هناك معنى آخر للخبير ، فأنت في دنياك تتحرك ، وهناك أهداف ووسائل سمح بها الشرع لكسب المال ، وهناك وسائل غير مشروعة ، فقد يبدو لك أن هذه الوسائل التي لم يسمح بها الشرع أسرع ونتائجها أضمن وهدفها أكبر ، وتتوهم أن الطريق التي رسمها الله لك طريق طويلة وهزيلة ، فيُقبل هذا الإنسان الجاهل على وسيلة غير مشروعة من أجل كسب المال فيُفاجأ بِتَلَف ماله ؛ لماذا يا رب ؟ فمِن أجل الوصول إلى دخْلٍ وفير أنت مكلف بتطبيق منهج الله ، فالنجاح ليس بالذكاء وإنما بالتوفيق ، والتوفيق بالطاعة ، فالذي يسرع إلى وسيلة غير مشروعة ظناً منه أنها موصلة قبل المشروعة فهو واهم لأن الله خبير ، وهو الذي أمرك بالإقبال عليه وأن الانغماس في الشهوات شقاوة وأن كل السعادة بطاعة الله ، فكل من اتبع الخبير يسعد ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] .

فحينما تسلك منهج الله تقطف الثمار اليانعة ، وحينما تحيد عن منهج الله تندم أشد الندم لأنك أسأت الظن بالخبير ، فيما يخص الآلات الثمينة والمعقدة وعظيمة النفع تعتقد بالبداهة والفطرة دون توجيه أن الذي صنعها هو الوحيد الخبير بها ، ولذلك تحتاج إلى كُتيِّب ، فإذا كان هذا في شأن هذه الآلة ، فما بالك في شأن نفسك التي تحوي أسراراً وخفايا لا يعلمها إلا الله فهي تحوي أفكاراً وشهوات وروحاً وجسداً وميولات وغرائز وطموحات وقيماً ومبادىء وكلها أمورٌ معقدة جداً ، أفلا يجعلنا هذا نقول إن لهذه النفس منهجاً يوجهها ويسددها ، إنه منهج الله .

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] .

أحد العلماء الكبار تكلم على حظ العبد من اسم الخبير هذا موضوع ثالث ، ولقد سرنا في بحثنا هذا وفق النسق التالي : التعريف باسم الخبير ، التطبيقات العملية لاسم الخبير ، ومن ثم حظ العبد من اسم الخبير فقال : يجب أن يكون العبد خبيراً بأحواله وبإيمانه وخبيراً بمشاعره وأحوال قلبه والخفايا التي يتصف بها قلبه وخبيراً بإخلاصه واستقامته ، فأقرب شيء منك جسمك ونفسك ، فلا بد أن تكون خبيراً بقلبك ؛ هذه الخواطر التي تأتيك أمِن قلبك أم من نفسك أم من الشيطان ؟ وهل هي وساوس أم إلهامات ؟ وهل هذا العمل باعثه الإخلاص أم الرياء ؟ ينبغي أن تكون خبيراً بأحوالك ونفسك وقلبك ، وكسبِك للمال وإنفاقِه فاسم الخبير يقتضي أن تكون خبيراً بما أنت عليه لأن أول حركة لمعرفة أيّ مشكلة ، هي أن تعرفها أنها مشكلة ثم تحددها إذْ إنك لاتترك عملاً إلا إذا علمت أنه ذنب ، فقبل أن تترك الذنوب ينبغي أن تعلم ما الذنوب ؟ فأول خطوة نحو إصلاح النفس أن تعرفها وتعرف حقيقتها وألا تنخدع بها .

ما زلنا في الحديث عن حظ العبد مع اسم الخبير قال عالم جليل : يجب أن يكون العبد خبيراً بما يجري في عالمه ، وعالمُه هو قلبه وبدنه والخفايا التي يتصف بها القلب من الغش والخيانة والتطواف حول العاجلة وإضمار الشر وإظهار الخير والتجمل بإظهار الإخلاص مع الإفلاس ، ولا يعرف ذلك إلا صاحب خبرة بالغة قد خبِر نفسه ومارسها وعرف مكرها وتلبيسها فحاذرها وشمر لمعاداتها ، فذلك العبد جدير بأن يسمى بين العباد خبيراً ، لذلك من عرف أن الله

خبير كان بزمام التقوى مشدوداً وعن طريق المنى مصدوداً ، وقال أحدهم : من أراد عِزاً بلا عشيرة وهيبةً بلا سلطان وغنىً بلا فقر فليخرج من ذل المعصية إلى عز الطاعة ، وقال بعض العلماء : لا يَنال الحظ الأوفر من هذا الاسم الشريف « الخبير » إلا من كان خبيراً بدسائس نفسه بصيراً بخدائع حسه ، يعرف الفرق بين خطرات الشيطان وإلهامات المَلَك بصيراً بإلهامات الرحمن ووساوس الشيطان ، وبعض العلماء لهم دعاء يتعلق باسم الخبير ، يقول هذا العالم الجليل : إلهي أنت الخبير بالدقائق والبصائر ، والمطَّلِع على السرائر والناظر إلى الضمائر تجلَّ لي بنور اسمك الخبير بلا حول مني ولا تدبير ، حتى أكون خبيراً بالأمور الغائبة عن الجهال ، وأنجو من الشرك الخفي وما هو أخفى في الأقوال والأعمال ، ويتجلى لي مولاي الخبير نِعْم المولى ونِعْم النصير ، لذلك فإليك الآية الكريمة :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] .

فمضمون هذه الآية : من لوازم خبرته أنه يعلم ما خفي عنك .

أيها القارىء الكريم : هذا الاسم له تطبيقان أساسيان :

ـ الأول : أن تعلم أنك مكشوف أمام الله ، لا تخفى على الله منك خافية .

ـ الثاني : أن تكون أنت خبيراً بأحوالك وخواطرك وقلبك وإيمانك ووساوسك وإلهامات الملائكة ، فأنت خبير ، وأن تعلم أنه خبير ، عندئذ تتحقق لك الفائدة من هذا الاسم الجليل .

* * *

مالك الملك

مالك الملك أحدُ أسماء الله تعالى الحسنى ، قال تعالى :

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

إذا قلت : يا مالك الملك! بك أستجير ؛ فهذا دعاء صحيح ، ففي القرآن الكريم ورد اسم المَلِك ، والمالك ، والمليك ، ومالك الملك حصراً ، أما اسم المَلِك ففي قوله تعالى :

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ [الحشر : ٢٣] .

وفي قوله تعالى :

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۞ مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس : ١-٢] .

وأما اسم المالك ففي الفاتحة الشريفة :

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة : ٢-٤] .

وأما المليك ففي قوله تعالى :

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۞ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾

[القمر : ٥٤-٥٥]

وأما مالك الملك فقد ورد هذا الاسم مرة واحدة في قوله تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

أيها القارىء الكريم : قبل أن نمضي في الحديث عن هذا الاسم الجليل ؛ أريد أن أقف قليلاً عند خطورة هذا الموضوع . فالله سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار ، وقد أمرنا أن نؤمن به ، وأن نعبده ، وأن نتوجه إليه ، وأن نحبه . فربنا عز وجل تيسيراً لنا كي نعبده ؛ ذكر أسماءه الحسنى في كتابه الكريم ، وجعل الكون كله دالاً عليه ، وجعل الكون كله مظهراً لأسمائه الحسنى وصفاته العظمى . فأنت حينما تبحث في أسماء الله الحسنى ، تتعرف إلى الله . وكلما ازددت معرفةً بأسمائه الحسنى ، ازددت معرفة به . فالشيء المادي بإمكانك إدراكه باللمس ، وأن تعرف وزنه ، وطوله ، وارتفاعه ، وعرضه ، وحجمه ، ولونه ، وخصائصه ؛ لكن إذا أردت أن تتعرف إلى الله عز وجل يستحيل أن تدركه بحواسك ؛ لا بد أن تدركه بعقلك . قد تقول إن هذا الكون يدل على خالق عظيم ، ومسيِّر حكيم ، ومُرَبٍّ رحيم . ولكن التفاصيل ؛ ما صفاته ؟ وما هي أسماؤه ؟ هو رحمن رحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو ، الملِك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر . فحينما تجول في هذا الموضوع ، فأنت في الحقيقة تجول في أخطر موضوع على الإطلاق لأن الله سبحانه وتعالى هو كل شيء ؛ هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن . ابنَ آدم : اطلبني ؛ تجدني ، فإذا وجدتني ، وجدت كل شيء . يا رب ماذا فَقَد من وجدك ؟ وماذا وجد مَن فقدك ؟ وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ .

إنّ باب الأسماء الحسنى من أخطر الموضوعات في الدين ، لأنك من خلالها تتعرف إلى أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى . والحقيقة أن الإنسان لايحب جهة ما لاسمها ؛ ولكن يحبها لصفاتها . فكلما تعرفت إلى أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، كانت عبادتك أصح ، وكانت خشيتك أكبر ، وكان إقبالك أشد .

يقول عليه الصلاة والسلام فيما روي عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : « **للهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا مَنْ حَفِظَهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَإِنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ** » وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ عُمَرَ : « **مَنْ أَحْصَاهَا** » . [صحيح مسلم] .

إن لله تسعة. . . وهو وتر يحب الوَتر « بالفتح والكسر » فما معنى : من أحصاها ؟ الله عز وجل قال :

﴿لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم : ٩٤] .

الإحصاء شيء والعدُّ أو التعداد شيء آخر ، تقول : كم طالباً في الصف ؟ إذا ذكرت عددهم ، كان هذا تعداداً . أما إن ذكرت أعمارهم ، مستوياتهم ، قدراتهم ، أخلاقهم ، طموحاتهم ، اجتهادهم ، أوصافهم ، كان ذلك إحصاءً ، فالعد كَمِّي ، أما الإحصاء فهو نوعي . فالرسول ﷺ في حديثه أراد منا الإحصاء لا التعداد ؛ لا أن نعدد أسماءه ، بل أراد منا أن نحصيها ومن أحصاها دخل الجنة ، هناك معنى ضمني ؛ وهو من أحصاها أيْ : من تعرف إليها فأقبل على الله واستقام على أمره ، سعِد في الدنيا ، وفي الآخرة أُكرم بالجنة . فالنبي ﷺ لا ينطق عن الهوى ؛ إذْ إنه في الحديث الصحيح يؤكد لنا أنك إذا أحصيت أسماء الله الحسنى ، دخلت الجنة . إن لله تسعة وتسعين اسماً مئة إلا واحداً مَن أحصاها دخل الجنة . نحن في

أبحاثنا السابقة شرحنا ثمانيةً وثلاثين اسماً من أسماء الله الحسنى ، وفي نِيَّتِنَا أن نكمل هذه الأسماء لغاية التسعة والتسعين ، كما ورد في الحديث الشريف . لكن بالمناسبة نقول : ليس كل الأسماء الحسنى وردت في الحديث الشريف ، لعل النبي ﷺ ذكر الأسماء الحسنى التي نحن في أمس الحاجة إلى معرفتها ؛ فهناك أسماء حسنى كثيرة وردت في كتاب الله ولم ترد في هذا الحديث حديث أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ للهِ تَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِئَةً غَيْرَ وَاحِدٍ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ الْخَالِقُ الْبَارِىء الْمُصَوِّرُ الْغَفَّارُ الْقَهَّارُ الْوَهَّابُ الرَّزَّاقُ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الْخَافِضُ الرَّافِعُ الْمُعِزُّ الْمُذِلُّ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْحَكَمُ الْعَدْلُ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الْحَلِيمُ الْعَظِيمُ الْغَفُورُ الشَّكُورُ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ الْحَفِيظُ الْمُقِيتُ الْحَسِيبُ الْجَلِيلُ الْكَرِيمُ الرَّقِيبُ الْمُجِيبُ الْوَاسِعُ الْحَكِيمُ الْوَدُودُ الْمَجِيدُ الْبَاعِثُ الشَّهِيدُ الْحَقُّ الْوَكِيلُ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ الْمُحْصِي الْمُبْدِىءُ الْمُعِيدُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْوَاجِدُ الْمَاجِدُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ الْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ الْمُقَدِّمُ الْمُؤَخِّرُ الأَوَّلُ الآخِرُ الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ الْوَالِي الْمُتَعَالِي الْبَرُّ التَّوَّابُ الْمُنْتَقِمُ الْعَفُوُّ الرَّؤوفُ مَالِكُ الْمُلْكِ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَام الْمُقْسِطُ الْجَامِعُ الْغَنِيُّ الْمُغْنِي الْمَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ النُّورُ الْهَادِي الْبَدِيعُ الْبَاقِي الْوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُورُ » . [رواه الترمذي وقال : هذا حديث غريب] .

اسمحوا لي أن أرويَ لكم هذا الدعاء النبوي ، يروي عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ وَحَزَنٌ ؛ اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ ،

نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي ، وَنُورَ صَدْرِي ، وَجِلاءَ حُزْنِي ، وَذَهَابَ هَمِّي ، إلا أَذْهَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّهُ ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ ، يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَؤُلاءِ الْكَلِمَاتِ ؟ قَالَ : أَجَلْ يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ » . [رواه أحمد] .

إذًا ثمرة هذا الدعاء : « إلا أذهب الله عز وجل همه ، وأبدله مكان حزنه فرحاً » فهذا الدعاء القيم ؛ لا بد أن يحفظه المؤمن ، حتى إذا أصابه مكروه أو هَمٌّ أو حَزَنٌ دعا به ، والنبي ﷺ صادق مصدوق .

قال تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

المُلك هو الكون . والكون ما سوى الله ؛ والكون ممكن الوجود ، وما سوى الله هو المُلك . لكنَّ السؤال لِم جاء المُلك مفرداً ؟ ، مع أن هناك سموات ، ومجرات ، وكازارات ، ومذنبات ، وثقوب سوداء ، ومسافات بينية شاسعة ، والأرض فيها أودية ، وجبال وصحراء وسهول وطيور وحيوانات وإنس وجن .

خلقٌ كثير لا يعلمهم إلا الله : أسماك ـ نباتات ـ عوالم ـ في البحار وحدها أكثر من مليون نوع من السمك . كل هذا الكون سماه الله مُلكاً بلفظ المفرد فما حكمة ذلك ؟ هناك حكمة كبيرة جداً ؛ وهو أن الكون كله متناسق بعضه مع بعض ، كل جزء فيه يعمل للمجموع ، لأن الله

سبحانه وتعالى صنعه لذلك ؛ فالحيوان للإنسان ، والنبات للحيوان ، والتراب للنبات ، والماء للتراب ، وحجم الأرض يتناسب مع طاقة الإنسان وسرعتها حول نفسها تتناسب مع إمكاناته وهكذا. . أهم كلمة في هذا الكون أنه وَحدة متكاملة ، والله سبحانه وتعالى مالك الملك وأمره نافذ فيه . يوم القيامة يقول الله عز وجل :

﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٣] .

قد يسأل سائل : بيَدِ من كانت حتى آلت إليه ؟ الحقيقة : هي إليه أولاً وآخراً ؛ ولكن أهل الدنيا والمشركين والكفار ، والفجار ، والمنافقين ، وضعاف الإيمان ، يرون في الأرض آلهةً كثيرة ؛ مراكزَ قوى ، وأشخاصاً أقوياء ، يأمرون فيُطاعون ، ويدمرون ، يعطون. . يرفعون. . يخفضون. . أما المؤمن فلا يرى إلا الله في الدنيا ، يرى :

﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ ﴾ [الفتح : ١٠] .

يرى :

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ ﴾ [الحديد : ٣] .

يرى أنه :

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ ﴾ [فاطر : ٢]

يرى أنه :

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

يرى :

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : ٦٢] .

يرى :

﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ [هود : ١٢٣] .

فهذه رؤية المؤمن ، لا يرى مع الله أحداً ، وهذا هو التوحيد ، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، لكن العصاة والمشركين والكفار يرون أشخاصاً أقوياء إرادتهم نافذة فيحسبونهم أنداداً ، أما الحقيقة فهي أنه لا ينفذ في كون الله إلا إرادة الله . ما شاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن .

﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ [الرعد : ٤١] .

﴿ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٢٦] .

فالمؤمن الصادق لا يرى مع الله أحداً ، يرى صوراً ودُمىً تُحرَّك في الخفاء ، لكن الله هو كل شيء ، قال تعالى :

﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ [الحديد : ٣] .

لذلك :

﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٣] .

حتى الكفار يوم القيامة يرون أن الأمور كلها بيد الله . أما المؤمنون فهم وحدهم الذين يرون هذه الحقيقة في الدنيا ، الكُفار تغيب عنهم هذه الحقيقة فيرون الأمور بيد زيد أو عبيد ، تذكرون : أن التابعي الجليل الحسن البصري كان استدعاه والي البصرة للخليفة يزيد بن عبد الملك عمر بن هبيرة ، وكان قد جاءه البريد يحمل توجيهاً ؛ إنْ نَفَّذه ، أغضب الله سبحانه وتعالى ، وإن لم ينفذه أغضب الخليفة وربما عزله من منصب الولاية . فوقع في حيرة شديدة فسأل الحسن البصري ، فأجاب الحسنُ البصري جواباً جامعاً : إن الله

يمنعك من يزيد ، ولكن يزيد لا يمنعك من الله . بمعنى أنه إذا غضب أهل الأرض جميعاً عليك والله راضٍ عنك ، فلن يستطيعوا أن يفعلوا لك شيئاً يضرك .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أهدي إلى النبي ﷺ بغلة أهداها له كسرى فركبها ثم أردفني خلفه ثم سار بي ملياً ثم التفت فقال : ياغلام! قلت : لبيك يارسول الله! قال : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد مضى القلم بما هو كائن ، فلو جهد الناس أن ينفعوك بما لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ، ولو جهد الناس أن يضروك بما لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه ، فإن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فاصبر فإن الصبر على ماتكرهه خيراً كثيراً واعلم أن مع الصبر النصر واعلم أن مع الكرب الفرج واعلم أن مع العسر اليسر [وهذا حديث كبير عال من حديث عبد الملك بن عمير عن ابن عباس رضي الله عنهما] .

فملخص الملخص : ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن . ومعنى مالك الملك ؛ أن هذا الكون العظيم تحكمه إرادة واحدة نافذة فيه هي إرادة الله ، قال تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس : ٢٤] .

أتاها أمرنا ـ لا أمرهم ـ يقال مثلاً : الدولة الفلانية عندها قنابل نووية كافية لتدمير الأرض خمس مرات الآن هي في الحضيض ، في

الوحول ، هي الآن متفتتة ، كل أنواع السقوط في هذه الدولة ، قال تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ [يونس : ٢٤] .

فهذا المُلك العظيم ؛ فيه إرادة واحدة نافذة ؛ هي إرادة الله . بِرَبِّك أيها المؤمن ؛ إذا أيقنت هذا اليقين هل تتوجه لغير الله ؟ هل تخشى غير الله ؟ هل ترجو غير الله ؟ هل تطمح إلى غير الله ؟ هذا هو التوحيد ؛ طرقه كلها تؤدي إلى الله عز وجل .

يقول أحد كبار العلماء : مالك المُلك ؛ هو الذي تنفذ مشيئته في مملكته كيف يشاء وكما يشاء ؛ إيجاداً وإعداماً ، إبقاءً وإفناءً ، والمُلْكُ هنا ؛ بمعنى المملكة ، والمالك ؛ بمعنى القادر التام القدرة . والموجودات كلها مملكة واحدة ؛ لأنها متناسقة مرتبطة بعضها ببعض فحجم الأرض متناسب مع الإنسان ، فمثلاً لو وجدت قفلاً في بيت ، ووجدت مفتاحاً في مكان آخر ؛ وهذا المفتاح فتح ذاك القفل ، تقول : كلاهما من مصنع واحد ، طالما فيهما انسجام .

أحياناً يشتري أحدنا قطعة لسيارته ، تأتي هذه القطعة في مكانها الصحيح بالميليمترات . معنى ذلك ؛ أن المعمل واحد . والذي صنع واحد ، والذي أعطى القياسات واحد . فهي وإن كانت كثيرة من وجه ؛ إلا أنها وَحدة واحدة ، الكون كله يعمل بالتنسيق ، فالانسجام دليل وَحدة الخلق .

هناك كلمة واسع ، وهناك كلمة واحد ؛ وقد وصف الله ذاته بهما ، فما معنى كل منهما : خمسة آلاف مليون إنسان كل واحد يحمل قزحية عَين تختلف عن الأخرى ؛ من أجل ذلك صنعت أقفال

لا تفتح إلا على قزحية العين . لأن إنساناً واحداً في الأرض لا يمكن أن يشبهك في قزحية عينك ، معنى ذلك أن الله واسع . كما أن لكل إنسان رائحة جِلد لا يمكن أن يشْرَكه فيها أحد من الخلق ، وأساس عمل الكلب البوليسي رائحة الجسم ، ونبْرَة الصوت كذلك لا يمكن أن تتشابه في الأرض نبرتان . تعرف الشخص من نبرة صوته ، فأصبح لدينا قزحية العين ، ورائحة الجلد ، ونبرة الصوت ، وبصمة اليد ، وبلازما الدم ، كذلك اكتشفوا الآن مليارين ونصف وحدة نسيجية . يعني أن هناك واحد فقط في الأرض وحدته النسيجية تشبه وحدتك ، وبصمة اليد ـ هذه الأنملة ـ بمعنى أنه لو وجد في الأنملة مئة نقطة بين جزيرة ، وخليج ، ورأس ، ونتوء ، وفرع ، وغصن ، هناك مئة صفة لبصمة اليد . ولو تشابهت سبع صفات في بصمتين لكانت لإنسان واحد ؛ وبصمة اليد توقيع . فهذه الاختلافات كلها تعني أن الله واسع . بالمقابل تجد أن شركة أدوية تصنع دواءً في بلد ما كندا مثلاً ؛ فإذا استعمل هذا الدواء شخص من أستراليا نفعه هذا الدواء ؛ ما معنى هذا ؟ إنه يدل على أن الخلق واحد في البنى الأساسية ، وفي الخصائص ، إذاً هناك وَحدة في الخلق . تجد طبيباً درس الجراحة ببلد ما ، أمريكا مثلاً يقول في اختصاصه إن العصب الفلاني على بعد ٢سم من مكان كذا . . بالتفاصيل الدقيقة ثم يجري عملية جراحية لإنسان ما بالخليج مثلاً في عروقه وأعصابه كما درسها هذا الطبيب في أمريكا وتكون النتيجة كما لو أجراها لشخص في أمريكا ، من هنا قال بعض العارفين : والله يا رب لو تشابهت ورقتا زيتون ، لما سُمِّيتَ الواسع . وأقرب من هذا وجوه البشر فلكل سماته الخاصة به ؛ وكل واحد منا له شكل وطريقة في العيش فهذا يدل على سعة الخلق

وحينما تكون الأجهزة واحدة ؛ القلب واحد ، والرئتان ، المعدة ، الأمعاء ، الشرايين ، الأوردة ، الأعصاب ، العظام ، خصائص العظام ؛ زمن التحامها ، الطبيب مثلاً من مصر ودرس في روسيا ، والمريض في إفريقية والبنية لدى الجميع واحدة . معنى ذلك أنه يوجد قواعد عامة في الجسم .

فالله عز وجل واحد واسع ، أما لو قلت لمهندس ما : صَمِّمْ لنا بناءً يمكن أن يرسم مخططاً وآخر وآخر ثم يتوقف . ومثل ذلك هندسة السيارات يصممون شكلاً بيضوياً ثم شكلَ زوايا حادة ثم يعودون للشكل البيضوي . أي أن طاقة الإبداع محدودة عند البشر . أما في صنع الله ؛ إذا نظرت في أنواع أوراق الأشجار في الأرض تجد أموراً لا تصدق ؛ أوراقاً إبرية ، وأوراقًا دائرية ، وأوراقاً مسننة ، وأوراقًا مفلطحة ، أوراقاً خضراء مشربة بلون آخر مثلاً ، وأوراقاً واسعة ، وأوراقًا صغيرة ، وأوراقاً كبيرة ، وتلك تحمل الألوان الجذابة ؛ فلو دققت في أنواع الأوراق ، لأخذك العجب العجاب .

أيها القارىء الكريم : الله عز وجل مالك الملك ؛ أيْ تنفذ مشيئته في ملكه كما قال العلماء . وقيل مالك الملك ؛ هو المتصرف في ملكه كيف يشاء ، ولا راد لحكمه ، ولا معقب لأمره . والوجود كله من جميع مراتبه ، مملكة واحدة لمالك واحد وهو الله تبارك وتعالى .

لو لاحظت البشر في كيفية تملُّكهم لوجدت أصنافاً شتى ، فإذا قلنا : فلانٌ يملك هذا البيت وأجَّرَهُ ، فهو يملك عينه ولا يملك منفعته ، المستأجر تجده يملك المنفعة وليس العين المؤجرة ، فإذا كنت تملك المنفعة والعين يعني البيت ؛ لكنك قد لا تملك المصير ؛

بحيث إنه لو صدر قانون استملاك ، يضيع البيت من يدك . فهناك مُلك عين ، ومُلك منفعة ، ومُلك مصير . أما إذا قلنا : الله مالك الملك ؛ فهو مالك الوجود خلقاً ، وتصرفاً ، ومصيراً ، مثلاً : بلدٌ يبيع بلداً آخر مجموعة طائرات . كان المحمل مالكاً للطائرات ؛ فلما باعها تملكها شاريها . وأصبحت هذه الطائرات بأمر شاريها . لكن الله عز وجل يقول :

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ [الزمر : ٦٢] .

كلمة مالك الملك تعني : ما شاء في هذا الملك كان ، وما لم يشأ لم يكن ، كل شيء وقع أراده الله ، وكل شيء أراده الله وقع . هذا هو معنى مالك الملك .

قال تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

إذا أعطى الله عز وجل الملكَ لإنسان ، يعطيه الهيبة ؛ فكلهم يخافونه ؛ فإذا أراد أن ينزع منه الملك ، ألغى هيبته ؛ فكلهم يجترىء عليه .

دخل يزيد بن أبي مُسْلم ، كاتبُ الحجاج ، على سليمانَ بن عبد الملك ، فازدَرَاه ونَبَت عينه عنه ، فقال : مارأت عيني كاليوم قطُّ ، لعن الله امرأ أجرَّك رَسَنَه ، وحكّمك في أمره . فقال : ياأمير المؤمنين! لاتَقُلْ ذلك ؛ فإنك رأيتَني والأمر عني مُدْبر ، وعليك مُقبل ، فلو رأيتني والأمر عليّ مقبل ، وعنك مُدْبر ، لاستعظمتَ منّي ما استصغرتَ ، واستكبرتَ مااستقللت . وكان يزيد رجلاً دميماً قبيحاً

تقتحمه العين ، لقد زلت قدمه فنزع الله عنه الهيبة فالإنسان إذا نزع الله منه الهيبة صار شخصاً تافهاً ، قال تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

أروع ما في الآية ؛ أنه لو قال الله عز وجل : (تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ) .

لصار هناك تناسب . لكن : تؤتي الملك من تشاء ؛ وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ؛ بيدك الخير ، الخير فقط .

إذاً الإعزاز خير والإذلال خير ، فمعنى الآية دقيق فالإعطاء خير والمنع خير ، والإيتاء خير والسلب خير ؛ فكل هذا خير . ربما أعطاك فمنعك ، وربما منعك فأعطاك . لذلك سنرى أنه توجد أسماء لله متقابلة ؛ المعطي المانع ، القابض الباسط ، النافع الضار ، الرافع الخافض ، المعز المذل .

قال العلماء : هذه الأسماء بالذات لا يجوز أن تذكر وحدها ، فيجب أن تقول الضار النافع ، المذل المعز ، المعطي المانع ، القابض الباسط ، مثنى مثنى ، لماذا هذا الاقتران ؟ لأن الله يضر لِيَنْفَع ، ويذل لِيُعِزّ ، ويمنع لِيُعطي ، ويقبض ليبسط ، وأوضح مثال على ذلك : أن تجد الأب يقسو على ابنه في الصغر ، كي يصنع منه رجلاً في المستقبل ، كل هذه الشدة من الأب هي لصالح الابن ، وكل هذه الشدة صنعت منه إنساناً متفوقاً ، فهذه الأسماء المتقابلة ؛ لا يجوز أن نذكر واحداً منها من دون ذكر ما يقابله ، الضار النافع ،

المذل المعز ، المعطي المانع ، الرافع الخافض ، قال تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

يقول أحد المفسرين : مالكُ الملك ؛ هو المَلِكُ الحقيقي . لذلك روي في بعض الآثار « **أنا الله لاإله إلا أنا ملك الملوك ومالك الملوك ، قلوب الملوك بِيَدي وإنِ العباد أطاعوني ، حوَّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرحمة والرأفة . وإنِ العباد عصَوْني ، حوَّلت قلوب ملوكهم بالسخطة والنقمة ؛ فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على الملوك ولكن اشغلوا أنفسكم بالذكر والتضرع أكفكم ملوككم** » .

يقول أحد المفسرين : مالك الملك ؛ هو المَلِكُ الحقيقي ، المتصرف بما شاء وكيف شاء ؛ إيجاداً وإعداماً ، إحياءً وإماتةً ، تعذيباً ورحمةً ، من غير مشارك ولا ممانع . وقد ذكر اسم مالك الملك مرة واحدة في القرآن الكريم في الآية الآنفة الذِّكر .

من أدب المؤمن مع هذا الاسم أن يكثر العبد من ذكره ، وبذلك يغنيه الله عن الناس . لكن هناك وقفة عند كلمة مالك الملك ، وهي : **هل أنت تملك سمعك ؟ هل تملك بصرك ؟ هل تملك قوتك ؟ هل تملك أعصابك ؟ هل تملك سيولة الدم ؟ هل تملك نمو خلاياك ؟ فأنت إذا أصابتك جلطة دموية ، أوْدت بحياتك . فهذا بسبب تجمد نقطة في الدم ، وكذلك نمو الخلايا العشوائي ، إذاً أنت لا تملك شيئاً من جسمك ، وإنما يعطيك الله صحة طيبة كي تستمتع بها ، فهو سمح لك بالاستمتاع بها ولكنه هو المالك لها . فكلمة مالك الملك تعني ؛ أنك لا تملك شيئاً ، لأنك لو أصبت بخلل بسيط في القلب ، أودى**

هذا بحياتك ؛ فأنت لا تملك شيئاً من جسدك ، ولا تملك دماغك . كذلك أعرف شخصاً معرفة جيدة وهو من الأفراد المرموقين في البلد ، أنه خرج مرة من بيته فنسي عند عودته أين يسكن! حتى تذكر بيت ابنه فدَلَّه ابنه على بيته . فسبحان الله هناك بعض الحالات فيها عبر بالغة ، مثلاً موت مفاجىء ، يموت الإنسان بلا أيّ سبب . أعرف شخصاً اشتغل لمدة خمسين سنة وجمَّع ثروةً جيدة ، وبعدها اشترى بيتاً في المَصيف ، وأصبح يشتغل إلى الظهر فقط ليتمتع ببيته هذا ، وفي أحد الأيام ذهب إلى المصيف وهناك خطر بباله أن يهتف إلى ابنه ، فوقع ميّتاً على الأرض دون أيّ سبب قبل المهاتفة . ومنه فلا يمكن للعبد أن يكون مالكاً مطلقاً .

سفيان بن عيينة : بينا أنا أطوف بالبيت إذا أنا برجل مشرف على الناس حسن الشيب فقلنا بعضنا لبعض مأأشبه هذا الرجل أن يكون من أهل العلم! قال : فاتبعناه حتى قضى طوافه وصار إلى المقام فصلى ركعتين ، فلما سلم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ، ثم التفت الينا فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قلنا له : وماذا قال ربنا يرحمك الله ؟ قال : قال ربكم : أنا الحي الذي لايموت أدعوكم إلى أن تكونوا أحياء لاتموتون ، ثم أقبل على القبلة فدعا بدعوات ثم التفت إلينا ، فقال : هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قلنا : ماذا قال ربنا ؟ حدثنا يرحمك الله! قال : قال ربكم أنا الذي إذا أردت شيئاً كان أدعوكم إلى أن تكونوا بحال إذا أردتم شيئاً كان لكم قال ابن عيينة ثم ذهب فلم نره .

فالإنسان إذا أطاع الله يكون موته تُحفَةً وعرساً وموته انتقالاً من الدنيا التي هو سعيد بها بمعرفة الله إلى جنة الله في الآخرة ، لذلك من

الأدعية اللطيفة : اللهم اجعل نعمك علينا متصلة بين الدنيا والآخرة . فالخط البياني للمؤمن في صعود ، وموته نقطة على هذا الخط . أنا الملك الذي لا أزول هلموا أطيعوني ، أجعلكم ملوكاً لا تزولون .

لو أنك أعرضت عن الدين وعن الآخرة وعن منهج الله ؛ فمهما كسبت من المال ومن المناصب ، فكل هذا نهايته قبيحة وتجعلك في قلق . نعم هناك صعود ، لكن هناك سقوط بعد الصعود ، والموت هو السقوط . لكن المؤمن في صعود ليس بعده سقوط ، وهذا الشعور لا يوصف ـ طمأنينة للمستقبل ـ المؤمن مطمئن ، تمشي في طريق سالك إلى جنة الله ، تمشي على طريق ينتهي بك إلى الجنة . أما أهل الدنيا ، فالطريق عريض ، ولكنه ينتهي إلى حفرة سحيقة ، وفيها وحوش كاسرة وقلق دائم لذلك فالمبالغة في النعيم ، والمبالغة في الانغماس باللذات ؛ عملية تعويض لما يصيبه من قلق وخوف . وهناك من أهل الدنيا من يبالغ بالرفاه والاعتناء بمظاهر الحياة وكأنه سيعيش مئات السنين . هناك قلق وخوف أساسه الشعور بأنّ بَعْدَ هذا الصعود سقوطاً . أما المؤمن فهو مرتاح من هذا القلق لأن حياته صعود بلا سقوط ، ونمو بلا تراجع ، وسعادة بلا شقاء ، وحياة بلا موت لقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

[آل عمران : ١٦٩]

أنا الملك الذي لا أزول ؛ هلموا أطيعوني ، أجعلكم ملوكاً لا تزولون .

أنا الملك الذي إذا أردت شيئاً قلت له : كن فيكون ؛ هلموا

أطيعوني ، أجعلكم إذا أردتم شيئاً أن تقولوا له : كن فيكون ، أيْ أصبحتم مستجابي الدعاء . إن أطعتَ الملك ، كنت في معية الملك . وإن أطعت الغني ، كنت مع الغني . وإن أطعت القوي ، كنت مع القوي . لذلك قالوا : إذا أردت أن تكون أغنى الناس ، فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك . إذا أردت أن تكون أكرم الناس ، فاتق الله . وإذا أردت أن تكون أقوى الناس ، فتوكل على الله . فأنت قوي بالله ، وغني بالله ، وكريم بالله ، وعزيز بالله ، أما إن لم تكن مع الله ؛ فعزٌّ بعده ذلٌّ ، وغنى بعده فقر ، وحياة بعدها موت ، ورفاه بعده شقاء ، وسعادة بعدها شقاء وهوان .

ولكن هل له علاقة بهذا البحث ؟ مما يتمم هذا البحث أن تعلم هذه الحقيقة وهي : أن هناك اسماً وهناك مسمى ، تقول هذا المسمى كتاب فالشيء مسمى ، أما الكلمة التي نلفظها من مقاطع صوتية ومصطلح عليها هي الاسم ، فالاسم هو الذي يدل على المسمى ، فإذا قلت : كتاب ، دل هذا الاسم على الكتاب ، وإذا قلت قمر ، دل هذا على القمر ، فالله جل جلاله كان ولم يكن معه شيء ، ثم خلق الخلق ؛ فكلمة الله : اسم عَلَمٍ على الذات . فالله اسم ذات ، وغيرها من أسمائه أسماء صفات . فإذا قلنا : يا الله ، يكون هذا عَلَم على الذات . فنحن نقصد الذات الكاملة المتصفة بكل الأسماء الحسنى جملةً ، لذلك قالوا :(الله) هو اسم الله الأعظم علم على الذات ولحكمة أرادها الله جل جلاله لا يستطيع أحد أن يسمي أحداً على الإطلاق (الله) فهو علم على الذات . أما باقي الأسماء ، فهي أسماء صفات الرحمن الرحيم الملك القدوس . هناك بحث في اللغة وهو : الاسم ، واللقب ، والكنية ، فإذا قلت : عمر ؛ فهذا اسم

فالوَضْع الأول حينما وُلِد سمَّوْه عمرَ . ولما شب صار عُمَيْراً ، ثم صار عمر ، ثم صار أمير المؤمنين ، ثم صار خليفة المسلمين ، ثم صار الخليفة العادل ؛ فسُمِّيَ الفاروق ، فهذا الأخير الفاروق لقب . فاللقب : يدل على المدح أوالذم ، لكن الاسم الأول يدل على الذات . فإذا قلت : راشد فأنت تعني شخصاً اسمه راشد ، أما إذا قلت الراشد فأنت تعني شخصاً فيه صفة الرشاد فرق كبير بين أن تقول : راشد أو الراشد ، فحينما يُعرَّف الاسم فإنما يشير بعد التعريف إلى معناه لا إلى العلمية ، كان عَلَماً على الذات ، فصارِ اسم صفةٍ ، فالله سبحانه وتعالى ـ ولله المثل الأعلى ـ الاسم الذي هو علم على الذات هو الله . أما أسماؤه الحسنى التسعة والتسعون ؛ فهي أسماء صفات ؛ الرحمن من الرحمة ، العليم : من العلم ، والغني : من الغنى ، والقوي : من القوة ، لكن كل هذه الأسماء منطوية تحت اسم الله . والكنية :تعني ما سَبَقَ الاسم مثل : أبو فلان أو ابن فلان ، أب أو أم أو أخ أو أخت ، فأبو حفص كنية ، وابن الخطاب كنية . إذاً عندنا اسم ولقب وكنية . أما إذا كان يمارس عملاً وسُمي على ذلك العمل ، فهذه شُهرة فإذا كان يشتغل بالحديد وسُمي الحداد فهذه شهرة ، أما إذا قلت قرشي فهذا نَسَبٌ والله سبحانه وتعالى غني عن كل هذا ، سواء أكان لقباً أو كنية أو شهرة .

* * *

ذو الجلال والإكرام

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا سَلَّمَ لَمْ يَقْعُدْ ، إلا مِقْدَارَ مَا يَقُولُ : « **اللَّهُمَّ! أَنْتَ السَّلامُ وَمِنْكَ السَّلامُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ** » وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ نُمَيْرٍ : « **يَا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ** » . [رواه مسلم] .

صار معلوماً عند القارىء الكريم أن أسماء الله الحسنى كلها تدل على صفاته ، لكن اسماً واحداً هو [الله] عَلَم على الذات ، ويدل على كل أسمائه ، إذا قلت : يا الله ، معناه ؛ يا رحيم ، يا رحمن ، يا غني ، يا ودود ، يا قوي ، يا متعال ، يا قدير ، يا حسيب ، يا لطيف . . إلخ ؛ فاسم (الله) اسم علَم على الذات ، ويشير إلى كل أسمائه الحسنى ؛ لكن أسماءه الأخرى تدل على صفاته ، أو على كمال صفاته ، الغني القوي الحسيب المجيد المعطي المانع ، تروي السيدة عائشة : أن النبي ﷺ كان إذا سلم لم يقعد إلا مقدار ما يقول : « **اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام** » ، هناك نقطة دقيقة وهي ؛ أن أسماء الله الحسنى يمكن أن تقسم إلى قسمين : قسم يشير إلى قوته ، وقسم يشير إلى كماله . أنت كمؤمن تؤخذ بالقوي ، وتؤخذ بالرحيم . فالكمالات بكل أنواعها

يجمعها اسم (الإكرام) ، والقوة بكل مظاهرها يؤكدها اسم (ذو الجلال) . مثال ذلك : قد تحترم أشخاصاً احتراماً كبيراً وقد لاتحبهم ينتزعون إعجابك بقوتهم ، أو بذكائهم ، أو بخبراتهم ، أو بتحصيلهم ، أو بفطنتهم ؛ وقد لا تحبهم . وبالمقابل فإن هناك أشخاصًا آخرين يملؤون قلبك حباً ، وقد لا ينتزعون إعجابك . الإنسان يميل قلبه لأمه ، وقد تكون أُمِّيةً . يمتلىء قلبه حباً لها ، لكن علمها وثقافتها وخبرتها وفطنتها وذكاءها لا ينتزع إعجابه . وقد يحب أستاذاً في الجامعة على عِلم وفهم وثقافة ؛ ولكن حينما يتعامل معه لا يميل قلبه إليه . إذاً هناك صفات تُعجب بها ، وهناك صفات تحبها . الصفات التي تُعجب بها ، مجموعة في اسم (الجلال) . والصفات التي تحبها ، مجموعة في اسم (الإكرام) . فإذا قلت « **تبارك ذو الجلال والإكرام** » فهذا يعني ؛ أن كل صفات القوة والعظمة والجبروت يتصف الله بها . وكل صفات الإكرام والرأفة والرحمة يتصف الله بها . فكأن هذا الاسم المركب من اسمين ، جمع الأسماء الحسنى كلها من زاويتن : زاوية القوة وزاوية الإكرام .

يقول أحد الأئمة الكبار : إن اسم (ذا الجلال والإكرام) هو الذي لا جلال ولا كمال إلا وهو له ، لا جلال ولا كمال ولا كرامة ولا مكرمة ؛ إلا وهي صادرة منه ؛ فالجلال له في ذاته ، والكرامة فائضة منه على خلقه ، كل أفعاله تجاه خلقه إكرام ظاهر جلي ، أو باطن خفي . وهذا معنى قول الله عز وجل :

﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠] .

النِّعم الظاهرة هي الإيجابية ، والنعم الباطنة هي المصائب .

وفنون إكرامه لخلقه لا تكاد تنحصر أو تتناهى . قال تعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴾ [البلد : ٨] .

عينان صغيرتان تريان لك الأشياء على حجمها الحقيقي بألوانها الدقيقة ؛ الرؤية فَوْرية ، شبكية العَين تحوي مئة وثلاثين مليون عصية ومخروط ، من أجل نقل أدق الصور ، وبالعينين ترى جمال الكون ، بالعينين ترى جمال الأشخاص ، بالعينين ترى المظاهر التي تأخذ بالألباب ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴾ فالعَينان هما إكرام من الله عز وجل . هذه القناة الدمعية التي هي من أدق القنوات في الإنسان ؛ لو أنها سُدت وصار فائض الدمع يسيل على الخدين ـ على صغر هذه المشكلة فهي ليست خطراً ـ إلا أنها تجعل حياة الإنسان جحيماً ، وسيحتاج دائماً إلى مسح خديه ، مما سيؤدي إلى تخريش الخد . فهذا إكرام من الله . العينان إكرام ، والأجفان إكرام ، والمحجر إكرام ، والعضلات التي تحرك العينين يميناً وشمالاً إكرام من الله عز وجل .

كذلك جعل الله لهذا الإنسان أُذنين يستمع بهما إلى أدق الأصوات وأدق النبرات . يستمع بهما إلى الصوت ، وإلى جهة الصوت ، وإلى هوية الصوت ؛ هذا إكرام . مفصل يدك إذا أُلغيَ كيف تأكل ؟ إلغاؤه سيؤدي إلى وضع الطعام على الأرض ، والانبطاح من أجل أن تأكل الطعام كالهرة تماماً . وهذا الرسغ ، وهذه الأصابع ، وهذا الأنف ، وهذه الأسنان ، واللسان ، ولسان المزمار ، والحنجرة ، والأمعاء ، كل هذا إكرام من الله . قال تعالى :

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٧٨] .

ورد هذا الاسم مرتين في كتاب الله ، المرة الأولى قوله تعالى :

﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٧] .

والمرة الثانية : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ .

نقف عند هذه المفارقة الدقيقة : ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام : ذو من الأسماء الخمسة مرفوعة بالواو . لماذا جاءت الآية الأولى بالرفع ، والثانية بالجر ؟ الآية الثانية تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام الاسم عَرَض وليس جَوْهراً فجاءت ذي تابعة لربك ؛ ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ أما الوجه من الذات . ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ هذه من دقائق اللغة العربية . قال تعالى :

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٥] .

لأن الاسم ليس جوهراً في الإنسان بل عَرَض ، إذ بإمكانه تغيير اسمه ، لكن وجهه جزء من ذاته ولا يمكن تغييره ، فإذا قال الله عز وجل ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ﴾ قال : ذي الجلال والإكرام . أما إذا قال : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ فالوجه من الذات .

هذا الاسم المركب من اسمين يوحي لنا بأن أسماء الله صنفان : صنفٌ يشير إلى قدرته ، وكمال قدرته ، وقهره ، وجبروته ، وقوته ، وصنف يشير إلى كمالاته ؛ فكل الأسماء المتعلقة بالقوة يمثلها اسم الجلال . وكل أسمائه المتعلقة بكمالاته ، وإكرامه ، وإحسانه ، ورحمته ، ولطفه ، ورأفته ، يمثلها اسم الإكرام . فإذا قلت : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ فأنت جمعت بهذا الاسم أسماء الله الحسنى كلها .

لذلك فإن أحد الأئمة يقول : لا جلال ولا كمال إلا وهو له ، ولا كرامة ولا مكرمة إلا وهي صادرة منه ؛ فالجلال له في ذاته ،

والكرامة فائضة منه على خلقه ؛ فلو كان شخص ذو هيبة أمام الخلق ؛ فهي من الله . ولو أراد الله نزعها ، لصار حقيراً أمام الخلق جميعاً . فرعون قال : ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فلما أغرقه الله عز وجل ، أنجاه ببدنه ، وقذف بجسده إلى الشاطىء ، ليكون آية للعالمين . ولو أنه غرق لما صدق الناس أنه غرق ولكن شاءت حكمة الله أن يبقى جسده بعد غرقه كما هو ، وأن تقذفه الأمواج إلى الساحل .

فُنونُ إكرامه لخلقه كثيرة لا تكاد تنحصر ولا تتناهى :

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين : ٤] .

بدْءاً من جهازه العظمي ، هناك مفصل نحو الداخل . الركبة مفصل نحو الخارج ، والرأس يدور . والعمود الفقري يَتَمَفْصل تَمَفْصُلاً محدوداً . الجمجمة مفاصلها ثابتة ، وعندما يصاب الشخص بضربة على رأسه فإن تداخُلَ هذه الأجزاء يقي كسر الجمجمة ؛ فكل هذا من إكرام الله له . وأتمنى لو يتفكر كل واحد منا بإكرام الله له .

النوم إكرام ، تنام بضع ساعات وبعدها تشعر بالقوة والنشاط ، هضم الطعام إكرام تأكل وتتلذذ وانتهى الأمر ؛ لكن لو أن الله أوْكل إليك هضم الطعام فإذا تناولت وجبةً امتنعت عن مقابلة أيِّ شخص كان ثلاث ساعات أو أربع ساعات ، لماذا ؟ لأنك مشغول بهضم الطعام . فيضيع وقتك .

فوجْبة الإفطار تحتاج إلى أربع ساعات لهضمها ، ووجبة الغداء تحتاج إلى خمس ساعات ، ووجبة العشاء تحتاج إلى أربع ساعات . فأنت تقضي خمسَ عشرة ساعة للهضم ، نقلت اللقمة إلى المري ثم

إلى المعدة . أمرت الغدد بالإفراز . أمرت البنكرياس بصب الأنسولين في الدم . أمرت الصفراء بأن تفرز . نقلت اللقمة والطعام إلى الاثني عشريٰ . إلى الأمعاء . ولكن كأنه قال لك : كُلْ ولا تَهْتَمَّ بالباقي . كل ما يجري من تفاعلات الهضم والانحلالات لا دخْل لك فيها . هَب أن الله أوكل إليك التنفس ، لن تستطيع أن تنام الليل أبداً ، فالنوم يعني الموت . ولكن أنت نائمٌ والقلبُ يعملُ ، والرئتان تعملان ولسان المزمار يعمل بلا كلل ولا ملل ؛ كل هذا وأنت نائم . وزن جسمك الجهاز العظمي والعضلات التي فوقه ، تضغط على ما تحت الجهاز العظمي ؛ فتضيق لمعات الأوعية وجعل الله عز وجل في الجسد أماكن للإحساس بالضغط ؛ وهذه الأماكن والمجسات تعطي إشارة للدماغ ، فالدماغ يأمر الجسم بالتقلب وأنت نائم ، فالإنسان يتقلب أربعين مرة في الليلة تقريباً ، حتى لا يشعر الإنسان بتخدر جسمه ، أو تَنَمُّلِه ، ذلك أن ضيق لمعات الأوعية تسبب ضعف التروية ، وضعف التروية يشعرك بالتنميل . أما التقليب فهو من آيات الله .

إفراغ المثانة ؛ فهي لها عضلات ، ولولا العضلات لاحتاج الأمر إلى تنفيس هواء . أما بالعضلات فأنت تُفرغها بثوانٍ . فالمثانة هي من إكرام الله ؛ إذْ إنه في كل عشرين ثانية تقطر قطرة بول من كل كلية ، وتتجمع في المثانة ، خلال ساعتين ، أو ثلاث ، أو أربع ، ثم تفرغ تلك الكمية في بضع ثوانٍ ولولا وجود المثانة لاحتاج الإنسان إلى قماش يلف به نفسه كالأطفال . فإكرامات كثيرة من الله عز وجل ؛ الزوجة إكرام ، والابن إكرام ، والطعام والشراب إكرام.. أنواع متنوعة لا تعد ولاتحصى قال تعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ [البلد : ٨ ـ ١٥] .

قال تعالى :

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

الإمام الرازي من كبار علماء المسلمين والمفسرين يفرق بين لفظ الجليل ، ولفظ الكريم ، فلفظ الكريم يكفي فيه الإكرام ، والإكرام قريب من الإنعام ولكنه أخص منه ؛ فكل إكرام إنعام ، وليس كل إنعام إكراماً ، كيف ذلك ؟ قد تجد أن فلاناً من الناس ، له كذا من الأولاد يأكلون جميعاً على مائدته ولكن أحد هؤلاء الأولاد بارٌّ ومطيع ، فأنت تجد أنهم إذا صاروا على مائدة الطعام ، فهذا الولد البار له معاملة خاصة من أبيه ، فالأب يقدم له شيئاً استثنائياً ويبتسم في وجهه ، ويرضى عنه ويدعوه له ؛ فالطعام وحده إنعام ، أما الإطعام مع التكريم اللفظي والعملي فهو إكرام .

فالإمام الرازي يقول : ليس كل إنعام إكراماً ، ولكن كل إكرام إنعام ، قال : وفي تقديم لفظ الجلال على لفظ الإكرام سر ، قال تعالى

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٧٨] .

فلماذا قدم الله لفظ الجلال على لفظ الإكرام ؟ لأن الجلال يعني التنزيه ، تقول : جل جلاله ؛ أيْ تنزهت ذاته عن كل نقص ، وإن الإكرام الصادر من الله عز وجل إكرام منزه عن كل غرض . قد تُدعى لطعام الغداء من قبل أحد الأشخاص ، وبعد أن تنتهي ، يطلب منك

حاجة ؛ فهذه الدعوة إذاً ليست خالصة ، وإنما دعوة هادفة ، وهي مشوبة بمكسب ، وغرض وتأمين حاجة ؛ لذلك قدم الله اسم الجلال على اسم الإكرام ؛ لأن إكرامه منزه عن كل غرض .

« ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . ياعبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً » .

أكرر فتقديم اسم الجلال على اسم الإكرام ، لأن إكرامه منزه عن كل غرض .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾

[إبراهيم : ٨]

﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ ﴾ [الزمر : ٧] .

ويذكر بعض العلماء : أن جلال الله منزه عن الأنصار والأعوان . أحياناً يستمد الإنسان هيبته ممن حوله ، ومن أنصاره ، وأعوانه ، وجماعته ، ومن القوة التي بيده ، ومن الأشخاص الذين حوله ؛ لكن الله عز وجل منزه في جلاله عن الأعوان والأنصار . أما الإنسان ؛ فجلالته قد تكون من ماله ، أو مكانته من علمه ، أو مكانته من سلطته . هذه المكانة مشوبة ومفتقرة إلى شيء قالوا : من أحبك لشيء ، كرهك لفقده . فجلال الله عز وجل منزه عن الأسباب ؛ لأنه ذو جلال بذاته دون سبب منفصل عنه . جلاله يعني الرفعة والعزة والعلو . والإكرام كما قال الإمام الرازي : قريب من الإنعام ، إلا أنه

أخص منه ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد ينعم على من لا يكرِّم ؛ فهو سبحانه لا يحب الكافرين لكن يمنحهم المال والصحة ، والأولاد والبيوت ، والمتع والسيارات والمباهج ؛ فكل هذا إنعام وليس إكراماً . لكنه جل جلاله يكرم المؤمنين . فكل إكرام إنعام ، ولكن ليس كل إنعام إكراماً ذلك لأنه ينعم على من لا يُكْرِم ، ولا يُكْرم إلا من يُنعم عليه . وقالوا : إكرام الله عز وجل نوعان : نوع معجَّل في الدنيا ، ونوع مؤجل إلى الآخرة . فالإنسان إذا لم يكن له في الدنيا ما يريد ، بل كانت دنياه مدبرة لا مقبلة ، فهو ينتظر إكرام ربه بعد الموت ، روي في بعض الآثار :

« إني والجن والإنس في نبأٍ عظيم ؛ أخلق ويُعْبَدُ غيري ؛ وأرزق ويُشْكَرُ غيري ؛ خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إليَّ صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إليَّ ، من أقبل عليَّ منهم تلقيته من بعيد ، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب ، أهل ذكري أهل مودتي ، أهل شكري أهل زيادتي ، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب ، لأطهرهم من الذنوب والمعايب ، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد والسيئة بمثلها وأعفو ، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها » .

وقال بعض العارفين : ذو الجلال والإكرام ؛ هو صاحب الجلالة ، لأنه لا شرف ، ولا مجد ، ولا عزة ، ولا قوة ، إلا وهي له ، فهي له وبه ومنه أحياناً يهب الله تعالى لبعض الأشخاص هيبة ، جلالة ، مكانة ، ، وأحياناً يسلبها منهم فجأة . هو الأصل . فلا شرف ، ولا مجد ، ولا عزة ، ولا قوة إلا وهي له وبه ومنه ولا كرامة

ولا فضل ولا نعمة ولا إحسان ، إلا وهي من مَدَدِهِ جل جلاله ؛ هذا معنى ذو الجلال والإكرام .

وقال بعضهم : هذا الاسم الجليل جامع للجلال والجمال ؛ فإن الله تعالى له جلال رهيب ، وجمال عجيب .

وبالمناسبة أقول : إن المؤمن المتصل بالله جل جلاله له هيبة .

عَنْ ابن مَسْعُودٍ قَالَ : أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ فَقَالَ لَهُ : « **هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ** » . [رواه ابن ماجه] .

كان عليه الصلاة والسلام من رآه بديهة هابه ، ومن عامله أحبه . فالنبي ﷺ وأصحابه والمؤمنون الصالحون الصادقون المخلصون ؛ هؤلاء يأخذون من هذا الاسم نصيباً وهو الهيبةُ ؛ من اتقى الله هابه كل شيء . وأيُّ إنسان اتصل بالله عز وجل كانت له هيبة .

روي أن الحجاج بني داراً بواسط ، وأحضر الحسن ليراها ، فلما دخلها قال : الحمد لله إن الملوك ليرون لأنفسهم عزاً وإنا لنرى فيهم كل يوم عبراً يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده وإلى فرش فينجده وإلى ملابس ومراكب فيحسنها ، ثم يحف به ذباب طمع وفراش نار وأصحاب سوء فيقول : انظروا ماصنعت ، فقد رأينا أيها المغرور فكان ماذا ياأفسق الفاسقين ؟ أما أهل السموات فقد مقتوك! وأما أهل الأرض فقد لعنوك! بنيت دار الفناء وخربت دار البقاء وغررت في دار الغرور لتذل في دار الحبور ، ثم خرج وهو يقول : إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ليبينه للناس ولايكتمونه ، وبلغ الحجاج ماقال فاشتد غضبه ، وجمع أهل الشام فقال ياأهل الشام أيشتمني عبد من

عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تنكرون ؟ ثم أمر بإحضاره فجاء وهو يحرك شفتيه بما لم يسمع حتى دخل على الحجاج ، فقال : ياأبا سعيد! أما كان لإمارتي عليك حق حين قلت ما قلت : فقال : يرحمك الله أيها الأمير! إن من خوَّفك حتى تبلغ أمنك أرفق بك وأحب فيك ممن أمنك حتى تبلغ الخوف ، وماأردت الذي سبق إلى وهمك والأمران بيدك العفو والعقوبة فافعل الأولى بك وعلى الله فتوكل وهو حسبنا ونعم الوكيل فاستحيا منه واعتذر إليه وأكرمه وحياه .

وفي رواية أخرى فلما دخل قال له الحجاج : ها هنا ، فأجلسه قريباً منه ، وقال : ماتقول في علي وعثمان ، قال : أقول قول من هو خير مني عند من هو شر منك قال فرعون لموسى ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ علم علي وعثمان عند الله قال : أنت سيد العلماء ياأبا سعيد! ودعا بغالية وغلف بها لحيته فلما خرج تبعه الحاجب فقال له : ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه قال قلت ياعدتي عند كربتي وياصاحبي عند شدتي وياولي نعمتي! وياإلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب! ارزقني مودته واصرف عني أذاه ففعل ربي عز وجل .

صدقوني أيها القراء الكرام : هذا لكل مؤمن وفي كل زمان وفي كل مكان ، للمؤمن هيبة . لا يستطيعون أن يتجاوزوا حدَّهم عندك إن كنت مؤمناً مستقيماً ، فمن اتقى الله ، هابه كلُّ شيء ، ومن لم يتق الله ، هاب كلَّ شيء .

أَخْبَرَنَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ

يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً » . [رواه البخاري] .

فالنبي ﷺ نُصر بالرعب وحينما تركت أمته سنته ؛ هزمت بالرعب لذلك ؛ من اتقى الله ، هابه كلُّ شيء ومن لم يتقِ الله هاب كلَّ شيء .

وقال بعض العارفين : ذو الجلال والإكرام ؛ هو المنفرد بالجلال والإكرام والعظمة ، المختص بالإكرام والكرامة ؛ فكل جلال له ، وكل كرامة منه سبحانه ، له الجلال في ذاته ، والإكرام فيضٌ منه على خلقه ؛ فما من نعمة تأتيك إلا وهي من الله ؛ حتى لو أن عَينيك رأتا أن هذا الإنسان ـ فلان الفلاني ـ هو الذي أكرمك ؛ إذا كنت موحداً ترى أن الله ألهمه ، وسمح له ، وأن الله مكنه ، وألقى حبك في قلبه فأكرمك . لذلك ـ المؤمن الصادق ـ إذا أصابه خيرٌ ، بادىء ذي بدء يشكر الله عز وجل ، إنّ السيدة عائشة حينما لاك الناس حديث الإفك ، وبقي الوحي منقطعاً قرابة شهر ، والنبي ﷺ في أشد حالات الضيق والحزن ، ثم جاءت براءة الله عز وجل للسيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقال لها الصديق : قومي لرسول الله فاشْكُرِيهِ فَقَالَت : **« لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله »** [متفق عليه من حديث عائشة رضي الله عنها] .

مادام كل كرامة من الله ، وأيُّ إكرام مهما بدا لك أنه من فلان ، فهو من الله لذلك أنت يجب ألا تشكر على الحقيقة إلا الله . فالمؤمن الصادق يُعَوِّدُ نَفْسَهُ سجود الشكر ، فأحياناً يُسمح له ، وقد كان

ممنوعاً ، يُمنح ، ينال درجة أو شهادة أو مالاً ، ويرى كل نعمة من زوجة وولد ومال وعطاء ، ونجاح ، هي منه سبحانه وتعالى ، وهو المنفرد بصفات الكمال والعظمة والجلال ، المختص بالإكرام والكرامة ؛ فكل جلال له ، وكل كرامة منه سبحانه ، له الجلال في ذاته ، والإكرام فيض منه على خلقه . عندي مثل أحب أن أطرحه على مسامع القراء الكرام :

في مَعامل الحديد الضخمة ، هناك رافعات كهربائية ، مساحة كبيرة من الحديد ؛ مربعة أو دائرية محاطة بوشيعة كهربائية ، فإذا سرت الكهرباء في هذه الرافعة ، تصبح ممغنطة . وهذه الرافعة ربما حملت خمسة أطنان . والآن وهي ترفع هذا الثقل ؛ لو ضغط العامل مفتاحاً بمقدار ربع ميلمتر بحيث قطع تيار الكهرباء ، فكل هذه الأوزان تسقط ، أردت بهذا المثال أنه مهما كنت ذا هيبة ، أو كنت ذا شخصية متألقة ، ومحظوظاً ومحبوباً ؛ فهذا من الله عز وجل ، بدليل أنه أحياناً يُفقدك هيبتك ، ويأتي أحقر الناس فيتطاول عليك ، ويسيء إليك . فإذا شعرت بالمكانة والهيبة وأنك محبوب فهي من الله ، والنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ علَّمنا أن الله كلما زاد في إكرام عبده ؛ فالعبد الكامل يزيد في تواضعه لله عز وجل . لذة النصر لا توصف ، فكفار مكة المكرمة بالغوا في الإساءة إليه ﷺ وإيذائه ، وحاربوه ثلاث مرات في بدر وأحد والخندق ، وحاولوا قتله وأخرجوه ونكَّلوا بأصحابه وعذبوهم وقتَّلوهم ، حتى إن سهيل بن عَمْرٍو لم يرض أن يكتب : هذا ما اتفق عليه محمد رسول الله قال : امحُ رسول الله ؛ ـ غَطْرسةً وكِبْراً ـ ثم فتحت مكة ، عشرة آلاف سيف متوهجة تأتمر بأمر النبي وقد دخلها منتصراً ، كيف دخلها ؟ دخلها مطأطِيء الرأس!

ودخلها متواضعاً ، وكادت ذُؤابة عمامته تلامس عنق بعيره!!

فالله ذو الجلال والإكرام ، وكلُّ الجلال منه ، وله ، وبه وكل الإكرام منه وله وبه . فإذا تمتعت بهيبةٍ فاذكر ؛ أن الله هوالذي رفع لك ذكرك ، وإذا تمتعت بإكرام فاعتقد أنه منه .

وها نحن بصدد معنى جديد ؛ فكونه ذا الجلال فيجب أن تُجلَّه . ولأنه ذو إكرام فيجب أن تحبه ، وأن تكرم عباده ؛ فَرَدُّ الفعل عندك أن تجله ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ بعض الأحيان يتأدب الإنسان مع كتاب الله ، ويضعه في مكان عالٍ ، ولا يجعل رجليه باتجاهه وإذا قرأه قرأه جالساً ، ويضعه على وسادة ، فكل تعظيم لشعائر الله وكتابه وبيوته وأوليائه ، هو من إجلال الله .

عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّ مِنْ إِجْلالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ** » . [رواه أبو داود] .

« **إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم** » رجل متقدم بالسن ، نشأ في عبادة ربه ، ذو شيبة ؛ إكرام هذا الشيخ هو من إكرام الله ، إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم . وإكرام العالم العامل ، والإمام العادل ، كل ذلك من إكرام الله وإجلاله ، فالمعنى الجديد الذي مرّ معنا هو : مادام الله ذا الجلال والإكرام ؛ فينبغي أن تجله ، وأن تكرمه بإكرام خلقه ، وهو ردّ الفعل .

وبعد فقد رُوي أن اسم ذا الجلال والإكرام ؛ هو اسم الله الأعظم ، ذلك بأنَّ النبي عليه الصلاة والسلام ، كان ماراً في طريقه فسمع أعرابياً يقول : اللهم إني أسألك باسمك الأعظم العظيم الحنان

المنان ، مالك الملك ، ذي الجلال والإكرام ،وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ وَحْدَكَ لا شَرِيكَ لَكَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ فَقَالَ : « **لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ** » . [رواه ابن ماجه] .

« **لقد دعا الله عز وجل باسم الله العظيم الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى** » فهذا الحديث يؤكد أن اسم ذي الجلال والإكرام اسم الله الأعظم ـ طبعاً كما قلت في بداية البحث هذا الاسم ورد في كتاب الله مرتين (أذكرهما) والمرتان في سورة الرحمن ـ .

عن عَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُبَارَكِ عَنْ يَحْيَى بْنِ حَسَّانَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا حَسَنَ الْفَهْمِ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « **أَلِظُّوا بِيَا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ** » . [رواه أحمد] .

أَلِظّوا بيا ذا الجلال والإكرام ؛ أيْ اِلْتجِئُوا ، فإذا حلت بالمؤمن مشكلة ، أو ألمت به ملمة أو دهمه خطب أو حلت به محنة ، دعا وقال : يا ذا الجلال والإكرام برحمتك أستغيث . أَلِظّوا : أيْ اِلْتجئوا وادعوا ، قال ابن الأثير أيْ : اِلْزَموه واثْبتوا عليه ، وأكثروا من قوْل ذلك في دعائكم .

التطبيق الثاني : من عرف جلال الله تواضع له ، لذلك لا يجتمع كِبْرٌ ومعرفةُ الله عز وجل تقول : أنا ؛ فمن أنت ؟ أنت لا شيء . لا تقل أنا . متى أكثر العبد من ذكره ، ولاح نوره على سره ، صار جليل القدر بين العوالم . ومن عرف جلال الله ، تواضع له وتذلل ، ولقد قيل : تخلقوا بكمالات الله . فكيف نتخلق بكمالات الله ؟ باسم

الجلال والإكرام ؟ الإكرام أن تكرم الناس وأن تجعل أساس حياتك العطاء ، فأما الجلال فأن تترفَّع عن سفَساف الأمور . فمن كثر مزاحه ، قلَّت هيبته ، لا تتعلق بالجزئيات والتفاصيل . لا تكن سخيفاً . إن الله يحب مَعالِيَ الأمور ، ويكره سفسافها ودَنِيَّها . فاعتدالُك في الأمور وتوازنك واهتمامك بالقضايا الكبرى ، وتعلقك بالآخرة ، وترفعك عن السفساف والدَّنايا ، وترفعك عن السَّفاهات ، وعن كثرة القيل والقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال ، وتعلقك بالآخرة ، يجعلك ممن تخلق بأخلاق الله ، وصار لك هيبة أساسها الاعتدال والسلوك الحسن ، والترفع عن الدَنايا والسفساف والسقطات والزلات والثرثرة والتعليقات والتدخلات الجانبية ، وأن تحشر نفسك فيما لا يعنيك . هذا كله يضعف مكانتك . والإنسان الناضج له إحساس دقيق جداً ؛ فيشعر أن هذه الكلمة تصغّر شأنه ، وهذه النظرة تقلل قدره ، وأن هذا السؤال يجعله دنيئاً وأن هذا التذلل يجعله خنوعاً ، وأن هذا التصرف يجعله طامعاً . فكلُّ عملٍ يجعلك أمام الناس صغيراً ، عليك أن تترفع عنه ، من أجل أن تتخلق بكمالات الله . والنبي ﷺ قال :

« **إياك وما يُعتذر منه** » [رواه ابن ماجه] .

أيُّ تصرف يدفعك إلى الاعتذار وتقول : لا تؤاخذوني ، فلا تفعلْه ، إذا فعلت هذا تخلقت بكمالات الله وصارت لك هيبة ، والهيبة نوعان : نوع كسبي ونوع وهْبي .

النوع الكسبي : التزامك بالأدب وضبط اللسان ؛ مَن كثر كلامه كثر غلطه ، اضبط لسانك وجوارحك وكن معتدلاً ، لا تتكلم كلاماً لست متأكداً منه ، ولا تتهم أحداً قبل أن تتحقق ، قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات : ٦] .

فعدم التسرّع وعدم الثرثرة ، وفهم الأمر بِتريُّث ، وترك الدنايا ، يجعلك ذا جلال . وإذا جعلت أساس حياتك العطاء والسخاء والدعْم ، صرت ذا إكرام . إذاً ومرة ثانية أذكر أن التخلق بهذا الاسم له طريقان : كسْبي ووهْبي ، إن أقبلت على الله واتصلت به ، وهَبك الجلال . وإن اعتدلت في سلوكك ، وترفعت عن الدنايا والسفساف وأقللت من المزاح ومن الثرثرة ، والتدخل فيما لا يعني ، كنت كبيراً في نظر الناس . فكلِمةٌ ترفعك ، وكلمةٌ تجعلُك أسفل السافلين . إن الرجل يقول الكلمة في سخط الله لا يلقي لها بالاً ، يهوي بها سبعين خريفاً في جهنم . فما دام الله عز وجل ذا الجلال والإكرام ، يجب أن نجِلهُ وأن نحبَّهُ ، ومن جهة ثانية إذا صح أن نقول : تخلقوا بكمالات الله ، فباستقامتنا واعتدالنا وترفعنا عن السفاسف ، نكتسب هيبة . وباتصالنا بالله عز وجل .

أجل نكتسب هيبة . الأولى كسبية ، والثانية وهبية . والله عز وجل أكرمنا فيجب أن نحبه ، وأن نكرم عباده . إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي .

جاء في بعض الأدعية : أنت ذو الجلال والإكرام ، صاحب الطَّوْل والإنعام ، لك جلالٌ يَدُكُّ الجبال ، ولك جمالٌ يفتح باب القبول والوِصال . وأنا يا أخي المسلم أتمنى أن يهزك جمال الله ، كما يهزك جلاله ، وأن تقبل عليه رهبةً ورغبة ، رجاءً وخوفاً فإن جلاله مرغوب ، وكماله محبوب .

بعضهم ناجى ربَّه فقال : يا رب أشرَقَ نور هذا الاسم على لطائف قلبي ، حتى تجنبت الرذائل ، فكنت جليل القدر ، وانشرح صدري بإكرامك ، فكنت مُجَمَّلاً بلطائف إنعامك ، إنك على كل شيء قدير .
وصلى الله على سيدنا محمد البشير النذير وسلم .

أيها القارىء الكريم : لعل هذا الاسم كما ورد هو اسم الله العظيم ؛ أَلِظّوا بيا ذا الجلال والإكرام ، فكل صفات القوة والعظمة منطوية في يا ذا الجلال ، وكل صفات الكمال والإكرام منطوِية في الإكرام ؛ فإذا قلت : يا ذا الجلال والإكرام ، فكأنك جمعت بهذا الاسم المركب ، أسماء الله الحسنى كلها ، ولكن من زاويتين ؛ زاوية القوة ، وزاوية الكمال ، والنبي عليه الصلاة والسلام ما كان يجلس بعد الصلاة إلا بمقدار قوله : « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام » ، ومعنى يا ذا الجلال والإكرام ينبغي ؛ أن تعظِّمه بالقدْر الذي تحبه ؛ فإذا كان في حياتنا كما قلت في مطلع هذا البحث أناس نحبهم كثيراً ولا نقدرهم كثيراً ، وأُناس نقدرهم كثيراً ، ولا نحبهم كثيراً ، فالله عز وجل ذو الجلال والإكرام بِقَدْر ما هو عظيم في قلبك ، بقَدْر ما هو كريم في تعامله معك .

* * *

الضَّارُّ، النَّافِعُ

الاسم هو الضار النافع ، وهما اسمان من أسماء الله الحسنى . دققوا في كلمة الحُسنى ؛ ولله الأسماء الحُسنى ؛ فالضار من أسماء الله الحُسنى ، والمانع من الأسماء الحسنى ، والقابض من الأسماء الحسنى ، والمُذل من الأسماء الحسنى ، وكُلُّ أسماء الله حُسنى ؛ ولكن قد يبدو للإنسان أحياناً أن الضُّرَّ يؤلمه ، وهو كالدواء تماماً ؛ طعمه مُر وعاقبته محمودة .

هناك توجيه لبعض العلماء ، وهو أن تبقى هذه الأسماء مزدوجة ، وأن تُدرّس معاً ؛ فلا تقول : الضار وحده ؛ قُل الضار النافع ، والقابض الباسط ، والمُعز المُذل ، والمُعطي المانع ، وهذا لسبب بسيط وهو أنه تعالى يضر لِينفع ، ويذل ليعز ، ويمنع ليعطي ، ويخفض لِيرفع ، ويقبض لِيبسط ، لو كُشف الغطاء لهذا الإنسان الذي ساق الله له من الشدائد ما ساق ـ والله الذي لا إله إلا هو ـ ، لَذاب كما تذوب الشمعة إذا أُشعِل فتيلها ، حُباً في الله عزّ وجل . ولو عُرفت حكمة الشدائد التي يسوقها الله لِعِباده ، لَذاب الإنسان حباً واستحياء من الله عز وجل ، كما تذوب الشمعة إذا أُشعل فتيلها .

لذلك يقول الإمام الربيع بن خثيم : والله لو كُشِف الغطاء ،

ما ازددت يقيناً . وهذا الإيمان وهذا الشعور هو أحد أكبر الأسباب في سعادة الإنسان .

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي معدِلٌ عنهم وإن عَدَلُوا

وإن فتَّتوا في حبهم كبدي باقٍ على عهدهم راضٍ بما فعلوا

شعور الرضا أيها القارىء الكريم لا يوصَف ؛ أي أن ترضى عن الله .

عن بعض السلف : إن الله تعالى إذا قضى في السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه ، وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر ، وقال عمر رضي الله عنه : ماأبالي على أي حال أصبحت وأمسيت من شدة أو رخاء ، وكان الفضيل يقول : إذا استوى عنده المنع والعطاء فقد رضي عن الله تعالى .

لا تُصدِّق أن يكون الامتحان في الرخاء ؛ إنما الامتحان في الشِّدّة . ولا يظهر إيمانك إلا في الشِّدّة ، ولا ترقى عند الله إلا في الشِّدّة ، لذلك المؤمن يُوَطِّن نفسه على أن يُمتحَن . وقد سُئل الإمام الشافعي : أندعو الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال : لن تُمكن قبل أن تُبتَلى ، قال تعالى :

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾

[آل عمران : ١٧٩]

فأكثر المراجع ترى أن هذه الأسماء المزدوجة ؛ ينبغي أن تذكر معاً ؛ الضار النافع لسبب بسيط ، وهو أنه تعالى يضُر لِيَنفع .

في سورة القلم قِصة أصحاب الجنة ، قال تعالى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم : ١٧ـ٣٣] .

فأصبحت كالصريم أي تلفت وانتهت . نتيجة ما أصابها من الصقيع ﴿ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴾ ، القصة طويلة ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴾ ليس هذا بستاننا ، فلما تأكدوا الأمر قالوا : ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ ، ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ ، فلِضَعف إيمانكم بالله بَخِلتم ؛ فلما بَخِلتم عوقِبتم ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ انتهت القِصة ، والآن إلى التعقيب : قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ﴾ ؛ أي أنه ؛ أيُّ عذاب أسوقه للعباد ؛ فَمن أجل هذا ، ومن أجل أن أردهم إليّ ، ومن أجل أن أحملهم على الصواب ، ومن أجل أن أحملهم على التوبة ، ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ﴾ ، والمؤمن الصادق يعتَقِد اعتقاداً راسخاً أن كُلَّ شِدَّة وراءها شَدَّة إلى الله ، وأن كل مِحنة ، وراءها مِنحة وأن كُلَّ شيء وقع أراده الله ، وأن كل ما أراده الله وقع ، وأن إرادة الله متعلقة بالحِكمة المُطلقة ، وأن حكمته المطلقة متعلِّقة بالخير المطلق . ومعنى الحِكمة المُطلقة ؛ أن الذي وقع لو لم يقع ، لكان الله ملوماً ؛ ولكان عدم وقوع الذي وقع نَقْصاً في حكمة الله عز وجل .

لذلك هناك من يقول : لِكل واقعٍ حكمة ، فطالما أن هذا الشيء

وقع ؛ فَمن ورائه حِكمة ما بعدها حِكمة ، ولو أن الذي أوقعه كان أحمق أو مجرماً ، ولو أن الذي أوقَعَه لم يكن حكيماً ، ولو أن الذي أوقعه كان شريراً ، ولو أن الذي أوقعه كان جاهلاً ؛ لكان الأمر مختلفاً ولكن لِكلِّ واقعٍ حِكمة ، لأنه لا يُمكن أن يقع في كَون الله إلا ما أراده الله ، وإرادته متعلِّقة بالحكمة المطلقة ، هذه الفكرة وحدها ، يُمكن أن تنفِيَ عن الإنسان كل أمراضه النفسية . يعني إذا كان هناك صحة نفسية ففي عالم الإيمان كل السلامة النفسية . علاقتك مع الرحمن الرحيم ، مع الحكيم ، ومع العليم ، ومع العادل ، علاقتك مع ربٍّ كريم ، بيده كل شيء ، ويعلم كل شيء ، لا تخفى عليه خافية .

علماء كُثُر يقولون : « **اعلم أن الجمع بين هذين الاسمين أولى وأبلغ في الوصف بالقدرة على : ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا نافع ولا ضار غيره** » .

لندقق النظر معاً ؛ فمتى يُنافق الإنسان ؟ متى يُرائي ؟ ومتى يخاف ؟ ومتى ينهار ؟ ومتى يَخْنع ؟ ومتى يقبل الضيم ؟ إذا شعر أن إنساناً يمكن أن ينفعه ، أو يمكن أن يضره ، أمّا إذا أيقن أنه لا نافع إلا الله ، ولا ضار إلا الله ، رفع رأسه وقال : لا ، بِملء فمِه ، واعتقد أن الله لن يسلمه ، ولن يتخلى عنه ، وأن كلمة الحق لا تقطع رزقاً ، ولا تقرِّب أجلاً . فكل أسباب القوة والمنعة ، وكل أسباب العزة والجُرأة ، تتأتى بسبب أن تؤمن أنه لا نافع ، ولا ضار ، إلا الله ، ألا يكفيك قوله تعالى :

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر : ٢] .

هذه الآية وحدها تكفي في ملء قلبه يقيناً ونفسه إيماناً ، ألا يكفيك حديث رسول الله الذي روي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ : « يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » . [رواه الترمذي] .

هكذا الإيمان .

يقول علماء اللغة : « إن الضُّر ضد النفع » ، واللهُ جل جلاله هو الضار ؛ لكن ينبغي ألاّ يغيب عن ذهنك كيف يكون ذلك ، فمثلاً إن الأب الطبيب الجرّاح يُمسك بالمِبضَع ، ويفتح البطن ، ويخرج الدم ، ويربط الأوعية ، ويأتي إلى هذه الزائدة ـ التي جعلته من شدة الألم يكاد يخرج من جلده ـ ويقطعها ويستأصلها ، ثم يُضَمِّد الجِراح . أب طبيب جراح مُفعم قلبه بالرحمة ، وممتلىء عقله بالعِلم ، أُصيب ابنه بالتهاب الزائدة ، ماذا يفعل معه ؟ يستأصلها ؛ استِئصالها مُؤلم ، فهناك فتح بطنٍ وتخدير ، وبعد انتهاء المخدر هناك آلام ، لكن هذا الأب يفعل كل ذلك لِصالح ابنه . لا يمكن أن نفهم الضر من الله إلا هكذا ، وأيُّ فهمٍ آخر يُعَد كفراً وإلحاداً في أسماء الله عز وجل لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

إنَّ المؤمن مستسلم وصابر لِحكم الله . وحينما يصبر المؤمن لِحكم الله عز وجل فإن الله جل جلاله يتجلّى على قلبه بالسكينة . فالله سبحانه وتعالى يُفقر ؛ وقد يكون الإفقار هو عَيْن العطاء . والله سبحانه وتعالى يُمرض ؛ وقد يكون في المرض الصِّحةُ النفسية التامة . والله سبحانه وتعالى يُخيف ؛ وقد يكون في الخوف الالتجاء إلى الله عز وجل . والله حكيم يعلم كيف يُداوي ، ويعلم أسباب الألم ، ويعلم ما الذي يحمل عبده على التوبة .

أنا أعرف رجلاً مُتَفلِّتاً تفلتاً كاملاً من منهج الله ، وعقيدتُه فاسدة ، ويستهزىء بالدين ، ولا يُطبق شيئاً من أوامر الله عز وجل . وزوجته كذلك . أصيبت ابنته بِمرض عُضال وخبيث في دَمها ، فقام ولم يقعد ، وأنفق كل ما يملك ، واضُطرَّ إلى بيع بيته ، وأخذها إلى بلاد غربية ليعالجها لأنه متعلّق بها تعلقاً شديداً ، ثم جاءه خاطر ، والأَوْلَى أن نقول إنه إلهام من المَلَك ، أَنْ يا فلان لو أنك تُبت إلى الله أنت وزوجتك ، لشفاها الله ، فهذا الخاطر حمله على أن يتوب ؛ فحَجَّب زوجته ، وبدأ يصلي ، وحضر مجالس العِلم فشفا الله ابنته . وبعد سنوات عِدة ـ هو زميل لي في العمل ـ زارني في مَركز عملي ودعاني لِحضور عَقْد قِران ، فقلت له مُداعِباً : أهي هي ؟ فقال : هي هي ، هي التي مَرِضت وردَّت أباها وأمها إلى الله ، هذا المرض كالضيف ؛ جاء فَحَمل أباها وأُمها على التوبة ، ثم انسحب .

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ ﴾ لا يمكن أن نفهم عذاب الله إلا بهذه الطريقة ، العذاب ضيف ، ولكنه ضيف مؤلم ، يدخل ويخرج وقد حَمَلَ الإنسانَ على التوبة . لكن المصائب أنواع ، فهناك مصيبة قَصم ، وهناك

مصيبة ردْع ، وهناك مصيبة دفْع ، وهناك مصيبة رفع ، وهناك مصيبة كشف . الأنبياء إذا ساق الله لهم المصائب ، فلِكَشف حقائقهم التي تفوَّهوا بها . والمؤمنون إذا ساق الله لهم المصائب ، فَلِدفْعهم إلى بابه ، أو لِرفعهم إلى جنابه . أما الكفار إذا ساق الله لهم المصائب ، فإما قصماً إنهاءً لِحياتهم ، وإما ردْعاً إذا كان فيهم بقية خير ؛ فالقصم والردع للكفار ، والدفع والرفع للمؤمنين ، والكشف للأنبياء ، ولكل مصيبة حِكمة ما بعدها حِكمة .

في بعض الأدعية : إلهي ، أنت الضار توقع الضر والآلام لأهل الشرك والفجار ، وأنت العدل في إضرارك ، وكلهم كالمرضى في حكمك ، فتداويهم حكمتك ، وتوجِد من الضر النفع .

لو دققت النظر في أب أهمل ابنه ، يأكل كما يريد ، وينام إلى أي وقت يريد ، ولا يدرس ولا يذاكر ، ويُصاحب رفقاء السوء ، هذا الابن سيكون في مؤخرة الركب . الأب الشديد الذي حمل ابنه على الدراسة ، وضبط سلوكه ، وقسا عليه ؛ فقد يكون هذا الابن شخصيّة لامعة في المجتمع . هذا الابن عندما رأى نفسه في أعلى مقام ، وذا مكانة اجتماعية ، ويحمل شهادة دكتوراه ، وله بيت وزوجة ، معززٌ ومكرّم ، ألا يدعو لأبيه طوال حياته ؟ ألا يقول : جزى الله عني أبي كل خير ؟ لولا شِدتُه لما كُنت فيما أنا فيه . لذلك أيّ إنسان على الإطلاق ، يُلخص علاقته بالله كلها يوم القيامة بِكلمة : الحمد لله رب العالمين . قال تعالى :

﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] .

يُروى : أنّ سيدنا العباس كان مقيماً في مكة ، وكان قد أسلم سِراً ، وبَقي عين النبي ﷺ تروي بعض كتب السيرة أن النبي ﷺ أمر أصحابه ألا يقتلوا عمَّه العباس ، ثم إن الحقيقة انكشفت ، فبعضهم ظن أن النبي من باب التعصب ينهى أن يُقْتَلَ عمُّه ؛ لكن النبي ﷺ يعلم أن عمه قد أسلم ، ويعلم أيضاً أنه إذا ذكره كُشف أمرُه ، وإذا لم يُشارك عمه في المعارك كشِف أمرُه .

قال ابن إسحاق : وحدثني العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن ابن عباس : أن النبي ﷺ قال لأصحابه يومئذ : إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً ولا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مستكرهاً . قال : فقال أبو حذيفة : أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا ونترك العباس ؟! والله! لئن لقيته لألحمنه السيف ـ قال ابن هشام : ويقال لألجمنه السيف ـ قال : فبلغت رسول الله ﷺ فقال لعمر بن الخطاب : ياأبا حفص ـ قال عمر : والله إنه لأول يوم كناني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص ـ أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف ؟ فقال عمر : يارسول الله دعني فلأضرب عنقه بالسيف فوالله لقد نافق فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة فقتل يوم اليمامة شهيداً .

فالإنسان إذا توهم أن الله يسوق الشدائد تَشَفِّياً فقد تنكب سبيل الإيمان وساء ظنه بالله ؛ فالله سبحانه أسماؤه حُسنى قال تعالى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾

[إبراهيم : ٨]

ولكن يقول الله عز وجل :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] .

دعا بعضهم فقال : يا رب امنحني عيون التوحيد ، حتى لا أطلب دفع الضر إلا من جنابك .

وبعض الأدعية تقول : اللهم صُن وجوهنا باليسار ـ بالغنى ـ ولا تبذلها بالإقتار ؛ فنسأل شر خلقك ، ونُبتلى بِحمد من أعطى ، وذم من منع ، وأنت من فوقهم ولي العطاء ، وبيدك وحدك خزائن الأرض والسماء ؛ فامنحنا اللهم عيون التوحيد حتى لا نطلب دفع الضر إلا من جنابك ، ولا نقف إلا عند أعتابك ، أنت على كل شيء قدير .

الإنسان عندما يتضعضع أمام إنسان لِيتلافى الضر ، فقد أشرك . وحينما يمتلىء قلبه حباً لِفلان لأن خيراً أصابه منه ، فقد أشرك . والبطولة ألاّ تعتقد أن أحداً في الكون بِإمكانه أن ينفعك أو أن يضرك ؛ الله هو الضار النافع .

النافع لا يقتصر على الدنيا وإنما على الدنيا والآخرة ؛ فالذي يمنح الصحة هو النافع ، والذي يمنحك الغنى والسعادة والحياه والهداية والتقوى هو النافع ، وهو الذي أوصل كل هذه النعم إلى خلقه ، ووصل نِعَمَ الدنيا بِنعَمِ الآخرة ؛ فالنافع يشمل منافع الدنيا ، ومنافع الآخرة . ألم يقل النبي ﷺ : « اللهم! أصلح لي ديني الذي هو عصمة

أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي » [رواه مسلم] ، معنى ذلك أن الدنيا تُكمل الآخرة ، والآخرة تكمل الدنيا . والمؤمن يطلب حسنة الدنيا والآخرة ، ومن أكثر الأدعية التي دعا بها النبي ﷺ :

عَنْ أَنَسٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : « **اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** » . [رواه البخاري ومسلم] .

ما الذي يمنع أن تسأل الله حسنة الدنيا وحسنة الآخرة ؟

وفي بعض الأنوار القدسية في الأدعية : إلهي أنت النافع لِجميع العوالم ، وأنت بالجميع راحم .

والإنسان عندما يستقيم على منهج الله ، يهديه الله سُبُلَ السلام . فسُبحانه لا يُرضيه أن يُعذِّبك . تصوّر حالة أبٍ ، له ابن يحبُّه حباً لا يوصف ، ووجد معه خمساً وعشرين ليرة ، فيقول له : من أين لك هذه ؟ فيقول : أخذتها من رفيقي وهو لا يدري (يعني سرقها) ، هذا الأب العاقل ألا يجد نفسه مضطراً إلى أن يؤدِّب ابنه ؟ أنا والله أعتقد أن الأب الرحيم حينما يؤدب ابنه ، يتألم عشرة أضعاف آلام ابنه ، ومع ذلك فلا بد من إيقاع الضرب فيه ، أو التجربة المؤلمة . فالإنسان الرحيم يرى من الضرورة أن يوقع في الذي يحبه أَلَماً رادعاً ، لا أدري مَن مِنَ القراء الكرام ذاق هذه التجربة ، وهو أن يضرب ابنه ويتألم أشد من أَلَمِ ابنه لرحمته . فالله عز وجل لا يُرضيه أن يُذِلَّك ، ولا يرضيه أن يُفقِرك ، ولا يرضيه أن يحبِس حرِّيتك ، ولا يُرضيه أن يُمرضك ، وأن تكون في مؤخِّرة الركب . الإذلال ، والإفقار ، وحبْس الحرية ، والخوف ، والهم ، والحزن ؛ هذه لا تُرضي الله عز

وجل ؛ لأن الله « **حيِي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين** » [رواه أبو داود والترمذي واللفظ له] وفي رواية للحاكم : « **ثم لايضع فيهما خيراً** » .

لكنَّ الله سبحانه وتعالى لحكمته البالغة ، لا بد من أن يسوق لعَبده العاصي بعض الشدائد . مثلاً زارني رجل عَقِب خروجي من المسجد ذات يوم وقال لي بالحرف الواحد : أنا يا أستاذ لقد تربيت عند رجل مُلحد ، وذلك أنه كان يشتغل عنده . فكان يقول له : ليس هناك إله ، وليس هناك آخرة ، وافعل ما تشاء . وبِناءً على كلامه ؛ ما من معصية تَعرفها إلا فعلتها ، عدا القتل فلم أقتل ، أما ما سوى ذلك فقد قارفت يداي كل شيء! والأموال بين يديَّ كثيرة ، واللذائذ وفيرة ، والمباهج متلاحقة ، وأنا منغمس في كل المعاصي والآثام إلى قِمة رأسي ؛ قصة طويلة جداً ولكني أسوقها ملخَّصة للقارىء الكريم ، ثم قال : وفجأة سُحب البِساط من تحت قدميّ ، خُتم المحَل من قبل السلطات ، أودع شريكي في السجن بِتُهمة كبيرة جداً . وانقطع دخْلي فجأةً ، وعليّ ديون كنت أسددها من دخْل المحل ، وكُشِف أمري ، فاضطررت إلى أن أعمل عملاً دون مكانتي بكثير ، كي أُؤمن طعامَ يومِي ، وساق الله لي الأمراض والشدائد ، وقد وصف لي حالته وكأن مطرقة على رأسه وقال أخيراً : والله لا أملك ثمن الدواء ، ولا ثمن الطعام ، وأذلني الله ذُلاً شديداً ، ودخلت المسجد أول مرة بحياتي كي أُصلي ، وتُبت إلى الله ، واصطلحت معه . والله بعدما خرج دمعت عيناي وقلت : يا رب ما أحكمك وما أرحمك ، لو تركت هذا الإنسان مكباً على وجهه إلى نهاية عمره ضائعاً تائهاً ، لاستحق النار ؛ ولكن من رحمتك به أنك سُقت له هذه الشدائد ،

حتى حملته على التوبة فأنت الرحمن الرحيم سبحانك .

وكلما كان الانحراف أشد كانت الضربة قاسية . فتجد أحياناً إنساناً بنظرة قاسية يرتجع وآخر أدنى بِضربة يرتجِع ، والآخر بالكلام الناصح ، والآخر بضرب العصا ، وهناك من لا ينفع معه إلا الضرب المبرّح ، والآخر بالتعذيب ، فكلما كانت لديه حساسية ورِقَّة كان العقاب أخف ، قال أحدهم : يا رب عصيتك فلم تعاقِبني! فوقع في نفسه أن قد عاقبتك ولم تدرِ ؛ ألم أحرِمك لذة مناجاتي ؟ فهناك من إذا وجد نفسه في صلاته غير خاشع ، يشعر وكأنه عوقب عقاباً أليماً . وهناك من لا يهتز حتى تأتيه المصيبة الكبيرة لعله يتعظ .

أيها الإخوة : يقول بعض العارفين : « **يا إلهي ، أسألك أن تشهدني اسمك النافع ، فلا أطمئن إلى غيرك يا وليي يا واسع** » ، فقد يركن الإنسان إلى الأغنياء والأقوياء ، وقد يركن إلى من يظن أنه ينفعه ، وينسى ربه . أما من كان في قلبه بصيص إيمان فلا يَرْكن إلا إلى الله ، لأنه لا يرى إلا الله عز وجل وحده هو النافع ؛ إلهي أسألك أن تشهدني اسمك النافع ، فلا أركن إلى غيرك . ومن بعض العِقاب الإلهي ، أن يسوق الله لك بعض الخير ، عن طريق بعض عباده ، فَتَركن إليهم ، وتُحبهم وهم مُسَخرون لك فاحذر الزيغ ، وقل : واجعلني نافعاً لِجميع عبادك ، راضياً عنك في جميع مُرادك ، إنك على كل شيء قدير .

قال بعض العلماء : « **الضار والنافع : اسمان أو وصفان يدلان على تمام القدرة الإلهية ؛ فلا ضرَّ ولا نفعَ ولا شرَّ ولا خيرَ إلا بإرادة الله** » ، هذا الكلام لو نعقِله حقَّ العقل ، ونصدِّقه حقَّ

التصديق ، لأُزيلت من أنفسنا كُل المتاعب ، وكل الهموم ، ولذلك يقول الله عز وجل :

﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء : ٧٨] .

النفع من الله ، والضر من الله . وها نحن في الأسطر التالية نلج عتبة موضوع جديد من خلال سؤال ملح علينا ، لكن سبب الضر مِمَّن ؟فقد علمنا أن الفاعل هو الله . مثلاً لو أصدر الأستاذ قراراً بتَرسيب طالب ، فالذي أصدر هذا القرار هو المدرِّس أو المدير ، لكن لماذا رسَّبه ؟ السبب من الطالب . لذلك ينبغي أن تُراعَى الحقيقة في هذا الموضوع ، فيجب أن تنسُب الضر ـ ولو أن الله هو الضار ـ لِنفسك ، ويجب أن تنسب النفع إلى الله عز وجل وحده ، والدليل قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء : ٧٨ـ٨٢] .

قال : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ ﴾ ولم يقل وإذا أمرضني ؛ لأن أصل المرض خروج عن منهج الله ، والآية الكريمة :

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٧٩] .

فالحسنة من الله فِعلاً ، ومن الله تفضلاً . والسيئة من الله فِعلاً ، ومن العبد سبباً . لذلك عُزيت السيئات للإنسان .

والنقطة الدقيقة الدلالة أن كل عمَلٍ منسوب إلى الله ، حتى فاعلية الأشياء منسوبة إلى الله ، فالله تعالى لو لم يشأ للسِّكين أن تقطع لما

قطعت ، لذلك النار التي وُضع بها إبراهيم لم تحرِقه . ويجب أن نعتقد أن فاعلية الأشياء بيد الله ، لذلك فإن علماء التوحيد لخَّصوا هذه الحقيقة بِكلمة : « عندها لا بها » ، أيْ الأشياء تفعل فعلتها بِمشيئة الله لا بقوة فيها ، حتى الدواء لا يفعل فِعله حتى يشاء الله ، لكُلِّ داءٍ دواء فإذا أصاب دواء الداء ، بَرَأ بإذن الله ، أجل ، حتى الدواء لا يفعل فِعله إلا بِمشيئة الله . وقس عليه كل الأشياء .

قال بعضهم : الضار ؛ الذي يضر من يشاء من خلقه ، حيث هو خالق الأشياء خيرها وشرها ، نافعها وضارها ، والنافع ؛ هو الذي يوصل النفع إلى من يشاء من خلقه ، حيث هو خالق النفع والضر ، والخير والشر .

يقول الإمام الرازي : إن الضار النافع وصفان : إما أن يُعتبرا في أحوال الدنيا ، أو في أحوال الدين . أما الأول فهو أن الله تعالى مُغنٍ هذا ، ومُفقر ذاك ومعطٍ الصحة لهذا والمرض لذاك . وأما في أحوال الدين فهو يهدي هذا إذا شاء الهداية ، ويُضِل ذاك إذا أصر على الضلال ، تطلب الهدى فَيَهديك ، وتطلب الضلال فَيُضلك .

يقول أحد العلماء : « **إن الضار والنافع ؛ اسمان من أسماء الله تعالى ، وفي معناهما إشارة إلى التوحيد ؛ وهو أنه لا يصيب عبداً ضرٌّ ولا نفع ولا خيرٌ ولا شرٌّ إلا بمشيئة الله . وقضائه وقدرته ؛ فَمن استسلم لِحِكمة الله ، عاش في راحة ، ومن أبى وقع في كل آفة** » ورد في الأثر : « **أنا الله لا إله إلا أنا ، من لم يصبر على بلائي ، ولم يشكر نَعمائي ولم يرض بقضائي ، فَلْيَتخذ رباً سواي** » . وروي « **من لم يرضى بقضائي ولم يصبر على بلائي فليلتمس رباً سوائي** »

[الطبراني عن أبي هند الداري]

نختم البحث ببعض الآيات المتعلقة بهذا الاسم ، يقول الله عز وجل :

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾

[الأعراف : ١٨٨] .

ويقول سبحانه :

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ [يونس : ٤٩] .

وفي سورة النحل :

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴾ [النحل : ٥٣] .

وقال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ [الروم : ٣٣] .

هذه الآيات تقرر : أن النافع هو الله ، والضار هو الله ، وأنَّ الله يضر لِينفع ، وأن الله سبحانه وتعالى غني عن تعذيب العِباد ، إلا أنه يسوق لهم من الشدائد ما يحملهم على التوبة .

وبعد ، فآخر ما نتناوله في ختام كل بحث هو : ما حظ العبد من هذا الاسم ؟ ، الله اسمه النافع الضار ، فما حظ المؤمن من هذا الاسم ؟ المؤمن يجب أن يكون نافعاً لعِباد الله ، وينبغي ألا يتماسَّ بالمنحرفين لئلا يصيبه منهم الضُّرُّ ، قال تعالى :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

الأثر الثاني : إن المؤمن حِيال هذا الاسم الكريم ؛ ينبغي ألاّ يرجوَ أحداً ، وألاّ يخشى أحداً ، وأن يكون اعتماده على الله كلياً . ومَنْ عَرَفَ أنَّ الله مولاه ، وقد تفرَّد سبحانه بالإيجاد ، وتوحَّد في الإنعام ، فوَّض أموره إليه ، فعاش في راحة ، والخلق كلهم في راحة ، وبذل النصح لكل أحدٍ ، ولم يجد في قلبه غِشاً ، ولا خِيانةً لِغيره .

ومن الخير للذاكر ؛ أن يجمع بين اسمي الضار والنافع ؛ فإليهما تنتهي كل الصفات ، فهو سبحانه وتعالى المالك للضر والنفع ، ولا ضار ولا نافع سِواه قال تعالى :

﴿ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ [الرعد : ١٦] .

وآخر حظٍّ من هذا الاسم ؛ أن تُفَوِّض أمرك كلَّه إلى الله ، والاستسلامُ لله عز وجل من المشاعر المُسعِدة التي هي ثمرة الإيمان بالله عز وجل .

* * *

الرَّقِيبُ

الاسم هو(الرقيب) ، فالرقيب اسمٌ من أسماء الله الحُسنى . وإنَّ المؤمن إذا آمن بهذا الاسم ، انعكس هذا الإيمان على سلوكه انعكاساً واضحاً صارخاً ؛ فأنت إذا شعَرت أنك مُراقَب فلا بُدَّ من أن تنضبط ، فشعور الإنسان بأنه مُراقَب ، ولو من جهة أرضية ، ولو من إنسان من بني جلدته لكنه أقوى منه ، إذا كنتَ مراقَباً ، فلا بد من أن تنضبط ؛ فَكيف إذا أيقنت أن الله جل جلاله هو الرقيب! قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] .

أيها القارىء الكريم ، أحياناً تكون العَقَبة عقبَة معرفةٍ ، لأن فطرة الإنسان تُعينه إذا عرف ، فَحُب السلامة ، وحُب الفوزِ والكسبِ في الإنسان ، كافِيان لِحَمْلِهِ على طاعة الله فيما لو أيقن أن الله رقيبٌ عليه ، فالمراقبة حالٌ ذكَره العلماء كثيراً ؛ هذا الحال يُشعِرك أن الله معك دائماً . ورد عن رسول الله ﷺ : « **أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان** » .

قبل أن نتابع الحديث عن اسم الرقيب أريد أن أضع بين أيدي القراء الكرام مثلاً يوضح حقيقة هذه الأسماء ؛ فأنت لو التقيت في

بيت صديق لك مع رجلٍ لا تعرفه تسأله : مَن الأخ الكريم ؟ يقول لك : فلان بن فلان ، بِرَبِّك ؛ إن يذكر لك صديقك اسم هذا الرجل فهل يكفي لكي تعرفه ؟ إنك سألت عنه كي تعرف كل شيء ، قال لك اسمه . تسأله إلى أيِّ مستوى دراسي وصلت ؟ وكذلك تحب أن تعرف شيئاً عن ثقافته ، أو عن اختصاصه ، أو عن سِنِّه ، أو عملِه ، وهل هو متزوج ؟ وكم ولد له ؟ وأين يسكن ؟ إلى هذا الحد فقد توفرت لك معرفته شيئاً ما ؟ لكن إذا قلت لك : إن الله ـ جل جلاله ـ خالق السموات والأرض ، فهذا لا يكفي ؛ فأنت تحب أن تعرف أسماءه وصفاته ، فما من موضوعٍ يعلو على موضوع أسماء الله الحسنى ، إذْ رأس الدين معرفة الله عز وجل ولكن كيف تعرفه ؟ هل تردد اسمه فقط ؟ لا ، بل لا بد من أن تتعرف إلى أسمائه وصفاته الحسنى ، فَلِذلك مشروعية هذا البحث أنه لا يكفي أن تعرف أن الله خلق السموات والأرض ، فإن هذه الحقيقة يعرفها كل الناس حتى الكفار ، بل عُبّاد الأصنام بل حتى المجوس قال تعالى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦١] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٣] .

فالمشكلة ليست أن تعرف أن الله خلق السموات والأرض ، وإنما المشكلة أن تتعرف إلى أسماء الله الحُسنى ؛ فهذه هي مشروعية هذا البحث الذي يُعد في الدعوة إلى الله كالرأس من الجسد .

أولاً : الرقيب في اللغة بمعنى المُنتظِر ، قال تعالى :

﴿ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود : ٩٣] .

﴿فارتقبوا﴾ أي انتظروا فالرقيب هو المُنتظر . ورقيب القوم هو الحارس الذي يُشرف على مراقبة العدو . ورقيب الجيش : طليعته . والرقيب هو الله الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

إذا أيْقنت أن الله يعلم ، حُلَّت كل مشكلتك ؛ ألم يقل الله عز وجل :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

فالله اِختار من بين أسمائه اسمين فقال : ﴿ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ فإذا علمت أن الله يعلم ، فَبدافع فِطرتك ، وبدافع حُبك لذاتك ، وبِدافع رغبتك في السلامة والكسب والتفوُّق ، تستقيم على أمره .

زرتُ مرةً مَحَلاً تجارياً كي أشتري بعض الحاجات فلم أجد حاجتي ، فقال لي صاحب المحل : حاجتك موجودة ولكن بالمستودع ، فذهبت معه إلى المستودع وكان في الطابق الرابع ، فوجدت محاسِباً يجلس إلى طاولة وأمامه آلة تصوير ، تذكرتُ ما رأيته في محل ذاك الشخص فإنني رأيت شخصاً يكتب ، عندها عرفت أن هذا الشخص موظف عند صاحب هذا المحل وقد وضع صاحب المحل جهاز مراقبة عليه ، فهذا العامل لا يستطيع أن يتحرك ولا أن يأكل ولا أن يتمطى لأنه مراقب من طرف هذا الشخص ، كما أن مديرية المرور تكتب : الطريق مراقب ، كنت أزور بعض البلاد ؛

فعلمت أن مخالفة المرور فيها بِخمسمئةِ درهم بِمعدل سبعة آلاف ليرة سورية ، فالاهتمام بتحديد سرعة السيارات بالغ جداً لأن قيمة المخالفة سبعة آلاف ليرة تقريباً ، فلو جاوز العدّاد التسعين لصارت المخالفة بسبعة آلاف ، فالمراقبة هي التي تجعل الإنسان يقظاً وعلى حذر .

في الإدارات الحديثة صار البناءُ كله وحدة صوتية ومرئية ، فَبِإمكان المدير أن يرى كل الموظفين ، دخلت بعض المعامل السورية فوجدت كل الغرف مفصول بينها بألوح زجاج فقط ، فالمدير العام يرى كل الموظفين ؛ ولكن المراقبة من الإنسان شيء والمراقبة من الواحد الديان شيء آخر . لذلك بعض علماء القلوب أشاروا إلى حال المراقبة ، المؤمن الراقي يشعر دائماً أن الله يُراقبه ، وأنه تحت المراقبة ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر : ١٤] .

فالرقيب هو المُنتظِر ؛ والرقيب هو الحارس ؛ ورقيب الجيش هو طليعته ؛ والرقيب هو الله تعالى الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء . قال أبو بكر : « **أُرقبوا محمداً ﷺ في آل بيته** » [رواه البخاري] أيْ راقبوا وانتبهوا أن تُؤذوه في آل بيته واحفظوه فيهم ؛ والرقيب كذلك هو الخَلَف يُقال : نِعم الرقيب أنت لأبيك ، هذه كلها معاني الرقيب ؛ والترقّب أي الانتظار ، وارتَقَبه : رَصَده ، والرقوب الدوام على وجه الحفظ يُقال : أرقَبت الشيء ، أرقبه : إذا راعيته وحفِظته ، والرقيب من الناس الموكل بحِفظ المُتَرَقب ، ويقال للملَك الذي يكتب الأعمال ويحفظ الأقوال هو رقيب ، وفي القرآن الكريم :

﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴾ [ق : ١٨] .

والرقيب العليم ، وراقَبْتَ الله إذا علِمت أنه مُطلّع عليك فَراعيْتَ حقه ، هذا كل ما ورد في اللغة عن معنى الرقيب ولا بأس من تكرار ذلك لمزيد الفائدة ، فهو الذي ينتظر ، والحارس ، وطليعة القوم ، والخَلَف ، والمنتظر ، والرَّاصد ، والراعي ، والحافظ ؛ الله جل جلاله هو الرقيب ؛ والمَلَك المُوَكل بِكتابة الأعمال ، وحِفظ الأقوال هو الرقيب .

إذا قلنا : الله هو الرقيب ؛ فماذا تعني هذه الجملة ؟ أي أن الله هو الذي يعلم أحوال العِباد ويعُدّ أنفاسهم . والله الذي لا إله إلا هو ، وأنت مستلقٍ على فِراشك لو خَطر لك خاطر أنْ غداً سَأفعل كذا ، يجب أن تؤمن وأن تعلم وأن تعتقد إعتقاداً جازماً قطعيّاً ، أن هذا الخاطر اِطّلع الله عليه ، ولا يستطيع من العباد أياً كان أن يفعل ذلك ، إذْ لو أنك رأيت شخصاً مستلقِياً على فراشه لا يمكنك أن تقرأ أفكاره ، فهذا مستحيل . الله ستر لك أفكارك وأحوالك عن الناس . والناس لهم الظاهر ، لكن الله هو الخبير بالسرائر ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾

[ق : ١٦] .

مرةً ثانية أقول : إن هذا الاسم من أقرب الأسماء إليك ؛ إنك إن اعتقدت أنّ الله هو الرقيب فمن اللوازم القطعية للإيمان بهذا الاسم الاستقامة على أمره ؛ ومتى اِستقمت على أمره ؛ انتهى كل شيء لقوله تعالى : ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴾ .

فَيُمكنك عند إرادة حقيقة هذا الاسم أن يكون سبب سعادتك الأبدية ، آمنت أنه يراقبك ، فاستحييت منه ، ولَزِمت أمره ؛ فَسَعِدت في الدنيا والآخرة . فقد يكون اسم الرقيب وحده وأثره الإيجابي فيك سبب سعادة الدارين ؛ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ ، فالمؤمن في بيته مُراقَب ، وفي عمله مُراقَب ، وهو يعالج المريض مُراقَب ، وهو يَرفع مذكرة للقاضي مُراقَب ؛ وكلما اقترب من الله ؛ شَعَر بالعِتاب أحياناً ؛ فمثلاً إن كنت محامياً أتقنت عملك ودافعْت عن هذا المُوكِّل دِفاعاً قوياً ، وراجَعت القوانين كلها ؛ وإن كنت طبيباً عالجتَ هذا المريض معالجة مُتقنة ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ ، فإنْ تكلمت في موضوع كلاماً تسأل : هَل عرفت أبعاده ؟ فالإنسان كلما اِرتقى يَنشأ في نفسه شعور دقيق . واللهِ الذي لا إله إلا هو لو أن الإنسان عرف الله حق المعرفة ، لَحاسَب نفسه حساباً عسيراً لأنه تعالى مُطَّلِع عليه .

أذكر القارىء بهذا الكلام ولو كان موجزاً : إذا كان طبق فاكهة موضوعاً أمام جماعة من الناس ، أليس من تمام المراقبة أن تؤثر أخاك وتجعل الحبّة الكبيرة له ؟ لأنك تحت مراقبته في تفكيرك وحركتك ، لكنَّ الله تعالى لطيف في رقابته ومعاملتك ، أحياناً تكون مع شخصٍ فَتَتَضايَق نفسك منه ، لكن الله معك دائماً ، ودون أن يُزعِجك ، وهو معك بِلُطْفه فَمِن أسمائه اللطيف ، فهو معك في بيتك ، وعملك ، وسفرك ، وحضرك ، وفي خلوتك ، وجلوتك ، ومع زوجتك ، وأولادك ، وعند كل كلام تقوله معك يراقبك لكنه لطيف .

الرقيب في حق الله ؛ هو الذي يعلم أحوال الناس ويعد أنفاسهم ؛ وقيل : الحفيظ الذي لا يغفُل والحاضر الذي لا يغيب ؛ قد تتعرف

بعض الأشخاص الأقوياء فتكون لديك أرقام هواتفهم ، وربما تقع في وقت حرجٍ فإذا اتصلت بِأحدهم فيقال لك : سافرفيسقط في يدك ، وذاك هاتفه مقطوع ، وأنت في أشد الحاجة إليه فتأكل أصابعك لسوء حظك لكنك لو اعتمدت على الله فهو دائماً معك في السرّاء والضرّاء ، قل : يا رب يقلْ لك : لبّيْك عبدي . لن تحتاج بهذا وصْلاً أو قَسَماً أو مذكرة ولا شهادة ، قال تعالى :

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] .

اعبد الله كأنك تراه ؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك ؛ هذا مقام الإحسان . فاسم الرقيب يرفعك إلى مقام الإحسان ، اعبد الله كأنك تراه ؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، والإنسان يستحي ؛ في كل أسرة من أُسَرِنا هناك كبير القوم متقدم في السن ومثقف أحياناً ، ذو وجاهة ومعتدل وحليم ، لو أن هذا الإنسان زارك في العيد ، كيف تستقبله أبِالقميص الداخلي ؟ هناك أشخاص لا يستقبلون الضيوف إلا باللِباس الرسمي ، يخجل حتى بِثياب البيت أن يستقبله ، كيف تحدثه وكيف تجلس معه ؟ إنه من عِلْية القوم ، تجد أنك تراقب نفسك بالكلام ؛ وتنتقي أفضل الثياب ، وتجلس جلسة مؤدَّبة فيها توقير ، إذا كان كل هذا مع الإنسان فَكيف مع الواحد الديان ؟ فكلما ارتقى مقام الإنسان دخل في حال المراقبة مع الله عز وجل ؛ فهو الحفيظ الذي لا يغفل والحاضر الذي لا يغيب ، العليم الذي لا يَعْزُبُ عنه شيء من أحوال خلقه ، قال تعالى :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٨] .

الإنسان مكشوف ؛ إذْ لا شيء يمكنك أن تخفِيَه عن الله عز وجل ،

أما عن البشر فأنت تخفي عنهم ألف شيءٍ وشيء ، تخفي عنهم ألف شعور ، وألف فكرة ، وألف قضية ، وألف سر ، تبقى صامتاً ولا يعلم أحدٌ شيئاً عنك أحياناً ، لكن تكلُّمك وصمتك عند الله سواء ، وبَوْحُك وكِتمانك عند الله سيان ، إعلانك وإخفاؤك عند الله سواء لأنه رقيب .

وقيل : الرقيب ؛ هو الذي يرى أحوال العباد ويعلم أقوالهم ؛ وقيل : الذي يراقب عباده ، ويُحصي أعمالهم ، ويحيط بِمَكنونات سرائرهم ، ولا يغيب عنه شيء . هذا من معاني اسم الرقيب ، والإنسان إذا تحقق من اسم الرقيب ، كان في حالٍ آخر ، يستحي من الله عز وجل ، النبي عليه الصلاة والسلام خرج فإذا هو بأجير يغتسل في البراز ، فقال له : لا أراك تستحي من ربك خذ أَجَارتك لا حاجة لنا بك .

ومن ثَمَّ فاسم الرقيب ذكره الله في القرآن الكريم في ثلاثة مواطن : ففي فاتحة سورة النساء قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١] .

واللهِ الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في القرآن الكريم إلا الآيتان التاليتان لَكَفَتا .

رجل جاء ليتعلم من النبي ﷺ فانتهى إلى قوله تعالى ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ فقال : يكفيني هذا وانصرف ، فقال النبي ﷺ : « انصرف الرجل وهو فقيه »[(١)]

---

(١) قال العراقي في تخريج الإحياء : أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن حبان =

فوالذي نفسي بيده أكاد أقول : إن هذه الآية وحدها تجعل الإنسان فقيهاً : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ هل تستطيع أن تكذب مع هذه الآية ؟ وهل تستطيع أن تُدلِّس ؟ وأن تغُشّ ؟ وأن تحتال ؟ وأن توهِم ؟ وهل تستطيع إيذاء الخلق ؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ، إذا كنت مراقباً من قِبَل مخلوق تجد أنك تتجنب كل ما يؤدي للهلاك فكَيف إذا كنت مراقباً من قِبَل الخالق ؟ .

مقام المراقبة قد يصل بك إلى سعادة الدارين الدنيا والآخرة . والآية الثانية ذكرت في سورة المائدة على لِسان سيدنا عيسى عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام ، قال تعالى :

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[المائدة : ١١٧] .

فهذه الآية الثانية ؛ والآية الثالثة : في سورة الأحزاب قال تعالى :

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ [الأحزاب : ٥٢] .

تُروى قصة مشهورة ذكرها الإمام الرازي : أن أحد الشيوخ كان له جمْع من التلاميذ ، وكان قد خصَّ واحداً منهم بالعناية الزائدة فَسَأله بقيةُ التلاميذ عن سبب عنايته الزائدة به ، وذلك لشدة غيرتهم من هذا

= والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو قال « أتى رجل رسول الله ﷺ فقال أقرئني يارسول الله. . . الحديث » وفيه : « فأقرأه رسول الله ﷺ إذا زلزلت حتى فرغ منها فقال الرجل : والذي بعثك بالحق! لا أزيد عليها أبداً ثم أدبر الرجل فقال رسول الله ﷺ : أفلح الرويجل أفلح الرويجل » ولأحمد والنسائي في الكبرى من حديث صعصعة عم الفرزدق أنه صاحب القصة فقال : « حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها » .

التلميذ الصغير ، وقالوا له : لماذا تخصه بهذه العناية ؟ فقال : سَأبيِّن لكم ذلك ؟ أعطى لِكل واحدٍ منهم طائراً وقال له : اذبح هذا الطائر حيث لا يراك أحد ؛ فمَضى كل واحدٍ منهم إلى جهةٍ ثم رجع إلى شيخه وقد ذبح الطائر ، ما عدا ذلك التلميذ الصغير ، فقد رجع إلى شيخه والطائر في يده ، وقال : أنت يا سيدي أمرتني أن أذبح الطائر حيث لا يراني أحد ، ولم أَجد موضِعاً لا يراني الله فيه ، فالتفت الشيخ إلى بقية التلاميذ وقال : مِن أجل هذا خصصته بِمزيدٍ من العناية .

أما تستحي منا ويكفيك ما جرى أما تخشى من عُتْبنا يوم جمْعِنا
أما آن أن تُقلِعْ عن الذنب راجِعاً إلينا وتنظر ما به جاء وَعْدنا
فيا خجلتي منه إذا ما قال لي أيا عبد سوءٍ أما قرأت كتابنا

فالمؤمن الصادق ؛ يرى أن الله معه ، ويُراقبه ، ويُحاسِبه فيَسْتحي منه ، فالمحبون لله عز وجل لهم أحوال مع الله لا تُوصف ، مناجاتهم له وتأدُّبهم معه فهناك من يتزيَّن قبل أن يُصلي لأنه سَيَقف بين يدي الله عز وجل ، أرى في بعض الأحيان أشخاصاً يصلون بالقميص الداخلي فهؤلاء لا يستحيون من الله حق الحياء ؛ يستحي أن يقابل إنساناً بِقميص داخلي فَكَيف يقابل الله عز وجل بذاك القميص ؟ فالأكمل أن ترتدي عباءة أو ثوباً فأنت بين يدي الله عز وجل فالعلماء من شأنهم أنهم كانوا يتزينون ويُرجِّلون شعورهم قبل أن يصلوا لأنهم سَيَقفون بين يدي الله عز وجل ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ ولدينا دليل قوي ؛ قال تعالى :

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف : ٣١] .

أنا لا أقول هذا انتقاداً لأحد ، لكنك تجد بعض الناس يأتي إلى المسجد بِأَقَلّ ثياب عنده ، في حين عند أقل حفلة تجده يرتدي أجمل الثياب ، المسجد بيت الله ويوم الجمعة عيد وأنت ضيفه ، ومن السنة الاهتمام بهذا اليوم ، بهذا العيد .

يُروى أن عبد الله بن عمر مرَّ بِغلام يرعى غنماً فأشار لإحدَى الشياه وقال : بِعني هذه الشاة يا غلام ، فأجاب الغلام : إنها ليست لي . فقال ابن عمر : قل لصاحب الغنم إن الذئب أكل واحدةً منها ، فقال الغلام : فأين الله ؟ أقول تعليقاً على هذه القصة : إن هذا الغلام الراعي وضع يده على جوْهر الدين ، وأدرك بحسه جوهر الدين ، ولو أن ثقافته محدودة ، فهذا راعٍ وقد تجد إنساناً عنده مكتبة من أربعة جدران ، بحيث تعجب لحجمها وتقول : هذا عالم كبير . فوالله لو أكل دِرهماً حراماً فلا قيمة لكل هذا العلم ؛ ولكن هذا البدوي الراعي قال : أين الله ؟ نحن بِحاجة في هذه الأيام إلى أشخاص كهذا الراعي ، بِحاجة إلى وَرَع ، وإلى مسلم يقيم الإسلام حقيقةً ؛ إلى بيت مسلم ، وزوج مسلم ، وزوجة مسلمة ، وأولاد مسلمين ، وإلى صدق ، وأمانة ، وإخلاص دون غش ، ولا كذب ، ولا تدليس ، هذا النموذج وهو ساكت يُعَدُّ أكبر داعية والذي يصيح في الناس صباحاً ومساءً يا أيها الناس اتقوا ربكم ؛ وهولا يتقي ربه ؛فهذا أكبر منفِّر ؛ فالإنسان المستقيم والملتزم والتقي ، ولو كان ساكتاً ، هو أكبر داعية ؛ والفصيح المتكلّم ، والمتحدثِ اللَّبِق ؛ والخطيب المصقع ؛ إن لم يكن ورِعاً ، فهو أكبر منفِّر ؛ فالقضية عند الله في الصدق ، والإخلاص ، والتطبيق ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا﴾ ، هل يمكن لمؤمن يعمل خبازاً أن يدخل إلى دورة المياه ولا يُغسِّل يديه ؟ المؤمن

لا يفعل هذا لأن العجين سيُصبح خطراً على الناس ، الأمر الذي جعل المؤمن يتصرف هكذا ، هو الوازع الداخلي ، إن الله كان عليكم رقيباً .

أذكر أنني ألقيت يومًا في المسجد درساً حول الأمانة وقلت : ليس الأمين الذي يؤدي ما عليه إذا كان هناك إيصال ، أو سند ، أو شهود ، أو حساب ثابت ، فهذا سلوك مدني ، لأنه إذا لم يؤدِّ فالطرف الآخر أقوى منه لوجود السند ، ودعوى ، وقضاء ، وتشهير ، أما الأمين عند الله ؛ فهو الذي يؤدي ما عليه من دون أن يكون مُداناً في الأرض ؛ ولقد جاءتني ورقة وأنا ما زلت في المسجد قال فيها صاحبها : والله يا أستاذ أديت عشرين مليون ليرة لِورثَةِ وهم لا يعلمون عن هذا المبلغ شيئاً إذ مات أبوهم والمبلغ عندي ، لأن الله رقيبٌ عليه ؛ هذا هوالمؤمن ؛ مبلغ ضخم ، وهناك آباء كثيرون أموالهم في مكان لا يُعلِمون بها أولادهم ولا أزواجهم ؛ فإذا مات فجأةً مات معه السِّر ؛ هناك أُناس كثيرون يُعانون من هذا ويقولون : مات والدنا ولا نعلم عن أمواله شيئاً ؛ فالذين لديهم أموال غيرهم إذا كانوا من الذين فقهوا قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ سيأتون إلى الورثة بالمال ويقولون هذا مال أبيكم .

قال : والله يا أستاذ أدَّيت عشرين مليون ليرة للورثَةِ وهم لا يعلمون عن هذا المبلغ شيئاً ؛ هذا هو الإيمان ، الإيمان يصنع المعجزات ، لو أننا شعرنا أن الله رقيبٌ علينا لاستقامت حالُنا جميعاً ؛ هل يستطيع سمّان مؤمن إذا وقعت فأرة في صفيحة زيت أن يبيع الصفيحة ؟ لا يستطيع! هل تستطيع أن تُخفيَ عَيْب بضاعتك ؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ، هل يمكن أنْ تضع مادةً مُسرطنة لِغذاء حتى ترفع

ثمنه ؟ لا تستطيع ، وهل تستطيع أن تضع هرمونات لِنَبْتة كي تكبر بسرعة حتى ويكون ثمنها مضاعفاً ؟ هذه مادة مسرطنة لا يمكن إِستعمالها إلا تهريباً ؛ لو آمنا بهذا الاسم لأُلغِيَ الغش من حياتنا جميعاً ؛ وهل يستطيع المحامي أن يقدِّم مذكرة للقاضي وهو يعلم أن مُوَكِّله كاذب ؟ لا يستطيع ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ، وهل يستطيع أن يرى الطبيب من المرأة موضعاً غير الموضع الذي تتألم منه المريضة ؟ إن الله كان عليكم رقيبًا ، لقد رأيت أطباء ملتزمين يقومون بِوضع رداء فيه فتحة صغيرة على المريض كي يُشَخِّصوا موضع الألم فقط ، هل تستطيع إن كنت مؤمنًا وكنت في بيتك وحيداً ، وخرجت جارتك تنشر غسيلها بالشرفة المقابلة لك ، وهي بثياب متبذلة ، وهي في النور وأنت في الظل ولا يراك أحد ؛ هل تستطيع أن تنظر وأنت تتذكر قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ .

أخ يحضر مجالسنا وهو يعمل في دائرة ؛ واسمحوا لي أن أذكر قِصَّته ، كان يحضر مجلس علم قصير في كثير من أيام العمل ، وفي آخر الشهر طلب إجازة لمدة ستة أيام من رئيسه وقال : لقد استهلكت هذه الإجازة فقال : كيف ؟ قال : لأنني كنت أحضر في بعض الأيام درساً قصيراً عقب صلاة الظهر فَجَمعت هذه الساعات فإذا هي بِمُعدَّل ستة أيام ؛ فوقع رئيسه في دهشة وإعجاب فاندهش من هذا النموذج من الشباب ثم قال لي والله يا أُستاذ : لما قَدِمت لحضور الدرس القادم وجدت رئيسي في العمل حاضراً درس المسجد . هذه هي التربية الراقية ؛ تقديم طلب إجازة جعل المدير العام يحضر مجلس علم ، هكذا الدين كلما ازددت مراقبة لله كنت أكثر ورعاً ، وأقول لكم مرة ثانية : يمكنك أن تكون أكبر داعية في الأرض وأنت

ساكت ؛ وذلك بِأمانتك ؛ واِستقامتك وإتقان عملك .

هناك أطباء من إخواننا أجْروا عمليات معقدة جداً ، وبعض العمليات لهم فيها أجر كبير وبعضها الآخر لا يتقاضون عليها أجراً ، وقِسم بِثمن باهظ ، أسمع عنهم أن عِنايتهم بالفقراء لا تقِل فتيلاً ولا قطميراً عن عنايتهم بالذي سَيَدفع مئتي ألف أجرَ العملية ، إذًا بعض العمليات مجانية وذلك لِفقر أصحابها ، العِناية واحدة والإتقان واحد ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ ، وهل يمكن لِمدرس مؤمن أن يهمل التلاميذ من أجل ضآلة الراتب ؟ لا يمكن ، لذلك هذا الاسم يمكن أن يُطبّق في الكثير من الحالات ، إذا آمنتم أن الله رقيب فسَيَنعدم الغش والكذب .

العلماء يرون أن المراقبة حال يصيّر العبد فيه ذاكرًا الله بِقلبه ؛ إن شُغل لسانُه ، لأن الله مُطلّعٌ عليه دائماً ؛ وشعور العبد أن الله مُطلّعٌ عليه سموٌّ وارتقاء إلى الله ؛ فلتكن أيها القارىء الكريم من أهل المراقبة .

سئل بعض القوم بِمَ يستعين الرجل على غض بصره عن المحظورات ؟ فبالطريق بعض النساء يُبرزن أحسن ما في أجسامهن وتراهنّ عاريات من الطراز الأول ، فكيف تغض بصرك ؟ قال : لِعلْمه أن رؤية الحق تعالى سابقة على نظره ؛ علمُك أن الله يراقبك هذا أسبق من نظرك إلى الحرام ؛ فبِهذا تغض بصرك وتستحي من الله ، وكثير من صالحي العباد لا يجتمعون مع امرأة في مصعد واحد ، وينتظر عودة المصعد أو يصعد الدرج ماشياً لأن المؤمن عفيف ؛ إن الله كان عليكم رقيباً .

الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك .
والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق : ١٤] .

ذكر الإمام الرازي أن حظ المؤمن من اسم الرقيب ، المقولة المعروفة « **تخلقوا بكمالات الله** » ، فَكَيف نتخلق بِهذا الاسم ؟ يقول : مراقبة العبد لنفسه أساسها أن يعلم أن الله مطلع على نياته وقلبه ودخائل نفسه ، وأن يستحضر من مراقبة الله له أن الله تعالى معه دائماً ، ويراقبه في كل أحواله وحركاته وسكناته وقال : هذه المراقبة مفتاح كل خير ، لأن العبد إذا أيقن أن الحق مراقِب لأفعاله ، مبصر لأحواله ، وسامع لأقواله ، مطلع على ضمائره وخفاياه ، خاف عقابه في كل حال ، وهابه في كل مجال ،عِلماً منه بأن الرقيب قريب ، وهو الشاهد الذي لا يغيب ، ولذلك قال أحد العلماء : إن الرقيب الذي هو من الأسرار قريب ، وعند الاضطرار مجيب .

وقال بعضهم : الرقيب : هو المُطلّع على الضمائر ، والشاهد على السرائر ، والرقيب يعلم ويرى ، ولا يخفى عليه السر والنجوى .

وقال بعضهم : الرقيب : الحاضر الذي لا يغيب ، بل رقابتُه قديمة مستمرة . ولهذا قيل : الرقيب الذي يسبق علمه جميع المحدثات وتتقدم رؤيته جميع المكونات .

قال أحد العلماء حينما عقد بحثاً حول مقام المراقبة قال : إن أدب المؤمن مع الله الرقيب ؛ أن يعلم أن الله رقيبه وشاهده في كل شيء ، ويعلم أنّ نفسه عدوة له ، وكذلك الشيطان اللعين عدو متربص ، وهما ينتهِزان منه كل فُرصة حتى يحملاه على الغفلة والمخالفة ؛

وعليه أن يأخذ حذره منهما ، ويسد عليهما المنافذ والمداخل ، حتى لا يقع في فخٍّ واحدٍ منهما ، هذا هو أدب المؤمن مع الله في اسم الرقيب .

ومن أدب المؤمن في هذا المجال أن يراقب نفسه وحِسه وأن يرقب حتى أنفاسه ، ويجعل عمله خالصاً لِربه بِنِيَّة طاهرة في أعماله ويراقب ربه في أخيه فلا يُظهر عَيْبه .

ويقول ابن عطاء الله السكندري عن اسم الرقيب : أفضل الطاعات مراقبة الله على الدوام وفي كل الأوقات .

وقال أبو حفص : إذا جلستَ للناس فكُن واعظاً لِنفسك وقلبك ولا يغرنَّك اجتماعهم عليك ؛ فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك .

قال عبد الله بن المبارك لِرَجل : راقب الله تعالى فقال : كيف ذلك ؟ قال : كن أبداً كأنك ترى الله تعالى ، (اللهم! اجعلني أخشاك حتى كأنني أراك أبداً) ، وبعضهم كان يدعو بِهذا الدعاء : إلهي أنت الرقيب لِحركات الأكوان ، العليم بِخطرات قلوب الإنس والجان ، أشرِقْ على قلبي بنور اسمك الرقيب ، حتى تتزكى نفسي فَتَتَحلى بالتقريب ، وامنحني عيوناً تراقب نِعَمك الظاهرة ، وتلاحظ أسرارك الباهرة .

فَحَال المراقبة حال تام وارتقاء إلى الله ، إذا وصلت إليه أوْصلك إلى الجنة ، وسعِدت في الدنيا والآخرة ، لأن من لوازم هذا الحال الاستقامة على أمره ، والاستقامة على أمر الله سبب الجنة .

* * *

الخافض، الرافع

الاسم هو الخافض الرافع .

الخفض في اللغة ضد الرفع ، والخفض : الانكسار واللِّين ، قال تعالى :

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾

[الإسراء : ٢٤]

والانخفاض : الانحطاط ، وتوصف به الواقعة ، قال تعالى :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ [الواقعة : ١-٣] .

الناس يتمايزون بِمقاييس أرضية ، مقاييس المال ، القوة ، والذكاء ، وتحصيل العلم ، والوجاهة ، وغيرها من الأمور ، فإذا وقعت الواقعة ، تبدَّلت هذه المقاييس ، وتحكّمت في الخلق مقاييس رب العالمين ، يُقاس الإنسان بعد الموت بِقدر اِستقامته وطاعته لله عز وجل ، وإحسانه للخلق . فلذلك تنقلب المقاييس فجأةً ، فالذي كان في القمم ربما صار في الحضيض ، والذي كان في الحضيض ربما صار في القمم .

الخفض من صفات الواقعة ، والواقعة اسم من أسماء يوم القيامة .

أي أن الواقعة تخفض أقواماً بِمعاصيهم فَيَصيرون إلى النار ، وترفع أقواماً بطاعاتهم فيدخلون الجنة .

ومادة الخفض وردت في القرآن في سورة الحجر ، قال تعالى :

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٨٨] .

ووردت في سورة الشعراء قال تعالى :

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٥] .

هذا الفرق بين الآيتين هل يفيد معنى ثالثاً ؟ واخفض جناحك لِمن اتبعك من المؤمنين وقوله : واخفض جناحك للمؤمنين ؛ فالإنسان يميل إلى جماعته وإلى أتباعه ؛ فإذا مال إليهم ، وتعصَّب لهم ، وأنكر من بِسواهم ، وانحاز اِنحيازاً أعمى إلى من يلوذ به ، فهذه نقيصة في الإنسان . فالله سبحانه وتعالى أمر نبيَّه ﷺأن يخفض جناحه تارةً لِمن اِتبعه ، وتارةً لكل المؤمنين . أما نحن فما علاقتنا بِهاتين الآيتين ؟ عليك أن تحب إخوانك في المسجد ، وإذا كنت مؤمناً حقاً فيجب أن تحب كل مؤمن في الأرض ، من أيّة جهة كان ، وهذا هو الإيمان وهو الذي يليق بالمؤمن .

إذاً مادة الخفض وردت في قوله تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ووردت في سورة الإسراء : ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ ووردت ـ كما سبق وذكرت ـ في سورة الشعراء قال تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ابن الأثير يرى : أن الخافض هو الذي يخفض الجبّارين والفراعنة أيْ : يضعهم ويهينهم ، ويخفض ما يستحق أن يخفضه ـ وها نحن قد دخلنا في موضوع جديد ـ الإنسان له كيان مادي له جسم ، وله كيان

معنوي ، الكيان المعنوي يرتفع وينخفض . فَمَثلاً إذا نجح الإنسان ، ونال شهادةً عُليا ، يرتفع مقامه بين الناس . وإذا رسَب ، انخفض . وإذا نجح في عمله ، يرتفع . وإذا أخفق ، انخفض . وإذا نجح في زواجه ، ارتفع . وإذا أخفق ، انخفض ، وإذا ظهر صدقه للناس ، يعْتَز بِأخلاقه ، فإذا ظهر كذبه ، ينكمش . وإذا كُشِفت أسراره البيتية ولم تكن على ما يُرام ، انخفض . فالإنسان بين أن يرتفِع وبين أن ينخفِض . لكن صدِّقوا أن الإنسان حينما يرتَفِع بالحق يدخل على قلبه من السرور ما لا يوصف . النجاح مُسعِد في كل شيء . وحينما ينخَفِض ويُكشَف كذبهُ ، ويُفْتَضَح في بيته ، وتظهر عدم كفاءته ، أو حينما يسيء الاختيار ، وينال عِقاباً نظير عمله السَّيىء ويصبح ذكرى سيِّئة بين الناس ، ينكمش وينخفِض . وقد يأتي على هذا الإنسان من الآلام ما لا يوصف لذلك فالإنسان أكثر ما يعيش بِسُمْعَتِه . بل إن العرب حينما ذكروا العِرض ، عرَّفوه بأنه مَوْضِع المدح والذم في الإنسان . قد تكون فقيراً لكنك تقيٌّ مرفوع الرأس . قد يكون مريضاً ولكن نظيف الكَفَّين ، لا انحراف بِحياته وسلوكه ، ولا دَجَل ولا تطاول ، ولا يخاف لا لأنه من جِنسٍ آخر وإنما هو من البشر لكن لا يخاف لأنه مستقيم ، وما خالف شرع الله في عمل ، ولا خالف القانون ، لذلك أحدُ أسباب العِزة الإحسان في القول والعمل ، وقال تعالى :

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس : ٢٦] .

إذا أنت أتقنت عَمَلَك ، وأدَّيت وظيفتك على خير وجهٍ ، تشعرُ بِعِزة الإنجاز وعزة الإتقان والتفوُّق . أما إذا أدَّيت عملك بغير إتقان ،

وكان عملك سيِّئاً ومرتجلاً ، وذا عيوبٍ كثيرة ، واكتُشِفت الأخطاء عاتبك الناس ، كَمَثَل الذي وَصَف دواءً لِطِفلٍ صغير أوْدى بِحياته ، ولما وُوجِه هذا الذي وصف الدواء صار صغيراً ومنكمِشاً ، ويتمنى أن تنشقَّ الأرض وتَبْتلَعَه كما يقول العوام فالإنسان يَعْتز حينما يُتقِن عمله ، ويُؤدي واجباته ، ولكنه حينما يكون واضحاً ، وتكون سريرَته كَعَلانيَتِه ، وخلْوتُه كَجَلْوَتِه ، وحياته الخارجية كَحَياته الداخلية ، وأسراره كَحَياتِه المُعْلَنة يسمو ويعلو ، فالوُضوح يرفع الإنسان . وتشعُر هذا من الواقع حيث يجد الإنسان في بعض الأحيان انقباضاً من جراء عَمَلٍ منْحط أو كلام بذيء ، فلما انكشف الغطاء وجد نفسه في انكماش وصغار وما من إنسان إلا ويتمنى أن يرتَفِع ؛ ولا أقصد أن يرفع كبراً وتطاوُلاً وإنما بإتقان العمَل وحُسن السيرة يصير عزيزاً ، فالصّدق والأمانة يجعلانك عزيزاً ، وأحياناً تتعرّض لِتَفْتيش مفاجىء في مَحَلّك ومعملك ، فإذا كانت المواد الأولية كلها صحيحة وبمواصفات جيدة والأمور في بيان ووُضوح ، وبعيدة عن الغشّ والفساد فَتَشعُر بِعِزة ونشْوَة ، فكل إنسان يطمع في أن يحقّق اسمه .

نحن المسلمين ، لو أننا أيقَنا أن رِفعتنا بطاعة الله ، وبِاستقامتنا . وانضباطنا لاستقمنا في حياتنا ، إنسان يَحْتل منصِباً اجتماعيًا رفيعاً لكنه جَلَب أبقاراً مصابة بمرض عضال وسَبَّب حالات مرضية شديدة فلما كشف أمره سيق للسجن مُكَبَّل اليدين وأُدخل قصر العَدْل لِينال جزاءه العادل ، فهذه المكانة التي كانت لهذا الشخص انهدرتْ ، لذلك فالذل لا يُحتَمل وكذا الإهانة والانكماش ، وعاقبتهما ضياع .

أعجب من هذا الذي يأكل مالاً حراماً ، ويَغُشُّ المسلمين في غِذائهم ، وهذا الذي يستَوْرِد لُحوماً للكلاب ويَبيعَها للبشر ، وهذا

الذي يضع أصبغة البِلاط في سكاكر الأطفال ، وفي المواد الغِذائية فَما جزاء هذا الذي يُكْشَف اختِلاسُه ؟ سيُصيبه صغار وذلّة وهوان .

شعور الإنسان بالاستقامة والرِّفعة والنظافة والخلْفِيات الواضحة هذا شعور لا يوصَف ؛ وهو شعورٌ يَرْقى بالإنسان عالياً وما منا واحد إلا ويتمنى أن يكون أمام الناس نظيفاً ومزهوًّا ، ورافِع الهامة . فالخافض في أسماء الله كما يقول ابن الأثير : « **هو الذي يضع الجبارين والطغاة ويُهِينُهم** » ، وسُبحان من قهر عِباده بِالموت . الله عزّ وجل يخفِض الجبابرة ، وكقاعدة عامة أقول : الإنسان إذا كان صُعوده سريعاً وحاداً فسَيَكون انخِفاضه مُريعاً ، والإنسان إذا تكبَّر بِغير الحق وصعد صعوداً حاداً ومُفاجِئاً ، فالله جل جلاله يجعله عِبرة لكل منِ اعتبر ، ويَخْفِضه ويذِله ويهينه ؛ هناك عذاب شديد ، وهناك عذاب مُهين . بِرَبِّكم هل يتمنى مسلم أن يتردّى في الفضيحة والذُّلّ والإهانة ؟ أقول هذه الحقيقة وأتمنى أن تكون واضحة لكل ذي لب ، فأيّة خِيانة على الإطلاق ، منذ خلق الله آدم وإلى يوم القِيامة ، لابُدَّ من أن تُفْتَضح والدليل :

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [يوسف : ٥٢] .

والخائن حينما يُفْتَضح ، لا يُفْتَضح بِذكاء البشَر بل بِتَقْدير خالق البشر . فإذا أيْقن الإنسان بأن الله لن يسمح لإنسان أن يغُشَّ الناس إلى أمدٍ طويل ، ولا أن يغُشَّ مجموع الناس إلى أمَدٍ قصير ، عِنْدئذٍ يستقيم على أمر الله ؛ لأن الفضيحة ، والانكشاف تجعلانه قالة سوء ، هذا شيء لا يُطيقه حر كريم ؛ لكن كيف عِلاجُه ؟ لا تفعل شيئاً تستحي منه ، ولا تفعل شيئاً تضطر إلى أن تعتذِر منه ، قبل أن تفعل

شيئاً ، فكِّر جيِّداً ، وتأمَّل ملِياً ، وعُدَّ للآلاف قبل أن تأخذ ما ليس لك ، وقبل أن تدخل إلى هذا البيت ، وليس في البيت إلا امرأة ؛ سل نفسك لعلك تُسأل لماذا دخلْت البيت ؟ وأنت تعلم أن الزوج غير موجود ؟

فالإنسان حينما يتسرَّع ويتحرَّك عشوائيًّا بلا نور ، وبلا منهج ، وبلا أحكام شرعيَّة ، يقع في شرِّ عمَلِه ، يتردى وينخَفِض هواناً والله هو الذي يخفضه ؛ والله من أسمائه الخافض فأحياناً يكون الإنسان بأعلى درجة ؛ ثم ينهار ما تحت قدميه ويهوي ، أحد علماء المسلمين في أمريكا تناظر مع أحد أكبر القساوِسة . وهذا الرجل الخصم بعد حين ، كُشِف يمارس علاقة جنسية شائنة فَصار يبكي على شاشة التلفزيون ، فالإنسان حينما تُكتَشف عثراته وسقطاته ، ينكمش ويتردى والحق أنّ الله خفضه . على كل حال هذا من الفطرة الإنسانيّة . مثَلاً لو فُقِد قَلَم غالي الثمن بالصَّفِّ ، فَمَنَع المُدرِّس خروج الطلاب ، وفَتَّش الطلاب واحداً واحداً ؛ فإذا القلَم عند أحدهم ، فَقَبل أن يُعاقبه ، وقبل أن يضربه ، وقبل أن يستَدعي والده ، وقبل أن يفصِله لمدة ستة أيام ، ماذا يشعر هذا الطفل ؟ يشعر بِألم وخِزي ، فَشُعور الخِزي والعار لا يُحتَمل فلْتستقم ، ولتعملْ عملاً لا تستحي منه .

مرةً سألوا ألف زوجٍ ؛ لماذا لا تخون زوجتك ؟ فجاءت الإجابات كثيرة جداً ومتنوِّعة . صُنِّفت هذه الإجابات في زمرٍ أخلاقية ، وكان إجابة أخفض صِنْفٍ : لا أستطيع لأنها تخونه بالمثل وإجابة الذي أعلى منه : لا أحتمل الإحساس بالخِيانة ، الإحساس بِالخِيانة ضاغِط ، والأرقى قال : لا أحب الخِيانة ، وصنْف أجاب بأنه يحبها ولكن لا يحتمل وخز الضمير ، الأول يخشى خيانة زوجته إن خانها ،

والأخير يخشى وخز الضمير ، وليس بينهم من قال تمنعه الخشية من الله تعالى ، فعندما يتحرك الإنسان حركة واضحة ونظيفة ، يشعر بِراحة ، وهذه الراحة لا تُقَدَّر بِثَمنٍ . قد تجد شخصاً يرتدي أغلى الأثواب ، ويركب أجمل المَرْكبات ، ويسكن في أفْسَح القصور والبيوت ، ومع ذلك فهو من داخله مُنهار ؛ لأن نفسه تُحاسِبه حِساباً عسيراً . يعاني الانقِباض ، والكآبة ، والشعور بالذنب ومُرَكَّب النقص وهذا كله من الأعمال الخسيسة والدنيئة التي لا تُرضي الله . ففطرة الإنسان مُولَّفة ـ بالتعبير الفني ـ مع الإيمان فإن حادَ عن الإيمان وعن منهج الله عذَّبَتْه فطرته ، مثَلاً : مرْكبة حديثة جداً مُصنَّعة لتسير على الشوارع المعبدة ، لو ركِبتها في الطريق الوَعْر ، وفي طرق جبلية فيها وهدات ومنعرجات وذات أتربة ورمال ، تشعر بِتَعَبٍ شديد وانزعاج وبِقَلَقٍ ، وتشعر أن هذه المركبة ليست لهذا الطريق . ونفسك البشرية مخلوقة لمنهج الله ، ومخلوقة لتكون على مستوى الشرع ؛ فإذا حِدت عن الشرع ، تعثَّرت نفسك وشعرت بالكآبة والضيق وما إلى ذلك .

وقيل : الخافض الذي يخفض بالإذلال من تعاظم وتكبَّر ، ضربت مثلاً فقلت : ليتر من اللبن يحتمل خمسة أكيال ماء ويصبح شراباً لذيذاً ويُهَدِّىء النفس ويشعر الإنسان بِراحة بعد شربه ، ليتر لبَن يتحمل خمسة أكيال ماء ، ولا يتحمل نقطة نفْط واحدة أبداً فهذه القطرة الواحدة تُفسِده أما خمسة أكيال من الماء فتُطَيِّبُه ، كذلك الإيمان : فذرَّة كِبْر واحدة تتناقض مع العبودية ، ومن صفات المؤمنين الأساسية التواضع لله ، ترى المؤمن عزيزاً إلى أقصى درجة ورافع الرأس إلى العلاء ؛ ولكنه أمام الله ذليل ؛ ويُبالِغ في التذلل أمام عَتَبَة ربه ، ويُبالغ في رفع رأسه شامِخاً أمام أعداء الله ، لذلك

وصَف الله المؤمنين في كتابه بقوله :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

بِقَدْر ما هو متواضع ومتذلل بينه وبين الله ، يكون بينه وبين الخلق عزيز النفس .

الخافض : الذي يخفض بالإذلال من تَعاظَم وتكبَّر ، وشمخ بِأنفِه وتجَبَّر ، يخفضُ أقواماً ولايخفض إلا أهل الباطل :

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] .

لو أننا تتبعنا تاريخ النظريات الوضعية التي ابتُدِعت خِلاف منهج الله ، فهل نجد نظرية بقِيَت شامخة إلى ما لا نهاية ؟ وهل هناك نظرية إلا ونزلت في الوَحْل وسقطت ؟ ولاكَتْها الأفواه وتناولتها الألسن ؟ وخاضت فيها الأقلام ؟ والأدلة أمامنا كثيرة ، والتاريخ الذي بين أيدينا يصدّق ذلك ، فسبعون عاماً في اِعتزاز بالباطل ، واِعتزاز بالإلحاد ، ثم أصبح هذا الإلحاد خُرافَةً ، وأصبح المجتمع المُلحِد في مؤخرة الشعوب على الإطلاق : ﴿ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ فالله عز وجل من أسمائه الخافض ، فهو الذي يخفض بالإذلال من تعاظم وتكبَّر ، وشمخ بِأنفِه وتجَبَّر ، العَرَب في الأندلس أسَّسوا أكبر حضارة بالعالم ؛ فلما التفتوا إلى القِيان وشرِبوا الخمور ، واستمعوا إلى المعازف ، ومالوا إلى اللهو والتَّرَف ، أُخرجوا من هذه البلاد وكان آخر ملوكهم أبو عبد الله الصغير يبكي ، وهو يخرج من قصرِه في غَرْناطة (قصر الحمراء) قالت له أمه عائشة :

ابكِ مثلَ النساء مُلكاً مُضاعاً لم تُحافظ عليه مثل الرجال

فالله يخفض العصاة المتكبرين والمتجبرين .

وقيل : الخافض الواضع لِمن عصاه ، والمُذِل لِمن غضِب عليه ، ومُسْقِط الدرجات لِمن يستَحِق ذلك . يَخْفِض الكفار بالإشقاء ، ويخفض أعداءه بالإبعاد ، عدوٌّ يخفِض ، ومتجبر يخفض وطاغِيَة يخفض ومستعلٍ يخفض ، قالوا : أنا ، ونَحن ، ولِي ، وعِندي ، أربع كلمات مهلِكات ، قال تعالى عن إبليس :

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [ص : ٧٦] .

فأهلكه الله .

﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ [النمل : ٣٣] .

قالها قوم بَلْقيس فأذلهم الله عز وجل .

﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ ﴾ [الزخرف : ٥١] .

قالها فِرعون فغَرِق .

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص : ٧٨] .

قالها قارون فدَمَّره الله عز وجل ، وخسف به الأرض ؛ فالله خافض يخفض أعداءه ، ويخفض المتجبرين ويخفض الطغاة ، ويخفض الظالمين ، ويخفض الباطل كَفِكْرة وتسقط ، وتُصبح في الوَحْل ولا يعتَدُّ بها أحد ، بعد أن كانت متألِّقة ، يخفض الكفار بالإسقاط وأعداءه بالإبعاد والذل .

وقيل : هو الذي خفض أهل الكفر بِعِزِّه ، وخفض أهل الكِبْر بِجلاله ، وخفض أهل الزور بِإظهار تكذيبهم ، والكاذب لابُدَّ من أن يفضحه الله ؛ وحينما يفضحه ، ينسى الحليب الذي رضعه من أُمِّه . والكذب شر ولا سيما الكذب في البيع والشراء ، تجد الكاذب يُقسِم بالأيمان المُغلَّظة ، أن كُلفة هذه البضاعة يفوق هذا السِّعر ، ثم تُكشَف

الأوراق فإذا رأس ماله قليل جداً ، وقد أقسم أيماناً كاذبة ؛ فهذا الإنسان سَقَط ، سقط من عَيْن أهل الفضل والكمال .

ويخفض الله عز وجل كل خارجٍ عن شريعته مهما كان غنِياً بالمال ، أو عزيزاً بين الرِّجال . وقد ذكر العلماء أن الله الخافض يخفض من قَصُرت مُشاهداته على المحسوسات ، يعني ما آمن بالغيب ، وإنما آمن بالأشياء المادية ، والذي يراه بعينه يؤمن به ، أما الآخرة فما رآها ولذلك هو يُنكِرها ، وكذلك عِقاب الله ما رآه فأنكره . فقال : يخفض من قَصُرت مُشاهداته على المحسوسات ، وقصَر هِمَّته على ما تفعله البهائم من شراب وأكل ونكاح ، وقد خفضه إلى أسفل سافلين ، ولا يفعل ذلك إلا الله رب العالمين فهو الخافض والرافع .

أنت كمُؤمن ، ما حظك من هذا الاسم ؟ قال : من أراد أن ينال حظاً من اسم الخافض فَعَليه أن يخفض نفسه قبل أن يخفِضه الله ، اِخفِضها طواعيةً لله وتواضعاً لله .

انظر إلى الأكحال وهي حجارة لانَت فصار مَقَرُّها في الأَعْيُن

تواضع قبل أن يضعك الله ، فالتواضع عِبادة والتكبر نقيض العِبادة ؛ لذلك من أراد أن ينال حظاً من هذا الاسم فَعَليْه أن يخفض نفسه بالتواضع ، فَيَراها أقل من جميع العباد ، وهذا رسول الله ﷺ وقد دخل عليه رجل فارتعدت مفاصله فهوَّن عليه : عَن ابن مَسْعُودٍ قَالَ : أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ فَقَالَ لَهُ : « هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ » . [رواه ابن ماجه] .

وكلما تواضعت ، رفعك الله . وهذه علاقة عكسية فكلما تكبَّرت ، خفضَك الله ، والعالم الحقيقي متواضِع ، والإنسان الذي يُعتد به متواضع . لذلك ورد في بعض الآثار : « **أحب ثلاثاً وحبي لِثلاث أشد : أحب الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد . أحب المتواضعين وحبي للغني المتواضع أشد . أحب الكرماء وحبي للفقير الكريم أشد . وأبغض ثلاثاً وبغضي لِثلاثٍ أشد : أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد . أبغض المتكبرين وبغضي للفقير المتكبر أشد . أبغض البخلاء وبغضي للغني البخيل أشد** » ، فالسخاء حسن لكنه في الأغنياء أحسن . والصبر حسن ولكنه في الفقراء أحسن . والورع حسن لكنه في العلماء أحسن . والعدل حسن لكنه في الأمراء أحسن . والحياء حسن لكنه في النساء أحسن . المرأة ألزم ما يلزمها الحياء ، والعالِم يلزمه الوَرَع ، والحاكم يلزمه العدْل ، والغني يلزمه السخاء ، والفقير يلزمه الصبر ، والشباب تلزمه التوبة ؛ وما من شيء أحب إلى الله من شابٍّ تائب ، ومتى سلِم العبد من شبهة الكِبْر فكل شيء بعد ذلك يزول ويهون ، قال ﷺ « **لو لم تكونوا تُذنبون لَخِفتُ عليكم ما هو أكبر من ذلك** » . فما هو الذي أكبر من الذنب ؟ « **العُجب العُجب** » [البيهقي عن أنس] .

« **وقال ﷺ : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر** »

[مسلم عن ابن مسعود]

كلما نزلت متواضِعاً إلى الله ، رفعك الله . أنا لا أعتَقد أن على وجه الأرض إنساناً أشد تواضُعاً من رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ كما أنني لا أعتقِد أنّ هناك من أعزه الله ورُفِع ذِكره وشأنه

كَرَسول الله ﷺ ، فَبِالقَدْر الذي تتواضع لله ترتفع إلى مراتب العُلو ، ألم يقل الله عز وجل :

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : ٤] .

فإذا ذُكِر الله في الأذان ؛ ذُكِر معه رسول الله ﷺ .

فالتطبيق الأول : أن تخفض نفسك بالتواضع ، والتذلل ، والانصِياع ، ولِين الجانب ، ولين العريكة ، وأن ترى نفسك واحداً من الناس ، لا أن ترى نفسك فوقهم . كُن واحداً منهم ، تكن سيِّدهم . أما إذا جعلت نفسك فوقهم ، يجعلونك في الحضيض . كُن واحداً منهم وبِأخلاقك الفاضلة يرفعوك إلى الأوج . سيدنا عمر رضي الله عنه أراد أن يُعَيِّن والياً فقال : أُريد رجلاً ، إن كان أميراً ، بدا وكأنه واحد من قومه ، وإن كان ليس بِأمير عليهم ، بدا وكأنه أميرهم . غيرةً وحِرصاً على مصلحة قومه .

التطبيق الثاني : أخفِضْ إبليس بِعَدم الإصغاء لِوسْوساتِه . فإذا أصغى الإنسان إلى وسْوَسَة الشيطان يكون قد رفعه . أما إذا أعرض عنه ، وسفَّه وسوسته ، وابتعد عنه ، ولعنه وأعرض عن كل ما يُلقيه في روعه يكون قد وضعه وانتصر على نفسه . فالتطبيق الثاني لاسم الخافض أن تخفِض إبليس وأعوانَه وكلَّ وسْوَساته ، وألا تُعَظم أهل المعصية ، وألا تحترِمهم احتِراماً بالِغاً ، فهل يجوز أن يشرب الخمر إنسانٌ وتستقبله وتُعانِقه ، وتُرَحِّب به ، وتثني على ذكائه وعِلمه وخِبرته ، وتجعلُه في صدر المجلس ، وهو تارك صلاة وشارب خَمْرٍ ؛ بهذا تكون قد فعلت شيئاً لا يُرضي الله ، ينبغي أن تُخْفِضه وأن تُشْعِره أنه عاصٍ لله عز وجل ، إلا في حالة واحدة وهي أن تتوقع منه

الخير فَتَتَألف قلبه بِالتكريم . فالإنسان مُقَصِّر لكنه فيه خير ، ولا يكره الحق ، وليس بعيداً عن الحق ، فَعَلى افتراض أنه مقَصِّر ورَحَّبْت به دون أن تُشعِر الناس أنه على حق ، فصار إكرامك هادِفاً ويسمى إكرام التأليف ، وهو مسموح به بِشكل استثنائي . هذا وهناك التذلل والانخفاض للوالدين ، قال تعالى : ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾ .

كتب لي أخ كريم يوماً : بينما كنت في أحد مساجد دمشق ، حكاية مؤلمة ، عن أحد أقربائه ، وطلب مني أن أُلقِيَها على الناس لما فيها من العِبرة البالِغة ؛ فقد كان له قريبٌ عاقٌّ لِوالِديه ، وجاء مرةً لأبنائه بالموز فقالت له ابنته : إن جدتي أكلت موزةً ؛ فَمِن شدة بُخلِه دفع أمه من أول الدرج إلى آخره ، وبَيَّنت له أمه أنها أكلت شيئاً فَضُل عن ابنته ، وماتت بعد ذلك بِشهرين ، وعندما وافاه الأجل بَقِيَ ميّتاً في بيته أربعة أشهر ، دخلوا عليه بِالمُعَقِّمات وكانت الجرذان قد بدأت تأكله . شيء أليم لا يوصف ، فالله أذله إذلالاً ليس بعده إذلال . فالإنسان ربما يكون عاقاً لِوالِديه ولِمن رباه ، أو عاقاً لإنسان كبير في السن .

عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ مِنْ إِجْلالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ » . [رواه أبو داود] .

من أدعية هذا الاسم : إلهي أنت الخافض للجبارين بِقَهرك ، المُذِلّ للمتكبرين بِجبَروتك ، المُتعالي العلي الكبير ، المتجلي بِنصرك ، وأنت نِعم المولى ونِعم النصير .

لقد آن لنا أن تتذوّق أنفسنا حلاوة اسم : الرافع ؛ لقد علمنا في القسم الأوّل من هذا البحث أنّ الجبابرة والطغاة والمتكبرين والظُلاَّم والعُتاة ؛ هؤلاء يخفضهم الله عز وجل . وأنت يا أخي المُؤمن اخفض نفسك تواضعاً لله ، واخفض أهل المعصية والفجور واخفض الشيطان وأعوانه قبل الإصغاء لِوَسْوسَتِهم ، هذا من عمل المؤمن كما يوحي بها لنا اسم الخافض ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التحريم : ٩] .

أنت تخطىء عندما تحترم إنساناً غارقاً بِالمعاصي أمام أولادك ـ فالطفل بريء ـ ينظر فيرى أباه يُبَجِّل ويُكَرِّم أهل الفجور ؛ فَبهذا العمل كأنك أوْحيت لابنك أن هذه ليست معاصي ، والدليل التكريم المبالغ به لهؤلاء ، فَيَجب أن يكون لك موقف سليم .

الرفع يُقال تارةً في الأجسام الموضوعة إذا أعْلَيتها عن مقَرِّها نحو قوله تعالى :

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ ﴾ [النساء : ١٥٤] .

الشيء المادي إذا رفعته نقول فيه : رفع ، وقوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ﴾ [الرعد : ٢] .

ويُقال الرفع للبناء إذا أعليتهُ قال تعالى :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

قال تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ [النور : ٣٦] .

أن ترفع : أيْ : تعلو ، وإذا عظَّمْتَ إنساناً ونوَّهْت بِفضائله وذكرت شمائله فيُقال : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ، فالمعاني متعددة ؛ معنى مادي : ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ ﴾ ، وقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ، ومعنى الإطالة : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ ﴾ ، ومعنى رِفعة الشأن والتنويه بالذِّكر : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ، هذه في المنزلة . والنبي ﷺ قال : « **أنزلوا الناس منازلهم** » .

فإذا استقبلت أخاً مؤمناً ، وأثنيت عليه فلا مانِع من باب التشجيع له والتنويه بِفضْله . والإنسان المغرور والحسود هو الذي يُعتِّم على الآخرين . فإذا تفوّق أخ مسلم ونال شهادة عليا فعليك أن تُنَوِّه به ، وكأن تقول : هذا له أيادٍ بيضاء ، وخدمات [illegible] للمسلمين ، ومتفوّق في اختصاص مُعَيَّن ، هذا إذا عَرَّفت به ، وذكرت فضائله ، يكون من باب تأليف القلوب ، النبي ﷺ ذكر ذلك :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللهِ عُمَرُ ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ ، وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا وَإِنَّ أَمِينَ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ » . [رواه الترمذي] .

وصف خالداً بأنه سَيْف الله وأبا عُبيدة بأمين هذه الأمة ، وابن الزبير بحَوارِيّ هذه الأمة ، وعمر لو كان نبي بعده لَكان ، وأبا بكرٍ بأخ ولو كان متخذاً خليلاً لاتخذه ، وما من صحابي إلا نوّه النبي ﷺ بِفضْله وبيَّن شأنه ؛ لأنّ هذا من أخلاق النبوة . فإذا كان لأخٍ لك إنجاز جيِّد ، وفضيلة مأنوسة ؛ وَنَوَّهت بِفضْله ؛ فسَيَشعرُ بِقيمَتِه

عندك ، وأنه محترم ؛ وهذا الفِعل من فضائل المؤمنين ، قال تعالى :

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

والله جل جلاله في كل كتابه الكريم لم يخاطب النبي ﷺ باسمه بل قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ [التحريم : ١] .

وقال :

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ [المائدة : ٤١] .

ما خاطب الله النبي ﷺ إلا بِلَقَب النبوة أوالرسالة ؛ لكن ذكر اسمه في الخبر ، ففي الخبر ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ وفي الخطاب قال تعالى :

﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ١١٠] .

وقال أيضاً :

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي ﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

وقال أيضاً :

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم : ١٢] .

خاطب الأنبياء بِأسمائهم ؛ لكن النبي ﷺ ما خاطبه الله إلا بِألقاب النبوة والرسالة ، وهذا تكريم من الله تعالى لِنَبِيّنا محمد ﷺ ، قال تعالى :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ ﴾ [الشرح : ١-٤] .

لما عَرَجَ الله بالنبي ﷺ إلى السماء ، وأراه من آياته الكُبرى ، فهذا أعلى رفع لشأن النبي ﷺ وقدره ، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [النجم : ١٨] .

والرافع : هو الذي يرفع الأولياء وينصرهم على الأعداء . ويرفع الصالحين إلى أعلى عِلِّيين ، ويرفع الحق ، ويرفع المؤمنين بالإسعاد ، ويرفع الأولياء بِالتقريب والنصر ، وكل من تولاه حقاً وعدْلاً ، والرافع من تجلّى باسمه الرافع فَرَفَع السماء بِغير عَمَد . إذاً الرفع مادي ومعنوي ؛ يرفع السماء بِغير عمد ، ويرفع ذِكر رسول الله ﷺ ، فعندما يستقيم الإنسان ويُخلِص لله عز وجل ، تصبح له مكانة كبيرة في المجتمع ، تفوق مرتبته العِلمية واختصاصه وحِرفَته ، فالعلماء قديماً كان أحدهم نجاراً ، والآخر قصاباً ، ومن ثمّ أصبحوا ذوي مكانات رفيعة القدر في المجتمع ، فقد كان الشيخ بدر الدين الحسني إذا غَضِب يغضب لِغَضْبته مِليون إنسان لا يسألونه فيم غَضِب .

والرافع من تجلّى باسمه الرافع فرَفَع السموات بِغير عَمَدٍ ورفع الغَمام على مَتْن الهواء ورفع الطيور في الفضاء ، قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ [الملك : ١٩] .

والرافع : هوالذي رفع مقام الأولياء في الحياة ؛ بِخُضوع القلوب لهم ، وما أخلص عبْد لله ، إلا جعل قلوب المؤمنين تهْفو إليه بِالموَدَّة والرحمة ؛ فهذا رفع ، فهناك إنسان لا أحد يلتفت إليه ، لا تتمنى دعْوته ، ولا الجلوس معه فهو منبوذ ، ملعون ، مُبْعَد ، أما المؤمن

فبإخلاصه لله وإقباله عليه واستقامته على أمره يخلق الله مَوَدَّة له في قلوب الآخرين له . إذا أحب الله عبداً أوْدع في قلوب العباد محبته ، وهذا معنى قوله تعالى :

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي ﴾ أيْ أحبك الخلق بِحُبي لك ، فالله سبحانه وتعالى هو الرافع .

أقسِم بالله! ولا أحنث إن شاء الله ، ما من أحد يطيع الله كما أراد ، ويُخلص للهِ عز وجل كما يحب إلا رفع الله ذكِره ؛ وفي كل شؤون حياته وهو من إكرام الله تعالى ، وكافَأته بعض الردود الإلهية الكريمة على إخلاص المؤمنين واستقامتهم ، فالرافع : المُدَبِّر لشؤون خلقه ؛ يرفع من تولاه إلى أُفُق المقربين ، كما يخفض من عصاه إلى أسفل سافِلين . يرفع شأن المستضعفين . لما خافت أم موسى عليه السلام أن يُذبح ابنها موسى وألْقَته في اليَم بأمر الله عز وجل فالتقطه آل فرعون ورباه فرعون في بيته ، ما من طفلٍ كان يولد في بني إسرائيل إلا ويذبح ، إلا هذا الطفل فقد أراد فرعون أن يقتل كل أبناء بني إسرائيل ، لأنه رأى في الرؤيا أن طفلاً منهم سَيَقضي على مُلْكِه ، والطفل الذي سَيَقضي على مُلْكِه رباه في قصره وهو لا يشعر ، قال تعالى :

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص : ٨] .

واللام هنا لام المآل أو لام العاقبة وليست لام التعليل .

فالرافع يرفع من تولاه إلى أُفق المقربين ، كما يخفض من عصاه إلى أسفل السافلين ويرفع شأن المستضعفين ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص : ٤ـ٥] .

كم من مستضعف ، علاَ شأنه ، وتألّق نجمه ، وارتفع مكانه ؟ وكم من فقير صار غَنياً ؟ وكم من مستضعفٍ صار قوِياً ؟ وكم من مهمَلٍ صار ذا شأنٍ ؟ .

ولقد وردَت مادّة الرفع في القرآن الكريم في مواضِع عِدة ؛ ومن أبرز هذه المواضع قوله تعالى :

﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

وقوله :

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ٨٣] .

وقوله :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

فهناك مجند ، وهناك رئيس أركان ، وهناك ممرض وطبيب ، وهناك معلِّم بِقَرية وهناك أستاذ جامعة ، كما يشاهد بائع مُتجوِّل وهناك رئيس غرفة تجارة ؛ ورفع بعضكم فوق بعض درجات . فإذا رفعك الله تعالى فيجب عليك أن تشكره على هذه الرِّفعة ، وينبغي أن تُوَظِّفها في طاعة الله . وقال تعالى :

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

وقال :

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [آل عمران : ٥٥] .

وقال تعالى :

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾

[مريم : ٥٦ـ٥٧]

إذا تجلّى الله على قلب المؤمن بنور اسمه الرافع رفَعَ ذلك النورهذا المؤمن إلى العُلا الأعلى فَصَار مُرْتَفِعاً في الأكوان ، وإذا تجلّى الله على قلب المؤمن بِنور اسمه الرافع جعله مُتَألِّقاً كالكوكب الدُرِّيّ ، وهذا الإنسان المؤمن لا ينظر إلى ما في أيدي الناس ؛ بل يرفع هِمَّته إلى الله عز وجل .

وبعد فإنّ اسم الرافع : من ألْصق الأسماء بِحياة المؤمن لأنَّ حياة المؤمن بعد أن يمتحِنه الله تُصْبِح سلسلة إكرامات ، والمؤمن كما قلت في أبحاث سابقة يمرُّ بأطوارٍ ثلاثة : طَوْر يُؤَدَّبُ فيه على تقصيره وبعض مُخالفاته ، وطَوْرٍ يُبْتلى فيه ويُمتحن ؛ فإذا نجح في الطورين بلغ طور التكريم وأظن هذا يناله في الدنيا أو في الآخرة : وهذا معنى قول الله تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

نصيب المؤمن من اسم الرافع أن ينال كل مؤمن طائع له ومُخلِص له من فضله تعالى الرفعة وعلوّ المنزلة والتكريم كما ينال منه أيضاً القرب والدنوّ ، وأيَةُ آية يختص بها النبي عليه الصلاة والسلام فلكل مؤمن منها نصيب بِقدْر إخلاصه وطاعته كما قال ذلك بعض العلماء ، انظر في قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ من معانيها : أن كل مؤمن يقتدي بِرسول الله ﷺ ، ويقتفي أثره ، ويتبع سنته ، يناله شيء مما نال النبي ﷺ من رِفْعة شأنٍ ، وعلُو قدْر وسيرة العلماء العاملين الصالحين الصادقين والمخلصين في التاريخ الإسلامي تُؤكّد هذه الحقيقة .

وبعد فإنّ من أدعية هذا الاسم : إلهي تجَلَّيت باسمك الرافع ؛ فرَفعْت قدْر أنبيائك وأولِيائك ، أظهرت لهم المعجزات ، وأبْرَزت لهم الكرامات ، فَعَظَّمتهم القلوب ، ورفَعْتَ أعمالهم إليك بِالقبول ، ورفَعْتَ لهم أرواحهم بالوصول ، ورفَعتَ هِمَّتهم فَلَم يطلبوا سِواك ، لأن عيون أرواحهم تراك ، فاجعل لنا أوْفر حظ من نور اسمك الرافع ، حتى يُرفع شأننا فَنَرْفع أحبابك .

هذه بعض أدعية اسم الرافع ، ونرجو ربنا أن نكون عند حُسْن الظن بنا وأن نستحِق أن يرفعنا الله عز وجل رَفْعاً مادِياً ومعنوِياً حتى نقطف ثِمار الإيمان الحق الذي هو في الحقيقة التِزام واستِقامة ومؤاثرة .

* * *

الحَسِيبُ

الحسيب من معانيه : المكافىء ، ومن معانيه أيضاً : الاكتِفاء ؛ فالمكافىء المثيل ، فلان حسيب فلان أي مكافِئه ومثيله ونِدُّه ؛ والحسيب أيضاً : الذي يكفي ، من الاكتِفاء ، فالله ـ سبحانه ـ هو الكافي تقول : أكرمني فلان وأحسبني أيْ كفاني ، وأعطاني فوق ما أريد . وتقول : حَسْبِي الله ونِعم الوكيل أيْ : أن الله سبحانه وتعالى كافيني ؛ أما حُسبانك على الله : بِمعنى حِسابُك على الله ؛ فالمعنى الأول : المكافىء . والمعنى الثاني : الكافي . والمعنى الثالث : المُحاسب . مِن النِّدِّية والمِثلية ، ومن الاكتِفاء ، ومن الحِساب . ويكون معنى الحسيب في حق الله تعالى في أدق معانيه : الكافي ؛ تقول : حَسْبِي الله ونِعم الوكيل أيْ : يكفيني ولا أحتاج إلى غيره . فالعِباد كلهم لو أطاعوا الله عز وجل ، كَفاهم أمر دنياهم وآخرتهم .

والحسيب : هو السيد الذي عليه الاعتماد . وليس في الوجود حسيب سواه . قد تعتمد على إنسان يحبك ، ولكنه ضعيف لا يستطيع أن يُنجيك مما أنت فيه ، وقد تعتمد على إنسان قوي ، ولكنه لا يحبك . وقد تعتمد على إنسان قوي ويُحبك ، ولكنك لا تصل إليه .

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٤] .

فمَن اعتمد على غير الله ، ضلّ ، ومن اعتمد على غير الله ، ذلّ . ومن اعتمد على ماله افتقر ، ومن اعتمد على عِز إنسان ، أُذِلّ .

اجعل بربك كل عِزٍّ ك يستقِر ويثبت

فإذا اعتززت بِمن يموت فإن عزَّك ميِّت

الحسيب : الكافي . والحسيب : النِد . والحسيب : المحاسب . وليس في الوجود حسيب سِواه ، فأقوى قَوِيٍّ في الدنيا لو اعتمدت عليه ، ربما توفاه الله وأنت بِأمسِّ الحاجة إليه ، وربما تغيَّر عليك فجأةً بلا سبب ، وربما تنكَّر لك . لذلك من الشِّرك ؛ أن تعتمد على غير الله ، كلمة حسبي الله ونِعم الوكيل : أيْ أنّ الله يكفيني وهو القوي . هو الرزاق ، هو الغني ، هو العليم ، هو الكريم ، هو السميع ، هو المجيب ، هو الرؤوف ، هو الرحيم ، هو المُعطي ، هو المانع ، هو الرافع ، هو الخافض ، هو المعز ، هو المُذل . حسبي الله ونِعم الوكيل أيْ : أنّ الله يكفيني .

مثلاً : إذا تعيَّن إنسان بِوظيفة دوامها ثماني ساعات ، وراتبه الشهري ثلاثة آلاف ليرة ؛ فهذا لا يكفي للعيش ، تجده يبحث عن عَملٍ آخر ، وعن طريقة أخرى لِكَسب المال فهذا المال لا يكفيه ، إذاً يزوغ إلى جِهةٍ أخرى . لكنك إذا اعتمدت على الله ، كفاك ، وأغرقك بالنعيم ، وطمأنك ، كفاك وشَرَّفك ، كفاك ورفعك ، كفاك وأعزَّك ، فَكَلِمة حسبي الله ونِعم الوكيل مِن أفضل الأذكار ، وهي من أذكار النبي عليه الصلاة والسلام . فإذا سعى الإنسان لِجهة ولم يُوفَّق فيها ؛

ماذا يقول ؟ حسبي الله ونِعم الوكيل . وإذا سلك طريقاً ثم رآه مسدوداً ؛ فماذا يقول ؟ حسبي الله ونِعم الوكيل . والمؤمن يرضى بقضاء ربه ، ويعلم عِلم اليقين أن هذا الطريق ليس في صالح آخرته ، لذلك وضع الله أمامه العراقيل والنبي عليه الصلاة والسلام عَلّمنا ، فقد كان إذا رأى ما يحب قال : « **الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات** » وإذا رأى مايكره قال : « **الحمد لله على كل حال** » ليس في الوجود حسيب سِواه .

﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس : ٣٢] .

إذْ إنه لا جِهة غير الله تُغني ، إما أن تكون مع الله فأنت المكتفي ، وإما أن تبتعد عنه فأنت في فقرٍ دائم . وأنت من خوف الفقر في فقر . وأنت من خوف المرض في مرض . وَتَوقُّع المصيبة مصيبة أكبر منها . حسبي الله ونِعم الوكيل ، وليس في الوجود حسيب سِواه .

وقالوا الحسيب : هو الذي انتهى إليه كل شَرَفٍ في الوجود ، وهذا معنى رابع تقول : فلان حسيب نسيب ، بِمعنى مُشرَّف ومكرّم . فأول معنى للحسيب : النِّد . والمعنى الثاني : الكافي . والمعنى الثالث : المحاسب . والمعنى الرابع : الشريف . يكفيك شَرَفاً أن تنتسب إلى الله ، قال تعالى :

﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ﴾ .

ملاحظة : هذه الياء ياء الإضافة وليست ياء النسب ، ياء النسب كقولك (دمشقي) نسبة إلى دمشق والله أعلم .

وإذا قلنا : ياء نَسَب ، أي منسوب إلى الله عز وجل عن نِسبة تشريف وتكريم ، قال تعالى : ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ

وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان : ٦٣] .

فأنت منسوب إلى ذات الله عز وجل نَسَبك الله إليه وشرَّفك وكرَّمك قال تعالى :

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء : ٧٠] .

فالله صانك فلا تتبذّل . ورفعك فلا تسقط . وشَرَّفك فلا تسْفل . وأعزَّك فلا تذِل . وأعطاك فلا تصدف عنه وترجو غيره ، ولا تتوجّه إلى سواه .

وقيل : الحسيب الذي يُحاسِب عِباده على أعمالهم ، وهذا المعنى مرّ قبل قليل ؛ يُحاسِب الطائعين فَيُثيبهم على طاعتِه ، ويُحاسب العاصين فَيُجازيهم على معصيتهم ، وهو حسيب كل إنسان . ولا تُحاسب ؛ فالله هو المحاسب ، وحِسابه دقيق ، ويُحاسب على أدق الدقائق ، وعلى أدق الكلِمات ، وعلى أدق الذرات قال تعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة : ٧ ـ ٨] .

وإذا أيْقنت أنه سَيُحاسبك فلا بد أن تخاف منه . وإذا خِفت منه . استقمت على أمره . وإن استقمت على أمره . أقْبلت عليه . وإن أقْبلت عليه . سَعِدت بِقُربه . وإذا سعِدت بِقُربه استَغنيت عن الدنيا وما فيها بعد أداء الأسباب ، ومن عرف الله زهِد فيما سواه . الحسيب : النِّد . والحسيب : الكافي . والحسيب : المحاسب .

والحسيب : الشريف . وكل هذه المعاني لها وُجوه تليق بجلال الله وذاته .

بعض العلماء ذكر أن الحسيب فيه ثلاثة وُجوه : الأول : أنه الكافي ، والعَرَب كانت تقول : نزلت بِفلان فأكرمني ما كفاني . سألَت امرأة يزيد بن المهلب أن يُعطِيَها من ماله فأعطاها وأجْزَل ؛ فقال له من في حضرته : لقد كان يكفيها القليل وهي لا تعرِفك ، فقال هذا الأمير : إذا كان يُرضيها القليل ، فأنا لا أرضى إلا بالكثير . وإن كانت لا تعرفني ، فأنا أعرِف نفسي .

فإن قُلت الله حسيب : بِمَعنى يُعطيك عطاءً عظيماً ، إذا عاش الإنسان ثلاثاً وستين سنة ، وأطاع فيها الله عز وجل فهو عاش كَعُمُر النبي ﷺ وبالأربعين تاب إلى الله تعالى واستقام فَيَكون قد أطاع الله تعالى ثلاثاً وعشرين سنة يستحِق جنة إلى أبد الآبِدين ؛ فَما معنى جنة إلى أبد الآبدين ؟ وما معنى الأبد ؟ العقْل لا يُمكن أن يتصوّر معنى الأبد ، ذلك لأنه لا يفهم إلا حجماً معَيّناً ، ووقْتاً مُعَيَّناً ؛ أما الأبد فلا يفهمه . بعض المجرات تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية ، والضوء يقطع بالثانية الواحدة ثلاثمئة وستين ألف كيلومتر ضرْب ستين بالدقيقة ، وضرب ستين بالساعة وضرْب أربعة وعشرين باليوم ، وضرْب ثلاثمئة وخمسة وستّين بالسنة ، ضَرْب عشرين مليار سنة . كل هذا للنجم ، إذا كان أحدنا في الأرض وإلى هذا النّجم أصفار وفي كل ميليمتر صفر فما قيمة هذا الرقم ؟ هذا الرقم قيمته صِفر إذا قيس إلى مالا نهاية ، فكل شيء تراه بعيداً في هذا الكون فهذا النجم أبعد من عشرين مليار سنة ضوئية واحد في الأرض وأصفار إلى هذا النجم ، هذا الرقم اجعلْه صورة أو بسطاً وضَعْ في مخرجه لا نهاية ؛

فقيمته صِفر . فكلما عدّ الإنسان إلى الأعلى مليار مليار مليار سنة كان الأبد أكبر ؛ وهذا الأبد في النعيم ثمنه أن تطيع الله عشرين سنة أو ثلاثين سنة ، وهذا هو معنى المُعطي فهو يعطي ويُجزل في العطاء . خلقك لِجنة عرضها السموات والأرض ؛ على أن تُطيعه في هذه الحياة الدنيا . ومن نِعمته أنه ما حرمك شيئاً وكل شهوة أوْدَعها فيك ، جعل لك طريقاً نظيفاً للتمتع بها فَسُبحانه وتعالى ما حَرَمنا النساء بل أمرنا أن نتزوج . وما حرمنا المال بل أمرنا بالعمل ، وحرَم عليك الكذب ، والزنى ، والخمر ، والمعاصي التي لا تليق بالإنسان ؛ فهذه الطاعات ثمنها الجنة ، إذاً هو المكافىء يُعطي فَيَكْفي .

يقول سيدنا علي رضي الله عنه : يا بني ما خيرٌ بعده النار بِخيرٍ ، وما شرّ بعده الجنة بِشَرٍّ ، وكل نعيم دون الجنة محقور ، وكل بلاء دون النار عافية . فعطاءٌ في الدنيا لا يُمكن أن يسمى عطاءً ؛ لأنه ينتهي بالموت ، ولا أعرف إن كانت صورة الموت واضِحة ، فكل إنسان له قريب وصديق وجار ثمّ تراه بِالمغْتَسل وبعد ساعتين بالقبر . أين غُرفة النوم ؟ وسيارته ومكانته ؟ ومنجزاته ؟ كل هذا انقطع ، أيها القراء الكرام : لا يمكن أن يُسمى عطاء الدنيا بالنسبة إلى عطاء الله في الآخرة عطاءً ؛ لأنها عَرَضٌ حاضِر يأكل منه البَر والفاجر ، والآخرة وعْد صادِق يحكم فيه مِلك عادل .

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ** » . [رواه الترمذي] .

هذا كلام مَنْ ؟ كلام من لا ينطق عن الهوى ، لو أن الدنيا تعدِل عند الله جناح بعوضة ما سقى الله الكافر منها شرْبَة ماء ، فإذا رأى

أحدنا بيتاً ضخماً جداً ، أو مَرْكَبَة فخمة جداً ، أو بُستاناً رائعاً ، أو مركزاً تِجارياً كبيراً ، وقال : هنيئاً له فقد عظّم حقيراً ، قال تعالى واصفاً قارون ومن اغترَّ به عندما خرج على قومه في زينته :

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾[القصص : ٧٩ـ٨٠] .

فالله تعالى حسيب : أيْ يكفي العبد ويكفيه كل مُؤنته . ورد في بعض الآثار : « **أنْ يا عبدي كن لي كما أريد ولا تُعْلِمني بِما يُصلِحُك** »

أيْ : لا تتكلّف وتُبْلِغني الذي يُصلِحك ؛ فأنا أعرف ما يُصْلِحك ، وما يُرضيك وما يُسْعِدك . كن لي كما أريد ولا تُعْلِمني بِما يُصلِحُك ، وهناك أثر آخر : « **كن لي كما أريد أكن لك كما تريد** » .

وفي أثر آخر : « **أنت تريد وأنا أريد ، فإذا سَلَّمت لي فيما أريد ، كَفَيْتك ما تريد ، وإن لم تُسَلِّمني فيما أريد ، أتعَبْتُك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد** »

فالحسيب : هو الكافي فإذا قُلت : حسْبِيَ الله ونِعم الوكيل ؛ يكفيك مؤونة الدنيا والآخرة ، ويكفيك كل الهم ، مهما ضاقت عليك السُّبُل ومهما أُحْكِمت حولك الحلقات .

ولَرُبَّ نازِلة يضيق لها الفتى ذَرْعاً وعند الله منها المَخرجُ
ضاقت فلما استحكمت حلَقاتها فُرِجت وكنت أظنها لا تُفْرَجُ

وقيل :

كُن عن همومك مُعْرِضا وَكِلِ الأمور إلى القضا

وابْشِــر بِخَيْــر عــاجِــلٍ تنســى بــه مــا قــد مضــى
فَلَــرُبَّ أمــر مُسْخِــطٍ لــك فــي عــواقِبــه رِضــا
وَلَــرُبّمــا ضــاق المضيـ ـقُ وَربمــا اتســع الفضــا
الله يفعــل مــا يشــا ء فــلا تكــن مُعْتــرِضــا
الله عَــــوَّدك الجميـ ـل فَقِسْ على ما قد مضى

أنْ تقول : حسبي الله ونِعم الوكيل ، وتردد ذلك ، هذا ذِكْر بِمَعْنى الله يكفيني . صِحتك بِيده ، وزوجتك بِيده ، والأقوياء بِيده ، والضعفاء بِيده ، ومن فوقك بِيده ، ومن تحتك بِيده ، وطعامك بِيده ورزقك بِيده ، فإذا قلت : حسبي الله ونِعم الوكيل ، قرَّتْ نفسك وانتهى الأمر .

الثاني : بِمعنى حسيب . فالله يُحاسِب خلقه يوم لِقائه فهو تعالى يُحاسِبهم في الدنيا لِيُرَبيهم ، ويُحاسِبهم في الآخرة لِيُجازيهم ؛ حِساب الدنيا تربية ، وحِساب الآخرة جزاء . هناك قِصص كثيرة أسْمعها من أهل الصلاح من أهل العلم .

ذكر لي أخ عنده معمل ألبسة ، قال : علم أحد إخواننا من المسجد أنّ عندي معمل ألبِسة فطَلب مني ست قِطع ، فاعتَذرت منه لأنّني لا أبيع إلا بالجملة وكأنني شعرت بِالهوان فالكمية التي طَلَبها قليلة ولا تملأ العَين ، فذكر لي هذا الأخ أنه مضى عليه شهر تقريباً ما رأى زبوناً واحداً عنده في المعمل ، عِقاباً له على هذا الصنيع ، والله حاسَبَه على هذا الكِبر وهذا الازدراء للآخرين .

وذكر لي أخ من إخواننا عن إنسان كَبرَ وكبر حتى ملك عدداً كبيراً

من الطائرات المدنية والفنادق ، ولما تشوّفتْ نفسه قال لقد وصلت عالياً وأنا حدودي السماء ولم يمضِ على كلامه اللحظات حتى سُحب من تحته البِساط ، وشُدّ الحبل ، وقُبِضت روحه . فالله يُحاسب وهذا المعنى الثاني . فأول معنى : الله يكافىء . والمعنى الثاني : الله يُحاسب . فعلى الإنسان أن يضبط لِسانه وجوارحه ودخْله وماله وكل حركاته لأن الله يحاسب (حسيب) والصواب أنه كلما كبر عقلنا ونما إدراكنا يجب أن يزداد خوفنا من الله وكلما صغر المرء أمام ربه فالله يعظمه أمام الخلق ويعلي شأنه وكلما صغرنا وتواضعنا وافتقرنا وأعلنا عبوديتنا لله عز وجل ، وقلنا : يا رب أنا من دونك لا شيء ، أنا من غير علمك جاهل ، أنا من دون عونك ضعيف ، وأنا فقير ، أنا الأدنى يا رب وأنت الأعلى ، وأنت الكريم ، وأنت الغني ، وأنت القوي ، وأنت العالم ، كلما أعلنت عن ضعفك وافتقارك وعبوديتك رفعك الله ، وكلما قلت أنا وأنا خفضك الله عز وجل وإليك الحادثة التي تلخّص المعرفة ، مرة ذكر أن رجلاً في أوروبة قال : إذا حمل هذا الصفصاف إجاصاً فأنا أُزاح عن مركزي ، وبعد أيام أُزيح فجاء الناس ووضعوا ثمار الإجاص فوق الصفصاف . الله حسيب .

من الناس من يكون حِسابه يسيراً إذا كان مؤمناً ، فهو من أهل النعيم الدائم . ومنهم من يكون حِسابه شديداً على الفتيل والقِطمير وهم الكفار .

معنى الحسيب الثالث : هو الشريف ، تقول : هذا بيت حَسَب ونَسَبٍ بالتعبير الشائع . مَنْ هو الشريف حقيقة ؟ هو الذي لا يرتكب المعاصي ، ولا يبخل ولا يكذب ولا ينافق ولا يذل ولا يغتاب ، فكلما تنزَّه الإنسان عن المعاصي صار شريفاً وليس الأمر كما في بعض

البلدان التي تتوارث الشرف بعض الأسر ولا يتزوّجون إلا من أشراف أسرتهم أو قبيلتهم :

لا تقـل أصلـي وفصلـي أبـداً إنما أصل الفتى ما قد حصل

شرف الإنسان بطاعته لله ، شرف المؤمن قِيامه بالليل ، وعِزُّه استِغناؤه عن الناس ، فاعلم إذًا أنّ شرفك بطاعتك لله . ولا شيء آخر . فالمحاسب الكافي والشريف . والشريف : الذي له صفات الكمال والجمال والجلال . وبعض العلماء قال : « **الحسيب هو الذي يكفي بِفضله ، ويصرف الآفات بطَوْله** » ، وقيل : هو الذي إذا رُفِعتْ إليه حوائج قضاها وإذا حكم بِقضية أبرمها وأمضاها وقيل : هو الذي يعُد عليك أنفاسك ويصرف بِفضله عنك بأسك .

القرآن الكريم ورد فيه اسم الحسيب كثيراً في القرآن الكريم قال تعالى :

﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [النساء : ٦] .

فإذا كنت وصياً على يتيم وله مال وكنت في حاجة ، فلك أن تأكل منه بِالمعروف ، والعلماء قالوا : « **الأكل بالمعروف : أن تأخذ حاجتك أو أجر المِثل أيهما أقل** » ، فإذا كان مع اليتيم مئة ألف وأَعْمَلتَها في التجارة ورَبِحت عشرة آلاف تعطي خمسة لِصاحب المال وخمسة لك ، فأنت إن كان يكفيك أربعة فلا تأخذ خمسة ، فإذا كان يكفيك خمسة عشر ألفاً ونصيبك خمسة تأخذ الخمسة أو أجر المِثل

أيهما أقل هذا إن كنت فقيراً أما إذا كنت غنياً فَعَليك أن تستَعْفِف . واذكر ولا تنس من الذي سَيُحاسبك ؟ ومن الذي يعلم ما إذا كنت غنياً أو فقيراً ؟ هناك من تجده يحتمي بمال يتيم ويضعه في التجارة فإن ربحت تلك التجارة وضع ماله فيها ، وإن لم تربح يبقى ماله بعيداً عن الخسارة ، ويدّعي أنّ مال اليتيم ذهب في التجارة ، هذا لا يجوز ، والنبي ﷺ قال : « **لا تقي مالك بماله** » ، لا تجعل ماله دريئة أو حَقْل تجارب . تجد تُجاراً يتَّجرون بأموال غيرهم فإن كانت صفقة تجارية ولم يكونوا واثقين منها اشتغلوا بأموال الآخرين ويقولون لك : هذه قِسمة ونصيب والتجارة رِبْح وخسارة ولم تربح هذه الصفقة ، وإن ربِحت أدخَل ماله في هذه الصَّفقة ، فمن الذي يعرف هذه الحقائق ؟ هو الله ، الحسيب الذي يحاسب ، هناك حالات بالتجارة ، وهناك حالات علاقة بالنساء ، وحالات اجتِماعية ، فَلو كان تعاملك مع أذكى إنسان على الأرض فلن يكْشِف نياتك ، ولا تصرفاتك في كثير من الأحيان ، ولكن الله يعلم فالخلْفِيات والحقائق لا يعلمها إلا الله .

عندما يؤمن الإنسان أن الله رقيبُه ، يصبِح لديه دِقَّة في معاملاته تكاد تكون خيالية ، ويجعل كل شيء في الحُسبان . سَمِعت قِصة وما أكثر ما ذكرتها في دروس المساجد ؛ إنسان تُوُفِّيت خالته فأخبرني أنّه : مرَّت ثماني سنوات وهو يراها بِالمنام تَحتَرِق ، فَيَقول لها : مالك يا خالة ؟ فتقول له : الحليب ، ولكنه ما فَهِم عليها قصدها ، وكانت خالته امرأة أب وعِندها أولاد زوج فكانت تضع للحليب الذي كانت تسقيه لأولاد زوجها ماءً ، أما ابنها الذي من صُلْبِها فتُعْطيه حليباً كامل الدسم ؛ ثماني سنوات وهي تَلْتَهِب ، فمن الذي يعرف حقيقة هذه المرأة ، إن زوجها كان يراها تقدم كؤوس الحليب لأولاده جميعاً

ولكن الذي يعلم الحقيقة هو الله عز وجل . المنام ليس حجة في أحكام الشريعة ولكن يُسْتَأْنَس به .

فالله هو الحسيب المحاسب قالوا : لا تُحاسِب ، الله المُحاسب . وآخر كانت له أُخت عانِس ساكِنة بِبَيْته وكانت زوجته تُبالِغ في إهانَتِها ، فقال : كنت جالِساً مرة على سرير ، وزوجته إلى جانبه ، وأراد أن يشرب الماء فَرَكَل أخته برجله وقال لها : أحضري لي كأسًا من الماء فَبَكَت من شدة إهانتِه لها أمام زوجَة أخيها ، وفي اليوم التالي سافر إلى مدينة حَلَب وفي الطريق وقع له حادث سَيْر أُصيب بِرِجْلِه اليُمنى وأُصيب بِمرض الغَرْغَرِين فَقُطِعت من أعلى الفَخِذ ، لقد كانت الرِّجْل التي ركَل بها أخته لِيُهينها أمام زوجتِه . فإذا عتا الإنسان وتجبَّر ؛ وأكل أموال الناس بالباطل ، فالله هو الحسيب الكبير ، وكلما ازداد عقلك وإدراكك ازداد خَوفك من الله ، المؤمن يَنْخَلِع قلبه خوفاً من الله .

مرةً قال لي طالب : أنا لا أخاف من الله ، فأردت أن أُحجّمه وقلت : يا بني الفلاّح أحياناً يأخذ ابنه الصغير معه إلى الحصاد وَيَضعه بين سنابِل القمح فيمرّ ثعبان بِجانِبه فَيَضع الطفل يده على الثعبان ؛ لماذا لا يخاف منه ؟ لأنه ليس لديه إدراك ؛ فكُلما ضعُف الإدراك ضعف الخوف ، وكلما إزداد الإدراك ازداد الخوف . وأحياناً تجد الطبيب يُبالِغ بِغَسل الفاكهة وذلك من شدة ما يراه كل يوم من الجراثيم والأعـراض الإنتـانيـة والالتهـابـات المعـويـة والإسهـالات وأنـواع الأمراض ؛ فهذا الذي يراه يدعوه إلى المبالغة في التنظيف والتعقيم ؛ فكلما ازداد العلم ازداد الخوف من الله . والله مُحاسب . وهذا أحد كبار صُناع الحلويات في لبنان ، كان يُصدّر طائرة كلَّ اليوم إلى دول

الخليج محملة بالحلويات ، دخل يوماً إلى مصْنَعِه ولم يُعْجِبه صنيع أحد العمال فأخذ تلك العجينة ووضعها على الأرض وعجنها بقدميه لِيُعلِّم الصناع عزك العجين فقال له العامل مُنَبِّهاً إنك تلبس حِذاءً فأجابه : وماذا. . . على الناس أن يأكلوا من تحت قَدَمَيّ ؟ بعد شهرين قُطِعت رِجلاه اليمنى واليسرى كلاهما وهو الآن مقيم في بريطانيا ، والوقائع كثيرة لا تُعد ولا تُحصى ، وأنا أذكر وقائع وأحداثاً عادِية ولو أنَّ الإنسان لديه قُدرة على البحث والتنقيب والدرس لرأى العجب العُجاب . اعمل ما شِئت ؛ واعلم أنَّ حِساب الله في الدنيا حِساب تَرْبوي . أما حسابه تعالى في الآخرة فهو حساب جزائي ، بالدنيا يُحاسب لِيُربى أما بالآخرة لِيُجازى ، هذه الآية الأولى .

الآية الثانية قال تعالى :

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء : ٨٦] .

فَمَشاعر الذين يردون التحية يعلمها الحسيب وحده هل هي تحية إسلامية دينية أم هي صدَرتْ من كِبر أو تواضع أو رد جميل أم هي صدَرتْ من كراهيّة أو محبة أو خداعٍ ؟ هناك أشخاص لديهم القُدرة على التمثيل قدرة كبيرة جداً قالوا عَن الدِّبلوماسية : هي التعبير عن أسوأ النيات بِأجمل الألفاظ . وهي أحد تعريفاتها اللاذعة من الممكن أن تكون لك ابتِسامة شكليّة ، ومصافحة حارة وأنت تغدر بهذا الذي تُصافِحه ؛ فهذا السلام ؛ وراءه محبة أوغَدْر ؟ أو إخلاص ؟ أو انتقام ؟ أو طعن بالظهر ؟ أو كراهية ؟ فمن يعرف ويعلم هذه الحقيقة ؟ وكل إنسان يقدِر على الابتِسامة ، ولكن النيات لا يعلمها

إلا الله لذلك جاءت الآية الكريمة : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴾ .

بعد ردّ التحيّة ، طبعاً معظم الناس يلقون السلام ويردون السلام ، لكن النيات والخلفيات والحَيْثِيات وما بين السطور هذه لا يعلمها إلا الله . قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٣٩] .

فإذا خشي الإنسان الله وحده ، وتحمَّل المشاق ، وتجشَّم المتاعب ، لأنه خشي الله وحده ، وبلَّغ رسالته ، ولم يَعْبأ برِضاء الناس . فمن الذي يعرف حجم تضحِيته ؟ وحجم ما يُعاني ؟ طبعاً من السهولة أن تُرضي الناس ، وأن تنجُوَ منهم ، وأن تُسْمِعهم ما يُحِبون . لكنك إذا كنت صادقاً ، ومُخْلِصاً ، ونطقْت بالحق ، ولم تأخذك في الله لوْمة لائم ، فربما أتعبك الناس وثاروا عليك وانتقدوك وطعنوا فيك ؛ والله هو الذي يعلم حجم تضحِيَتك لذلك قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ ، وقال تعالى :

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] .

الله يعلم أدق الأعمال ، وأدق الذرات والنقير ، والقِطمير ، والفتيل ، والنقير : رأس النواة المذبب ، والقِطمير : غِشاؤها ، والفتيل : الخيط بين فَلْقَتيْها ، فلا تُظلمون فتيلاً ولا قِطميراً نقيراً ولا ذرة ولا مِثقال ذرة من خردل ، ولا ظُلْمْ اليوم وما كان الله

لِيَظلِمهم ، فالله حسيب ، قال تعالى :

﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩] .

قال تعالى :

﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٨٤] .

إن تكلمت أو لم تتكلم ، وإن أبَحت أو لم تُبِح ، وإن ذكرت أو لم تذكر ، فالله سُبْحانه وتعالى سيُحاسِبك ، وقال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

فَمهما تقلَّب عليك الناس ، ومهما اجتمعوا وتآمروا فقُل : حَسْبي الله ونعم الوكيل . فكلهم بِيد الله عز وجل قال تعالى :

﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [هود : ٥٥ـ٥٧] .

مهما اجتمع الناس على أن يضروك ، وعلى أن يُوقِعوا بك الألم ، فقُل : حَسْبي الله ونِعم الوكيل ، أنت أقوى منهم بِالله . يكفينا شَرَفاً هذه الآية :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التوبة : ٥٩] .

من أحبنا أحببناه ، ومن طلب منا أعْطيناه ، ومن اكتَفى بنا عما لنا كنا له وما لنا ، قُل : حسبي الله ، يكفيني الله ، قال تعالى :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٢-٣] .

يكفيه ، فإذا كان لشخص قضية في القضاء ، وكانت مُعَقَّدة وصارت مُداخلات كثيرة وخصمه قوي فإذا قال : حَسْبي الله ونِعم الوكيل ؛ فالله هو الذي يُدافِع عنه ، وإذا شعر بِبَوادر مرض خطرٍ عظيم وقال : حسبي الله ونِعم الوكيل فالله يُزيح عنه المرض قال تعالى :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : ٨٠] .

وهذا من أنواع الذِّكر الراقي جداً . أن تقول حسبي الله ونِعم الوكيل ، يا رب التَجأت إليك واحتمَيْت بك واستعنت بك على من يُعاديني وتوكلت عليك ، وأنت حسبي ورَجائي وذخري وملاذي .

إنّ الله عز وجل أمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يقول ؛ قال تعالى :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة : ١٢٩] .

وقد أُمرنا أن نقول هذا الذكر سبع مرات . فعن أم الدرداء عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : « **من قال إذا أصبح وإذا أمسى حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات كفاه الله ما أهمه صادقاً كان أو كاذباً** .

وبعد فنحن تطالعنا نقطة دقيقة في الموضوع ؛ يقول أحد العلماء : « **إن كِفاية الرب لِعَبْده أن يَكْفِيَه في جميع أحواله وأشغاله ، وأجلّ هذه**

الكِفايات ألا يُعْطِيَه إرادة الأشياء » ، بل هذه الكلمة : رب! خِر لي واختر لي أرقى درجة من أنواع التوكل . يَسِّر لي ما فيه صلاح لي في ديني ودُنياي وهو دعاء الاستِخارة ، أساساً ألم يقل النبي ﷺ ذلك :

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِي الله عَنْهمَا قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ يَقُولُ : « إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ، ثُمَّ لِيَقُلِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ، أَوْ قَالَ : عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ، أَوْ قَالَ : فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي قَالَ وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ » .

[رواه البخاري]

فإذا علِم العبد أن الله هو الذي يكفيه ، لم يَرْفع حوائجَه إلا إليه . ويُعاب من يشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم . إذا أيقنت أن الله وحده هو الذي يكفي ، لا تَسْألُ غيره . فإن الله سُبحانه وتعالى سريع الإجابة لِمن انقطع إليه ، إذاً أنت مُتَّجه إلى الله تعالى بكليتك ولا تُعَلِّق أملك بِمن دونه فهو سريع الإجابة . وتوكل في جميع أحوالك عليه . فأما إذا كانت حاجتك في حق الله خيراً مخضاً كطلب الهِداية ، والاستِقامة ، والرزق الحلال ، والكِفاية فهذا الطلب يُجاب فوْراً لأنه في حق الله ، وأما إذا طلبت الدنيا فهناك وضْعٌ آخر لعلها لاتنفعك لعلها تُؤذيك وتُبْعِدك فلذلك قد يُجيبك وقد لا يُجيبك ، فالأدعية

المُتعَلّقة بالآخرة سريعة الإجابة . ومن عِلِم أن الله كافيه لا يستَوْحِش من إعراض الخَلْق ولا يأْنسُ بهم .

يذكر أحد العلماء في اسم الحسيب ؛ أنّ من كان الله له حسيباً ، كفاه والكِفاية ـ دقِقوا ـ والكِفاية التي يحتاج الإنسان إليها كِفاية دوام وُجوده وليس في الوجود شيء هو وحده كافٍ لِشيءٍ إلا الله سبحانه وتعالى ، يحتاجه كل شيءٍ في كل شيء . ليس في الكون إلا الله وحده هو الذي يكفي كل الخلائق .

قال : فإنه وحده كافٍ لِكل شيء لا لِبعض الأشياء . وحده كافٍ يحصل به وجود الأشياء ، ودوام وجودها ، وكمال وجودها ، فإذا أردت الوجود ، ودوام الوجود ، وسلامة الوجود ، وكمال الوجود ، فقل : حسبي الله ونِعم الوكيل . إذا رأيت أن الرضيع يرضع من والِدته ؛ فاعلم أن الله أودع في قلب هذه الأم الرحمة وأسال من ثديِها الحليب ، ولولا ذلك ما كان هذا الطفل مَكْفِياً بِأمه ، فإذا بدا لك أن الطفل مكفِيٌّ بِأمه فهذه كِفاية الله له .

من أدب المؤمن مع ربه ؛ أن يعلم أن الله سَيُحاسبه غداً على الكبير والصغير ، ويُطالبه بالنقير والقِطمير ، ومِن وراء عِلم العبد بهذا يُحاسِب نفسه إذا عَلِم أنه سَيُحاسَب ، سَيُحاسِب نفسه قبل أن يُحاسبه غيره ، ويُطالب قلبه بالقيام بالحقوق قبل أن يُطالبه سواه ، ومتى راقب العبد معنى الحسيب ، وتجلّى له نور القريب ، انبثق في قلبه نور فإذا نفسه تُحاسبه على تقصيره في الطاعة ، وتُذكِّره بحساب يوم القِيامة .

أرسل رجل مؤمن طعاماً إلى البصرة عن طريق وكيل وقال : بِعِ الطعام بِسِعر يومه . ولما وصل هذا الوكيل إلى البصرة استدعى التجار

ونصحوه أن يؤخِر البيع أسبوعاً فقط ؛ يرتفع السِّعر فأخر أسبوعاً ورَبِح أرباحاً طائلة وبشَّر مُوَكِّله بهذه الأرباح وجاء الجواب : ادفع الثمن كله لفقراء البصرة فقد دخل على مالي الشبهة ؛ فهو حبس الطعام لِيزداد سِعره فصار مُحْتَكِراً والمحتكر خاطىء هذا قول رسول الحسيب ﷺ .

غلام لحسان بن أبي سنان كتب إليه أَن قصب السكر قد تَلِف فاشترِ السكر ، فذهب إلى السوق واشترى السكر ، وبعدها ربح ثلاثين ألف دينار . وبعد ربحه تذكر أنَّ هذا الذي اشترى منه السكر ما علِم أن السكر أصابته آفة فباعه بهذا السِّعر البخس فقال له : يا هذا قد جاءتني رسالة من غلامي أن قصب السكر أصابته آفة فَأَقِل هذه البَيْعة ، فقال له أنت الآن قد بلَّغتني فقال له : كان ينبغي أن أُبَلِّغك قبل هذا وبَطَلَ شِرائي للبضاعة ، فقال البائع : قد سامحتك على هذا ، فقال : لن أقبل ولا أنام الليل إلا إذا أقلتني من هذه البضاعة .

فكان سلفنا الصالح يحاسبون أنفسهم حِساباً عسيراً ، وهذا رجل تزوج امرأة ثم تزوج عليها خُفيةً ، فلما عَلِمت الأولى سكتت ثم مات زوجها فأرسلت نصيب ضرَّتها من الإرث فقالت لها ضرَّتها : والله لقد طلقني قبل أن يموت وليس لي عنده شيء . وذاك الراعي قال له ابن عمر رضي الله عنهما : بِعني هذه الشاة فقال : ليست لي فقال له : قل له ماتت فقال : والله إني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت له إنها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني ، فأنا أمين عند صاحب هذه الشاة ولكن أين الله ؟ هكذا كان السلف .

إذا حاسبنا أنفسنا حساباً دقيقاً على الزلات والهفوات وعلى مستوى القِرش والدريهمات ، سلمنا وسعدنا . كان سيدنا عمر بن

عبد العزيز إذا كلمه شخص بِقضية شخصية يُطفىء السِّراج الذي يوقد من بيت المال ، وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى إبلاً سمينة فقال : لِمن هذه الإبل ؟ فقالوا : هي لابن عمر ، قال : ائتوني به ، فقال : لمن هذه الإبل ؟ فقال : هي لي اشتريتها بِمالي الحلال وبعثت بها إلى المرعى لِتسمن فماذا فعلت ؟ فقال عمر : وَيَقول الناس يا بني! اِرعَوا هذه الابل فهي لابن أمير المؤمنين ، اسقوا هذه الإبل فهي لأمير المؤمنين ، وهكذا تَسْمن إبِلُك يا ابن أمير المؤمنين ، هل علمت لماذا هي سمينة ؟ لأنك ابني ، بِعْ هذه الإبل وخُذ رأس مالك ورُدّ الباقي إلى بيت مال المسلمين .

فَالله سُبْحانه وتعالى حسيب يُحاسب وحسيب يكفيك ؛ يكفيك أمر الدنيا والآخرة ، وحسيب يُشرِّفك إذا عرفته ويرفع لك قدْرك ، فهذا البحث إن فهمناه وعملنا به رفعنا إلى هذا المستوى نكُنْ قد استفدنا منه لأنَّ العلم في الدين ليس هدفاً لِذاته وإنما هو وسيلة لِسُمُوِّ النفس ، بالعمل به فكلمة حسبي الله ونِعم الوكيل تقال عند كل هم وحزن وعند كل موقف عُدواني ، أو عند ناس تآمروا عليك فقُل : حسبي الله ونعم الوكيل . والله هو الذي يُدافع عنك أقوى دِفاع ويرفعك ويُغْلي قدرك وينصرك على خصومك ؛ حسبي الله ونعم الوكيل . فالذين عارضوا النبي ﷺ أين هم ؟ في مزبلة التاريخ أبو لهب ، وأبو جهل ، وأمية بن خلف . والذين أَيَّدوه ونصروه أين هم الآن ؟ في روضات الجنات ، فإيّاك أن تكون في خندقِ مُعادٍ للدين! وأن تتجاوز الحد إيّاك وإيّاك! الله عز وجل حسيب ورقيب وخبير . قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام : ١١] .

وفي آية أخرى قال تعالى :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [النمل : ٦٩] .

أحياناً المُكذِّب الضالّ المُنحرف المُعتدي والطاغي يُمهِله الله لِحِكمة يريدها ، وأحياناً يبطِش به سريعاً لِحِكمة يريدها ، فإذا تأخر الجواب وتأخر الجزاء جاءت « ثم » كما في الآية الحادية عشرة من سورة الأنعام ، وإن جاء سريعاً ذكرت الفاء التي تفيد التعقيب كما ذكرت في الآية التاسعة عشر من سورة النمل .

ومن أدعية هذا الاسم : إلهي أنت الكافي لِمن ركن إليك ، القدير والمُتكفِّل لكل من توكل عليك أنت أسرع الحاسبين ، وغوث الطالبين ، أشْهِدني نور اسمك الحسيب ، حتى أتحلى بِالسر العجيب ؛ فأُحاسِب نفسي قبل أن أُحاسب ، وأُطالبها بالقيام بالواجب قبل أن أُطالب ، وحقِّقنا بِسِر قولك حسبنا الله ونعم الوكيل ، واجعلني ممن اهتدَى سواء السبيل ، وخَلِّقني بمعنى اسمك الحسيب فأقوم بِحوائج إخواني من بعيد وقريب .

إذا ربَّيت أولادك فاكفِهم ، وإن أطعمت الفقير فاكفِهِ ، وإن أعطيت زكاة مالك فأعطِ الفقير حتى يكتفي ، الإمام الشافعي يرى أن تعطى كِفايَة العمر كله ، أبو حنيفة يرى أن تعطى كِفاية عام . إذا أعطيت فاكْفِ ، وأعطِ عطاءً جزيلاً واجعلني يا رب ممن اهتدَى سواء السبيل ، وخَلِّقني باسمك الحسيب فأقوم لإخواني بِحوائجهم من بعيد وقريب ؛ حتى أتحقق بالشرف والحسب إنك على كل شيء قدير .

* * *

المُقِيتُ

الاسم هو المُقيت .

ورد ذكره في الحديث الشريف الذي عدّد الأسماء الحسنى . والقوت مايُمسك الرَّمق من الرزق ، وما يُقيت الإنسان ، وما يقيم أَوَده ، وما يجعله يقف على قدمَيه ، وما يُعينه على مُزاولة نشاطه ، هذا هو القوت ، فالخبز من القوت ، والحليب من القوت لكن بعض أنواع الفاكِهة ليس من القوت هناك طعام أساسي وهناك طعام ثانوي فالطعام الأساسي هو القوت ، والله سبحانه وتعالى من أسمائه المُقيت .

بعضهم قال : القوت هو ما يُقَوِّم بَدَن الإنسان من الطعام ، ويجعله قائماً . قال ابن عباس رضي الله عنه : المقيت هو المُقْتَدِر ؛ كيف ؟ لأن هذا الإنسان يحتاج إلى طعام ، والذي خَلَقه خلق له الطعام ، وخلق له توافُقاً بين الطعام وبين جِسمه ، وخلق أجهزةً في جسمه تأخذ هذا الطعام وتَمْتَصّه ، وتستفيد منه . هناك عملية خلق ، وعملية توافق ، وعملية استِقبال . لِذلك المقيت هو المقتدر عِلماً وقوة ، فهذا الحليب الذي تُنتِجه البقرة آلِيَّه مُعقدة جداً ، خلِيّة الغُدّة الثديِيّة يَمُرُّ فوقها أوعية شعرية فيها دم ـ وكأنها كائن عاقل ـ تختار من

بين فَرْثٍ ودمٍ ؛ من بين الكريات الحمراء ومن بين البولة السائلة التي في الدم ، العناصر الأساسية من بروتينات ، وموادَّ دسِمة ومواد شَحمِيّة ، ومواد مُقَوّية ، ومعادن ، لِيَكُونَ الحليب منها . فالذي جعل هذه الكائنات قادرة على إنتاج هذا الحليب ، ثم جعل هذا الحليب متوافقاً مع جِسم الإنسان ، ثم أوجد أجهزة في جسم الإنسان تستقبل هذا الحليب ، وتهضمه ، وتمتصه ، وتجعله طاقةً هو الله المقيت .

فالمقيت هو المقتَدر إذْ إنه خلق ووَفَّق ، وأفاد ، خلق الطعام ، ووفّق بينه وبين خصائص الجِسم ، وهَيَّأ له أجهزة تمتصه لِتستفيد منه . فابن عباس يقول : المقيت هو المُقتَدِر .

أبو عُبيدة يقول : المُقيت هو الحفيظ ، ما الذي يحفظ لك هذا الجسم ؟ الطعام والشراب ، فَلو انعدم الطعام لأَدّى ذلك إلى المَوت . فَمِن أسماء الله المقيت ؛ وهو الذي يخلق القوت ، ويحفظ الإنسان بِالقوت ، وهو الذي يقتَدر بِعِلمه وقُدرته على خلق القوت المُناسب ، وملاءمته مع الجِسم ، وتهيِئَة أجهزة الجسم لامتصاصه . فَصار المقيت : الحفيظ . والمقيت : المقتدر عِلماً وقُدرةً . والمقيت : هو الذي يخلق القوت .

وقيل : المقيت هو الذي يعطي أقوات الخلائق . فَلَو تفكَّر الإنسان وسأل نفسه : كم من دابة تُذبح يومِياً لِتوفير طعام البشرية ؟ فلو قدّرنا نصيب الإنسان بخمسين غراماً من اللحم عِلماً أن عدد سكان العالم خمسة مليارات نسمة فَكم يكون التقدير ؟ ومن المحاصيل الزراعية كم طنّاً ؟ بلادنا المتواضعة التي عدد سكانها عشرون مليوناً أنتجت ثلاثة ملايين طنّاً . فماذا نقول عن بِلاد مثل الصين التي عدد

سكانها مليار ومئتا مليون ؟ وماذا نقول عن بِلاد مثل الهند التي عدد سكانها مليار وخمس وأربعون مليوناً ؟ وكم تُنتِج من قمحٍ ولحم وخضراوات وفواكه ؟ من خلق ومن أبدع وهيّأ ؟

هذا هو معنى المقيت .

وقيل : المقيت : هو الذي يعطي أقوات الخلائق . وقيل : المقيت : هو الذي خلق الخلق وساق لهم الأقوات . لو أن أحداً أعطاك سيارة ومنعك من شراء البنزين لم تستفد أنت شيئاً! إذ إنه من لوازم إعطاء هذه المركبة إعطاء قسائم للوقود من أجل أن تسير بها ، فالتعريف دقيق ؛ هو الذي خلق الخلق ، وساق لهم الأقوات . فما دام قد خلق ، فقد رزق . والشيء الدقيق بـ امعنى والمدلول قوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم : ٤٠] .

لم يقُل ثم يرزقكم بل قال : ثمّ رزقكم بِالفعل الماضي طمأنة للخلق . فلو أنك أرسلت إنساناً إلى بلد أجنبي ، وأمّنت له ما يحتاج إليه لِمدة خمس سنوات دُفعةً واحدة سَلَفاً حتى يطمئن ؛ فجاء الفعل ماضِياً ؛ الله الذي خلقكم ثم رزقكم . فالمقيت هو الذي خلق الخلق ، وساق لهم الأقوات . وهذه الغَنَمة التي خُلِقت خِصِّيصى لنا وكل شيء فيها ننتفع به ؛ بدْءاً من صوفها ، إلى جِلدِها ، إلى لحمها ، إلى شحمها ، إلى دُهنِها ، إلى عظمها ، إلى أحشائها ، إلى قرنيها ، إلى رأسها ؛ فكل شيء في هذه الدابة ينتفع الإنسان منه ، وهي مُخلوقة للإنسان خِصِّيصى ، ومُخلوقة كي تتوالد بِسرعة كبيرة ،

وتحوي أجهزة كأجهزة الإنسان تماماً ، من أجل أن يُعَلّمه الله ماذا في أحشائه لتكون وسيلة للتعرّف إلى جسم الإنسان من خلالها .

فقيل : المقيت هو الذي خلق الخلق وساق إليهم الأقوات ؛ إنّه الله عزّ وجل رب العالمين ، وأوْصَل إليهم الضروريات ، والكماليات ، ورزق قوت الأشباح ، وقوت الأرواح ـ وها نحن قد دخلنا في معنى أوسع ـ المقيت : ساق قوت الأشباح ، وقوت الأرواح . والأشباح جمع شبحٍ وهو الجسم لأنه فانٍ والأرواح : المقصود بِها النفوس . كما أنه يوجد أقوات للأجساد ؛ هناك أقوات للنفوس ، والنفس قوتُها بالاتصال بالله عزّ وجل ، قوتُها بالسكينة التي يُنزِلها الله على قلوب المؤمنين ، وشعورها بأن الله راضٍ عنها ، وبِمعرفتها بربها وبِالعمل الصالح الذي تتألق به ؛ هذا هو قوت النفس . فكلمة قوت ، وكلِمة مُقيت دفعَت بنا إلى قَفْزة من قوت الأشباح إلى قوت الأرواح ؛ من قوت الأجساد إلى قوت النفوس ، ومن الطعام والشراب إلى العِلم ، ومن الفواكِه إلى السكينة ، ومن الماء إلى التجلّي الإلهي الذي يهبط على القلب فَيَمْلؤه سعادةً . قالوا : المقيت هو الذي خلق الخلق ، وساق إليهم الأقوات ، وأوْصَل إليهم الضروريات والكماليات ، ورَزَقَ قوت الأرواح وقوت الأشباح . وقيل : المقيت هو المُتَكفّل . أحياناً الإنسان يُطعِم ولكنه ليس مسؤولاً ، ولا مكلفاً ، ولا مُلزَماً ؛ لكن الله عز وجل قال :

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود : ٦] .

و« على » تُفيد الإلزام الطوعي الذاتي والله عز وجل ألزم نفسه

بِرزق العِباد ؛ ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فهو المتكفّل بايصال الأقوات إلى الخلق .

وذكر الرازي : المقيت من شَهِد النجوى فأجاب ، وعلِم البَلْوى فَكَشف واستجاب .

فالمقيت هو الذي يخلق القوت ، والمقيت هو الذي يحفظ الإنسان من الجوع ، ومن الهلاك جوعاً ، والمقيت هو الذي خلق قوتاً يُناسب الجسد ، وخلق في الجسد أجهزةً تستقبل القوت ، وجعل توافُقاً عجيباً بين بنية الإنسان ومُكوِّنات الغِذاء . يُقال أحياناً : هذا الحليب متوافق مع السِّن الفلانية ؛ فهو مدروس مع البروتينات والشحوم والفيتامينات ، فصار هناك اقتِدار أساسه العِلم والقُدرة . وصار هناك حفظ وإطعام ثم هناك قوت القلوب .

وقوت القلوب : أي معرفة علاّم الغيوب ، والاتصال بالله عز وجل . وقوت القلوب الأمن الذي يملأ الله به قلب عبده المؤمن ، والمؤمن ممتلىء قلبه أمْناً ، وممتلئة نفسه سكينةً ورِضاً واطمِئناناً ؛ هذا هو قوت القلوب معلوم أنه تمر على الإنسان فترات يذهب أين شاء ويأكل ما يشاء ويستمتِع بِطيبات الحياة الدنيا ، ومع كل هذا الاستِمتاع يشعر بِجوعٍ روحي ، يريد أن يتصل بالله ، وأن يرضى الله عنه ، فإِشباع الجسد لا يُغْني الروح شيئاً ، فروحك ونفسك بِأمسّ الحاجة إلى قوتٍ خاصٍّ بها . فلو أن شخْصاً صلى صلاة مُتقنة بخُشوعها وانهمرت دموعه في الصلاة ، أو قرأ القرآن فَشَعر بِسعادَةٍ كبرى ؛ فإنّه يشعر بِالرِيّ ، ويشعر بالاكتِفاء ، وأنَّ الله عز وجل قَبِله ، وأقبل عليه ، وتجلّى على قلبه ، وأنزل على قلبه السكينة ، وتطمئنّ

نفسه إلى أنّه حفظه وغَفَرَ له وقرّبه وهذا هو قوت القلوب .

وهذا مثلٌ آخر أقرب إلى الأفهام ؛ لو أنّ أباً في البيت ، وفَّرَ لابنه ألوان الطعام ، وألوان الألبسة ، لكنه لا ينظر إلى ابنه إطلاقاً ولا يُكلّمه فهل يكتفي هذا الابن بِالطعام الذي يأكله في البيت ، وبالشراب اللذيذ ، وباللباس الجيد ؟ لا يرضيه ذلك ولا يسعده لأنَّ الابن بِحاجة إلى ابتسامة من أبيه ، وإلى كلمة عطف ، وبِحاجة إلى أن يضع الأب يده على كَتِف ابنه ، وإلى أن يضُمّه ؛ فالضَّمّ ليس طعاماً ، كما أنّه بِحاجة إلى أن يُقبّله أبوه ، والتقبيل ليس طعاماً .

ووضع يده على كتِفِه ليس طعاماً ، وكذلك على رأسه ، وأن يبتسِم في وجهه ليس طعاماً ، أليس الطِّفل الصغير بِحاجة ماسة إلى قوت من نوع آخر ، يُسمّيه المربون : أن يستَقِيَ الحنان من أمّه وأبيه ، وأن تضُمَّه أمه إلى صدرها ، وأن يضعه أبوه في حجره ، وأن يبتسم في وجهه ، وأن يُضاحكه ، وأن يُداعِبه ، وأن يُلاعِبه ، فهذه حاجة أساسية عند الإنسان . وكلما ارتقى الإنسان تصبح حاجته إلى هذا القوت المعنوي أشدّ من حاجته إلى القوت المادي . والإنسان عندما يقوى إيمانه لا يرى سعادةً أكبر من أن يشعر أن الله تعالى يُحِبُّه ، وأنه في عَين الله ورعايته وتوفيقِه ، إذًا ما أحْوجنا إلى قوت القلوب .

وحينما يفتقِر القلب إلى القوت يتصحّر لأنَّ الحياة منعدمة ، أحياناً البكاء يجعل الإنسان يشعر بِسعادة ، وإن أرقى بكاء الإنسان أن يبكي بكاء الرحمة ، أُدخل إلى عالم الإيمان وإلى عالَم القُرب من الله فستشعر بظلال رحمة الله ورأفة حنانه . كنت أدعو في بعض الأدعية : اللهم أخرِجنا من وُحول الشهوات إلى جنات القُربات ، القُرب جنة ؛

العِفّة والاستِقامة والصدق والأمانة والضبط وأداء العِبادات وتِلاوة كتاب الله ، هذا قرب ، وهذه جنة ، أخرِجنا من وُحول الشهوات إلى جنات القُربات . فإذا أكل الإنسان أطيب طعام حتى امتلأ بطنه ، ونال من المباحات ما يشاء ، ثمّ لا يلبث أن يشعر بِالفراغ ويشعر بِالملل والسّأم ، لأنَّ هذه الدنيا صغيرة ولا تملأ قلب الإنسان ، ولا تملأ نفسه اللامتناهية ؛ فهذه لا يملؤها إلا القُرب من الله عز وجل . إذًا فالقوت قوتان ؛ قوت للقلوب ، وقوت للأجسام . فَقُوت الأجساد الطعام والشراب ، وقوت القلوب معرِفة الله والإقبال عليه والقُرب منه ، أما علمْت أنّ أكبر عِقاب يُعاقب به الإنسان يوم القِيامة قوله تعالى :

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المطففين : ١٥] .

هذا أبٌ على مودّة بالغة مع ابنه فلو قال له يوماً : أُخرج ولا ترِني وجهك! ألا ترى أنّ هذا القول هوأكبر عِقاب للذي يملك إحساساً والذي يعرف نفسه أنّه عزيز حبيب .

وفي بعض المعاجم المقيت هو الحفيظ . والحفيظ على وزن فعيل صيغة مبالغة ، يعني حافظ وحفيظ شديد الحفظ ، والمُقتَدِر عِلماً وقُدرةً ، والقدير والمُقَدِّر . فالأغذية متوازنة بِدِقّة بالِغة ، ذكرت من قبل أنَّ الطفل الصغير إذا ماتت أمه قبل أن تُرْضِعه ، أو طُلِّقت ، أو خافت على رشاقتِها فلم تُرْضِعه وأسقَيْناه حليب البقر المعقم ، فهناك مُضاعفات خطيرة تحدث معه في المستقبل ، لأنَّ المادة البروتينية في حليب البقر أربعة أمثال ما تحتَمله أجهزة الطفل الصغير لذلك يُصاب بِآفات قلبية ، وآفات وِعائية ، وآفات في الكبِد والكُليَتين ، وتُعزى

بعض الآفات القلبية والوِعائية والكبِدية والكَلَوِية ؛ إلى أن الطفل حُرِم الرَّضاع من أمه ، هل تصدّق أيها القارىء الكريم أن حليب الأم يتبدل تركيبه في أثناء الرضعة الواحدة ؟ والآن كل معامل أغذية الرُّضع ، تكتب على عَبْواتها لا شيء يُعادل حليب الأم في الدرجة الأولى ، إذاً هناك تقدير وقدرة وعِلم وحِفظ .

وردت كلِمة المقيت في القرآن الكريم مرةً واحدة ، في سورة النِّساء قال تعالى :

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ [النساء : ٨٥] .

أي حفيظاً ويحفظ أعمال عباده كلها . « من يشفع شفاعةً حسنة » فإن دَلَلْتَ إنساناً على الله ، أو دَلَلْتَه على أخ مؤمن ، أو عرَّفته إلى أخ صادق ، شفعْتَ شفاعةً حسنة أيْ : نَتَجَ عنها خيرٌ عميم ، ﴿ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً ﴾ : دللْته على معصية أو مُخالفة أو على أُسلوب لا يُرضي الله في التعامل ، شفعْتَ له شفاعةً سيِّئة ، قال تعالى : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ له : اللام هُنا لام الملكية : « ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كِفل منها » ، سَيَدفع نصيبه من هذا الأذى الذي سبّبه بِشفاعتِه ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ أيْ أنَّ الله عز وجل يعلم كل شيء ، ويُسجّل كل شيء ،ويحفظ كل شيء ، ويحفظ لك شفاعتك الحسنة أو شفاعتك السيئة . أحياناً تجد شخصاً ينصح آخر أن يرسِل ابنه إلى بَلد أجنبي وابنه مُراهق وفي مقتَبل العمر وهناك فساد كبير ، فالذي يحصل للابن في تلك البلاد في صحيفة من نصح ، لذلك قال تعالى :

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[الكهف : ٢٨] .

فأيّ نصيحة تُؤدي إلى المعصية ؛ فهذه هي الشفاعة السيئة فأية نصيحة تؤدي إلى منفعة ؛ فهي الشفاعة الحسنة ، قال تعالى :

﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ [النساء : ٨٥] .

فإذا نصحت أحداً أن يحضر مجلِس علم فكل خير يتأتّى من هذا المجلِس في صحيفة الناصِح ، ونصحتَ آخر بتركيب أكبر قِياس من الصحون الفضائيّة حتى يحصل على مئتي محطة تِلْفِزيونية ، فكل سقوطِه في الليالي الطويلة وراء هذه الأجهزة في صحيفة الناصح ، تجده يقول لك :

هذا الهوائي صغير حدّه سبعون محطة ، لكنّا نريد مئتين قال تعالى : ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ ، حفيظ أي مقتدِرٌ وحافظٌ وشاهدٌ وشهيدٌ .

وردت مادة القوت في سورة فصّلت ؛ في لغتنا كلمة وهناك مادة لغوية للكلمة ، والمادة في اللغة مثلاً عين لام ميم مادة العِلم ، هناك علِم يعلم اِعلم عالم معلوم معلم علامة تعليم ، فمادة علِم تحوي اسم فاعل ، واسم مفعول ، واسم مكان ، واسم زمان ، واسم آلة ، واسم تفضيل وصيغة مشبهة باسم الفاعل ، وفعل الأمر ، وفعل المضارع ، وفعل ماضٍ مجرد ومزيد ؛ كل هذه الكلمات أعضاء أسرة لِجدٍّ واحد مادة علِم ، فكلمة مقيت وردت مرةً واحدة في القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾ .

أما مادة القوت فقد وردت مرة واحدة في سورة فصلت :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ [فصلت : ١٠] .

أربعة أيام أي أربعة فصول ؛ لولا مَيْلُ المِحوَر لما كان هناك فصول! لو أن الأرض مِحورها عمودي على مستوى دورانها لكانت الفصول ثابتة هنا صيف سرمدي لوجود شمس والأشعة هنا عمودية ، وهنا خريف وربيع سرمديان إلى الأبد ، أما ميل الأرض على محورها ، والشمس مستقرة عليها من جهة معيّنة ، هنا عمودية فهنا صيف ، وهناك مائلة شتاء ، فلما عكست الآية صارت هنا عمودية ، وهناك مائلة ، فَميْل المِحور جعل تقلّب الفصول ، وهذا هو قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ .

وبعض العلماء فرّقوا بين اسم المقيت ، واسم الرزاق قالوا : « **المقيت : هو خالق الأقوات ، وموصِلها إلى الأبدان وهي الأطعمة ، وإلى القلوب وهي المعرِفة ، قوت القلوب المعرفة وقوت الأبدان الأطعمة ؛ خلقها ووفَّقَها وأوصلها وانتفع الجِسم منها** » ، عملية معقّدة . أحياناً تكون أمامك علبة لحم لكنك لا تستطيع أن تفتَحها فأنت لم تستفِد شيئاً ، لكن الطعام الذي خلقه الله عزّ وجل يتوافق بِشكل عجيب مع حاجات الجسم ، وبِشكلٍ أشد عَجَباً مع طبيعة الأجهزة التي تستقْبِله .

قال العلماء : « **إن المقيت هو خالق الأقوات ، وموصِلها إلى الأبدان وهي الأطعمة ، وإلى القلوب وهي المعرفة** » ، إلاّ أنه أخص

من الرزاق إذ الرزق يتناول القوت وغير القوت قال تعالى :

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة : ٨٢] .

ومن معاني المقيت ما يُكتفى به في قِوام البدن ؛ أكل لُقمتين فشبِع واستطاع أن يمشي ، فهو بهذا الطعام استطاع التحرك .

ومعنى مقيت ؛ أي مُستولٍ على الشيء القادر عليه . تقول : مُقيت على هذا البيت بِمعنى مُتَمَلِّك زِمامه ، أو مُطّلِع عليه وقادِر على فهم كل خباياه . فإما قدرة ، أو عِلم ، أو حِفظ ، أو إطعام .

وقال بعض العلماء : « **المقيت بِمَعنى الرزاق إلا أنه أخص منه** » ، فأنواع البهارات هذه ليست قوتاً ؛ ولكن تُحَسِّن الطعْم . وهناك قلوبات وهي كذلك ليست طعاماً ولكن تُحسن طعْمه . أنواع الفواكه كذلك فهناك أنواع لذيذة الطعم ؛ ولكنها ليست قوتاً ولكنها مبالغة في الإكرام . يمكن أن نسمي خالق هذه الأطعمة التي يمكن أن يستغني عنها الإنسان باسم الودود . ويمكن أن تنطوي الأطعمة الأساسية تحت اسم المقيت . يمكن أن يدعوك شخص إلى الطعام ، ويُعطيك نوعاً واحداً ، ويمكنه أن يضع لك أنواعاً من حلويات ، ومقبلات ، وأزهاراً على الطاولة ؛ هذا كله يزيد على حاجة الإنسان . فتفيأت على مائدته ظل المقيت وظلّ الودود . فهناك أطعمة تنطوي تحت اسم الودود وهناك أطعمة تنطوي تحت اسم المقيت .

وها قد وصلنا إلى موضوع أدب العبد مع اسم المقيت . ما علاقتنا بهذا الاسم الجليل ؟ قال : الأدب الأول ألا نأكل إلا الحلال الطيب ؛ فالله يُطعِمنا فلا ينبغي لك أن تأكل إلا الحلال الطيّب .

هناك قاعدة : لدينا شيء حرام لِذاته ، وهناك شيء حرام لِغيره ؛

فأَكْل الإنسان لحم الخِنزير ، هذا حرام لِذاته أي لِذات الخِنزير . وأن يأكل لحم الغَنَم دون أن يدفع الثمن هذا حرام ولكن ليس لِذاته وإنما لِغيره . فالحُرْمة الأولى حُرمة لِذات الشيء ، والحُرمة الثانية حُرمة لِغَير ذات الشيء وإنما لِطريقة تناوُلِه . وإن كان الطعام الذي خلقه الله قد خصَّنا به ، إلاّ أننا لابُدَّ أن نأكل منه إلا حلالاً بِكَسْبٍ صحيح مشروع .

فَمن أدب المؤمن مع اسم المقيت ألا يتناول إلاّ الحلال الطيّب ؛ لِيَرتَفِع عند الله ذِكره ، ويعظم أجره . هناك أثر يقول : أَطِب مطْعَمك تكن مُسْتَجاب الدعوة .

فالمال الذي بِحَوْزَتِك ينبغي أن يكون حلالاً . فإذا كان حلالاً . تشتري به طعاماً ، عند الله هو طيِّب . وإذا أكلت طعاماً طيِّباً حلالاً من كسب مشروع ، خالٍ من الكذب ، والغِش ، والتدليس ، والاحتِكار ، ليس فيه تغيير مُواصفات ، ولا إيهام ، ولا حلْف كاذب ، إذا كان الأصل حلالاً ـ مادةً وطريقةً ـ طيّباً ؛ عِنْدئذٍ قد طاب مطْعَمك وتَكُون مسْتَجاب الدعوة .

رُوي أن سفيان الثوري كان يتحرّى الحلال من الرزق ، حتى كان أولاده يُعانون من الفقر فجاءه رجل موسِر بِصُرّة مالٍ وقال له : إن هذا مالٌ حلال ورجاه أن يقبله منه فقبله سفيان ، وبعد قليل ردّ المال إلى صاحِبه فقال أحد أبناء سفيان لأبيه : يا أبتِ أليس لك أولاد بحاجة إلى هذا المال ؟ فقال له سفيان : أتُريد أن تأكل وتتنعّم وأبوك يُسْأل عنه يوم القِيامة ؟

أكاد أقول : إن تِسْعة أعشار الدين أن يكون الرزق حلالاً . فأيُّ

كسْبٍ للمال ؛ المادة التي نتعامل بها مشروعة ، والحديثُ فيه صِدق ، ووفاء بِالوعد ، ودِقة للسعر ، ونصيحة للمشتري ، ولا تدليس ، ولا غِش ، ولا كذب ، ولاحتِيال ، ولا مُبالغة ، ولا تغيير مواصفات ، وكل شيء مشروع هذا كله صيَّر المال الذي تكسِبه مالاً حلالاً ، وينفعك نفعاً لا حدود له ، ويُبارِك الله لك فيه برَكَةً ما بعدها بَرَكة .

هناك أدب آخر ، ذكر بعض العلماء أن من أدب هذا الاسم أنّه إذا أتاك الغَداء أن تشاهد المُنعِم من خلال النِّعمة ؛ فكلنا نأكل لكن إذا جلس الإنسان لِيأكل ورأى كأس شاي : من خلق الشاي بِهذا الطعم الطيّب ؟ ومن خلق السكر ؟ ومن جعل الماء صافِياً ؟ ومن خلق النار نوقِدها لِتَحضير الشاي ؟ فهذا الخبز : من خَلَق القمح ؟ وهذا الجُبن ، وهذا اللبن ، وهذا الزيتون من خلقه ؟ ؛ شجرة مُباركة . أكلتَ أرزاً من خلق هذا المحصول ؟ أكلتَ فاكهةً ، فمن الذي أنعم بها ؟ والمؤمن دائماً لا يرى حين جلوسه إلى المائدة إلا نِعمة الله ؛ وهذا شعور راقٍ جداً ، ولذلك يبدأ الإنسان بِالبَسملة ، ويحمد الله على هذا الطعام الذي خلقه الله له وزوَّده به ، فإذا انتهى توسّل بحمد الله أن يديم النّعم عليه .

أحياناً : الإنسان ، المئة ألف ليرة لا تساوي عنده رغيفَ خبز ، فالإنسان أساس حياته الطعام والشراب ؛ فإذا حُرِمَهما وكان معه المال الوفير فهذا لا يساوي عنده ولا شيئاً . إذا كان الإنسان في الصحراء وكاد يموت جوعاً حانت منه التِفاتة فرأى بِركَة ماءٍ عن بُعدٍ فأشرق في نفسه نور الأمل ، فلما وصل إليها شرب حتى اِرتوى . ثم حانت منه اِلتِفاتة فإذا بِكيسٍ مملوء ، كاد يفقد عقله من شدة فَرَحه ، ظن أن فيه

خبزاً ، فلما فتحه لم يجد فيه إلاّ لآلئًا فصاح واأسفاه هذه لآلىء! إذْ إنه كان يتمنى الخبز . فاللؤلؤ بالمدينة له قيمة أما إذا كان بالصحراء وكاد يموت عطشاً ؟ ، فكأس الماء لا يعدِلُهُ شيء حتى إن الواعظَ ابن السمَّاك قال لهارون الرشيد : يا أمير المؤمنين بِكم تشتري هذا الكأس من الماء إذا مُنِع عنك ؟ قال : بِنصف ملكي قال : فإذا مُنِع عنك إخراجه ؟ قال : بِنِصف ملكي الآخر . فهناك نِعم تبدو بسيطة لا أحد يعرف قيمتها ؛ فهناك ماء تشربه ، وهذا الماء يخرج فضلات بِيُسرٍ بِلا انحِباس . وهناك طعام تأكله ، وهذا الطعام تتمثَّله ويخرج بِلا انحِباس ، فتَلَقِّي الطعام والشراب ، وخروج الطعام والشراب بيسر هذه نِعمة لا يعرِفها إلا من فقدها .

إذاً : من أدب هذا الاسم ؛ أنه إذا أُتِيَ لك بِغداء تشهد المقيت الواسع ، ومتى عَشِقَتْ روحُك المقيت فَنِيْتَ في أنواره ، واجتَهدْتَ في أذكاره ، فتَأكل الطعام ويتجلّى لك واسِع الإكرام .

النبي ﷺ علّمنا أن نأكل بِبُطء وأن نأكل ونذكر الله مع الأكل . لأنَّ الإنسان إذا ذكر الله وهو يأكل شكر نِعَمه العظيمة ، أحياناً يشتهي الغني أن يأكل طعاماً إذ يرى أفقر الناس هم الذين يأكلونه ، إذا أُصيب شخص بِالتهاب المفاصل مُنِع من أكل الحمص والفول ، وبعض أنواع اللحوم عِندئذٍ يرى صحن الحمص أثمن صحن في الطعام ، فَحِينما يُمنع ، يشتهيه . لذلك عندما يأكل الإنسان دون قيود فليشكر ؛ فهذه نِعمة لا يعرفها إلا من فقدها .

فالمؤمن إذا جلس ليأكل ينتقل من النعمة إلى المُنعِم ، ومن القوت إلى المقيت . ومن هذا الإكرام إلى المُكرِم .

من التخلّق بِهذا الاسم الكريم ؛ ألا تطلب حوائجك إلا من الله تعالى ، لأنَّ خزائن الأرزاق بِيَدِه . فعلى الإنسان أن يسأل ربه حاجته كلها فهناك أشخاص تهون عليهم نفوسهم ، ويبذلون ماء وجوههم لغير الله عزّ وجل لكنَّ المؤمن لا يسأل إلاّ الله عز وجل .

وفي الإسرائيليات أن موسى عليه الصلاة والسلام قال : يا رب! إنه ليعرض لي الحاجة من الدنيا فأستحي أن أسألك ، قال : سلني حتى ملح عجينك وعلف حمارك .

فأول أدب من اسم المقيت أن تتحرى الحلال الطيّب ، والأدب الثاني ؛ أن تنتقل من القوت إلى المقيت ، ومن النعمة إلى المُنعِم ، والأدب الثالث ؛ ألا تسأل حاجتك إلا الله تعالى .

بعض العلماء يذكرون أنواعاً من القوت ؛ منهم من جعل اللهُ قوتَه في المطعومات ؛ فهذا يعيش لِيأكل . حياتُه كلها طعام وشراب . ومنهم من جعل اللهُ قوتَه في الطاعات وهمّه طاعة الله عز وجل . ومنهم من جعل اللهُ همّه وقوتَه في المكاشفات والمشاهدات . فهناك إنسان يأكل ، وآخر يُطيع ، وآخر يُقْبِل ، فالإقبال قوت ، والطاعة قوت ، والطعام قوت . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « **أبيت يطعِمني ربي ويسقيني** » [متفق عليه] . لكنه طعام من نوع آخر . بِرَبِّكم هناك جلسات ـ وأنا أعرف ذلك ـ مباركة وطيِّبة وفيها تجلّ تنصرف منها وأنت منتَعِش ، وأنت في أعلى درجات السعادة فهذا قوت . قال عليه الصلاة والسلام : « **لا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إلا حَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ** » . [رواه مسلم] .

فهذه الجلسات التي فيها ذكر الله وفيها صفاء وإخلاص وتواضع هي من القوت الذي ذكره بعض العلماء .

قال بعض العلماء : « **القوت ذِكْر الحيّ الذي لا يموت** » ، وعلماء آخرون قالوا : « **إن الله جعل أقوات عِباده وخلقه مختلفة ؛ منهم من جعل قوته الأطعمة والأشربة على اختِلاف أنواعها ، وهم الآدميون وبعض الحيوانات . ومنهم من جعل قوته الطاعة والتسبيح وهم الملائكة . ومنهم من جعل قوته المعاني والمعارف وهؤلاء هم أولو الألباب ، وفي العقل نِظام يجمع المحاسن كلها** » .

بقي أن نعلم أنّ العبد إذا اشتغل بِطاعة الله عزّ وجل ، سَخَّر له من يعينه على تأمين حوائجه كلها . وأما من شُغِل بِشهواته ، أوْكَله الله إلى ذاته . فالإنسان المشغول بِذِكر الله عز وجل قوتُه موفور وحاجاته مُيَسّرة . وهم في مساجدهم والله في حوائجهم ، وأما الذي يشتغِل بِشهواته ، فإن الله يَكِله إلى ذاته ـ والإنسان ضعيف ـ وعندئذٍ يقع في حَيْرة وشُغلٍ وعناء ، يقول عليه الصلاة والسلام في بعض أدعيته :

« **اللهم اجعل رِزق آل محمد قوتاً** » وفي رواية : كفافاً .

[متفق عليه]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ** » . [رواه أبو داود] .

فأكبر إثم ؛ أن تُضَيّع أولادك ، وأن تضَيّع نفوسهم ، فلا تُعَرّفهم بِربهم وأن تُضَيّع أجسادهم فتُهْمِل إطعامهم وكِسْوتهم ومُعالَجتهم ، فالعِناية بِالأولاد من أجَلّ العِبادات ؛ « **كفى بالمرء إثماً أن يُضَيّع من يقوت** » ، و« **اللهم اجعل رِزق آل محمدٍ كفافاً** » .

أيها القراء الكرام : كل يوم ثلاث وَجْبات وعندها تعرّف إلى المقيت ولا تشغلنّك القوّة عن المقيت ، وبِكل مجلِس علم هناك مقيت ، أنت في البيت تأكل الطعام والشراب ؛ يجب أن ترى أن هذه مائدة الله عزّ وجل . والأكمل أن تُفَكّر في كل أنواع الطعام ، كيف خُلِقت ؟ وكيف نَمَت ؟ وكيف طُبِخت ؟ وكيف عولِجت ؟ فَيَجِب أن تعبّر النِّعمة عن المُنعِم ، والقوت عن المقيت .

وإذا دخلت المسجد ؛ فَهُناك قوت آخر . العِلم قوت القلوب والاتصال بالله قوت ، والعمل الصالح قوت . فالله عزّ وجل يُقيت الأشباح بِالطعام ، ويُقيت الأرواح بالعلم والمعرفة ونحن عالَةٌ على المقيت جلّ جلاله ، خَلقنا وخلق لِهذا الفَم ما يملؤه ، وخلق أنفسنا وخلق لِهذه الأنفسِ ما يُسْعِدها ، فَنحن بين لذّة الطعام ، ولذّة القُرب من الله عزّ وجل . وهذا الاسم المقيت يدور مع الإنسان مادام حياً . لذلك كان النبي ﷺ يعظُم النِّعمة وإن دقَّت ، وكلما عرفت اسم المقيت تحترِم هذه النِّعمة التي بين يديك ، وروي أنه رأى كسرة ملقاة فأخذها فمسحها ثم أكلها ثم قال : يا عائشة أكرمي كريمك فإنها ما نفرت عن قوم فعادت إليهم ، وقال تعالى :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

وقال تعالى :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

فإن الخلق عاجِزون عن إحصائها ؛ فَلأن تكونوا عاجزين عن شكرِها من باب أولى لأن الإحصاء سهل ، فَلَو جاءتك مئة هدِية في

مناسبة وِلادة ، جلوسك ربع ساعة يكفيك لِكتابة كل ما جاءك من هدايا ، أما أن ترد كل هدية بِثَمنٍ يُقابِلها ؛ فهذه تحتاجِ إلى جهدٍ كبير . فالله عزّ وجل أشار إلى أننا عاجِزون عن إحصاء النِّعم ، بل إننا عاجِزون عن إحصاء نِعمةٍ واحدة ، فلأَن نكون عاجِزين عن شكرِها من باب أولى .

* * *

الجَلِيلُ

الاسم هو الجليل ، أكثر الإخوة المؤمنين ؛ إذا قالوا الله ، قالوا بعدها جل جلاله . وذلك من أدب المؤمنين مع ربّهم وسلامة فطرتهم ، وفي اللغة : جَلَّ يَجِلُّ أيْ عظم قدره ؛ والجليل من له الجلالة والعِزّ والغنى والنزاهة ، والجليل : هو العظيم الذي يتنزه عما لا يليق به . والجليل : كاشف للقلوب عن أوصاف جلاله فقد يكشف قلب المؤمن بِإذن الله عن بعض أوصاف جلال الله ، فهو سبحانه يكشف للقلوب المنيبة بعض أوصاف جلاله ، ويكشف للأسرار بعض نعوت جماله . وكل ما في العالم من جلال وكمال وحسنٍ وبهاء ؛ فهو من أنوار ذاته ، وآثار صِفاته . كلمة جلّ جلاله : أيْ عظم قدره وتنزّه عما لا يليق به .

وقال بعض العلماء : « الجليل : هو المستَحِق للأمر والنهي ، فهو وحده الذي يأمر وينهى ، هو الذي يُشرِّع . والجليل : هو الذي يصغُر دونه كل جليل ، ويتّضِعُ معه كل رفيع .

وقيل : الجليل الذي جلّ قدره في قلب العارف بالله . الجليل : هو الذي جلّ قدره في قلوب العارفين فلو شققتَ على قلب المؤمن

لرأيت فيه تعظيماً لله لا حدود له وخشيةً لله لا حدود لها ولقد عظم خطره في قلوب المحبين يعني :

لو قال تِيهاً قف على جمر الغضا لـوقفـتُ ممتَثِـلاً ولـم أتـوقـفِ
أو كان من يرضى بِخَدِّيَ مَوطِئاً لَـوَضَعْتـهُ أرضـاً ولـم أسْتنكـف

هذا إذا كان إنسانٌ يحب مخلوقاً ، فكيف إذا كان المحب محباً لله عز وجل ؟ قال العلماء : هو الذي جلّ قدره في قلوب العارفين ، وعظم خطره في نفوس المحبين ، الجليل هو المستحق للأمر والنهي الذي يصغر دونه كل جليل ، ويتَّضع معه كل رفيع ، كاشف الأسرار بِنعوت جماله .

والجليل هو الذي جل في علوّ صفاته ، وتعذّر بِكِبرِيائه أن يُعرَف كمال جلاله ؛ فَعَظَمته أعظم من أن تُعرف ، أو أن يُحاط بها . أحياناً تلتَقي بِإنسان عِدّة لِقاءات فتكشِف بها كل جوانبه ، وتسْتَوعِب كل إمكاناته لكن لا يمكن لِمخلوقٍ أن يحيط بِقدْر الله عز وجل . ولقد تحدّث بعض الأئمة عن الفرق بين الجليل ، والكبير ، والعظيم .

فذَكر العلماء « أن الجليل : هو الموصوف بِنُعوت الجلال ونعوت الجلال : الغِنى ، والمُلك ، والتقديس ، والعلم ، والقدرة » ، فهُناك بعض الصُفات تُحدِث في النفس تعظيماً . الجليل : هو الموصوف بِنعوت الجلال ، والجامع لِصفاتها جميعها ، وهو الجليل المطلق ، والجليل المطلق هو الله تعالى . والكبير : هو الذي يرجع في صفاته إلى كمال الذات . فهناك كمال للذات وكمال للصفات ، مجموع الصفات التي ترتبط بِكمال الذات : الكبير . ومجموع الصفات التي تتعلق بِكمال الصفات : الجليل . وأما العظيم : فهو الذي جمع

صفات كمال الذات ، وصفات كمال الأفعال .

إنّ الإنسان حينما يذكر الله سبحانه وتعالى يحب أن يُعَبِّر عن تعظيمه له ، فكان هذا الاسم جل جلاله حيث ما ذُكِر اسم الله العَلَم على الذات ، يُذكر بعد اسم الذات ، أي يقول المؤمن بعد اسم العَلم على الذات كلمة الجليل أو كلمة جلّ جلاله .

حينما يُدْرِك الإنسان الصِّفات الظاهرة بِعَيْنِه فهذا هو البصر ؛ بِبَصَرك تدرك الجمال الظاهر ، وبِبَصيرتك تُدْرك الجمال الباطن . أحياناً تستمتِع بفِعلٍ كامل ؛ هو في حدِّ ذاته جميل والجمال ليس متعلِّقاً بِالنواحي المادِّية فَحَسْب ، بل قد يمتدّ إلى النواحي المعنوية ، فالمَوقِف الكامل ، هو من زاوية موقِفٌ كاملٌ ومن زاوية أخرى هو موقِفٌ جميل . تقول : فُلان يتمتَّع بِجمال الخُلق . لذلك قال بعض العلماء : إن صِفات الحق أقسام ؛ صِفات الجلال وهي العظمة والعِزّة والكِبرياء والتقديس ، وكلها ترجِع إلى معنى الجليل ، وصِفات الجمال ؛ وهي صِفات اللُّطف والكرم والحنان والعَفْو والإحسان ؛ وهذه هي صِفات الجمال .

إذا اجتمعت ببعض من ذهبوا لأداء فريضة الحج يقولون لك : كنت وأنا في مكة المكرَّمة أشعُر بِالجلال ، فإذا ذهبت إلى المدينة المنوَّرة أشعر بِالجمال ، فهناك صِفات الجلال ، وصِفات الكمال . صِفات الجلال ؛ صِفات العظمة والعِزّة والكِبرياء والتقديس ، كلها ترجع إلى معنى الجليل . وصِفات الجمال ؛ هي صفات اللُّطف ، والكرم ، والحنان ، والعَفْو ، والإحسان ، وكلها ترجع إلى معنى الجميل .

يقول بعض العلماء : صِفات الكمال هي الأوصاف الذاتية التي دونها جميع العقول والأرواح ، مثل اسمه القدوس ، وصِفات ظاهرها جمال وباطِنها جلال مثل اسم المُعطي المُنعم ، وصِفات ظاهرها جلال وباطِنها جمال مثل اسم النافع والضار ، سأُوَضّح هذا بِالتفصيل :

إن الإنسان إذا أخذ من عطاء الله ولم يستَقِم على أمر الله ، ولم يُوَظِّف هذا العطاء في الحق فوراء هذا جلال ، أي قد يكون هناك عِقاب ، أو شيء يدعو إلى الخوف . وهناك صِفات ظاهرها جلال ، وباطِنها جمال ؛ أحياناً يوقِع ربنا الضَّرر بإنسان لكن هذا الضرر ينتهي به إلى التوبة ، والإقبال على الله . فالله سبحانه وتعالى له صِفات جلال ، وله صِفات جمال ، وله صِفات ظاهرها جلال وباطِنها جمال ، فإذا أعطاك فهذا شيء جميل ، لكن إذا لم يكن مع هذا العطاء استِقامة سيكون بعد هذا العطاء تأديب . فيأتي الجمال أولاً والجلال ثانياً . أما إذا جاء التأديب فالإنسان يخاف ، ويشعر بِالرهبة ، وأنّ الله تعالى كبير ، وأنه ينبغي أن يُرْهَب جانِبه ، وبعد هذه الرهبة يأتي الجمال .

لذلك قالوا : حينما نقول الضار النافع ، والمعطي المانع ، والخافض الرافع ، والمعز المذل ؛ هذه الأسماء ينبغي أن تُذكر معاً لأن الله سبحانه وتعالى لا يضر إلا لِيَنْفع ، ولا يأخذ إلا لِيُعطي كما كان الإمام الثوري يقول : « **إن هذه الدنيا دار اِلْتِواء لا دار استِواء ، ومنزل تَرَحٍ لا منزل فرح ، فمن عرفها لم يفرح لِرخاء ولم يحزن لِشقاء ، قدْ جعلها دار بلوى ، وجعل الآخرةَ دارَ عقبى ، فجعل بلاء**

الدنيا لِعطاء الآخرة سبباً ، وجعل عطاء الآخرة من بَلْوى الدنيا عِوَضاً فَيأخذ لِيُعطي ، ويبتَلي لِيَجزي » .

يجب أن تعتقد كما ورد في القرآن الكريم أن أسماء الله تعالى كلها حُسنى ، حتى اسم الجبّار ، القهار المنتقم هي أسماء لله حُسنى ، لو عرفْت حقيقتها لَذابت نفسك محبّةً لله عز وجل لكن هناك أسماء متعلِّقة بالجلال وأخرى بِالجمال ، وهناك أسماء ظاهرها جلال وباطِنها جمال ، وله أسماء ظاهرها جمال وباطِنها جلال والعكس .

يقول بعض العلماء : **« الجليل هو المستحق لأوصاف العُلُوِّ والرِّفعة . »** ويقول بعض العلماء : **« واعْلَم أنه تعالى يُكاشِف القلوب مرَّةً بوَصف جلاله »** فَأحْياناً يشعر الإنسان بِحالٍ طيِّبة وسُرور وانْطِلاق وبِفَرْحة ؛ فالله جل جلاله يتجلّى عليه باسم الجميل . وأحياناً يشعر بالخوف والقلق على مصيره هل له عند الله المكانة التي يتمناها ؟ وهل عملُه كما يُرضي الله عز وجل ؟ وهل نياته على النحو الذي يرضى الله عنه ؟ .

أحياناً يقع الإنسان في موقف أقرب إلى الخَشْية منه إلى الطُّمأنينة ، فإذا تجلى الله على الإنسان بِاسم الجليل امتلأ القلب خَشْيَةً . وإذا تجلى الله على عبده باسم الجميل امتلأ القلب فرحةً ، وربنا عز وجل يُقلِّب هذا القلب البشري بين الخشية والطُّمأنينة ، إن ازدادت طمأنينته يُخيفُه ، وإن ازداد خوفه يُطَمْئنه ، قال تعالى :

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور : ٢١] .

هناك منهج وكِتاب مبارك وسنة وهناك آيات تدل على عظمة الله ،

كل هذا شيء طبيعي ، ولكن لولا أن الله يتولى بِمُعالجة القلب باستمرار لما زكا من عباده من أحدٍ أبداً قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

كل إنسان قريب من الله ، يدرك أنه إذا بدرت منه . كلمة تدل على اعتِداد بِالنفس فبعدها تأديب الله تعالى ، وإذا بدرت منه كلمة تدل على افتِقار إلى الله فبعدها عطاء ، فالمُفتَقِر إلى الله يَنْعُم باسم الجميل . وبعض الصحابة قالوا : لن نُغلب من قِلَّة قال تعالى :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥] .

فعلى الإنسان أن يُراقب قلبه ، فليس الإنسان عقْلاً وحده ، ولا قلباً وحده ، فالعقل غِذاؤه العلم ، والقلب غِذاؤه الذِّكر والحب ، فَالإنسان إذا شعر أن قناعاته قويَّة ، واطمِئنانه بالله زاد على الحد المعقول فإن الله جل جلاله يتجلى باسمه الجليل فَيَخاف وحينما يزداد خوفه إلى درجة قد يُقعِده الخوف عن متابعة الطريق ، يتجلى الله عليه باسم الجميل . وما سُمِّيَ الحال حالاً إلا لأنه يحول ويزول والإنسان يتقلب في الحال الواحد كما قال بعضهم : المنافق يثبت على حالٍ واحدة أربعين عاماً ، على حين أن المؤمن من شدَّة خشيته ، وشدة حِرصِه ، على طاعة ربه ، وقَلَقِه على مصيره عند ربه ، يتقلب في اليوم الواحد أربعين حالاً .

مُلَخَّص هذا الكلام ؛ أن هناك صِفات لله عزّ وجل ترجع إلى العظمة والقوة والقداسة والغِنى ؛ هذه الصفات يجمعها اسم الجليل .

وهناك صِفات كالرحمة والإحسان واللُّطف والعفوِ والكَرَم ؛ فَهَذه الصفات يجمعها اسم الجميل . والإنسان بين جمال الله وبين جلاله . بين الخوف والترقب ، وبين الطمأنينة والبِشر ، وعلى الإنسان أن يتأدب مع الله عز وجل ، لا يحمله حاله مع الله على أن يتساهل لا بِأقواله ولا بِأفعاله ، وينبغي ألا يحمله اسم الجليل الذي يرهبُه على أن يتراجع أو ينكمش ويقنط ، فالبُطولة أن تجمع بين الخوف والرجاء .

قال بعض العلماء : « **اسم الجليل يُحْتَمَل أن يكونَ بِمعنى المُفْعِل ؛ الجليل : الذي يجل المؤمنين ويُكَرِّمهم . فالمؤمن مُكَرَّم ، أحياناً تجد إنساناً مُهاناً معذّباً خنوعاً ذليلاً يُخْرِجه الله إلى أتعسِ خلقه وأشقاهم ، ألم يقل الإمام علي كرّم الله وجهه : « والله والله مرتين لَحَفْرُ بئرين بِإبْرَتين ، وكنس أرض الحجاز في يوم عاصِفٍ بِريشَتَين ، ونقل بحرين زاخِرين بِمِنخَلين ، وغسْل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين ، أهون عليَّ من طلب حاجة من لئيم لِوَفاء دَين** » .

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى :

لقلعُ ضِرسٍ وَضَربُ حَبسِ وَنَزعُ نَفسٍ وَرَدُّ أَمسِ
وَقَرُّ بَردٍ وَقَودُ فَردٍ وَدَبغُ جِلدٍ بِغَيرِ شَمسِ
وَأَكلُ ضَبٍّ وَصَيدُ دُبٍّ وَصَرفُ حَبٍّ بِأَرضِ خَرسِ
وَنَفخُ نارٍ وَحَملُ عارٍ وَبَيعُ دارٍ بِرُبعِ فِلسِ
وَبَيعُ خُفٍّ وَعَدمُ إِلفٍ وَضَربُ إِلفٍ بِحَبلِ قَلسِ
أَهوَنُ مِن وَقفَةِ الحُرِّ يَرجو نَوالاً بِبابِ نَحسِ

فالله عز وجل قد يُحْوِج الإنسان أحياناً لِعَبْد لئيم فيردّه ويقنطه هذا اللئيم ليعرف إحسان ربّه إليه . « **سُئِل الإمام علي كرّم الله وجهه : ما الذلّ ؟ قال : أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يردّه** » فالله اسمه الجليل . أي يُجِل المؤمن على أن يُحْوِجه إلى لَئيم ألم يقل الله عز وجل :

﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ١٤١] .

هؤلاء الأشخاص الشريرون ، هؤلاء عِصيٌّ بيد الله عز وجل يسلِّطهم على من يشاء من عِباده ، والآية الكريمة :

﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٥-٥٦] .

لذلك قلت مرة : هؤلاء الذين يُذَلون ويُسْحَقون ، ويسوق الله لهم من الشدائد ما لا يطيقون ، هم في الغالب هان أمر الله عليهم ، فَهانوا على الله . وإذا أردت أن تعرف ما لك عند الله ، فانظر ما لله عندك ، هل أمر الله عندك عظيم ؟

حدثني أخ كان في بلدٍ من البلدان الأوروبية الشرقية ، وخرج من الفندق لِيَلْتَحق بالمطار الساعة الثانية بعد منتصف الليل وكان الفصل شتاءً قارساً ، والثلج يزيد على مترين ، الشيء الذي لا يصدق أنه رأى رتْلاً من الأشخاص يزيد طوله على خمسمئة متر وكان هؤلاء واقفين ينتظرون أن يُوَزّع عليهم اللحم غداً الساعة الثامنة ؛ من الساعة الثانية ليلاً إلى الساعة الثامنة صباحًا وكل هذا من أجل أن يأخذوا قطعة لحم صغيرة يأكلونها مع أسَرِهم ، فأحياناً تجد إنساناً مقهوراً ومعذّباً ومُهاناً وذليلاً ومصيره بِيَد عدوٍّ له ويتفنَّن بِإيقاع الأذى بِه . فماذا نقول ؟

نقول : الله جليل : أي يجل المؤمن من أن يُذيقه هذا العذاب ، ومن أن يُحوجه إلى لَئيم ؛ ومن دعاء عليٍّ رضي الله عنه في هذا المقام :

« اللهم صُن وُجوهنا بِاليسار ولا تبذِلها بِالإقتار ، فَنَسْأل شر خلقِك ، ونُبْتلى بِحَمد من أعطى ، وذم من منع ، وأنت من فوقهم وليّ العطاء ، وبِيَدك وحدك خزائن الأرض والسماء » .

فأوّل معنى من المعنى اللغوي لاسم الجليل : هو المُفْعِل : أي يُجِلّ المؤمن عن أن يُذِلَّه ، أو عن أن يقهره وعن أن يُحْوِجه إلى لئيم ، فالله جليل وإذا كنت مع الله فَلَكَ العِزّ ، ولك الكرامة لأنه يُجِلّ المؤمنين ويعظمهم ويكرمهم ، وأرجو الله أن أوضِّح للقراء الكرام هذه الحقيقة ، المؤمن غالٍ على الله وليس بِهَيِّن ، وحياته مقدّسة ، وعمله مقدّس ، وحركاته وسكناته في حِفظ الله ويكفينا قوله تعالى :

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال : ١٩] .

﴿أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة : ١٢٣] .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

وهذه المعيّة الخاصة التي تعني : النصر والتأييد والحِفظ والتوفيق . بِصراحَة : فللمؤمن خصوصية من الله عز وجل ؛ وَمِن كمال تربيته أن يجعل للمؤمن خصوصية ؛ وهي خصوصية النصر والتأييد والنصر والحِفظ والطمأنينة ، قال تعالى :

﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام : ٨١ـ ٨٢] .

النبي عليه الصلاة والسلام في مرضِه أعطيَ دواء ذات الجنب فقال : **« كنتم ترون أن الله كان يسلط عليَّ ذات الجنب ؟ ما كان الله**

ليجعل لها عليَّ سلطاناً » ، وهذا من إحسان الظنّ بربّه ، فالمؤمن لا يتألى على الله ولكنه يُحسن الظن بالله . والتألي على الله موضوع آخر . مثلاً هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله ، فهذا تألٍ على الله . أن تقول فُلان مصيره إلى الجنة من غير العشرة المبشَّرين هذا تألٍ على الله . نحن نرجو له الجنة . فأكبر إنسان ليس ممن شهد لهم النبي ﷺ بِالجنة . نقول : نرجو له الجنة . فالرجاء هو الأدب . أما أن تقول : هو في الجنة ، أو هو في النار ، فَمن أنت ؟ أنت عبد والتألي على الله ليس من خلق المؤمن ، ولكن من أخلاق المؤمن أن يدعُوَ لإخوانه بِالمغفرة ، والجنة . قبل أن ننتقل من هذه الصفة بِمعنى المُفْعِل ، الجليل بِمعنى المُجِلّ أي : يُجِلّ المؤمن ، ويرفع مقامه نقف عند قول الله بحقّ نبيّه ﷺ ، ألم يقل الله عز وجل :

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : ٤] .

فالله يرفع اسم المؤمن عالِياً . المؤمن متألّق . وكل حظوظ النفس حِيادِية ، فَلَك أن ترتفِع بالباطل ، والقهر ، وبالقوة ، والاستِعلاء ، والغِنى ، ولك أن ترتفع بالكمال ، كلاهما رِفْعَة ، ولكن رِفعة الدنيا آيلة إلى زوال ، ولكن رِفعة الكمال إلى استِمرار . فالقوي مرهوب الجانب ، ويخافه الناس لكنه يخافونه مادام حياً ، أما إذا مات فإن اللعَنات تأتيه من كل جانب إذا كان يُؤذي العِباد . مثلا تجد معلِّماً قاسياً جداً . طلاب الصف كلهم يخافونه طوال السنة الدراسية ، أما حينما ينتهي العام الدراسي ، وينصرف الطلاب فإنهم يسخرون منه . قال الحكماء : الأقوِياء ملكوا الرِّقاب ، والأنبِياء ملكوا القلوب . وأنت بِقوتك تملك رِقاب الناس ، ولكن بِكمالك تملك قلوبهم . مُلك الرِّقاب يزول ، ولكن ملك القلوب لا يزول . أوضح مثل أن

تذهب إلى المدينة المنورة ، وانظر هؤلاء الناس الذين جاؤوا من كل حدب وصوب ، يقفون أمام رسول الله ﷺ بكل أدبٍ وحُبٍّ وبكاء وما عرفوه وما رأوه وما نالوا من عطاء الدنيا منه شيئاً .

فَلِذلك الأنبياء ملكوا القلوب وملكوها مُلْكاً مستَمِراً . والأقوياء ملكوا الرّقاب وملكوها زمناً مؤقتاً ، فَبِهذا الاسم يشعر الإنسان بالطمأنينة قال تعالى :

﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٥ـ٥٦] .

قال العلماء : والجليل : بِمعنى المَفْعول ، كيف أنه مفعول ؟ أيْ ينبغي أن يَعْتَرف العاقل بِجلاله ، وكِبرِيائه ، وعظمته وقدسِيَّته ، وتنزهه عن كل ما لا يليق به ، فالعاقِل يجب أن يقول جلَّ جلاله ، وعزَّ نواله ، بِمعنى المفعول أي المجلّ المعزّ .

وهناك معنى ثالث في اللغة : بِمعنى فَاعِل ، الجليل أيْ هو الموصوف بِالجلال ، فَإما أنه موصوف بِالجلال فهو فاعل ، أو يجب أن يُجَل فهو المفعول ، أو بِمعنى مُفْعِل يُجلّ المؤمنين ، ويرفع قدرهم ، والله عز وجل إذا أحب عبداً ألقى محبَّته في قلوب الخلق .

يُنادى له في الكون أَنَّا نحِبُّه فَيَسْمع من في الكون أمر مُحِبِّنا ولتعلمْ يقينًا أنه إذا أحبَّك الله جل جلاله ، سَخَّر عدوَّك اللدود لِخِدمتِك . وإذا غضِب الله على إنسان ، أَلْهَم أقرب الناس إليه بِالتَّنَكُّرِ له . زوجته تتنكَّر له وابنه الذي من صُلْبه قد يضربه . إذا أحب الله عبداً ، ألقى حبَّه في قلوب الخلق . والإنسان لا يُعَلِّق أمله لا بِزوجتِه ولا بِوَلَده ولا بِمخلوق ، لو كنت متخِذاً من العِباد خليلاً لكان أبو بكرٍ

خليلي ؛ ولكن أخ ، وصاحب في الله . وهذا هو التوحيد ، أحياناً تجد أباً يُعَلِّق كل آماله بِابنه ، ثمّ لا يكون من هذا الابن إلا أن يذهب إلى بلدٍ أجنبي وينال جنسية ذلك البلد ، ويتزوّج بِأجنبيّة ، ويقطع علاقته بوالِدِه ، وقد يُغَيِّر دينه ، وقد لا يستقبل أباه إن زاره ، لذلك على الإنسان أن يعلِّق كامل ثقته بالله .

اسم الجليل لم يرِد في القرآن الكريم ، لكن مادته وردت ، قال تعالى في سورة الرحمن :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦-٢٧] .

طبْعاً يبقى وجه الله ويفنى ما سواه ؛ الوجه من الذات إذاً هو سبحانه ذو الجلال والإكرام ، وكذلك ورد في خِتام السورة في آخر آية منها :

﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٧٨] .

أكرّر ؛ لم يرد اسم الجليل في القرآن الكريم إطلاقاً ، وإنما وردت مادته في سورة الرحمن في أولها وفي خِتامها .

هل يُقال لِفُلان جليل القَدْر ؟ نعم لا يمنع أن نقول هذا وتقول : فلان له قدر جليل وفلان جليل القدر ، قال العلماء : يُقال هذا لمن حسُنت صفاته الباطِنة التي تستَلِذها القلوب أما الصفات الظاهرة فهي أقل قدراً ، فمن حسنت صِفاته الباطنة ؛ تجد هناك أدباً ، وحِلماً ، ورحمةً ، وإنصافاً ، وتواضعاً ، وغيرةً ، ومؤاثرةً ، يمكن أن نصفه بأنه جليل القدر .

في الأثر : تخلَّقوا بِكمالات الله ، فالله عز وجل جليل ، فإذا كنت مستقيماً وترفَّعت عن النقائص ، وعن اللغو ، وعن كثرة المزاح ،

وعن سفساف الأمور صِرت في نظر الناس جليلاً ، يقولون : الأستاذ الجليل كما يُقال ، وكذلك الأخ الكريم . فالإنسان حينما يترفع عن السفساف ، وصغائر الأمور وعن الدنيا الدنية وعن حظوظهِ الدنيوية ، وعن القيل والقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، وعن الجزئيات . وعن إضاعة الوقت ؛ مِثل هذا الإنسان له قدر عند الناس جليل ، فَمِن باب تخلقوا بكمالات الله يمكن أن تكون كاملاً ، والكمال يجلب لك مكانة عند الله وعند الناس .

الإمام الرازي يقول : « **الجليل من العباد من خلا من العقائد الزائغة الأخلاق والذميمة** » فَعَقَائده صحيحة ، وأخلاقة كاملة . فإذا أُصيب بخلل بِعقيدته لم يصبِح جليلاً ، وإذا كان هناك انحِراف بِسلوكه لم يصبح جليلاً كذلك ، فاستِقامة العقيدة مع استِقامة السلوك ، تجعل الإنسان جليل القدرِ . الحقيقة عندما يكون الإنسان سخيفاً وخفيفاً وثرثاراً ويَحْشُر أنفه في موضوعات لا تعنيه ليس له قدر عند الناس إطلاقاً . أما إذا كان هناك وقار ، واستِقامة ، وضبط للسان ، والجوارح ، واعتِناء بِمظهره ، ودقة بِعَمَلِه ، هذه الصفات الكاملة ترفع قدره ، وتجعله جليلاً في نظر الناس . إذاً براءة الإنسان من العقائد الباطلة والأخلاق الذميمة تجعله جليلاً . واتِّصافه بِالمعارف الحقّة ، والأخلاق الفاضلة تجعله جليلاً .

ومن بعْدُ فها نحن أمام أدب المؤمن مع الجليل : فعليه أن يتحلى بِالكمال لأن الله عز وجل كامل ويحب الكامل ، وهو عفُوّ ويحِب العفو ، وكريم يحب الكريم ، فإذا أردت أن تقترب من الله عزّ وجل ، فاقترِب من صِفاته وأسمائه وتذكر أنه هو الذي أفاض عليك الجمال ، سواء أكان جمال صورة ، أم جمال حِسّ ، أم جمال نفس . والإنسان

إذا حدّثته نفسه بِما لا يليق بالله عز وجل ، وَوَسْوَس له الشيطان شيئاً ، فَلْيَذكُر اسم الجليل . ويجب أن تستحيي من الجليل وأن تستحيي من الله حق الحياء ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : استحيوا من الله حق الحياء قال : قلنا : يانبي الله! إنا لنستحيي والحمد لله ، قال : ليس ذلك ، ولكن **الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى ، وتحفظ البطن وما حوى ، ولتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء .**

ومن لم يكن له ورَعٌ يصدّه عن معصية الله إذا خلا ، لم يعْبَأ الله بِشيءٍ من عمله ، وركعتان من ورِع خير من ألف ركعة من مُخلِّط ، ولا تجعل الله عز وجل أهْوَن الناظرين إليك .

فإذا كان الإنسان يستحي من الضيف ، ويضبط كلامه ، وصوته معتدل ، ويرتدي لِباساً جميلاً ، وبيته مُرَتّب ، فعليه ألا يجعل الله عز وجل أهْوَن الناظرين إليه ، فإذا كان الإنسان بِخَلْوة فلا يتكلم بِكلام غير لائق ، ولا يتبذل إلى درجة غير معقولة بِثِيابه ، ولا يعمل أعمالاً لا تُرضي الله! فَمِن أدب المؤمن مع اسم الجليل ؛ أن يُوَقِّر الجليل في خلوته ، والمؤمن الصادق يشعر دائماً أن الله معه ، وقد ورد في بعض الأحاديث :

مَا الإِحْسَانُ قَالَ : « أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ . . » .

أيها القارىء الكريم : لا يستطيع الإنسان في عُجالَةٍ أن يتحدّث عن اسم الجليل إلا بالقدر الذي سمح الله به لِقوله تعالى :

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

وقوله تعالى :

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء : ٨٥] .

لكن ملخص الملخص : أن هناك مجموعة من صفات الله عز وجل ، تتعلق بعظمته ، وقوته ، وعِلمه ، وقدرته ، وغِناه ، وقدسيَّته ، وهذه المجموعة من الصِّفات ، مجتمعة في اسم الجليل . ومجموعة أخرى متعلِّقة بِرَحمته ، وإحسانه ، ولطفه ، وبِرّه ، وعفوِه ، وعطفِه ؛ وهذه متعلِّقة باسم الجميل . وإذا قلنا إن الله جميل : أي أن البصائر تُدرك جماله . والإنسان إذا كان مع الله ، فالله يُجلّه ، ويُعْلي قدره ، ويرْبَأُ به أن يضعه في الوُحول ، أو أن يُحْوِجه إلى عبدٍ لئيم ، فأنت مع الجليل ، جليل . وأنت مع القوي قوي .

وقد ورد في بعض الأدعية : إلهي كيف نُضام في سلطانك ؟! وكيف نذِلّ في عِزِّك ؟! وكيف نفتقر في غِناك ؟! فحُسن ظنّنا بالله يجعلنا لا نفتقر في غِناك ، ولا نذِل في عِزّك ، ولا نُضام في سلطانك .

وكخلاصة موجزة : الجليل بمعنى المُفْعِل الذي يُجِل . وبِمعنى المفعول الذي ينبغي أن يُجَلّ ، وبِمعنى الفاعل وهو الجليل .

أرجو الله سبحانه وتعالى ، أن تكون هذه الأبحاث ـ أبحاث أسماء الله الحسنى ـ مُنطَلَقاً لنا للإقبال على الله وللاتصال به ، والسعي إلى مرضاته لأن معرفة الله لا يعلو عليها شيء في الحياة ، والمعرفة أصل الدين ، ولقد ذكرت من قبل أن الإنسان إذا عرف الله ، تفانى في طاعته . أما إذا لم يعرِفه وعرف أمره ، تفنَّنَ في التفلُّت من أمره وبين

التفاني والتفنن بَوْن شاسِع ، إذا عرفته تتفانى في طاعته ، وإذا لم تعرفه ، تتفنَّن في التفلّت من أمره .

* * *

المجيب

الاسم هو المجيب ، وفي اللغة : الإجابة والاستِجابة بِمعنى واحد ، قال تعالى :

﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ [الأحقاف : ٣١] .

فالاستجابة والإجابة بِمعنىً واحد ، إلا أن الإجابة فِعلها رباعي ، والاستجابة فِعلها سداسي ؛ أجاب ، أو استجاب . وكلمة مُجيب كاسم من أسماء الله الحُسنى لها معنيان :

ـ المعنى الأول : الإجابة .

ـ المعنى الثاني : أن يُعطي الله السائل مطلوبه .

فإذا سألت إنساناً يُجيبك . وإن سألته حاجةً ، يُعطيك . فإما أن تكون الإجابة بيانيَّةً ، وإما أن تكون الإجابة عطاءً ؛ إجابة بيانيةٌ ، وإجابةُ عطاء ، معنيان من معاني الاستجابة التي وردت كاسم من أسماء الله الحُسنى .

والمجيب في حق الله تعالى : هو الذي يُقابِل مسألة السائلين بالإسعاف ، فأنت في العلاقات الاجتِماعية . لو سألت إنساناً يسمع ويرى ويتمتَّع بِأخلاقٍ عالية لو سألته شيئاً لا بد أن ترى استِجابةً ؛ أو

اعتِذاراً أو ترحيباً أو وَعداً أو بياناً : فالاستِجابة صفة من صِفات الإنسان ، لكنها اسم من أسماء الله الحُسنى ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

لا أُبالِغ إن قلت : إن أكثر ما يحتاج إليه الإنسان في الدين هو الدعاء ، حينما يدعو ربه ، يعلم أنه سميعٌ ، وحينما يدعو ربه يعلم أنه بصير ، وحينما يدعو ربه يعلم أنه قدير ، وحينما يدعو ربه يعلم أنه رحيم ، وحينما يدعو ربه يعلم أنه عفوّ ، فبالدعاء يتوجّه الداعي إلى معانٍ كثيرة ، فأنت حينما تسأل ، تسأل غَنِياً ، وحينما تسأل ، تسأل قوياً . وحينما تسأل ، تسأل رحيماً ، وتسأل مُحِباً . فلو أن هناك شخصاً لا يحبّك لا تسأله ، لو أنه ضعيف لا تسأله ، ولو أنه فقير لا تسأله ، لو أنه عدو لا تسأله ، ولو أنه حاقد لا تسأله ؛ إذاً من تسأل ؟ تسأل من يسمع ، تسأل من يحبك ، تسأل من يقدر على إجابة طلبك ، تسأل من يستجيب لك ، تسأل من يُبْصر حالك . من يعلم ومن يسمع ، وبمُجرّد دعائك لله يعني أنك تعرِفه . والإنسان له إحساس عام . فَأَحياناً يمشي في طريق يسأل عن شخص ، فتَجِده يسأل البقال إذْ يقول هذا الذي يسكن هنا لا بد من أن يتردد على هذا البقال . فأنت لا تسأل إنساناً عابراً في الطريق ، وإنما تسأل بقالاً . مثلاً فرَاقِب نفسك حينما تسأل ؛ تجد أنك تسأل من يعلم ، ومن يبصر ومن يسمع ، والذي يقتَدِر ، والغني ، والرحيم ، المحب ، العفوّ .

فَلِذلك : المجيب اسم من أسماء الله الحُسنى . وزوال الكون

أهون على الله من أن تدْعُوَه فلا يستجيب لك ، ويستجيب لك ، إما أن يُطمئنك ، وإما أن يعطيك ، وإما أن يُلْقي في رَوْعِك أن هذه الحاجة لا تناسِبك قال رسول الله ﷺ :

« إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْراً خَائِبَتَيْنِ » . [رواه الترمذي] .

والمجيب في حق الله تعالى : هو الذي يُقابِل مسألة السائلين بالإسعاف . مثل أضربه لكم كثيراً وأردّدهُ ، لو أنك في زمن الشتاء ، وترتدي ثياباً سميكةً ومُحكمةً ، وتحمل بِيَدك اليمنى حاجةً ويسألك الطفل الصغير كم الساعة ؟ أنت مضطرّ إلى أن تضع حاجتك على الأرض لِتَرى الوقت وتجيبه ، فهذا طِفل صغير يسألك فَتَشعر بِالواجب أن تُجيبه ، وأنت إنسان في قلبك ذرة من الرحمة لا تعدل شيئاً بالنسبة لرحمة الله ولا تستطيع إلا أن تجيبه ؛هو طفلٌ وقد يسألك ترَفاً أو عابثاً ، وعن غير حاجة ، إذا كان فيك أيها الإنسان ولو ذرة كمال لا تستطيع إلا أن تجيب ، فكيف بِخالق الأكوان وبالواحد الديان ؟

لذلك المجيب في حق الله تعالى : هو الذي يُقابِل مسألة السائلين بالإسعاف ، ويقابل دعاء الداعين بِالإجابة ، ويُقابل ضرورة المضطرين بِالكِفاية .

بل إن معنى المجيب يُنْعِم قبل النِّداء ـ وهذا معنى جديد من معاني المجيب ـ الأب الرحيم المقتدر والغني إن رأى ابنه بِحاجة إلى مِعطف في أيام البرد ، هل ينتظر الأب أن يسأله ابنه شِراء هذا المِعطف ؟ يشتريه له ويعطيه إياه قبل أن يسأله . فَمِن معاني المجيب أنه يُنعِم قبل النداء ، ويتفضل قبل الدعاء . ولكن لماذا أحياناً يتأخر العطاء إلى

ما بعد الدعاء ؟ هنا نقطة دقيقة الدلالة جداً مفادها أن الله تعالى يحب أن تدعُوَه ، وأن تلجأ إليه ، وأن تتصل به ، وأن تناجِيَه ، وأن تُمَرِّغ وجهك في أعتابِه ، ويحب أن يُسْعِدك بالاتصال به ؛ فَيَجْعل حاجتك وسيلة لِهدف هو الاتصال والتعبّد . وهذه نقطة مهمة جداً ، قد يُحوِجك إلى شيء ، وقد يخيفك من شيء ، وقد يلوح لك شبح مصيبة من أجل أن تسأله ، وتفزع إليه ، وتتصل به ، وتلوذ بِحِماه ، ومن أجل أن تُصلي وتدعوه ، ومن أجل أن ترجوه ؛ لأنك بهذا الدعاء ، وذاك الاتصال ، وهذا الرجاء تسعد ، وإجابة السائل هي الوسيلة .

إنّ التضرّعُ في الدعاء هو الهدف فأحياناً تمسك بِيَدك حاجةً يحِبها ابنك الصغير وتلوّح بها ، والقصد من هذا أن يأتِي إليك ، فَإتْيانه إليك هو الهدف ، والحاجة هي الوسيلة . فإذا فهِمت على الله قصده في إسعادك رأيت المصائب وسائل والاتصال بالله هو الهدف . فالله خلقك لِيُسعِدك ، وهو تعالى يعلم حاجة المحتاجين قبل سؤالهم ، والدليل : خلقنا وخلق ما نحتاج إليه ، هل تعلم مكوِّنات الحليب ؟ فهي تتوافق توافقاً تاماً مع حاجة الإنسان! وهل تعلم أن مكونات الحِنطة تتوافق توافقاً تاماً مع حاجة الإنسان ؟ وهل تعلم أن جوّ الأرض الطبيعي فهو يتوافق توافقاً تاماً مع حاجة الخلق ؟ وهل تعلم أن حجم الأرض الذي يقتضي لك وزناً في الأرض ، يتوافق توافقاً تاماً مع أنسب حالة تعيشها ؟ الأرض مَلأى بِكل ما تحتاج إليه ؛ فأنت تحتاج إلى معادن تنصهر بِدرجة معيَّنة كالرصاص مئة درجة ، وتحتاج إلى معدن يتمدد عند التبريد من أجل أن تعامل الحديد مع الحجر ، وتحتاج إلى معدن خفيف ومتين من أجل أن تصنع منه بعض الأواني

والأدوات ، وتحتاج إلى معدن ثمين يكون قِيَماً للأشياء . وتحتاج إلى معدن كثيف ومتين كالحديد . فلو درست حاجات البشر كلها لعرفت أن الله علمها ووفَّرها لهم قبل أن يخلقهم . وأنت بِحاجة إلى أزهار تبعث فيك البهجة فَخَلَق لك أنواعاً منها لا يعلمها إلا الله . وبِحاجة إلى مادة تُرمِّم جِسمك ، خلق لك اللحوم والحيوانات التي ذلَّلها لك ؛ فهذا كله قبل أن تسأله . فكِّر في ظاهرة النبات فأنت بِحاجة إلى أن تنظِّف أسنانك ، خلق لك الخلة والسواك . وبِحاجة إلى أن تنظف جِسمك ، فخلق لك اللِّيف الطبيعي . وبِحاجة إلى ظلٍّ ظليل ، فخلق لك أشجار الزينة . وبِحاجة إلى نبات يكون حداً بينك وبين جارك ، فخلق لك النبات الحدودي . وبِحاجة إلى الفواكه كي تتنعَّم بها فخلق لك الفواكه بأنواعها التي لا تُعد ولا تُحصى . وبِحاجة إلى أولاد يُؤنسون وحشتك فشرع لك نِظام الزواج . وبِحاجة إلى زوجة تكمِّل وجودك فخلق الذكر والأنثى. . .

فهذه كلها حاجات خلقها لك قبل أن تسأله إياها . أنت بِحاجة إلى ماء وإلى هطول أمطار ، فخلق المسطحات المائية الواسعة ، أربعة أخماس الأرض بِحار ، وخلق الشمس وجعلها قريبة بعيدة ـ فالمجال لا يتسع لذِكر كل شيء ـ ولو أمضيت حياتك كلها في تَعداد النِّعم التي خلِقت لك وأنت لا تعلم ، ومن قبل أن تخلق ، لعرفت ما معنى أنّ الله يعلم ما تحتاج إليه قبل أن تسأله . هو مُجيب ومن معاني مُجيب أنه يجيبك قبل أن تسأله! والشواهد حول هذا الموضوع تفوق الحصر ؛ الطفل الصغير يشرب الحليب من ثدي أمه ، وحليب الأم ليس فيه حديد ، وهو محتاج إلى الحديد من أجل تكوين خِضاب الدم ، إذاً أودع الله في طحال الوليد كمية حديد تكفيه سنتين إلى أن

يأكل! والوليد بِحاجة إلى رضعات تذيب الشحوم التي أودعها الله في جِهازه الهضمي ؛ فأول أربع وعشرين ساعة من عمر الطفل يأخذ من ثدي أمه مادة ليست حليباً ، ولكن هي مادة مذيبة تذيب الشحوم التي في جِهازه الهضمي . أنت بِحاجة إلى دورة دم داخلية قبل أن تولد ، الله جعل ثقب بوتال بين الأُذَينَين ؛ فالدورة الدموية داخلية . فحينما يولد الطفل الصغير يحتاج إلى هواء تأتي جلطة تُغلِق هذا الثقب فَتَنْتَقِل الدورة من دورة صغرى إلى دورة كبرى فَبَيِّدِ من هذا ؟ أنت بِحاجة إلى قلب يدفع الدم وبِحاجة إلى أورِدة وشرايين مَرِنة ليندفع الدم فيها ، فالله جلّ جلاله يجيب قبل أن تسأل ، كل ما في الكون مسخّر للإنسان ؛ والدليل قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٣] .

الكون كله مسخّر لك بدْءاً من الأرض وانتِهاءً بِالمجرات ، مسخر لهذا الإنسان الذي قَبِل حمْل الأمانة ، قال تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

فهو يعلم حاجة المحتاجين قبل سؤالهم . يخلق الأطعمة والأقوات ، ويُيَسِّر الأدوات والآلات الموصِلة إلى جميع المهمات . فهذه البقرة بحاجة إلى حليبها فكيف تستفيد منها ؟ لا بد من أن تكون مذلّلة ، وكيف تعلم أنها مذللة ؟ تُصاب أحياناً بِمرض التوحّش فَتَقْتُل الإنسان مما يضطر صاحبها إلى قتْلِها لِيَمنع أذاها عن الناس . إذاً هي مذللة ويجب أن تعلم أنها مذللة ، خلق ثقب بوتال بين الأُذَينَين

وينبغي أن تعلم أن هناك ثقباً يؤدي وظيفة خطيرة والجنين في رحم أمه فهنال حالات نادرة يبقى فيها الثقب مفتوحاً ، وهذا المرض اسمه داء الزّرَق والطفل عندها يموت بعد حين ، لكن الله تعالى له حِكم ، وله أحكام ، له خلق ، وله تربية ، ولم يخلق الخلق عبثًا .

وقيل : إن المجيب هو الذي يقابل الدعاء بِالقبول ، والسؤال بِالعطاء ، تدعوه فَيَقْبَلُك تسأله فَيُعْطيك ، بدأنا البحث ببيان أنّ اسم المجيب يعني شيئين : الإجابة عن دعاء ، والعطاء عن سؤال . تدعو فَيُجيبك ، وتسأل فَيُعْطِيك . ثم إن الله سبحانه وتعالى يجيب دعاء المضطرين ؛ فهذا المضطر من له غير الله ؟ لا شك أن كل إنسان يمر بِحالات اضطرار شديدة ، ويكون فيها على أحَرّ من الجمر ؛ يا رب يا الله ، قال تعالى :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : ٦٢] .

إنه المجيب فلا تَخيبُ لديه آمال الطالبين . قيل : هو الذي يجيب دعاء الداعين ويكشف ضرورة الطالبين ، وحول هذه الكلمات آلاف وآلاف الوقائع والأحداث ، بل إني متيقن أنه ما من واحد من خلقه ، إذا كان صادِقاً مع ربه مؤمناً بِوُجوده وبِأسمائه الحُسنى وَوَحْدانِيّته ، إلا وله تجرِبة مع الله . دَعَوْته فَأجابك ، وسألته فَأَعْطاك . والإنسان حينما يُعاني من مشكلة ، وحينما تحلّ به محنة ، لو سألت العارفين بالله ما حكمتها ؟ هذه المحنة التي تحل بالإنسان المؤمن لا بد من أن تنقله نقْلةً نوْعِيّة على مِحورين ؛ مِحور معرفته ، ومِحور محبّتِه . فكل مِحنة فيها نقلة على محور المحبة تزداد من خلالها حباً له ، فعلى مِحور

محبته تزداد حُباً له وعلى مِحور المعرفة تزداد معرفة . وهذه فيما أعتَقِد هي الحِكمة العظمى في سَوْق المصائب للناس ، ولا سِيَّما للمؤمنين . أنت في درجة فإذا أراد ربك أن ينقلك نقلةً إليه ، يرسِل إليك مشكِلة ، تدعوه ، وتسأله وتتوسّل إليه ، وتلوذ به ، وتستعيذ به ، وتلجأ إليه ، من أجل أن يجيبك ، فإذا أجابك تقول : لقد سمعني وهو يُحِبني وهاهو ذا قد أكرمني ، ها هو قد استجاب لي .

أيها القارىء الكريم ، إنّ مِحنة وراءها نقلة نوعِية على مِحور معرِفته ، وعلى مِحور محبَّتِه . فَوَراء كل مِحنة هناك معرِفة جديدة ، ومحبة جديدة . والله عزّ وجل رب العالمين ، يُقَلِّب حال عِباده من حال إلى حال ، ومن مقام إلى مقام ، ومن منزلة إلى منزلة ، ومن درجة إلى درجة ، إلى أن يصِل به إلى أقصى ما يُمكن أن يصِل إليه ؛ ليس في الإمكان أبدع مما كان .

الحقيقة : إن أسماء الله الحُسنى تتفاوت من حيث ذِكرها في كِتاب الله بين الكثرة والقِلّة . اسم المجيب ورد في كتاب الله كثيراً قال تعالى :

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾

[هود : ٦١]

هو في السماء لكنك إذا دعوْته فهو معك قال تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[الزخرف : ٨٤]

أنت لا تنادي بعيداً ، لا تنادي إلا قريباً ، لا تنادي إلا من يسمعك ، لا تنادي إلا من يقتدر على أن يُجيبك ﴿ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ

مُّجِيبٌ﴾ قال تعالى : ﴿ ۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ .

وفي سورة الصافات :

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات : ٧٥] .

أحياناً يضع ذو حاجة ثقته بإنسان ، يزوره ويعرض عليه حاجته ، يخرج صِفر اليَدَيْن ، وخالِيَ الوِفاض ، يُخَيِّب ظنه ، قد يعتذِر إليه بِأسلوب لطيف ، أو بِأسلوبٍ قاسٍ ، على كلٍّ ليس هناك بأس إلا أنه قد خاب ظني ، وندِمت على تلك الزيارة . أما الله عز وجل فيقول : ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ ، نِعم الذي يجيب هو الله عزو جل ، وقال تعالى :

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران : ١٩٤ـ١٩٥] .

وفي سورة الأنبياء قال تعالى :

﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَـٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء : ٨٣ـ٨٤] .

وكَتَعْلِيق سريع على هذه الآية فقد يتبادر لبعض الناس أن يقول : هؤلاء أنبِياء ؛ وبدوري أقول : فما داموا أنبياء فهم من جِنس البشر ،

وضرب الله الأمثال بهم لتعلم أن إجابتك كإجابتهم إذا تحقق شرط السؤال :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

ولولا أنهم بشر ، وتجري عليهم كل خصائص البشر ، لما كانوا سادة البشر ، لِماذا ذكر الله لنا قَصصهم ؟ لِسببٍ بسيط وهو الاقتِداء بهم ، والسَّيْر على منهجهم ، واقتِفاء أثرهم ، وأن تجعلهم قُدوةً لك . قال تعالى : ﴿ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ .

ما الذي يمنعك إذا مسّك الضر ؛ أن تصلي قِيام الليل ، وأن تقول يا رب إني مسَّنِيَ الضر ، وأنت أرحم الراحمين . أنت تخاطب مَنْ بِيَده ملكوت السموات والأرض ، وكل الجِهات التي في الأرض بيده ناصِيَتُها ، أجلْ ، بِيَده ، قال تعالى :

﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ [هود : ٥٦] .

قال تعالى :

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٤] .

فالله عز وجل هو وحده أهلٌ أن تسأله ؛ أجَلْ ، أهلٌ أن تسأله ، وأن تدعُوَه ، وأن ترجُوَه ، وأن تحطّ رِحالَكَ عِنده ، وأن تُعلّق الآمال عليه ، وأن تستجير به ، وأن تلوذ به ، وأن تستعيذ به ، هو وحده الأهل . وحينما تضع الثقة في غيره . الله جل جلاله غيرةً عليك

ومحبّةً لك ، يلقي في قلب الذي وضعت الثقة به أن يُخَيِّب ظنك تأديباً لك ، وفي سورة النمل :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : ٦٢] .

وفي سورة الأنفال :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال : ٩] .

وفي سورة البقرة :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

أيها القراء الكِرام : قوله سبحانه : ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ . فَيَجب أن تؤمن به أوّلاً بِوُجوده ، وكماله ، ووحْدانِيَّته ، وأن تؤمن بِأسمائه الحسنى . وهذه الأبحاث من صُلْبِ العقيدة الصحيحة . ما من بحث أنت بِأمسّ الحاجة إليه مثل أن تعرف الله عز وجل ، كي تُقْبل عليه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ .

والحقيقة ورد في كتاب الله آيات تبدأ بكلمة يسألونك قال تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ لإسراء : ٨٥] .

قال تعالى :

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ

وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

يسألونك أكثر من عشر آيات وردَتْ بهذه الصيغة [يسألونك ، قل] ثم يأتي الجواب مبدوءاً بكلمة قلْ ، إلا هذه الآية الوحيدة قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ .

قالوا : لأنه في الدعاء ليس بين العبد وربه حِجاب ، وليس بين العبد وربه وسيط ، وليس بين العبد وربه وسيلة ، هو قريب سميع مجيب ، ما عليك إلا أن تسأله . لكن من أجل أن تعرف ماذا تسأله ؛ عليك أن تؤمن به أولاً ، وأن تستجيب له ثانِياً ، حتى تُحسِن أن تسأله ، وحتى يستجيب لك ثالِثاً . وقال ربكم ادعوني أستجِب لكم . وبالمناسبة ما أمرك أن تدعُوَه إلا لِيَستجيب لك . يتوهَّم بعض الناس ويقولون دعَوْنا كثيراً ولم يستجب لنا ، والمشكلة أنك ما دَعَوْتَه كما يريد ، مثلاً قال تعالى :

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف : ٥٥] .

أحياناً تدعو الله عز وجل دون تضرّع ، وبِصَوْتٍ جهير هدفك أن تُسْمِع الناس ، فأنت اِعْتَدَيْت على شرط التضرع ، وشرط الخُفْيَة ، واعتديت على خلقِه ، أنّى يُستَجاب لك ؟ لذلك الذي يعتدي على خلق الله دُعاؤه لا يُسْتَجاب . والذي يأكل مال الحرام دُعاؤُه غير

مُستجاب ، الذي مطعمه حرام ، ومَشربه حرام ، وغُذِّيَ بالحرام ، أنى يُستَجاب له ؟ وأنا أبيّن هذه الشروط : أن يكون الدَّخل حلالاً ، وعدم الاعتِداء ، وعدم الجهر بالدعاء قال تعالى : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ .

وقال تعالى :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] .

هناك بالآية ما يلفِت النظر ، الإنسان على حَسَبِ تصوّره ، فالله سبحانه لم يقل : إن الذين يستكبرون عن دعائي ، بل قال : عن عِبادتي ؛ فُهِم أن الدعاء هو العِبادة . والعِبادة كلها في الدعاء ، بل إن الدعاء مخ العِبادة ، وهو أفضل ما في العِبادة .

وبعد فالاستِجابة في حق الله كما يُرىٰ ، وكذلك فالاستِجابة في القرآن وردت لِغير الله قال تعالى :

﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [الشورى : ٢٦] .

أنت مؤمن دُعِيت إلى الله ، فاستَجَبْت . وإلى عمَلٍ صالِحٍ ، فاستَجَبْت . وإلى إقامة الصلاة ، فَصَلّيت . وإلى دفع الزكاة ، فزَكّيت . وإلى حج بيت الله ، فَحَججت . وإلى مساعدة زيْدٍ أو عُبَيْدٍ ، فَفَعلْت ، الاستِجابة وردت في كتاب الله منسوبةً لِغير الله ، قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ .

وفي سورة الرعد قال تعالى :

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [الرعد : ١٨] .

أما أجمل آية متعلِّقة بالاستِجابة فهي قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

أنتم حينما تُدْعَون إلى طاعة الله ، فإنما تُدْعَون إلى الحياة . والمؤمن قبل أن يعرف الله ميِّت قال تعالى :

﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر : ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ ﴾ [النحل : ٢١] .

قال عدي بن الرعلاء الغساني :

ليس من مات فاستراح بِمَيتٍ إنما الميت ميِّت الأحياء

الميّت الحقيقي : هو الذي يتمتّع بأعلى درجات الصحة ، لكن قلبه ميّت ، لا يعي خيراً ، ولا يستجيب ، لا يذكر الله ، لا يعطي لله ، ولا يمنع لله ، ولا يحب لله ، ولا يبغض لله ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

وليعلم كلّ مؤمن أنّ استِجابة الله بالعطاء ، وإجابته للدعاء على أنواعٍ كثيرة ؛ أحياناً ربنا عز وجل لِحكمةٍ يُريدها يُجيب العبد قبل أن يَدعُوَه ، بِمعنى أنه يتفضل عليك لِتُقْبِل عليه ، هو الذي بدأ ، إذْ إن المرء يغفل ويلهو فإذا أتاه فضل من الله من غير سؤال ، تجد الذي

معدنه طيّب حينما يغمره الله تعالى بِفضْلِه يستجيب ، فهو إما أن تدعُوَه فَيُعْطِيَك ، وإما أن يُعطِيَك لِتدْعُوَه .

فقد يأتي الدعاء قبل العطاء ، وقد يأتي العطاء قبل الدعاء . فإن كان الدعاء قبل العطاء ، فالمُبادرة منك . وإن كان العطاء قبل الدعاء ، فهذه حِكمة بالِغة أراد الله أن يمتَحِنك بها . فَتُطيعُه لِيُكْرِمك ، وأحياناً يُكْرِمك لتُطيعَه . ربما ضيَّق على عباده الحال ابتِلاءً وامتِحاناً ورفْعاً لِدرَجاتِهم بِصَبْرِهم وشكرِهم في السراء والضراء . فهو تعالى يستجيب بعد الضيق أو يُكرِم قبل الدعاء .

قال بعض العلماء : حتى إذا يئِسوا تداركهم بِجميل عوائده وآلائه ، قال تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [يوسف : ١١٠] .

ابن النحوي يوسف بن محمد التلمساني نظم قصيدة بدأها : باشتدِّي أزمةُ تنفَرِجي قال فيها :

اشتــدِّي أزمَــةُ تَنفَــرِجــي	قَــد آذَنَ لَيْلُــكِ بِــالبَلَــجِ
وَظَــلامُ اللَّيــلِ لَــهُ سُــرُجٌ	حَتَّــى يَغشَــاهُ أبُــو السُــرُجِ
وَسَحَــابُ الخَيــرِ لَهَــا مَطَــرٌ	فَــإِذَا جَــاءَ الإبــانُ تَجــي
وَفَــوائِــدُ مَــولانــا جُمَــلٌ	لِسُــرُوحِ الأَنفُــسِ والمُهَــجِ
وَلَهَــا أَرَجٌ مُحــيِ أَبَــدا	فَــاقصُــد مَحيَــا ذاكَ الأَرجِ
فَلَــرُبَّمــا فــاضَ المحيَــا	بِبحُــورِ المَــوجِ مِــنَ اللُّجَــجِ
وَالخَلــقُ جَميعــاً فــي يَــدِهِ	فَــذَوُو سِعَــةٍ وَذَوُو حَــرَجِ
وَنَــزواتُهُــم وَطُلُــوعُهُــمُ	فَعَلَــى دَرِكٍ وَعَلَــى دَرَجِ

وَمَعَــائِشُهُــم وَعَــواقِبُهُــم لَيَسـت فـي المَشـيِ عَلـى عِوَجِ
حِكَـمٌ نسِجَـت بِيَـدٍ حَكَمَـت ثُـمَّ انتَسَجَـتُ بِـالمُنتسِـجِ
فَـإِذا اقتَصَـدت ثُـم انعَـرَجَـت فَبِمقتَصِـدِ وبِمُنعَـرِجِ
شَهِـدت بِعَجـائِبِهـا حُجَـجٌ قـامَـت بِـالأَمرِ عَلـى الحِجَـجِ
وَرِضـاً بِقَضَـاءِ اللهِ حَجِـيّ فَعَلَـى مَـركُـوزِتِـه فَعُـجِ
وَإِذا انفَتحَـت أَبـوَابُ هُـدًى فـاعجِـلِ لِخَـزائِنِهـا وَلِـجِ
وَإِذا حـاوَلـتَ نِهـايتَهـا فـاحـذَرِ إِذ ذاكَ مِـنَ العَـرَجِ
لِتَكُـونَ مِـنَ السُبَّـاقِ إِذا مـا جِئـتَ إِلـى تِلـكَ الفُـرَجِ

والأمور إذا ضاقت اتَّسعت . أحياناً تضيق :

ضاقت فلما استُحكِمت حلقاتها فُرِجت وكنت أظنّها لا تُفْرَج

البطولة ؛ أن تفهم عن الله ؛ أن تفهم عن الله حِكمته ؛ أن تفهم عن الله كماله ؛ أن تفهم عن الله رحمته . لكن الله يضمن للعبد إجابة الدعاء بِما يعلم أنه خير للعبد بِحَسَب عِلمه ، لا بِحسَب علمك . في الوقت الذي يريده الله ، لا في الوقت الذي يريده العبد . فأنت لا تعلم والله يعلم . وأنت لا تعرف ما يناسبك والله يعلم المناسب . دَعْوَتُك له أمر مرغوب ؛ لكن لا ينبغي لك أن تحدد متى يستجيب لك ؛ فهذا سوء أدبٍ مع الله ، يستجيب لك في الوقت المناسب ، وبالقَدْر المناسب ، وفي الطريقة المناسِبة ، فما عليك إلا أن تدعُوَه وكفى .

الآية الكريمة قوله تعالى :

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] .

حدّثني أخ أنه كان مُسافراً من بلدٍ إلى بلد ، يدرس في كلِّية الطِب وحجمه صغير نسبيّاً ، ركِب في سيارةٍ عامة لِيَذهب إلى بلدِه فقال لي : جاء رجلان ضخما الجُثة فتح أحدهما باب السيارة ، وحملني ووضعني على الأرض ، وركِب هو وزميله مكاني . يقول هذا الأخ : تألّمت ألَماً لا حدود له ، وما تمنَّيت في حياتي أن أكون مُجْرِماً إلا تلك الساعة ، إذْ إن هذا هو منتهى الإهانة والقسوة . ثمّ قال : وبعد ساعة ركِبت السيارة الثانية ، وأنا في الطريق إلى بلدتي كانت هناك تلة صغيرة ، فرأيتُ تلك السيارة قد تدهورت وكل الركاب ماتوا ، ثمّ قال : في ثانية واحدة انقلب حِقدي إلى شكر قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

آن الأوان أن تستسلِم لله عز وجل ، هذه الآية وحدها اِجعلْها شِعارك . وقد ورد أن شخصين سألا الله حاجةً ، وكان الله يحب أحدهما ويكره الآخر . فأوحى الله إلى بعض ملائكته أن يقضِيَ حاجة البغيض مُسْرِعاً حتى يكُفّ عن الدعاء ، لأن الله يبغض سماع صوته . وقال الله للمَلَك : توقَّف عَن حاجة فلان ، لأني أحب أن أسمع صوته ، قيل في مغزى هذه القصة : لو كشف الله الحجاب ، لفرِح هذا وحزِن ذاك . فالذي استجاب الله له لا يحب أن يسمع صوته ، والذي لم يستجِب له يحب أن يسمع صوته ، هذه قِصة ـ ولم تصح حديثاً ـ فإذا دعَوْت الله في صلاتك وبعدها ، صباح مساء ، وأُخِّرتْ الاستجابة فمعنى ذلك أن الله يحب سماع صوتِك وروي أن الله عز وجل يحب أن يسمع صوت عبدِه اللهفان . فالدعاء هو العبادة .

أما التطبيق العملي لِهذا الاسم ؛ فيا أيها العبد ، يجب أن تعلم أن الله مجيب ، وينبغي أن تعلم أن الله تعالى دعاك إلى طاعتِه ، وأنت تدعوه لِيُرْضيك ، فإن أجبت دعاءه ، أجاب دعاءك . أي كن لي كما أريد ، أكن لك كما تريد . دعاك إلى طاعته ، وأن تدعوه إلى حاجَتِك . استَجب لِيَستَجيب . كن له كما يريد ، لِيَكُن لك كما تريد . أنت تريد وأنا أريد ؛ فإذا سلَّمت لي فيما أريد ، كفَيْتُك ما تريد . وإن لم تُسَلِّم لي فيما أريد ، أتْعَبْتُك فيما تريد ، ثم لا يكون إلا ما أريد ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

أجِب دعاء الله ، وأجِب دعاء الناس أيضاً . دعاك أحد الخلْق ، وضع أمله فيك ، وَوَضع ثِقَته فيك ، كُنْ ممّن يتخلّق بِكمالات الله ، قال الفرزدق يصف زين العابدين رضي الله عنه :

ما قال لا قط إلا في تشهده   لولا التشهد كانت لاؤهُ نعَمُ

ما قال : لا ، قطّ في حياته ، فإذا وثِق أحدٌ فيك ، ووضَع أمله فيك ، وطمع فيك ، هذا هو تطبيق الاسم مع الناس .

قال : فإذا سألك أحدٌ فلا تزجُره فإن الله تعالى يقول :

﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضحى : ١٠] .

حظ المؤمن من هذا الاسم أيضاً ؛ أن يقضِيَ حوائِج الطالِبين ، لِيَقْضِيَ الله حاجَتَه . والله في عَوْن العبد ما كان العبد في عَوْن أخيه . عِبادي إن أردتم رحمتي ، فارحموا خلقي .

الإمام أحمد يقول : **« اللهم كما صُنْتَ وجهي عن السجود لِغَيرِك ، فَصُن وجهي عن مسألة غَيْرِك ولا يقدر على كشف الضر وجلب النفع سواك »** ، أنا أدعو ببعض الأدعية وأقول : اللهم صُن وجوهنا بِاليسار ولا تبذِلها بالإقتار ، فَنَسْأل شرّ خلقِك ، ونُبْتَلى بِحَمد من أعطى وذمّ من منع ، وأنت من فوقهم وليّ العطاء ، وبِيَدك وحدك خزائن الأرض والسماء .

إمام كبير يقول : **« إن العبد ينبغي أن يكون مجيباً لربِّه تبارك وتعالى أولاً فيما أمره بِهِ ونهاه ، وفيما ندبَهُ إليه ودعاه ، ثم لِعِباده فيما أنعم الله عليه بِالاقتِدار ، وفي إسعاد كل سائلٍ بِما يسأله ، وفي لُطْفِ الجواب إن عَجَزَ عن الإجابة »** ، فأنت اِسْتَجِب للناس ؛ دعاك ، أجِبْهُ . سألك ، أَعْطِهِ . فإذا طُلِب منك شيء لا تستطيع تنفيذه ماذا تفعل ؟ رُدّه رداً لطيفاً . قل له : والله أتمنى أن أخدمك وأُلَبِّيَ حاجَتَك ، فالردّ اللطيف إجابة .

النقطة الدقيقة أنك لا تستَعْظِم شيئاً تسأله الله ، فالله عز وجل لا يُعْجِزُه شيء ، فهل يمكنني أن أشترِيَ بَيْتاً ؟ وهل يمكن أن أصبِح داعية ؟ وهل يمكنني أن أحصل على شهادةٍ عُلْيا ؟ وهل يمكنني أن أصبِح في منصب رفيع ؟ كل هذا ممكن . ولا تستعظم السؤال إطلاقاً فالله على كل شيء قدير قال : إذا سألت فاسأل الله وإذا استَعَنت فاسْتَعِن بالله . وفي الحديث الشريف : **« إن الله حيي كريم يستحي من عبده أن يرفع إليه يديه ثم لا يضع فيها خيراً »** [الحاكم عن انس] .

من أدعية هذا الاسم ؛ إلهي أنت المجيب لِمن دعاك ، والمغيث لِمن ناداك ، تنصِف المظلوم من الظالم ؛ لأنك فوق الكل حاكِم .

إلهي إن نفسي ظلمت روحي ، فَحَجَبَتْها عن الأنوار ومَنَعَتْها من الأسرار ، فانصُر الروح على النفس ، بِفضلك وأسْعِدها في رِياض وصلِك . إلهي لا تردّ الدعاء فأنت المجيب ، ولا تؤاخِذنا بِما فرَّطنا فَمَن دعاك فلا يخيب ، واجعَل لنا نوراً مَوْروثاً من نور اسمك المجيب ، فَنَسْتَجيب بِأمرِك ونقوم بِشُكرِك وذِكرِك إنك على كل شيء قدير .

وأخيراً ، أعتقِد أن هذا الاسم ولا أُبالِغ من أقْرَب الأسماء إلينا ؛ المجيب اِجعل عنده كل حاجاتك . حُطَّ رحالَكَ عنده . اِلْزَمْه واسْأله وتذلّل له ومَرِّغ جبهتَك في أعتابِه فهو السميع المجيب ، فلا تنْسَوا أنّ المجيب اسم من أسماء الله الحُسنى وينبغي أن يكون مثلاً في قلبك دائماً .

* * *



الوكيل

من أسماء الله الحسنى ، الوكيل ، فالوكيل هو اسم من أسماء الله الحسنى تبارك وتعالى ، هذا الاسم بالتعريف الدقيق ؛ هو القَيِّم الكفيل بِأرزاق العباد . وهو بتعريف العلماء : القائم بِأمور عِباده يُدِير أمورهم ويتولى شؤونهم ويسخر ما يحتاجون إليه ، حينما يسخِّر لهم ما يحتاجون إليه فهو الوكيل أو هو الذي أوكِل إليه كل أمر بِمعنى إليه يُرجع الأمر كله .

وقيل : الوكيل هو المُتَولي بِإحسانه أمور عِباده المتقين الموكول إليه كل أمرٍ من أمورهم لقوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

هذا معنى فرعي ، لِذلك قالوا : من توكّل عليه تولاه وكفاه ومن استغنى بِه أغناه وأرضاه ، بِتَعريف آخر : الوكيل هو المَوْكول إليه أمور العباد ومصالحهم ، فمثلاً قد يقول إنسان : الأمر بِيَد من ؟ يُقال : بِيَد فلان هو الرجل القوي وهو الآمر والناهي وهو الذي يقرر وهو الذي يوافق والذي يرفض ويسمح ويمنع ويعطي ويأخذ .

فالوكيل : الموكول إليه أمور العباد ومصالحهم والمتُصرف فيها كما يشاء ، وعباد الرحمن أَوْكلوا إلى الله أمورهم واعتمدوا على إحسانه لِعَجْزِهم عن تحصيل مهماتهم ، وهنا معنى جديد إذْ يجد المرء نفسه أحياناً عاجِزاً عن متابعة هذه القضية في المحاكم ، يجهل القوانين وأساليب رفع المذكّرات وأسرارها فَلِذلك يُوَكّل محامياً ، يقول : أنا وكيلي فلان ، فالوكيل إما أن الله سبحانه وتعالى يتولى أمر العباد كلّهم ، أو أنه يتولى أمر عِباده المتقين يُرضيهم ويُغنيهم ويكفيهم ، أو لأن الله عز وجل لِعَجْز عباده عن تحصيل شؤونهم وإدراك مصالحهم هم يوكِلونه في شؤونهم التي يعجزون عنها دائماً ، وهذه المعاني كلها تحتملها كلمة الوكيل .

نعم إنّه المتولي لِشؤون عِباده يصرّفها كيف يشاء ، لذلك قالوا : إذا تولى الله عبده بِجميل العِناية كفاه كل شُغل وأغناه عن كل غَيْرٍ ، هو الكافي لِمن توكل عليه ، إذا اتجه العبد إلى الله مُتَوَكِّلاً تولاه بِحُسن رِعايته فإذا استقام ختم له بِجميل وِلايته ، لعل أحدًا يقول هذه تعريفات الوكيل أكثرها مُتَداخل ومُتشابك ، فالمؤمن من خصائص إيمانه أنه يكِل أموره إلى ربه ويعتَمِد عليه ويطمئِن ، والإنسان في أصله خلقه ضعيف وضعفه سبب سعادته ، لو أن الله خلقه قوِياً لاستَغنى بِقُوّته فَشَقِي باسْتِغنائه ، خلقه ضعيفاً لِيَفتقِر إليه بِضَعفِه فَيَسْعد بِافتِقاره .

فالوكيل : الموكول إليه أمور العباد ومصالحهم والمُتصرف فيها كما يشاء ، وعباد الرحمن أَوْكلوا إلى الله أمورهم واعتمدوا على إحسانه لِعَجْزِهم عن تحصيل مهماتهم ، وهنا معنى جديد إذْ يجد

المرء نفسه أحياناً عاجِزاً عن متابعة هذه القضية في المحاكم ، يجهل القوانين وأساليب رفع المذكّرات وأسرارها فَلِذلك يُوَكّل محامياً ، يقول : أنا وكيلي فلان ، فالوكيل إما أن الله سبحانه وتعالى يتولى أمر العباد كلّهم ، أو أنه يتولى أمر عِباده المتقين يُرضيهم ويُغنيهم ويكفيهم ، أو لأن الله عز وجل لِعَجْز عباده عن تحصيل شؤونهم وإدراك مصالحهم هم يوكِلونه في شؤونهم التي يعجزون عنها دائماً ، وهذه المعاني كلها تحتملها كلمة الوكيل .

نعم إنّه المتولي لِشؤون عِباده يصرّفها كيف يشاء ، لذلك قالوا : إذا تولى الله عبده بِجميل العِناية كفاه كل شُغل وأغناه عن كل غَيْرٍ ، هو الكافي لِمن توكل عليه ، إذا اتجه العبد إلى الله مُتَوَكِّلاً تولاه بِحُسن رِعايته فإذا استقام ختم له بِجميل وِلايته ، لعل أحدًا يقول هذه تعريفات الوكيل أكثرها مُتَداخل ومُتشابك ، فالمؤمن من خصائص إيمانه أنه يكِل أموره إلى ربه ويعتَمِد عليه ويطمئِن ، والإنسان في أصله ضعيف وضعفه سبب سعادته ، لو أن الله خلقه قوِياً لاستَغنى بِقُوّته فَشَقِي باسْتِغنائه ، خلقه ضعيفاً لِيَفتقِر إليه بِضَعفِه فَيَسْعد بِافتِقاره .

إنّ الله جلّ جلاله ما أمرنا أن نتكل عليه إلا لِيَكْفِينا أمرنا كله والعجيب أن يُواجِه الإنسان الصِّعاب ولا يتوكّل على الله ، ولِحِكمةٍ بالِغةٍ أرادها الله عز وجل الحياة مُفْعَمة بِالمُقْلِقات وبِالمخاوِف والإنسان فوقه ألف سيفٍ وسَيْف ؛ من يدري ماذا سَيَكون حاله بعد حين ؟ ومن يملك هذه الخلايا ألا تنمو نُمواً عشوائياً ؟ ومن يملك هذه الدسَّامات أن تبقى تعمل بِانتظام ؟ ومن يملك هذا الدِّماغ ألا تتجمّد فيه خثرة فَتُعَطّل بعض فاعِلية الإنسان ؟ من يدري ماذا سيَكون ؟ هذه المخاوِف

مَخاوِف المرض ، وهناك مُقْلِقات متعلِّقة بِالرزق وبالأولاد والأهل والعمل وكسب الرزق ، لماذا الدنيا مشحونة بِالمخاوِف ؟ الحِكمة ؛ من أجل أن تفِرّ إليه وتعتمد عليه وأن تثِق به وأن تُقْبِل عليه وأن تُدْفَع إلى باب عُبودِيَتِهِ وأن تكون عبداً له مُنيباً مُفْتَقِراً .

ولنعلم جميعًا أنّنا لسْنا في دار مقام بل نحن في دار انتِقال ، ونحن في ممرٍّ ولَسْنا في مقرّ وفي حياة إعْدادٍ لِحياة أبَدِية ، فالنَّعيم المطلق والسعادة التامة والطمأنينة التي لا يُخالِجها قَلَق والصحة التي لا يُساورها مرض هي في الجنة ، نحن في دار إعداد وفي حياةٍ دنيا خلقت لِتكون مدرسةً لِحياةٍ أبدية خالِدة ، لذلك ليس عجيباً أن تكون الحياة مُقْلِقة وعِلاجُها أن تلْتَجيء إلى الله حيث الأمن والطمأنينة والراحة والتوازن ، إذا قلت في اللغة : أَوْكَلت أمري إلى الله أيْ ألْجأته إليه ؛ هذا الأمر الذي أخافني أو هذا الأمر الذي أقْلَقني وعَجَزت عن حلّ مشكِلتِهِ أحلته على الله سبحانه وأَوْكَلْتُه إليه .

قال بعض علماء القلوب : دَبِّر فأنا لا أُدبِّر ، وقال أبو الحسن النميري الأندلسي يُناجي ربه :

إذا كنت في كل حالٍ معي فَعن حمْلِ زادي أنا في غِنى
فأنتم هو الحق لا غَيْركم فيا ليت شِعري أنا من أنا

الذي أراه أن طبيعة الحياة شاءها الله أن تكون دار الْتِواء لا دار اسْتِواء ومنزِل تَرَحٍ لا منزل فرَحٍ ودار بلاء وتَعَبٍ ونَصَبٍ ، قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق : ٦] .

شاءها كذلك من أجل أن تلتَجِىء إليه وأن تُقْبِل عليه وأن تعتمِد عليه وأن تتوَكَّل عليه .

وَكَلْتُ أمري إلى الله أيْ أَلْجَأْتُه إليه ، إذا كانت للإنسان قضية صغيرة ومِفْتاحها بِيَدِه لا يسأل أحداً ولا يسْتعِنْ بِأحد ، لو أن كل الأمور نقدر عليها ولا تعجزنا لاستغنيْنا عن الله عز وجل ، ولو أن الأمور أصغر من طاقتِنا ومن تدبيرنا حينها لا يشعر الإنسان بِحاجة إلى الله عز وجل لكنه مُحتاج إليه دائماً ، وهذه الحاجة تحتاج إلى إعمال عقل ، أما حينما تأتي الأمور أكبر مما نستطيع ونعجز عن مواجهة أمر ، وحينما نجد أنفسنا أمام شبح مشكلة كبيرة وحقل ألغام وأننا أضعف من أن نُواجِه عدُواً ، ما حِكمة هذه المصاعِب المتكرِّرة وهذه المتاعب في الحياة الدنيا ؟ قد يقول أحدكم : لماذا هذه الصعوبات يا رب ؟ لماذا الإنسان تحت سيوفٍ مشرعة كثيرة ؟ فتارةً يَقْلَقُ على صِحَّتِه وتارة على دخْله وتارة على مستقبل أولاده وتارة على مستقبل بناته لماذا هكذا يا رب ؟ الجواب أنه تعالى أراد أن تلجأ إليه وأن تُقْبِل عليه وأن تَفِرّ إليه وأن تُساق إلى باب العبودِية إليه وأن تكون مُوَكِّلاً له وأن يكون وكيلاً لك وأراد أن تَنْعُم بِظل الاستِسلام له والإقبال عليه ، فَوَكَلْتُ أمري إلى الله : أَلْجَأْتُه إليه واعتَمَدْت عليه .

لذلك قالوا : إن المُتَوَكِّل على الله هو الذي يعلم أن الله كافِلٌ رِزقه وأمره ، الحقيقة أنه لا يمكنك أن تتوكل على إنسانٍ ضعيف ، ولا يُمْكِن أن تُوَكِّل إنساناً جاهِلاً لا يستَطيع أن يكتُب اسمه في دعوى عويصة في قصر العدل ، تبحث عن أمهَرِ المُحامين وعن مُحامٍ مُخلِص ويتمتَّع بِكفاءة عالية جداً ، هذا شأنك مع محامٍ في قضية

عويصة ، فلِذلك أنت لا تستطيع أن تتوكل على الله إلا إذا عرفته ، وقد يقول أحدكم : أنا أتوكل على الله ؛ لا ؛ بل هذا مجرّد ادّعاء ، فإنك إن لم تتعرف إلى أسماء الله الحُسنى ، وإن لم تعرِف قدرته التي تتعلق بِكل ممكن ، وإن لم تعرف حِكمته ورحمته وعدالته وقدرته لا تتوكل عليه ، فأصل التوكل أن تعرِفه ، فالإنسان مِن خلال معاملاتِه ومُمارساتِه يَثِق بِأشخاصٍ عِدة ويقول لك : فلان يُعْتَمد عليه فإذا سافر سلّمه العمل في متْجره أو معمله ، هناك قبض ودفع وهناك مُوَظفون ومُشْكِلات ومالية وتموين يقول لك : يُعْتَمد عليه ، فهل رأيت صاحِب معمَلٍ ضخمٍ يعتمِد على موظفٍ أحمقٍ أو موظف ضعيف التفكير ومحدود الأفق ؛ مستحيل فأنت لن تتوكّل إلا على القوي ولن تتوكل إلا على العليم ، لن تتوكّل إلا على القدير ولن تتوكّل إلا على الخبير ؛ فَلِذلك التوكل أساسه معرِفة الله عز وجل ، والإنسان الشارِد والتائه ربما يضع ثِقته بإنسان ، وإذا دَعَوْته إلى التوكل على الله لا يستجيب ، كيف ؟ إنّ الله تعالى قال :

﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ [القلم : ٤٢] .

أنت إذا دعَوْت إنساناً يُعاني من مُشكِلة أومن مرضٍ أومن خطرٍ أومن قضية وقلت له توكّل على الله فَلَن يفهم عليك ربما يُجامِلك ويقول توكلت! لكنه في الحقيقة لا يتوكَّل لأنه لا يعرف أن الناس جميعاً بِيَدِ الله ، وأنّ الأقوياء جميعاً في قبضَتِه وأن خواطِر العِباد بِيَده ، قد تقف أمام إنسان يُلقي الله في روعه أن سَهِّل له الأمر على خِلاف عادَتِه ، إنسان يُعَقِّد الأمور ويُقيم الحواجِز وينصِب العَقَبات في وجوه الآخرين ، لكنك تجِده من أَلْطَف الناس معك رغم أنّك لا تعرِفه ولا يعْرِف اسمك فلماذا وقف هذا الموقف اللَّيِّن ؟ وماذا ألقى الله في

قلبه ؟ لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

« إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ » . [رواه مسلم] .

أحياناً إذا أراد الله أن يُؤدِّب مخلوقاً فيبعث الله إنسانًا طيِّباً يتصدّى له ، ويقيم النكير عليه ويُكَبِّر الأمور ويُقيم الحواجِز ويضع العقبات ؛ تقول أنت : هذا غريب! ليس هذا من أخلاق هذا الشخص ، فاعلم إذًا أنّ العِباد حتى خواطِرهم ومشاعِرهم وتصوُّراتهم وحتى رغبتهم في الخير أو الشر بِيَد الله عز وجل فإذا كنت مع الله فالله معك لذلك أقول دائماً هذه المقولة : يا رب ماذا فقَد من وَجَدك وماذا وجد من فقدَك ؟ وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فَمن معك ؟ أريد أن أقف وقفةً مُتأنِّيَة عند هذه المقولة ؛ لن تستطيع أن تتوكَّل على الله إلا إذا عرفْتَه ، وأن تتعرف إلى الله أكبر إنجاز في حياتِك ؛ لأنك موجود في الحياة الدنيا من أجل أن تعرف الله لذلك إن عرفته توكلت عليه ووَكَّلْت أمرك إليه وفوَّضت ، فلن يستطيع من أراد أن يتوكّل حقيقة التوكل إلا بعد أن يعرف الله ، قد تجد إنساناً يخاف من إنسان أشد من خوفِه من الله لأنه لا يعرف الله .

الوكيل إما أن يتوكّل لبعض الأمور كما يحدث بين الناس والتي يسمونها وكالة خاصة مثلاً وكالة في بيع بيت فقط ، وكالة في قبض مبلَغ ، أو في تحصيل دَيْن وكالة في مُخاصمة كل هذا يسمى وكالة خاصّة ، وأحياناً تكون الثِّقة بالِغة جداً بين شخصين يوكله وَكالة عامة ، المُوَكّل وكالةً عامة بِإمكانه أن يبيع كل أملاكك وبِإمكانه أن

يطلق زوجتك ، بالمناسبة الوكالة العامة خطيرة جداً ؛ فهذه امرأة تملِك آلاف الدّونمات وكَّلَت محامياً قال لها اِجْعَليها وكالة عامة وهي لم تفهم ما قال لها فَجَعَلَتْها وكالة عامة ، فَكُلّ الأراضي سجَّلَها بِاسمِه ولا تزال الدعوة قائمة بينه وبينها حتى الآن منذ عشر سنوات ، فالإنسان قبل أن يُوَقِّع وكالة عامة يجب أن يُفكِّر ، أن يَعدّ للمِليون فالقضِيَة ذات أبعاد خطيرة ، على كُلٍّ هناك وكالة خاصة ووَكالة عامة والوكالة العامة تبقى وكالة محدودة ، هل يستطيع المُوَكِّل أن يقبِض روح الإنسان ؟ طبعاً لا ، لكن الله تعالى هو الوكيل المطلق ، قال تعالى :

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام : ١٠٢] .

بِيَده حياتك ورِزقك وبِيَده من فوقك ومن تحتك وبيده أقرب الناس إليك وأبعد الناس عنك والذي يُحِبك والذي لا يحبّك وبِيَدِه دقائق جسمك وأجْهِزتك ، والله على كل شيء وكيل ، لذلك ليس الوكيل المطلق إلا الله ، وليس من بني البشر من هو وكيل لك في أمورك لكن الله وكيل لك في كل الأمور ، ووكيل لك في كل الظروف ، والمُتَوَكِّل في كل حياتِك .

هناك نقطة أخرى في الوكالة وهي أنه يُمكن أن يكون فلان ليس مُتَوَكِّلاً أمرك ، لكنك بِاختِيارك وَكَّلْتَه ، ليس هذا الشأن مع الله عز وجل لكن الله شئت أم أَبَيْت أحْبَبت أم كَرِهت رَضيت أم لم ترْض أمرك كله بِيَده تعالى ، قد يوكِل إنسان إنساناً وكالة محدثة ، أنا وكَّلْت فلاناً أما قبل أن أُوَكِّله لم يكن وكِيلاً لي ،فأنا الذي أحدثت هذه

الوكالة لكن الله سبحانه وتعالى مُتَوكِّل لكل أمور العِباد وكالةً مطلقة ، وهو على كل شيء وكيل وهذا المعنى الثاني .

أما المعنى الثالث : فالوكيل إما أن يؤدي المهمة على أتم وجه وإما أن لا يُؤَدِّيها ، وكم من إنسانٍ خاب ظنّه في مُحامٍ وَكَّله قضِيّةً فَخَسِرها ، قد يقول : إن قدراته ضعيفة وإنه لم يهتم اهتماماً كافِياً أو ما قدَّم المذكرات القويّة أو اتفق مع الخصم ، إذًا قد تُوَكِّل إنساناً يُخَيِّب ظنك ، لكنك إذا وكَّلت الله رب العالمين فهو الوكيل الحق الذي يُغنيك ويُرضيك ويكفيك ، أرجو الله تعالى أن نتعامل مع هذا الاسم تعامُلاً حقيقياً لأنك لا تكتفي أن تعرف معنى الوكيل وما تعريفه ، فالقضية أكبر من ذلك المهم أن تكِلَ إليه أمرك ، لا يوجد مؤمن على الإطلاق بِإخلاصٍ شديد وبِصِدقٍ بالِغ وكَّل إلى الله شأناً من شؤون حياته إلا ويَتَوَلى الله أمره .

دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في المرضة التي مات فيها فقال له ياأمير المؤمنين! إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال وتركتهم عالة ولا بد من شيء يصلحهم ، فلو أوصيت بهم إلي أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤنتهم إن شاء الله ، فقال عمر : أجلسوني! فأجلسوه ، فقال : الحمد لله ، أبالله تخوفني يا مسلمة ؟ أما ما ذكرت من أني فطمت أفواه ولدي هن هذا المال وتركتهم عالة فإني لم أمنعهم حقاً هو لهم ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظراتك من أهل بيتي فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله فجعل الله من أمره يسراً ورزقه من حيث لا يحتسب ، ورجل غيَّر وفجر فلا يكون عمر أول من أعانه

على ارتكابه ، ادعوا لي بني فدعوهم وهو يومئذ اثنا عشر غلاماً فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه حتى اغرورقت عيناه بالدمع ثم قال : بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم ، يا بني! إني قد تركتكم من الله بخير إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله يا بني ميَّلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار قوموا يا بني! عصمكم الله ورزقكم ، قالوا : فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر .

وذكر أن أبا جعفر المنصور قال لعمرو بن عبيد عظني ، قال : بما رأيتُ ، أو بما سمعتُ ؟ فقال : بل بما رأيتَ ، فقال : توفي عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وخلف أحد عشر ابناً ، وبلغت قيمة تركته سبعة عشر ديناراً ، فكفن بخمسة دنانير واشتري له موضع قبره بدينارين وأصاب كل واحد من أولاده ثمانية عشر قيراطاً ، ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابناً فحصل لكل واحد من ورثته مما خلفه عشرة آلاف دينار ، فرأيت رجلاً من أولاد عمر بن عبد العزيز قد حمل على مائة فرس في سبيل الله ، ورأيت رجلاً من أولاد هشام يسأل الناس .

فأحياناً الإنسان يَكِل إلى الله أمر أولاده وهو على فِراش الموت أو يكل إلى الله أمر بناته أو صِحته ، وقد أعجزه العلاج وكاد يَيأس ، وقد يتألم ويقول : يا رب توكَّلت عليك وفوَّضت أمري إليك أنت أعلم وأنت أرحم وأنت أكرم وأحكم ، هذا الحال إذا توكَّلت على الله حقيقة ـ والله ـ سَتَرى العَجَب العُجاب وسوف ترى أنك أقوى الناس .

لِذلِك قالوا : إذا أردت أن تكون أقوى الناس فَتَوَكَّل على الله ، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتّقِ الله ، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فَكُن بِما في يَدَيْ الله أوْثق منك مما في يديك ، فالذي يتوكل على الله هو أقوى إنسان ، والدعاء سلاح المؤمن وكلنا ضعفاء ، ولكنّك قوِيٌ بالله وغني بالله وكريم بالله ، فأنت كريم بِطاعة الله وغنيٌّ بَالاعتِماد على الله وقويٌ بِتَوَكُّلِك على الله ؛ لذلك ما توكَّل على الله أحدٌ وخَيَّب ظنَّه ، وما توكَّل على الله أحدٌ إلا وكَفَاه وأرضاه وأكرمه .

وها نحن مع الآيات التي ورد فيها هذا الاسم العظيم ، يقول ربنا سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

يقولون : فلان يتآمر عليك ويكيد لك ويُدَبِّر لك لا تنجو منه ، وفلان يوغِر صدر رؤسائك عليك ، فقُل : حسْبنا الله ونِعم الوكيل ؛

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران : ١٧٣ـ ١٧٤] .

ألا تكفينا هذه الآية ، مهما شعرت أنّ الناس يكيدون لك السوء وأنهم لك بِالمِرصاد ويأْتمِرون عليك قل : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ .

لما نزل النبي عليه الصلاة والسلام من الطائف وقد ردّه أهلها شر ردّ وقد كذّبوه وسَخِروا منه وأوْغروا صدر سُفهائهم فَضَربوه ، قال له زيد الصحابي الجليل : يا رسول الله! كيف تدخل عليهم وقد

أخرجوك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « يا زيد! إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وإن الله ناصِر دينه ومظهر نبيه » ، يوم جاءت الأحزاب قال تعالى :

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ [الأحزاب : ١٠] .

وقال تعالى :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

موضوع التوكل لا يبدو جلياً واضحاً ولا يظهر أبلج إلا في الشدائد ، وأما بالرخاء فلا توكّل ، فإذا كان الإنسان له دخْل وصِحة وأموره مُيَسَّرة أنى يقول : يا رب توكَّلت عليك ؟ مستحيل! فالله عزّ وجل إذا أراد أن يسمع صوت عبده المؤمن يسوق له شبح مصيبة ، من أجل أن يركض إلى الله ويلجأ إليه ؛ لذلك هذا الاسم لا يبدو إلا في الشدائد ، هذا لغير المؤمن أما المؤمن فيتوكل على الله في جميع أحواله في الرخاء وفي الشدائد ، والمرء في الشدة تُعرف حقيقة إيمانه أو ضلاله وكفره ، كما يعرف يقِينه من شكّه . وكذلك قال تعالى :

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۖ ﴾ [الأنعام : ١٠٢] .

هذا معنى جديد ، فالله على كل شيء رقيب ومالِك فاعبُدوه لأنه على كل شيء وكيل ، متوكِّل أمره ورقيب عليه ومالِكٌ لِناصِيَتِه ، وهذا هو معنى قول الله تعالى :

﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ

ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود : ٥٥-٥٦] .

آية ثالثة قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ [هود : ١٢] .

فالأمر بِيَد الله وما عليك إلا أن تُبَلِّغ والباقي على الله ، فالذي يستجيب يُوَفِّقه الله والذي لا يستَجيب يؤدِّبه الله ، وأنت ما عليك إلا أن تُبَلِّغ أمر الله كما أمرك .

وهذه آية أخرى ، قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ [يوسف : ٦٦] .

أي الله شاهد هنا بِمعنى أن الله عز وجل شهيد على ما نقول . المعنى الأول مالك الأمور ، والمعنى الثاني الرقيب ، والمعنى الثالث الشاهد .

وفي سورة الزمر قال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ [الزمر : ٦٢] .

لا يمكن أن يتفلت شيء من قبضة الله ، فقد تجد إنساناً مُتَفَلِّتاً ومُخيفاً ويثير الرعب بين الناس ولكنه في قبضة الله ـ هذا هو الإيمان الصحيح ـ الوحوش الفتاكة والأشخاص العتاة والشِّريرون هؤلاء كلهم بِيَد الله عز وجل ، لا يسمح لهم أن يفعلوا ما يفعلوا إلا بِمشيئته وأمره ، قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [الأحزاب : ٣] .

الله جلّ جلاله يطلب منا أن نتخِذه وكيلاً فهو رب المشرق والمغرب قال تعالى :

﴿ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل : ٩] .

جرت قصة في عهد النبي ﷺ :

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ » فَقَالَ : « مَا قُلْتَ ؟ » قَالَ : قُلْتُ : حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ اللهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » .

[رواه الإمام أحمد]

مثال ذلك طالب درس ورسب فقال : حسبي الله ونِعم الوكيل هذا قوله صواب وصحيح ، فقوله تعالى حسبنا الله ونعم الوكيل لا تقولها إلا إذا بذلت كل شيء تملِكه وبعد كل هذا البذل والجهد لم تنجح عندئذ قل : حسبي الله ونعم الوكيل ولا تقل : حسبي الله ونعم الوكيل قبل أن تستنْفِذ الجهد إذا لم يدرس وقال حسبي الله ونعم الوكيل أي كان كسولاً فقال : حسبي الله ونعم الوكيل وأهمل تربية أولاده فانحَرفوا فقال : حسبي الله ونعم الوكيل وما عالج ابنه فتَفَاقم المرض فقال : حسبي الله ونعم الوكيل فكل هذا الكلام غير مقبول إطلاقاً ، إذاً لا تقل حسبي الله ونعم الوكيل حتى تستفْرِغ جميع جهدِك ، وتستَوْفي كل عملك عندئذٍ قل هذا الكلام ، قال تعالى :

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾ [النمل : ٧٩] .

هذه نقطة دقيقة المعنى في بحثنا ، فتَوَكَّل على الله لأنك على الحق المبين ، وهذا يعني أنك إذا كنت منحرِفاً ومُعْتَدِياً ومسيئاً ومُجانِباً للحق فلا يصحّ منك التوكّل ؛ فتوكّل على الله إنك على الحق المبين ، فأحد أسباب التوكل أن تكون على الحق المبين .

شيء آخر قال تعالى :

﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم : ١٢] .

معنى ذلك أنك إذا عرفت الله واندفعت في مشروع ينبغي أن تتوكَّل عليه ، فَمِن لوازِم معرِفته واستِقامتك أن تتوكَّل عليه .

قال ذو النون المصري : « **التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة** » . وقال شقيق البلخي : « **التوكل أن يطمئن قلبك لِوَعْدِ الله** » ، فإذا وعدك الله بالتوفيق والرزق والحياة الطيبة علامة التوكل أنك مطمئن لهذا الوعد ، فأنت إذا وعدك إنسان قوي فقد تقول : من المعقول ألا يُنْجز الوعد ؟! أما إذا وعدك الله بِحياةٍ طيبة ووعَدك بالنصر واليُسر والتوفيق والنجاح ، فمن علامة التوكل الاطمئنان لِوَعد الله .

وقال بعض العلماء التوكل : « **الاشتِغال عما لك بِما عليك** » وقال بعضهم : « **قلوب الزاهدين أوعِيَة للتوكل** » ، وقال بعضهم : « **التوكل انقِطاع المطامِع** » ، فالذي يطمع بما ليس له فهو غير متوكل ، أما المتوكل فهذا الذي يرضى بِما قسمه الله له فهذا من علامات التوكل ، توكَّلْ على الله حتى يكون هو مؤنِسك ومعلّمك وموضِع شكواك فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك ؛ لذلك قال سيدنا يعقوب : ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[يوسف : ٨٦] .

كلما عظم إيمان المرء لا يشكو همَّه إلاّ إلى الله ، وكلما ضعف إيمانه تجده كثير الشكوى ، فهذا الذي يشكو همومه إلى كل من يلقاه

ضعيف الثقة بالله ضعيف الإيمان ، إذاً توكَّلْ على الله حتى يكون هو مؤنِسك ومعلّمك وموضِع شكواك فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك .

الآن مُوازنة سريعة بين من يتوكّل على مخلوق وبين من يتوكّل على الله إذا توكَّلت على مخلوق طالبك بِالأجر وقد يخونك وقد لا يُفْلِح وقد يكون أضعف من المهمة التي وكَّلْتَه بها ، أما إذا توكَّلت على الله فإنه يعطيك الأجر ، توكَّل إنساناً فَيُطالِبك بالأجر وإن كان مُخْلِصاً فقد لا يستطيع وإن كان يستطيع فهو لا يُخلِص وقد يخون وقد ينْحاز إلى خصْمِك ، أما إذا توكَّلت على الله عز وجل فالله تعالى يُعطيك الأجر ويكفيك ويُرضيك ويُكرمك .

عزيزي القارىء ، موضوع التوكل موضوع كبيرٌ جداً وذكرنا ما ينبغي أن يُذْكر في هذا الحيّز المحدود ، لكن نرجو الله تعالى أن تُترجم هذه الحقائق إلى مشاعِر وتصرّفات وإلى مواقِف ؛ لأن الاستِفادة الحقيقية من دروس أسماء الله الحسنى أن نتعامل مع الله بِطريقةٍ أفْضل وبِمُسْتَوى أكبر وأن نتعامل مع الله بِمَعرِفةٍ أساسها الطاعة والاستِسلام لله عز وجل .

أيها الإخوة : ما من اسم أقرب إلى العبد من اسم الوكيل وهو على كل شيء وكيل ، لذلك وكِّل الله وارتح ونم وأرح أعصابك ووكِّلْه وابتَعِد عن هذه المقْلِقات ، فَتَوَقُّعُ المصيبة مصيبة أكبر منها ، أنت من خوف الفقر في فقرٍ ومن خوف المرض في مرضٍ ، والمتوكِّل على الله عز وجل سوف يرى أن الله كفاه وأغناه وأرضاه .

* * *



من أسماء الله الحسنى الواسِع ، فكلمة الواسع مُشتقّة من السَّعة ، والسَّعة تُضاف إلى العِلم إذا اتَّسَع وأحاط بالمعلومات الكثيرة ، وتُضاف مرةً أخرى إلى الإحسان وبَسْط النِّعَم .

يقول أحد العلماء في أسماء الله الحسنى « **اسم الواسع وهو الذي وَسِع غِناهُ كل فقير ورحمته كل شيء** » ، أحياناً تطلب من إنسان مبلغاً يقول لك : هذا فوق طاقتي إذْ إن دائرة مالِه لا تتَّسِع لهذا الإنفاق ، وأحياناً تطلب من إنسان أن يُعينَك فيَقول لك هذا أمر لا أقدِر عليه فوق طاقتي ولا تتَّسِع له سُلطتي ووَجاهتي ، وأحياناً تسأله سؤالاً يقول لك لا أدري هذا لم يَبْلُغْه عِلمي فالإنسان محدود ؛ محدود في عِلمِه ، ومحدود في قدرتِه وماله وجاهِه وكل إنسان هناك من هو فوقَه .

إلاّ أن الله سبحانه وتعالى هو الواسع فَرَحْمَتُه وسِعت كل شيء وغِناه وسِع كل فقير وإحسانه شمل كل مخلوق ، فلا تضيق دائرة علمه عن شيء ولا تضيق دائرة إحسانِه عن أيِّ شيء ولا تضيق دائرة قوَّتِه عما دونه ، فقُوَّته تتعلق بِكل ممكن وإحسانه يتعلق بِكل ممكن وعِلمه يتعلق بِكل ممكن ، فكَلِمة واسع وسِعت رحمتي كل شيء وسِع عِلمي

كل شيء ووسِعت قدرتي كل شيء ووسِع غِناي كل شيء ، لِذلك قيل الواسِع هو الذي لا نِهايَة لِسُلْطانِه فَنَحن لا نستطيع تصوُّر اللانِهائي فالطريق له نِهاية وهذه المجرّة لها نهاية وهذا الغني مهما عظُم ماله ينتهي عند رقمٍ وهذا الإنسان مهما بلَغ من جاهِه هناك شيء لا يستطيعُه مثلاً ؛ أمهر طبيب بِالعالم إذا مات المريض هل يُمكِنه أن يعيد له الحياة ؟ هذا شيء فوق طاقَتِه :

إنّ الطبيب له عِلم يُدلّ به ... إن كان للناس في الآجال تأخير

حتى إذا ما انتهت أيام رِحلتِه ... حار الطبيب وخانته العقاقير

إذًا فالواسِع هو الذي لا نِهاية لِسُلْطانِه ، وبِالمناسبة الإنسان مهيًّأ ليتعرّف إلى الله إذْ لا تملأ نفسه إلا معرفة الله أيّ شيء دون الله عزّ وجل بعد حينٍ يَمَلّ منه ، يُحيط به أولاً وينتهي من التفكير فيه ؛ لِذلك حينما يغفل الإنسان عن الله عز وجل بعد أن تتحدّد دنياه يشعُر بِخيبَة الأمل ويشعر بالسّأم والضجر لا لِشيءٍ إلا لأن نفسه مخلوقة لِتَعْرِف اللانِهائي وتعرِف المطلق ، فإذا شغلها بِغَير المطلق وهو النِّهائي والمحدود سئِمت هذا المحدود وملَّته وضجِرت منه ، وقد تلاحِظ ببساطة أنّ الإنسان حينما كان شاباً يعيش بِالأحلام يتصوّر بيتًا مُعَيّنًا ويتمنى زوجة معيّنة ومرْكَبة معيّنة ، فإذا وصل إلى نِهاية أهدافِه وتحدّدت حِرْفته وبيته وزوجته ودخْلُه وحُجِّم في آماله وأحلامه ، وصارتْ نفسك مصمّمة لِتَعرِف غير المحدود والمطلق واللانِهائي ، لكنك شغلْتَها بِالمحدود ، فالمحدود تسْتَوْعِبه سريعاً وتمَلّ منه .

لن تسعد في الدنيا إلا إذا تطلَّعت إلى الله عز وجل وإلا إذا كان الهدف هو الله ، إلهي أنت مقصودي ورِضاك مطلوبي ما سِوى الله يُمَلّ

وما سِواه تسأمه النفس وقد تتبرّم به فهو محدود ، لكن النفس متشوّقة أبدًا لِذلك الواسِع الذي لا نِهاية لِسُلْطانه والواسِع الذي لا حدّ لإحسانِه ، فلا يُحَدّ غِناه ولا تنْفَد عطاياه ولا يشغله معلوم عن معلوم ولا شأنٌ عن شأن .

أحياناً يتحدّث إليك شخص فَتَقول لشخص آخر يريد أن يكلمك في أمر ما : انتظر إلى أن ينتهي من حديثه هذا كي أتمكّن من الفهم منك فلا يتَّسِع إدراكه لِسَماعِ صوتين ولا إلى أن ينصرِف إلى جِهتين فهو غير واسِع ، أما ربنا عزّ وجل فمعنى أنه واسع أيْ لا يشغله معلوم عن معلوم ولا شأنٌ عن شأن ، لو أنّ كل العِباد دَعَوْهُ في وقتٍ واحدٍ لَسَمِعهم جميعاً ، فإذا دعا الإنسان ربه واستجاب له وسمِع دعاءه هناك من يظن أن الله سمِعه وحده ، ففي هذه اللحظة التي دعَوْت الله فيها كم مِن إنسان دعا الله تعالى فيها ؟! فإذا استَيْقظت إلى صلاة الفجر وذهبت إلى المسجِد ، وبعد الصلاة دَعَوْت الله ، فعلى مستوى البلد الواحد تجد آلاف المصلين في المساجد وبعد الفجر يقبل المصلون على ربهم بالدعاء ، وكل إنسان يتوجه إلى الله متوسلاً ، وكلهم يسمعهم سبحانه في اللحظة ذاتها ، على حين أن الإنسان لا يستطيع أن ينصَرف إلى جهتين معاً ، حتى في علم النفس يقولون : إن الذي يبدو لك أنه يستمع إلى شخصين معاً إيّاك أن تصدِّق ذلك وإنما عنده ما يسمى سرعة التحوّل ، أما أن يستطيع أن يستوعِب حديثين معاً أوثلاثة فهذا غير ممكن ، ففي سَهرة مثلاً تجد كل اثنين يتكلمان معاً فهل تستطيع أن تستوعب ما يقوله كل من يتحدّث ؟ لا تستطيع إذْ إنك لو انصرفت إلى شخصين نسيت الآخرين ، لكنّ الله عز وجل واسِع لا يشغله معلوم عن معلوم ولا شأن عن شأن ولا حال عن حال .

وقيل : الواسِع هو العالم المحيط علمه بِكل شيء وسِع علمه كل شيء ، أحياناً تركب بِمَركبة فترى كلّ شيءٍ أمامك مكشوفًا أما خلفك ما دون زاوية النظر فلا تستطيع أن تحيط به ، لِحِكمة أرادها الله عز وجل ، عينا الطائر تُغَطِّيان ثلاثمئة وستين درجة ولكن قد لا تغطي تحته فهذه ثلاثمئة وستون درجة مستوِية والإنسان سمعه محدود ، وبصره محدود ، وقدرته محدودة وإحسانه محدود .

وقيل هو الذي وسِع بِعِلمه جميع المعلومات ووَسِعت قدرته كل المقـدورات واسِـع الـرحمـة والغِنـى والسلطـان والعِلـم والقـدرة والإحسان .

وقيل هو الذي لا حدود لِمدلول أسمائه وصِفاته ـ هذا معنى جديد ـ فاسم الرحيم ليس له حدود ، واسم الكريم ليس له حدود ، واسم الغني والقوي كذلك وما معنى الله أكبر ؟ مهما عرفت عن أسمائه الحسنى فهو أكبر من ذلك .

زيد بن مهلهل بن زيد الطائي قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد طيء سنة تسع فأسلم وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير وقال له : « ما وصف لي أحد في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلا رأيته دون الصفة غيرك » .

أحياناً يقول لك الإنسان : المكان الفلاني قطعة من الجنة تذهب إليه وفي ذهنك تصوّر متنامٍ فإذا بك تجده أقل بكثير مما وُصِف لك .

وقال ابن المبارك : ما وصف لي أحد ورأيته إلا كانت رؤيته دون صفته إلا حيوة بن شريح فإن رؤيته كانت أكبر من صفته .

وقال مروان بن محمد : ما رأيت فيمن لقيت أخشع من وكيع

وما وصف لي أحد قط إلا رأيته دون الصفة إلا وكيع فإني رأيته فوق ما وصف لي .

لقد كان أحد الصحفيين يعمل في حقل الإعلام فكان إذا أراد أن يلتقي مع أديب يقرأ له الكثير قبل لِقائه به ، وهذا الأديب أو الشاعر لا يظن أن هذا الصحفي يعرف عنه الكثير فإذا التقى به وسأله وأجاب جواباً غير علمي يرد عليه بِتحفّظ ويقول : قاله أحد النقاد فَيَنْكَمش وَيَنْكَمش ولما عوتِب هذا الذي يُجري هذه البرامج : لماذا تحرج السائلين بِهذه الطريقة ؟ قال : لأنني أحب أن أعيدهم إلى حجمهم الطبيعي .

فالإنسان له حجم إلا أنّ هناك أشخاصاً لهم القدرة على الظهور بِأحجام أكبر من أحجامِهم ، أما في بعض الظروف الصعبة فإنهم يُحَجَّمون ويعودون إلى حجمهم الأصلي وكل إنسان له حجم وله سقف ، فعندما ذكر ربنا عز وجل مقالة سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[المائدة: ١١٨] .

فلو أننا وقفنا عند قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ يظن المرء أن ختام الآية فإنك أنت الغفور الرحيم ، وليس كذلك بل قال : ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ قال بعض العلماء : « ما من إنسانٍ يعفو إلا ويُسْأل لِماذا عَفَوْت » ، هل بِإمكان موظف أن يطوي تكْليفاً لِمكلَّف بِضريبة معيَّنة ؟ إذا طوى ضريبة وأعفاه منها كُلِّياً يُسأل لماذا أعْفَيْتَه ؟ فالإنسان إذا أراد أن يعفوَ قد يكون عفوُه مأخذاً عليه أما الإله العظيم : ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ لا يستطيع مخلوق أن يسألك لِماذا

عفوت عنه ؟ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

وكثيرًا ما تأتي خواتيم الآيات على غير ما نتوقَّع قال تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١] .

فما دام الذي أسرى بِعبدهِ ليلاً فالسياق يتطلّب وهو على كل شيء قدير ، لكن ختمت الآية إنه هو السميع البصير ، يا رب ما علاقة هاتين الكلمتين اللتين هما اسمان من أسمائك الحُسنى بِمضمون الآية ؟ فالنبي عليه الصلاة والسلام ماذا قال في الطائف ؟ قال : « إن لم يكن بِك غضب عليّ فلا أبالي... لك العتبى حتى ترضى » سمع الله دعاءه بالطائف فكان الرد الإلهي هذا التكريم ، أي يا محمد سمِعْنا دعاءك في الطائف وهذا هو الجواب أنت الآن مُكرّم وقد أُريت ملكوت السموات والأرض ، وقد نِلْتَ المقام الأول الذي لا يكون إلا لِواحِدٍ من خلقي ، فَخِتام الآيات له معنى دقيق ودقيق .

فمعْنى الواسِع أن رحمته لا حدَّ لها ، وعلمه لا حد له وقدرته لا حد لها فهذا الاسم إذاً تعلّق بِكل أسماء الله كاسم الرحمن قال تعالى :

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ١١٠] .

اسم الواسع متعلق بكل أسمائه ، قال : واسِع المغفِرة وقيل الواسِع الذي لا حدود لِمدلول أسمائه وصِفاته ؛ واسع العلم وواسع المغفرة وواسع الرحمة وواسع الملك .

بعض العلماء الذين تحدّثوا عن أسماء الله الحُسنى ذكروا أن الواسع الذي لا نِهاية لِبرهانه ولا غاية في سلطانه فهو واسِع في علمه فلا يجهل فأعلم عالم يقول لك مثلاً : غابت فكرة عني ويُؤلف كتاباً وبعد عشر سنوات تكون هناك مؤاخذات في الطبعة الثانية ، غابت عنه هذه الحقيقة وهذه الفكرة ، حتى الأئمة الكِبار أبو حنيفة النعمان غاب عنه حديث شريف ولو اطّلع عليه لأدْلى بِحكمٍ آخر غير الحُكم الذي حَكَمَ به في موضوع الوقف ؛ وفوق كل ذي عِلمٍ عليم ، فالواسِع الذي لا نهاية لِبُرهانه ولا غاية لِسُلطانه ، واسِع في علمه فلا يجهل ، وواسِع في قدرته فلا يعجل ، والله قدير ، والإنسان أحياناً يرى بعض المنحرفين يتحدّثون بِكلامٍ قبيح ، ويتحدَّون الذات الإلهية وينطِقون بِالكفر ، والله جلّ جلاله بِقُدرته أن يسحقهم في ثانية واحدة فهو واسِع في علمه فلا يجهل ، وواسِع في قدرته فلا يعجل ، وهو المعطي الذي لا يسأل وهو الكريم فلا يبخل وهو الحليم فلا يعجل ، فالإنسان أحياناً يعجل فَيَنْدم ، فالله هو المعطي الذي لا يسأل ، وهو الكريم فلا يبخل وهو الحليم فلا يعجل ، وإذا أعطى أدهش .

قيل هو الواسِع في علمه فلا يجهل ، وواسِع في قدرته فلا يعجل ، وقيل : الواسع الذي لا يعزب عنه أثر الخواطر في الضمائر ، أنت قد تتأمل إنساناً وتتأمل قِوامه ، ولون جِلدهِ ، ولَون عَينَيه ولون شعره ، وثِيابه وألوان ثِيابه وأناقتَه ، وانسِجام الألوان في ثِيابه ، وحركته ونظرته ولَفْتَته ونبْرة كلامه ، لكن هل تستطيع أن تكشِف بِماذا يفكِّر ؟ أو ما الذي يخطر بِبالِه ؟ لايمكن ، إذاً دائرة معلوماتك محدودة وقفت هنا ، أما الواسع فهو الذي لا يعزب عنه أثر الخواطر

في الضمائر ، فَكُل الخواطر التي تخطرعلى بالك هي في علم الله عز وجل .

وقيل الواسع الذي أفضالُه شامِلة وعطاياه كامِلة ؛ إذا أعطى أدهش كما قيل الواسع هو المطلق ، فَنَحن عِندنا محدود ومطلق ، فما سِوى الله محدود ، لكن هذا المحدود بالنسبة لنا غير محدود .

فالآن بعد مئات السنين من البحث والتأمل وصُنع المناظير العِملاقة والمراصِد الجبارة هل تصدِّقون أيها القراء الكرام أن بعض عدسات المراصِد يستمر تبريدها خمسة عشر عاماً ، هناك مَرْصد بِأمريكا استمرت مدة تبريده خمسة عشر عاماً من أجل أن يأتينا بِبَعض الكواكب التي لا تُرى بِالمناظير الصغيرة ومع ذلك يقولون لك : وصلنا إلى مجرَّة تبعد عنَّا عِشرين مليار سنة ضوئيَّة!! تقول لهم يا تُرى هل هناك مجرّة أبعد من هذا ؟ يقولون لك نعم لكن عِلمنا وصل إلى هذا الحد ، فهذا الكون الذي نعيش فيه هو نظرِياً محدود ، فما سِوى الله محدود ، والله مُطلق ، والكوْن بِالنِّسبة إلى الله محدود بينما هو بالنِّسبة إلينا غير محدود ، فَكيف خالق الكَون ؟

مثَلاً من باب التوضيح وضعنا رقم (واحدٌ) في دمشق ولو وضعنا عند نقطة بِدايته صِفراً ولفَّ هذا المرء العالم كم سَيَكون بينه وبين النقطة التي ينتهي إليها والتي هي منطلق بِدايته ؟ لو أردت أن تحسِب هذا الرقم لَوَجَدْت أنه رقم خيالي ومع ذلك هو لا يساوي شيئاً مع اللانهاية ، فأكبر عدد على الإطلاق إذا نُسِب إلى اللا نِهاية فهو صِفر ، موضوع الأبد لا يستطيع العقل إدراكه فالجنة أبدية ، والإله لا نِهاية له ، وما سواه محدود .

قال بعض العارفين : والله يا رب لو تشابهت ورقتا زيتون ما سُميت الواسِع ، فالأرض تحمل ستة آلاف مليون إنسان ، ولنُجْرِ إحصاءً على مستوى بلد واحد ، فهل هناك وَجْهٌ يشبه وجهاً ؟ حتى لقد قيل لي : لو جِئنا بِآلة تصوير ملوَّنة ذات حساسية للألوان التي في البشر فلا تستطيع هذه الآلة أن تظهر الفروق التي بين الأشخاص ، إذْ إن كل شخصٍ له لَوْن ، أما هذه الآلة فقد تظهر مئة شخصٍ بِلَونين أو ثلاثة فقط ، في حين أن كل شخصٍ له لون ونبْرَة صوت ورائحة جسم وكيمياء دم وهي البلازما وله شكل بِالقُزحِيّة وله بصمة وزُمرة نسيجية ، فأنت لا تُشبِه في العالم كلِّه إلا واحداً ، فالعلماء اكتشفوا الآن مليونين ونِصف مليون زمرة نسيجية ، إذًا الله واسع ؟

ائتِ بِالمهندس وقُل له صَمِّم لي بِناءً تجد أن تصميمه لهذا محدود ، كذلك لو رأيت المركبات هذه زاويتها حادة وبعد سنة منحنية وفي عام ثالث تصمم ولها خطوط. .إلخ ، فَتَجد أن الإنسان محدود إبداعه ، لكن تصوّر كم ورقة نبات في الأرض ؟ هناك ورقة إبرية وتلك مسنَّنة إلخ ، ألف نوع من النبات الذي لا يُعد ولا يُحصى ، وهذا النبات الذي يُوضع بالردهة أو بالليوان له خصائصه التي ينفرد بها ، فالواسع الذي لا حدود لإبداعه ، ونحن إبداعنا محدود ، ولو قيل لنا اكتَشفنا إنساناً في المريخ لكان شكله معروفاً لدينا ؛ رأس ورجلين ويدين ، وبِالبحر مليون نوع من السمك فهناك سمك بِشكل زهور وسمك شفاف ترى أمعاءه بِداخِله والآخر أسود فاحِم ، وهناك من السمك الذي يلقي سحابة أمامه دِفاعاً عن نفسه وهناك الذي يلقي تياراً كهربائياً بقوة ستة آلاف فولت ، شيء عجيب ، وأنواع الطيور لا تُعد ولا تُحصى ، والزواحِف والوُرود ، مرّة أوضح

مثل وُجوه البشر كلها ذات أنفٍ وعينين وفم ، فهل تستطيع أن تصنع خمسة آلاف مليون وجه دون تكرار ؟ هذه البصمة يمكن أن نكبِّرها على مستوى متر مربع ، ولو عرضنا خمسة عشرة ألف بصمة لا يُمكن أن تتشابه بصمتان ، والبصمة تحوي مئة نقطة فلو تشابهت سبع نِقاط لَكانتا لإنسان واحدٍ ومع ذلك هناك جزر وفروع وأغصان وخُلجان ورؤوس كل هذا بِالبصمة ، وبعض المجرمين استغل هذا الأمر واستأصلوها وضعوا من لحمهم رقعَةً حتى إذا ارتكبوا جريمة لا يعودون إليهم وبعد حين ظهرت على النسيج الذي وُضِع كرقعة خطوطُ البصمةِ الأصلية قال تعالى :

﴿ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ٤] .

البصمة تقوم عند كل إنسان مقام التوقيع ، وهناك الآن بعض الأقفال لا تفتح إلا على قزحيّة العَين نظَراً لأنه ليس في الأرض إنسان واحد يشبِهك في قُزحِيّة العَين ، إذْ ينعدم في الأرض وجود تشابه قُزَحِيتين لإنسان ، فالواسِع لاحدود له ، وكل أسمائِه لا حدود لها ، في حين أن المخلوق محدود .

فالله هو الواسِع ؛ إذا نظرنا إلى عِلمه فلا ساحِل لِبَحر علومه ، وإذا نظرنا إلى إحسانه ونِعَمِه فلا نِهاية لإحسانه ، وكل سَعَة وإن عظمت تنتهي إلى طرف ، فأكبر محيط هو المحيط الهادي ، فلو ركِبته تصل بعد شهرين إلى شاطىء حيث ينتهي المحِيط الهادي ، والقمر وصل إليه رُواد الفضاء وكذلك المشتَري وصلوا إليه ، فكل شيء مهما بدا لك واسِعاً له حدّ ونِهاية .

ولنا من بعد وقفة مع الآيات الكريمة التي ورد فيها اسم الواسِع

قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١١٥] .

وقال تعالى :

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] .

في الآيتين السابقتين اقترنت السَّعةُ بِعلِمه ، وكذلك في الآية التالية ، قال تعالى :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

عِلِم إخلاصَك في هذا الإنفاق فهو واسع في عطائه لك ، وواسع في عِلمه فلا يعزب عنه مثقال ذرة ، قال تعالى :

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٧٣] .

هنا معنى دقيق الدلالة ، ففي الحياة الاجتماعية والوظيفية هناك مناصِب ؛ فهناك مدير دائرة ، وهناك موظف بالدرجة العاشِرة وهذا المنصب يقال لك : شُغِل ولا سبيل للارتِقاء إليه حتى يُزاح الذي

فوقك فليس من شواغر فالعطاء ليس واسعاً ، لكن الله تعالى يَسَع فضله الخلق كله ، فلا يحسد إلا الجاهِل قال المعافىٰ بن زكريا :

أيا حاسداً لي علي نعمتي أتدري على من أسَأت الأدب
أسأت على الله في فِعله لأنك لم ترض لِي ما وهب

فليثق المرء بعطاء ربه وليطلب منه فهو سبحانه واسع عليم ، فالإنسان عطاؤه محدود لكن الله واسِع ولا حدود لِفَضْله ، فَبَدَلَ أن تحسد الناس اِسْعَ في طلب ما عند الله كما طلبوا من الله لذلك قال تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٧٣] .

لو أن العِباد كلهم كانوا كَمُحمَّدٍ ﷺ لأَعْطاهم مِثل ما أعطى محمّداً ـ طبعاً إلا النبوة ـ ، والله واسِع عليم ، فاسم الواسِع يتناقض مع الحسد ؛ لأن الحاسد لا يرى ما عند الله من خير عميم ؛

عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي صَلاةٍ وَقُمْنَا مَعَهُ فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ وَهُوَ فِي الصَّلاةِ : اللَّهمّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا وَلا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا فَلَمَّا سَلَّمَ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ لِلأَعْرَابِيِّ : « **لَقَدْ حَجَّرْتَ وَاسِعًا** » يُرِيدُ رَحْمَةَ اللهِ . [رواه البخاري] .

اللهم ارحمني ومُحمَّدا ولا ترحم معنا أحداً ، فقال عليه الصلاة والسلام : لقد حجَّرْتَ واسِعاً ، لو أن الخلق جميعاً كانوا على أتقى قلب رجلٍ في البشر لَوَسِعهم فضل الله عز وجل ، كلمة واسع كلمة رائعة جداً ؛ والله واسع عليم قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، أي : يعطيه من يشاء من عِباده .

وقال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

لا تحسُد ولا تتمنّ ما عند أخيك بل أُطلب من الله ولا تتمنّ ما فضَّل الله بعض الناس على بعضهم ، وأصغِ سمعك لقول الشاعر ففيه معنى رائع في الموضوع الذي نحن فيه :

مِلك الملوك إذا وَهَب لا تسألَنّ عن السبب

وأنا عدّلْته وقلت :

ملك الملوك إذا وهب قُم فاسْألنّ عن السبب
الله يعطي من يشا ء فَقِف على حدِّ الأدب

لاتحسدْ ، وإنما تنافس مع أخيك دون أن تحْسُده ، قال تعالى :

﴿ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦] .

لأن فضل الله واسع يؤتيه من يشاء ، وقال تعالى :

﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ [النور : ٣٢] .

لو كان إنسان يساعِد الفقراء لَضَجِر وتبرّم أحياناً ، وقال : كفاكم ، لقد سَئِمت لأنه ليس واسعاً ، ولكنهم لو سألوا الله عز وجل لوجدوا عطاءه واسعاً دافقاً ، وقد قال رسول الله فيما يرويه عن ربه تعالى :

« يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ

وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ » . [رواه مسلم] .

كُن فَيَكون وزُلْ فيَزول ، هناك أشخاص لهم مبالغ طائلة أربعة آلاف مليون دولار ، فهذا الإنسان لو اشترى أفضل منزل وأفضل جزيرة وأفضل يَخت ، هناك يُخوت ثمنها عشرون مليون دولار ، لربما ضاق ذرعاً خوفاً على المال أن ينفد ، والنبي عليه الصلاة والسلام ماذا قال فيما يرويه عن ربه : « فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْر » .

اركب البحر واغمس إبرة فيه وارفَعْها ثم انظر ماذا أخذت من ماء البحر ، فهذا الذي أخذته هي الدنيا والبحر هو الآخرة ، و الله واسع عليم ، فالإنسان مهما غنِيَ وتنَعَّم وقوِيَ وانغمس في الملذات والشهوات كل هذا لا يساوي من الآخرة مثقال ذرة إطلاقاً : عَنْ سَهْلِ ابْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ » . [رواه الترمذي] .

فالدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة ، قال تعالى : ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٣٠] .

يعني إذا أساء الزوج إساءة بالِغة لِهذه الزوجة وتَفَرَّقا يُرْسِل الله لِهذه الزوجة المظلومة زوجاً أغنى وألطف وأحب ، والله واسع عليم .

قال تعالى :

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ

أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام : ٨٠] .

وسِع ربي كل شيء عِلماً : أيْ لا تخفى عليه خافِيَة ، فالله يسمع دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، فهل تستطيع أنت أيها الإنسان أن تسمع دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ؟ لذلك وسِع ربي كل شيء عِلماً ، وهل تستطيع أن تقرأ خواطِر الحاضرين معك ؟ الله واسع عليم .

كل تلك الآيات تبيِّن سَعَة فضْلِه وسَعَة عِلْمِه ، أما هذه الآية فهي تبيِّن سَعَة رحمته قال تعالى :

﴿ ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

فهذه الآية مطمئنة ، تطمئن إليها النفوس حتى الجانحة منها فلعلها تؤوب ، فالله قال : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾ فأنت داخِل رحمة الله عز وجل قال تعالى :

﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه : ٩٨] .

وقال تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَاتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر : ٧] .

فالإنسان العالم ليس بِيَده شيء ، والإنسان الرحيم ليس بِعالم ، أمّا أن تجتمع الرحمة مع العِلم فهذا فضل واسع! فهناك رحمة مع جهل ، وعِلم مع قسْوَة لكن ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾

فاجْتِماعُهما شيء تلتذ به النفوس وتنشرح له القلوب ، تجد شخصاً من أذكى الخلق لكنه لئيم وقلبه كالصخر ، وأحياناً يقابلك شخص قلبه يفيض بالرحمة ولكنه جاهِل فلا هذا يعجبك ولا ذاك ، أما أن تجتمع هاتان الخصلتان قال تعالى : ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ .

وقال تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات : ٤٧] .

هذه الآية تتفق مع أحدث نظرية في الكون وهي تمدّد الكون .

الواسِع هو المُطلق لا يشغله معلوم عن معلوم ولا شأنٌ عن شأن ولا مسموع عن مسموع ولا دعاء عن دعاء ، وسِع إحسانه جميع الخلائق ، ولا يمنعه إغاثة ملهوفٍ عن إغاثة غيره ، وبعض الأئمة يُرجِّحون أن اسم الواسع جاء عَقِب اسم المجيب ، وأنَّ التقدير إذا سأله سائل كيف يمكنه إجابة جميع الخلائق ؟ كيف يسمع أصواتهم مرة واحدة ؟ وكيف يعلم ضمائرهم دفعةً واحدة ؟ وكيف يستطيع تحصيل مراداتهم جميعاً ؟ الجواب هو واسع عليم .

قد يسأل المرء نفسه أحياناً كيف أن الله يستمع لِجميع المخلوقات ويُجيب جميع الخلائق ويعلم كل الضمائر ؟ والجواب إنه واسِعٌ عليم ، وكأن السعة والعلم متعلقان بِالمجيب والحديث الشريف :

« **إنكم لا تسَعون الناس بِأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق** » ، المال يضيق ولكن الخلق أوسع .

ويحلو لي أن أختم البحث بما يلي : من أدب التَّخلّق باسم الواسع : أن يتَّسع خلُقُك ورحمتُك لجميع عباد الله ؛ فقد يكون عطْفك كله لأولادك ، وأحياناً لأقرِبائك وتضيق دائرة رحمتك عن

الغرباء ، وتحب أسرتك وعشيرتك وقبيلتك ، أما المؤمن فكلما ازداد إيمانه اتَّسِعت دائرة رحمته لِكل الخلائق .

عندما جاء جبريلُ النبيَّ ﷺ بعد أن اسْتَخَفوا به في الطائف وبعد أن سَخِروا منه وكذَّبوا دعْوَته وأَغْرَوا سُفهاءهم بإيذائه :

عَائِشَة رَضِي الله عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ قَالَ : لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا » . [رواه البخاري] .

فالنبي عليه الصلاة والسلام قال : اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون ، طبْعاً لا بد من باب الموازنة فما منا من أحد لو أساء إليه آخر إساءة بالغة إلا ويتمنى أن يُقَطِّعه إرْباً إرْباً لكن النبي ﷺ وسِعت رحمته خصومه وأعداءه والذين كذَّبوه وسخِروا منه واسْتَخَفوا به والذين أَغْرَوا سفهاءهم بإيذائه هؤلاء وسِعتهم رحمة النبي عليه الصلاة والسلام ، فمن أدب التخلق بِهذا الاسم أن تتَّسِع رحمتك لِكل عِباد الله من كل الأجناس ، والمؤمن أوسع مدى من ذلك فحتى الحيوانات يرحمها ؛ إنكم لن تسَعوا الناس بِأموالكم فسعَوْهم بِأخلاقكم لذلك

فالنبي عليه الصلاة والسلام لما سمِع الأعرابي يقول : اللهم ارحمني ومحمّداً ، قال له : لقد حجَّرْت واسِعاً .

أحد العلماء يقول : « **تأدُّباً مع اسم الواسِع ينبغي أن تتَّسِع دائرة عِلمك لأن الله عالم ويحب كل عالم وأن تتَّسِع دائرة إحسانِك ودائرة عَفْوِك لتشمل كل الناس** » ، فهناك قلب صغير وهناك قلب كبير يتَّسِع لكل الناس ولكل التجاوُزات والعَنْعَنات والحماقات ، ولكن هناك من ينفجِر قلبه ويضيق ويكيل الصاع صاعين ، والعوام يقولون : الوعاء الأكبر يتَّسِع للأصغر ، فأنت كلما كبرت عند الله إتَّسعت نفسك لكل الخلائق ، والكبير يسَعُ الصغير ، والحليم يسع الأحمق ، والعالم يسع الجاهل ، والغني يسع الفقير ، فهذا هو التطبيق العملي لهذا الاسم وهو أن تتَّسِع في علمك ورحمتك وإحسانك وعَفْوِك .

الإنسان الواسِع يتَّسع للحسود مثلاً ولغيره ، ولكل من أساء إليه لذلك : قال سهل بن عبد الله : كلم الله موسى بطور سيناء . قيل له : بأي شيء أوصاك ؟ قال : بتسعة أشياء ، الخشية في السر والعلانية ، وكلمة الحق في الرضا والغضب ، والقصد في الفقر والغنىٰ ، وأمرني أن أصل من قطعني ، وأعطي من حرمني ، وأعفو عمن ظلمني ، وأن يكون نطقي ذكراً ، وصمتي فكراً ، ونظري عبرة .

قلت : وقد روي عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أمرني ربي بتسع : خشية الله في السر والعلانية ، وكلمة العدل في الغضب والرضى ، والقصد في الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعني وأعطي من حرمني وأعفو عمن ظلمني وأن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبرة وآمر بالعرف « وقيل » بالمعروف » رواه رزين .

* * *

الواحِدُ

من أسماء الله الحُسنى « الواحد » ، وفي اللّغة الواحد هو المُتَوَحِّد الذي لا يخالط الناس ولا يجالسهم ، والتوحيد أن تؤمن بالله إلهاً واحداً لا شريك له وإحدى صفات الله جلّ جلاله « الواحد » ، وقد خصّها بنفسه لا يَشْرَكُه فيها أحد ، هو الواحد .

قيل ؛ الواحد هو الفرد الذي لم يزل وحده ولم يكن معه أحد من قبلُ ، ولا يزال وحده الى أبد الآبدين ، واحدٌ قبْلاً وبعْداً أزَلاً وأبَداً ، الله سبحانه وتعالى لم يرض بالوحدانية لأحد غيره ، وفي اللغة أيضاً واحدٌ في هذا الباب ، واحدٌ في هذا العِلم ، واحدٌ في هذا الفن ، واحدٌ في هذه الخبرة ، الواحدُ في اللغة التّقدم بالعِلم أو البأس أو غير ذلك ؛ أي التّفوق ، هناك معنيان يليقان بالله عز وجل الوحدانية والتفوّق هو وحده ، وواحدٌ لا شريك له وقبل أن نمضِي في الحديث عن هذا الاسم العظيم ، نذكر ما قد ورد في الآثار من أنه اسم الله الأعظم ، هناك واحدٌ وهناك أحد ، الله جل جلاله واحد أحد ، واحد لا شريك له ، وأحد لا مثيل له ؛ لا شريك : واحد ، ولا مثيل : أحد ، فهو واحد أحد فرد صمد .

والعدد أحياناً يأخذ معنيين : معنىً كمِياً ومعنىً نوعِياً ؛ تقول :

فلان ترتيبه الرابع في صفّه فَكَلِمة الرابع ليس هو أربعة أشخاص ولكن ترتيبه هو الرابع ، وهو المعنى النوعي للعدد ، أما إذا قلنا جاء أربعة أشخاص فهذا المعنى الكَمِّي ، فالعدد له معنى كمي وله معنى نوعي ، إذا قلنا : الله واحد أي لا شريك له ، وإذا قلنا : الله أحد أي لا مثيل له ، فَكَأَنّ « أحد » تشير إلى المعنى النوعي ، وكأن « واحد » تشير إلى المعنى الكمي .

على كُلٍّ التوحيد مشتق من الواحد وكل مؤمن يعلم أنه ما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد ، والتوحيد نِهاية العِلم على الإطلاق ، وفَحْوى دعوة الأنبياء جميعاً ، والتوحيد هو الدِّين ، لذلك التوحيد مأخوذ من اسم الله الواحد . لكن التوحيد توحيدان : توحيد ربوبية وتوحيد ألوهِيّة ، فتَوْحيد الربوبية أن تشهد أن الله سبحانه وتعالى واحد في ملكه ، وهو الذي خلق ورزق وأعطى ، وهو الذي منع والذي رفع ، وهو الذي خفض وهو الذي قبض وبسط وهو الذي أعزّ وأذلّ ، هذا توحيد الربوبية ، لا رازقَ ، ولا معطيَ ولا مُحْيِيَ ، ولا مُميتَ ، ولا مدبرَ لأمر الكون كله ظاهراً وباطِناً إلاّ هو ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا تتحرك ذرة إلا بِإذنه ولا يحدث حادث إلا بِعِلْمِه ، ولا تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا يعزب عنه مِثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر ولا أكبر إلا أحصاها عِلمه وأحاطت بِها قدرته ونفذت فيها مشيئته واقْتَضَتْها حِكمتُه ، فتَوْحيد الربوبية أن تؤمن أنه الواحد في تدبيره وفي ملكه .

أما توحيد الألوهية فَهُو أن تعبده ولا تعبد أحداً معه وألا ترى له نِداً ولا مُدبِّراً ولا معطِياً ولا مانِعاً إلا هو ، توحيد الربوبية رُؤية ، لكن

توحيد الألوهية أن تعبده وحده ، والدين رؤية وعِبادة ؛ عِلم وعمل ؛ عقيدة وسلوك .

هناك رأي آخر عند بعض العلماء لِتوحيد الربوبية وهو أن تعتقد أن لهذا الكون خالِقاً واحداً ، أما توحيد الألوهية فأن تعتقد أن الله تعالى هو المستحق وحده للعبادة ، فهو المُسَيِّر وهو المعز والمذل والمحيي والمميت .

على كلٍّ اختِلاف التسمية لا يقدِّم ولا يؤخر نحن أمام حقيقتين : حقيقة أن نشهد أن الله واحد في ذاته وواحد في صفاته وواحد في أفعاله وأنه الخالق والرازق والمحيي والمميت وأنه المعطي والمانع والرافع والخافض والقابض والباسط وهو كل شيء ، والتوحيد : ألا تشهد أنَّ مع الله أحداً ، هذه كلمة تُلقَى وفِكرة تُسْمع وتُدْرك لكنه شتان أن تُدْرِكها وأن تفهمها وبين أن تعيشها .

أحد أكبر مصادر الشقاء في الحياة الدنيا ألا تكون موَحِّداً قال تعالى :

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

ما الذي يُعذّب الإنسان ؟ أن يرى أمره بِيَدِ عدوِّه وأنه ضعيف وخَصْمُه قويّ وهو حاقِدٌ عليه . وما الذي يُريحه ؟ أن يرى أمره بِيَد رحيم وبِيَد إلهٍ عادِل وبِيَد قدير وبِيَد غني وبِيَد رحيم وبِيَد رؤوف ، ما الذي يُريحك إذا كنت مُحِقاً ؟ يُريحك أن يكون القاضي عادِلاً ، تقول مثلاً : أنا لا أُبالي فالقاضي يحكم بِالحق وأنا معي الحق ، وما الذي يُريحك وأنت مُوَظَّفٌ في دائرة ؟ أن توقِن أنّ المدير العام مُنصِف لا يُلْقي بالاً للوِشاية يتحقق بِنَفْسه ، والذي يُريح الإنسان أن

يرى أنّ أمره بِيَد الله ، وأن الله لا يمكن أن يقول لك يا عبدي أُعْبُدني وأمرك بِيَد غيره ، وحينما يكون أمرك بِيد غير الله فأنت مضطر إلى أن تعبد غير الله أما حينما يقول الله لك :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٢٣] .

فهذا يعني أنه لم يأمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك بأن أمرك كله بيَدِهِ .

هذه الحقيقة لا أفتَأ أُكرِّرُها إلى آخر يوم من حياتي ؛ لأنَّ القرآن الكريم كله يدور حولها قال تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

انظر إلى نفسك ما الذي يُقلِقك ؟ ضعف التوحيد والإشراك وما الذي يُخيفك ويقبض قلبك ؟ الإشراك ولا أقول الجليّ إنما الخفيّ ، وما الذي يُزْعِجك ؟ أن تعْتَقِد أن زيداً بِيَدِه أمرك وهو لا يحِبّك وأن تعتقد أن رِزقك بِهذه الجِهة وربما تغضب عليك ، لذلك حينما تُوَحِّد تسْتَرخي وترتاح أعصابك وتذهب عنك الشّدة النفسية وترى بِأنك بِيَد أرحم الراحمين ، لو كانت لك قضية عند شخصٍ عادل رحيم لا تُبالي .

أكرر ثانية : هناك توحيد ربوبية وتوحيد ألوهية ، والتوحيد ألا تشهد أن مع الله إلهاً آخر ، لكن هناك حقيقة أخرى وهي أن هذه العَين تُريك أُناساً أقوِياء يفعلون ما يقولون ، والله عز وجل لا يمكن أن تراه بِعَينك بل تُدْرِكه بِعَقلك ، فالإنسان بِلا جهدٍ عقلي يرى شُركاء مع الله

بل العالم كله الآن يقول : إن الدولة الفُلانية قويّة لأن معها سِلاحاً نَوَوياً ، وبِيَدِها مصير العالم ، فالعَين الظاهرة تُريك الأقوِياء من البشر ولكن العقل الراجح مع التأمل والتفكر والتدبر والقِراءة وحضور مجالس العِلم تُريك الواحد الأحد ، ألم يقل الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس : ٢٤] .

هناك دولة لها من القنابل النوويّة ما تستطيع أن تُدَمِّر الأرض خمس مرات ، لا أُنكِر أن هذه العَين ترى الأقوِياء من البشر لكن عقلك وإيمانك وتفكرك وتدبرك لآيات الله يُريك أنه بيده كل شيء ؛ رؤية التوحيد تحتاج إلى جهد وإلى إيمان بِكتاب الله وإلى يقين . واعلم أن رؤية التوحيد لها ثمن أما رؤية العَيْن فهي بلا ثمن ، كل إنسان إذا رأى بِعَينه يقول لك : هذا قوي وذاك غني لكنك إذا قرأت القرآن وهو كلام خالق الأكوان وفهِمت آياته وتدبَّرْته وصدَّقْته ، ورأيت الحوادث كيف تجري ؛ تستنبط أن كل الأقوِياء عِصِيٌّ بِيَد الله عز وجل يُحَرِّكها كيف يشاء ، قال تعالى على لسان نبيّه هود :

﴿ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٥] .

إذا وقفت عند إنسان ولك عنده حاجة وهو أقوى منك يجب أن تؤمن أن خاطِره وقلبه وعينه وطريقة تفكيره وكل ما يُلْقى في روعه من إلهامات بِيَد الله ، فإذا أراد الله أن يرحمك ألْقى في قلبه العطف

عليك ، وإذا أراد أن يُؤدّبك ألقى في قلبه قسوةً عليك :

﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ [طه : ٣٩] .

من الذي ألقى في قلب امرأة فرعون محبة ذاك الطفل حينما رأت طِفلاً صغيراً في الصندوق ؟ هو الله قال تعالى :

﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [القصص : ١٢] .

فَمن الذي حرم على هذا الطفل كلَّ هذه المراضِع ؟ هو الله ، هذا تحريم منع وليس تحريم تشريع ، أما حينما جاءت أمه اِلْتَقم ثدْيَها ، فالله عز وجل من خلال قصة سيِّدنا موسى وسيدنا يوسف يُريك أنّ الفِعل بِيَده . والله الذي لا إله إلا هو أحياناً أستمع إلى قِصة أشعر أنها غِذاءٌ لِقلبي لأنها في دلالتها تشير إلى أن الله بِيده كل شيء ، دلالة صارخة وقد يظهر فِعل الله للناس جميعاً وأحياناً يمتحن الله عبده بِأن تظهر أفعال القويّ جلِيّة واضحة ويتبادر لنفسك أن هذا الإنسان يفعل ما يقول ، فأين الله ؟ هذا امتِحان لِضِعاف التوحيد ، وأحياناً تبدو لك أفعال الله صارِخة ، فقد تسمع أنّ حريقاً التهم ثلاثين مَحَلاً تِجارِياً والتفّ حول مَحَلٍّ واحد مخلفاً إياه ؛ شيء واضِح جداً أن صاحب هذا المحل يدفع زكاة ماله . في إحدى السنوات جاءت حمْلَة الجراد ، وأعتَقِد أنها في الثلاثينيات ، فأكلت الأخضر واليابس وأتى على كل البساتين إلا واحداً في الغوطة إذ بقي كأنه قِطعةٌ من الجنة بأشجاره وأوراقه ، فلما سألوا صاحب البستان قال : أنا أدفع زكاة مالي . وجاؤوا بِكيسٍ من الجراد وألْقَوْهُ في بستانه فتَطايَر في دقائق معدودات ، إذاً أحْياناً ترى فِعل الله صارِخاً ، وأحْياناً ترى فِعل

الإنسان صارِخاً ، واللهُ في كل الأحوال هو الفعّال لكن يُمْتَحن ضِعافُ التوحيد قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ١٥] .

أحياناً يتِم شِفاء ذاتي لِمرضٍ عُضال في حين أنّ الأطِباءَ جميعاً أجمعوا على أن هذا الإنسان لا محالة ميت ، مرض خبيث من الدرجة الخامسة ؛ تصوير وتحليل ومخابر سورية ومخابر بريطانية وخمسة أطِباء ؛ فإذا بِالمرض ينحسِر شيئاً فشيئاً ويعود المرء سليماً صحيحاً كما كان من قبل ، فهذا فِعل الله المباشر فالله جلّ جلاله هو الفعال لِما يريد .

التوحيد هو الحُكم بأن الله تعالى هو الواحد ، وهذا الحكم يكون بِالقول والعِلم وبِالإشارة بِالأصبع ففي الصلاة تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله ، وهناك توحيد بِالقول وتوحيد بِالعِلم فأنت تُوَحِّد عِلماً وقوْلاً وإشارةً . وليعلم كل مؤمن أن التوحيد ثلاثة أنواع : توحيد الحق لِنَفْسِه قال تعالى :

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ [محمد : ١٩] .

هو يعلم أنه واحد ويُعْلِمُنا أنه واحد ، وتوحيد العِباد لله جل جلاله حينما تقول أشهد أن لا إله إلا الله وتوحيد الحق للعبد ، فالله عز وجل يَعْلم أنه واحد ويُعْلِم العباد أنه واحد ، وأمرك أن تعلم أنه واحد ؛ إذاً هذه ثلاثة : توحيد الحق للعبد وتوحيد الحق للحق وتوحيد العبد للحق .

التوحيد : كما قال علي رضي الله عنه « أن تعلم أنّ كل ما خطر

ببالِك أو توهمته في خيالك أو تصورته في حال من أحوالك فالله جلّ جلاله وراء ذلك » ، والتوحيد أن تعلم أن الله واحد في ذاته وواحد في صفاته وواحد في أفعاله ، فالله له ذات وله صِفات وله أفعال ، ووحْدانِيَّتُه تشمل هذه المعاني كلها . أجل إنه : واحد في ذاته وواحد في صفاته وواحد في أفعاله ، وهو واحد لا شريك له وبِصِفاته متفرّد بها ، وهو الرحمن ولا رحمن سِواه ، أما أفعاله فهو القهار ولا قهار سواه ، واحد في ذاته لا إله غيره ، وواحد في صفاته لا رحمن غيره ، وواحد في أفعاله لا قهار غيره ، في أفعاله ، وواحد في ذاته لا يتجزّأ ولا يتناهى ليس بِمُتَجَزِّىءٍ ولا بِمُتَبَعِّضٍ ، فالله واحد ، لكنك تجد أشياء من جزءين أو ثلاثة فهناك آلات تُفَكَّك ، لكن الله واحد في صِفاته لا يشبِهه شيء وهو لا يُشْبِه شيئاً ، وواحد في أفعاله لا شريك له .

وقال بعض العارفين : « **الواحد هو الذي تناهى في سُؤدَدِه ، فلا شبيه له ولا شريك يساويه** » ، وقال بعض العارفين أيضاً : « **الواحد هو الذي يكفيك من الكُل والكُل لا يكفيك من الواحد ، يحتاجه كل شيء في كل شيء** » .

لو أن ستة آلاف مليون إنسان ودُوَل الأرض كلها وقِواها أرادوا بِك سوءاً وكنت مع الله فالله يكفيك كل هؤلاء ، فهذا الكلام دقيق ؛ هو الذي يكفيك من الكُلِّ والكُل لا يكفيك من الواحد ، ولو أن قِوى الأرض وأسلحتهم أرادوا بك خيراً لن تستطيع أن تنجُوَ من عذاب الله ، لذلك كنت أردد لكم دائماً أنّ الحسَن البصري رضي الله تعالى عنه ، حينما سأله والي البصرة عمر بن هبيرة عن توجيهٍ أتاه من يزيد بن عبد الملك ، وكان تنفيذ هذا التوجيه يغضب الله عز وجل

فقال : ماذا أفعل ؟ فقال له الحسن : إن الله يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله ، فَمهما اِحْتميْت بِقويٍّ فهذا القوي لا يمنعك من الله ، لكنك إذا احْتَمَيْت بالله يمنعك من أقوى الأقوِياء ، وهذا هو التوحيد .

وقيل : « التوحيد ، أيْ أن الله هو الأحَد المنفرد بإيجاد المعدومات والمُتَوَحِّد بِإظهار الخَفِيات » ، فالإنسان يصنع شيئاً من شيءٍ ؛ طاولة من خشب ومركبَة من حديد ، لكن الله تعالى يُوجِد كل شيء من لا شيءٍ ، وهذا الفعل لا يستطيعه إلا الله .

وقيل : « التوحيد أن ترى أن الله واحد في ملكه لا يُنازِعه أحد وفي صِفاته ولا يشبهه أحد » ، وقيل : « التوحيد الذي لا ثاني له في الوجود فهو المنفرد ذاتاً وصِفاتٍ وأفعالاً بِالألوهية والربوبية والأزلية والأبدية » .

وبعد فهل ورد ذكرُ هذا الاسم العظيم الذي قيل عنه أحياناً إنه اسم الله الأعظم هل ورد في كتاب الله عز وجل ؟ إليكم هذه الآيات الكريمة قال تعالى :

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] .

يجب أن نشعر أن إله إبراهيم هو إلهنا ، وأن إله نبيِّنا صلى الله عليه وسلم هو إلهنا ، وأن إله الصحابة الذين نصرهم على أعدائهم هو إلهنا ، وأن الله تعالى الذي وعدنا بِالتمكين بالأرض وبالاستِخلاف وبِالأمن هو إلهنا ، وهو في السماء إله وفي الأرض إله ، وفي الأزل

وفي الأبد ، كيف أن الله سبحانه نصر المؤمنين وجعل رايَتهم تُرفرف في مشارق الأرض ومغاربِها ؟ هو الله . وهذه آية أخرى :

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٦٣] .

وهذه آية ثالثة :

﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [النساء : ١٧١] .

وفي الأنعام يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ١٩] .

يعني فعال واحد ، وإرادة واحدة ، ومعطٍ واحد ، ومانع واحد ، ومعز واحد ، ومذل واحد ، ديننا كله توحيد ، والأجانب فيما سمعته من الذين ذهبوا إلى بِلادهم وجالسوهم ، واستمعوا إليهم ، يدَّعون أن الله تعالى خلاق وليس فعّالاً فقد خلق وأعطى قِوى للبشر ، لكنه لم يُعْطِها بالتساوي فهناك القوي والضعيف ، ولكن المسلم يعتقد أن الله خلاق وفعّال .

وفي سورة يوسف : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : ٣٩] .

قد يموت الأب وهو يملك معملاً ويخلِّف خمسة أولاد وهؤلاء

الأولاد يتسلَّمون هذا المعمل ، فالموظف الذي عندهم يتلقى الأمر من فلان وفلان ، أما إن كان للمعمل مدير واحد فالآمر واحد والمسؤوليّة محددة ، ومشكلة المشاكل أن يكون لك عدة رؤساء تتلقى منهم الأمر فتقع في حيرة ؛ تُرضي من ؟ وتُغضِب من ؟ وتهتم بأمر من ؟ وتُهمِل أمر من ؟ وممن تقترب ؟ وعمن تبتعد ؟ فكلهم أقوياء وكلهم يأمرونك ، هذا مثَل تقريبي ، ولو تعامل الإنسان في الحياة الدنيا مع جِهاتٍ عديدة لتمزّقت نفسه ؛ إن أرضى فلاناً غضِب فلان وإن أعرض عن فلان استشاط الآخر غيْظاً فيبقى في حَيْرة من أمره ، لكنه لو كان الأمر بِيَد واحد لصار التعامل سهلاً جداً ، لذلك أحد أسباب نجاح المؤمن في حياته عدم التشتّت والتَّمَزّق والتَّبَعْثر فكل قِواه مُجمَّعة لإرضاء إله واحد ، قال الشاعر :

فَلَيْتَك تحلو والحياة مريرة   وليتك ترضى والأنام غِضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر   وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الوصل فالكل هَيِّن   وكل الذي فوق التراب تراب
فياليت شربي من ودادك صافياً   وشربي من ماء الفرات سراب

تجد بعض الأحيان إنساناً شديد الحِرص على سُمعته وكرامته ؛ لكنه قد يواجه مواقف مؤذية ففلان لابد أن يعتذِر منه والآخر لابد أن يَدْعُوَه وثالث ورابع الخ ، فهذا ذل وتمزّق ، إنما الإرضاء هو إرضاء الرب سبحانه وتعالى والباقون يحاول أن يرضِيَ من رضيَ تحت مظلة الشرع لذلك قال سفيان الثوري : من عرف نفسه لم يضره ذم الناس له ، هو يحرص على سمعته لكنه لا يتمزق حينما يُتَّهم ظلماً ، فأمُّنا عائشة رضي الله عنها اتهمت ظلماً والله برَّأها ، والنبي الكريم صلى الله

عليه وسلم اتّهم بإنه ساحر وشاعر وكاهن ولكن الله نصره وأعلى مقامه .

قال تعالى : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ .

قال تعالى :

﴿ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ [الرعد : ١٦] .

وفي سورة إبراهيم قال تعالى :

﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾

[إبراهيم : ٤٨]

قد يجد المرء في نفسه أنه أقوى الأقوياء وينسى أنّ الله فوقه والله سبحانه وتعالى يقهره فالله عز وجل قهار ، كيف هو قهار ؟ قال العلماء : سبحان من قهر عِباده بِالموت ، تجد شخصاً مِلء السمع والبصر وفي ثانية يصير في خبر كان ، فالله قهار قال تعالى :

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [إبراهيم : ٥٢] .

المشكلة ؛ التَّبَعْثُر بين أقوياء ، المؤمن لا يرى أن مع الله أحداً وعليه أن يُرضيه وكفى وقال تعالى :

﴿ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ﴾

[النحل : ٢٢]

ورحمةً بعباده وإرشاداً لهم قال تعالى :

﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾

[النحل : ٥١]

تقول له : هذا حرام فعله وذاك حرام بيعه فيقول : أبي يَوَدّ هكذا! فهذا قد اتّخذ أباه إلهاً ، وذكر لي أخ أنهم في محلهم يزن العامل بدل الأوقية مئة وخمسين غرامًا ويتقاضون ثمن مئتي غرام وإذا تكلّمت طردني أبي!! فهذا هو الغش وأحياناً يجعل المرء زوجته معبوده وهو لا يدري يخاف أن تغضب فلا يُعارِضها ولو أمرته بمعصية! قال تعالى : ﴿ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ .

وأحياناً يرضي الإنسان من هو أقوى منه ويعصي الله فهذا يعني أنه اتخذ إلهين اثنين ، حينما ترضي مخلوقاً وتعصي الله فقد اتّخذت إلهين ، أنا لا أقول إنك قلت « هذا المرء هو إله » ولكنك عاملت هذا المخلوق كما عاملت الإله فإن تُقِر أو لا تقِر ، وإن ترضى أو لا ترضى ، فقد اتخذت إلهين دون أن تشعر لكن أستحلفك بالله أيها القارىء الكريم وهذا مثل منتزع من واقِعنا لو كنت بِخِدمة إلزامية وأمرك العريف بِأمر ثم أمرك اللِّواء بِأمر آخر ونفَّذت أمر العريف فماذا تكون النتيجة ؟ أليس حُمقاً ؟ فما بالك بِمن يطيع المخلوق ويعصي الخالق فهذا المخلوق لا يملك لِنَفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، نبينا سيِّد الخلق وحبيب الحق ﷺ والله يعلمه ، ومن خلال تعليمه تتعلم الأمة ، أمره الله تعالى أن يقول :

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ

لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

[الأعراف : ١٨٨]

ولو انتزعت حكماً من لسان رسول الله ﷺ ولم تكن محِقاً ماذا يكون مصيرك يوم القيامة ؟! قال :

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِي الله عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فلا يَأْخُذْهَا » .

[رواه البخاري ومسلم]

هذا هو الحق ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ .

فإذا كان طبيب عليه إقبال شديد يقول لك ليس لك عندي موعد إلا بعد ثلاثة أشهر ، وهناك أشخاص أقوياء لا أمل لك بِمُقابَلَتِهم ، أما ربنا تعالى فيقول : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ .

الآية واضِحة في معناها ودلالتها ، ولا يشرك بِعِبادة ربه أحداً ، فأنت بِحاجة إلى توحيد واستِقامة وعملٍ صالحٍ كي تجد نفسك مع الله ، قال تعالى :

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[الأنبياء : ١٠٨] .

أي ماذا تنتظرون ؟ أنت بِحاجة إلى موافقة ولا بد لك من سفرٍ ،

والسفر ضروري جداً ، ومعروض عليك صفقة بالملايين صعدت الطابق ووقفت على باب مدير الهجرة ثم انصرفت تتذلل لغيره ، أليس هذا هو الحمق ؟ فليس لك أن تذهب إلى من هو دون المدير وتريق ماء الوجه أمامه ؟ فكيف بالله ؟ قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي ماذا تنتظرون ؟ أنى تصرفون وأنى تؤفكون ومالكم كيف تحكمون ؟ قال تعالى :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج : ٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ ۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

ديننا دين توحيد وفي سورة الزمر قال تعالى :

﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر : ٤] .

وفي سورة غافر قال تعالى : ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر : ١٦] .

هذا اسم الواحد ، أما أحد فلم يرد إلا مرة واحدة في قوله تعالى :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص : ١] .

والواحد ورد في القرآن أكثر من عشرين مرة ، هناك رأي لِبعض العلماء في التفريق بين واحد وأحد ، لقد ذكرت في مطلع البحث أن الواحد لا شريك له الأحد لا مثيل له ، والأحد له إشارة نوعية أما

الواحد فله إشارة كميّة ؛ هناك تفريق آخر فإذا قلت : ما في الدار أحد يعني ليس فيها لا واحد ولا اثنان ولا ثلاثة فإذا نفيت الواحد نفيت العدد الذي بعده ، أما إذا قلت ما في الدار واحد فقد يكون هناك أربعة هذا فرق في استِخدام كلمة واحد وأحد ، ثمّ شيء آخر ذو بعد واضح وهو أنك لا تقول رجل أحد ، فكلمة أحد اختصَّ الله بِها .

هناك فروقات أخرى بين الواحد والأحد ، ولكن المهم أن الله تعالى هو واحد وأحد في وقت واحد . بعد كل هذا الشرح والإيضاح فكيف نتأدب بهذا الاسم ؟

عَنْ عَاصِمِ بْنِ ضَمْرَةَ السَّلُولِيِّ قَالَ : قَالَ عَلِيٌّ رَضِي الله عَنْهم : أَلا إِنَّ الْوَتْرَ لَيْسَ بِحَتْمٍ كَصَلاتِكُمُ الْمَكْتُوبَةِ وَلَكِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَوْتَرَ ثُمَّ قَالَ : « **أَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ أَوْتِرُوا فَإِنَّ الله وَتْرٌ يُحِبُّ الْوَتْرَ** » .

[رواه مسلم والترمذي]

أي يحب القلب المنفرد بِمحبته تعالى فالله لا يقبل العمل المشترك ولا القلب المشترك ، فالعمل المشترك لا يقبله والقلب المشترك لا يُقْبِل عليه .

والدعاء : اللهم إني أسألك أن تملأ قلبي بِحُبِّك حتى لا يكون لي هم ولا شغل سِواك ، فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، أنا أغنى الأغنياء عن الشرك :

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ الأَسْلَمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً يَدْعُو وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ قَالَ : فَقَالَ : « **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ الله بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ**

أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى » ، قَالَ زَيْدٌ : فَذَكَرْتُهُ لِزُهَيْرِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِنِينَ . [رواه الترمذي وغيره] .

والحقيقة أن هذا البحث في التوحيد بحث ثمين ، والتوحيد عِلم جليل مُقتَبَسٌ من اسم الله الواحد ، ونحن ديننا دين توحيد ، ونبينا ﷺ واحد ، وإلهنا واحد ، والحق واحد ، وهناك نقطة دقيقة المعنى والدلالة وهي أنَّ الله عز وجل ذكر النور مفرداً وذكر الظلمات جمعاً قال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

والله تبارك وتعالى ذكر الصراط واحداً وذكر الانحراف متعدداً قال :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

فالمنهج واحد ، والطريق إلى الله واحد ، فالوحدانية مقتبسة من أن الله واحد ، ومنهجه واحد ، والطريق إليه واحد ، ومهما تباعد المسلمون في أقطارهم فقِبْلَتُهم واحدة ، قال تعالى في وصْفِه بعض المنحرفين :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] .

ولتعلم أيها المؤمن أن سبيل المؤمنين سبيل واحد ، فالمسلم يُحب الله ورسوله ﷺ ولا يكذب ويغض بصره ويحب الخلق جميعاً

يرحم الخلق ووقاف عند كتاب الله ورحيم بِأهله ولا يأكل مالاً حراماً وهذا حال المؤمنين حيثما وجدوا ، لقد صار واضحاً ومعلوماً أنّ ربنا واحد ، وإلهنا واحد وكتابنا واحد ، والطريق المستقيم واحد ، والنور واحد ، والقِيَم واحدة والمبادىء واحدة ، والأهداف واحدة ، ومما يجمعنا كأُمة واحدة أنّ القِبلة واحدة ، ألا تعجب أن كل مسلم في الأرض يتجِه إلى مكانٍ واحد ألا ترى الكعبة وأنت في الحج ؟ وأن كل أقطار الأرض تتجِه إليها ؟ فينبغي علينا أن نتوحّد في تآخينا ولا نتدابر ، فإذا تفرَّقنا فنحن أشقى الناس وأهونهم .

وبعدُ فإنّ موضوع التوحيد هو الدين كله ، وأختِم البحث بهذه المقولة : ما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد ، والتوحيد نهاية العلم ، والتقوى نهاية العمل .

* * *

الحيُّ

من أسماء الله الحُسنى الحي القيوم .

الحي : اسمٌ من أسماء الله تعالى التي وردت في القرآن الكريم ، والتي وردت في حديث رسول الله ﷺ ، ولا بد من أن نذكر القارىء الكريم بقول النبي ﷺ :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « **إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً مِئَةً إلا وَاحِداً مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ** » .

ماذا تعني كلمة الحي ؟ . . ماذا تعني كلمة القيوم ؟ . . وهكذا بقية الأسماء الحسنى .

فأن تتعرف إلى أسماء الله الحُسنى فهذا يؤلف أكبر جزء من عقيدة المسلم ، فلا يكفي أن تقول الله خلق السموات والأرض ، هذا الإيمان يستوي فيه الناس جميعاً على اختلاف اتجاهاتهم وانتماءاتهم ، بل إن المقصرين ، بل إن الكافرين ، بل إن عباد الأوثان ، بل إن إبليس ، اعترف أن الله خلق السموات والأرض ، ولكن التفاضل بين المؤمنين في معرفة أسماء الله الحُسنى ؛ معانيها ومضامينها .

ضربت هذا المثل لأنتقل منه إلى حقيقة هي أن الذي يقول إن الله

خلق السموات والأرض ، هذا الإيمان لا يكفي كي تستقيم على أمر الله فحجم الإيمان قد يكون أقل من قوة الشهوة .

لذلك يقع الإنسان في المعصية ، لكن كلما زاد إيمان الإنسان بوجود الله ، وأنه هو الفعال وبيده كل شيء ، وهو الكامل وهو الواحد ، والمصير كله إليه ، وكل شيء بيده ، هذا الإيمان كبر حجمه ، وأصبح أكبر من شهوات الإنسان ؛ لذلك تصعب الاستقامة على ضعيفي الإيمان ، وتهون على أقوياء الإيمان ، فقوي الإيمان يستقيم بلا جهد لأنه يرى عظمة الله عز وجل والله سبحانه وتعالى حينما قال :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وكلمة إنما دقيقة جداً ، فهي كلمة تفيد الحصْر ، مما يعني أن العلماء وحدهم ولا أحد سواهم يخشون الله ، إذاً ما من طريق إلى طاعة الله ، وإلى خشيته ، وإلى الاستقامة على أمره إلا أن تعرفه ، فكلما عرفته خشعت له ، كلما نمت معرفتك نمت استقامتك ، وكأن مؤشر الاستقامة يتحرك مع مؤشر العلم والمعرفة بشكل دائم .

الاسم هو : الحي القيوم ؛ الحياة نقيض الموت ، وشتان بين الحياة والموت ، شتان بين إنسان ملء السمع والبصر ، يتكلم ، يتحدث ، يبتسم يسأل ، يجيب يفكر ، يحاكم ، ينتقل ، يمشي ، يعمل ، وبين إنسان جثة هامدة ملقى على الطريق ، شتان بين الحياة والموت ، كما أن هناك فرقاً كبيراً بين الحياة والموت ، فهناك فرق كبير بين قلب حي بذكر الله ، وبين قلب ميت ، قال تعالى :

﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل : ٢١] .

قال تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ [فاطر : ٢٢] .

قال تعالى : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

آيات كثيرة تؤكد أن الذي لم يعرف الله عز وجل ميت ، وأن القلب يحيا بذكر الله :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

[الرعد : ٢٨]

يحيا القلب بذكر الله ويطمئن بذكر الله ، والإنسان المعاصر يفقد شيئاً ثميناً جداً وهو الطمأنينة ، حوله كل شيء لكن يحيط به ألف خطر ، خطر السرطان ، ولا بد من فحص دوري ، وخطر بقيّة الأمراض ، وخطر الحوادث أيضاً ، لذلك تنمو شركات التأمين بنمو القلق في النفوس .

الإنسان من دون إله يعبده ، من دون إله ينيب إليه ، من دون إله يلجأ إليه ، من دون إله يحتمي به ، من دون إله يطمئنه ، حياته جحيم . . . أكبر ما فيها القلق ، الخوف من المجهول ، الخوف من أحداث مستقبلية تظهر فجأة ، متى يصاب بهذا المرض ؟ لا أحد يدري ، وكلما ابتعد الإنسان عن ربه امتلأ قلبه خوفاً .

سبعة وثمانون بالمئة من مواطني البلاد الغربية المتفوقة علمياً وحضارياً ، يخاف وهو في البيت ، ثمانون بالمئة لا يتجولون بعد غروب الشمس أبداً ، ثلاثة وثلاثون بالمئة يرون أن كل قوى السلطة

لا تحميهم ، حياة القلق ، حياة العذاب ، قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ [قريش : ٤] .

أطعمك من جوع وآمنك من خوف ، والأمن نعمة لا تعدلها نعمة لا يحوزها إلا المؤمن حصراً ، والدليل :

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨١ـ٨٢] .

للمؤمنين وحدهم ، لذلك إذا آمنت بالله ، واستقمت على أمره ، ولُذتَ بحماه وأويت إلى جنابه فأول ثمرة من ثمرات الإيمان أن الله يدخلك في رحمته ، ويطمئن قلبك . . فهناك أشخاص قلوبهم بأعلى درجة من النشاط أوردتهم شرايينهم دماغهم أعصابهم ، ومع ذلك فهو يقول لك أجريتُ فحوصاً كاملة .

إن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين ، هذه السكينة خاصة بالمؤمنين ، إنكم لترَوْن في قلب المؤمن من السكينة ، والطمأنينة ، والرضا بقضاء الله وقدره ، والشوق إلى لقياه ، والراحة إلى قضائه ، ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم .

المؤمن سر ، الله عز وجل يضع سره في المؤمن ، ترى أن دخله أقل من حاجته ، وتراه مطمئناً ، وهناك من يخزن الذهب والعملات الصعبة وإذا حدث خطر فله ببلاد أخرى أرصدة ضخمة ، ومع كل هذه الأرصدة ومع كل هذه الإمكانات ، ومع كل هذه الاحتياطات ، فإن الخوف يأكل قلبه .

لو سألتني عن قانون الخوف ، أقول لك إنه الشرك ، قال تعالى :

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥١] .

الشرك يعني الخوف ، قال تعالى :

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

فالله عز وجل حي ، والحي نقيض الميت ، الحياة نقيض الموت ، ورد في القرآن الكريم كلمة الحيوان وتعني جنس الحياة قال تعالى :

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٤] .

أصل الحياة في القرآن يعني الحيوان ، أي هو دار الحياة الدائمة ، حياتنا في الدنيا حياة مؤقتة ، كل إنسان له عمر ، فكل هؤلاء الذين على الأرض بعد مئتي عام لا ترى منهم أحداً ، فالخمسة آلاف مليون إنسان لا تجد بعد مئتي عام منهم أحداً في كل القارات الخمس .

قفْ في شرفة بناء وانظر إلى الشارع المزدحم بالسيارات والمشاة كل هؤلاء سيكونون تحت أطباق الثرى بعد حين ، وسوف يطويهم الموت ، فحياتنا حياة مؤقتة ، أما الحياة الحقيقية ، الحياة الأبدية الدائمة ، الحياة التي لا موت معها ، فهي حياة الدار الآخرة .

سمعت أن بعض الفنانين ، ما ركب طائرة في حياته ، خشية أن تقع فيموت ، اعتنى بنظام غذائه عناية تفوق حد الخيال ، يأكل يوماً سمكاً ويوماً دجاجاً ، طعامه لحم خفيف ، لحم أبيض ، ومساءً فواكه ، ومع كل هذه العناية والحرص ، وذلك الحذر فقد مات .

عش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزي به ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه .

كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت .

الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر .

حياتنا في الدنيا غير حقيقية ، حياة مجازية ، حياة مؤقتة ، لأنه يعقبها موت ، يعقبها زوال ، يعقبها عدم .

وبصراحة ، يكون إنسان ملء السمع والبصر ، متألقاً ، ذكياً ، قوياً غنياً سيد بيته ، أولاده أمامه متأدبون ، وزوجته خاضعة له ، فإذا مات.. حزن شديد ، بعد أسبوع ، يفك الحزن ، بعد أسبوعين يبتسمون ، ثلاثة أسابيع يُرفع الشّعار الأسود ، بعد شهرين أو ثلاثة وكأنه لم يكن ، يقولون إذا ذكِر : المرحوم ، لقد انتهى ، وكل واحد منا على هذا الطريق وكأنه لم يكن .

الحياة الحقيقية ، الحياة الخالية من كل نغص ، هل منا أحد ليس لديه منغصات ؟ هذه سنة الله في الحياة الدنيا : « **إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ومنزل ترح لا منزل فرح ، من عرفها لم يفرح لرخاء ، ولم يحزن لشقاء ، قد جعلها الله دار بلوى** » .

استعرض حياة الناس.. زوجة جيدة ، لكن أولاد سيئون.. أو أولاد جيدون وزوجة سيئة ، أو زوجة جيدة أولاد جيدون لكن الدخل قليل ، أو دخل كثير ولكن عقم من دون أولاد.. أو دخل كثير وله أولاد لكن الصحة متردية ، والمرض يُنغّص حياته .

طبيعة الحياة الدنيا قائمة على المُنغّصات ، لذلك حياتنا الدنيا

ليست حياةً أرادها الله لنا. . أرادها الله لنا ممراً ، أرادها الله لنا معبراً أرادها الله لنا مدرسةً ، أرادها الله لنا إعداداً ، ما أرادها الله لنا استقراراً ولا ركوناً ولا خلوداً .

فكل إنسان يتحرك حركةً خلاف تصميم الله عز وجل يشقى. . الحياة الدنيا حياة مفعمة بالمنغصات ، هكذا أرادها الله ، هكذا خلقت ، من أجل ألا تركن إليها ، من أجل أن تجعلها منطلقاً ومعبراً ، لذلك كان محمد بن كعب يقول : « **إن أشقى الناس فيها أرغبهم فيها ، وإن أزهد الناس فيها أسعد الناس بها هي العذبة لمن أطاعها والمهلكة لمن اتبعها** » . اتركها تأتك ، أقبل عليها تَفر منك .

حياك الله ، يعني أبقاك حياً ، لنستعرض ماذا تعني كلمة حياة ؛ أحيا الله الأرض ، أخرج منها النبات ، أحياها بالغيث أنزل عليها المطر ، الحي في صفة الله تعالى هو الباقي. . فإذا قلنا الله حي يعني حياةً دائمةً ، وإذا قلنا فلان حي حياته مؤقتة. . شيء قد يلفت النظر ، قد يشترك الإنسان في صفة مع خالقه ؛ الله حي والإنسان حي ، ولكن يجب أن يؤمن إيماناً يقينياً أنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾. . كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك. . إذا قلت الله حي ، يعني حياة دائمة باقية ، هو الباقي ، فلان حي حياة مؤقتة .

النقطة الثانية ؛ الحي في صفة الله أنه باقٍ حياً بذاته ، أما أنت وأنا وكل واحد منا فهو حي لا بذاته ، بل بإمداد الله له ، فإذا قطع الله الإمداد صار جثةً هامدة ، والواحد منا ألف سبب يسلبه حياته ويجعله خلال لحظة ميتاً. . ساعة سكتةٌ دماغية ، ساعة سكتة قلبية ، ساعة اضطراب بكهرباء القلب اختلف النظم ومات الإنسان ، فإذا انتابته نوبة

خفقان أذيني شديد يموت باسترخاء القلب ، مئة وثمانون ضربة وبعدها يرتخي القلب ثم يموت الإنسان .

فالله عز وجل حي بذاته ، حياته ليست مستمدة من جهة أخرى نحن حياتنا نستمدها منه ، عمر الإنسان بعمر شرايينه ، عمره متعلق بقلبه وشرايينه ودسامات قلبه ، متعلق بجهازه العصبي ، متعلق بعمل الدماغ ، متعلق بالكليتين. . لو أن البول احتبس في الكليتين ست ساعات لتوقفت الكليتان ، وإذا توقفت الكليتان ينتهي الإنسان ، لا يعيش الإنسان ثلاث ساعات دون كبد ، إذا تشمع تشمعاً كاملاً خلال ثلاث ساعات يموت الإنسان .

مرةً التقيت مع إنسان شديد الأذى للناس ، والأذى في طبعه ، قال بعض الشعراء في وصفه ، ووصف أمثاله من الناس :

ولو أخذنا لحقن الرقش من دمهم لكان مصلهم يؤذي الثعابينا

ويقول غيره :

رقيقٌ غليظُ القلب فظٌّ مقطِّبٌ كثيرُ الأذى بادي البذا جبلٌ وعرُ
نمومٌ زؤومٌ ماكرٌ غيرُ شاكرٍ حقودٌ نقودٌ مائنٌ خائنٌ غمرٌ
ذكيٌّ دقيقُ الفكرِ منتبهٌ لما عناهُ ولكنْ عندَ مصلحتي غرُّ
لئيمٌ متى أحسنْ إليهِ يكافني بسيئةٍ لم ينكتمْ عندَهُ سرُّ
ثقيلٌ خفيفُ الكفِّ فيما ائتمنْتهُ وَثوبٌ على مالي كما يثبُ النمرُ
لهُ كلَّ يومٍ فتنةٌ أو شكايةٌ وقالٌ وقيلٌ هكذا ينسلُ الكفرُ
لهُ نهمةٌ في الأكل والشربِ مالها شبيه سوى التنور أَكْلَبَهُ السجرُ

فمرة التقيت مع إنسان شعرت أنه يحب الأذى ، كلما أوقع الأذى

بإنسان شعر بنشوة ، أردت أن أعظه وأن أضيق عليه لعله يرعوي ، قلت له : إن الله من جنوده السرطان في كل أنحاء الجسم ، بدءًا من الجلد إلى الدم إلى العظام إلى الأحشاء ، إلى الدماغ . . والله من جنده تشمع كبد ، ومن جنده الفشل كلوي ، ومن جنده اضطراب النظم ، ذكرت له أمراضاً وبيلة ، كل مرض ينخلع القلب له ، وهؤلاء الذين أمامك كلهم عباده ، فإذا أسأت إليهم انتقم منك فانتبه .

المؤمن الصادق ، أي إنسان أمامه يراه عبداً لله ، دون أن تعرف من هو ، فإذا أردت أن تتقرب إلى الله فقدم لهذا الإنسان خدمةً ، والله وحده يجازيك . قال تعالى :

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٥] .

هذا الإله العظيم ، يقول لك أقرضني ، أقرضني بخدمة أحد عبادي أما الآن من ضعف الإيمان ، وانهماك الإنسان في جمع المال ، لا يتحرك بلا مال ولا يردّ لهفة ملهوف إلا بمال .

أحياناً الخدمة تكلفه هاتفاً ، يريد مالاً ، يتقاضاه مقابل هاتفه مثلاً ، وأحياناً الخدمة تكلفه بطاقة ، توصية كلمة ، أحياناً تكلفه غض بصر فقط ، ولكنه لا يرحمك ، لا يرحمك إلا بمبلغ فوق طاقتك ، تشعر بأنك ذبحت ، حتى يرحمك ، ليس له أجرٌ إطلاقاً ، لأنها خدمة بأجر .

اخدم العباد ، واحتسب هذا العمل عند رب العباد ، أعط العباد مما أعطاك الله ولا تخش لومة لائم ؛ أجل لا تخشَ فالله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .

حياتنا غير ذاتية ، حياتنا متوقفة على أجهزة كثيرة إذا توقف أحدها نموت. . فالإنسان عندما يكون مضطجعاً ويقف فجأة يضطرب جسمه بشكل لا يصدق ، يأتي أمر عن طريق شوارد معينة في الدم ، تضيق كل شرايين الجزء العلوي في الإنسان ، لأن الإنسان إذا كان نائماً ثم وقف فجأةً ، فالدم بحكم الجاذبية يهبط إلى الأسفل ، فما الذي يبقي الدم في الرأس. . لو أن الدم نقص في الرأس لأصيب الإنسان بالدوار ويقع. . إذا تقدم الإنسان في السن فإن نهض من السرير قد يصيبه الدوار لأن جهاز ضبط الوقوف بعد الاستلقاء ضعف قليلاً .

فأنا لا أعرف كم جهازٍ في الجسم إذا تعطل أحدها تصبح حياة الإنسان جحيماً لا تطاق ، حياتنا ليست من ذاتنا ، حياتنا متوقفة على إمداد الله لنا ، على حفظه لنا .

فيا ترى كم جهازاً إذا تعطل تصبح حياتنا جحيماً ، فليعلم كلّ منا أنّ حياتنا غير أصيلة في وُجودها ، وحياتنا ليست من ذواتنا ، أما في الجنة ، إذا أكرمنا الله في الجنة فحياة ما بعدها موت ولا يعروها مرض ، ولا يخامرها خوف ، ولعل الله سبحانه وتعالى أراد أن يضاعف سعادتنا في الجنة أضعافاً مضاعفة إذا تفضّل الله علينا بدخولها ، وإذا قبل منا عملنا ، وإذا عفا عنا. . فإذا سمح الله لمؤمن أن يدخل الجنة. . فالسعادة في الجنة أضعاف مضاعفة ، فما كان من أعراض تنتابه في الدنيا كالقلق والخوف والمرض والحزن والانحدار المريع نتيجة تقدّم السنّ ليس له وجود في الجنة إذ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

إذا قلنا : إن الله حي أي متصف بالحياة الأبدية ، لا بداية لها

ولا نهاية لها ، هو الباقي أزلاً وأبداً ، والحي الذي لا يموت ، لأن الذي يجوز عليه الموت حكم عليه بأنه ميِّت ، دقق باللغة ، قال تعالى :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] .

الذي تنتهي حياته إلى الموت هو في حكم الميِّت ، أما إذا مات فعلاً فإنه يسمى مَيْت ، ميِّت أي سيموت ، وميْت مات فعلاً .

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

[الأنعام : ١٢٢]

فكل منا ميّت ، أي محكوم عليه بالموت مع وقف التنفيذ ، أما إذا قلنا فلان ميْت فالمعنى أنه مات حقيقةً ، ونحن إذا قلنا عن أنفسنا أحياء ، حياتنا مزورة ، لأننا ميّتون بأمر الله ، ميتون بقضاء الله ، ميتون بأصل وجودنا على وجه الأرض ، قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ .

الحي هو دائم الحياة ، له البقاء المطلق ، الإنسان مهما عاش لابد من أن يموت ، فحياته مقيّدة بعمره ، أما من له البقاء المطلق فهو الله عز وجل ، كلمة مطلق كبيرة جداً ، ومدلولها واسع .

لذلك فالإنسان العاقل يربط مصيره مع الله ، ولا يعتنق إلا مبدأ الله ولا ينضم إلا إلى أهل الله ، ولا يتحرك إلا وفق الحق ، لأن الحق هو الله ، وإذا استقام على أمر الله ، فالله هو الحافظ ، وإذا كان في ظل الله فالله هو الذي يؤيده وينصره ،فكل إنسان ربط مصيره مع الله فهو السعيد حقًّا ، هو الذي يتفوق ويفوز .

قلت في الحديث عن معنى كلمة الحي : الحي هو دائم الحياة الذي له البقاء المطلق ، فأقول :

هو الذي لم يسبق وجوده عدم ولا يلحق بقاءه فناء ، أيّ إنسان بالتاريخ القريب والبعيد ربط مصيره بإنسان ، فلما وقع هذا الإنسان وقع معه ولما انهار انهارَ معه ، فمغامرة ومقامرة ، أن تربط مصيرك بمصير مخلوق يموت ، أما بطولتك وذكاؤك وتفوقك ونجاحك في الحياة فهي أن تربط مصيرك بالحي الذي لا يموت ، فكل إنسان لو مات إنسان وكان مع الحي الذي لا يموت فهو لمْ يمُتْ . قال تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

[آل عمران : ١٦٩]

أنا لا أنسى في السيرة موقف النبي عليه الصلاة والسلام لما خاطب قتلى بدر من الكفار ، خاطبهم بأسمائهم واحداً واحداً ، يا فلان يا فلان يا فلان : **عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ : أَنَّ رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ترك قَتَلى بدر ثلاثا ، ثم أتاهم ، فقام عليهم ، فناداهم ، فقال : يا أبا جهل بن هشام ، يا أميَّةَ بن خَلَف ، يا عُتبةَ بن ربيعةَ ، يا شَيبة بن ربيعة ، أَليسَ قَد وجدتُم ما وعدَ ربكم حقّا ، فإني قد وجدتُ ما وَعَدني ربِّي حقًّا ؟ فسمَعَ عمرُ بن الخطَّاب قولَ النبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال : يا رسولَ الله ، كيف يَسمعونَ ؟ أو أنَّى يجيبون ، وقد جَيَّفُوا ؟ قال : والذي نَفسي بيدِهِ ، ما أَنْتم بأسمع لما أقولُ منهم ، ولكنهم لا يَقْدرُونَ أن يُجيبوا ، ثم أَمر بهم فسُحِبوا ، فأُلقوا في قَليب بدر** . [أخرجه مسلم] .

هم يسمعوني كما تسمعوني أنتم ، فالحياة دائمة ، والموت عبارة

عن ثوب خلعته فقط ، أنت أنت ، مشاعرك ثقافتك ، ذكرياتك ، إقبالك معرفتك بالله هي هي ، إلا أن الثوب الذي تلبسه نزع عنك وصار هناك ثوب آخر ، لذلك خط المؤمن البياني صاعد حتى عند الموت يبقى صاعداً ، وما الموت إلا نقطة على الخط الصاعد .

بصراحة أقول لكم : الزمن ليس في مصلحة الكافر ، بل هو في مصلحة المؤمن ، فالكافر وضع كل البيض في سلة واحدة ، كل أهدافه في الدنيا ، كل سعادته في المال والشهوات والنساء والسهرات والحفلات ، كل إنجازه مادي ، فكلما تقدم به الزمن ضعفت قدرته على الاستمتاع بالحياة ، فحركة الزمن ليست في صالح الكافر ، لأن مضي الزمن أولاً يضعف قدرته على المتعة ، يضعف قدرته على الاستمتاع بالحياة الدنيا ، بالطيبات بالطعام بالشراب بالنساء ، لذلك عنده قلق عميق يخشى الموت ، يخشى ما يرتبط بالموت ، يكره القرآن لأنه يُقرأ على الأموات ، يكره بعض النباتات لأنها توضع على القبور .

أغرب شيء كنت مرةً في لبنان وجدت محلاً ضخماً يبيع لوازم الموتى ، لا أحد يرغب بأن يدخل لهذا المكان ، إلا التجار الذين يتعاملون مع هذه المواد ـ طبعاً ـ .

فالموت لغير المؤمن مخيف جداً ، نهاية حتمية ، أما المؤمن فمضي الزمن لصالحه ، فكلما امتد به العمر قربه من سعادته المطلقة ، كلما امتد به العمر قربه من لقاء الله عز وجل ، كلما امتد به العمر قربه من عرسه ، وكلما امتد به العمر قربه من تحفته التي هي الموت .

ما قولك في أنّ بعض الناس ينخلع قلبه من ذكر الموت ؟ على حين أن بعضهم يتمنى لقاء الله عز وجل ؟! تصور أن النبي عليه الصلاة والسلام ، لما خيّره جبريل بين أن يبقى حيًّا في الدنيا وأن ينتقل إلى الرفيق الأعلى ، قال : بل الرفيق الأعلى من الجنة ، ماذا رأى النبي ﷺ ؟ فعندما تكون حياة الإنسان استقامة وعطاء وخدمة للناس والتزاماً بالشرع وورعاً ، وهو يحيا ليرضي الله عز وجل فالموت عند هذا جزء من سعادته العظمى ، لذلك هؤلاء الذين يأتيهم الموت وهم على طهارة يأتيهم بأحب الناس إليهم على الإطلاق ، وموتهم نوع من السعادة ؛ لذلك قال الله عز وجل :

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴾ [الزمر : ٧٣] .

سلام . . إذا دعيَ شخص إلى وليمة وكان ضيف الشرف الأول ، فإنك ترى حُسْنَ الاستقبال ، والترحيب ، الابتسامة الحارة : يا أهلاً ويا سهلاً ، نورتم ، نحن على شوق لهذا اللقاء ، المكان واسع لائق ، والماء البارد ، وأطباق الطعام فاخرة ؛ فهذه صورة لتكريم إنسان لإنسان الدنيا ، فكيف إذا كرّمك خالق الأكوان ؟! وشتّان بين تكريم زائل ، وتكريم باقٍ أبداً .

لذلك قال تعالى :

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [يونس : ٢٦] .

الزيادة رؤية وجه الله الكريم ، ورد في الأثر أن المؤمن ينظر إلى وجه الله الكريم فيغيب خمسين ألف عام من نشوة النظرة !! قال

تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢ـ٢٣] .

وأكبر عقاب لأهل الكفر الحجاب ، قال تعالى :

﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : ١٥] .

محجوب عن الله عز وجل .

قال بعض العلماء : « **الحي هو الموجود** » .

وقال بعضهم : « **الحي هو الباقي من أزل الأزل إلى أبد الأبد** » ، وأنت معه والأزل هو عمق الوجود ودوامه في الماضي ، والأبد هو دوام الوجود وبقاؤه في المستقبل .

وقيل : الحي الذي ليس لحياته زوال والذي لا يموت ، والإنس والجن يموتون ، قال تعالى :

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٨٨] .

وعالم جليل يُعرّف الحي : « **بأنه الفعال الذي لا يموت** » ، فالحي الكامل المطلق وهو الذي تندرج جميع المدركات تحت إدراكه .

الفعَّال ؛ الدَّرَّاك ، والدراك صيغة مبالغة من الإدراك ، يعني أن علمه مطلق ، وفعله مطلق ، وهو على كل شيء قدير ، وبكل شيء عليم .

أحياناً مدير دائرة تمر عليه ألف قضية من وراء ظهره ، بذكاء . تمرُّ من تحته ، لا يشعر ، ليس عنده إمكانية أن يعرف ما يجري بغير الغرفة التي هو فيها ، تأتيه معلومات ، من داوم ومن لم يداوم ، يتفق

موظف مع مراقب الدوام ، يسجله موجوداً في حين أنه مسافر ، فأحياناً تجد إنساناً على أعلى درجة من الذكاء وتمر عليه ألف قضية دون أن يعلم .

أحد العلماء يقول : الحي ؛ هو الفعال ، الدَّرَّاك ، يعني على كل شيء قدير وبكل شيء عليمْ ، يعني قدرته متعلقة بكل ممكن ، وعلمه متعلق بالواجب والممكن والمستحيل .

يقول القشيري : الحي : **« هو الله تعالى حي ، وحياته صفة من صفاته زائدة على بقائه ، فهو دائم البقاء الذي لا سبيل إلى فنائه »** .

اسم الحي القيوم ورد في القرآن خمس مرات ، ورد في البقرة في آية الكرسي ، وهي سيّدة آي القرآن ، وأعظم آية فيه ، قال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

أحياناً شخص يكون ملء السمع والبصر ، شخصية فذة ، فإن سهر إلى الساعة الواحدة ليلاً غلبه النعاس وأضجعه ، فمهما كان ذكياً ومهما كان قوياً لم يعد لديه مقاومة ، فانتباهه وذكاؤه مع الإرهاق تلاشى وأخذ يكبو .

قد ترى سيارة ثمنها عشرة ملايين ، شاحنة ضخمة هَوَتْ جانباً ، بل تحطَّمَت لأنّ صاحبها نائم ، فالله عز وجل لا تأخذه سنة ولا نوم أما نحن بني البشر فنصف عمرنا نوم . لكن الله ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ .

الآية الثانية في آل عمران :

﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [آل عمران : ١ـ٢] .

في سورة طه :

﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴾ [طه : ١١١] .

في سورة الفرقان :

﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٨] .

في غافر :

﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر : ٦٥] .

مات لبعضهم ابن فبكى عليه حتى عمي فقال بعضهم له : الذنب ذنبك ، لأنك أحببت حياً يموت ، ولو أحببت الحي الذي لا يموت لما وقعت في هذا الحزن ، قال النبي الكريم ﷺ : « **لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن خلة الإسلام أفضل** » .

أنا فيما أعتقد أنّه لا يوجد رجلان على وجه الأرض أحب أحدهما الآخر حباً إلى درجة غير معقولة كحبّ أبي بكر لرسول الله ﷺ ، عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ صعد أحداً وأبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ، فرجف بهم ، فقال : (**اثبت أحد ، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان**) . أخرجه البخاري في صحيحه .

وعن أبي سعيد الخدري ، قال : خطب رسول الله ﷺ الناس ، وقال : (**إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك**

العبد ما عند الله) ، قال : فبكى أبو بكر رضي الله عنه ، فعجبا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خير ، وكان رسول الله ﷺ هو المخير ، وكان أبو بكر هو أعلمنا . فقال رسول الله ﷺ : (إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر رضي الله عنه ، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي عز وجل لاتخذت أبا بكر ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يبقين في المسجد باب إلاسد ، إلا باب أبي بكر رضي الله عنه) . أخرجه البخاري في صحيحه .

وقال النبي ﷺ : (إن الله عز وجل بعثني إليكم فقلتم كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت ، وواساني بنفسه وماله ، فهل أنتم تاركوا لي صاحبي ؟)

عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : (لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخي وصاحبي) . أخرجه البخاري في صحيحه .

وعن محمد بن الحنفية ، قال : قلت لأبي : أي الناس خير بعد رسول الله ﷺ ؟ قال : أبو بكر رضي الله عنه . قلت : ثم من ؟ قال : عمر رضي الله عنه . قال : وخشيت أن يقول عثمان رضي الله عنه . قلت ثم : أنت ؟ قال : ما أنا رجل من المسلمين . رواه البخاري في الصحيح ، ورواه أبو داود في السنة .

وعن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تسبوا أصحابي ، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه) . رواه البخاري .

كل إنسان يضع كل أمله كل حبه ، يعلق كل قلبه بإنسان من

دون الله يسقط . لذلك عندما نزلت براءة السيدة عائشة من فوق سبع سموات وفرحت فرحاً شديداً ، قالت لها أمها قومي إلى رسول الله ، قالت : لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله .

الله هو الموجود ، وكلما وحد الإنسان ربّه كثيراً أحبه الله كثيراً ، والمؤمن لا يعبأ بأحد ، أديب مع الناس كلهم ، يحترمهم جميعاً ، يخدمهم جميعاً أما قلبه فلا يعلقه إلا بالله ، هذا هو التوحيد ، الله يغار ، إن رأى قلبك مع غيره ، هذا الغير ضايقك بإلهام من الله من أجل أن تفك ارتباطك معه ، فلتكن ذكياً ولا تعلق قلبك إلا بالله مباشرةً ، وعامل الناس بالإحسان .

تحدثت مرةً عن بحث خطير جداً . . هناك حبٌّ في الله وحب مع الله ، الحب في الله من كمال الإيمان ، فأنا أحب إخواني لأنني أحب الله أحب أخي المؤمن لأنني أحب الله ، أحب زوجتي لأنها مستقيمة لأنني أحب الله أحبها ، أما إذا أحببتها مع الله ، يعني نفذت أمرها وعصيت الله ، إذا أحببت إنساناً مع الله ، أرضيته ولم ترض الله فقد هويت منزلقاً ، الحب مع الله عين الشرك والحب في الله من كمال التوحيد ، يجب أن تفرق بدقة بالغة بين أن تحب مع الله ، وأن تحب في الله .

محبة النبي ﷺ محبة في الله ، محبة أهل الحق محبة في الله ، محبة إخوانك في الإيمان محبة في الله ، محبة أهلك وأولادك محبة في الله ، أما إذا أطعت مخلوقاً وعصيت الخالق ، بدافع الحب ، فهذا حب مع الله وهو عين الشرك .

وبعد فالإنسان يحب من حوله ، يحب زوجته وأولاده وإخوانه ،

ثم يأتيه ملك الموت ، سيبقى في القبر وحيداً ، أشد الناس حباً له يشيعه حتى شفير القبر ، طبعاً النساء يودعنه في المنزل ، أما أولاده فوداعهم إلى شفير القبر يلقون عليه النظرة الأخيرة ، ولكن بعد أن يضع الحفار تلك الرقاقة وبعد أن يهيل التراب ، وينصرف الناس ، من بقي مع هذا الإنسان الحي الذي لا يموت ، كأن الله تعالى يقول لعبده حين ينزل القبر :

« عبدي! رجعوا وتركوك ، وفي التراب دفنوك ، ولم يبق لك إلا أنا ، وأنا الحي الذي لا يموت » .

أليس من الذكاء أن تقيم علاقات طيبة مع الحي الذي لا يموت لأنك سوف تنفرد معه ولا أحد معك ؟! والأهل ينصرفون إلى طعامهم إلى شرابهم بعد حين ، وإلى نزههم ثم إلى متعهم ، بعد حين كأنك لم تكن ، الأولى أن تحب الله .

يقول لك : أنا من أجل أولادي لم أدفع زكاة مالي ، لن ينجو من عذاب الله ، ومن أجل ولد معين لم يعدل بين بقية أولاده لقي الله وهو عليه غضبان .

هل من إنسان على وجه الأرض يستأهل أن ترضيه بسخط الله ؟

أعرف آباء كثيرين من أجل بقاء المال مع الذكور يحرمون الإناث ويلقى الله وهو عليه غضبان ، فهل أولاده ينفعونه أو يدفعون عنه غضب الله عز وجل ؟!

سئل ابنٌ عاق : إلى أين تذهب ؟ قال : ذاهب لأشرب الخمر على روح والدي. . السكر على روح والده ، ترك له أبوه ثروة طائلة وحرم بناته ، فهل نفعه هذا الولد بعد الموت ؟!

لذلك ليس من مخلوق على ظهر الأرض يستأهل أن ترضيه بسخط الله . . في الأرض كلها . . أَرْضِ اللهَ ولا تعبأ بأحد .

بقي التخلّق باسم الحي ، فاحذر أن تكون مع إنسان كالميت بين يدي غاسله ، فالحذر الحذر أن تركن كلية لإنسان ما ، ولكن قال سهل بن عبد الله : « **أن يكون العبد بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء ، لا يكون له حركة ولا تدبير** » .

فالمؤمن إذا أعطاه ، وإذا منعه ، وإذا قربه وإذا أبعده . . يبقى متعلقاً بربه ، فعطاؤه ومنعه لخيره .

كــن مــع الله تــرَ الله معــك　　واتــرك الكــل وحــاذر طمعــك
وإذا أعطـــاك مـــن يمنعـــه　　ثــم مــن يعطــي إذا مــا منعــك

ليس لك إلا الله عز وجل ، فالمؤمن الصادق بين يدي الله كالميت بين يدي المغسل ، راض بقضائه ، راض بقدره راض برزقه ، راض بعطائه لك إن فرقك أو إن جمعك ، كيفما شاء فكن في يده .

كيفمــا شــاء فكــن فــي يــده　　لــك إن فــرق أو إن جمعــك
في الورى إن شاء خفضاً ذقته　　وإذا شـــاء عليهـــم رفعـــك
هـــذه ملـــة طـــه خـــذ بهـــا　　لا تطـع عنهـا قصـوراً دفعـك
وإذا ضـــرك لا نـــافـــع مـــن　　دونـــه والضـــر لا إن نفعـــك
إنمـــا أنـــت لـــه عبـــد فكـــن　　جاعلاً في القرب منه ولعك
كلمـــا نـــابـــك أمـــر ثـــق بـــه　　واحتـرز للغيـر تشكـو وجعـك
لا تـــؤمـــل مـــن ســـواه أمـــلاً　　إنمـا يسقيـك مـن قـد زرعـك

* * *

القَيُّوم

من أسماء الله الحُسنى القيوم ، والقيوم وارد في الحديث اسمٌ من أسماء الله الحُسنى .

لنستعرض أوّلاً معاني القيوم في اللغة ؛ فاللغة لها أصول ، لها أصل ثلاثي مجرد « قوم » و« قيم » فالقيّم هو السيد المدبر للأمور ، سائس الأمور ، القيم تقول : قيم المكتبة ، أمينها ، سيدها ، من بيده أمرها .

دين القيّمة ؛ الملة الحنيفية التي تتوافق مع الفطرة ، والتي تميل النفس إليها ، وعلامة أن هذا الدين دين الله أن النفس تميل إليه ، وترتاح له ، ويتوافق مع فطرتها ، ومع خصائصها .

وفي النفس حاجة لا يرويها المال ، ولا ترويها رفعة المكانة ، ولا ترويها المتع ، ولا ترويها الشهرة ، لا يرويها إلا الإيمان بالله عز وجل والاطمئنان إليه ، ومصداق ذلك يشير إليه قول الله عز وجل :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾

[الرعد : ٢٨]

توافق النفس مع الدين شيء عجيب ، الإنسان قد يحوز الدنيا بأكملها ، لكنه قلق ، ضائع ، مشتت ، مبعثر ، أما إذا عرف الله عز

وجل فقد اطمأنت نفسه وسكنت وارتاحت ، وأمنت ، وتفاءلت ، واستبشرت واستشرفت ، وارتفعت وكبرت .

دين القيّمة ؛ دين الحنيفية ، الذي تميل النفوس إليه ، وتركن إليه ، ولابدّ أنها قائلة : أنا بعد أن عرفت الله عز وجل سعدت بقربه ، شعرت بالأمن شعرت بالطمأنينة ، شعرت بالتوازن ، وعلامة إيمانك أن تقول هذا الكلام وتردّده في أعماقك ، ويوم القيامة مشتق من قيم ، ومن قوم ، وهو يوم البعث الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين ، قال تعالى :

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات : ٢٤] .

هل رأيتم مذنباً يُستجوب وهو جالس ؟ . . أبداً ، يريد أن يقف ، ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ ، فيوم القيامة لشدة هول هذا اليوم يقف فيه الناس لرب العالمين ، ليسألوا ليحاسبوا عن كل صغيرة وكبيرة .

والقيوم ؛ مبالغة من القائم بالأمر ، إنسان مدير مستشفى مدير مؤسسة مدير معمل مثلاً ، دوامه من الساعة الثامنة إلى الثانية ظهراً ، ولكن هناك مدير امتزج حبّ هذا العمل مع دمه ، يقتني سريراً في مكتبه وينام في مكتبه يسأل عن كل صغيرة وكبيرة ، ويتابع كل أمر ، ويضبط كل تصرف نقول هذا قيوم ؛ مبالغة من قائم ، وذو المبالغة في تدبير الأمور وفي تسييرها وفي تنظيمها ؛ نصفه بأنّه قيوم .

فالقيوم ، والقائم والقيم ، هذه كلها من فعل ثلاثي ، إما أن نقول قوَّم أو قيَّم ، كلاهما صحيح ، تقول : قوَّم الأمر وقيَّم .

هذه اللغة ، فما علاقة هذا الاسم بحقيقته ؟ القيوم ، هو القائم بنفسه مطلقاً لا بغيره ، ما منا واحد على الإطلاق قائم بذاته ، لا يدري

ماذا يحدث بعد ساعة ، ولا بعد دقيقة ، لكن الله سبحانه وتعالى قائم بذاته وجودنا مفتقر إلى إمداد الله ، إلى أن يسمح الله لنا أن نعيش ساعة أخرى ، يوماً آخر ، أسبوعاً آخر .

وجودنا ليس ذاتياً ، لذلك من عدَّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت ، الله جل جلاله ، هو القيوم ، أي قائم بنفسه مطلقاً لا بغيره ، هذا شطر المعنى .

الشطر الثاني يقوم به كل موجود ، كل شيء موجود في الكون قائم بالله ، « كن فيكون » « زل فيزول » ، إن رأيت الشمس طالعة فالله سمح لها بذلك ، وأن تبقى فهي طالعة ، وهي باقية بأمر الله .

﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴾ [التكوير : ١ـ٢] .

إن رأيت إنساناً أمامك ، وهو واقف يحدثك ، فلأن الله سمح له أن يبقى حياً ، فالله قائم بذاته ، وكل موجود قائم به إطلاقاً .

لذلك يرتكب الإنسان خطأ فاحشاً إذا قال : أنا! ، أنت لا شيء ، أنت شبح ، إذا سمح الله لك أن تعيش يوماً عشته ، وإن لم يسمح لك فلن تعيش ، هذه الحقيقة مهمة جداً ، كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ من نومه يقول : « **الحمد لله الذي ردَّ علي روحي وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره** » .

لذلك المؤمن دائماً يرى هذه الحقيقة ؛ أن قيامه بالله ، وجوده بالله ، استمرار وجوده بالله ، دقق وتأمّل فأنت تتمتّع بعينيك ، لأن الله سمح لك بذلك ، تمتعك بأذنيك ، تمتعك بلسانك ، تمتعك بفمك ، تمتعك بعقلك ، بجهاز هضمك ، بجهاز دورانك ، بدسامات قلبك ،

بشرايين قلبك ، تمتعك بكليتيك ، تمتعك بكل خلية في جسمك ، بإذن الله وإمداده وموافقته .

لذلك أجمل كلمة في تعريف القيوم ؛ القائم بنفسه مطلقاً لا بغيره ، وهو مع ذلك يقوم به كل موجود .

قال العلماء : لا يُتصور وجود شيء ولا دوام شيء إلا به ، أجل لا وجود ولا دوام إلا بالله تعالى فبربكم إذا كان كل شيء موجوداً بقيوميته ، وإذا كان كل شيء مستمراً بقيوميته ، فهل علاقتك مع القائم به كل شيء أم مع الذي لا يملك من أمره شيئاً ؟ هنا يكون التوحيد .

إذا أنت أرضيت إنساناً « وقيامه بالله » وعصيت الخالق وهو القيوم ، عصيت الذي إن أراد له الفناء فني فوراً ، وأرضيت الضعيف الفاني فأنت في ضياع ؛ لذلك فالحي القيوم ، به حياة كل شيء وقيامه . حتى لا يُتصور وجود شيء ولا دوام وجوده إلا به ، وقيل : القيوم هو الباقي الذي لا يزول ، قيل : هو المقيم للعدل القائم بالقسط ، قيل القائم بنفسه الغني عن غيره الذي لا ينام . . هذا معنى الله لا إله إلا هو الحي القيوم .

الإنسان المثقف المؤمن ، لا يليق به أن يقرأ القرآن هكذا دون تدبّر ، يقول قائل : اقرأ آية الكرسي فهي مفيدة ، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ ألا ينبغي أن تعرف من هو القيوم . . يقوم به كل شيء ، وكل شيء مفتقر في وجوده واستمراره إليه ، يحتاجه كل شيء في كل شيء ، فإذا أيقنت بهذه الحقيقة ، هل تلتفت إلى القيوم أم إلى الذي يقوم وجوده بالقيوم ؟ قطعاً . . إلى القيوم . .

القيوم هو القائم بتدبير أمر خلقه ، فبالإضافة إلى أن وجودك قائم

بالله ، وإلى أن استمرار وجودك قائم بالله ، هناك معنى ثالث. . هو القائم برزق العباد ، وأنت نائم الأمطار تهطل ، الرشيم يتحرك ، المعادن تنحل ، والجذر ينمو ، والقلنسوة تحفر الصخر ، والماء أُذيبت به المعادن ، صعد إلى عروق الشجر ، انعقد الزهر ، نمت الأوراق ، انعقد الثمر وأصبح ثمراً يانعاً .

المؤمن إذا أكل تفاحة أكل عنباً أكل تيناً ، أية فاكهة يأكلها يجب أن يرى يد الله التي صنعتها ، أنت ماذا فعلت ؟ زرعت البذرة ، وسقيت التربة وسمدت ، فمن جعل الرشيم ينمو ؟ ولابد من أن نعرف ، ضع حبة فاصولياء في قطن مبلل وراقبها ، بعد يوم أو يومين ينبت الرشيم ثم ينمو الساق ثم ينمو الجذير ، اضغط على هذه الحبة. . تراها فارغة ، هذا الغذاء كافٍ لنمو الرشيم والجذيع والجذير ، ثم تأخذ الغذاء من التربة ، هذا خلق الله ظاهرة النبات وحدها أكبر آية دالة على عظمة الله .

القطن نبات ، السواك نبات ، الخلة نبات ، الليف في الحمام نبات الأصبغة نباتات ، الأدوية نباتات ، الأثاث نباتات ، الأشجار المثمرة نباتات ، وكذلك الخضراوات والفواكه ، فكلمة « نبات » كلمة تلفت النظر .

إذاً : القيوم إضافة إلى أنه قائم بذاته ، يقوم به كل موجود ، يعني ما كل كائن حي فقط بل كل موجود ، الشمس موجودة ، القمر الجبال البحار. . يقوم به كل موجود ويستمر به كل موجود .

والمعنى الإضافي أن الله قائم بتدبير أرزاق العباد .

تأمّل في استهلاك العالم في اليوم الواحد من اللحم كم دابة ؟. .

هذه الدواب تتوالد . استهلاك العالم من الماء في اليوم كم ؟ هذا الماء أساسه أمطار وأنهار وينابيع ، استهلاك العالم من الخضار والفواكه ؟ يا ترى كم ألف طن من الحمضيات ينتج في العالم ؟ نحن بلد متواضع لدينا ساحل ضيق ، عندنا تسعون ألف طن من الحمضيات تم تصديرها خارج القطر من الحمضيات ، فإنتاج العالم كله من الحمضيات سنوياً ؟ . . إنتاج العالم كله من الموز كم ؟ . . معدّل نهر الأمازون ثلاثمئة ألف متر مكعب في الثانية ، هذه المياه من أين جاءت ؟ الغابات ، الأخشاب التي يستهلكها النجارون في العالم من أين ؟ من الغابات ، من أمدَّ الغابات بهذه الأخشاب ؟ الله جل جلاله .

الحديد ، أطنان الحديد في العالم من أين جاءت ؟ من الفلزات ، من أودع في الأرض هذا المعدن النافع ؟ قال تعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

فكل إنسان مدْعو إلى أن يفهم أنّ الله سبحانه وتعالى هو القيّوم ، ولابدّ من فهم واسع وشامل لصفة القيّوميّة ، فهو الذي يدبر أمر الخلق كلّهم بشراً وحيواناً ونباتاً بتأمين أرزاقهم ، وحاجاتهم ، وزروعهم ، ومياههم .

وقال مجاهد : القيوم هو القائم على كل شيء ، قال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : ٦٢] .

الخلق كلّهم في قبضته ، فقد تتصور أن الأمور متفلّتة ، ويبدو لك أنّ فلاناً قلبه قاس ، وأنّ يده طولى ، وهو سيّد نفسه فالله مالكه ، وقياده بيد خالقه ، وأوضح آية في هذا ، قال تعالى :

﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٥ـ٥٦] .

حيوان شرس ، حيوان مخيف ، عقرب ، أفعى ، هذه الحيوانات المؤذية تتحرك بأمر الله ، وكل مخلوق يتحرك بإرادة الله سبحانه وتعالى ، وليس له إرادة مستقلّة .

لكل شيء حقيقة ، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، القائم على كل شيء هو الله القيّوم .

وقال بعض العلماء : « **القيوم هو القائم على خلقه ، بآجالهم وأعمالهم وأرزاقهم** » ، قال ﷺ : « **إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وتستوعب أجلها ، فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب** » ، قال علي رضي الله عنه : « **إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع رزقاً ولا يقرب أجلاً** »

وقيل : « **القيوم هو المدبر المتولي لجميع الأمور التي تجري في الكون** » ، فإذا سمعت خبر فيضان ، خبر زلزال ، خبر إعصار ، خبر انهدام ، تفشّي مرض ، تفشي وباء ، حرباً أهلية قامت بين فئتين ، أليس لله علاقة بهذا الشيء ؟ ، قنبلة ألقيت على هيروشيما ، أليس لله علاقة بهذه القنبلة ؟ بلى ، وألف بلى !

والقيوم لا شيء يقع في الكون إلا بأمره ، ومشيئته ، وإرادته وحكمته وقدرته ، وعلمه وتدبيره .

قد تتجوّل في الخريف في بستان فترى ورقة زيتون سقطت ، فاعلم أيّها القارىء أنّ الله تعالى في القرآن الكريم يقول : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ

مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

فما قولك فيما فوق الورقة ، سقوط ورقة يعلمها ، سقوط قنبلة ، طبعاً هذه أهم ،يعلمها ، الإنسان متى يرتاح ؟ . . إذا شعر أن الأمر كله بيد الله ، وأن الله قادر وعادل ورحيم وحكيم ، وأنت في ظله ، وأنت في رعايته ، منحك الأمن ، والأمن نعمة لا تُقدر بثمن .

وقيل : القائم على كلّ نفس بما كسبت ، يحاسب كل إنسان حساباً دقيقاً ، قيوم. . الغشاش له معاملة ، والصادق له معاملة ، والخائن له معاملة ، والمتقن عمله له معاملة ، وغير المتقن له معاملة .

سمعت عن أخ عمل مهندساً في بعض دول الخليج ، أخلص إخلاصاً منقطع النظير ، أعطاه من يعمل عنده راتباً فلكياً ، ثم شعر أنه ينبغي أن يستقر في بلده إلى جوار أمه وأبيه ، فترك وعاد إلى بلده ، ذهب زيارة طارئة لذلك البلد الخليجي لإجراء بعض المعاملات ، فعرض عليه من كان يعمل عنده أن يقيم شهراً في الخليج وشهراً في موطنه ، وعشرة آلاف درهم في الشهر يقدر بمئة وخمسين ألف ليرة تقريباً ، وبيتاً مفروشاً ، السبب في كل هذه المغريات والتنازلات استقامته ، وإخلاصه وتفانيه في خدمة عمله ، سبحان الله روي « **البر لا يبلى ، والذنب لا يُنسى ، والديان لا يموت** » .

والنبي ﷺ روي عنه : « **الأمانة غنى** » ، طبعاً من معانيها الضيقة ألاّ يأكل الإنسان مالاً حراماً. . ومن معانيها الواسعة ، أن تكون أميناً في عملك ، أميناً في اختصاصك وأميناً في كلّ شيء. . . فمثلاً إنسان

لا يحتاج إلى عملية إطلاقاً ، يقول له طبيب غير أمين وغير مستقيم : إذا لم تجر العملية بعد يومين تموت ، ويأخذ منه مبلغ أربعمئة وخمسين ألف ليرة ، وهو لا يحتاج إليها إطلاقاً ، هذا ليس أميناً على اختصاصه .

فموضوع الأمانة موضوع واسع جداً ، إذا عمل الإنسان عملاً لِيزيد دخله ، ولا ينفع الشخص الذي يتعامل معه ، فقد خان الأمانة فأنت إذا عندك بلور ستة ميليمتر ، وتركبه مكان ثلاثة ميليمترات من أجل منفعة ذاتيّة وتقول : هذه النافذة أنسب بِسَماكة ستّة ميليمترات ، وتحمله ثمناً باهظاً وعبئاً ووزناً بلا فائدة ، فقد خنت الأمانة . قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥٨] .

إذا كنت صاحب صيدلية ، فالأدوية كلها أمانة برقبتك ، إذا انتهى مفعول دواء لابدّ من تنسيقه ، أعرف شخصاً اشترى دواء انتهى مفعوله ، وكنت أظن أن الدواء الذي ينتهي مفعوله لا ينفع لكنه لا يضر ، ثمّ تبيّن لي أنّ الدواء الذي ينتهي مفعوله له ضرر كبير جداً ، هل تصدقون أنه يصيب الإنسان بالكآبة أحياناً ، لما به من مواد مركبة ، عندما تفككت أصبحت سامة ، لما كانت مركبة كانت نافعة ، فأن تبيع دواءً منتهياً مفعوله ،فقد خنت الأمانة .

أنت محامٍ ؛ موكل في قضية ، تقدم مذكرات غير مدروسة ، ولم تراجع القوانين ، خصمك أقوى منك ، وخسرت الدعوى ، فأنت خنت الأمانة

المحامي أمين ، الطبيب أمين ، هناك أخطاء كثيرة جداً تُرتكب من أصحاب الاختصاصات العليا ، فهم موثوقون ، ولكنّهم هدروا هذه الثقة الممنوحة لهم بتقصيرهم .

تبيع خبزاً للناس ، فعليك أن تتأكد أن هذا العامل يداه نظيفتان ، وسمّان عنده تنكة زيت غالية جداً ، وجد فيها فأراً ، فهل يبيعها للناس ؟ الناس لا يعلمون ، إنه خان الأمانة .

الدين عظيم فهو رقيب على النفس ، يتغلغل الدين إلى أدق التفاصيل ، أضرب لكم مثلاً بسيطاً ، نموذجياً : أخ من إخواننا كان يلف محركات ، قال : قد يأتيني محرك محروق والشرط خمسة آلاف ، أفتحه فأجد طاقاً مقطوعاً خارجياً ، ألحمه بالكاوي بثانية واحدة ، ثمّ يأتي صاحبه في اليوم الثاني ويتقاضى صاحب المحلّ منه خمسة آلاف ، هذا قبل أن يعرف الله ، لكن بعد أن عرف الله ، أصبح يقول لمثل هذه الحالة : اسمح لنا بخمس وعشرين ليرة ، فيسأل الزبون متعجّباً ؛ ما هذا الكلام قد اشترطت خمسة آلاف ! يقول : نعم ، لكن تبيّن لي بعد فتح الجهاز وفكّه أنّه غير محروق ، بل فيه قطعة غير ملحومة ، فلحمته وانتهى الأمر .

والله الذي لا إله إلا هو ، لا يتبدّى الدين حقيقيّاً ، وجليّاً إلا في عملك ، الدين الحقيقي لا يتبدى في صلاتك ولا في صيامك ، ولا في حجك ، ولا في عمرتك ، إنّه يتبدّى في العمل .

أن تضع مادة تؤذي أبناءنا الصغار ، وأنت صاحب معمل غذائيات . . فقد خنت الأمانة ، وخسرت معيّة الله تعالى ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ الذي يخون الأمانة

في صناعته ، لا عبرة لا بصلاته ولا بصيامه ، فالعبرة أن تستقيم على أمره ، إن استقمت على أمره ، فالصلاة لها معنى ، والصوم له معنى ، والحج له معنى ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ .

فمن معاني القيوم : القائم على كل نفس بما كسبت ، فالشاب المستقيم له معاملة خاصة ، له زواج خاص ، له مستقبل خاص ، وشاب منحرف قبل الزواج ، عنده زوجة بلاء من الله ، أتته بلاء ، لأنه قبل الزواج لم يكن عفيفاً .

إنسان دخله حرام يأتيه البلاء الأعظم كل يوم ، يعاني ما يعاني كلّ حينٍ ، وهذا جزاء وفاق يقول : أنا قلق ! . طبعاً ، لأنك عندما بعت الزبون لم تتقِ الله فيه لم تراقب الله فيه عندما بعت هذا الإنسان الساذج . . « غبن المسترسل ربا » ، « غبن المسترسل حرام » ، لم تتق الله في البيع ، فلم تلبث أن جاءك رجل أخافك ، فالأمور دقيقة جداً ، إنّ ربّك لبالمرصاد .

فالقيوم : القائم على كل نفس بما كسبت ، امرأة محبة لله عز وجل مستورة محجبة ، هذه لها زوج خاص ، لها زوج يكرمها ويحفظها ويرفع شأنها ، ويرحمها ، وامرأة فاسقة ، متفلتة ، لها زوج يهينها ويضربها ويضيّق عليها ، هذه لها معاملة وهذه لها معاملة .

شاب أمين ، يتهافت الناس على تشغيله عندهم ، وشاب غير أمين يتنافس الناس في صده عنهم ، طبعاً .

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٣٣] .

وقيل الحفيظ على كل شيء ، كل شيء مسجل عنده ، صورة ملونة وصوت ، وسوف تُعرض عليك يوم القيامة ، قال تعالى :

﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾ [الإسراء : ١٤] .

ركبت مع أخ في سيارته ، رأيت ورقة لديه فيها صورة السيارة مع التاريخ والسرعة ، قلت له : ما هذه ؟ قال : هذه مخالفة ، أرسلوها ، يوم كذا الساعة كذا في شارع كذا بسرعة كذا ، تفضل ، إنسان صنعها ، فكيف خالق الأكوان ، قال تعالى : ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾ .

إذا كانت كل أعمالنا مسجلة ، صوتاً وصورةً ، وسوف تُعرض علينا عملاً عملاً يوم القيامة ، أجب خالقك ، ﴿ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴾ .

﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [يس : ٦٥] .

وقيل : القيوم الدائم القيام في تدبير الخلق وحفظهم الدائم ، الإنسان أحياناً ينتبه إلى عمله فترة ، ويرتاح فترة ، ويأخذ إجازة أسبوعين وتأتي فترات يتعب فيها لا يتابع الأعمال. . القيوم بصيغة مبالغة ، يعني القائم بتدبير خلقه على الدوام ، بمعنى الاستمرار .

وعالم جليل له رأي لطيف في هذا الاسم ، قال : « **اعلم أن الأشياء تنقسم إلى ما يفتقر إلى محل كالأعراض والأوصاف** » ، فكلمة أحمر. . هذه جوهر أم عرض ؟ هذه عرض ، فقد تحتاج إلى شيء يقبل هذا اللون ، تحتاج إلى ماء ملون بالأحمر ، تحتاج إلى جدار يطلى بالأحمر تحتاج إلى ضوء يخترق سطحاً أحمر ، فكلمة أحمر هذه صفة ليست جوهراً ، أما إذا قلنا منضدة فهذه جوهر .

قال : « **الأشياء تنقسم إلى ما يفتقر إلى محل كالأعراض والأوصاف** » ، فيُقال إنها ليست قائمة بنفسها ، وإلى مالا يحتاج إلى محل ، نقول : الشمس مثلاً ، الشمس جوهر ، القمر جوهر ، الحصان جوهر .

لكن الحقيقة الدقيقة هي أن الشيء الجوهري ، الذي لا يحتاج إلى محل ، هو مفتقر في وجوده إلى الله ، طبعاً نحن فيما يبدو لنا ، أن هذا الرخام جوهر ، أما لونه فهو عرض ، هذه السيارة جوهر ، لونها سوداء عرض ، أما عند العلماء الأجلاء وهو الحق ، أن الأشياء التي تتوهمها جوهراً هي في حقيقتها مفتقرة في وجودها إلى الله ، إذاً في الحقيقة كله عرض ، لذلك الذين قالوا الكون كله وهم ، شبح ، من هنا انطلقوا ، أي أنّ كل شيء قائم بالله .

لذلك فمن هو الذي لا يفتقر إلى ما سواه ؟ اسمعوا هذا الشرح ما ألطفه قال : وإن لم يحتج إلى محل « شيء لم يحتج إلى محل » ، فإن كان في الوجود موجود تكفي ذاته بذاته ، موجود قائم بذاته ، ولا قيام له بغيره ، ولا يشترط في دوام وجوده وجود غيره ، فهو القائم بنفسه مطلقاً ، فإن كان كذلك يقوم به كل موجود .

حتى لا يُتصور وجود شيء من دونه ، ولا دوام وجود شيء من دونه ، فهو القيوم ، لأن قيامه بذاته وقيام كل شيء به .. قال : هذا الشيء ، هذا الموجود ، هذا القائم بذاته الذي يقوم به كل موجود ليس إلا الله .

ليس إلا الله وجوده ذاتي يقوم به كل موجود ، ما سوى الله عز وجل ، أعراض ، وأشباح ، وأوصاف ، ولا شأن لها .

اسم القيوم ورد في قوله تعالى :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

وفي آل عمران :

﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [آل عمران : ١-٢] .

وفي سورة طه :

﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴾ [طه : ١١١] .

إذا قرأتم قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ فالمعاني التي وردَت كثيرة جداً ، ودقيقة جداً ، هكذا تعرف الله عز وجل ، هذه معاني كلمة القيوم .

قال العلماء : من أدب المؤمن مع اسم القيوم ، أن يعود قلبه الانقطاع عن الخلق ، مادام يعرف أن كل شيء قائم في الله ، يعني إذا دخلت إلى دائرة ، وجدت فيها ألف موظف ، لا يستطيع موظف أن يخدمك بشيء إلا ليأخذ موافقة من المعلم ، أتتحدث مع أحد ؟ عليك بالمعلم ، ليس لك إلا هذا .

يعني : إذا كان ألف موظف لا يستطيع موظف أن يتكلم كلمة لا بالإشارة ولا بالموافقة ، ولا بالحركة ، إلا إذا وافق المعلم ، فهل تتحدث مع هؤلاء ؟ وتضيع وقتك معهم ؟ . .

فإذا كان كل هؤلاء الناس مرجعهم بيد المدير العام ، فأنت علاقتك معه ، فلتخاطبه هو ذاته .

لذلك : من أدب المؤمن مع اسم القيوم ، أن يعود الإنسان نفسه انقطاع قلبه عن الخلق ، مادام يعرف أن الله سبحانه وتعالى ، هو القائم والقيوم لذلك قال بعض العارفين : **« حسبك من التوكل ألا ترى لنفسك ناصراً غيره »** .

أحياناً يقول الإنسان : دبرتها ، أنجزتها ، عملت خطة محكمة وأفلحت بها ، أقسم بالله إنّي أشعر أن هذا الإنسان تائه ، الله سمح لك ، الله وفقك الله جعل الآخرين يغضون نظراً عنك ، الله خلق في قلبهم عطفاً عليك ، الله حجبهم عن معرفة هذه المخالفة أحياناً ، لا تقل : دبرت حالي ، حتى لو أن واحداً عاونك ، الله سمح له أن يعاونك ، ألهمه ، إما أنه خاف منك ، وإما أنه استحيا ، وإما أنه عطف عليك ، لا تقل أنا دبرت أموري .

قال : **« حسبك من التوكل ألا ترى لنفسك ناصراً غيره ، ولا لرزقك خازناً غيره ، ولا لعملك شاهداً غيره »** .

المُخلص لا يحتاج إلى ضجيج ، غير المُخلص إذا صنع وليمة يقول : هل أعجبكم الطعام ؟ يريد أن يستجدي المديح ، إذا عمل حفلة دائماً يسأل ليمدحوه ، أما المؤمن فلا يطلب على عمله شاهداً غير الله ، ولا يرجو غير الله ، ولا يعرف أن أحداً ينصره غير الله .

من أدب المؤمن مع اسم القيوم ، أن من علم أن الله هو القيوم للأمور استراح من كد التدبير ، وتعب الاشتغال بغيره ، وعاش براحة النفس ، ولم يكن للدنيا عنده قيمة .

يعني ما هو لك لك ، وما هو ليس لك ليس لك ، والله عز وجل

لا ينسى ، ولا يغفل ، وأمرك بيده ، فإذا تيسر فالحمد لله ، وإذا تعسر لا حول ولا قوة إلا بالله .

قال بعضهم : يا رب لستَ محتاجاً إلى أحد ، والكل محتاج إليك ، يا عليم السر في أغواره ، كيف للأسرار أن تخفى عليك ؟ كل شيء بك باق دائماً ، والذي تقضيه مكتوب لديك ، يا مضيء النجم ، يا قيوم يا ناقل الأطيار من أيك لأيك .

عَنْ طَاوُوسٍ سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِي الله عَنْهمَا قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ : « **اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَلَكَ الْحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ** . . . »

[أخرجه البخاري] .

أحياناً يقال : إنه حدثَتْ خلخلةٌ في طبقة الأوزون ، وتفشّى سرطان الجلد إلى أن بلغ بالمئة سبعين ، فيخاف الإنسان ، ولكن الله موجود ، الله عز وجل أليس قادراً على أن يرممها ؟ قادر ، ولكن دون الإيمان بالله الحياة مخيفة تحمل هم الأوزون المتخلخل ، القلق من التلوث ، القلق من الأورام ، القلق من أمراض القلب ، القلق من فشل كلوي ، ما هذه الحياة ؟ . . لكن بالإيمان بالله هناك طمأنينة .

عزيزي القارىء : أحد أكبر مهام الإنسان في الحياة الدنيا أن يعرف الله ، ومن أبرز ما يقتضي أن تعرف الله به أن تعرف أسماءه الحسنى ، واسم القيوم من أسماء الله الحسنى ، وإذا تعمقت في اسم القيوم ، تركت الخلق واتجهت إلى الحق ، وارتاحت نفسك من القلق ، ونجَوْتَ من الاضطراب .

* * *

الأول والآخر

من أسماء الله الحُسنى الأول والآخر ، الأول والآخر اسمان من أسماء الله الحُسنى ، كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ ، وقد أجاز بعض العلماء ذكرهما معاً الأول والآخر .

بعض العلماء أجاز أن يُذكر اسم الأول والآخر معاً ، كالنافع والضار وجمع بينهما أحد العلماء مضيفاً إليهما الظاهر والباطن ، لنا أن نقول الأول والآخر والظاهر والباطن معاً ، أربعة أسماء .

وكما هي العادة دائماً نبدأ بالمعنى اللغوي الدقيق من كلمة الأول ؛ فالمعنى الأول للأول : هو الذي يترتب عليه غيره ، شيء يُبنى على شيء ونتيجة تؤسس على مقدمة ، هذا المعنى الجامع ، التفاصيل : الأول المتقدم زمانه ، طبعاً ، شعبان ثم رمضان ثم شوال ، محرم ثم ذو القعدة ، الأول هو الذي يأتي أولاً زماناً يعني التقدم زماناً .

المعنى الثاني ؛ التقدم رتبةً ، فلان الأول على طلاب الصف ، فلان الأول في التجارة ، فلان الأول في الصناعة ، الأول في العلم ، هذا التقدم تقدم رتبي ومنه قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن : ١-٤] .

لا يُعقل أن يُعلم الإنسان القرآن قبل أن يُخلق ، هذا التقديم تقديم رتبي وليس تقديماً زمنياً .

المعنى الثالث ، المتقدم مكاناً ، أنت في الطريق إلى حلب ، حمص قبل حماة ، وحماة قبل حلب ، فحمص أولاً وحماة ثانياً وحلب ثالثاً ، إذاً هناك تقدم زمني وتقدم مكاني وتقدم رتبي .

المعنى الرابع التقدم في الترتيب ، وهذا يُستخدم في الصناعة ترتيب المحرك أولاً ، ربطه بالعجلات ثانياً ، ربطه بالكهرباء ثالثاً ، إذاً هناك أولوية في الزمان ، أولوية في المكان ، أولوية في الترتيب ، أولوية في التربية ، هذه المعاني الأربع مستفادة من معنى الأول .

أما إذا قلنا ؛ الله هو الأول فلهذا معنى آخر ، معناه أن الله سبحانه وتعالى لم يسبقه في الوجود شيء ، لكن لا ينبغي أن تقول : زماناً ، لأن الزمن من خلق الله ، لم يسبقه في الوجود شيء هذا هو الذي ينبغي أن نقوله في شرح معنى اسم الله الأول .

هناك معنى آخر متعلّق بالله عز وجل ؛ الأول هو الذي لا يحتاج إلى غيره كل شيء يحتاج إلى غيره ليس أولاً ، هذه المنضدة تحتاج إلى خشب ، إذاً ليست هي الأول ، الخشب يحتاج إلى أن ينبت ، إذاً ليس هو الأول ، النبات يحتاج إلى بذر ، ليس هو الأول ، البذر يحتاج إلى نبات يخرج منه ، النبات ليس هو الأول ، فكل شيء يحتاج إلى غيره ليس أولاً .

فالمعنى الثاني إذاً : هو الشيء الذي لا يحتاج إلى غيره ، هذا معنى الأول بالنسبة لله عز وجل .

المعنى الثالث : الشيء المستغني بنفسه في وجوده ، لو أن شيئاً

يفتقر في استمرار وجوده إلى شيء آخر ليس أولاً ، المادة الأولية سبب استمراره ، مادام هناك شيء يعين على استمرار الوجود ، فهذا الشيء ليس أولاً المادة الأولية هي الأول ، فثلاث معانٍ مستفادة من اسم الله العظيم الأول هو أنه لم يسبق وجوده شيء ، والثاني لا يحتاج إلى غيره ، والثالث المستغني بنفسه ، فهذه الثلاثة تشكّل معنى الأول .

النبي عليه الصلاة والسلام قال : **« كان الله ولم يكن شيء غيره »** .

كان هنا فعل ماض تام ، كان الجو صاحياً ، ناقص ، كان الحديد فلزاً ، ناقص ، كان الجليد ماءً ، ناقص ، أما كان الله : فهو فعل تام ، إذاً هذه كان التامة الكاملة التي تحتاج إلى فاعل ، وتكون بمعنى وجد ، أما كان الناقصة فلا تعني حدوث عمل .

بالمناسبة ، هذه الورقة ، إذا مزقتها ، هذا التمزيق حدوث عمل الفعل التام يدل على حدوث عمل ، أما الفعل الناقص فلا يدل على حدوث عمل يدل على زمن فقط ، إذا قلت الجو صاح ، هذا تركيب اسمي ، إذا قلت كان الجو صاحياً ، ماذا أضفت ؟ المضي فقط ، كان الناقصة لا تفيد حدوث العمل ، تفيد مضي الزمن فقط ، الجو ممطر ، كان الجو ممطراً البارحة ، فكأن « كان » شدت هذا التركيب الاسمي إلى الماضي شداً ، أما إذا دلت على حدوث عمل فقد أصبحت كان التامة إعرابها فعل ماض تام ، تحتاج إلى فاعل مرفوع ، كان الله ، وجد الله ، الله لفظ الجلالة نائب فاعل ، طبعاً هناك أدلة كثيرة في كتاب الله .

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] .

اتق الله حيثما كنت ، « حيثما وجدت » وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن .

النبي عليه الصلاة والسلام قال : كان الله ولم يكن شيء غيره(١) ، والحقيقة ، هذا الاسم العظيم ورد في كتاب الله عز وجل في قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣] .

من معاني هذا الاسم مهما أوغلت في النهاية تصل إلى الله ، الله وراء كل شيء ، سبب كل مسبب ، هو الأول والآخر ، أحياناً يقع حدث ما سببه ؟ سبب آخر مادي ، فما سبب هذا السبب ؟ سبب آخر مادي ، من مسبب الأسباب ؟ الله وهو الأول ، إذا تحركت نحو الوراء بسلسلة يجب قطعاً أن تنتهي إلى الله ، هو الأول .

إنسان حرك يديه ، كيف حركها ؟ لأنه حي ، من أعطاه الحياة ؟ الله جل جلاله ، إذاً هو الأول .

---

(١) عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب فأتاه ناس من بني تميم فقال : (اقبلوا البشرى يا بني تميم) . قالوا قد بشرتنا فأعطنا ، مرتين ، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال (اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذا لم يقبلها بنو تميم) . قالوا : قد قبلنا يا رسول الله! قالوا : جئناك نسألك عن هذا الأمر قال : (كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض) . فنادى مناد ذهبت ناقتك يا ابن الحصين فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب فوالله لوددت أني كنت تركتها . [رواه البخاري] .

قال ابن حجر رحمه الله تعالى : تنبيه! وقع في بعض الكتب في هذا الحديث : كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان ، وهي زيادة ليست في شيء من كتب الحديث .

حصل زلزال ، من أحدث هذا الزلزال ؟ هذا الزلزال نتيجة اضطراب القشرة الأرضية ، من جعلها تضطرب ؟ الله هو الأول . لذلك قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] .

بالمناسبة هذا المعنى له تطبيق رائع ، الإنسان أحياناً يُصاب بمصيبة ؛ فمن ضعف توحيده ، أو لضيق أفقه ، يصب جام غضبه على من جاءته هذه المصيبة على يديه ، لو تعقّل ، لو كان توحيده أقوى لرأى يد الله هي التي عملت في الخفاء ، لرأى يد الله فوق أيديهم .

لذلك ربنا عز وجل قال :

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان : ١٧] .

أن تصبر على ما أصابك ، فإن ذلك من عزم الأمور ، هناك آية أخرى :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] .

هذه اللام هي لام المزحلقة ، وهي لام التوكيد ، فهنا في الآية توكيد ، معنى ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ يعني قضاء وقدر جاء على يد إنسان ، الإنسان أحياناً ينقم على هذا الإنسان الذي أجرى الله على يديه هذه المصيبة .

فلو افترضنا ـ لا سمح الله ولا قدر ـ أن طفلاً وقع من الشرفة ، نزل ميتاً ، الأب يتألم أشد الألم ، وقد يتفطر قلبه ، لكن يحقد على

من ؟ يقول : هذا قضاء وقدر ، أما لو أن سائقاً قتل طفلاً ، الأب في ساعة غفلة ، في ساعة غضب شديد ولنقص في توحيده يصب كل نقمته على هذا السائق ، إذا عرف أن الله هو الأول في كل حادث ، هو المسبب ، هو مسبب الأسباب ، طبعاً يأخذ حقه لكن لا يحقد ، لأن الحقد من لوازم الشرك .

هناك رجل يملك محلاً تجارياً ، اختلف مع أحد موظفي المحل ، هذا الموظف يعرف الدخائل والمخارج ، فأبلغ بعض الجهات عن بضاعة غير نظامية ، فضبطت المستودعات ، وكلف بمبلغ كبير جداً ، غرامة لهذه المخالفة الجمركية ، فصاحب هذا المحل ، بساعة من ساعات الغضب ، أخرج مسدساً وأطلق النار على هذا الموظف فأرداه قتيلاً فأودع في السجن ثلاثين عاماً ، لو كان موحداً لما رأى هذه المصيبة من هذا الشخص ، قد رأى يد الله فوق يديه ، وأن الله هو الأول ، هو مُسبب الأسباب ، ولعلَّ الله عز وجل يعوضه عن خسارته ، ولعل الخسارة وقعَت لذنب اقترفه .

الخلاصة أنّك إذا آمنت أن الله بيده كل شيء ، هو الأول ، لا تحقد على أحد ، كما لو أن إنساناً تلقى ضربةً بعصا ، فهل يحقد على العصا ؟ أم على الذي ضربه ؟ العصا لا تقدم ولا تؤخر ، ويجب أن تعلم أن الناس جميعاً ، حتى الأقوياء ، وحتى الأشرار إنما هم عصي بيد الله عز وجل ، ألم يقل الله عز وجل على لسان نبيه :

﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٥-٥٦] .

وهذه الآية لها معنى دقيق جداً ، يعني إذا كانت مجموعة وحوش

كاسرة مربوطة بأزِمّةٍ بيد إنسان عظيم رحيم عادل منصف حكيم ، فأنت ينبغي أن تخاف من هذه الوحوش أم من الذي يملك ناصيتها ؟

المشكلة كلها في هذا المثل ، فالكافر المشرك ضعيف الإيمان يخاف من الوحوش ، والمؤمن يخاف من الذي يملك أزِمّتها ، فإذا اصطلح معه أبعدها عنه ، أما إذا عصاه ، فسوف يرخي لها أزمتها وتصل إليه ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن .

هذه الآية في سورة الحديد : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد : ٣] .

وقد يمكن أن نرد هذه الآية إلى المعنى الأول :

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة : ٦٠] .

يعني لم يسبقنا في الوجود أحد ، وما نحن بمسبوقين ، كان الله ولم يكن معه شيء ، وسيدنا الإمام علي كرم الله وجهه ، مرةً سئل : « متى كان الله ؟ » فأجاب إجابةً رائعة : « ومتى لم يكن » .

الأول بكل ما سواه ، المتقدم على كل ما عداه ، كل ما سوى الله يأتي بعد الله ، من دون الله ، هو الأول ، والمتقدم على كل ما عداه هذه الأولوية ليست بالمكان ولا بالزمان ، ولا بأي شيء في حدود العقل أو العلم .

يقول بعض العلماء : « الله سبحانه ظاهر باطن في كونه أولاً ، هو الأول أظهر من كل ظاهر ، لأن العقول تشهد أن المحدثات لها موجد متقدم عليها وهو سابق الوجود » .

فكونه تعالى أولاً واضح جداً من هذه الجهة ، أنّ كل شيء حدث ، كل شيء محدَث له محدِث كل شيء موجود له موجد ، فمن

بديهيات العقل : أن الموجد قبل الموجود ، وأن المحدث قبل الحادث وأن الخالق قبل الخلق ، وأن المدبر قبل المدَبر وأن الرازق قبل الرزق .

وهو الأول أبطن من كل باطن ، لأنك إذا توغلت في الشيء وتوغلت فيه وتوغلت فيه إلخ. . . ، تصل إلى الله ، هو الأول أظهر من كل شي وهو الأول أبطن من أي شيء .

قال : كل ما أحاط به عقلك وعلمك فهو محدود بعقلك وعلمك فيكون متناهياً ، فمثلاً ؛ نجمة تبعد عنا أربع سنوات ضوئية ، مسافة بعيدة جداً نحتاج لقطعها في مركبة أرضية إلى خمسين مليون عام ، هناك نجم أبعد فنجد نجم القطب يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية ، هناك نجم أبعد بعده عشرين مليار سنة ضوئية ، يا ترى هذه المجرة هي حدود الكون ؟ لا . . والشيء اللطيف أن هذه المجرة التي اكتشفت حديثاً ، والتي تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية ، كانت في هذا المكان الذي وصل إلينا منه ضوؤها قبل عشرين مليار سنة ضوئية ، أين هي الآن ؟ لا يعلم إلا الله .

يعني كل شيء نرصده بالمراصد فالمكان غير حقيقي ، مثلا مجرة كانت في مكان ، وأطلقت شعاعاً ، هذا الشعاع سار بسرعة ثلاثمئة ألف كيلو متراً ، وصل إلينا بعد عشرين مليار سنة ضوئية ، هذا النجم أين صار الآن ؟ هل تصدقون أن بعض المجرات سرعتها تقترب من سرعة الضوء ، سرعتها مئتان وأربعون ألف كيلو متراً في الثانية ، الضوء سرعته ثلاثمئة ألف ، فإذا كان هذا النجم تحرك بسرعة مئتين وأربعين ألف كيلو متراً في الثانية ، وكان بهذا المكان قبل عشرين

مليار سنة ، فأين هو الآن ؟ أين حدود الكون ؟ مهما تخيلت الكون واتساعه ، فهو عقلاً محدود ، لماذا هو محدود لأنه من دون الله ، حادث ، والحادث متناه ، أما الله عز وجل فهو غير متناه .

هناك مشكلة هي اجتماعية ونفسية ودينية في آن واحد ، الإنسان يشعر بما يسمى سعادة ، أو يتوهم السعادة ما دام شاباً لأنه يتحرك نحو المجاهيل ، يريد شهادة عليا ، أخذ شهادة عليا ، أحاط بعلومها واستوعبها ثمّ سئِم منها ، بحث عن زوجة ، تزوج ، أنجب أولاداً ، اشترى بيتاً ، اشترى مركبة ، أكل ، تنزه ، فعل ، ثم شعر بالملل ، لماذا ؟ لأن النفس فطرها الله فطرةً عالية ، فطرها على أن تسعى للانهائي ، فإذا قبلت بالنهائي سئمت .

تجد حقيقةً أن الإنسان بعد الأربعين ، يغلب عليه السأم أكل أكلات طيبة حتى شبع ، تنزه ، وساح في العالم ، فلم يعد لديه شيء جديد ، كله مكرر ، صباحاً جلست للطعام ففوجئت بطعام لم تره من قبل وبطعام ما عرفته سابقاً ، وفي اليوم التالي كأس شاي ، قطعة جبن ، وبيض ، وفي آخر فول ومن بعده حمص ، وبعد ؟ فما هو الجديد في الطعام ؟ لم يعُد من جديد فهذه الخضر الموجودة ، والطبخ ، والفاكهة ، والسرير سرير ، والنوم نوم ، والأكل أكل يعني حياة رتيبة تنتهي إلى سأم فهذه النفس البشرية ، بالأساس مخلوقة على أن تتجه إلى المطلق ، فإذا قنعت بالمقيد فلن ترضى فهي أكبر من كل قيد لذلك تشعر بالسأم .

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

مثل بسيط : إنسان ذو طاقات كبيرة جداً ، ضعه في مكان بلا

عمل يتضجر ويتمزّق ، طاقته كبيرة والعمل محدود ، أما لما يلتجىء الإنسان إلى الله ، فإن السأم يتبدّد لأن الله عظيم ، لا نهائي ، لذلك أنا أقول وأنا أصر على ما أقول ، المؤمن لا يشيخ إطلاقاً ، شاب دائماً ، ما هو الشباب ؟ الشباب أن تكون أهدافك أكبر من حياتك ، أن تكون أهدافك نبيلة تضيق بها حياتك ، فأنت في شباب دائم ، أما إذا كانت أهدافك كلها مادية ، الأشياء المادية محدودة ، أنت أكبر من المادة .

فلذلك منهومان لا يشبعان ، طالب علم وطالب مال . لذلك إذا أردت ألا تشيخ وألا تهرم وأن تكون في شباب دائم فاتجه إلى الله ، واجعل الله عز وجل مقصودك ، ورضاه مطلوبك ، اجعل هدفك الآخرة فأنت في شباب دائم ومتجدد .

حتى الناجحون في حياتهم حتى الأعلام المتألقون ، في الصناعة في التجارة في العلوم في مراكز القوى أي إنسان متألق ما دام حياً فأهدافه المادية أصغر من طاقته الكبرى ، فالإنسان الوحيد الذي يسعد طوال حياته هو إنسان اتجه إلى الله ، الله لا نهائي .

قال بعض العلماء : « الأول في وصفه تعالى بمعنى القديم الأزلي لا ابتداء له » وقيل : « الأول بلا ابتداء الموجود بذاته قبل وجود مخلوقاته وكان الأول لأنه كان موجوداً ولا شيء معه » ، يعني مهما أوغلت في القدم ، مثلاً نحن نعيش في القرن الواحد والعشرين ، توغل في القرن العشرين ، القرن التاسع عشر ، الثامن عشر ، السابع عشر ، السادس عشر ، الخامس عشر ، الرابع عشر القرن السابع الثالث الثاني الأول ما قبل التاريخ إلى نشوء العالم ، أين تصل ؟ إلى الله هو الأول ، هو الذي أنشأ العالم ، كان الله ولم يكن معه شيء .

تحرك نحو المستقبل ، القرن الواحد والعشرين ، عام ألفين وعام ثلاثة آلاف ، عام خمسين ألف .

قَالَ أَبُو حَازِمٍ سَمِعْتُهُ مِنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ صَاحِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَذِهِ مِنْ هَذِهِ أَوْ كَهَاتَيْنِ** » وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى . [صحيح البخاري] .

لو انتهت الحياة الدنيا ، ماذا بعد الحياة الدنيا ؟ الله ، هو الأول والآخر ، لو تحركت نحو الماضي الله هو الأول نحو المستقبل الله هو الآخر .

قال أما الآخر فهو الباقي سبحانه ، معنى الآخر أي الباقي بعد فناء خلقه ، كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام .

الإنسان العاقل يربط مصيره بمصير الأزلي الأبدي ، الباقي الآخر أما لو ربط مصيره بأي شيء آخر فإن هذا الشيء الآخر سيفنى .

قال العلماء : الآخر هو الباقي بعد فناء خلقه ، يعني الإنسان يعيش ويتعلم يكسب المال ، يسكن ويأكل ويتحرك ويسافر ووو . . . ثم تُكتب نعوته ، ثم يُوضع في القبر وهو صندوق العمل .

قال بعضهم : الآخر الدائم بلا نهاية ، عندنا قلق عميق ، فالإنسان قد تكون حياته منتظمة ، حقق نجاحات في حياته ، هناك موت ، هناك نهاية لهذا النجاح ، لكن كل عصر له تجار وصناع وموظفون وأقوياء وأغنياء وأذكياء عاشوا ترفهوا أكلوا شربوا تمتعوا ثم طواهم الردى .

قف أمام سوق الحميدية ، وعُدْ بذاكرتك إلى المحالّ التي على الصفين قبل ستين عاماً فكل أصحاب هذه المحالّ لم يكونوا في هذه

المحالُ قبل ستّين سنة ، وبعد ستين عاماً في الأعم الأغلب هناك عدد آخر من الناس في هذه المحالِّ ، البيوت المتنزهات المدن الساحلية ، كان فيها الرومان ، قبلهم الآشوريون الآراميون ، بعدهم العرب المسلمون ، جاء الصليبيون ، جاء المسلمون ما لانهاية ، الله هو الآخر .

قال العلماء : من أدب المؤمن مع هذا الاسم الآخر ، أن يُكثر من ذكر هذا الاسم حتى يتجلى لقلبه نور الظاهر ، وأن يفر من دار الفناء إلى دار البقاء .

رثى أبو البقاء الرندي مملكة الأندلس فقال :

لكل شيء إذا ما تم نقصان   فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول   من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد   ولا يدوم على حال لها شان

دعا بعضهم فقال : إلهي أنت الآخر لك البقاء ، وأنت الدائم والجموع هباء ، فاجعل لنا قسطاً من نور اسمك الآخر ، فيحيي به الظواهر والسرائر فلا نشهد إلا الباقي بالباقي ، ولا نصل إلا إلى مقام العالي الراقي .

إمام كبير له في اسم الأول والآخر ، تعليقات لطيفة جداً .

تقول فلان أول من فلان ، دائماً الأول فيه تفضيل ، فلان أول بالنسبة إلى إنسان آخر ، هذا المعدن أول رتبةً ، الذهب قبل الحديد من حيث القيمة ، دائماً أول فيه تقدم وعلو ومن كلمة أول له فضيلة ، كان أولاً عليه ، يعني سابقاً له .

يقول أحد العلماء : « **اعلم أن الأول يكون أولاً بالإضافة إلى شيء**

والآخر يكون آخراً بالإضافة إلى شيء ، وهما متناقضان فلا يتصور أن يكون الشيء الواحد من وجه واحد بالإضافة إلى شيء واحد أولاً وآخراً جميعاً » .

ليس من المعقول أن تكون هذه اليد قبل الكأس ، هي يد واحدة ، وتكون بعدها أيضاً فهذا شيء خلاف المنطق ، شيء مضاف إلى شيء ، وهذا الشيء نفسه مضاف إلى شيء آخر ، إلى الشيء نفسه ، الأول مضاف أول ، والثاني مضاف آخر ، هناك تناقض عقلي ، حل هذا الإشكال على النحو التالي ؛ قال هما متناقضان فلا يتصور أن يكون الشيء الواحد من وجه واحد بالإضافة إلى شيء واحد أولاً وآخراً ، يعني هذا المسجد هناك في الجهة الشرقية شجرة ، هي قبله ، هي نفسها أيمكن أن تكون بعده ؟ مستحيل هذا يتناقض مع مبدأ الهوية بالمنطق ! شجرة واحدة أول وآخر لا يصح .

فما دام الأول يجب أن يضاف إلى شيء ، والآخر يجب أن يضاف إلى شي فينبغي أن يكون هذا الشيء شيئين ، الأول بالنسبة لكذا وآخر بالنسبة لذلك .

ممكن أن نقول هذا الكأس قبل الكتاب وهذا الشريط بعد الكتاب ، أما هذا الكأس قبل الكتاب وقبل الشريط فهو ممكن ، فإذا اختلف المضاف إليه ممكن أن نجمع بين الأول والآخر ، الكأس بعد الشريط وقبل الكتاب واحد ، أما شيء واحد مضاف مرةً إضافة أولوية ومرة أخروية لمضاف إليه واحد فهذا الشيء يرفضه العقل .

قالوا : إذا نظرت إلى تركيب الوجود ولاحظت سلسلة الموجودات المرتبة فالله تعالى بالإضافة إليها أول ، إذا نظرت إلى الموجودات الله

تعالى أول الموجودات ، إذ الموجودات كلها استفادت الوجود منه ، فالله أوجدها ، فهو أول وأما هو فموجود لذاته ، وما استفاد الوجود من غيره ، الله عز وجل وجوده ذاتي ، أما وجود الكون كله فيستفاد من وجود الله عز وجل ، فالوجود ليس ذاتياً ، وجود معلول بالموجب أما الله عز وجل ، وجوده ذاتي .

فهناك أحداث ومسالك ، فهو آخر ، في نهاية المطاف تجد الله أمامك ، إذا أضفنا إلى الموجودات فهو الأول أما إذا أضفنا إلى الحركة فهو الآخر ، نهاية المطاف ، نهاية السعي ، نهاية الحياة ، نهاية كل عمل الله جل جلاله .

إذ هو آخر ما يرتقي إليه العارفون ، وكل معرفة تحصل قبل معرفته فهي مرقاة إلى معرفته ، لذلك قالوا : نهاية العلم التوحيد ، مهما تعلمت مهما درست ، نهاية النهاية التوحيد ، وأعلى مرتبة علمية أن تعرف الله فهو آخر بالإضافة إلى السلوك ، بالإضافة إلى الموجودات فهو أول ، منه المبدأ أولاً وإليه المرجع والمصير آخراً .

هذا المعنى له علاقة بحياتنا ، والإنسان فيهما ، سافر وتاجر وجمع مالاً ، أسس أعمالاً ، ونجح ، وتألق مصيره إلى الله :

﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ [الغاشية : ٢٥] .

اذهب أين شئت :

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٤٨] .

هو الآخر ، يجوز أن تركن إلى إنسان ، تركن إلى جهة ، تركن

إلى جماعة ، تركن إلى مالك تركن إلى قوتك ، في النهاية أنت مع الله ، مصيرك إليه .

عالم جليل يقول : « **الأول في وصفه القديم الأزلي ، الذي لا ابتداء له ، والآخر في وصفه بمعنى لا انتهاء له ، ولا انقضاء لوجوده هو الأول بإحسانه ، والآخر بغفرانه ، الأول بالهداية ، والآخر بالرعاية** » .

الإمام الرازي يقول : « **الأول والآخر ؛ فذكر عدة عبارات منها : الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء ، الأول لعرفان القلوب ، والآخر لستر العيوب ، الأول قبل كل شيء ، والآخر بعد كل شيء ، الأول قبل كل شيء بالقدم والأزلية ، والآخر بعد كل شيء بالأبدية والسرمدية ، الأول مبدي كل أول ، والآخر مؤخر كل آخر ، الأول بالوجود والقدم ، والآخر للتوجيه عن الفناء والعدم** » .

يعني أينما ذهبت أوغلت في القدم فهو الأول ، وأينما سعيت وتحركت وطرت وغصت وسافرت وتخطيت فهو الآخر ، الإنسان أين ومتى مات فمصيره إلى الله .

الأول بالخلق ، والآخر للرزق ، الأول بلا مطلع ، والآخر بلا مقطع ، الأول هو الذي ابتدأ بالإحسان ، والآخر هو الذي تفضل بالغفران ، هذه كلها معان فرعية تستفاد من الأول والآخر .

أما أدب المؤمن مع الأول ، وأن يكون أول الناس سبقاً بالخير ، كن أول الناس بمعرفة الله ، كن أولهم بطاعته ، كن أولهم بخدمة عباده وآخرهم تعلقاً بهم .

ومن الناس من يدعو الله بقوله : « **يا كائناً قبل أن يكون شيء ،**

والمكون لكل شيء ، والكائن بعد ما لا يكون شيء أسألك بلحظة من لحظاتك الحافظات الغافرات الواجبات المنجيات » .

لحظة من لحظات الله الحافظات الغافرات الراجيات والمنجيات ، الإنسان يكون في مجتمعه ملء السمع والبصر ثم بلحظة واحدة يصبح خبراً .

عود على بدء ، يجب أن نذكر بعض أسماء الله الحُسنى مثنى مثنى ، الأول والآخر ، والظاهر والباطن .

أحياناً الله عز وجل يفقر ليغني ، يُذِلُّ ليتوب المرء من ذنوبه ثم يعزه أعلى أنواع العز ، يفقره ليغنيه ، يحجبه ليقربه ، أحياناً يهينه ليعلي مقامه ، الإنسان المؤمن صابر على قضاء الله وقدره ، وهو يعتقد اعتقاداً جازماً أن كل شيء في الحقيقة خير ، لذلك قال تعالى :

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام : ١٧] .

دققوا في كلمتي ، (إن يمسسك) و(إن يردْك) ، ما الفرق بينهما ، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ ﴾ ، لماذا جاء مع الخير الإرادة ، ومع الشر الإمساس ، لأن الله عز وجل لا يريد إلا الخير ، فإذا أنزل ضراً بإنسان فهذا الضر ليس مراده ولكنه لا بد منه أحياناً الابن غال جداً على والده ، لكن في بعض الحالات النادرة يجد أنه لابد من تأديب هذا الغلام فيضربه وربما يتألم الأب أشد من تألم الابن بالضرب ، لكن لا بد منه ، فالضرب ليس مقصوداً ، المقصود التربية ، الضر ليس مراداً ، لكنه لا بد منه .

مركبة صنعت فمن أجل ماذا صنعت ؟ من أجل أن تسير ، أليس

فيها مكابح ؟ المكابح تتناقض مع الهدف من صناعتها ، صنعت لتسير وفيها مكابح ! لكن المكابح ضرورية لسلامتها ، الإنسان خلق ليسعد ، لكن المصائب والآلام كالمكابح تماماً ضرورية لسلامته قال تعالى :

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى : ٢٧] .

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

[السجدة : ٢١]

لو أدرك الإنسان أن كل شيء يبدو له شراً هو خير مبطن وأن وراءه هدف كبير لذابت نفسه محبةً لله عز وجل ، لذلك كان عليه الصلاة والسلام « إذا رأى ما يحب ، قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإذا رأى ما يكرهه قال : الحمد لله على كل حال » ، ودائماً حسن الظن بالله ثمن الجنة .

* * *

الظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ

مع الاسمين المجتمعين الظاهر والباطن ، وقد كان موضوع البحث السابق : الأول والآخر وهما اسمان مجتمعان أيضاً .

الظاهر والباطن اسمان من أسماء الله الحسنى ، والظاهر في اللغة من الظهور ، وهو بدوُّ الشيء الخفي ، شيء خفي ظهر يُقال له ظاهر ، والظاهر أيضاً هو الغالب .

المعنى الأول من فعل : بدا أي ظهر ، والمعنى الثاني الغالب من فعل غَلَب يغلب ، قال تعالى :

﴿ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف : ١٤] .

أي أصبحوا غالبين والظاهر كذلك هو : الشيء الخارجي خلاف الباطن : الشيء الداخلي ، نحن في مجال المعاني اللغوية الآن ، والظهر : الركاب التي تحمل الأثقال على ظهورها ، فلان عنده ظهر ؛ أي عنده دابة يحمل عليها ، والظهير هُو القوي ، وروي في الحديث : « **القرآن له ظهر وبطن يحاج العباد** » .

الظهر لفظ الآية ، والبطن تأويلها ، هذه هي المعاني المتعددة التي يمكن أن تُستفاد من كلمة الظاهر .

لكنّ الظاهر ، اسم من أسماء الله الحُسنى ، فيقول العلماء أن

يكون غالباً لخَلْقه ، الله جل جلاله هو الغالب ، هو القاهر ، هو الفعّال لما يُريد ، أمره هو النافذ ، مشيئته هي المتحكمة ، هو المهيمن ، هو المسيطر ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، كل هذه المعاني مستفادة من كلمة ظاهر ، ظهر على خلقه أي غلبهم ، أمره هو النافذ وفي القرآن الكريم آيات تؤكد هذا المعنى :

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

[العنكبوت : ٤]

يعني : هل يمكن للكافر أن يفعل شيئاً لم يرده الله ؟ لا يستطيع لأن الله هو الظاهر ، هو الغالب ، الكافر هل يستطيع أن يتفلت من قبضة الله ؟ لا يستطيع ، لأن الله هو الظاهر ، فإذا قلنا الله ظاهر بمعنى أنه غالب ، مهيمن ، مسيطر ، أمره نافذ ، فعال لما يريد ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وقد ورد هذا المعنى في قصة سيدنا يوسف عليه السلام ، حينما وردت آية تشير إلى مغزى القصة ، قال سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] .

فالإنسان قد يكون في دائرة لها مدير عام ولها معاون مدير ، ولها موظفون ومكتب فني ، ومكتب علاقات عامة فمن هو الرجل القوي في هذه الدائرة ؟ فيها واحد أمره هو النافذ وهو المدير العام ، كذلك الله عز وجل ـ ولله المثل الأعلى ـ أمره وحده هو النافذ في الكون .

فمن طبيعتنا ، إن وُجد في مكان ، في تجمع ، في دائرة ، في مستشفى ، في معمل ، رجلٌ هو القوي ، هو المسيطر ، أمره هو النافذ ، الأنظار تتجه إليه ، فالصفقات تُعقد معه ، والقربات تُقدم

إليه ، لأنه لا يعنينا أي إنسان آخر لا يملك أن يفعل شيئاً ، فكلمة الظاهر تعني الغالب المهيمن المسيطر ، الفعال لما يريد ، الذي تنفذ مشيئته ، الذي لا يستطيع الكافر أن يتفلت من قبضته .

المعنى الثاني للظاهر : هو العالم بما ظهر ، ظهرتُ على سره أي اطلعت على سره ، الله عز وجل إضافة إلى قوته ، وسيطرته وقدرته ، وهيمنته ، هو عليم بكل شيء ، يتعلق علمه بكل ممكن ، لذلك هو عالم بما ظهر .

الحقيقة أن الإنسان إن لم تكن لديه معلومات فهو ضعيف ، يعني أحد أسباب القوة هي المعلومات الصحيحة ، فلذلك الله عز وجل غالب بقوته مطلع بعلمه ، ظاهر .

والمعنى الثالث لكلمة الظاهر : هو أن الله لكثرة البراهين الدالة عليه ولكثرة الدلائل التي تشير إليه ظاهر.. قيل : يا إمام متى كان الله ؟ فقال الإمام علي : ومتى لم يكن ؟..

يعني الله عز وجل كل شيء يدل عليه ، فنحن نلاحظ أن الهواء الذي نتنفسه لو قطع عنا لفقدنا حياتنا ، ومع ذلك لا نراه ، هو معنا نعيش بسببه ، ومع ذلك لا نشعر بوجوده ، فلذلك قالوا شدة القرب حجاب ، وقال بعض العلماء : « **الظاهر هو الذي ظهر فوق كل شيء وعلا عليه ، وقيل عُرف بطريق الاستدلال العقلي** » .

أحياناً الشيء قد تظهر عينه فتعرفه بحواسك الخمس ، قد تغيب عينه وتبقى آثاره فتعرفه بعقلك ، وعقلك يدلك على الشيء الذي خفيت عينه وبقيت آثاره ، وكأنه أمامك .

فالعقل الذي أودعه الله في الإنسان ، مع الكون الذي هو مظهر

لوجود الله ولوحدانيته ولكماله ، هذا العقل إذا أُعمل في الكون بدا الله جل جلاله للعقول ، طبعاً لا يبدو للأبصار لقوله تعالى :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

[الأنعام : ١٠٣]

ولكن الله جل جلاله بدا للعقول بشكل جلي .

وأحياناً كما تعلمون تقع قصة يتناقلها الناس ، أحداث هذه القصة تشير إلى وجود الله ، أحياناً يشعر الناس جميعاً أن هذا الشيء الذي حصل هو من فعل الله ، يقولون إعجاباً أو تعظيماً لما حدث : « الله كبير » هناك أفعال لله عز وجل يفعلها دلالتها واضحة جداً ، الناس على اختلاف أشكالهم وألوانهم ومشاربهم وانتماآتهم وثقافاتهم ، يشيرون إلى أن هذا فعل الله عز وجل .

وأحياناً لحكمة أرادها الله يظهر الأقوياء وكأنهم يفعلون ما يريدون ، في هذا امتحان وفي ذاك امتحان ، إذا ظهرت أفعال الله جلية واضحةً للناس فهذا شيء يُطمئِن النفوس ، وشيء يُثبّتُ الإيمان في القلوب وأحياناً يبدو لنا أن زيداً أو عبيداً يفعل ما يريد ، وكأنه يتصرف وحده ، أيضاً هذا امتحان آخر ، هذا امتحان لضعاف الإيمان ، أحياناً يضعف إيمانهم فيقولون أين الله وأحياناً تقع بعض أفعال الله عز وجل صارخةً جليةً فيقولون لا إله إلا الله .

فمثلا مركبة فضائية أُتقنت إتقاناً خيالياً ، أُمليَ عليها العد التنازلي مرات عديدة ، سميت المتحدي ، أطلقت ، بعد سبعين ثانية أصبحت كتلة من اللهب ، العالم كله مؤمنهُ وكافره يشعر أن هذا فعل الله .

باخرة صُنعت في عام ألف وتسعمئة واثني عشر ، وكتب عنها أن

هذه الباخرة لا يستطيع القدر إغراقها ، لأنها صنعت من طبقتين وهناك أبواب عرضية ، فأي خلل أصاب جدارها الخارجي ، فإقفال الأبواب الداخلية ، يمنع تسرب الماء إليها ، وضع في هذه الباخرة أجمل ما في العالم من أثاث ومن طنافس ومن ثريات ومن مسابح ومن مطاعم ومن ملاعب ومن مقاصف ، ومن غرف من الدرجة الممتازة ورَكِب في هذه الباخرة أغنياء أوربا ، رجال أوربا الأغنياء الأثرياء ونساؤهم ، اتجهت في أول رحلة لها فيما أذكر من بريطانيا إلى بوسطن ، وفي أول رحلة من رحلاتها ارتطمت بجبل ثلجي في عرض المحيط فغرقت وانشطرت شطرين ، وقبل سنتين فيما أذكر عُثر عليها في أعماق المحيط ، لأن القدر لا يستطيع إغراقها حسب ما يدَّعون ، أغرقها الله تعالى من أول رحلة .

أحياناً الإنسان يشعر أن فعل الله ظاهر ، وأحياناً لِحكمة يريدها الله عز وجل يبدو فعل البشر أنه هو الظاهر وأن الإنسان هو الفعّال ، لكن الله سبحانه وتعالى هو الفعّال دائماً هذا ما يراه المؤمن ، لكن ضعاف الإيمان إذا بدت قدرة الله صارخة يكتفون بأن يقولوا سبحان الله ، وإذا بدت قدرة البشر خارقة يتزلزلون وينكمشون ويضعفون ، لكن الحقيقة أنّ الظاهر هو الله جل جلاله الغالب على أمر الخلق .

الظاهر العليم بما بطن ، والظاهر هو الذي ظهر فوق كل شيء وعلا عليه ، وقيل عُرف بطريق الاستدلال العقلي مما ظهر لهم من آثار أفعاله وأوصافه .

يعني لو افترضنا أن مكواة كهربائية ، وُضع شريطها في المأخذ

الكهربائي فلم تسخن ، الاحتمالات بالفكر ؛ ليس هناك كهرباء في البيت نظرتَ فإذا المصباح متألق فالمعنى أنّ تيار الكهرباء متّصل ، سألَتْ يا ترى في المأخذ خلل ؟ جئت بآلة أخرى وضعتها في المأخذ فعملت هذه الآلة ، فمن أين الخلل من المكواة جئت بشريط آخر وصلته بالمأخذ فعملت ، أين الخلل حصراً في الشريط .

الفكر نفى انقطاع التيار عن البيت لوجود مصابيح متألقة ، نفى أن يكون الخلل في المأخذ لاستعماله في آلة أخرى ، نفى أن يكون الخلل بالمكواة لأنه عَملت بشريط آخر ، إذاً الخلل محصور في الشريط ، هذه محاكمة عقلية إلا أنه كأنك ترى هذا الحادث رأي العين ، لشدة المنطقية والنتيجة الحتمية وكأن هذا الشيء ظاهر .

فالله سبحانه وتعالى بمحاكمة بسيطة تُوقِن أن الله موجود ، أحياناً يفتح الإنسان آلة يرى فيها توصيلات ، وصمّامات ، ولوحات توصيل ، العقل لا يتصور دقتها ، يعني لو قطعوا الإنسان المنطقي إرباً إرباً هل يصدق أن هذه الآلة صُنعت وحدها ؟ .

قاموس لاروس من أضخم المعاجم في اللغة الفرنسية وهناك مطبعة فيها حروف إفرنسية ، فلو جئت بمتفجرة وفجرت المطبعة هل يعقل أن ينتج من تفجير هذه المطبعة قاموس لاروس ؟ المواد اللغوية مرتبة وفق الترتيب الأبجدي ، ثم ضمن المادة الواحدة فروع المادة مرتبة وفق الترتيب الأبجدي ، ثم ضمن الفرع الواحد الفعل الثلاثي فالرباعي فالمجرد فالمزيد المصدر الاسم اسم الفاعل اسم المفعول لو كان باللغة العربية مثلاً .

بصراحة أقول لو أنّ مطبعة بالحروف العربية وهي من أدق المطابع

جئنا لها بورق وجئنا بحروف وجئنا بحبر وجئنا بمتفجرة وفجرنا المطبعة ، هل يُعقل أن ينتج عن هذا الانفجار معجم المورد مثلاً ، معجم القاموس المحيط ، مختار الصحاح المواد مرتبة وفق أوائل الحروف كل الكلمات أُرجعت إلى الأصل الثلاثي المجرد ثم رُتِّبت ، ثم بُدىء بالفعل الماضي فالمضارع فالأمر ، فالمصادر كلها السماعية والقياسية ، ثم المشتقات بدأت باسم الفاعل ، اسم المفعول ، اسم المكان ، اسم الزمان ، اسم الآلة ، الصيغة المشبهة باسم الفاعل ثم الأمثلة من كتاب الله ، من السنة ، من الشعر ، هل بِمَقدور الانفجار أن يفعل هذا ؟

ففي الخلق والكون أدق من ذلك بكثير ، فبالعين مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط ، والعصب البصري مؤلف من تسعمئة ألف عصب ، لكل عصب ثلاثة أغمدة ، وبالدماغ مئة وأربعون مليار خلية سمراء لم تُعرف وظيفتها بعد ، وبالمعدة خمسة وثلاثون مليون غدة هاضمة ، والأمعاء الدقيقة تتجدد كل ثمان وأربعين ساعة ، والقلب يضخ في اليوم ثمانية أمتار مكعبة بدَسّامات وشرايين وأوردة ، والغدة النخامية لا يتجاوَز وزنها نصف غرام تعطي اثني عشر أمراً هرمونياً ، مسيطرة على كل غدد الجسم هذه وحدها ، ماذا فعل الأب ؟ وضع الماء في رحم الأم وانتهى الأمر ، من صنع هذا الحُوين وتلك البويضة ، كيف انقسمت ، كيف تشكلت الأجهزة ؟ ، محاكمة بسيطة جداً ترى الله وراء كل شيء ، من أودع في هذا الإنسان الطباع ؟ من أودع فيه حسَّ الجوع ؟ وحس الشبع ؟ الرغبة إلى الطرف الآخر مَن ؟ هذا معنى اسم الظاهر ، يعني يُعرف وكأنه ظاهر بالاستدلال العقلي ، يعرف معرفة يقينية وكأنه ظاهر .

العوام لهم كلمة لطيفة ، يقولون لك : الله عز وجل « لم يُر بالعين ولكن بالعقل عُرف » ، بالعقل نرى الله عز وجل .

وقيل : هو الظاهر وجوده لكثرة دلائله ، وهو البادي بالأدلة عليه فلا يمكن أن يجحده جاحد ، لذلك يوم القيامة يقسم الذين جحدوه وأنكروا وجوده : أنّهم ما أشركوا ، ولا كفروا ، ولا جحدوا ، اقرأ قوله تعالى :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٢٣-٢٤] .

موضوع الجحود ، جحود الله عز وجل ، حالة مَرَضية شاذة نادرة عملية مكابَرة بالمحسوس ، وهو الظاهر بحُجَجه الباهرة وبراهينه المنوعة ، يعني الماء لو أنه على التبريد ينكمش شأنه شأن أي عنصر لما كانت حياة على الأرض ، ولانعدمَت الحياة نهائيًا .

قال العلماء : لقد خلق الله كل الكائنات لتظهر آثار قدرته فيها ، وهو سبحانه وتعالى ظاهر عليها من جميع الجهات ، يقال إن هذه المشكلة لم نستطع أن نسيطر عليها ، فالثقب في طبقة الأوزون حتى الآن لم يستطع البشر أن يسيطروا عليه ، فيروس الإيدز حتى الآن البشر جميعاً ، الدول العظمى بإمكاناتها المالية الضخمة ، بعلمائها بمخابرها ، ببحوثها ، كل هذه الدول تقف مكتوفة اليدين أمام أضعف فيروس عُرف على وجه الأرض ، لم نستطع أن نسيطر عليه ، ولو تمكنوا من أن يسيطروا عليه لكلّف علاج المريض الواحد مبلغاً فلكياً ، لأن هذا الفيروس يحير ، يغير شكله ، يظهر وكأنه كرية بيضاء ، عناصر الدفاع في الجسم تأنس به وكأنه واحد منها ، فإذا

دخل إليها دمرها جميعاً وهو أضعف خلق الله .

لذلك من أدق الكلمات وأوضحها أن يقال : الكون كله بما فيه ومن فيه مظهر لمظاهر أسمائه وصفاته وعلاماته ، كل الكون يدل على الله ، أبداً ، كل الكون بمجراته ، بالسموات بالأرض بالنبات بالحيوان بالأطيار بالأسماك بالإنسان ، بالطعام بالشراب ، لذلك أكبر وظيفة للكون أن تتعرف إلى الله من خلاله ، ولو لم تستفد منه ، لكن الذي استفاد من هذا الكون ولم يتعرف إلى الله من خلاله ما حقق الهدف من وجوده .

وقيل في الاسم الظاهر : « **هو المتجلي بأنوار هدايته وآياته ، المتنزه بمعاني أسمائه وصفاته** ».. هدايته واضحة ، وآياته واضحة ، أما أسماؤه وصفاته فالعقول تعجز عن إدراكها ، فهو ظاهر بهدايته وآياته ، باطن بأسمائه وصفاته.. مهما تحدثت عن أسماء الله الحُسنى ، لا يعرف اللهَ إلا اللهُ ، ولا الأنبياء ، ولا سيد الأنبياء لا يستطيع أن يحيط بالله ، أعلى معرفة على الإطلاق معرفة النبي ﷺ ، إلا إنها معرفة ولكنها ليسَت المعرفة المطلقة.. سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك.. فالظاهر هدايته وآياته ، والباطن أسماؤه وصفاته .

قال العلماء : لا ترى ذرة في الوجود إلا وهي ناطقة بوحدانية المعبود ، ولا ترى فاضلاً متخلقاً بصفات الرجال إلا وتشهد عليه أنوار صفات الكبير المتعال.. كل الخير من الله ، كل الكمال من الله ، كل الأعمال الصالحة بتوفيق الله ، بإلهام الله ، مصدر الكمال في الكون هو الظاهر .

قالوا : الظاهر لا يخفى على كل متأمل ، أيُّ إنسان أراد الحقيقة فالله يظهر له .

قالوا : هو الظاهر فلا يخفى على كل متأمل ، الظاهر لعيون الأرواح والكون مملوء بالجمال محلى بالكمال ، وكل شيء فيه ينادي أشهد أن خلاّقي ذا الجلال. . ظاهر .

العقبة أن تطلب معرفته فقط ، أن تريد أن تصل إليه ، أن ينشأ في قلبك رغبة صادقة للوصول إليه هو ظاهر ، لكن حب الدنيا يعمي ويصم ، الشهوات حُجُب ، أما إذا أزيحت الشهوات فهو ظاهر. .

الناس جميعاً وفي حالات كثيرة يرون أفعال الله صارخةً كالشمس في رائعة النهار ، لأنه ظاهر .

فمثلاً مرة هبّت رياح عاتية على منطقة زراعية فدمرت ما يزيد على مئة بيت زراعي ، الناس جميعاً فيها على اختلاف مللهم ونحلهم ومشاربهم بفطرتهم ، فالسيىء هو الذي دُمر بيته ، والمستقيم هو الذي حفظه الله عز وجل ، وكأن هذه الرياح مسيّرة ، من أغرب المصادفات أن بيتين متلاصقين ، يعني جسم البيتين متصل ، لأخوين من أم وأب ، الأول صالح والثاني طالح ، جاءت الرياح العاتية فقلعت بيت الطالح ، وقلعت معه النباتات المحيطة به ، والبيت الملاصق له نجا من الدمار. . فعل الله ظاهر .

أحياناً ترى أرضَين متجاورتين ، الأولى قمحها نام نماءً رائعاً والثانية قمحها هزيل النماء ، والتربة واحدة والنهر واحد ، والزراعة فيها بشروط موحدة ، ولكن هذا ينوي أن يعطي أولاد أخيه الأيتام من محصوله ، فبارك الله له في محصوله ، وهذا في نيته أن يأكل على

صاحب الأرض بعض الغلة فدمر الله غلته ، لأنه كما تروي القصة هناك علاقة سيئة بينه وبين من معه . فعل الله ظاهر . . محاكمة بسيطة تشعرك أن الله عز وجل ظاهر كأنك تراه ، لذلك اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال العلماء : وأما الباطن ، فهو المحتجب عن عيون خلقه ، عن هذه العين فقط لشدة ظهوره قال تعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

الباطن محجوب عن عين الرأس ، ظاهر لعين القلب .

بعض العلماء يقول : « **إنه باطن من حيث إن كُنْه حقيقته غير معلوم للخلق** » ، يعني لا يستطيع الخلق مجتمعين أن يصلوا إلى كُنه حقيقته ، هو باطن ، لذلك قال بعض علماء التوحيد : « **عين العلم به عين الجهل به ، وعين الجهل به عين العلم به** » .

يعني إذا سُئلت عن ذات الله ، فإذا قلت لا أدري فأنت العالم ، وإن قلت أدري فأنت لا تعلم ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

هذا معنى الباطن ، كنه حقيقته محجوبة عن الخلق .

معنى آخر ؛ باطن أي أن الأبصار لا تحيط به ، كما قال تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ .

المعنى الرابع ؛ باطن بأنه يعلم ما بطن ، أنت كإنسان لك ما ظهر والله عز وجل يعلم ما ظهر وما بطن ، والإنسان أحياناً يكون ممثلاً بارعاً ، وقد يجوز تمثيله على الأذكياء ، بنو عامر أتوا النبي ﷺ وطلبوا منه سبعين داعية وعالماً ليُعَلِّموا قومهم ، وأرسل النبي ﷺ معهم سبعين صحابيًّا ليُعلموهم ، وفي الطريق ذبحوهم ، بقي النبي ﷺ أربعين صباحاً يدعو عليهم في الصلاة ، النبي ﷺ لا يعلم الغيب ، والنبي ﷺ له الظاهر ، لكن الله يعلم الظاهر والباطن .

فأنت إذا لم تعرف الباطن لست مؤاخذاً ، أحد أصحاب رسول الله ﷺ في إحدى المعارك ، كان على وشك أن يقتل مشركاً ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، فقتله ، فلما بلغ النبي ﷺ غضب غضباً شديداً : فقال : يا رسول الله! إنما قالها متعوذاً ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **هلا شققت عن قلبه ؟** » وقال : « **إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم** » ، هذا موقف الإنسان الحقيقي أنت لك الظاهر .

معنى الباطن : أنه محتجب عن عيون خلقه .

باطن : إدراك كنهه مستحيل ، باطن الأبصار لا تحيط به ، باطن يعلم ما بطن .

المعنى الرابع : باطن بمعنى أنه حَجَب الكافر عن معرفته ورؤيته ، وحجب المؤمنين في الدنيا عن رؤيته .

شيء عظيم المنال ، الشيء الثمين ليس في متناول الأيدي ، الجوهرة الثمينة موضوعة في صندوق محكم الإغلاق ، فالله عز وجل باطن يعني عزيز ، فالإنسان إذا لم يطلبه ، ولم يطعه ، وما جهد من

أجل معرفته فلن يصل إلى شيء ، الله عز وجل عزيز ، سلعة الله غالية ، هناك أشياء مبتذلة ، كل إنسان يشتري قصة ويقرؤها ، لكن ليس كل إنسان بإمكانه أن يحمل شهادة دكتوراه ، يحتاج إلى أكثر من عشرين سنة دراسة ، أما أن يشتري قصة فممكن ، أن يقيم حفلاً ممكن ، وأن يشتريَ بيتاً ممكن ، وأن يقوم بنزهة ممكن ، هذا شيء مبتذل ، لكن ليس كل إنسان يمكنه أن ينال دكتوراه ؟ فهذا يحتاج إلى جهد كبير .

وقيل : الباطن في حقيقة ذاته ، فلا تدركها العقول أي حقيقة ذاته ، ومع شدة ظهوره احتجب عن إدراك الحواس ، وقيل تنزه في علو كبريائه فلا تحيط به بصائر المقربين الأطهار ، وهو الظاهر بأسمائه وصفاته وأنوار آياته ، والباطن في حقيقة ذاته عن جميع مخلوقاته .

أكثر العلماء يرون ـ وقد ذكرتُ هذا من قبل ـ أنّه ينبغي أن نلفظ بالاسمين معاً ، أن نقول الظاهر والباطن ، وقد ورد الاسمان في القرآن الكريم معاً في سورة الحديد فقال تعالى :

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد : ٣] .

وفي مفردات القرآن نجد أنّ الظاهر والباطن في صفات الله تعالى لا يُقالا إلا مزدوجيْن ، كالأول والآخر ، والظاهر قيل إشارة إلى معرفتنا البديهية بالله عز وجل ، كل الناس في كل الأرض يقول لك ؛ الله ، الله . فقد يكون شخص عادي معرفته محدودة جداً ، يرى شخصاً منحرفاً يتردّى فيقول : الله لم يوفقه ، الله حطمه . فكلمة الله على كل لسان .

فقالوا : إشارة إلى معرفتنا البديهية ، إن الفطرة تقتضي في كل ما نظر إليه الإنسان أنه تعالى موجود ، المعرفة الفكرية تقتضي أنّ الله موجود وهذا الظاهر ، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ، لكن بعض العلماء قال : « **مثل طالب معرفته مثل من طوَّف في الآفاق في طلبِ ما هو معه . ذهب إلى أقصى الدنيا شرقاً وغرباً يبحث عن شيء وهو معه** » ، فالله عز وجل ظاهر أما كلمة الباطن فهي توجب معرفته الحقيقية .

يعني المعرفة الظاهرة قد لا ترتبط باستقامة ، شأنه شأن الناس جميعاً وربما كلمة الله يقولها الإنسان في اليوم ألف مرة ، « الله يعطيك العافية » مثلاً ، كلمة الله تدور على كل لسان ، إلا أنّ الباطن تعني معرفة الله المعرفة الحقيقية التي تحملك على طاعته .

فالحقيقة ، مقياسك الدقيق فيما إذا كانت معرفتك بالله صحيحة وجيدة أو لا ، التطبيق العملي فالمعرفة التي تحمل صاحبها على طاعة الله ، هي المعرفة الحقيقية .

سيدنا الصديق قال : « **العجز عن إدراك الإدراك إدراك** » ، يعني أن تصل إلى معرفة حقيقة الله هذا شيء مستحيل ، فعجزك عن الوصول إليها أحد أنواع الإدراك ، يعني أحد علامات الإدراك أن تقول لا أدري ، إذا كان الموضوع متعلقاً بذات الله عز وجل .

قيل : ظاهر بآياته باطن بذاته ، كلام لطيف ، جميل جداً ، لهذا روي عن النبي الكريم ﷺ قوله : « **تفكروا في خلق الله ولا تَفكَّروا في الله فتهلكوا** » .

ظاهر لأنه محيط بالأشياء مدرك لها ، باطن من أن يُحاط به .

يروى عن سيدنا علي كرم الله وجهه ، أنه قال : « **تجلى الله لعباده من غير أن يروه ، وأراهم نفسه من غير أن يتجلى لهم ، ومعرفة ذلك تحتاج إلى فهم ثاقب** » .

أحياناً أراهم نفسه بعقولهم ، أيُّ إنسان أَعمَل عقله بالكون وصل إلى الله ببساطة ، وأحياناً يتجلى على قلوبهم بالسكينة من غير أن يروه ، يتجلى عليهم ولا يروه ، ويرونه بعقولهم ولا يتجلى عليهم ، هذا معنى الظاهر والباطن عند الإمام علي كرم الله وجهه .

يقول أحد العلماء : كما ذكرت في البحث السابق لا يقبل العقل أن يكون الله ظاهراً مضافاً إلى شيء ، وباطناً مضافاً إلى الشيء نفسه ، فهذا الشيء نفسه مثلاً يكون أول هذا وآخر هذا مستحيل ، هو إما أنه هنا وإما أنه هناك ، فإذا قلت أول هذا وآخر هذا وهذا واحد فقد وقع تناقض ، العقل مفطور على مبدأ الهوية أي عدم التناقض ، فلا بد من أن يكون أول شيىء وآخر شيىء آخر ، وأيضاً هنا في الظاهر والباطن ، ظاهر بالنسبة إلى شيء باطن بالنسبة إلى شيء آخر .

يعني ظاهر للعقول باطن مستحيل أن تدركه الأبصار .

قال بعضهم : الله تعالى باطن إن طلبته عن طريق الحواس ، لكنه ظاهر إن طلبته عن طريق العقول والاستدلال ، ظاهر وباطن

يقول أحد العلماء : « **الظاهر في وصفه سبحانه وتعالى بمعنى القاهر** » ، ظهر فلان على فلان أي قدر عليه وقهره ، « **والباطن في وصفه عز وجل بمعنى العليم بخلقه المدبر لأحوالهم** » ، الظاهر للعقول السليمة بآياته وبراهينه ودلائل توحيده ، والباطن المتعزز على القوم المحتجب عنهم حتى أنكروا وجوده وجحدوه ، ظاهر للعقول

السليمة باطن متعزز عن القوم إن لم يدفعوا ثمن هذه الرؤيا .

قيل : **ظاهر** بنعمته ، باطن برحمته .

وقيل : **ظاهر** بالكفاية باطن بالغاية .

وقيل : **ظاهر** بالقدرة على كل شيء باطن عالم بحقيقة كل شيء .

وقيل : **ظاهر** لكل شيء بالدلائل اليقينية ، الباطن عن مظاهر الجسمية ، فسبحان من احتجب عن خلقه بنوره وخفي عليهم بشدة ظهوره .

هناك معنى لطيف جداً قال عنه العلماء ، وهو أن قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان : ٢٠] .

الإنسان كثيراً ما يتألم من المصيبة ، وقد تكون المصيبة نعمة باطنة ، النعمة الظاهرة ؛ المال ، الصحة ، الوجاهة ، راحة البال ، الأمن الطمأنينة ، الزوجة الأولاد ، هذه كلها نعم ظاهرة ، ولكن هذه النعم الظاهرة لا ترقى بالإنسان ، الحُزن خلاَّق ، أما الراحة فمَثبِّطة ، الراحة والمورد والطعام والشراب وراحة البال ، والأمن والطمأنينة ، هذه لا تخلق عظماء .

فهناك كلمة رائعة جداً « الحزن خلاق » ، العبقريات أحياناً تتفجر بالأحزان ، والهموم ، فالله عز وجل له نعمتان.. ترى شخصاً في بحبوحة ، كسول ، بارد ، مشاعره باردة ، صلاته جوفاء ، معرفته سطحية ، اتصاله بالله شبه معدوم ، صفاته غير مقبولة ، تأتيه مصيبة مخيفة ، يدعو الله ، يلجأ إليه ، يصلي قيام الليل يتوسل إليه ، يبالغ في طاعته ، يقدم صدقات ، لولا هذه المصيبة ما تألق هذا التألق ،

لولا هذه المصيبة ما سعى إلى الله هذا السعي ، لولا هذه المصيبة ما جدَّ إلى الله هذا الجد ، فهذه المصيبة نعمة باطنة .

وأنا لا أبالغ إن شاء الله ، أعتقد أن ثلثي رواد المساجد المصطلحين مع الله الذين أحبهم الله وأحبوه كان انطلاقهم إلى الله بسبب مصيبة ألمّت بهم فحملتهم على التوبة ، فهذه نعم أم ليست نعماً ؟ بل نعم باطنة ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ .

احفظوا هذه الكلمة ؛ « الحزن خلاق » ، أحياناً ينشأ طفل يتيم ، لا أب ولا مال ، وله أخ قاس وضعه بعمل مرهق ، وطالبه بدراسة متعبة والأستاذ من جهة يطالبه ، وصاحب العمل من جهة أخرى والأب غير موجود والأخ يمنُّ بعطائه ، فهذا الطفل قد يصبح عبقرياً . وبالمقابل أُنظر إلى ولد آخر ، كل شيء موفر له ، الأكل الشرب ، ترى صفاته النفسية خسيسة جداً ، لأنه ما ذاق طعم الفقر ، ذاق طعم الغنى وحده ، فلذلك ؛ الله جل جلاله قال : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ .

هذه الآية من أدق الآيات ، وهي تبث الفرحة في قلب المؤمن يعني عليك ألا تتألم من المصيبة ، لعل الفقر هو المنطلق إلى الله ، لعل المرض هو سبب التوبة ، لعل شبح هذه المصيبة سبب إقبالك على الله هذه نعمة باطنة ، والله عز وجل إذا أراد أن يعالج الإنسان يعرف كيف يعالجه ، يأتيه من مأمنه ، يأتيه من مكان طمأنينته ، من مكان قوته بل يأتيه من حيث لا يحتسب .

فالظاهرة ما نقف عليها ، والباطنة لا نعرفها ، من هنا أشار قوله تعالى :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : ١٨] .

النعم الظاهرة والباطنة لا تحصى .

قالوا : النعم الظاهرة النصر على الأعداء بالعدد ، والنعم الباطنة النصر على الأعداء بالخوف ، فالله عز وجل أحياناً يسبغ عليك هيبة يخاف منك عدوك ، أحياناً تكون قوياً فعلاً ، فإما أن ينصرك بقوة ظاهرة وإما أن ينصرك بقوة باطنة .

وبعد فهذه كلمات واعية فالإنسان مظهر لاسم الظاهر ، ومظهر لاسم الباطن فالإنسان بجسمه مظهر نور الظاهر ، وبروحه مظهر نور الباطن .

ومتى أكثر العبد من ذكر اسم الباطن خشعت نفسه ، وأدرك أنه عاجز بالكلية فيعطف عليه الحق ، يعني كلما ذكرت اسم الباطن وافتقرت إليه عطف عليك الله عز وجل .

عَنْ سُهَيْلٍ قَالَ : كَانَ أَبُو صَالِحٍ يَأْمُرُنَا إِذَا أَرَادَ أَحَدُنَا أَنْ يَنَامَ أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنِ ثُمَّ يَقُولُ : اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ .

[صحيح مسلم]

* * *



من أسماء الله الحُسنى السميع ، وقد ورد في الحديث الشريف أنّ السميع اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ، والله سبحانه وتعالى سميع ، أي : متّصف بالسمع لجميع الموجودات .

الله عز وجل سميع لكل الموجودات ، كل ما سواه يسمعه ، دون حاسة كبني البشر ، دون آلة كبني البشر ، هناك آلة تلتقط الأصوات عند المخلوقات ، أو هناك حاسة لديهم تسمع الأصوات ، لكن الله جل جلاله ، ليس كمثله شيء ، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ، سميع من دون حاسة أو آلة ، سميع لمن ؟ لكل الموجودات على الإطلاق .

يقول بعض العلماء : « **الله جل جلاله سميع ؛ أي لا يعزُب عن إدراكه مسموع وإن خفي** » ، قد يكون صوتاً في النفس ، قد يكون حديث النفس للنفس ، قد يكون خاطرة تَرِدُ على الخاطر ، قد يكون تسؤالاً يرد على الفكر ، تسؤالاً ، خاطراً ، أي شيء يخفى على الناس لا يخفى على الله ، فالله سبحانه وتعالى سميع لا يعزُب عن إدراكه مسموع وإن خفي ، فهو السميع بغير جارحة لذلك وسع سمعه كل شيء .

بالمناسبة ؛ ربنا عز وجل حينما كان ينعى على المشركين أنهم يعبدون من دون الله أصناماً ، كان يقول لهم :

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٤] .

المعنى المخالف ؛ أنه من لوازم الإله الذي يجب أن تعبده أن يسمعك ، من دون واسطة ، أحياناً أنت تتكل على شخص مهم ، إذا ناديته أجابك ، إن سألته أعطاك ، لك عنده مكانة كبيرة ، لكنك أنت في بلدة وهو في بلدة ، قال لك هذا رقم هاتفي ، لو أن هذا الهاتف معطل ما استفدت شيئاً ، تناديه فلا يسمعك ، هو يحتاج إلى آلة ليسمعك بها ، إذاً هو محدود بالنسبة لك ، الإله الذي ينبغي أن تعبده ، يسمعك بلا آلة ولا حاسة ، يسمعك وأنت في أي مكان وفي آية حالة ، يسمعك إن جهرت وإن أسررت :

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ [مريم : ٣] .

حدثني أخ أنهى خدمته الإلزامية ، وهو لا يملك درهماً واحداً ، بحث عن عمل فلم يجد ، أعطته أخته قطعة حُلِيّ لها ، فباعها واشترى بثمنها بطاقة طائرة ، إلى بعض دول الخليج ، وسافر إلى هناك ، أقسم لي أنه وهو في الطائرة ، حدث نفسه حديثاً نفسياً ، قال في نفسه : والله لئن أكرمني الله بهذه السفرة لأبنينَّ لله مسجداً ، أقسم بالله هذا الخاطر ما ذكره بلسانه . . أخذ الله بيده وعاد إلى بلده ، وبنى مسجداً ، وصليت أنا في هذا المسجد ، قال : هذا المسجد استجابة لنداء خفي ما ذكرته بلساني : ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ .

أنت بإمكانك أن تنادي ربك ، وأنت ساكت ، وشفتاك

ملتصقتان ، ولا أحد يعلم بهذا النداء ، هذا الإله الذي يجب أن تعبده ، خواطرك مكشوفة ، دعاؤك مسموع ، طلبك ملبّى ، استغفارك مجاب ، توبتك مقبولة .

سيدنا يونس أين نادى ربه ؟ في بطن الحوت ، والحوت في عمق البحر وفي ظلمة الليل :

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧ـ ٨٨] .

يسمعك ، وأنت في بيتك وأنت في عملك ، وأنت في طائرة ، وأنت على ظهر سفينة ، وأنت في أعماق الوادي ، وأنت في غابة وحولك وحوش كاسرة ، وأنت في أي وضع يسمعك ، إن نطقت وإن سكت ، إن ناجيته بخواطرك ، وإن ناجيته بلسانك هو سميع مجيب .

قال العلماء : هو السميع بغير جارحة ، وقيل وسع سمعه كل شيء ، هو الذي يسمع نداء المضطرين ، هو الذي يجيب دعاء المحتاجين :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : ٦٢] .

هو الذي يجيب دعاء المحتاجين :

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالا : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **إِنَّ اللهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَوَّلُ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ هَلْ مِنْ تَائِبٍ هَلْ مِنْ سَائِلٍ هَلْ مِنْ دَاعٍ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْر** » . [صحيح مسلم] .

الله سميع ، سميع لك في كل أحوالك :

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء : ٢١٣ـ٢٢٠] .

يراك ويسمعك ويعلم ما في نفسك .

إذا تكلمت يسمعك ، إن تحركت يراك ، يراك حين تقوم ، إن نطقت أو سكت يعلم ما في نفسك ، سميع بصير عليم ، لا تحتاج إلى طلب ترفعه إليه ، ولا إلى يمين ، ولا إلى وثيقة ، ولا إلى شاهد .

إذا كنت في كل حال معي فعن حمل زادي أنا في غنى

شخص ذكر لي أنه كان يحضّر دكتوراه في بلد غربي ، وأستاذه صعب جداً ، واختار موضوعاً عويصاً ، وأمضى فيه أربع سنوات ، ثم وصل البحث إلى طريق مسدود ، فإن لم يفلح في متابعة البحث ، وكان بحثاً في الرياضيات ، في الفضاء الخارجي ، فإن لم يصل هذا البحث إلى معادلة متوازنة فالموضوع كله مرفوض ، ومضى له به أربع سنوات ، قال لي : ضاقت نفسي في الإقامة بهذا البلد ، وحينما تصورت أني سأعيد أربعة سنوات أخرى كبرُ الأمر عليّ . فجأة خرَّ لله ساجداً ، وقال : يا رب ، إن كنت تعلم أنني حضرت إلى هذه البلاد لأكتسب علماً أنفع به المسلمين وقد حرَمْتُ نفسي كل المنهيات ، ما من بيت في هذه البلاد ويخلو من هذه المُلهِيات ، حَرَمْتُ نفسي هذه الملهيات استحياء من وجهك الكريم إن كنت عملتُ هذا العمل

خالصاً لك فيسر لي هذا البحث ، وهو إنسان صادق فيما أعلم .

فالله عز وجل ألهمه طريقة جديدة في حل هذه المعادلة ، بعد حين وصل بها إلى التوازن المطلوب ، على حين كان بين الطلاب في مكتبة الجامعة ، قال : فلم أملك نفسي إلا أن خررت على الأرض ساجداً شاكراً لله عز وجل ، وبذا حصَّل الدكتوراه ، والآن هو أستاذ في الجامعة عندنا .

إلهٌ يقول لك : أُدعُني أستجب لك فأنا أسمعك ، أنت حينما تصلي ألا تقول سمع الله لمن حمده ، يعني يا عبدي أنا أسمعك ، فإذا قلت له : ربنا لك الحمد ملء السماء وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد ، وهو يسمعك ، الإله الذي ينبغي أن تعبده ينبغي أن يسمعك ، لأنه أمَرَك أن تعبده ، والعبادة دعاء ، والدليل :

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر : ٦٠] .

يعني الدعاء عبادة .

إذاً هو الذي يسمع نداء المضطرين ، يجيب دعاء المحتاجين ، يعين الملهوفين ، يسمع حمد الحامدين ، يسمع دعاء الداعين ، يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ، يسمع خطرات القلوب ، يسمع هواجس النفوس ، يسمع مناجاة الضمائر .

الآن هناك نقطة دقيقة في الدرس حول اسم السميع ، إنك كإنسان إن خاطبك واحدٌ وخاطبك آخر تقول له انتظر أنا إنسان واحد. . لكن خالق السموات والأرض لو أن خمسة آلاف مليون إنسان الآن دعوه معاً لسمع دعاء كل واحد منهم .

قال العلماء : « **لا تمنعه إجابة دعاء شخص عن إجابة دعاء شخص آخر ، لا يشغله سماع مخلوق عن سماع مخلوق آخر** » .

يا من لا يشغله شأن عن شأن! ولا سمع عن سمع! ولا تشتبه عليه الأصوات يا من لا تغلطه المسائل! ولا تختلف عليه اللغات! يا من لا يبرمه إلحاح الملحين! ولا تضجره مسألة السائلين ، أذقنا برد عفوك وحلاوة مناجاتك .

نحن إمكانيتنا محدودة ، حتى إذا تصور رجل أنه هناك إنساناً يستطيع أن يفعل أشياء عديدة في وقت واحد فهذا وهم ، الإنسان في وقت واحد لا يستطيع إلا أن ينصرف إلى شيء واحد ، ولكن الذي يبدو للناس من أن فلاناً يستمع ويتصل ويأمر وينهى في آن واحد ، هذا عنده قدرة نادرة اسمها سرعة التنقل من جهة إلى جهة ، إنّ الإنسان في وقت واحد لا يستطيع أن يستمع إلا إلى شيء واحد ، إلا أن الله سبحانه وتعالى لا يشغله سماع دعاء عن دعاء ، ولا إجابة دعاء عن دعاء ، ولو أن الخلق كلهم توجهوا إليه ، يسمعهم جميعاً ويتوجه إليهم جميعاً ، لكن الإنسان يتوهم أنه إذا ناجى ربه فربه لا يستمع إلا إليه ، هذا خطأ لا يشغله دعاء عن دعاء ولا سماع دعاء عن دعاء ولا استجابة لعبد عن عبد .

يسمع كل نجوى ، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . . خائنة الأعين ، كيف ؟ أوضح مثل : طبيب بإمكانه أن ينظر إلى جسد المرأة لعلة العلاج ، فلو شطحت عينه إلى مكان آخر ولا يستطيع أحد في الأرض أن يكشف هذه المخالفة لكن الله وحده يكشفها ، أنت جالس في غرفة

النوم وفي غرفة مظلمة خرجت جارتك إلى الشرفة ، من يستطيع أن يعرف أنك تنظر إليها أو لا تنظر ؟ هي لا تراك أساساً ، أنت في غرفة مظلمة وهي في الشرفة ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

أحياناً إنسان يُجري عقد نكاح في بلد غربي وفق الشريعة الإسلامية تماماً ، إيجابٌ ، وقبول ، ومهر وشاهدان ، وعند القاضي ، والأمر كله وفق قواعد الشرع ، لكن في نفسه أنه بعد أن ينهي دراسته يطلقها ، من يعلم ذلك ، هل يستطيع القاضي أن يكشف هذه الحقيقة ، ليس على نية التأبيد على نية التوقيت ، لكنّ الله يعلم خواطر الإنسان ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، والإنسان حين يعرف أنه مكشوف أمام الله خواطره مكشوفة ، مناجاة ضميره مكشوفة ، نياته البعيدة مكشوفة ، خطراته مكشوفة ، عندئذ يستحي من الله ، لذلك هنيئاً لمن أضمر الخير لكل الخلق :

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٨ـ ٨٩] .

قال أحد العلماء عن اسم السميع : « **إن الله سبحانه وتعالى يسمع دعوات عباده ، ويسمع تضرعاتهم إليه ، ولا يشغله نداء عن نداء ، ولا يمنعه إجابة دعاء عن إجابة دعاء ، وقيل السميع هو الذي يسمع دعوتك عند الاضطرار ، ويكشف محنتك عند الافتقار ، ويغفر زلتك عند الاستغفار ، ويقبل معذرتك عند الاعتذار** » .

واحد خرج من المسجد ، أناس يجمعون مالاً لبناء مسجد آخر ، قال لي : والله معي مبلغ محدود لا أملك غيره ، مئتا ليرة ، هممت أن أضعه ثم قلت لا لا أملك غيره ، لعلني أحتاج إليه قال لي : وقع في نفسي خطاب من الله : يعني يا عبدي حينما كنت تنفق هل قطعناك

من المال ؟ قال : فاستحييت وألقيت المئتين في مكان التبرع ، ثمّ قال : والله ما مضى ساعة أو ساعات إلا وجاءني مبلغ لم يكن يخطر على بالي إطلاقاً ، هو لما امتنع شعر أن الله علم بامتناعه ، شعر أن هذه الخاطرة (أنا لا أملك غير هذا المبلغ فكيف أنفقه) أنها من وسوسة النفس الأمارة بالسوء فخالفها .

بالمناسبة كي لا تعدُّوها حكماً شرعياً . الإنسان ليس مكلفاً أن ينفق كل ما يملك ، كثيراً ما قد يواجهنا حكم شرعي كما تواجهنا مواقف شخصية ، وهناك نقطة دقيقة الدلالة جداً من الله عز وجل إذ قال : ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[البقرة : ١٩٥] .

قال المفسرون : لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، فالتهلكة إن أنفقتم كل أموالكم ، وكذلك لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة فالتهلكة إن لم تنفقوا ، فأنت هالِكٌ مرتين ، هالكٌ إن أنفقت المال كله وهالِكٌ إن لم تنفق شيئاً ، لكن هناك حالات خاصة ليست حكماً شرعياً إنما هي مواقف شخصية .

الإنسان قد يتعامل مع الله بطريق المؤاثرة ، بطريقة البذل بطريقة التضحية ، والله عز وجل لا يخيب رجاءه ولا يمنع عنه عطاءه ، فإذا ذكرت هذه الواقعة لا لأدعوكم إلى أن تنفقوا كل أموالكم لا . . . لكن الإنسان قد يواجه موقفاً حرجاً يضطره إلى أن ينفق ، وهو لا يملك إلا مبلغاً محدوداً ، فإذا أنفقه ليحل مشكلة أخيه ، مشكلة عويصة قد تكون ، فإزاء هذه الحالات الاستثنائية ، الله عز وجل يهيىء تعويضاً جزيلاً لهذا الذي آثر أخاه ، لأن الله عز وجل قال :

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .

السميع هو الذي أجاب دعوتك عند الاضطرار ، وكشف محنتك عند الافتقار ، وغفر زلتك عند الاستغفار ، وقبل معذرتك عند الاعتذار ورحم ضعفك عند الذلة والانكسار .

وقيل : السميع هو الذي يسمع المناجاة ويقبل الطاعات ويُقيل العثرات .

السميع صفة لله عز وجل ، يكشف بها كمال موصوفاته ، الله عز وجل كامل كمالاً مطلقاً ، إذا وُجِد شخص أمامك ، محترم ، ذو شخصية جذابة ، وسيم الوجه ، جميل الصورة ، طليق اللسان ، كلما تحدثت معه قال : بالله ما سمعت ؛ ارفع صوتك . . لقد ضَعُف سمعه أليس نقصاً في كماله ؟

الله جل جلاله من لوازم كمال صفاته أنه سميع ، لذلك نكشف بسمعه تعالى كمال صفاته ، هذه الصفة تكشف حقائق المسموعات ، كل شيء يُسمع الله جل جلاله يسمعه ، وتنكشف له المسموعات انكشافاً تاماً ليس بأذن ولا جارحة ، الله عز وجل نكشف نحن بصفة سماعه كمال ذاته ، ويكشف الله بسمعه حالات كل مخلوقاته .

مثلاً : مدير مدرسة ، جالس في مكتبه بالإدارة ، عنده ثلاثون شعبة وثلاثون مدرّساً ، هل بإمكانه أن يستمع إلى كل مدرس ؟ ماذا يقول في لحظة واحدة ؟ أحياناً يخرج من مكتبه ويدخل إلى أحد الصفوف ، إذا دخل يسمع ما يقوله هذا المدرس فقط .

لكن لو افترضنا مثلاً ، أن مديراً وضع لَوَاقِطَ بكُلِّ شُعبة ، بحيث إنه إذا أراد أن يستمع إلى ما يقوله فلان في هذه الشعبة ، ضغط مفتاحاً يخرج صوت المدرس ، نقول : إن هذا المدير معلوماته أدق ومسيطر سيطرة جيدة على المدرسة ، لكن المدير نفسه لو استمع إلى شعبة وضغط مفتاحاً آخر يضيع ، هناك مسجلات فيها جهاز مضاعف ، هل تستطيع أن تضع في كل جهاز شريطاً وتستمع إلى الاثنين ، لا تستطيع ، إن استمعت إلى هذا شوش عليك هذا ، وإن استمعت إلى هذا شوش عليك هذا ، الله عز وجل يسمع جميع خلقه في وقت واحد ، هذا من كمال صفاته .

العلماء قالوا : « **إن صفة السميع زائدة على العلم** » ، كيف ؟ يعني من باب التوضيح فقط ، ممكن أن تستمع إلى دقات قلب مريض ، فإذا سمعت هذه الدقات علمت مقدارها وقوتها وشدتها ، فأنت الآن تعلم حقيقة قلب هذا المريض ، فالعلم واضح .

فلو أن هذا المريض له لغة غير عربية ، وتكلم عن قلبه ، وسمعت ما قال ، سماعك لهذه اللغة غير علمك عن وضع قلبه ، لو أن المريض حدثك بلغته عن قلبه ، فإن لم تكن أنت سميعاً ، عِلْمك شيء وسماعك لما قاله عن قلبه شيء آخر ، فلذلك العلماء قالوا : « **صفة السميع صفة زائدة على العلم** » ، الله عز وجل عليم وسميع وبصير .

الله مُطَّلع على قلب كل مخلوق ، ولو أن هذا المخلوق دعا الله بلغة غريبة ، إضافة إلى أن الله يعلم ما في قلبه ، يسمع قوله في أي لغة .

إذا سافر إنسان إلى بلد يجهل لغة أهلها ، تراه ضائعاً لا يفهم شيئاً الصحف بهذه اللغة الغريبة بالنسبة له ، المجلات بهذه اللغة ، الإذاعة بهذه اللغة ، كلام الناس بهذه اللغة ، المطعم بهذه اللغة ، وهو لا يفقه شيئاً ، فالإنسان إذا لم يسمع أو لم يفهم ما سمع ، يضعف مركزه فمن كمال صفات الله أنه سميع ، وسمعه زائد على علمه ، علمه شيء وسمعه شيء آخر .

يعني إن الله عز وجل يدرك كل مسموع وإن خفي صوته ، فهو سبحانه وتعالى يسمع سواء أكان السمع من قبيل الأصوات أو من قبيل الألوان ، كيف نفهمها هذه ؟

الإنسان يسمع الأصوات فقط ، فإذا لم يكن صوت لا يكون سمع ، الأذن تلتقط الموجات الصوتية ، هذه الموجات تصيب غشاء الطبل بالاهتزاز ، هذا الاهتزاز ينتقل إلى الأذن الداخلية فيسمع الإنسان ثم يُدرك ما سمع ، أما لو أن الذي أمامك بقي ساكتاً هل تسمع ؟ هو واقف أمامك وهو ساكت لكن يقول في نفسه والله إني أحب فلاناً ، هذا خاطر ، الإله يسمع المسموعات ذوات الأصوات ، كما يسمع ما خفي ومالا صوت له .

أحد العلماء ، يرى أن الله يسمع ، لكن سمعه مُنزّه عن تغيير يعتريه عند حدوث المسموعات ، غشاء الطبل ساكن فإذا سمع الإنسان صوتاً قوياً هذا الغشاء يهتز ، ولولا هذا الاهتزاز لما سمع الصوت نقول لقد أصاب هذا الغشاء تغيير اعتراه حتى نقل الصوت ، قال : الله جل جلاله مُنزّه عن هذا ، يعني لا يسمع بتغيير يصيب سمعه ، هذا شيء مستحيل أن يليق بالله عز وجل .

والله سبحانه وتعالى مُقدّس عن أن يسمع بأذن أو آلة أو أداة والسمع في حقه جل جلاله عبارة عن صفة ينكشف بها كمال صفات المسموعات . الله عز وجل يكشف بسمعه أحوال خلقه جميعاً ، من دون آلة ولا جارحة ولا اهتزاز ولا تغير يعتري سمع الله عز وجل .

لذلك السميع برأي بعض الأئمة هو صاحب الانكشاف والتجلّي ، الإنسان يضمر شيئاً ، والله سميع : يكشف حال هذا المخلوق وما في ضميره .

السمع أحياناً له معانٍ أخرى ، أحد العلماء قال ؛ للسمع أربعة معان في حق الله عز وجل :

الأول : سمع الإدراك ويتعلق بالأصوات ، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى :

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] .

خولة بنت ثعلبة كانت تحت أوس بن الصامت وكانت حسنة الجسم وكان به لمم فأرادها فأبت فقال لها : أنت علي كظهر أمي ، ثم ندم على ما قال ، وكان الظهار والإيلاء من طلاق أهل الجاهلية ، فقال لها : ما أظنك إلا قد حرمت علي فقالت : والله ما ذاك طلاق ، وأتت رسول الله ﷺ ـ وعائشة رضي الله عنها تغسل شق رأسه ـ فقالت : يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني ، وأنا شابة غنية ذات مال وأهل ، حتى إذا أكل مالي وأفنى شبابي وتفرق أهلي وكبر سني ظاهر مني وقد ندم ، فهل من شيء يجمعني وإياه تنعشني به ؟ فقال رسول الله ﷺ : حرمت عليه فقال : يا رسول الله والذي

أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً وإنه أبو ولدي وأحب الناس إلي فقال رسول الله ﷺ : حرمت عليه فقالت : أشكو إلى الله فاقتي ووحدتي قد طالت صحبتي ونفضت له بطني فقال رسول الله ﷺ : ما أراك إلا قد حرمت عليه ولم أومر في شأنك بشيء فجعلت تراجع رسول الله ﷺ وإذا قال لها رسول الله ﷺ : حرمت عليه هتفت وقالت : أشكو إلى الله فاقتي وشدة حالي ، وإن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إلي جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم! إني أشكو إليك اللهم فأنزل على لسان نبيك ، وكان هذا أول ظهار في الإسلام ، فقامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر فقالت : انظر في أمري جعلني الله فداءك! يا نبي الله! فقالت عائشة : أقصري حديثك ومجادلتك أما ترين وجه رسول الله ﷺ ؟ـ وكان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه أخذه مثل السبات ـ فلما قضى الوحي قال لها : ادعي زوجك فدعته فتلا عليه رسول الله ﷺ : ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَـٰدِلُكَ﴾ الآيات .

قالت عائشة : تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها إن المرأة لتحاور رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت أسمع بعض كلامها ويخفى علي بعضه إذ أنزل الله : ﴿قد سمع الله﴾ الآيات . هذا أول معنى من معان السماع ، سماع الإدراك .

المعنى الثاني : سماع الفهم « **اسمع ما أقول** » في التعبير الدارج يعني افهم ، يؤكده قول الله تعالى :

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال : ٢١] .

السماع هنا معناه الإدراك ، التفهم ، الله عز وجل يعرف وضعك

في أدق التفاصيل ، يعرف ظروفك الصعبة ، يعرف العقبات التي أمامك يعرف الصوارف التي تصرفك عن هذا الشيء ، يعرف حجم التضحية سمع دعاءك يا رب! أنا مضطر ، يا رب! استجب لي هذا كلام ، لكن حجم اضطرارك يعرفه الله عز وجل ، فالله عز وجل إضافة إلى أنه يسمع دعاءك كصوت يعلم حقيقة حالك ، فأول سماع سماع الصوت ، السماع الثاني سماع الفهم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٠٤] .

يعني : افهموا .

إذا قال رجل للآخر : انتبه ، على كتفك عقرب بصوت واضح وفي نبرات حادة ورفع الصوت فالتفت إليه بهدوء وقال له : أنا أشكرك على هذه الملاحظة وتلك النصيحة وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يلهمني أن أكافئك ، ولم يبادر إلى رميه ، أيكون سمع ما قيل له ؟ . . هذا سمع ولم يسمع ، سمع صوتاً لكن لم يفقه ما معنى عقرب ، لو فهم لقفز ولصرخ ، ما دام بقي هادئاً ، والتفت بهدوء وشكرك فالمعنى أنّه لم يسمع بمعنى أنه لم يفهم ، الصوت وصل إليه ، فهناك سماع صوت وهناك سماع فهم : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ، أي : لم يفهموا .

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢاۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة : ٥] .

المعنى الثالث : سَمْع الإجابة وإعطاء ما سئل ، كما تدعو : اللهم! اسمع ، يعني أجب وأعط ما سألتك .

المعنى الرابع : القبول والانقياد ، قال تعالى :

﴿ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ [المائدة : ٤٢] .

إذا قال رجلٌ لك : فلان أمانته ضعيفة ، أمعقول ؟ . . طبعاً معقول . . فيقول إذاً لن أُعطيه شيئاً ، أنت سمعته وصدقته ، أحياناً تقول هذا الكلام غير مسموع لا أقبله ، معنى سماعون للكذب منقادون إليه مصدقون له .

فصار أول معنى سَمَاع الصوت ، المعنى الثاني الفهم والإدراك ، المعنى الثالث الاستجابة ، المعنى الرابع الانقياد ، كل هذه المعاني وردت في كتاب الله عز وجل فيما يتعلق بالسمع .

ومما يؤكد معنى أن السمع هو الاستجابة سول النبي ﷺ في الدعاء المأثور :

عن عبد الله بن عمرو قال : كان رسول الله ﷺ يقول :

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ ، وَمِنْ دُعَاءٍ لا يُسْمَعُ ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ ، وَمِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلاءِ الأَرْبَعِ » . [سنن الترمذي] .

يعني لا يُستجاب له .

عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَت : الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ ، لَقَدْ جَاءَتْ خَوْلَةُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ تَشْكُو زَوْجَهَا فَكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلامُهَا فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَـٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾ الآيَةَ . [رواه البخاري] .

عندما قال النبي ﷺ في الطائف بعد أن دعاهم فكذبوه ، بعد أن استعانهم فخذلوه بعد أن استنصرهم فلم ينصروه ، بل أغروا به

صبيانهم ، وضربوه بالحجارة ، فدميت قدماه ، رفع يديه إلى السماء ، قال يا رب :

« اللهم! إليك أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس. . . أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملّكته أمري ، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ، غير أن عافيتك أوسع لي » هذا هو دعاء الطائف .

في الإسراء ، قال تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١] .

بحسب السياق ، يتوهم الإنسان ما دام معجزة انتقالاً مفاجئاً من مكة إلى بيت المقدس ، السياق يقتضي أن يقول الله عز وجل ، إن الله على كل شيء قدير ، قال : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ يعني هذا الإسراء وذاك المعراج مكافأة لك وتكريماً لك ، وتكريم السماء تعويض عن جفوة الأرض ، لأن الله سمع دعاءك في الطائف ، وجاء قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

أحياناً الإنسان يدعو الله عز وجل : **« يا رب إني ضعيف ، إني مغلوب فانتصر »** ، وبعد أن تمضي سنة ينصره الله ، فكأن هذا النصر هو جواب الدعاء ، فالإنسان يستخدم الدعاء .

هناك نقطة مهمة ، يجب أن توقن بفاعليّة الدعاء ، فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ، والدعاء مقبول والطلب معقول والهدف الآخرة أو السلامة من الفتن في الدنيا ، فكل إنسان دعا الله عز وجل يسمعه ويستجيب له .

اسم السميع ورد في كتاب الله في أربعين آية أذكر بعضها :

﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة : ١٣٧] .

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران : ٣٨] .

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [الأنعام : ١٣] .

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

[الأعراف : ٢٠٠]

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

[الأنفال : ٤٢]

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج : ٦١] .

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور : ٢١] .

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[لقمان: ٢٨] .

سميع ، معكم أينما كنتم وأسمعكم ؛ في بيتك ، وفي أحرج

الظروف ، وفي أدق المواقف ، وفي أحلك الليالي ، وفي السماء ، وفي الأرض ، بالطائرة تصعد في أطباق الفضاء ، وفي الغواصة ، تغوص في أعماق البحر ، في بيتك في بستانك في عملك .

سمعت طبيباً جراحاً مشهوراً ، أنه لا يُجري عملية جراحية إلا إذا توضأ وصلى ركعتين لله عز وجل وفي السجود يسأله التوفيق ، والله سمعت عن هذا الطبيب نجاحات يصعب أن نصدقها ، يجري جراحات عصبية في الدماغ ، بالدماغ بنسبة واحد بالألف بالميلمتر تودي بالمريض أو تشلّه ، وهي طبعاً جراحة مكبرة تحت المجهر ، فهذا الطبيب لا يجري عملية إلا إذا صلى ركعتين وفي السجود يسأل الله التوفيق والنتائج رائعة .

هكذا يجب أن يكون المؤمن ، في كل أعماله ، إذا عقد صفقة ، قبل أن تشتري هذه الصفقة ، قبل أن تُقدم على هذا العمل ، قبل أن تلقي هذا الدرس ، قبل أن تعقد هذا العقد قبل أن تتكلم . قُلْ : توكلتُ على الله ، ادعُ الله ، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ .

وبعد ؛ دققوا في آداب المؤمن بالنسبة لهذا الاسم ، من علم أن الله يسمع كل شيء ، هل بإمكانه أن يلفظ كلمة نابية ؟

يقول شخص في وصف آخر : صاحبتهُ ثلاثين سنة ما سمعت منه كلمة نابية ، لم أسمع منه سقطاً أو عواراً ، ولا كلمة مرذولة إطلاقاً ، من أين جاء هذا الانضباط باللسان ، من معرفة المؤمن أن الله يسمعه ، لذلك من أدب المؤمن مع الله في اسم السميع حفظ لسانه من الباطل فلا يتكلّم إلا بخير ، ومن عرف أن الله تعالى سميع كان من أدبه دوام المراقبة ، ومطالبة النفس بالمحاسبة ، ويجب على العبد أن

يعلم أن الله تعالى ، لم يخلق له السمع إلا ليسمع كلام الله أولاً .

أدب ثانٍ إنّ هذه الأذن ، إلى الآن طريقة عملها الدقيق مجهولة ، يعني اهتزاز وصل إلى طبلة الأذن ، نقل هذا الاهتزاز عبر عظيمات السمع إلى الأذن الوسطى ، ثم إلى الأذن الداخلية ، ثم نقل العصب السمعي هذا الأثر إلى الدماغ ففهمت الكلام المسموع .

شخص يحكي كلاماً هاماً ، نعم.. صح.. يسمع ، ينتقل الكلام إلى غشاء الطبل إلى الأذن الوسطى... إلى الدماغ ، إذا كان نغم رائع تطرب ، ضجيج تضجر ، فما النغم ؟ وما الضجيج ؟ معقول أن يكون عندك ذاكرة سمعية لأن تعرف بها أصوات الناس جميعاً فهذا عجب ، والدليل سماع الأصوات على الهاتف ، كلّما جاءتك مكالمة تعرف مَن المتكلم ، مِن أول كلمة ! فلان .

الإنسان نبرة صوته هوية ، لا يوجد إنسان في الأرض نبرة صوته كإنسان آخر ، أبداً ، قزحية العين ، ونبرة الصوت ورائحة الجلد وبلازما الدم ، والبَنان ، بصمة الإصبع ، هذه هوية الإنسان ، فأنت عندك ذاكرة ، يقال : إنّ بعض الحواسب تقرأ أربعمئة وخمسين مليون حرف ، هذا صنع الإنسان ، وأنت قد يكون في حياتك مئتا شخص تعرفهم ، أحياناً شخص بعيد عنك أكثر من عشرين سنة تسمع صوته فجأةً فتقول له : فلان.. معناها أنّك سمعته وعرفته ، وهذه الأذن التي تلفت نظر العلماء إلى دقتها ، لك أذنان من أجل أن تعرف جهة الصوت ، لك عينان من أجل أن تعرف البعد الثالث ، بعين واحدة بعد واحد ، في العينين ترى العمق ، يقول بعض العلماء :

« ينبغي للعبد أن يعلم أن الله تعالى لم يخلق له هذا السمع إلا

ليسمع كلام الله » ، الذي يجلب آلة طحن لحم أغلى نوع في العالم ثمنها آلاف ، هذه لطحن اللحم ، فلا يليق أن تستعملها لأشياء رخيصة أو مبتذلة ، كذلك الذي خلق الله له سمعاً لا يليق به أن يسمع الغناء والكلام البذيء والغيبة والنميمة والإفك والبهتان ، والكلام المنحط وذكر العورات ، لا بل هذه الأذن ينبغي أن تستمع إلى الحق وإلى كلام الله عز وجل .

عن أبي عامر أو أبي مالك الأشعري قال :

« ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف .

ولينزلن أقوام إلى جنب عَلَم ويروح عليهم بسارحة لهم ، يأيتهم لحاجة ، فيقولون : ارجع إلينا غداً ، فَيُبَيِّتُهم الله ، ويضع العلم ، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة » .

وعن عبد الرحمن بن غنم أنه سمع أبا مالك الأشعري عن النبي ﷺ قال :

« لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا ، يضرب عَلَى رؤُوسِهِمْ بِالْمَعَازِفِ وَالقينات ، يَخْسِفُ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ . وَيَجْعَلُ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ » .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة : مزمار عند نعمة ، ورنة عند مصيبة » .

وعن عبد الرحمن بن عوف قال : قال رسول الله ﷺ :

« إني لم أنهَ عن البكاء ولكني نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين :

صوت عند نغمة لهو ، ولعب ومزامير الشيطان ، وصوت عند مصيبة ؛ لطم وجوه وشق جيوب ، ورنة شيطان » .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى مؤدب ولده ، يأمره أن يربيهم على بغض (المعازف) :

« ليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان ، وعاقبتها سخط الرحمن ، فإنه بلغني عن الثقات من أهل العلم : أن حضور المعازف واستماع الأغاني ، واللهج بها ، ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب الماء ، ولعمري لتوقي ذلك بترك حضور تلك المواطن أيسر على ذي الذهن من الثبوت على النفاق في قلبه » .

الله عز وجل أعطاك سمعاً وأعطاك بصراً ، فأنت تصدق ـ من باب حسن الظن بالله ـ أن إنساناً له عين يغض بها عن محارم الله ، تنهمر منها دمعتان من خشية الله ، أفتظنّ أن هذا الإنسان يمكن أن يرث عينه أم أن ترثه عينه ؟ إن فهمك كفاية ، « **ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا** » [الترمذي عن ابن عمر] .

فالإنسان المؤمن ترثه عينه وأذنه وقوته وعقله ، يعني يستمتع بسمعه إلى آخر لحظة في حياته ، يستمع للحق ، هذا السمع يجب أن يكون للحق ، إذا كان في كلام باطل قال :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٦٨] .

إنّ المؤمن يقول لنفسه : قم . . فالمجلس فيه غيبة ، فيه كلام بذيء ، فيه كلام فارغ ، فيه لغو .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ إلا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً » . [سنن أبي داود] .

ينبغي أن تستمع إلى الحق ، والعبد إذا تقرّب من ربه بالنوافل أحبه الله فأفاض على سمعه نوراً تنفذ به بصيرته .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « إِنَّ اللهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ » . [صحيح البخاري] .

صار في سمعه نور ، كيف ؟ يعني أنّ الباطل لا يسمعه ، وكلام يناقض القرآن لا يسمعه ، والكلام الفاحش والبذيء لا يسمعه ، الغيبة يرفضها ، صار في سمعه نور .

جاء في بعض الأدعية **« إلهي أنت السميع لحركات القلوب وخطرات النفوس ، السميع لنداء المضطرين ، المغيث لجميع المحتاجين ، أشرِقْ على سمعي نوراً منك أسمع به تسبيح الكائنات في الأرض والسموات »** .

« إني لأعرف حجراً بمكة ـ كما قال النبي ﷺ ـ كان يسلم عليّ قبل أن أبعث » [مسلم] عن جابر بن سمرة .

امنحني قوةً روحية أسمع بها عهدك ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ إنك على كل شيء قدير .

اسم السميع من أدق الأسماء الإلهية ، وهو من أقرب الأسماء إليك لأنك كلما ناجيته يسمعك ويستجيب لك ، هذا اسم السميع ، وينبغي أن تعلم أنه ليس هناك معرفة في الأرض تعلو على أن تعرف الله في أسمائه الحُسنى ، ما من معرفة في الأرض أعظم وأجل وأدق وأخطر في حياتك من أن تعرف أسماء الله الحُسنى ، وهذا اسم السميع يؤدّبك ويعلّمك .

* * *

البَصِيرُ

من أسماء الله الحُسنى البصير ، وقد ورد في الحديث أنّ البصير اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ، ولنستعرض أوّلاً معنى هذا الاسم في اللغة :

البصر : هو العين ، أو حاسة الرؤية ، وقيل : البصر هو النور الذي تدرك به المبصرات ، ومعلوم أن العين مهما تكن حادة النظر ومهما يكن الشيء واضحاً فلا بد من وسيط من النور يتيح للعين أن ترى هذا الشيء ، ويمكن أن تُسحب هذه الحقيقة على العقل ، فالعقل مهما كان حاد الذكاء ، ومهما كانت الأمور واضحة وضوح الشمس ، لابد من نور إلهي يكشف لهذا العقل حقيقة الأشياء ، لذلك قال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال : ٢٩] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد : ٢٨] .

ودون هداية الله ، دون وحي السماء ، من دون خطاب الله للبشر ، فإنّ العقل يَضل ويُضل ، وينحرف ويُحرف ، فالبصير من البصر ،

والبصر هي العين ، والبصر حاسة الرؤية ، والبصر النور الذي تُدرك به المبصَرات ، هذه المعاني وردت في معاجم اللغة .

والبصر ايضاً نفاذ الحقيقة في القلب ، والبصيرة قوة القلب المدركة للحقائق ، نقول فلان ذو بصيرة أي في قلبه قدرة على كشف الحقائق ، والمبصر هو العالم والحاذق ، والتبصر هو التأمل والتعرف والثبات في الدين .

قبل أن نمضي في التعرّف إلى هذا الاسم العظيم ينبغي أن نوضح هذه الحقيقة ، وهي أن مشكلة معظم الناس هي في انحراف الرؤية وفي خطأ الرؤية ، لأن الإنسان في الأصل مفطور على حب ذاته وحب وجوده ، يحب ذاته ، كما يحب سلامة وجوده ، يحب كمال وجوده ، كما يحب استمرار وجوده ، فكيف يسلك طريقاً فيه هلاكه ، فكيف يقترف المعاصي والآثام ؟ فكيف يهلك نفسه بمعصية ربه ؟ يهلكها لأنه رأى خطأ أن المعصية مغنماً لا مغرماً ، لأنه راى خطأً أن كسب هذا المال من طريق غير مشروع ربح له فالإنسان يحب ذاته فحرصه على سلامة وجوده ، وحرصه على كمال وجوده ، وحرصه على استمرار وجوده ، يقتضي أن يقوم بطاعة الله عز وجل ولا يتوانى .

هؤلاء الذين يقترفون المعاصي والآثام ، وهؤلاء الذين يرتادون الأماكن المحرمة لماذا ارتادوها ؟ لماذا أقبلوا على المعصية ؟ لأنهم توهموا أنها تسعدهم ، ولو عرفوا أن طاعة الله عز وجل هي وحدها التي تسعدهم وأن الأقبال عليه هو الذي يطمئنهم لما سلكوا هذا الطريق .

فما الفرق بين مؤمن مستقيم على أمر الله ، وعاص متفلت من أمر الله ؟ . . هناك فرق بينهما ، هو الرؤية .

سيدنا يوسف حينما دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله رب العالمين ، ما الذي جعله يحجم عن اقتراف هذه المعصية ؟ رؤيته لما تنطوي عليه من هلاك ومن بعد عن الله عز وجل ، فهذا الذي إذا دعته امرأة ذات منصب وجمال أقبل على هذه المعصية ما الفرق بينه وبين هذا الطائع ؟ . . الرؤية فقط . . إن صحت رؤيتك صح عملك ، وإن صح عملك سعدت في الدنيا والآخرة ، وإن انحرفت رؤيتك فسد عملك وإن فسد عملك هلكت في الدنيا والآخرة ، أكاد أقول إن الفرق الوحيد بين الشقي والسعيد ، بين المستقيم والمنحرف ، صحة الرؤية أو خطأ الرؤية .

لذلك بِمَ كان يدعو عمر رضي الله عنه ؟ كان يدعو ويقول : **« اللهم! أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه »** .

إنّ أحدنا حينما يرى أن المعصية مهلكة له ، وأن الطاعة مغنمٌ له ، هذه نعمة ، والله الذي لا إله إلا هو لا تُقَدَّر بثمن ؛ لا تُقدر بثمن أن ترى الحق حقاً ، لأن هناك من يرى الباطل حقاً ، وأن هناك من يرى الحق باطلاً ، أما أن ترى الحق حقاً ، أما أن ترى الباطل باطلاً فهذه من كبرى النعم .

شيء ثمين جدًّا إن رأيت الحق حقاً ، وإن رأيت الباطل باطلاً ، وبعد فأنت بحاجة إلى إرادة قوية تحملك على اتباع الحق وترك الباطل ، رؤية وإرادة ، أرنا الحق حقاً ، والباطل باطلاً .

في الكون آلاف مؤلفة ، وملايين مملينة ترى الحق باطلاً ، وترى الباطل حقاً ، فإذا جاءت رؤيتك مطابقة لمنهج الله ، إن رأيت الحق حقاً إن رأيت الباطل باطلاً ، هذه نعمة دونها الكثير من النّعم .

من عادتي أنني إذا رأيت شاباً مؤمناً مستقيماً ، أن أقول له دائماً أعظم نعمة أنت فيها هي نعمة الهدى ، نعمة أن رؤيتك صحيحة نعمة أن في قلبك نوراً يريك الحق حقاً والباطل باطلاً ، الإنسان إذا اتصل بالله ولاذ بالله ، وانطلق لتنفيذ أمر الله ، الله يلقي في قلبه النور .

ففي اللغة إذاً ؛ البصر هو العين ، والبصر حاسة الرؤية ، والبصر نور يقذفه الله في القلب ، والبصر هو النور الذي يتوسط بيننا وبين المبصَرات ، والبصر قوة القلب في كشف الحقيقة ، والبصير والمبصر هو العالم الحاذق ، والتبصر هو التأمل والتعرف والثبات على الدين ، هذا ما جاء في معاجم اللغة حول كلمة البصير .

أما البصير بمعنى المبصر فهو فعيل بمعنى مفعول ، كأن تقول جريح بمعنى مجروح ، وقتيل بمعنى مقتول ، البصير ؛ بمعنى المبصر ، في اللغة يأتي هذا المعنى .

ومن بعد فاسم البصير من أسماء الله الحُسنى ، وهو المبصر لجميع المبصَرات وكل ما في الكون فالله سبحانه وتعالى يبصره ، كل المبصَرات ربنا عز وجل بصير بها .

البصير ؛ هو الذي يشاهد الأشياء كلها ، ظاهرها وخفيها من دون جارحة ، في البحث السابق تحدثت عن السميع ، وبيّنت أن الله عز وجل يسمع دون أداة ودون جارحة تغير في ذاته ، نحن إذا استمعنا إلى شيء لابد من أن يهتز غشاء الطبل لدينا حتى نسمع ، لكنّ الله

تعالى يسمعُ دون آلة دون جارحة دون تغير في ذات الله عز وجل ، والبصر في حق الله تعالى عبارة عن الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت المبصَرات ؛ الشيء إذا انكشف لك انكشافاً تاماً فقد أبصرته ، قد ينكشف لك ظاهره ، إذا انكشف لك ظاهره فأنت لم تدرك كمال صفته .

قد تأتي أنت بقطعة ماس ثمنها نصف مليون ليرة تضعها في الوحل ثم تضعها في الشمس تبدو لك كَدَرة ، فإذا رأيت ظاهرها ظننتها كدرة ، لذلك كمال الإبصار أن ترى حقيقة الشيء .

لذلك قالوا الإبصار هو الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت الأشياء ، هذه الماسة التي يزيد ثمنها على نصف مليون ليرة ، إذا غمستها في وحل ثمَّ جففتها تبدو لهذه العين كدَرَة ، ما معنى اسم البصير ؟ معنى اسم البصير هو الذي تنكشف له كمال صفات الأشياء ؛ يعني أنت كإنسان بهذه العين تراها كدرة ، لكن كمال اسم البصير يراها ماسة ، فرق كبير .

وهذا يعني أنّ الله عز وجل يعرف كل شيء ، لا يخفى عليه شيء ، أما نحن فنرى ظاهر الأشياء ، لكن باطنها ، وحقيقتها محجوبة عنا ، وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يحكم بالظاهر والله متولي السرائر .

الفكرة دقيقة ، يعني اسم البصير ؛ هي الصفة التي ينكشف بها كمال صفة المبصرات ، لو افترضنا أنّ إنساناً قصير القامة أسمر اللون أحنف الرجل ناتىء الوجنتين غائر العينين مائل الذقن ، وقد يكون أعلم علماء الأرض في علم من العلوم ، فأنت إذا نظرت إلى شكله

رأيته إنساناً قميئاً ، لكن لو علمت ما ينطوي عليه من علم لأكبرْته أعظم إكبار ، فإذا نظرت بعينك إليه فأنت لم تكشف كمال صفات هذا الإنسان ، أما إذا أدركت علمه وأخلاقه ، أكبرته وأعظمته ، طبعاً هذا ورد في التاريخ عن أحد التابعين وهو الأحنف بن قيس وصفه من وصفه فقال : كان قصير القامة أسمر اللون مائل الذقن أحنف الرجل ، غائر العينين ، ناتىء الوجنتين ، ليس شيء من قبح المنظر إلا آخذ منه بنصيب ، وكان مع ذلك سيد قومه ، إذا غضب غضب لغضبته مئة ألف سيف لا يسألونه فيمَ غضب ؟

لو أن واحداً من الناس نظر إلى الأحنف بن قيس ، فرأى فيه هذه الصفات التي لا تُرضي ، فظن أنه شخص عادي ، فهل أدرك بعينه هذه كمال صفات هذا التابعي الجليل ؟ لا .

معنى اسم البصير ؛ صفة لله عز وجل تنكشف بها كمالات نعوت الأشياء ، بصير يعلم كل شيء ، يبصر كل شيء ، ظاهر الشيء وباطنه وخلفيته ، وما ينطوي عليه ، أحياناً إنسان يضرب يتيماً ، والله عز وجل قال :

﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ [الضحى : ٩] .

والنبي ﷺ يقول : « **أدن اليتيم منك وألطفه وامسح برأسه ، وأطعمه من طعامك ، فإن ذلك يلين قلبك ويدرك حاجتك** » .

ولكن قد يضربه ، هذا حينما يضرب اليتيم كأنه ارتكب معصيةً ، كأنه سقط من عين الناس ، لكن إذا ارتكب هذا اليتيم عملاً قبيحاً يقتضي الحال أن يضربه ليؤدبه ، وقد سئل النبي عليه الصلاة والسلام : عن ضرب اليتيم . فقال : تضربه مما تضرب به ولدك .

إنسان راقٍ جداً وعنده يتيم اقترف معصية كبيرة ، فأراد أن يؤدبه فضربه ، لو أن إنساناً نظر إليه وهو يضربه لاحتقره.. هذا يتيم كيف تضربه ؟ لكن الله نظر إلى نيته العالية ، فالمعنى أن الله مبصر . الله بصير ، بمعنى أن الله تنكشف له بهذه الصفة كمال صفات هذا الضارب ، هو يضربه لله ، يضربه ليؤدبه ، يضربه ليحمله على الاستقامة ، الفكرة دقيقة ، ينكشف بهذه الصفة كمال صفات الأشياء .

البصير إذاً هو المبصر لجميع المبصرات ، والبصير هو الذي يشاهد الأشياء كلها ظاهرها وخفيها دون جارحة ولا أداة ولا تغير في ذات الله ، والبصر في حقه تعالى عبارة عن الصفة التي تنكشف فيها كمالات نعوت الأشياء .

وقيل البصير هو المبصر ، المتصف بالبصر لجميع الموجودات دون حاسة ودون آلة ، فيعلم تعالى جميع المبصرات تمام العلم ، وتنكشف له تمام الانكشاف .

ما علاقتنا بهذا التفسير ، نحن نسعد كثيراً حينما نعلم أن الله يعلم النيات ، يعلم سلامة صدرك ، يعلم حبك للخير ، يعلم أن هذا الخطأ لا تقصده ، يعلم أن هذا الوضع الحرج الذي وقعت فيه لا تريده ، يعلم أن هذه الكلمة التي قلتها لم تكن تريد أن تقولها ، أنت حينما تعلم أن الله يعلم حقيقة كل شيء ، هذا مما يسعدك ، لأن الله قال :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

يجب أن تعلم أن الله يعلم ، وحينما تعلم أن الله يعلم ترتاح نفسك .

مثلاً إنّ الموظف يجلس وراء الطاولة سبع ساعات ثمّ يخرج ليقف على شرفة دقيقة واحدة ، يراه المدير العام يقف خلف النافذة ، فيغضب ويثور . حالة غريبة ، سبع ساعات وراء الطاولة يعمل ، فلما وقف دقيقة واحدة خلف النافذة دخل المدير العام فرآه يتنزه فعنّفه ، لأنه لا يعلم حالهُ طوال سبع ساعات بل رآه واقفاً خلف النافذة فلامهُ .

فالإنسان علمه ناقص ، لكنك مع الله مطمئنّ مرتاح لأنه يعلم سلامة صدرك ، يعلم أنك ما أردت هذا الذي حصل ، يعلم أنك تُكِنُّ للناس كل خير ، يعلم أنك بريء من هذه التهمة .

لذلك قال أحدهم كلمة رائعة ، قال لي مرةً الحمد لله على وجود الله ، والحمد لله على علم الله ، وهو موجود ويعلم ، الله عز وجل لا يحتاج إلى إيصال يثبت حقًّا ، ولا إلى شهادة ، ولا إلى حلف يمين ، ولا إلى بينة ، هو يعلم .

الله عز وجل بصره كامل ، ينكشف باسم البصير كمال صفة المبصر ، وهذا مما يسعد الإنسان أي سعادة .

كم من إنسان مظلوم متهم تهمة هو بريء منها ، على نطاق الأسرة أحياناً يقول كلمة هو لا يقصدها تفسّر تفسيرات أخرى ، يفعل فعلاً لا يريده ، مصادفةً يفسَّر تفسيرات أخرى ، لكن الضمانة العظيمة هي أن الله يعلم .

وبالمناسبة ، رحم الله عبداً جب المغيبة عن نفسه ، نحن مضطرون إلى أن نخرج قليلاً ولنضْرب أمثلةً فالنبي عليه الصلاة والسلام جاءته السيدة صفية إلى معتكَفه ، أراد أن يوصلها إلى البيت مر رجلان من

الأنصار قال النبي الكريم : « **على رِسْلِكما** » ، وقفا ، قال : « **إنها صفية بنت حيي** » ، قالا : سبحان الله! يا رسول الله! ، قال : « **إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم فخشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً** » [سنن ابي داود] عن صفية .

صحيح أنّ الله يعلم لكنك مكلف أن تبين ، أن توضح ، الله جل جلاله يعلم ، لكن لا يكفي أن تقول الله يعلم ثمّ تضع نفسك موضع التهمة ، لا يكفي أن تقول الله ناظر إلي وأنت في وضع متهم فيه ، لا هذا ليس من السنة ، يجب أن تعلم أن الله يعلم ، ويجب أن تدفع عن نفسك كل الشبهات .

يعني لو دخل رجل إلى بيت فيه امرأة لا تحل له ، ليست من محارمه ، وهو أنقى من ماء الثلج ، وهو في طهر الملائكة ، وجودك في بيت مع امرأة موقف متَّهم فيه ، لا تفعل هذا ، الخلوة محرمة في الإسلام ، لذلك سد الذرائع باب عظيم . هناك مواقف لا شك أنك طاهر ومستقيم ومتملك لزمام نفسك ، لكن أي موقف يضعك موضع التهمة الشرع يأمرك أن تبتعد عنه ، أحياناً تدخل إلى محل تجاري لا يوجد فيه أحد ، يجب عليك أن تخرج فوراً ، . . أنا أنتظر صاحبه . . أُخرج ، أنت الآن في موضع متهم فيه ، لا يوجد أحد ، وأنت لست صاحب المحل ما الذي يبقيك في هذا المحل ؟!

لذلك أروع شيء أن تطيع الله في خلوتك ، لأن طاعة الله في خلوتك علامة إخلاصك وصدقك ، وقد ورد في الأثر « **من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله** » .

العبرة أن تطيعه في خلوتك كما تطيعه في جلوتك ، أن تطيعه سراً

كما تطيعه علانيةً ، يشاهد ويرى ولا يغيب عنه ما في السموات العُلا ولا ما في الأرض وما بينهما ولا ما تحت الثرى ، وهو الحاضر الذي لا يغيب .

إنسان يغادر مركز عمله ، إذا كان مديراً لمعمل أو إذا كان مدير مستشفى أو مدير ثانوية ، يعني أكثر الناس ينصرفون قبل الدوام ، فالمدير عليه أن يكون في مكان عمله ، الإنسان إذا كان موجوداً يرى ، أما إذا غاب فلا يرى . لكن الله سبحانه وتعالى حاضر لا يغيب .

البصير : ورد في كتاب الله في أربعين موضعاً . ففي البقرة :

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة : ١١٠] .

وبعد وفي ضوء فهمنا الدقيق في الصفحات السابقة لمعنى البصير ، يعني هذا العمل له ظاهر له خلفية له باطن له نية ، له ملابسَات سبحانه وتعالى بصير بما تعمل ، يعني يُبصر حجم عملك ، مقدار تضحيتك مقدار الصراع النفسي الذي سببه هذا العمل ، إن الله بصير به ، بصير بكل أبعاده ، بكل منحنياته ، بصير بخلفياته ، بصير بملابساته ، بصير بأهدافه ، بصير ببواعثه ، هذا معنى بصير .

أما أنت فتبصر عملاً أمامك ، كأن ترى إنساناً يضرب ابنه ، أما النيات والبواعث والأهداف والمقاصد والخلفيات والصراعات والتضحيات ، هذا العمل لا يعلم حجمه إلا الله ، ولا يعلم مقدار التضحية التي كانت من أجله إلا الله ، ولا يعلم المتاعب التي تحملها صاحبه إلا الله ، فربنا حين يقول :

﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] .

يعني بصير بحجم أعمالكم ، ونياتكم وبواعثكم ومقاصدكم وأهدافكم وتضحياتكم ، والصراعات التي في أنفسكم .

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠] .

بصير ؛ هناك إنسان يكذب وإنسان لا يكذب ، إنسان مغلوب على أمره ، إنسان متأثر ، والله بصير بالعباد جميعهم .

قد يُلقي إنسان كلمة على جمع غفير فإن صدى هذه الكلمة في علم الله ، هذا صدَّق ، وهذا استهزأ ، وهذا لم يبال ، وهذا ارتعدت فرائصه ، وهذا خاف .

﴿ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٧١] .

وفي الإسراء : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ١٧] .

مرة وقفت في سفح جبل ؛ قاسيون ، ونظرت إلى مدينة دمشق ممتدةً يمنةً ويسرةً شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً ، فهذه البيوت بطوابقها بأقبيتها ماذا فيها من طاعات أو معاص ؟ من يعلم ؟ الله وحده .

منظر هذه المدينة من سفح الجبل مدينة هادئة وادعة أبنية مضاءة متلألئة . لكن داخل البيوت يا ترى أهُنَاك صلوات أم موبقات ؟ هل هناك نكاح أم سفاح ؟ من يعلم ؟ . . . الله الذي يعلم .

يعني أنت لا تعلم ، وقد يسكن إنسان في مدينة وهو لا يعلم ما فيها هو مؤمن يرتاد بيوت الله عز وجل ، له إخوة كرام ، يحسن الظن في جميع الناس ، لكن حجم المعاصي في أي بلدة ، حجم الموبقات ، الذين يشربون الخمر ، الذين يقترفون جريمة الزنى ، من يعلم ذلك ؟ لا أحد إلا الله .

وما كنت أصدق في حياتي أن امرأة في مكان رفيع كأنها ملكة تعقد مؤتمراً صحفياً يُبَث في جميع أنحاء العالم تقول لقد زنيت مع فلان ، فنحن في أي عصر نعيش ؟! قال تعالى :

﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النحل : ٢١] .

يعني امرأة مرشحة لتكون ملكة في بلاد الغرب ، تعقد مؤتمراً صحفياً وعلى كل أجهزة الإعلام وقد بُث في محطات الفضاء لتقول للناس : إنني خنت زوجي وزنيت مع فلان.. سبحان الله كم بيننا وبين أهل الفسق والفجور من مسافات شاسعة ، البيت المسلم بيت شريف ، بيت طاهر ، بيت نقي ، فالإنسان لو زلت قدمه يجب أن يستر نفسه .

﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر : ٢٠] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر : ٥٦] .

وفي سورة الملك : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ ﴾ [الملك : ١٩] .

إن هذا الاسم هو أقرب الأسماء إلينا ، ما اسم الغفور مثلاً ؟ واسم رب العالمين ،وغيرهما من أسماء الله الحسنى ، هذه أقرب الأسماء إلينا ، وكذلك اسم البصير لأن النبي عليه الصلاة والسلام يروى عنه : « **أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت** » ، وأرقى حالات المؤمن أن يشعر أنه تحت مراقبة الله عز وجل .

أفضل حالات المؤمن أن يعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه يعني أن تشعر أن الله يراك ، هذه درجة في الإيمان عالية جداً أن تشعر دائماً أن الله معك ، أن الله معك في خلوتك وفي جلوتك وفي مجلسك ، وعند ذكرك ونطقك ، وفي سفرك وفي حضرك ، هذا الشعور المستمر من نِعَم الله العظمى وهو درجة من درجات الإيمان العالية .

أحد العلماء يرى : أن البصير هو الذي يشاهد ويرى حتى لا يعزُب عنه ما تحت الثرى .

إبصاره منزّه عن أن يكون بحدقة أو أجفان ، مقدّس عن أن يرجع إلى انطباع الصور والألوان كما ينطبع في حدقة الإنسان ؛ فإن ذلك من التأثر والتغيير المقتضي للحادث المنزه عنه القديم .

كما ذكرت في بحث اسم السميع ؛ إنه لا يُعقل ولا يليق بالله عز وجل أن يبصر بحاسة ولا بأداة ولا بتغير ، يعني الشبكية إذا سقط عليها ضوء تحدث الرؤية ، وتعريف الصورة ؛ هي مجموعة نقاط متفاوتة في الإضاءة ، لو أتيت بصورة وكبرتها ، ترجع إلى نقاط ، وكلما كثرت هذه النقاط كانت الصورة دقيقة أكثر ، لكنها في الحقيقة نقاط متفاوتة في الإضاءة ، فهذه الصورة إما منبع ضوئي أو منعكس

ضوئي إذا وقع على حدقة العين وانكسر إلى الشبكية ، فانطبعت عليها ، الشبكية فيها مادة كيمائية ، تتأثر بالضوء وتأثرها بالضوء يشكل تياراً كهربائياً ، هذا ينتقل عبر العصب البصري إلى الدماغ ، وفي الدماغ تكشف حقيقة الصورة .

بشكل مختصر ، يعني في العين مئة وثلاثين مليون عصية ومخروط ، هذه العصيات والمخاريط فيها مواد كيماوية ، تتأثر بالضوء ، فإن تأثرت تشكل تيار كهربائي هذا التيار ينتقل عبر العصب البصري إلى الدماغ . الصورة تنطبع على شبكية العين إحساساً وتنتقل إلى الدماغ فتفسر هناك إدراكاً بحسب المفهومات السابقة ، فالإنسان متى يرى ، يرى الصورة التي هي مجموعة نقاط مضيئة أو متفاوتة في الإضاءة هذه تؤثر في تركيب العصيات والمخاريط ، من هذا التأثر والتأثير يتشكل تيار كهربائي ، هذا التيار يسري عبر العصب البصري إلى الدماغ ، في الدماغ تُفسر هذه الصورة في ضوء المفهومات السابقة ، والمعنى أنّه لو لم يحدث تغيير في شبكية العين والعصيات والمخاريط ، ولو لم يحدث تأثر هذه المواد الكيماوية بالضوء لما انتقلت الصورة .

الله جل جلاله منزَّه عن أن يبصر بحاسة أو أداة أو تغيير في ذاته ، وإذا نُزه الله جل جلاله عن ذلك كان البصر في حقه عبارة عن الصفة التي تنكشف بها كمالات المبصرات ، صفة في ذات الله زائدة على علمه ، تُكشف بها حقيقة كمالات صفات الأشياء .

وبعد كلّ هذا الإيضاح فما الأدب الذي ينبغي أن نتأدب به حيال هذا الاسم العظيم ؟ الله عز وجل بصير ، ولأنك إنسان مكرّم ، مخلوق مكرّم ، قال تعالى :

﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا﴾ [الإسراء : ٧٠] .

لأنك مخلوق مكرّم ، والله بصير ومن فضله وتكريمه لك مَنَحك حاسة البصر ، لماذا أودع الله فيك هاتين العينين ؟ .

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ [البلد : ٨] .

العين السليمة لو درَّجنا لوناً أخضر أو أحمر أو أي لون آخر ثمانمئة ألف درجة ، العين السليمة تدرك الفرق بين كل درجتين .

والعين السليمة تبصر مباشرة من دون معالجة للأفلام ، الفلم يحتاج إلى تحميض ، العين تبصر مباشرة ، وتدرك الشيء بحجمه الحقيقي ، أُنظر إلى الجبل تراه بحجمه الحقيقي ، كذلك إذا نظرت إلى صورة الجبل مصوَّراً فإنّك تراه بحجم أربع سنتمرات . أما العين فهي تدرك الشيء بحجمه الحقيقي .

هذه العين فيها مطابقة والمطابقة شيء لا يصدق ، ففي علوم الفيزياء هناك العدسة البلّورية : لو وضعنا أمامها شمعة وخلف هذه العدسة في محرقها لوحة ، لا ينطبع خيال الشمعة على اللوحة إلا في مكان واحد فقط ، فلو أزحناها قليلاً أصبح الظل أو المرتسم على هذه اللوحة غير واضح ، إذا غيرنا مكان الشمعة نحتاج إلى تعديل مكان اللوحة لأنه تغيَّر المحرق لكن العدسة التي أودعها الله في الإنسان عدسة مرِنة ، فإذا رأيت الشيء يتحرك فبدلاً من أن تحرك الشبكية ، فإن العدسة يزداد احديدابها أو يقل هناك عضلات اسمها عضلات هدبية ، تضغط على هذا الجسم البلوري فتزيد احديدابه أو تقلله ، هذه العضلات تزيد الاحديداب أو تقلله بالمكرونات .

وبعد هذا الشرح يطالعنا سؤال كبير ، كيف ضُغط هذا الجسم حتى جاء الخيال على الشبكية ؟ من حسب المسافة بينك وبينه ؟. . هل رأيته أولاً ثمّ حسبت المسافة ؟ لا ، إن رأيته فقد رأيته ، وإن لم تره كيف حسبت المسافة ؟ عملية المطابقة في العين من أعظم الأدلة الدالة على وجود الله وعلى عظمته ، يعني يعجز عن فهمها العلماء ، المطابقة ، ضمن ستة أمتار ، لذلك الإنسان إذا سكن في مدينة مكتظة يضعف بصره ، يحتاج إلى نظارات ، أما أهل البادية فالعين عندهم مستريحة دائماً لأنها تنظر إلى مسافات بعيدة فلا تحدّها أو تقف دونها حواجز تضعفها .

هذه العين سُميت كريمة الإنسان لأن الله كرَّمه بها ، لماذا خلقها الله له ؟ ليرى بها العورات ؟! ليرى بها الموبقات ؟! ليرى بها المحرمات ؟! ليرى بها النساء الكاسيات العاريات ؟! أم ليرى بها آيات الله الدالة على عظمته ، فالعين التي تغض عن محارم الله ، والعين التي تحرس في سبيل الله ، والعين التي ينهمر منها دموع من خشية الله هذه عين شريفة طاهرة مقدسة ، الله سبحانه وتعالى في الأعم الأغلب لا يُفجعك بها « **ومتعنا اللهم بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا** » .

يعني أي عين تغض عن محارم الله وتبصر آيات الله ، وتسبح الله وتكبّره وتحمده ، هذه العين المرجو من الله أن يحفظها لك إلى نهاية الحياة .

إذاً من أدبنا مع اسم البصير الذي منحنا نعمة البصر أن نستخدم العين في أن نبصر بها آيات الله الدالة على عظمته .

قيل : من كان نظره عبرة ، ويقظته فكرة ، وكلامه ذكراً فهو مؤمن ، لذلك روي عن النبي الكريم ﷺ : « أمرني ربي بتسع (من هذه التسع) أن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبرةً » [رواه رزين] .

هذا أول شيء ، يجب أن تستخدم العين في رؤية آيات الله الدالة على عظمته ، الشيء الثاني : يجب أن تعلم أن الله يبصرك ، الذي خلق نعمة البصر ألا يبصر ؟ . . قال تعالى :

﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ [البلد : ٦ـ١١] .

الآية دقيقة المعنى جداً ، أيحسب أن لم يره أحد وهو يرى ، فالذي خلق لك البصر ألا يراك ؟ أيحسب أن لم يره أحد ؟ ألم نجعل له عينين يبصر بهما ؟ فالذي خلق لك العينين يراك حين تقوم ، قال تعالى :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء : ٢١٧ـ٢٢٠] .

وهنا أيضاً نقطة أخرى دقيقة جداً ، المؤمن الكامل لا يستهين بنظر الله إليه واطّلاعه عليه ، قال بعضهم : لا تجعل الله أهون الناظرين إليك ، فالإنسان يكون أحياناً أمام شخص فيحسّن نفسه ، يرجّل شعره ، يتعطر ، وإذا دخل إلى بيته يرتّبه ، لأنه يستحي منه ، فلماذا يقارف الإنسان معصية وهو يعلم أن الله يراه ، فكأنه جعل الله أهون الناظرين إليه .

قال : من أخفى عن غير الله ما لا يخفيه عن الله فقد استهان

بنظر الله إليه ، إحدى ثمرات الإيمان أن تشعر أن الله معك وهو ناظر إليك .

قال أبو الجلد أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء قل لقومك ما بالكم تسترون الذنوب من خلقي وتظهرونها لي إن كنتم ترون أني لا أراكم فأنتم مشركون بي وإن كنتم ترون أني أراكم فلم تجعلوني أهون الناظرين إليكم .

وكان وهب بن الورد يقول خف الله على قدر قدرته عليك واستحي منه على قدر قربه منك ، وقال له رجل : عظني! فقال له : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك .

وكان بعض السلف يقول أتراك ترحم من لم يقر عينيه بمعصيتك حتى علم أن لا عين تراه غيرك ، وقال بعضهم : ابن آدم! إن كنت حيث ركبت المعصية لم تصف لك من عيني ناظرة إليك فلما خلوت بالله وحده صفت لك معصية ولم تستحي منه حياءك من بعض خلقه ، ما أنت إلا أحد رجلين إن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرت ، وإن كنت علمت أنه يراك فلم يمنعك منه ما منعك من أضعف خلقه لقد اجترأت .

دخل بعضهم غيضةَ ذات شجر فقال : لو خلوت ههنا بمعصية من كان يراني ؟ فسمع هاتفاً بصوت ملأ الغيضة : ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

راود بعضهم أعرابية وقال لها : ما يرانا إلا الكواكب! قالت : أين مكوكبها ؟

رأى محمد بن المنكدر رجلاً واقفاً مع امرأة يكلمها فقال إن الله

يراكما سترنا الله وإياكما وقال الحارث المحاسبي : المراقبة علم القلب بقرب الرب .

وسئل الجنيد بم يستعان على غض البصر ؟ قال : بعلمك أن نظر الله إليك أسبق إلى ما تنظره وكان الإمام أحمد ينشد .

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل   خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة   ولا أن ما يخفى عليه يغيب

وكان ابن السماك ينشد :

يا مدمن الذنب أما تستحي   والله في الخلوة ثانيكا
غرك من ربك إمهاله   وستره طول مساويكا

مقترف معصية إن علم أن الله يعلم فهو مجترىء وخاسر ، وإن علم أن الله لا يعلم فهو جاهل وكافر ، لأن الله يعلم .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزاً يَوْماً لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ : مَا الإِيمَانُ ؟ قَالَ : « **الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ** » قَالَ : مَا الإِسْلامُ ؟ قَالَ : « **الإِسْلامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَلا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَتُقِيمَ الصَّلاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ** » ، قَالَ : مَا الإِحْسَانُ ؟ قَالَ : « **أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ** . . . » . [صحيح البخاري] .

وإذا عرف الإنسان أن الله تعالى هو البصير وكان الإنسان عاقلاً زيّن باطنه بالمراقبة ، وزين ظاهره بالمحاسبة .

وكان بعض السلف يقولون : إذا عصيت مولاك فاعصه في موضع لا يراك فيه .

دعا بعضهم فقال : « إلهي أنت البصير بعيوبي الخبير بذنوبي المطلع على سري ، بيدك زمام أمري ، أسألك أن تجعل في قلبي نوراً ، وفي بصري نوراً لأشاهد حقائق الأشياء ، وأتأدب معك بالظاهر والخفاء . إلهي اجعلني لك من المشاهدين ، وفي حماك من القائمين ، إنك على كل شيء قدير » .

وهناك أدعية كثيرة تتعلق باسم البصير ، والآية الكريمة :

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

[الأنعام : ١٠٣]

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يجعل من هذه الموضوعات في أسماء الله الحُسنى قفزة نوعية في معرفة الله ، والحقيقة أنّك إن آمنت أن الله خالق السموات والأرض دون أن تتعرف إلى أسمائه الحُسنى وصفاته الفُضلى ، هذا الإيمان لا يرقى بك إلى النجاة ولا إلى السعادة ، ومن أجلّ معطيات العلم أن تتعلم أسماء الله الحُسنى وصفاته الفُضلى ، وتتعرّف إليها ، وتهتدي بها .

* * *



من أسماء الله الحُسنى الرؤوف ، فالرؤوف اسم ورد في حديث رسول الله ﷺ المتعلق بأسماء الله الحُسنى ، فهو اسم من أسماء الله الحُسنى .

الرؤوف في اللغة شديد الرحمة ، والرأفة أبعد وأبلغ من الرحمة ، أو شدة الرحمة ، ورأف به أي أشفق عليه من مكروه يحل به ، والرأفة في اللغة نهاية الرحمة ، والرأفة من الله : دفع السوء .

وقد يسأل سائل فيقول : من أسماء الله الحُسنى الرحيم ، ومن أسماء الله الحُسنى الرؤوف فما الفرق بينهما ؟ .

إن حلّت المصيبة فإن الله سبحانه وتعالى رحيم بهذا الإنسان ، أما رأفته فتقتضي أن يبعد عنه كل سوء قبل أن تحل به المصيبة ، واسم الرؤوف متعلق أحياناً بالوقاية ، واسم الرحيم متعلق بالعلاج ، والله سبحانه وتعالى لشدة رحمته رؤوف ، ومن لوازم رأفته أنه يحمل العبد على التوبة قبل أن يقع في المعصية ، وحينما يقع في المعصية يستوجب العقاب ، والآن تقتضي رحمته أن يرفع عنه العقاب .

الرأفة شدة الرحمة ، وهي أبلغ من الرحمة ، ورأف به أشفق عليه من مكروه يحل به ، والرأفة نهاية الرحمة ، والرأفة من الله دفع

السوء ، لذلك قيل : إن الرؤوف من أسماء الله هو المتعطف على المذنبين بالتوبة .

ولأضرب مثلاً يقرب هذين المعنيين : الأب حريص على أولاده ولاسيما في أيام الشتاء من أن يصيبهم البرد ، وألا يخرجوا من بارد إلى حار ، أو من حار إلى بارد ، لئلا يصابوا بأمراض الشتاء ، فالحرص البالغ من الأب على ألا يصاب ابنه بمرض هذا من الرأفة ، أما حينما يصاب الابن بمرض ويتفطر قلب الأب له رحمة فهذا من باب الرحمة ، فالرحمة تخفيف الألم عن مصاب واقع ، لكن الرأفة هي الحيلولة بين المتعطف عليه والوقوع في الشدة ، فالرأفة متعلقة بالوقاية ، في حين أن الرحمة متعلقة بالعلاج .

وعلى كل فهذا التفريق هو تفريق لتقريب المعنيين ، لكن أسماء الله تعالى كما قال الله عز وجل عن ذاته : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ .

وتقريب آخر ؛ فالله عز وجل يحذر ويبين وينبه ويرسل المواعظ ، ويُسَخِّر الدعاة ، ويظهر لك الآيات لئلا تعصيه ، فإن عصيته فلا بد من عقاب رادع والعقاب الرادع هو الرحمة ، لأنه هو الذي يحملك على التوبة ، لكن الله حريص على ألا تقع في المعصية وبالتالي ألا تستوجب هذه العقوبة ، ومن ثمّ فلعلي وضحت هذا المعنى الدقيق ، الرأفة قبل أن يقع المصاب ، والرحمة بعد أن يقع المصاب ، والله عز وجل أعطى الإنسان حرية الاختيار ، فلو أن عبداً مؤمناً اختار عملاً سيئاً فالله جل جلاله يرسل له من يحذره ومن يبين له ، ويقيم العقبات أمام عمله السوء ، فإذا أصر الإنسان على عمله وتعلّقت نفسه به عندئذ

يطلقه الله عز وجل ، ويؤدبه ، وبتأديبه يرحمه ، فالرأفة فيها معنى الوقاية ، والرحمة فيها معنى العلاج ، والوقاية رأفة والعلاج رحمة ، والله سبحانه وتعالى رؤوف رحيم .

ولكن كل أب مثلاً يتمنى ألا يقع ابنه في مخالفة تقتضي التأديب ، فإذا وقع في هذه المخالفة وأصر عليها فلابد من التأديب ، والأب الطبيب يتمنى ألا يحتاج ابنه إلى عملية جراحية ، أما إذا تفاقم مرضه إلى درجة يحتاج إليها فلا بد منها .

فأن تأخذ الاحتياطات رأفة ، وأن تخفف المصاب رحمة ، لذلك قيل إن الرؤوف من أسماء الله تعالى ، وهو المتعطف على المذنبين بالتوبة وعلى أوليائه العصمة ، وكنت أتمنى الا ينسب إلى أوليائه بالعصمة لأن العصمة لرسول الله ﷺ ، فالعصمة للأنبياء والمرسلين ، والحفظ للأولياء والمؤمنين ، وفرق كبير بين العصمة والحفظ ، فالأنبياء جميعاً معصومون عن أن يخطئوا بأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، لكن الأولياء غير معصومين ، لكنهم محفوظون ، ومعنى أنهم محفوظون أي أنهم إذا أخطؤوا فسريعاً ما يتوبون ، ويستغفرون ، ويعودون ، ويتراجعون ، فمن اعتقد العصمة لغير رسول الله ﷺ وأنبيائه ورسله الكرام فقد زاغت عقيدته كذلك ، ومن لم يعتقد العصمة للنبي عليه الصلاة والسلام فقد زاغت عقيدته ، وعقيدة أهل السنة والجماعة أن النبي عليه الصلاة والسلام معصوم بمفرده ، وأن أمته معصومة بمجموعها ، وأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول : « **لا تجتمع أمتي على ضلالة** » ، ولذلك فالأمة معصومة بمجموعها ، والنبي ﷺ معصوم بمفرده .

ويرى بعض العلماء أن الرؤوف بمعنى الرحمة مع المبالغة ، أي شدة الرحمة ، والمبالغة بالرحمة هي الرأفة ، وما زلنا في ضرب الأمثال ؛ فالأمهات جميعهن يعطفن على أولادهن ، إلا أن هناك بعض النساء عندهن فرط رحمة بأولادهن ، أي مبالغة ، فبعض الأئمة يرون أن الرأفة شدة الرحمة ، أي هي رحمة في أعلى مستوى .

قال العلماء : **« من رحمة الله بعباده أن يصونهم عن موجبات عقوبته »** ، لذلك فالله عز وجل يحذّر وينذر .

وهناك نقطة دقيقة ، فالله عز وجل أعطانا عقلاً ، وأقام فينا فطرة ، وسخر لنا هذا الكون بسمواته وأرضه ، وأعطانا حرية الاختيار ، وأودع فينا الشهوات وأنزل على رسله البينات ، والله عز وجل أعطىٰ كل شيء ، فالكون مسخر تسخير تعريف وتكريم ،والعقل متطابق في مبادئه مع الكون ، فطرة سليمة تكشف لك الخطأ ، وحرية اختيار تثمن لك العمل ، وشهوة تدفعك إلى الله صابراً أو شاكراً ، وقوة فيما يبدو تعينك على تحقيق اختيارك ،و شرع يعد ميزاناً على ميزاني العقل والفطرة ، وانتهى الأمر ، لكن الله فوق كل ذلك ، فوق الكون الدال على وجوده وكماله ووحدانيته ، وفوق العقل الذي هو أداة معرفة الله ، وفوق الفطرة التي هي أداة كشف الخطأ ، وفوق الاختيار الذي يثمن العمل ، وفوق الشهوة التي تدفع إلى الله عز وجل ، وفوق القوة التي تحقق بها الرغبات ، وفوق الشرع الذي يُعد ميزاناً دقيقاً . فالله جل جلاله برأفته بعباده يتابعهم ويبين لهم ، ويحذرهم ، وينذرهم ، ويجعل أفعاله مبينةً لشرعه ، يعالجهم نفسياً ، واجتماعياً ، وجسدياً ، وأحياناً يسوق لهم المصائب ، فيُلقي في قلوبهم الخوف

والطمأنينة إنه شديد المحال ، وهذه كلها ليصون العبد عن أن يقع في الخطأ .

والإنسان الواعي العاقل الموفق لا يقع في الخطأ ولا يحتاج بعدها إلى معالجة هذا الخطأ ، وقد سأل معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين أحد دهاة العرب عمرو بن العاص من صحابة رسول الله ﷺ ؛ قال : يا عمرو ما بلغ من دهائك ؟ قال : والله ما دخلت مدخلاً إلا أحسنت الخروج منه ، فقال معاوية : لست بداهية ، أما أنا فوالله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه .

الرأفة تعني ألا تقع في الخطأ ، والرحمة تعني إن وقعت في الخطأ فلا بد من معالجته ، فمعالجة الخطأ رحمة ، والحيلولة دون الوقوع فيه رأفة ، فالله سبحانه وتعالى رؤوف رحيم .

وأنت مُخير فإذا اخترت السوء حال بينك وبينه ، ونبهك ، وأنذرك وحذرك وخوفك ، أو أرسل إليك من يدلك على الصواب ، أو أراك في المنام شيئاً مخيفاً ، أما إذا أصررت على الخطأ فعندئذ يطلقك إليه ثم تأتي رحمته ، ورحمته كمبضع الجراح ، ورأفته كالمعالجة الفيزيائية ، والحمية والرياضة ، وهذه تحول بينك وبين المرض لكن رحمته تشفيك منه وقد تكون قاسية ، فاسمها رحمة لكنها علاج ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان : ٢٠] .

والنعم الظاهرة لا اختلاف فيها ، لكن النعم الباطنة هي الشدائد التي يسوقها الله عز وجل للإنسان ليحمله على التوبة ، وكم من إنسان

اصطلح مع الله عز وجل إثر شدة باطنة ، وخوف شديد ، ومرض كبير ، وضائقة مالية خانقة ، وعلى إثر هذه الشدائد تُحل العقد ، ويصطلح الإنسان مع الله ، فالحيلولة بين الإنسان وأن ينحرف رأفة ، أما إذا أصر على الانحراف فمعالجته وهو منحرف رحمة ، والله سبحانه وتعالى رؤوف رحيم .

هناك طبيب ينصحك ، ويبين لك مضار التدخين ، ويعطيك الأدلة ، ويطلعك على أحدث الأبحاث ، ويبين لك آلية ضرر التدخين مثلاً ، فإذا أصر المريض على متابعة هذه العادة السيئة وأصيب بمرض عضال فالطبيب نفسه جراح ، يجري عملية جراحية ، فإذا سمعت نصيحته فقد اتبعت اسم الرؤوف ، وإن لم تستجب إلى نصيحته فأنت أمام اسم الرحيم ، لذلك في الأثر :

« إني والإنس والجن في نبأ عظيم ؛ أخلق ويعبد غيري ، وأرزق ويُشكر سواي ، خيري إلى العباد نازل ، وشرهم إلي صاعد ، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي ، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد ، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب ، أهل ذكري أهل مودتي ، أهل شكري أهل زيادتي ، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

إن تابوا فأنا رؤوف بهم ، وإن لم يتوبوا فأنا رحيم بهم ، الرأفة أن يحول بينك وبين الوقوع ، لكن الرحمة أن يعالجك عند الوقوع ، إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب ، الحسنة عندي بعشر أمثالها وأزيد ،

والسيئة بمثلها وأعفو ، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها . . ذلك الله رب العالمين ، حبيب وطبيب ، حبيب إن اتبعنا منهجه ، وطبيب إن حدنا عن منهجه .

قال العلماء : « **ومن رحمته بعباده أن يصونهم عن موجبات عقوبته ، وأن يعصمهم عن الزلة** » ، وهذا أبلغ في باب الرحمن من غفران المعصية ، فأن يحول بينك وبين المعصية أبلغ من أن يغفرها لك .

وربما رحم عبداً بما يكون في الظاهر مشقة وشدة ، ولكنه في الباطن نعمة ورحمة ، ولذلك قال صاحب الحكم العطائية : « **ربما أعطاك فمنعك ، وربما منعك فأعطاك** » .

حقيقة أضعها بين أيديكم فلقد قال العلماء : « **الحزن يصنع المعجزات ، أما اليسر والغنى والشبع والترف فهذه غالباً لا تصنع شيئاً** » ، العبقريات تأتي من الفقراء غالباً ، والأزمات أحياناً تولِّد تفوقاً ، وتألقاً ، وإبداعاً ، وابتكاراً ، أما الرخاء والبحبوحة والطعام والشراب والأمن ، فلا تولد شيئاً ، وأحياناً يدفعك الخوف إلى باب الله . . وأحياناً تسوق الشدائد الناس إلى باب الله عز وجل ، وتسمو وترقى بهم .

ولذلك فالمجتمعات التي تنعم بالرخاء الكبير ، تجد حجاباً بينها وبين الله ، والمجتمعات التي تعاني ما تعاني ، فهذه المعاناة لعلها سَوق لها من الله عز وجل الرؤوف إلى بابه ، لا تقل أنا أعاني من مشكلات ، والله الذي لا إله إلا هو ، وأنا أقسم بهذا ، لو أن الإنسان كشف الله له يوم القيامة عن حكمة المصائب التي ساقها إليه ، فلابد

من أن يذوب حباً لله عز وجل ، فأفعال الله مدهشة .

أخ كريم آخر حدثني عن ماضيه كقصة ورجاني أن أرويها في أحد دروس المسجد ، درس في فرنسا ، وعاش مجتمع التفلت ، فلما قدم إلى بلده ، قال : جعلت من بيتي ملهى ، كل الموبقات في البيت ، وأنا أعتقد أن الحياة هكذا .

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾

[القيامة : ٣٦-٤٠]

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٥] .

ثمّ قال : فجأةً أصبت بمرض عضال ، كل شيء أمامي يهتز وفقدت التوازن والتوافق الحركي ، عشرون محاولة كي أمسك بكأس وعشرون محاولة كي أمسك الملعقة ، إنه عدم التوافق الحركي ، وعدم التوازن والأشياء كلها تتحرك وترتجف ، وقال لي : لقد التقيت بسبعة وثلاثين طبيباً في دمشق ، وكلهم عجز عن معرفة هذا المرض ، ثم ذهبت إلى بلد غربي ، فقال لي الأطباء : إن هذا المرض يصيب الناس بنسبة واحد على ثلاثة عشر مليوناً ، وجاؤوا بطبيب يُعد الأول في العالم في هذا المرض فبقي يعالجني ستة أشهر ، ثم قال لي : أنا أعلم الأطباء بهذا المرض ، وليس لك علاج إطلاقاً ، فعد إلى بلدك أو اذهب إلى الهند فالتق ببعض البوذيين لعلك تألف هذا المرض ، وانتهى الأمر . . عاد إلى الشام ، وله قريب اصطحبه إلى بعض دروس المسجد ، وبينما هو في حلقة الدرس قال : يا رب إن شفيتني لأصلينَّ ، وفي الدرس الثاني قلت في سياق الحديث : إن الله

لا يُجرِّب ولا يشارط ، فقال من توه : والله يا رب لأصلين ، وأول مرة يصلي في حياته في الدرس الثاني ، أما حالته المرضية فلا تُطاق ، وكل شيء أمامه يتحرك اضطراباً في الصورة ، وعدم توافق حركي ، ويقسم بالله العظيم أنه عاد إلى البيت ، وفجأةً ثبتت الصورة أمامه ، ومن شدة فرحه اختل توازنه وصاح ، ثم قام ليقف فوقع ، فأمسك الكأس فوقع ، أما الصورة فقد ثبتت ، وبعد حين عاد له التوافق الحركي ، والتوازن ، وهذا الإنسان هو الآن من طلاب العلم ، ومن رواد المساجد ! لقد اصطلح مع الله ، وتاب توبةً نصوحاً . . ويقول لولا هذا المرض لجعلت بيتي باراً ، وجعلته كالنادي الليلي ، وكل المعاصي كنت أقترفها ولكنتُ واصلْت رحلة الضلال إلى نهايتها .

فربنا عز وجل عندما يصر الإنسان على المعصية رحيم ، لكن الله حريص علينا ألا نقع ، وحرصه على ألا نقع رأفة منه ، ومعالجتنا بدواء مر بعد أن نقع رحمة بنا ، فهو رؤوف ورحيم .

وفي أكثر من أربعين آية :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

كأن يقول : عبدي كما تريد . . إن تابوا فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم . . لكن هنيئاً لمن استجاب لرأفته ونال عطاءه قبل أن تدركه المصيبة .

وقد سألني أحدهم مازحاً : ما فحوى الدروس التي تُلقيها منذ ثلاثين عاماً في المساجد ؟ فأردت أن أداعبه ، فقلت له باللغة الدارجة : « إما أن تأتيه ركضاً وإما أن يجلبك ركضاً ، فاختر واحدة من الاثنتين » .

وأنا والله أرى من الشرف للإنسان ومن الذكاء والتوفيق أن يأتيه طوعاً ، وهو صحيح ومعافى ، وسليم ، وآمن ، وغني ، وشاب ، لا أن يأتيه قهراً وقسراً على أثر مصيبة طاحنة ، والله عز وجل علاجه مرٌّ :

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : ١٢] .

وأحياناً يحمّل الإنسان ما لا طاقة له به ، فقد ذكر لي رجل : أنه أصيب بمرضين ، مرض عضال في الجهاز الهضمي ، ومثله في القلب ، والشيء الذي لا يُحتمل أن أدوية القلب تؤذي جهاز الهضم وأن أدوية جهاز الهضم تؤذي القلب ، ولذلك اجتمع الأطباء وقالوا : توقف عن أي دواء :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وأحياناً فقر وقهر ومرض وجوع معاً ، فكلما كان الانحراف أشد كان العلاج أكثر مرارة ، والمؤمن يفهم على الله بالإشارة .

ورجل أساء إساءة ، كان يتوقع من الله العقاب فانتظر أياماً ما حدث شيء ، فصحته وبيته وأولاده ، كلها على ما يرام ، ففي الصلاة ناجى ربه ، وقال : يا رب قد عصيتك فلم تعاقبني ، ووقع في قلبه ؛ أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدر ، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟

هذه الصلة هي روحه ، يحرص عليها حرصه على روحه ، فإذا

انقطعت يُعد هذا أكبر عقاب له ، الإنسان المستقيم المصطلح مع الله التائب إليه له منه مدد ، وله سكينة ، وله ونور يقذفه في قلبه ، وطمأنينة ، إنه متوازن ، في ظل الله ورحمته ، وحفظه ، وتوفيقه ، وتأييده ، ودعمه في الدفاع عنه ، فإذا خرق الاستقامة خرج من فيء مظلة الله ، وحفظه فيُعامل كما يُعامل عامة الناس ، أما وأنت مستقيم فلك معاملة خاصة ، قال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ١٤١] .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾

[الحج : ٣٨]

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] .

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

ومن رحمته بك أن يصونك عن ملاحظة الأغيار ، فلا ترفع حوائجك إلا إليه ، والله عز وجل إن رأى عبداً تعلق بعبد مثله ، فمن رحمته بهذا العبد أن يصونه عن الشرك ، ولذلك فالذي تعلقت به يخيب ظنك دائماً والله يغار عليك أن تتجه إلى غيره وهو فقير ، وإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، و الله وحده هو الذي يملك ؛ فلذلك من رحمته أن يصونك عن ملاحظة الأغيار ، فلا ترفع حوائجك إلا إلى الواحد القهار .

قيل لبعضهم : سل حاجتك ، فقال : من وضع قدمه على بساط المعرفة لا يحسن به أن يكون لغير الله عليه منة .

هشام بن عبد الملك كان في الحرم المكي يطوف فالتقى بسالم بن عبد الله وأراد هذا الخليفة أن يتقرب من هذا العالم ، فقال : سلني حاجتك ، قال : والله إني أستحي من الله أن أسأل في بيته غيره ، فلما خرج التقى به خارج الحرم ، فقال : سلني حاجتك ، قال : والله ما سألتها من يملكها أفأسألها من لا يملكها .

وقيل لبعض الصالحين : ألك حاجة ؟ فقال : لا حاجة بي إلى من لا يعلم حاجتي لأن الذي يعلم حاجتي هو الله ، يعلمها دون أن أسأله .

فالرؤوف : هو الذي جاد بلطفه ، ومنَّ بتعطفه ، والرؤوف هو المتعطف على المذنبين بالتوبة وعلى الأولياء بالحفظ ، وهو الذي صان أولياءه عن ملاحظة الأشكال وكفاهم بفضله مؤونة الأشغال ، وقيل : هو الذي ستر ما رأى من العيوب ثم عفا عما ستر من الذنوب .

وأحد العلماء يفرق بين اسم الرؤوف واسم الرحيم ، فيقول : واعلم أنه تعالى قدم الرؤوف على الرحيم والرأفة على الرحمة في الآيات التي تلوناها ، وهذا يقتضي وقوع الفرق بينهما ، وأيضاً أينما ذكر الله تعالى هذين الوصفين قدم الرأفة على الرحمة ، فلابد من بيان الفرق بين الوصفين ، والفرق هو أن الرحيم في الشاهد إنما يحصل لمعنى في المرحوم من فاقة وضعف وحاجة ، والرأفة تطلق عندما تحصل الرحمة في الفاعل من شفقة على المرحوم .

والمعنى دقيق سأشرحه بعون الله ؛ فالباعث على الرحمة هو المرحوم ، وأما الباعث على الرأفة فهو الراحم ، والمرحوم هو الإنسان إذا وقع في مصاب شديد يقتضي أن يحتاج المصاب إلى الرحمة ، فالله رحيم ، أما هذا المخلوق قبل أن يُصاب فمن كمال الله عز وجل ، حرصه على سلامته ، وهذا الحرص يقتضي الرأفة ، فالانطلاق في الرأفة من الله ، وفي الرحمة من العبد ، وهذا هو الفرق .

فمنشأ الرأفة كمال حال الفاعل في إيصال الإحسان ، ومنشأ الرحمة كمال حال المرحوم في الاحتياج إلى الإحسان ، فالإنسان إذا احتاج إلى الرحمة فالله رحيم ، وأما ربنا عز وجل فلأنه منزه ولأنه كامل يحول بين عبده وبين أن يقع في السوء ، فالرأفة من الله والرحمة بسبب مصيبة ألمت بالعبد .

والرأفة والرحمة وردت في كتاب الله في أربعين موضعاً نكتفي بذكر بعضها :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة : ٢٠٧] .

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

[آل عمران : ٣٠]

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة : ١١٧] .

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل : ٤٧] .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج : ٦٥] .

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور : ٢٠] .

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد : ٩] .

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

[الحشر : ١٠]

والملاحظ أن هذين الاسمين وردا معاً لأنهما من طبيعة واحدة ، فواحد وقائي وواحد علاجي ، والأول أشد والثاني أقل .

وبعد هذا البيان والشرح فما الأدب الذي ينبغي أن نتأدب به مع اسم الرؤوف ؟

أولاً : يجب أن نكثر من ذكر هذا الاسم كي نحب الله عز وجل لأن الله أسماؤه حُسنى ، وصفاته فُضلى ، وكلما ذكرنا أسماءه الحُسنى مال القلب إليه واشتاق العبد إلى لقياه ، فمن الأدب أن نكثر من ذكر هذا الاسم .

والشيء الثاني : أن نتخلّق بكمالات الله فنحول بين الناس ومعصية

ربهم ، ونستخدم الأسلوب الوقائي لا العلاجي ، وأقرب شيء الأولاد ، فقبل أن يقع الابن في مشكلة ويمد الأب يده لينقذه ، هناك شيء أهم من ذلك ، أن تحول بينه وبين أن يقع في هذه المشكلة ، فالتربية الوقائية هي التخلق بكمال الله عز وجل ، ففرق كبير بين أن تربي ابنك تربية علاجية وأن تربيه تربية وقائية ، هناك فرق بين الرأفة والرحمة ، لذلك تخلّق بكمالات الرؤوف وحل بين الناس وبين أن يقعوا في مشكلة .

وافترض أنك صاحب محل وعندك موظف ، وأمورك مسيبة فالدرج ليس له قفل ، وأنت لا تدقق ، وعندما لاحظ الموظف أنه لا يوجد تدقيق وهناك تسيب ، سولت له نفسه أن يسرق فلما سرق وتابع في السرقة كشفت السرقة ، وأردت أن تنكل به عندئذ ، تريد أن تذيقه الأمرين ، وأن تفضحه ، وأن تشتكي عليه للقضاء ، وأنت الذي ورطته ، فالآن تريد أن تعالجه ، وكان الأولى بك أن تحول بينه وبين هذه المعصية ، وأن يشعر أن الأمور عندك مضبوطة ، حسابات دقيقة ، وصندوق يومي ، ومبيعات مسجلة ، وحينما تضبط الأمور تحول بين الناس وبين أن يأكلوا مالاً حراماً فأنت بهذا رؤوف ، أما عندما ورطته وفضحته فقد حطمته وانتهى الأمر إلى وبال .

هناك إنسان يهمل زوجته ولا يقوم بواجبه تجاهها ، إذ يغيب عن البيت عشرين ساعة ، ثم يكتشف أنها خانته ، وأنها منحرفة الأخلاق ، وعندئذ يريد أن يفعل بها الأفاعيل ، لا . . أنت لم تكن رؤوفاً بها ، بل سيبت الأمور وأهملت تربيتها حتى وقعت فيما وقعت به ، فحطمتها ، والتطبيق العملي أن تتخلق بكمالات الله ، حُلْ بين الناس وبين أن يقعوا في المعصية ، وأن يفسدوا ، وهذا من أدب

الإنسان مع اسم الرؤوف ، والله عز وجل جعلك خليفته في الأرض ، لتتخلق بكمالاته .

والقاعدة أن الإنسان إذا سرق.. فالسرقة جريمة ومما روي أن « من اشترى سرقة وهو يعلم أنها سرقة فقد اشترك في عارها وإثمها » .

هذا الذي يعين الناس على أن يسرقوا لغفلته وعدم انضباطه ليس أقل إثماً منهم ، إثمه كإثمهم ، لأن أموره غير مضبوطة .

فإذا اتفقت مع شريك بلا عقد ولا تسجيل للشراكة لدى المراجع الرسميّة ، ولا توثيق ، فهذا الشريك سولت له نفسه أن يجعلك خارج المحل ، فسجل المحل باسمه ، وارتكب جريمة الغدر ، التي كنت أنت السبب فيها ، فلو قيدته بعقد أصولي ، موثق في الجهات الرسمية ، لما سولت له نفسه أن يغدر بك ، فأنت حينما تحول بين الناس وبين أن يقعوا في المعاصي تكون قد تخلّقت باسم الرؤوف . « **فتخلقوا بكمالات الله** » .

فأنت مع أولادك ، وطلابك ، أو مع صانع في المحل تزيل الحدود بينك وبينه فيتطاول عليك ، فتطرده ، فلولا أنك رفعت الحجاب وجرأته عليك ، لما اجترأ ، ولو أبقيته في مكانه وأبقيت نفسك في مكانك لما احتجت أن تطرده وتوقع به الضرر .

فالذي يحول بين الناس وأن يسقطوا ، وأن يتخلقوا بكمالات الله ، إذاً حُل بين الناس وبين أن يسقطوا ، واضبط الأمور ، ودقق .

وكذلك قد تشتري من بائع ، وفي آخر الشهر ، تسأله : كم الحساب ؟ فيقول : ثلاثة آلاف ، فتدفعها دون أن تدقق ، وفي الشهر

الثاني لا تدقق ولا تقول : أرني الحساب ، فسولت له نفسه بعد ذلك فضاعف المبالغ ، فمن الذي حمله على السرقة ؟ أنت ! فلو أردت أن تحول بين الناس وبين أن يقعوا في المعاصي فعليك أن تتخلق بأخلاق الرؤوف .

وقد ورد في بعض الأدعية ؛ اللهم أنت الرؤوف وقد انجذبت إليك القلوب بحسن العواطف وأنت الرحيم أحاطت رحمتك بالطائع والمخالف أشرق على قلبي بنور الرؤوف الحنان واجعلني أعطف على جميع بني الإنسان ، فأستغفر للمذنبين ، وأحب الهدى للكافرين ، وأتمنى التوبة للعاصين ، وأطلب الوسعة للمحتاجين ، فأنال قسطاً وافراً من ميراث سيد المرسلين عليه أتم الصلاة والتسليم إنك على كل شيء قدير .

هذه الأبحاث في أسماء الله الحُسنى لها هدفان كبيران ، الأول أن تعرف الله ، والثاني أن تتخلق بكمالاته ، الأول أن تعظمه ، والثاني أن تسمو إليه ، الأول أن تعرفه والثاني أن تكون كاملاً ، متخلقاً بهذه الأسماء حتى تستحق جنة الله عز وجل .

* * *

الغَفُور

من أسماء الله الحُسنى الغفور ، الغفور كما ورد في الحديث من أسماء الله الحُسنى ، والغفور أصله في اللغة من مادة غَفَرَ ، وغفر بمعنى ستر ، والغَفْرُ هو الستر .

أما معنى اسم الغفور فهو كثير المغفرة للذنوب ، من مادة غَفَرَ ، واسم الفاعل غافر ، أما غفور فصيغة مبالغة لاسم الفاعل ، يعني كثير المغفرة .

غفر فلان شيئاً أي ستره ، والمغفرة : التغطية على الذنوب والعفو عنها ، وقد قال بعض العرب : أسألك الغفيرة والناقة الغزيرة ، وعزة في العشيرة ، فإنها عليك يسيرة. . والغفيرة هي الستر .

والغفران من الله أن يصون العبد من أن يمسه العذاب ، ومغفرة الله ستر بينك وبين العذاب ، وقد يُقال : غفر له إذا تجاوز عنه في الظاهر ، ولم يتجاوز عنه في الباطن ، فالسيئة مسجلة ولكن لم يعاقب عليها .

والغفور والغفار والغافر ؛ من أسماء الله الحُسنى .

﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر : ٣] .

فغافر من أسماء الله الحُسنى ، وكذلك الغفار والغفور .

إن هذا الاسم من أقرب أسماء الله الحُسنى إلى المؤمن . . لأن العبد من شأنه أن يذنب ، و الله من شأنه أن يغفر ، وما أمرك أن تستغفره إلا ليغفر لك ، وما أمرك أن تستغفره إلا لأنه يعلم ضعفك ، وغفلاتك كثيرة ، فالمغفرة علاج الضعف البشري أحياناً ، أو الغفلة ، ولولا أن الله تعالى غفور فما ندري ما يحل بنا ؟ وما تجرّه علينا ذنوبنا ، وكيف نواجه ربنا ، لكن الله سبحانه وتعالى غفور أي يستر ذنبك عن الخلق ، ويعفو عنك ، ويحول بينك وبين العقاب .

وبعد فهناك معان جديدة في الغفور . . فأنت لضعفك أحياناً تغفر إذ لا تستطيع أن تنال من فلان ، فتسامحه ، لكن شأن الله جل جلاله غير هذا الشأن ، الغفور هو التام القدرة ، يعني الله جل جلاله قدير فالخلق كلهم جميعاً في قبضته كن فيكون ، زل فيزول . . ومع تمام قدرته هو غفور .

وبالمناسبة ، فهناك فضائل خلقية لا قيمة لها إلا إذا رافقتها القوة ، فالعفو مثلاً ، دون مقدرة لا قيمة له ، لكن أن تملك عدوك ويصبح في قبضتك ويرى نفسه صغيراً ، أو كأنه لا وجود له ، وثمّ تعفو عنه فتلك المغفرة .

والنبي عليه الصلاة والسلام حينما دخل مكة فاتحاً ، وأهلها هم الذين أخرجوه ، ونكّلوا بأصحابه ، وناصبوه العداء عشرين عاماً ، وعذبوه مرات عديدة ، ولم يدعوا أسلوباً ينال من رسول الله وأصحابه إلا سلكوه ، وقريش الآن كلها في قبضته . . عشرة آلاف سيف متوهج ينتظرون حركة من شفتيه ، حياتهم رهن إشارته ، فقال لأهلها : « ما

تظنون أني فاعل بكم » قالوا : أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : **« اذهبوا فأنتم الطلقاء »** .

والعفو دون قدرة لا قيمة له ، والحلم يحتاج إلى قدرة ، والأمانة لا قيمة لها إلا إذا لم تكن مداناً في الأرض ، فإن كان معك مال لإنسان مات فجأة ، ولم يعلم أحدٌ بهذا المال ، فلست مداناً أمام الناس إطلاقاً ، وليس في الأرض كلها جهة تحاسبك عليه ، لكنك أتيت الورثة ونقدتهم المبلغ ، فهذه هي الأمانة ، إنها خُلق ومن لوازمها أن لا تكون مداناً في الأرض ، والعفو خلق من خصائصه أن تكون تام القدرة ، والمغفرة كذلك ، فالعفو والمغفرة والحلم من خصائص الأنبياء ، فينبغي لك أن تكون قوياً حتى تكون لهذه الخصائص الخلقية قيمة في الميزان الأخلاقي .

الغفور كما قال العلماء هو السيد التام القدرة ، وقد يغفر فضلاً وإحساناً منه ، قال تعالى :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] .

وسياق الآيات السابقة أن تتذيّل . . فإنك أنت الغفور الرحيم ، بل جاءت الآيات ﴿ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .

وإذا غفرت لهؤلاء فليس في الكون كله من يسأل الله لماذا غفرت لهم ، وأنت أحياناً تلتمس العذر من إنسان قوي ، فيقول لك أنا بإمكاني أن أعفو عنك ولكن أحاسب إن عفوت عنك ، لكن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يغفر لعبد ذنباً فمن يحاسبه ؟ ومن يسأله ؟ ليس من شأن الإله أن يُسأل عما يفعل ، قال تعالى :

﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] .

فلذلك الغفور هو السيد التام القدرة ، وقد يغفر فضلاً وإحساناً منه دون قيد أو شرط .

وأرجو أن أوضح هذه الحقيقة فهي دقيقة دقيقة في علم التوحيد.. فالله سبحانه وتعالى طليق الإرادة لا يقيد إرادته شيء ، والإنسان مهما علا في الأرض فهناك قواعد تقيد سلوكه ، وشأن الإله أنه لا يُسأل عما يفعل ، إذا عفا وإذا غفر وإذا أعطى وإذا منع ، لكنه طمأننا ، وقال سبحانه :

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود : ٥٦] .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ فيما يروي عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب واحد منكم ما نقص من ملكي شيئاً ، يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص

المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » . [رواه مسلم] .

فالله عز وجل ، لا يقيد إرادته شيء ، ولذلك يعفو من دون قيد أو شرط ، ويعطي ويمنع ، ولكن الله سبحانه وتعالى ، ألزم نفسه إلزاماً ذاتياً بالاستقامة ، وقال : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

حرم على نفسه الظلم :

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

[فصلت : ٤٦]

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧١] .

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٤] .

فالله عز وجل إذا ألزم ذاته العلية بالعدل فالإلزام ذاتي ، وإذا ألزمها بالعفو فالعفو ذاتي ، أما أن يكون هناك قاعدة تقيد إرادة الله عز وجل.. فهو وحده الذي لا تُقيد إرادته قاعدة .

وقيل : إن الغفار هو الذي إن تكررت منك الإساءة وأقبلت عليه فهو غفار لك ، وستار لك ، والإنسان أحياناً يغلط ، فإذا بلغ هذا الغلط إنساناً آخر فضحه بين الناس ، لكن الله عز وجل غفور ، ويظهر للناس أحسن ما عندك ويخفي عنهم القبيح ، وهذا من كمال الله عز وجل فقد جمَّل الإنسان بهذا الجلد ، فلو نظرت إلى جسم الإنسان لو أنه كان عضلات فقط ، فشيء مخيف ، ففي وجهه مئة عضلة ، وقد

جمَّله بهذا الجلد ، وبهذه الثياب ، وبستر العيوب ، والإنسان كما أشرت من قبل قد يخطىء ، وينحرف ، ويزل ، لكن ربنا عز وجل يغفر ويستر ويبدي للناس أحسن ما عندك .

وقد ورد اسم الغفور في القرآن الكريم في أماكن كثيرة ، زادت على تسعين آية تقريباً ، قال تعالى :

﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٢٥] .

ومعنى غفور كثير المغفرة ، إذ يقع الإنسان بذنب فيغفر له ، ومرة ثانية وثالثة ، وقد يقتضي العدل أن يفضحه ، أو أن يعاقبه ، لكن الغفور كثير المغفرة .

عن عائشة قالت كان رجل أسود يأتي أبا بكر فيدنيه ويقرئه القرآن حتى بعث ساعياً فقال : أرسلني معه فأرسله معه واستوصى به خيراً فلم يعبر منه إلا قليلاً حتى جاء قد قطعت يده فلما رآه أبو بكر فاضت عيناه قال ما شأنك ؟ قال ما زدت على أنه كان يوليني شيئاً من عمله فخنته فريضة واحدة فقطع يدي ، فقال أبو بكر تجدون الذي قطع هذا يخون عشرين فريضة ؟! إن كنت صادقا لافتدينك منه ثم أدناه فكان الرجل يقوم الليل فيقرأ فإذا سمع أبو بكر صوته قال تالله لرجلٌ قطع هذا لقد اجترأ على الله! فلم يعبر إلا قليلاً حتى فقد آل أبي بكر حلياً لهم ومتاعاً فقام الأقطع فاستقبل القبلة ورفع يده الصحيحة والأخرى التي قطعت فقال : اللهم! أظهر على من سرقهم فما انتصف النهار حتى عثروا على المتاع عنده ، فقال أبو بكر : ويلك! إنك لقليل العلم بالله .

ومن رحمة الله عز وجل أنه حليم ، فالإنسان إذا غلط ، فحينما يألف الغلط ، وينقلب إلى قاعدة في سلوكه ، ويستشري لديه ، فعندئذ يؤدبه ، أو يفضحه .

قرأت أن باخرة إفرنسية رست في ميناء إفريقي فتسلل إليها تسعة زنوج من البلدة التي رست فيها خفية ، واختبؤوا بين الآلات ، والباخرة في عرض البحر ، فكشف ربان الباخرة ، أن فيها تسعة رجال من هذه البلدة التي كان راسياً في مينائها ، فانظروا إلى قسوة الإنسان ، فربان الباخرة أصدر أمراً بقتلهم ، فاستدرج واحد تلو الآخر وأُطلق عليه النار وتولى بحاران إلقاءهم في البحر ، فهذه الجريمة إذا وقعت على تسعة أشخاص وتم إعدامهم وإلقاؤهم في البحر فقد تطوى في مطاوي النسيان ، ولكن التاسع استطاع أن يختبىء في مكان لم يعثروا عليه وبعد أن رست في ميناء آخر ، استطاع أن يهرب إلى ذلك البلد واتصل بالشرطة وأخبرهم بالأمر ، فجرت محاكمة في فرنسا وحكموا على الربان بالسجن المؤبد وعلى البحارة بعشرين سنة ، لكن هذا الذي نجا أنجاه الله عز وجل ليكشف الأمر ويعاقب هؤلاء المجرمين .

فالله عز وجل حينما يفضح أحداً يكون لديه إصرار على الذنب وعلاقة هذه القصة بهذا البحث ، أن الله عز وجل لا يفضح من أول مرة ، فالإنسان عندما يألف الذنب ويثبت عليه ، ويصر ويجعله سلوكاً ثابتاً ، فعندئذ يفضحه ، ويؤدبه ويعاقبه ، وكمال ربنا عز وجل إذا غلط إنسان ولجأ إليه مستغفراً ، فالله عز وجل يغفر ذنبه ، وقد قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يغفر ثم يغفر ثم يغفر ، أما إذا كان هناك إصرار ، واستمرار على المعصية ، وعدم مبالاة ، فالله يفضحه لا محالة .

وفي آل عمران :

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

هناك غفور حليم ، وهنا غفور رحيم ، أي رحمته بكم دعته إلى مغفرة ذنوبكم ، فلنلاحظ الأم وابنها ، فمهما أخطأ في حقها فقلبها يتسع لأخطاء الولد كلها .

فالله عز وجل غفور حليم ، حلمه يقتضي أن يغفر لكم المرة تلو المرة ، أما قوله سبحانه غفور رحيم ، فرحمته تقتضي أن يغفر لكم .

وفي سورة المائدة : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٤] .

وهذه الآية إذا قرأها حقوقي فسوف يقشعر جلده ، إذ في كل دساتير العالم مادة هي أن القوانين لا يمكن أن تعمل بمفعول رجعي ؛ فشيء لم يكن محرماً ولم يكن ممنوعاً ، ثم صدر أمر بمنعه ، أيمكن أن نعاقب أناساً مارسوه قبل المنع ، فهذا منتهى الظلم .

فإذا تابوا بعد أن قدرتم عليهم فتوبتهم كاذبة ، لكنهم كانوا أحراراً وتابوا ، ثم وقعوا في قبضتكم فليس لكم عليهم من سلطان . . وهذه الآية هي الوحيدة التي تشير إلى أنه لا يجوز أن تُطبق الأحكام بمفعول رجعي ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وفي المائدة أيضاً :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا

حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة : ١٠١] .

هل لاحظتم الأسماء ، فاسم الغفور يتناوب بين اسم الرحيم واسم الحليم ، فربنا سبحانه وتعالى حلمه يستدعي أن يغفر لكم المرة تلو المرة ، ورحمته تقتضي أن يغفر لكم .

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام : ٥٤] .

وهناك موضوع أرجو الله سبحانه وتعالى أن يمكنني من توضيحه في معالجة هذا البحث بالذات ، فالذي يجذب النظر قوله تعالى :

﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾[الحجر : ٤٩ـ٥٠] .

﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ﴾ [الزمر : ٥٣ـ٥٦] .

فما الحكمة ؟! إذ كلما ذكر الله أنه عظيم في رحمته ، ومغفرته وحلمه ذكر أنه شديد عقابه ، فماذا يعني ؟ يعني ذلك أن الله غفور إذا عدت إليه ، وغفور إذا استغفرته ، وغفور إذا تبت من ذنبك ، وأصلحت وأخلصت ، فهذه الأسماء الحُسنى ، والصفات الفضلى في الله عز وجل لا يمكن أن تكون مبتذلة ، وهذه الصفات غفور إذا أقبلت عليه وتبت ورجعت إليه ، وأقلعت عن الذنب وندمت فهو

غفور وإلا فالله سبحانه وتعالى شديد العقاب ، وعذابه أليم .

لذلك وردتْ آيات فيها معنى أن ربك للذين تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات إن ربك من بعدها لغفور رحيم ، إذاً من السذاجة وضيق الأفق والجهل أن تُعلق آمالاً على مغفرة الله وأنت مقيم على معصية ، فمن الغباء والحمق والجهل أن تقول الله غفور رحيم وأنت لا تفكر في التوبة وإن لم تفكر بها فاقرأ تتمة الآية :

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٥٣] .

وفي الأنفال :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧٠] .

وأريد أن أقف قليلاً عند هذا المعنى ، فكل إنسان إذا علم الله منه الندم والألم على ما ارتكب ، فالله عز وجل غفور رحيم ، ولتعلم أنّ الاستغفار من أسباب سعة الرزق :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح : ١٠ـ ١٢] .

فالاستغفار من أسباب سعة الرزق ، وكذلك إنجاب الأولاد ، ونزول الأمطار ، يعني أنّ عطاءات الدنيا تنهال تترى بالاستغفار .

روي عن الربيع بن صبيح أن رجلاً أتى الحسن وشكا إليه الجدب فقال له : استغفر الله تعالى ، وأتاه آخر فشكا إليه الفقر فقال له : استغفر الله تعالى ، وأتاه آخر فقال : ادع الله سبحانه أن يرزقني ابناً

فقال له : استغفر الله تعالى ، وأتاه آخر فشكا إليه جفاف بساتينه ، فقال له : استغفر الله تعالى ، فقلنا أتاك رجال يشكون ألوانا ويسألون أنواعا فأمرتهم كلهم بالاستغفار فقال ما قلت من نفسي شيئاً إنما اعتبرت قول الله عز وجل حكاية عن نبيه نوح عليه الصلاة والسلام أنه قال لقومه .

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾ .

أي إن عظمتم ربكم أيها الناس حق التعظيم وحملكم هذا التعظيم على طاعته لأمدكم برزق وخير .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٦] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾

[الحج : ٣٨]

﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ١٤١] .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [النور : ٥٥] .

وما الذي يمنع إذا قرأنا القرآن أن نستنبط آيات الوعد الإلهي للمؤمنين هل يُعقل ألا يفي الله عز وجل بوعده ؟ وإذا وعد الله المؤمن بالحياة الطيبة ، فهل يُعقل أن تكون حياة المؤمن غير طيبة ؟ وإذا وعد

الكافر بالمعيشة الضنك فهل يُعقل أن يسعد الكافر بحياته ؟! والآية تقول : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٤] .

مستحيل.. ولذلك لما أوحى ربنا عز وجل إلى أم موسى ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ، أمرها بأمرين ونهاها عن شيئين وبشرها ببشارتين ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ .

دققوا النظر أيها القراء الكرام في الآية :

﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : ١٣] .

﴿ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ فالله ماذا وعدنا ؟! ، هذا موضوع لطيف جداً ، ابحث في كتاب الله عن وعوده ، ضعها في قائمة ، ثم ابحث عن موجبات هذه الوعود ، فالنبي ﷺ قال : يا شداد بن أوس! إذا رأيت الناس قد اكتنزوا الذهب والفضة فاكنز هؤلاء الكلمات : اللهم! إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد وأسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك ، وأسألك قلباً سليماً ولساناً صادقاً ، وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب .

ابحث عن موجبات رحمة الله ، إنه الله خالق الكون ، فلن يخلف الله الميعاد .

وإذا قرأ الإنسان القرآن الكريم واستنبط آيات الوعد الإلهي ، التي وعدنا من خلالها بالنصر ، وبالحفظ ، وبالتأييد ، وبالتوفيق ، وألا يجعل لكافر علينا سلطاناً وقد وعدنا بالاستخلاف والتمكين ، والطمأنينة ، فلسوف يسأل أين مصداقية هذه الوعود ؟ إنها لحق كلها ، فالله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد ، ولكن علينا بطاعة الله تعالى حقًّا لينجز وعده .

وأخشى ما أخشاه أن تنطبق علينا الآية الكريمة :

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾

[مريم : ٥٩]

وقد لقينا ذلك الغي ، هان أمر الله عليهم فهانوا على الله ، أما أن الله غفور رحيم فهو بشرط أن تعود إليه ، وأن تتوب إليه ، وأن تؤوب ، وأن تندم على ذنبك ، وأن تقلع عنه ، وهذه الآية لها في نفسي أثر كبير :

﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الأعراف : ١٥٣] .

فهذه كلمة غفور رحيم يفهمها بعض الناس فهم الغافلين ، إذ يقول المنحرف لصِنوه لا تدقق الله غفور رحيم فضع مخالفاتك في رقبتي ، وهذا كلام في غاية الجهل ، فهو غفور رحيم إذا تبت ورجعت إليه ، فالمغفرة والرحمة مقيّدة بقُيود الإنابة .

﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس : ١٠٧] . .

دققوا وتأمّلوا في هذه الآية ، ﴿ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ ﴾ ، المس

مثله ، فأنت أحياناً تريد أن تمتحن حرارة المكواة فماذا تفعل ؟ تضع اللعاب على أصبعك ، وتضع إصبعك بأضيق مساحة وبأقصر زمن ، هذا هو المس ، فالعذاب يمس الإنسان مساً .

قال : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ ، الخير مراد من الله ، أما الضر فغير مراد ، فالضر علاج أما الخير فمراد .

ولذا فقد ذكر ربنا عز وجل اسمه الغفور في كتابه تسعين مرة من أجل أن تطمئن القلوب ، قلوب العصاة ، وتسكن نفوس المجرمين ؛ أي بصراحة مَنْ لنا غير الله عز وجل ؟!. . مهما فعلت من ذنوب فليس لك إلا الله فَعُدْ إليه ، وفي النهاية نحن إليه ، والدعاء الشريف : « أنا بك وإليك » ، أنا قائم بك وإليك آيب وتائب وعائد .

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية : ٢٥-٢٦] .

« عبدي رجعوا وتركوك ، وفي التراب دفنوك ، ولو بقوا معك ما نفعوك ، ولم يبق لك إلا أنا ، وأنا الحي الذي لا يموت » .

أعرف رجلاً من عشرين سنة هو طريح الفراش ، وأقرب الناس إليه يتمنى أن يخفف الله عنه بالموت العاجل ، وأعرف أناساً كثيرين ، لا يشعرون بألم ولا يشكون شيئاً ، وبثانية واحدة كانوا من أهل القبور ، فالمغادرة سريعة ، إنني لا أجد أعقل من إنسان يستعد لهذه الساعة ، بالتوبة النصوح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبطلب العلم وبتعليمه .

« وإن استقبلتني بملء السماء والأرض خطايا وذنوباً استقبلتك من المغفرة وأغفر لك ولا أبالي » [الطبراني] عن أبي الدرداء .

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧] .

والقنوط يعني الكفر ، والله عز وجل فتح باب رحمته لكل مخلوقاته قال :

﴿ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

والآية الآتية لا تنسوها فالشّفاء فيها ، فابتدروا التوبة عاجلاً فهي أرجى آية في كتاب الله : ﴿ ۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

فمهما كثرت الذنوب تعلّق باسم الغفور ، ولا تجعل الذنب حجاباً بينك وبين الله ، ولا تيأس ، لأن اليأس يعني الكفر . والله عز وجل قال : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ . إن لم تتب ، فذو الطول .

الآية الثانية : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ .

ومن ثمَّ لابدّ من إدراك أنّ هناك تفرقة لطيفة لغوية بين اسم الغفور وبين اسم الغفار ، الغفور ينبىء عن نوع مبالغة ناشئة بالإضافة إلى مغفرة متكررة ، فهذا مرتكب ثلاثمئة ذنب فالله غفور ، يغفرها له كلها ، وآخر له ذنب كبير ، فالله عز وجل غفار ، فغفار للنوع وغفور للكم .

يعقوب بن يوسف الكوفي « وكان قد روى الأشعار والأحاديث عن أبيه » قال : حججت ذات سنة فإذا أنا برجل عند البيت وهو يقول : اللهمَّ! اغفر لي وما أراك تفعل . قال فقلت : يا هذا!

ما أعجب يأسك من عفو الله ، قال إن لي ذنباً عظيماً ، قال : فقلت : أخبرني! قال : كنت مع يحيى بن محمد بالموصل فأمرنا يوم جمعةٍ فاعترضنا المسجد ، فنرى أنا قتلنا ثلاثين ألفاً ثم نادى مناديه من علَّقَ سوطه على دارٍ فالدار وما فيها له ، فعلقت سوطي على دار ودخلتها فإذا فيها رجلٌ وامرأةٌ وابنان لهما ، فقدمت الرجل فقتلته ، ثمَّ قلت للمرأة هاتي ما عندك فقالت ما عندي وإلا ألحقت ابنيك به ، فجاءتني بسبعة دنانير ومتيعٍ ، قال فقلت هاتي ما عندك فقالت ما عندي غيرها ، فقدمت أحد ابنيها فقتلته ، ثم قلت : هاتي ما عندك! وإلا ألحقت الآخر به فلما رأت الجدَّ مني قال ارفق فإن عندي شيئاً كان أودعنيه أبوهما ، فجاءتني بدرعٍ مذهبةٍ لم أر مثلها في حسنها فجعلت أقلبها فإذا عليها مكتوب بالذهب :

إذا جــار الأميــر وحــاجبــاه وقاضي الأرض أسرف في القضاء

فــويــل ثــم ويــل ثــم ويــل لقاضي الأرض من قاضي السماء

فسقط السيف من يدي وارتعدت ، وخرجت من وجهي إلى حيث ترى .

الله كبير فلذلك كلمة غفور مهما كثرت الذنوب ، وكلمة غفار مهما عظمت ، فهي صيغة مبالغة ، والمبالغة نوعان : مبالغةَ كم ، ومبالغة نوع .

غافر الذنب ، أي إذا كان عليك ذنب واحد وغفره لك فهو غافر ، وإن كانت ألف ذنب وغفرها لك فهو غفور ، وإن كان ذنباً لا يُحتمل فهو غفار ، هذا الفرق بين غافر وغفور وغفار .

وحظ المتخلّق باسم الغفور أن يداوم الاستغفار ، والورد الثابت

عن النبي ﷺ قال : « **إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة** » ، والأولى للإنسان أن يستغفر صباحاً ومساءً ، صباحاً لما جرى في الليل ، ومساءً لما جرى في النهار ، لكن أخشى أن يفهم بعض المسلمين أن الله غفور رحيم إذاً فالقضية سهلة فليفعل عندئذٍ ما يشاء ، لا . . فهذه مغفرة وقائية ، فاستغفر من أجل ألا تقع في الذنب وليس الأمر افعل ما تشاء واستغفر فهذا غير مقبول أبداً ، والإنسان حينما يفعل معصية ويعلم أنها معصية ينشأ حجاب بينه وبين الله ، فالأمر صعب من بعد أن يوفقه الله ليستغفر ، فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤] .

وانظر إلى الناس في هذا الموضوع فهم يتفاوتون بين مسامح وحاقد ، فهناك شخص حقود وشخص غفور ، فإذا غلط الإنسان مع شخص مسامح غفور يحس أن القضية سهلة ، إذ يقول لك : كأن لم تكن ، أما مع إنسان حقود فيقول لك : أنا قلبي أسود لا أنسى خطيئة . جعلنا الله من الذين إذا أُسيء إليهم غفروا .

ولا أعتقد إنساناً أساء كما أساء مسطح إلى سيدنا الصديق حينما اتهم ابنته السيدة عائشة زوجة رسول الله ﷺ بالزنا ، وكان الصديق يعطيه معونة فقطعها ، فقال تعالى :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٢٢] .

يعني اغفر ليغفر الله لك ، أتعتقد أن هناك إساءة أبلغ من هذه الإساءة ، أن يتحدث عن ابنتك الطاهرة أنها زانية ، ومع ذلك أمره الله

أن يعفو وأن يصفح وأن يعود إلى ما كان عليه من المعونة ، بكى سيدنا الصديق وقال : بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي .

المؤمن المتخلّق بهذا الاسم لا يرى عورة إلا سترها ، ولا زلّة إلا غفرها ، وإن اعتذر إليه أخ قبل منه وعامله بالإحسان ، ويقابل جميع إساءته بالغفران ، لأن صاحب الخلق حينئذ يصير بين الناس كالشجرة الظليلة ، تُرجم بالحجارة وتلقي عليهم الثمار ، وهكذا المؤمن .

عن شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ رَضِي الله عَنْهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ : « **اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إلا أَنْتَ ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا أَنْتَ ، قَالَ : وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِناً بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ** » . [صحيح البخاري] .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **الصَّلاةُ الْمَكْتُوبَةُ إِلَى الصَّلاةِ الَّتِي بَعْدَهَا كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا ، قَالَ : وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَالشَّهْرُ إِلَى الشَّهْرِ ـ يَعْنِي رَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ ـ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا** » .

[مسند الإمام أحمد]

والإنسان يوم الجمعة كأنه فتح مع الله صفحة جديدة بعد الصلاة ، فإذا غلط فكل صلاة تمحو ما قبلها من سيّئات ، ونحن من شأننا أن نستغفر وما لنا غير الاستغفار ، واليأس من رحمة الله كفر ، وكل إنسان يقول ذنبي كبير فهو لا يعرف الله عز وجل ، فعلينا أن نستغفر ، والله ما أمرنا بالاستغفار إلا ليغفر لنا .

قال سيدنا الصديق للنبي ﷺ : علمني دعاء أدعو به في صلاتي ، قال : « **قل : اللهم! إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي من عندك مغفرة ، إنك أنت الغفور الرحيم** »

[متفق عليه]

وقال الأصمعي : وقف أعرابي أمام الروضة الشريفة ، فقال : اللهم هذا حبيبك ، وأنا عبدك ، والشيطان عدوك ، فإن غفرت لي سُر حبيبك وفاز عبدك وغضب عدوك ، وإن لم تغفر لي غضب حبيبك ، ورضي عدوك وهلك عبدك ، وأنت أكرم من أن تغضب حبيبك ، وترضي عدوك ، وتهلك عبدك .

وكان الخواص يبكي ويقول في مناجاته : قد كبرت وضعف جسمي عن خدمتك فأعتقني وكان بعض الأشياخ يقول : يا رب! إن العرب الكرام إذا مات فيهم سيد أعتقوا على قبره ، وقد كبرت فأعتقني .

والله عز وجل إذا غفر يستر ، فمع المغفرة ستر ، ويظهر للناس أجمل ما عندك ويخفي عنهم السيئات ، والماضي لا ينقله الله للآخرين .

وهناك امرأة زنت وأقيم عليها الحد وتابت ، وبعد حين جاءها خاطب ، وأخوها أحب أن يكون ناصحاً ، فاستشار سيدنا عمر ، وقال : إن أختي خطبها فلان أفأذكر له ما كان منها ، قال : أتعمد إلى ما ستر الله فتبديه والله لئن أخبرت بشأنها أحداً لأجعلنك نكالاً لأهل الأمصار أنكحها نكاح العفيفة المسلمة ، أي : أنّ الله سَتَرَ عليها ، ثمّ يأتي أخوها ليفضحها!!

وإذا شيء وقع وانتهى فالسكوت أولى.. فشخص غلط غلطة ، فشاعت عنه ثمّ تمضي السنون إلى عشرين ، وقد صار إنساناً فاضلاً ، وكلما ذُكر ذكروا غلطته ، وهذا لؤم بالإنسان ، اعفُ عن الماضي .

والنبي الكريم ﷺ روي عنه : « **أمرني ربي بتسع : خشية الله في السر والعلانية وكلمة العدل في الغضب والرضى والقصد في الفقر والغنى وأن أصل من قطعني وأعطي من حرمني وأعفو عمن ظلمني وأن يكون صمتي فكراً ، ونطقي ذكراً ونظري عبرةً ، وآمر بالعرف وقيل بالمعروف** » رواه رزين .

* * *

المُنتَقِم

من أسماء الله الحُسنى المنتقم ، وكلمة المنتقم إذا وصف بها إنسان من البشر فالأمر يختلف عما إذا كانت اسماً من أسماء الله ، لأن الله سبحانه وتعالى أسماؤه كلها حُسنى ، والدليل قول الله عز وجل :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

وقد يتصف إنسان بالانتقام فلا نحبه ، لكن الله سبحانه وتعالى حينما يضع للظالم حداً ، فيوقفه عند حده ، ويحجزه عن أن يؤذي الآخرين فهذا المعنى يليق بكماله الله جل جلاله ، وهذا الاسم الجليل مشتق من الانتقام ، والنقمة هي العقوبة ، والله جل جلاله يعاقب ليؤدب ، ويؤدب ليسعد .

وقد ذكرت من قبل أن الشر المطلق لا وجود له في الكون بالنسبة لله سبحانه وتعالى ؛ لأن وجوده يتناقض مع وجود الله ، ولأن الله جل جلاله ذات كاملة ولله الأسماء الحُسنى ، ويمكن أن نصف هذه الذات الكاملة بالوجود والوحدانية والكمال ، فأي اسم اتصف الله به أو سمى نفسه به ، يجب أن نفهمه فهماً يليق بكمال الله .

والمنتقم من الانتقام ، والنقمة هي العقوبة والمنتقم الذي يعاقب من يشاء مهما علا ، أما الإنسان فلا يستطيع أن يعاقب من يشاء إذ لا يعاقب إلا من هو دونه ، ولا يستطيع أن يعاقب نداً أو مساوياً له ، وأما أن يعاقب من هو أعلى منه فهذا مستحيل ، لكن الله سبحانه وتعالى ينتقم ممن يشاء ؛ أي يعاقب من يشاء ، فإذا كنت مع القوي فأنت قوي ، مهما يكن عدوك كبيراً ، أو قوياً أو جباراً ، أو طاغياً ، أو متطاولاً ، فالله جل جلاله أكبر ينتقم منه ويوقفه عند حده ، ويحجزه عن أن يؤذي خلق الله عز وجل، وبهذا المعنى نفهم الانتقام.

فلو أنك في الدنيا رأيت إنساناً شارداً مجرماً عاتياً يقتل ويسرق ويفعل ما يحلو له ، فحينما يُلقى القبض عليه وتُحجز حريته يشعر الناس جميعاً بالراحة لأنه حُجز عن أن يؤذي خلق الله عز وجل ، فالانتقام في هذا المعنى يليق بكمال الله جل جلاله .

قال بعض العلماء : « **المنتقم في حق الله تعالى هو الذي يقصم ظهور الطغاة ويشدد العقوبة على العصاة ، والانتقام أشد من العقوبة العاجلة التي لا تمكن صاحبها من الإمعان في المعصية ، لكن المنتقم هو الذي يعاقب عقوبة تمنع المعاقب من أن يقع في المعصية** »وربنا عز وجل هو الطبيب .

وقد تجد إنساناً فتسأل كيف يصلح هذا الإنسان ، ويعود إلى الله ويستقيم على أمره ، فتجد أن الله جل جلاله عاقبه بعقاب أو ساق له شدةً تحار فيها العقول فإذا به يقف عند حده ، ويرتدع ويعود إلى ربه ويسلك الطريق القويم ، فالمنتقم كالمربي ، ينتقم ليؤدب ويؤدب ليسعد .

قالوا : المنتقم له معنى آخر ، « **هو الذي عُرفت عظمته فخشي العباد نقمته** » ، وتقريباً للمعنى ؛ دولة عظمى لديها سلاح نووي قد لا تستخدم هذا السلاح إطلاقاً ، لكنها مرهوبة الجانب ، فلا يفكر أحد أن يعتدي عليها ، فالله سبحانه وتعالى لأنه إذا أراد أن يعاقب عاقب ولا راد لإرادته :

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : ١٢] .

فإذا عرف الإنسان عظمة الله عز وجل تأدب معه ، فكان تعظيم الله سبباً لطاعته ولخشية نقمته ، فالنقمة هي العقوبة ، ﴿فانتقمنا منهم﴾ أي عاقبناهم ، ولكن أريد أن أوضح بعض المعاني ، الكلمة كما تعلمنا في اللغة هي كائن يولد وينمو ويهرم ويموت ، وهناك كلمات ميتة كثيرة جداً ، وأضرب لكم بعض الأمثلة ، قال النابغة الذبياني :

مقذوفةٌ بدخيس النحض بازلُها   له صريفٌ صريفُ القعو بالمسد

هل فهمت شيئاً ؟ لا أعتقد ، فهذه كلمات لا ينتفع بها إلا المختصون .

وأحياناً ، للكلمة معنى رفيع ، وبعد حين تكتسب معنى آخر غير المعنى الذي وضعت له ، كنت أضرب على ذلك المثل التالي ، الجرثومة في اللغة أصل الشيء ، وقد وقف أبو تمام يمدح المعتصم يصفه بأنه جرثومة الدين والإسلام والحسب ، وهذا بيت في المديح ، والخليفة تقبّل هذا البيت بنفس رضية ، أما كلمة جرثومة الآن فماذا تعني ؟ الشيء الشرير إذا قلنا لأحدهم أنت جرثومة فهي في هذا السياق كلمة ذمّ ، إذ تأخذ الكلمة معنى غير المعنى الذي وضعت له في أصل اللغة .

وكلمة استعمار ؛ من إعمار الأرض ، يعني أنت مثلاً إذا بنيت الأبنية ونصبت الجسور ، وأنشأت المدارس والمستشفيات وشققت الطرق فأنت مستعمر ، أما حينما جاءت قوة غاشمة واحتلت البلاد وسلبت ونهبت وقهرت وطغت وبغت فقد سُميت استعماراً ، فكلمة استعمار لها وقع سيِّئ في النفوس .

وكلمة عصابة : تعني الجماعة ، قال عليه الصلاة والسلام قبيل معركة بدر : « **إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبد في الأرض** » ، أما إذا قلت الآن عصابة فهي تعني عصابة المجرمين أو عصابة قطاع طرق ، فلها معنى آخر ، فينبغي لك أن تفهم الكلمة كما هي في أصل اللغة ، فالمنتقم هو المعاقب .

ولعلنا نفهم المنتقم من البشر الذي يحقد والذي يعاقب ليتشفى ، فهذه المعاني التي نفهمها من كلام الناس اليوم لا علاقة لها بهذا الاسم إطلاقاً ، والمنتقم هو الذي يعاقب ، أو هو الذي يعاقب عقوبة تردع صاحبها عن أن يعصي الله عز وجل ، والمنتقم هو الذي يعاقب ليوقف الباغي والظالم عند حده ، والناس جميعاً يرتاحون إذا ألقي القبض على مجرم عاتٍ باغٍ ووضع حد لإجرامه .

والمعنى الفرعي الذي ذكرته قبل قليل ، هو الذي عُرفت عظمته فخشي الناس نقمته ، ومن عرف رحمته رجا نعمته ، فإن عرفت عقوبته خشيت معصيته ، وإن عرفت رحمته رجوت نعمته .

وسيدنا عمر قال له بعض أصحاب رسول الله ﷺ : إن الناس خافوا شدتك وبطشك ، فبكى وقال : لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه ، ولكن هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى .

وربنا عز وجل أحياناً يريك من رحمته الشيء الكثير ، فترتاح راحة كبرى ، وتطمح ، وتطمع ، وتسترخي أحياناً ، وتتساهل وتقصر ، ويريك من شدته فتخاف ، فهو يعالج الناس ، إن أقبلوا على رحمته فقصروا أو تساهلوا أراهم من شدته .

ويقول بعض العلماء إن المنتقم هو الذي يقصم ظهور العتاة ، وينكل بالجناة ، ويشدد العقاب على الطغاة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

[البقرة : ٢٥٨]

إنّه النمروذ فتروي الأخبار أنّ بعوضة دخلت إلى أنفه واستقرت في أعلى خيشومه فأحدثتْ من الألم ما لا يطاق ، والإنسان ضعيف ، فلو أن قناة الدمع سُدت لأصبحت حياته لا تطاق ، ولو أن المستقيم أصيب بالشلل أو أصيب بورم خبيث واستؤصل ، وإذا استؤصل فسوف تحوّل الفضلات إلى فتحة في جدار البطن وهذا شيء لا يُحتمل . . ولو أن هذه الجفون أطبقت بعضها على بعض ولم ترتفع إلا بيدك ، لغدا الأمر فجيعة ، وربنا عز وجل لديه آلاف الأدوية بل مئات ألوف الأدوية لعلاج العصاة والعتاة ، فإذا كنت في طاعته فأنت في ظله وحفظه ورحمته وفضله .

والمنتقم هو الذي يقصم ظهور العتاة ، وينكل بالجناة ، ويشدد العقاب على الطغاة ، ولكن بعد الإعذار والإنذار ، إن الله جلت حكمته لا يبطش من أول مرة ، بل يعطي فرصة ، وزمناً كي تتوب ، وترجع .

وبعد الإعذار والإنذار ، فالله يعطي تنبيهاً ، وهناك من يقود مركبته في أحد طرق دمشق ، فأصيب بأزمة قلبية فانكب على المقود وزوجته إلى جانبه فصرخت ، ومن غرائب المصادفات ، أو من توفيق الله عز وجل أن صديقه خلفه بسيارته ، فخرج من مركبته وحمله على المقعد الخلفي وأخذه إلى المشفى فأدخل إلى غرفة العناية المشددة ، وبعد يومين أو ثلاثة ، شعر بالخطر وقال : ائتوني بالمسجلة ، فقال : المحل الفلاني لأخي وليس لي لقد اغتصبته منه ، والبيت الفلاني لفلان ، والأرض الفلانية لفلان ، وكل الأراضي والبيوت والحوانيت التي اغتصبها اعترف بها على هذا الشريط ، وبعد يومين أو ثلاثة ، شعر أنه عاد إلى ما كان من عافية عليه وغدا طبيعيًّا جداً ، فقال : أين الشريط ؟ ائتوني به ، فكسره وعاد إلى ما كان عليه ، وبعد ثمانية أشهر جاءت النوبة القاضية .

فالله عز وجل متى يبطش ؟ ومتى يهلك ؟ ومتى ينتقم ؟ بعدما يعذر وينذر ، وبعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين والإمهال .

بعض العلماء يرى أن الانتقام نتيجة الكراهية ، كراهية وعقوبة لكنك إذا قلت إن الله يكره ، فالله لا يكره الإنسان لأنه إنسان بل يكره عمله فقط ، فلا يغضب منه ولا يغضب عليه ، ولا يكرهه بل يكره عمله ، وتقريباً للمعنى أضرب هذا المثل ، فالأب مع ابنه المنحرف يكره انحرافه وهو ابنه فإذا عاد إليه عاد إلى مكانته الطبيعية ، وإذاً فالكراهية لشيء والعقوبة عليه أيضاً كراهية وعقوبة ، إلا أن كراهية الله عز وجل لكماله ولحرصه ورحمته ، يكره العمل الذي يفضي بصاحبه إلى النار ، فانتقام الله تعالى من العصاة على ما كره منهم ليصلحهم

وليوصلهم إلى أبوابه وأبواب طاعته ، والكراهة في حق الله تعالى ذم الفاعل والحكم عليه بالعقوبة ، أما أن يكره الله عز وجل إنساناً فيتحمل مشقة منه ، فهذا لا يليق بالله أبداً ، إذ لا نفع ولا ضرر يصل إليه ولا شيء ينال منه ، إنه فوق كل شيء .

وإذا غضب الله عز وجل فلا يغضب لنفسه ولا يغضب على خلقه ، بل يغضب لأعمالهم التي سوف تشقيهم ، إنه غني عنهم ، ولو أن العباد جميعاً على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد في ملك الله شيء .

وقيل : المنتقم هو الذي يشدد العقوبة على الظالمين ، ويسلط البلاء على المجرمين ، وهو الذي يرسل رسله بالآيات والإنذارات ، فمن لم ينتفع بالإنذارات سلط عليه العقوبات .

وشيء مألوف ؛ أن يقول لك الطبيب مثلاً لا تدخن فالدخان يسبب الأمراض الخبيثة ، وأمراض القلب والأوعية وأمراض الموات « الغرغرين » فإن لم تستجب لهذه النصيحة يداهمك المرض المزعج وتقع فريسة له .

وقال بعضهم : هو الذي يرسل رسله بالآيات والإنذارات ، فإن لم ينتفع بها الإنسان سلط عليه العقوبات والانتقامات .

الانتقام كمادة لغوية ؛ وردت في القرآن الكريم في آيات كثيرة قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [المائدة : ٩٥] .

ومن عاد ، واستمرأ المعصية ، وبالغ فيها ، ولم يرتدع ، فينتقم الله منه ، أي يعاقبه ، يعاقبه ليرحمه .

كما وردت كلمة انتقمنا منسوبة إلى الله جل جلاله في الأعراف :

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾
[الأعراف : ١٣٦]

موسى رسول كريم جاء فرعونَ ليدعوه إلى رب كريم ، جاء بالبينات والمعجزات والآيات ، جاء لينهاه عن قتل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم ، فما كان من فرعون الطاغية إلا أن جمع جنوده ولحق بموسى ومن معه ، قال :

﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ [الشعراء : ٥٤-٥٥] .

تصور فئة قليلة خائفة وجلة وضعيفة مستضعفة ، وراءها فرعون بجبروته وقوته وطغيانه وجنوده ، والبحر أمامها ، وفرعون وراءها ، والهلاك محقق :

﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦١-٦٢] .

ثمّ قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ [الشعراء : ٦٦] أي فرعون وقومه .

ولحكمة بالغة ، أنقذ الله جسده إلى الشاطىء ، لأن هذا الجسد لو لم يصل إلى الشاطىء لما صدق الناس أنه غرق ، وهو يدعي الألوهية ، لذلك :

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [يونس : ٩٢] .

والذي سمعته أنه محنط في متحف مصر ، وأغلب الظن أن هذا المحنط في متحف مصر الفرعوني هو نفسه فرعون موسى ، لأن آثار الملح موجودة في فمه ، هكذا يقول بعض العلماء .

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾

[الأعراف : ١٣٦]

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الحجر : ٧٩] .

الأنبياء على صراط واضح مستقيم :

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ فَقَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَغَضِبَ فَقَالَ : « أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا بْنَ الْخَطَّابِ ؟! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً ، لا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلاَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي »

[مسند الإمام أحمد]

وفي سورة الروم :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] .

ويقول الله عز وجل :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧٣] .

كن جندياً لله وانتظر وعد الله بالنصر ، فلا يمكن لمن كان جندياً لله أن يُهزم ، وإذا هزم الإنسان فذلك يرجع إلى خلل في جنديته لله عز وجل ، وليس معنى أن يكون جندياً لله أن يحارب ، فالكلمة لها معنى واسع جداً ، فأنت إذا وظفت علمك وخبرتك في سبيل الله ،

سبيل إحقاق الحق فأنت جندي لله ، أحياناً تقول لإنسان كبير نحن جنودك ، وليس هناك حرب ونحن أعوانك ، ونحن في خدمتك ، وطاقاتنا مرهونة لديك ، فكيف إذا كنت جندياً لله ، والمؤمن الصادق ، علمه وخبرته وماله ولسانه وقلمه واختصاصه وحرفته ومهنته ومكانته وميزاته وخصائصه كلها موظفة في سبيل الله ، ومعظم الناس يأكلون ويشربون ويعملون ويتجرون ويربحون إلا المؤمن ، كل هذه الأفعال الاعتيادية التي يفعلها كل الناس ولا أجر لهم ، ولكن إذا فعلها المؤمن تُحسب له أعمالاً صالحة لأنه يبتغي بها وجه الله .

قال تعالى :

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٤] .

وعندما يسهر الكفار ويخططون ويبذلون الجهود الكبيرة والجبارة ليطفئوا نور الله عز وجل ، وليضيقوا على المؤمنين ليضعفوا دوائر الحق ، فهذا جهد ووقت وطاقة وذكاء وعلم وإمكانات وأموال :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

[الأنفال : ٣٦]

ومما ينبغي على المؤمنين فهمه : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ ﴾ ، لكن : ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ ﴾ .

أضرب لكم مثلاً آخر ؛ شابان أزمعا على أن يتزوجا ، هل من السهل تأمين بيت ، لقد غدا حال الشاب أنّه لا يصل إلى مفتاح بيت

إلا بشق النفس ، وقد يكون بيتاً مؤلفاً من غرفة واحدة في أطراف المدينة البعيدة ، فإذا ملك هذا المفتاح فكأنه ملكَ مفتاح الجنة ، فالبيت على الهيكل يقول لك أخذناه ، هذا الشاب الذي يسعى للزواج يبذل جهداً كبيراً جداً ، فإذا أراد من الزواج المتعة واللذة فقط ، فهو يألم كما يألم أي شاب مؤمن ، ولكن المؤمن يرجو من الله في زواجه ما لا يرجوه غير المؤمن ، فالمؤمن يطمع في أن يرزقه الله ولداً صالحاً ينفع الناس من بعده ، ويطمع في زوجة يأخذ بيدها إلى الله ، وأن يؤسس عشاً إسلامياً نموذجياً لكل من يقتدي به ، وهذه هي النقطة الدقيقة ، فالأعمال الاعتيادية التي يفعلها معظم الناس مكرهين لا أجر لهم عليها عند الله عز وجل ، إلا أن المؤمن كل نشاطاته ، وكل طاقاته وإمكاناته موظفة في خدمة الحق .

وجاء في سورة الزخرف :

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف : ٢٥] .

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ :

أَنَّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ ترك قَتَلى بدر ثلاثا ، ثم أتاهم ، فقام عليهم ، فناداهم ، فقال : يا أبا جهل بن هشام ، يا أميّةَ ابن خَلَف ، يا عُتبةَ بن ربيعةَ ، يا شَيبة بن ربيعة ، أَليسَ قَد وجدتُم ما وعدَ ربكم حقّا ، فَإني قد وجدتُ ما وَعَدني رَبي حقّا ؟ فسمِعَ عمرُ بن الخطّاب قولَ النبيِّ ـ ﷺ ـ ، فقال : يا رسولَ الله ، كيف يَسمعونَ ؟ أو أَنَّى يجيبون ، وقد جَيَّفُوا ؟ قال : والذي نَفسي بيدِهِ ، ما أَنُتم بأسمعَ لما أقولُ منهم ، ولكنهم لا يَقْدرُونَ أن يُجيبوا ، ثم أمر بهم فسُحِبوا ، فأُلقوا في قَليب بدر [أخرجه مسلم] .

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٥] .

تلاحظون طغياناً وبغياً وعدواناً وكبراً وغطرسة ، وقد سمعتم قبل أسابيع كيف أن اليهود أرادوا في ليلة القدر أن ينفذوا عدواناً مجرماً على جنوب لبنان ، وكيف انتقم الله منهم ، إنهم مئة من نخبة الضباط لا يمكن أن يعوضوا في أقل من عشر سنين ، سمعوا ما في الصندوق الأسود فقال الطيار في الطيارة العليا المحلقة : إنني أسقط ولا أدري لم أسقط ؟! نزل فوق الطائرة السفلى التي ترافقها فاحترقتا ونزلت الطائرتان فوق مستعمرة فأهلكت هؤلاء . لقد أرادوا أن يعتدوا في ليلة القدر . . ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ ، ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ ، ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وفي آل عمران :

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران : ٣-٤] .

هناك نقطة دقيقة الدلالة ، يجب أن يكون في قلبك خوف من الله ، وتعظيم ، وحب له سبحانه في وقت واحد ، وهناك في الآثار : « قال يا رب : أي عبادي أحب إليك أحبه بحبك ؟ قال : أحب عبادي إلي تقي القلب ، نقي الكفين لا يأتي إلى أحد سوءاً ولا يمشي بالنميمة تزول الجبال ولا يزول ، أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى عبادي ، قال : يا رب إنك لتعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى عبادك ؟ قال : ذكرهم بآلائي وبلائي ونعمائي » .

فالدعوة إلى الله يجب أن تتحرك في هذه المتوازيات الثلاثة ، ويجب أن تبين للناس عظمة الله عز وجل ، من أجل أن تطيعه تعظيماً ، وينبغي لك أن ترى فضله عليك من أجل أن تحبه ، وينبغي لك أن ترى بطشه وشدته وانتقامه أحياناً من أجل أن تخاف منه ، ولا بد من أن يجتمع في قلب المؤمن الصادق تعظيم عن طريق الآيات ، ومحبة عن طريق النعم وخوف عن طريق العقوبات ، فالعقوبات لها معنى ، والنعم لها معنى والآيات لها معنى ، تعظمه وتحبه وتخاف منه ، والآية الكريمة :

﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾

[الأنبياء : ٩٠]

رغباً راغبين ورهباً خائفين ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك .

ثم دقق في هذه الآية الكريمة في سورة إبراهيم :

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾[إبراهيم: ٤٧].

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ، يرخي الحبل ، فيظن الإنسان أن أحداً لن يستطيع أن يوقفه عند حده ، يُشد الحبل فجأة فإذا هو في قبضة الله ، فمن هو العاقل ؟ ومن هو الموفق ؟ الذي يدخل في حساباته عظمة الله عز وجل ، وقوته وبطشه .

قال بعض العارفين : « **اسم المنتقم من أسماء الجلال والقهر** ».. أما الرحمن الرحيم المنعم المتفضل الحنان المنان ؛ فهذه أسماء الرحمة.. وأما المنتقم الجبار المتكبر القوي ؛ فهذه من أسماء الجلال والقهر .

وإن البحر جميل جداً إذا كان هادئاً ، فإذا هاج الموج فهو يمثل اسم الجبار ، والله عز وجل يتجلّى على شيء باسم الجمال فإذا هو يأخذ بالألباب ، ويتجلى على شيء آخر باسم القهر.. فانظر إلى الزلازل ، فهناك شيء مخيف رهيب :

﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ [الحجر : ٧٤] .

بين الحين والحين هناك زلازل ، يقال : ثلاثة آلاف متشرد ، ألف وخمسمئة قتيل ، في أربع ثوان ، ست درجات على مقياس رختر ، انتهى كل شيء إلى قتل ودمار ، أبنية انهارت وأنابيب تفجرت وحرائق اشتعلت . ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ .

وفي الزمر :

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ [الزمر : ٣٧] .

والناس يستهزئون أحياناً بكلمة : إني سأشكوك إلى الله ، وحبذا لو تعرفون أبعاد هذه الكلمة ، ويقول لك أحدهم : سأشكوك إلى الله ولن أسامحك ، والله لو تعرف أبعاد هذه الكلمة لارتعدت فرائصك .

وهذه امرأة كانت تنتقد عمر بن الخطاب ، فاستدعاها في اليوم التالي وأعطاها مبلغاً كبيراً وكتبت له براءة من تقصيره ، فقال : ضعوها في كفني ، فأنا استسمحت منها .

والإنسان حينما يعرف الله عز وجل ويقف عند حدوده ، لا يؤذي أحداً من خلقه ، لأن الله منتقم ، ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٣٦] .

والإنسان حينما يكون جاهلاً يتطاول ويتجاوز حدوده ، وقد سمعت مئات الحوادث والحكايات حول هذا الموضوع ، فعندما يتجبر الإنسان ويتكبر ويتعالى ويتغطرس ، فالله جل جلاله لا بد من أن

يري الناس فيه يوماً ، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ .

ولو رأيت إنساناً يبيع ويشتري ويربح ملايين ويركب أفخر المركبات ويستطيل على خلق الله ، ويتحدى عظمة الله عز وجل ، ولم يعبأ بشيء من أفعاله وعشت أمداً طويلاً فلم تر فيه يوماً يسوؤه ، فتذكر أن الله عز وجل يقول :

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ [الزخرف : ٤١] .

ولابد من أن ننتقم منهم ، وسواء أرأيت هذا أم لم تر ، وكفاك نصراً على عدوك أنه في معصية الله :

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان : ١٦] .

وهذه بلدة في الساحل الأطلسي اسمها أغادير كانت من أفسق البلدان في المغرب ، كلها نوادي عراة وخمور وزنى ، ترتكب فيها كل أنواع المعاصي ، وخلال عشرين أو ثلاثين ثانية جعلها الله رأساً على عقب . . ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ .

قال بعض العارفين : « **إن اسم المنتقم من أسماء الجلال والقهر** » ، ومن لم يعرف أسماء الجلال وأخلاق الكبير المتعال وقع في الضلال والنكال ، فإن عرفت أنه كريم رحيم فاعرف أنه منتقم شديد عظيم . . دققوا النظر في هذه الآية :

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾

[الحجر : ٤٩ـ٥٠]

زرت مرةً رجلاً في مرض شديد فقال لي : والله ـ ويكاد قلبه يعتصر آلاماً ـ أنا مصاب بمرضين ، فأدوية هذا المرض تؤذي الآخر

وأدوية الآخر تؤذي الأول ولا أدري ماذا أفعل .

وأحياناً تتلاحق المصائب من كل جانب وتحيط بالإنسان ، ولكن الخوف له وظيفة تربوية . قال الفضيل رحمه الله :

« **من خاف الله دله الخوف على كل خير** » .

ونحن مؤمنون بأن هناك خوفاً مقدساً ، فأروع أنواع الخوف أن تخاف من الله ، والنبي عليه الصلاة والسلام سيد الرسل ، أرسل خادماً بحاجة فغاب طويلاً ، فلما عاد هذا الخادم ، قال له : « **لولا القصاص لأوجعتك بهذا السواك** » ، وهل السواك يؤلم الطفل ؟ لكنّ الإنسان بنيان الله ، وملعون من هدم بنيان الله .

وأنت كإنسان كيف تتخلق بكمالات الله عز وجل ، ولا سيما باسم المنتقم ، والمؤمن الكامل ينتقم من أعداء الله تعالى ، فلا يجاملهم ولا يعينهم على معصية ، ولا يغطي انحرافهم ، ولا يباركه ويقف أمامهم بجرأة ويتعالى عليهم .

وفي الآية التالية يصف الله عز وجل المؤمنين قال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

فلا تكن عوناً لإنسان منحرف ، فمن أعان ظالماً سلطه الله عليه ومن شرك في دم حرام بشطر كلمة ، جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه « **آيس من رحمة الله** » .

تخلّق بكمالات الله ، فهذا إنسان منحرف ، فاسق فاجر ، لا تبجله ولا تعظمه ، ولا تقل فيه كلاماً لست مقتنعاً به .

إلهي! أنت المنتقم من أعدائك الظالمين ، القاهر بسطوتك المجرمين ، قد انتقمت من النمرود وفرعون وهامان ومحقت أهل الظلم والطغيان .

فإذا خفت من الله وصلت إلى كل خير ، وأعظم خوف أن تخاف الله ، ورأس الحكمة مخافة الله ، والإيمان قيد الفتك ، ولا يفتك مؤمن .

تصور هرة ينتقم الله لها!

حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : **« دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ مِنْ جَرَّاءِ هِرَّةٍ لَهَا ـ أَوْ هِرٍّ ـ رَبَطَتْهَا فَلا هِيَ أَطْعَمَتْهَا ، وَلا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تُرَمْرِمُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ هَزْلاً »** . [صحيح مسلم] .

* * *

العَليُّ

من أسماء الله الحُسنى اسم العلي ، فالعلي كما ورد في الحديث الصحيح ، اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ، وهو مشتق من العلو ، ويقابل العلو السفل ، علوي وسفلي ، والعلو من الارتفاع .

والعلو بالمعنى المجازي : ارتفاع المكان ، أو ارتفاع المنزلة ، قد تجد في دائرة عشرة طوابق ، الموظفون في كل الطوابق ، وقد يكون المدير العام في الطابق الأول ، لكن منزله هو أعلى من هؤلاء جميعاً . فإما علو مكاني ، وإما علو رُتَبِي . والعلي من أسماء التنزيه ، يعني الله جل جلاله تعالى عن كل صفة لا تليق به ، تعالى عن أن يشبه خلقه ، تعالى عن كل ما خطر ببالك ؛ فالله بخلاف ذلك .

والعلي ؛ هو الذي علا فلا تُدرَكُ ذاتُه ، ولا تُتَصَورُ صفاتُه . يعني لا يعرف اللهَ إلا اللهُ ، علا ، بحيث لا تُدْرك ذاتُه ، ولا تُتَصورُ صفاتُه . العلي : هو الذي تاهت الألبابُ في جلاله . العلي : هو الذي عجزت العقول عن أن تدرك كماله . كل هذه المعاني يمكن أن ترد حينما تقول : الله عليٌّ ؛ عليٌّ مكانةً ، عليٌّ تنزيهاً ، عليٌّ عزةً ، عليٌّ أنّ أحداً لن يدرك ذاتَه ، ولن يحيط بصفاته .

والعلي : رفيع القدر ، الله سبحانه وتعالى قال عن ذاته :

﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ : ٢٣] .

عليٌّ كبير . ولا ننسى أن معرفة أسماء الله الحُسنى من أهم موضوعات العقيدة ، لا يكفي أن تؤمن بالله خالقاً ، ينبغي أن تعرف أسماءه الحُسنى ، وصفاته الفُضلى ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر : ٢٢ـ٢٤] .

هذه آيات في القرآن الكريم ، يعني أن تعرف أسماء الله ، أن تعرف مضامين الأسماء ، مدلولات الأسماء ، مؤدى هذه الأسماء ، هذا جزء من عقيدتك الأساسية وهو العلي العظيم ، اليهود ماذا قالوا ؟

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾

[المائدة : ٦٤]

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ ﴾

[آل عمران : ١٨١] .

والإنسان حينما يعتقد عقيدة صحيحة عن الله ، وعن أسمائه ، فقد حقق إنجازاً كبيراً ؛ لأنه مع الحقيقة لا مع الضلال ، لأنه مع الحق لا مع الباطل ، وصف الله سبحانه وتعالى نفسه فقال :

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ : ٢٣] .

على مستوى البشر ، لا ينبغي للإنسان أن يتحدث عن نفسه ، لأن الإنسان في الأصل ضعيف ، وفقير ، وجاهل . والإنسان مفتقر إلى الله عز وجل ، لكن الله جل جلاله ، حينما يحدثنا عن ذاته ، وعن علوه ، وعن كبريائه ، وعن قهره ، وعن جبروته ، من أجل أن نحبه ، وأن نرهبه . . نرهبه فنطيعه ، نحبه فنقبل عليه .

من علامة محبتك لله ؛ أن تحب المؤمنين ، أن تحبهم حباً حقيقياً . من علامة النفاق ؛ أن تبغض المؤمنين ، روي أن رسول الله قال : « يَا سَلْمَانُ لا تُبْغِضْنِي فَتُفَارِقَ دِينَكَ » قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ : وَكَيْفَ أُبْغِضُكَ ؟ وَبِكَ هَدَانَا اللهُ قَالَ : « تُبْغِضُ الْعَرَبَ فَتُبْغِضُنِي » . [سنن الترمذي] .

من أحب العرب فقد أحبني ، ومن أبغضهم فقد أبغضني ، يعني البغض ينتقل ، والحب ينتقل .

ولقد وصف الله جل جلاله نفسه بأنه عليٌّ كبير ، وورد في الأثر القدسي : « قال : يا رب ، أي عبادك أحب إليك أحبه بحبك ؟ قال : أحب عبادي إلي تقي القلب ، نقي الكفين ، لا يأتي إلى أحد سوءاً ولا يمشي بالنميمة تزول الجبال ولا يزول ، أحبني وأحب من يحبني ، وحببني إلى عبادي ، قال : يا رب ، إنك لتعلم أني أحبك ، وأحب من يحبك ، فكيف أحببك إلى عبادك ؟ قال : ذكرهم بآلائي وبلائي ونعمائي » .

دققوا وتأملوا بعُقولكم في هذا : هذه خطة لكل من يدعو إلى الله ، ذكرهم بآلائي من أجل التعظيم ، وذكرهم بنعمائي من أجل

الحب ، وذكرهم ببلائي من أجل الخوف ، لا بد من أن يجتمع في قلبك تعظيم وحب وخوف . الآيات الكونية من أجل أن تعظمه ، والنعم الظاهرة والباطنة من أجل أن تحبه ، والمصائب والأمراض ، والفقر ، والقهر ، والزلازل ، والبراكين ، من أجل أن تخافه . لابد من أن ينطوي قلبك على تعظيم وحب وخوف .

يعني من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام التي كان يدعو بها :

« اللهمَّ إنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ به نفسك أو أنزلته في كتابك ، أو علّمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي » .

هناك أمراض تردع الإنسان . يعني من يملك لخلاياه ألا تنمو نمواً عشوائياً ؟ لا يوجد قاعدة .

عند ابن الأثير العالم الجليل أن من أسماء الله تعالى ، العليّ والمتعالي . والعليُّ ؛ هو الذي ليس فوقه شيء في الرتبة والحكم ، مهما تناهت الأمور ؛ فالله فوق الجميع في كل صفات الكمال . لذلك قالوا : الله مطلق . يعني مثلاً ، القاضي أحياناً ؛ قد يحكم ألف حكم عادل ، ويحكم حكماً واحداً غير عادل . هو عندنا قاض عادل ، لكن الله سبحانه وتعالى ، لو أن مخلوقاً واحداً منذ أن خلق الله الخلق وإلى يوم القيامة ظلم من قبَل الحق سبحانه وتعالى ، لما كان الله عادلاً ، قال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ـ ٨] .

إذاً هناك عند ابن الأثير ، العلي ، وهناك المتعالي ، والعلي هو الذي ليس فوقه شيء في المكانة والترقية والحكم .

أما المتعالي : هو الذي جل عن إفك الأفّاكين ، وافتراء المفترين ، وعن توهم المتوهمين ، وعن وصف الجاهلين . الله متعالٍ عن كل هذه الصفات .

بعض العلماء يرى : أن الله هو العلي ؛ المنزه المقدس عن جميع أنواع النقص ، هو البالغ غاية العلو في الرتبة ، فلا رتبة لغيره إلا وهي منحطة عنه ، وليس علوُّه علُوَّ جهة ، ولا كبرُه كبرَ جثة :

﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٤٣] .

قال بعض العلماء : « **العلي ؛ هو الذي استحق نعوت الجلالة والكبرياء ، وبذلك التفسير لم يزل عالياً علياً** » .

وقبل أن أتابع شرح الموضوع أقول : النفس البشرية مفطورة على حب الأكمل . راقب نفسك ؛ إن وضعت لك عدة حاجات لتختار إحداها فإنك تختار أجملها ، تختار أسمنها . لو أن دفتراً أسطره مائلة ترده . لو أن كتاباً ورقاته منثنية ترده . فلو أن حاجة فيها نقطة تشويه تبدلها . هذه طبائع النفس البشرية . لذلك فهذه النفس البشرية ، لا يرويها ولا يسكنها ولا يملؤها إلا الكمال المطلق . لذلك فالمؤمن إذا اتجه إلى الله عز وجل ، سكنت نفسه واطمأنّت أما غير المؤمن فلو أنّه بنى بيتاً وظن أنه من أجمل البيوت ، فإذا رأى بيتاً أجمل منه صغر هذا في عينه .

وبعد ؛ فتبديل الأشكال والألوان والألبسة والمركبات وأنماط البيوت والحاجات والأثاث ، هذا التبديل السنوي ، أو الفصلي ، أو

الأقل من فصلي ، هذا التبديل سببه ؛ أن الإنسان يحب الكمال . وكلما وصل إلى كمال ، تاقت نفسه إلى الأكمل ، وهو يلهث وراء الأكمل ـ المادي طبعاً ـ إلى أن يأتيه الأجل ، وهو صفر اليدين من بضاعة الآخرة ؛ لكنه إذا عرف الله وهو في الدنيا ؛ فالله سبحانه وتعالى هو الكمال المطلق ، هو المطلق في كل شيء .

وإذا كان هناك شخصان ؛ قوي وأقوى ؛ تميل إلى الأقوى . انظر في مجلس فإذا وجد فيه رجلان ؛ الأولَ أعلم من الثاني . أو أقوى منه ، أو أغنى ، ترى جميع الحاضرين يتجهون إلى الأقوى ، إلى الأغنى ، إلى الأعلى ، هذه طبيعة النفس البشرية ، لا تحب الكمال فحسبِ بل تحب الأكمل .

لأضرب مثلاً تفاحتان ناضجتان ، ذواتا لون أصفر جميل ، واحدة عليها مشحة حمراء ، قيل لك تفضل تأخذ ذات المشحة الحمراء ، هذه طبيعة النفس ؛ فلذلك يقول بعض العلماء بالنفس : « **يوجد فراغ لا يملأ هذه الفراغ إلا معرفة الله ، لا يُذهب هذا القلق إلا أن تركن إلى حفظ الله** » .

الإنسان مهما أخذ الاحتياطات ، مهما سد الثغرات ، يمكن أن يفاجأ من منطقة أمنه . من المنطقة التي أغلقها والتي ضبطها . لكنه إذا توكل على الله ، كفاه الله كل مؤنة . من توكل على الله كفاه ، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها ، « **من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين** » [رواه الترمذي] .

هؤلاء الذين يسعون بكل طاقتهم لمعرفة الله ، لحضور مجالس العلم ، لتعليم الناس الخير ، لخدمة الخلق ، لرعاية المؤمنين ؛

هؤلاء تأتيهم الدنيا وهي راغمة . فلذلك العلي ، هو البالغ الغاية في علو الرتبة ، فلا رتبة لغيره إلا وهي منحطة عنه . الإنسان إذا عرف الله فإنه يتحجم ، يتواضع ، يعرف أنه عبد الله لا غير . أما الإنسان فإنه إذا غفل عن الله يتعاظم ، يتكبر بغير الحق ، يكبر حجمه بلا مبرر ، هو ضعيف ، أذكر هذا كثيراً في كتاباتي أنّ كل الحياة الدنيا منوطة بسيولة الدم ، فلو أن هذا الدم تجمد في بعض الأمكنة ، لانتهت حياة الإنسان أو لفقد حركته ، أو لفقد بعض حواسه ، أو لفقد بعض ذاكرته ، فالإنسان لا يملك شيئاً لكن الله مالك الملك .

قال العلماء : من علوه ؛ أنه لا يزيده تعظيم العباد له وإجلالهم إياه شيئاً من علوه وكبريائه . فكرة دقيقة فتأمّلْ ! فالإنسان بشكل عام هو بمستوى محدد ؛ إن في علمه ، أو في ذكائه ، أو في حكمته ، فإذا أثنى عليه الناس جميعاً ، وكالوا له المديح جزافاً ، وعظموه ، ووقروه ارتفع . ارتفع لا لأنه مرتفع ، بل لأنه رُفع . أحياناً الإنسان قد يؤتيه الله حظاً ، تخدمه به أصحاب العقول ، قال بعض الحكماء : **« اللهم آتني حظاً تخدمني به أصحاب العقول ، ولا تؤتني عقلاً أخدم به أصحاب الحظوظ »** .

الإنسان يؤتيه الله أحياناً شيئاً من القوة ، كل من حوله في خدمته ؛ العلماء ، الأطباء ، والخبراء ، كلهم في خدمته ، استعان بعقول من حوله ، وأحياناً كل عقلك وذكائك لا يقدم لك الشيء الكافي في الحياة الدنيا ، فأنت عالة على غيرك . فالإنسان له مستوى ، فقد يمدحه المادحون ، يعظمه المعظمون ، يثني عليه الناس ، يبالغون في الثناء ، في المديح ، في التعظيم ، فيرتفع . هذا الارتفاع مفتعل . يعني ظهر بحجم أكبر من حجمه . هذا المعنى الذي يجري بين الناس

لا يليق بالذات الإلهية فمهما عظمه الخلق ، ومهما أثنوا على كماله لا يزيده تعظيمهم علواً ولا كبرياءً فهو عظيم بذاته .

الإنسان له حجم ، ولكنه قد يكون عند الناس بحجم أكبر من حجمه ؛ أحياناً في بعض الظروف والملابسات والمواقف الحرجة والأسئلة والأجوبة يُحجَّم ، يعني يعود إلى حجمه الحقيقي .

هناك قصة طريفة ، ربما لم تكن صحيحة لكن لها مغزى ، أن أحد العلماء يروى أن أبا حنيفة النعمان بينما كان جالساً في مجلسه ، وكانت رجله تؤلمه فمدها بين إخوانه لعُذر بيِّن ـ ، لكن إذا كان إنساناً معذوراً فلا مانع أما بلا عذر فلا يليق به ـ فدخل شخص طويل القامة ، عريض المنكبين ، مشرق الوجه له هيبة ، فأبو حنيفة النعمان استحيا منه وثنى رجله لأنّ القادم غريب ، فلعله لا يعرف أنه معذور ، وانضمّ الرجل إلى المجلس والدرس كان في الفقه عن صلاة الفجر ، والحديث عن الفجر الكاذب والفجر الصادق ، واختلاف العلماء في وقت الصلاة يا ترى في غلس أو بعد أن تتعارف الوجوه إلى آخره ، فبعد أن انتهى الدرس ما كان من هذا الضيف الجليل ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، معتمَّاً يرتدي رداءً مهيباً إلا أن رفع أصبعه ، وقال : يا سيدي ، كيف نصلي الفجر إذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟ قال عندها أبو حنيفة : آنَ أنْ يمدّ أبو حنيفة رجله .

أحياناً الإنسان تحس أن له مهابة ، فإذا تكلم كلمة واحدة سقط ، الإنسان أحياناً يصغر بكلمة أو بسؤال وينكشف بتصرف ما ، الإنسان قد يبدو كبيراً ثم يحجم ، يقول لك سقط من عيني ، هو بالأساس ساقط ، لكن توهمت أنه كبير ، فلما تكلم كلاماً غير معقول سقط .

يقال : إن ملكاً دخل إلى بستان مرة رأى حصاناً يدور حول بئر ، وقد عصب صاحبُه عينيه ، ووضع الجلجل في رقبته ، استغرب الملك وسأل صاحب البستان : لم عصبت عينيه ؟ قال : من أجل ألا يصاب بالدوار ، ولم وضعت هذا الجلجل في عنقه ؟ قال : إذا وقف أعرف أنه وقف ، ومادام الجلجل يُصَوِّتُ فهو يدور ، فقال هذا الملك : فإذا وقف وهز لك رأسه وأوهمك أنه يدور ؟ فأجاب هذا البستاني وقال له : وهل له عقل كعقلك ؟

أنا عرفت من هذا الكلام ؛ الإنسان قد يبدو كبيراً ، لكنه بسؤال أو بامتحان ينكشف أو يهبط .

رجل يدعي أن كل حديث يسمعه يعرضه على النبي ﷺ في الليل ، يرى النبي ﷺ ليلاً ويسأله هل قلت هذا الحديث ؟ يقول : نعم أو لا ، فواحد ذكي أراد أن يحجمه في ادّعائه ، إذ كان يأخذ الحديث ويراجع في الليل الكتب ، يقول لك هذا الحديث صحيح ، أو هو موضوع ، ويدّعي أنّ النبي ﷺ أخبرهُ ، فجاءه أحدهم بحديث ضعيف وعرضه عليه ، وقال : أجبني غداً ، ما رتبة هذا الحديث ، هذا راجع فرأى أنه ضعيف قال : والله أخبرني أنه ضعيف.. فالنبي إن سئل يقول لك قلته ، أو لم أقله : أما أن يقول ضعيف فهذا تزوير على النبي ، فبهذه الطريقة كشف هذا الكذاب .

هناك قدرات في الإنسان خاصة ، فيه قدرات عامة ، فالذكاء قدرة عامة ، والقدرة على إقناع الآخرين قدرة خاصة ، القدرة على حسن التخلص قدرة خاصة ، عند بعض الأشخاص قدرة أن يظهروا بحجم أكبر من حجمهم أو أقل من حجمهم بكثير ، فهذه قدرة خاصّة .

أما الفكرة هنا أن الله عليٌّ ، مهما أثنى الخلق عليه ، مهما عظموه ، مهما مدحوه ، مهما نزهوه ، مهما سبحوه ، مهما مجدوه ، هو عليٌّ ، كل هذا المديح لا يرفعه ، ولا يزيده عظمة ، هكذا يليق بالله عز وجل .

وقال بعض العلماء : « **إن علو الله تبارك وتعالى يرجع إلى واحد من ثلاثة أمور ؛ إلى أنه لا يساويه شيء في الشرف والعزة ، فيكون هذا الاسم من أسماء التنزيه** » .

أسماء متعلقة بذات الله ؛ موجود ، حي ، مريد . وأسماء متعلقة بأفعال الله ؛ القهار ، الجبار . وهناك أسماء متعلقة بصفات الله . أسماء ذات وأسماء صفات ، وأسماء أفعال ، وهناك أسماء تنزيه .

يقول بعض العلماء : « **إن اسم العليّ من أسماء التنزيه ، أو إلى أنه قادر على كل شيء ، والكل تحت قدرته وقهره** » ، فيكون هذا من أسماء الصفات ، أو إلى أنه يتصرف في الكل بقدرته فهو من أسماء الأفعال . فيمكن أن يكون اسم العلي من أسماء الصفات ، ومن أسماء الأفعال ، ومن أسماء التنزيه .

وقال بعض العلماء : « **العلي ؛ هو المتعالي عن الأنداد والأضداد** » ، نحن أنداد ، هناك جراحة القلب ، وهناك جراحو قلب آخرون ، اختصاص في الفيزياء النووية ، قد يوجد خمسة على شاكلته ومن طرازه ، لا يوجد اختصاص في الأرض إلا فيه أنداد . هذا يمثل مثلاً أكبر كتلة نقدية في القطر ، مثلاً ، ففي بلاد أخرى تجد من هو أغنى منه .

فالإنسان مهما علا له أنداد . مهما ارتفع له أمثال . لكن

العلي ، الله عليّ أي متعال عن الأنداد والأضداد ، لا رتبة فوق رتبته ، وجميع المراتب منحطة عنه .

أنت بربك الكريم إذا أردت أن تختار ماذا تختار ؟ تختار أكمل شيء . لذلك الإنسان حينما يختار غير الله يكون أحمق ، يكون غافلاً ، يكون جاهلاً . معنى اختيار غير الله يعني ؛ أحب الدنيا ، اختار الدنيا ، يعني أحب جهة من الجهات غير الله ، يعني عقد كل آماله على زوجته ، عقد كل آماله على تجارته ، عقد كل آماله على منصبه ، عقد كل آماله على أولاده ، رأى أن المال هو كل شيء ، اختار المال ، أو رأى أن اللذائذ الحسية هي كل شيء . . صار زير نساء . . أو رأى أن اللذائذ المعنوية هي كل شيء ، السيطرة والتفوق ، الإنسان له اختيار ، قد يختار المال ، فالمال ديدنه ، وقد يختار العلو فالعلو ديدنه ، وقد يختار اللذائذ الحسية فهي ديدنه ، لكن المؤمن الصادق ، حينما يختار فإنّه يختار الله عز وجل .

قال : من أحبنا أحببناه ، ومن طلب منا أعطيناه ، ومن اكتفى بنا عمَّا لنا كنا له وما لَنا .

الشيء العظيم أنك إذا اخترت الآخرة ، كسبت الدنيا والآخرة .

« من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه » ، قيل : **« العلي : هو المتعالي عن الأنداد والأضداد ، لا رتبة فوق رتبته ، وجميع المراتب منحطة عنه »** ، وقيل : **« هو الذي علا بذاته وصفاته عن مدارك الخلق ، بالكُنْه والحقيقة »** .

هذا معنى جديد ، يعني مهما تصورت الله عز وجل ، فهو على غير ما تصورته ، هذا المعنى مستفاد من ؛ الله أكبر ، يعني مهما

قلت الله أكبر فهو أكبر مما تعرف . مهما تفوقت في معرفته ، فهو أكبر من ذلك . مهما عرفت من رحمته فهو أرحم ، مهما عرفت من كماله فهو أكمل ، مهما عرفت من قدرته فهو أقدر ، هذا معنى جديد لذلك العلي الذي علا بذاته وصفاته عن مدارك الخلق بالحقيقة .

هو الذي علت عن الإدراك ذاته ، وكبرت عن التصور صفاته .

وقد ورد اسم العلي في القرآن الكريم مرات كثيرة ، فقال تعالى :

﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾

[البقرة : ٢٥٥]

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج : ٦٢] .

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ : ٢٣] .

﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ [غافر : ١٢] .

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى : ٥١] .

إذاً : ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مرات كثيرة ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ .

ورد علي عظيم ، وعلي كبير ، وعلي حكيم ، وقال تعالى :

﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾

[النساء : ٣٤]

ورد هذا الاسم مرات كثيرة معرفاً ، كما ورد أكثر من مرة منكراً .

بعض العلماء يرى ؛ أنه لا تُفترض مرتبة شريفة ، إلا والحق سبحانه وتعالى في أعلى الدرجات منها . يعني إذا شكرت فالله هو الشكور ، وإذا أنت سخوت فهو السخي ، إذا أنت تكرمت فهو الكريم .

وهناك رأي آخر دقيق : هو أن الموجود إما مؤثر وإما أثر ، يعني قد أمزق هذا المنديل ، فهذا أثر ، وهذه الحركة مؤثر . يرى بعضهم أن كل موجود مؤثر وأثر ، والمؤثر أشرف من الأثر ، هو الأصل ، والحق تبارك وتعالى مؤثر في الكلِّ ، والكلُّ أثره ، فكان أعلى من الكل في هذا المعنى ، كل الكون أثر من قدرة الله ، ومن إرادة الله ، ومن علم الله ، ومن كمال الله . الكون كله أثر من آثار أفعاله ، وقدرته ، وكماله . فالمؤثر والأثر . أيهما أشرف ؟ . . المؤثر .

وبعضهم قال : « **والموجود إما كامل مطلقاً وإما ألا يكون** » ، كذلك أيهما أشرف ؟ الكامل الكمال المطلق ، لذلك الله جل جلاله هو المؤثر ، وهو واجب الوجود ، وهو الكامل كمالاً مطلقاً إذاً هو العلي العظيم .

الآن : من أدب المؤمن مع هذا الاسم ، انطلاقاً من المقولة الشهيرة « **تخلقوا بكمالات الله** » ، هنا الموقف معكوس ، لأن الله وحده هو العلي الكبير ، وهو العلي العظيم ، وهو العلي الحكيم ، أنت ينبغي أن تتواضع « **الكبرياء ردائي ، والعزة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار** » .

إيّاك ثم إيّاك ثم إيّاك أن تتعالى ، أن تتعاظم ، أن تتكبر ، فهذا

مقام الألوهية ، هو الجبار ، هو القهار ، هو المعز ، أما أنت فبقدر ما تخضع له وتفتقر إليه يرفعك . هنا العلاقة معكوسة ، بقدر ما تخضع له يرفعك . بقدر ما تتذلل بين يديه يعزك . بقدر ما تفتقر إليه ينصرك .

قال العلماء : « **أدب المؤمن مع اسم الله العلي ؛ أن يتواضع وأن يتذلل بين يدي الله عز وجل ، وعند ذلك يرفع الله قدره** » .

قالوا : « حُكي أن رجلاً قال لمالك بن مغول : اتق الله ـ فبعض الناس إذا قلت له : اتق الله ، أخذته العزة بالإثم ـ لكن لما قيل لمالك : اتق الله ، قال من شاهدهُ : فألصق خده بالتراب وقال : سمعاً وطاعة » أقبل هذا الكلام ولو كان من صغير .

يُروى أنّ الإمام أبا حنيفة رحمه الله تعالى ؛ رأى طفلاً صغيراً أمام حفرة فخشي أن يقع الطفل فيها ، فقال : احذر يا غلام أن تسقط فيها ، وكان هذا الطفل من الفطانة بمكان ، قال : بل أنت يا إمام إيّاك أن تسقط ، إني إن سقطت سقطت وحدي ، وإنك إن سقطت سقط العالم معك .

هل تعرفون ما هي أكبر مصيبة على الإطلاق ؟ . . أن يهتز مَثَلُكَ الأعلى . وضعت ثقتَك بشخص فخيّب ظنك ، ظننته ورعاً تقياً ، ثمّ تبيّنت أنّه غير ورع . ظننته منزهاً عن أغراض الدنيا ، فرأيته مشوباً بها . اهتزاز المَثَلِ الأعلى . ما سبب ضياع الناس ؟ عدم وجود المثل الأعلى ، الناس ماجوا واضطربوا ، ولاكوا بألسنتهم كل إنسان دعا إلى الله بإخلاص .

أعداء الدين ، خصوم الدين ، نهشوا طعنوا فندوا ، ففشا بين

الناس نوع من أنواع عدم الثقة . فإذا اهتز المَثَلُ الأعلى انتهى أمر الناس إلى ضياع وإلى وبال .

فلذلك قالوا : ومن أدب المؤمن المتخلّق باسم العلي. . وهذا إذاً أدب ثالث ، أول موقف أن تتواضع ، أن تفتقر :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] .

ولكن يوم حنين تعاليتم ، قلتم لن نغلب من قلة. . قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥] .

إذاً الأدب الأول التذلل والتواضع ، الثاني ؛ أن تحب معالي الأمور ، وأن تكره سفسافها ودنيها ، أحياناً تشعر أن هذا الإنسان سخيف ، موضوعاته سخيفة ، حديثه سخيف ، اهتماماته سخيفة : « **إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها** » [الطبراني] عن الحسين بن علي .

فمِن تخلّقِ المؤمن بأخلاق هذا الاسم العلي ؛ أن تحب معالي الأمور ، أن تهتم بأمر آخرتك ، أن تهتم بنشر الحق ، لا أن تهتم بتزيين البيت لدرجة أنك تضحي بكل القيم من أجل ذلك .

قد ترى الإنسان وكل اهتماماته دنيوية ، وحتى حديثه في موضوعات سخيفة ، مزاحه منحط ، نظراته مريبة ، حركاته شاذة .

« **إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها** » ، يعني أي شيء إذا قسمته إلى درجات ؛ فالله سبحانه وتعالى فوق الخلق فيها وحده ، أي شيء ؛ بمكارم الأخلاق ، بالقدرات ، بالحكم ،

بالعلم ، بالعقل ، فهنيئاً لمن عرف الله ، هنيئاً لمن اتجه إليه ، هنيئاً لمن اكتفى به ، حسبي الله ونعم الوكيل .

قال ملك لوزيره ، والملك كان جباراً ، قال : مَنْ الملك ؟ قال : أنت ، قال : لا . . الملك رجل لا نعرفه ولا يعرفنا ، له بيت يؤويه ، وزوجة ترضيه ، ورزق يكفيه ، إنه إن عرفنا جهد في استرضائنا ، وإن عرفناه جهدنا في إذلاله .

لذلك الإنسان حينما يتجه إلى الله ، ويُحسب على الله ، ويكون الله حسبه ، ومعرفة الله محط رحاله وغاية آماله ، فأيّ إنسان إذا كان كذلك فقد سعد في الدنيا والآخرة .

الآن حظ آخر من حظوظ العبد مع هذا الاسم العظيم ، قال : « ألا يتصور أن له علواً مطلقاً » ، قال :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦] .

تروي الكتب : أن سيدنا موسى وهو نبي من أولي العزم ، قال : مَنْ أعلم مني ؟ فجاء سيدنا الخضر وعلمه دروساً كثيرة .

﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾

[الكهف : ٦٦-٦٧]

سبحان الله ، كلما قال الإنسان أنا ، الله عز وجل يحجِّمه! اعتقد ؛ أنه فوق كل ذي علم عليم ، فوق كل غني أغنى ، وفوق كل قوي أقوى ، وفوق كل عالم أعلم ، هذا المعنى يجعلك متواضعاً .

لكن قال العلماء استثناءً : « **هناك مرتبة ليس فوقها مرتبة على الإطلاق ؛ هي مرتبة النبي عليه الصلاة والسلام** » ، سيد الخلق ، وحبيب الحق .

قال بعضهم : « في بعض الأدعية : إلهي ، أنت العلي المنزه عن الحدود ، والجهات ، المقدس عن الأوهام والخطرات ، جعلت الشرف الأعلى لمن لجأ إليك ، وأعطيت المقام الرفيع لمن توكل عليك » .

اسم العلي ورد في القرآن كثيراً ، وقد ورد في آية الكرسي وختمت به هذه الآية العظيمة ، قال تعالى :

﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

كن مع العلي ، ولا تكن مع الدني . كن مع السرمدي ولا تكن مع الفاني . كن مع القوي ولا تكن مع الضعيف . كن مع الأرحم ولا تكن مع الأقسى .

ورد في بعض الآثار : « من أحبنا أحببناه ، ومن طلب منا أعطيناه ، ومن اكتفى بنا عما لنا كنا له وما لنا » .

* * *

الصَّمَدُ

من أسماء الله الحسنى اسم الصمد ، وفي سورة الإخلاص :
﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ [الإخلاص : ١ـ٢] .

فالصمد ؛ اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ، ورد في الأحاديث الشريفة ، ومعنى الصمد : القصدُ . وفي حديث معاذ بن عمرو بن الجموح في قتل أبي جهل قال : فصمدتُ له . . أي قصدته حتّى أمكنتني منه غِرّة .

هذا المعنى الأول في اللغة . . الصمد : القصد . . صمدتُ له : قصدتُه . . والصمدُ كذلك : السيِّدُ المطاع الذي لا يقضى دونه أمر ، سيِّد متمكِّن ، مطاع ، أمره نافذ . . وأصمد إليه الأمر : أسنده إليه .

ويقول بعض علماء اللغة : « إنَّ الصمد في اللغة له وجهان : أنه فعلٌ بمعنى مفعول » . . أي مقصود ، صمدتُ إليه أي قصدته ، أو هو المقصود ، أي السيِّدُ المقصودُ . المصمود في الحوائج : أي المقصود في الحوائج . فإذا أحبَّ الله عبداً جعل حوائج الناس إليه ، أي أتاح له أسباب العمل الصالح .

هناك شخص يتملَّص من كلِّ عمل ، يتملَّص من كلِّ عبء ، يتملَّص من كلِّ موعد ، يتملَّص من كلِّ بذل ، ومن كلِّ عطاء ، يأخذ

ولا يُعطي ، وإذا أردت أن تعرف ما إذا كنت من أهل الدنيا ، أو من أهل الآخرة ، فاسأل نفسك السؤال الدقيق : ما الذي يفرحك ؟ أن تعطي أم أن تأخذ ؟

أهل الدنيا يفرحهم أن يأخذوا ، وأهل الآخرة يفرحهم أن يُعطوا . وهذا مقياسٌ دقيق ، حتّى إنَّ العرب في لغتهم يصفون الذي يسعده العطاء بكلمة أريَحيّ . هو أشدُّ كرماً من الكريم ؛ يرتاح في العطاء . يعطي ليستريح ، فإذا كنت من أهل الإيمان ـ وعليك أن تدقّق في هذه الكلمة ـ فاعلم أن المؤمن حياته مبنيّةٌ على العطاء ، وغير المؤمن حياته مبنيّةٌ على الأخذ .

والذي يعطي فإن الله جلَّ جلاله يعطيه ، أنفق بلالُ ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً . عبدي أنفق ، أُنفق عليك .

وهناك في القرآن كريم آيات عديدة ـ تزيدُ على ثماني آيات ـ تقرر أنَّ كلَّ نفقةٍ يعوِّضها الله أضعافاً مضاعفة فقد قال تعالى :

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ [سبأ : ٣٩] .

هذا كلام خالق الكون . فالصمد ؛ بمعنى المصمود : أي المقصود في الحوائج كلِّها . وإذا أحبَّ الله عبداً جعل حوائج الناس إليه . والمؤمن لا يتأثَّر لو طرق بابه في اليوم مئة مرَّة ، لو اتصلوا به عشرات المرّات ، لو تزاحم الناس على بابه لا يتأثّر ؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعلك تأخذ ، على أن يجعلك تقف ذليلاً أمام باب إنسان لئيم ، فإذا مكّنك الله ؛ أعطاك صحّةً ، وأعطاك مالاً ، وأعطاك مكانةً ، وأعطاك شيئاً يمكن أن تنفقه ، لا تبخل به ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقرّك على النعم ما بذلتها ، فإذا منعتها منعها عنك .

والعرب تقول : بيتٌ مصمود : إذا قصده الناس في حوائجهم .

تجد في الأسر رجلاً يسمّونه الآن عميدَ الأسرة ، يقصده كلُّ أطراف الأسرة في زواجهم ، في أعمالهم ، في وظائفهم ، في حلِّ مشكلاتهم ، في كلّ ما من شأنه أن يتدخَّل من أجله ، هذا الإنسان محترم .

وقال بعض متأخِّري اللغة : الصمد هو الأملس من الحجارة الذي لا يقبل الغبار ، بمعنى صقيل ، ولا يدخله شيءٌ ولا يخرج منه شيء ، لا دخول ولا خروج ولا استقرار . . هو الصمد . . هذا كلُّه معنى كلمة الصمد في اللغة .

أما الصمد إذا كان وصفاً لله عزَّ وجلَّ ، أو كان اسماً من أسمائه ، فقال العلماء : الله سبحانه وتعالى صمدٌ ؛ لأنَّ الأمور أُسندت إليه ، يعني الأمور رجعت إليه وهذا المعنى ورد في القرآن الكريم ، فقد قال تعالى :

﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ [هود : ١٢٣] .

أحياناً تجد في دائرة أو مؤسسة أو معمل أو مدرسة ، رجلاً قوياً لا يستطيع أي موظَّف أن يبتَّ في قرار ، أو يتّخذ أي قرار ، ما لم يرجع إليه فالأمر كلُّه بيده ، خيوط كلِّ الموضوع مجموعةٌ بيده ، فالله سبحانه وتعالى إذا قلنا إنّه صمد ؛ أي إنَّ الأمور كلَّها أصمدت إليه ، أي أسندت إليه .

فما قولك إذا كان الأمر كلُّه بيد الله ، أتسأل غير الله ؟ أو هل تتوجّه إلى غير الله ؟ أتعلِّق الأمل على غير الله ؟ أتخاف من غير الله ؟ . . أبداً .

فقد سألني أحدهم مرّة : ما الذي يقوّي توجُّهي إلى الله ؟ قلت له : التوحيد . ما الذي يقوّي إخلاصي ؟ التوحيد ، مالذي يقوي عزيمتي ؟ التوحيد . ما الذي يبعدني عن الشرك ؟ التوحيد . وما تعلَّمت العبيد أفضل من التوحيد . وكلُّكم يعلم أنّ القرآن كلّه من دفته إلى دفته ، من فاتحته إلى سورة الناس ؛ كلّه حول التوحيد والدليل قوله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الكهف : ١١٠] .

هذا هو الدين. . بل إنَّ فحوى دعوة الأنبياء جميعاً دون استثناء هو التوحيد ، والدليل قوله تعالى :

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

الدين كلّه قائم على عقيدة التوحيد والعبادة ؛ وحِّد. . واعبدْ ، تفز بالدنيا والآخرة ، بذلك تجمع المجد من كلِّ أطرافه .

قال : الصمد في وصف الله تعالى ؛ هو الذي أسندت الأمور إليه ، فلم يقضِ فيها غيره . وهو الذي يُصْمَدُ إليه في الحوائج أي يقصد . فانظروا إلى هذه الفكرة الدقيقة : الأمور راجعةٌ إليه. . إذاً هو المقصود كنتيجة طبيعيّة .

فأنت على نحو طبيعي وعفوي ، إذا دخلت إلى دائرة بحاجة إلى موافقة على طلب ، تسأل بيد من هذه الموافقة ؟ فإذا قيل إنّها بيد المدير العام ؟ فلا يمكن أن تبذل ماء وجهك لغيره ، ولا يمكن أن تسأل غيره ؛ لأنّك أيقنت أنَّ الأمر بيد فلان ، ما دام الأمر بيده أنت

قصدته . من أين يأتي القصد ؟ من التوحيد . . إن وحّدت ، تتجه إلى الله .

لكن كفكرة أقول : بعض الآيات والأحاديث . . كفكرة سهلة ، وإدراكها سهل ، وشرحها سهل ، لكن أن تعيشها هذه هي المشكلة . . أجل أن تعيشها . . فيا ترى هل هناك مشكلة مزلزلة عشتها ؟ فأن ترى أنّ فلاناً هو الذي أوقعك بها ، أو فلاناً من الناس هو الذي خلّصك منها ، فهذا هو الشرك ، فأفكار التوحيد أفكار سهلة وليست معقّدةً ، أما الممارسات ، فهذه تحتاج إلى جهد كبير .

التوحيد محصّلة جهودك الكبيرة في طريق الإيمان . فأحياناً يقال لك عن سعر العملة . . ؛ إنّ محصّلة الإنتاج الزراعي ، والصناعي ، والتجاري ، وترشيد الاستهلاك ، والقدرة على جلب رؤوس أموال من بلاد أُخرى ، ورواج المبيعات ، والثروات الباطنيّة ، كلها عوامل مهمة تدخل في تحديد سعر العملة . كذلك كلُّ عوامل الإيمان محصّلتها التوحيد . وقال العلماء : « **الصمد ؛ هو الدائم الباقي بعد فناء خلقه** » ، فقد قال تعالى :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ـ٢٧] .

وقال بعض العلماء : « **هو الذي خلق الأشياء كلَّها ، ولا يستغني عنه شيء** » .

بحسب تركيب الجسم المعقّد جداً فسلامته وعافيته معجزة ؛ فالقلب وما به من دسّامات ، وأذينين ، وبطينين ، ومراكز توليد الكهرباء ، والأوعية ، والشرايين ، والأوردة . . والكبد ، والبنكرياس ، والغدد الصمّاء ومفرزاتها ـ بنسب دقيقة جداً ـ وبلازما

الدم. . . قلت : والله ، المعجزة أن يستيقظ أحدنا معافى ولا يشكو من شيء. . فهذه هي المعجزة ، من شدّة تعقيد الجسم ودقّته ، فأن يسلم جسم الإنسان من المرض فهذه المعجزة ، وتفسير هذه المعجزة لدى الإنسان أن يعلم أنّ الله الذي خلقه هو ذاته الحافظ ، وأنّ الجسم لا يستغني عن خالقه .

أيّ نسبة تتغيَّر تصبح معها الحياة لا تطاق ، لو أنَّ الكلية قصَّرت في وظيفتها تزداد نسب الحموضة في الدم ، ومن مضاعفاتها ضيق ، وتوتُّر عصبي ، وردود فعل عنيفةٌ جداً .

الملح إذا زاد ، يؤثِّر في الدم ، وإذا أصبح الدم لزجاً ، يتجمَّد فوراً . والتجمُّد يعني الشلل ، أو فقد البصر ، أو فقد الذاكرة ، فالإنسان شديد التعقيد ، فهو إذاً شديد الحاجة إلى الله ، الله هو الذي خلق الأشياء كلَّها لا يستغني عنه شيء . الإنسان يربّي ابنه وعندما يكبر يستقل عن أبيه ، وقد يغدو أقوى من أبيه ، وقد يغدو أغنى من أبيه ، وقد يصبح أبوه بحاجةٍ إليه . لكن الله الذي خلق كلَّ شيء ، وكلُّ هذه الأشياء لا تستغني عنه .

أحد العلماء له تعريفات أُخرى لاسم الصمد يقول : « **الصمد ؛ هو العالم بجميع المعلومات** ». . هذه إشارة دقيقة. . فالإنسان إذا نقصته المعلومات ضعف وضعفت قوّته ، فأحد أسباب القوَّة ؛ المعلومات الدقيقة . فالإنسان إن كان يحتلُّ موقعاً قيادياً ؛ وإذا كانت معلوماته غير دقيقة ، أو ناقصة ، أو غير كاملة ، يضعف مركزه ، فأحد أسباب القوّة ؛ ألا يغيب عنك شيء . وهذه صفةٌ لله عزَّ وجلَّ ، فالإنسان قد يعلم شيئاً وقد تغيب عنه أشياء .

فقل لمن يدَّعي في العلم فلسفةً حفظت شيئاً وغابت عنك أشياءُ

فالله سبحانه وتعالى من خلال معاني اسم الصمد : أنَّه يعلم كلَّ شيء ، ولا يخفى عليه شيء .

وقيل : الصمد ؛ هو الحكيم . . أولاً : يعلم كلَّ شيء ، لكن مع هذا العلم أفعاله فيها حكمة ، فالحكمة هي أحد الأدلَّة الكبيرة على وجود الله . . فقد يكون هناك أشياء متراجحة . . فإذا أنت خاطبت إنساناً فهل من الممكن أن ترفع الصوت إلى درجة ليسمع من مئتي متر ؟ فلا يكون هناك حكمة . أو أن تهمس همساً من على بعد خمسة أمتار بحيث لا يسمعك ، فلا بدَّ من أن ترفع الصوت إلى درجة ليصله . فتعيير الصوت بحيث يصل إلى السامع دون أن يتجاوزه كثيراً ، ودون أن يقصِّر عنه ؛ هذه هي الحكمة . فالحكمة ؛ وضع الأشياء في أماكنها . والحكمة ؛ أن تفعل الشيء المناسب ، في الوقت المناسب ، في القدر المناسب ، للشخص المناسب على الشكل المناسب ، فالله سبحانه صمد ، هو حكيم . .

وقال : الصمد ؛ **« هو السيِّد الذي عظم سؤدُده »** ، أي مجدُه .

وقيل : الصمد . . **« هو الخالق للأشياء ، فإنَّ كونه سيِّداً يقتضي ذلك »** .

تعريفات أُخرى للصمد ، فعندما يقرأ الإنسان في صلاته :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ .

هذه المعاني كلُّها ينبغي أن ترد على ذهنه وقلبه . فالإنسان يتدبَّر

في كلام الله عزَّ وجلَّ ، ويتأمّل في المعاني الدقيقة التي يقرؤها فيخشع قلبه ، ويرقى إلى الله عزَّ وجلَّ بهذه المعاني .

قيل : الصمد ؛ « **هو المقصود إليه في الرغائب ، المستغاث به عند المصائب** » . وقيل : الصمد ؛ « **الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد** » .

الإنسان يشاء ولا يفعل ، لأنه لا يستطيع ، الله عزَّ وجلَّ وصف ذاته بقوله تعالى فعّال لما يريد ، ولكن قد يريد الإنسان تحقيق قضيّة ولا يستطيعها ، قال أبو الطيب المتنبي :

ما كلُّ ما يتمنّى المرءُ يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ

أما الله عزَّ وجل فهو :

﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج : ١٦] .

فقد تجد إنساناً يحبُّك ولك عنده مكانة كبيرة ، وتلجأُ إليه فيقول لك : والله لا أستطيع ، كان بإمكاني قبل هذا الوقت ، كان هناك شاغر وظيفيّ وقد سُدّ هذا الشاغر ، كان هناك شخص أعرفه نقل من منصبه ، على أنَّك أثيرٌ عنده لكنه يعجز عن مساعدتك .

الدين أساساً صلة بالله . التجاء إلى الله . وغير المؤمن يلتجيء إلى إنسان ، يعني إمّا أن تكون عبداً لله ، وإمّا أن تكون عبداً لعبد الله . فالله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وما دام يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ولا معقِّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه إذاً ؛ هو المقصود ، هو القوي ، هو الغني ، هو القهّار .

وقال بعض العلماء : « **الصمد هو الماجد الذي لا يتمُّ أمرٌ إلا به** » ، وقيل : الصمد . « **الكبير ، الذي ليس فوقه أحد** » .

ففي ذات مرّة سُئِل أحدهم فقالوا له : هل هناك من هو أكبر منك ؟ فقال : نعم ، والأكبر هناك من هو أكبر منه ؟ وأكبر وأكبر وهكذا. . والله هو أكبر من الجميع . وأنا مع الله . فالأكبر ؛ هناك من هو أكبر منه . فإن كنت عالماً ؛ فهناك أعلم منك ، وإن كنت قوياً ، فهناك أقوى . وإن كنت غنياً ، فهناك أغنى . أما الكبير الذي ليس فوقه أحد ، فهو الله ؛ بالقدرة والعلم والغنى ، فإذا كنت مع الله ، فأنت أقوى الناس ، وأنت أغنى الناس ، وأنت أعلم الناس .

وقيل : الصمد. . **« الكامل في كلّ الصفات ، فيدخل فيه الكمال في العلم والقدرة والحكمة والغنى »** .

وقيل الصمد. . **« الذي يحتاج إليه كلّ أحد ، وهو مستغنٍ عن كلّ أحد »** .

الإنسان الغني يحتاج إليه الناس ، وهو محتاج إلى الناس من أجل أن يأكل ، ومن أجل أن ينام ، مهما كنت غنياً أنت بحاجة إلى كلّ الناس ، بحاجة إلى من يقدِّم لك رغيف الخبز ، بحاجة إلى من يمسح لك سيّارتك ، بحاجة إلى من يمدد لك الكهرباء في البيت ، فالغني يحتاج إليه الناس ، ولكنّه في المقابل يحتاج إلى الناس . أما الصمد. . هو الذي يحتاج إليه كلُّ مخلوق ؛ وهو مستغنٍ عن كلّ أحد ، يحتاج إليه كلُّ أحد ، وهو مستغنٍ عن كلُّ أحد .

وقيل : الصمد. . **« هو الذي تقدَّست ذاته عن إدراك الأبصار والعِيان. . وتنزَّه جلاله عن أن يدخل تحت الشرح والبيان »** ، فالأبصار والحواس لا تستطيع أن تُدركه ، هذا الصمد والشرح مهما كان لا يوفي جلاله ، وقيل : ـ كما قلت قبل قليل ـ الباقي بعد خلقه

لا يموت ، ولا يورث ، هو الذي يرث الأرض ومن عليها ، الأبدي ، الذات الكاملة .

وقيل : الصمد . . « الذي لا ينام ، ولا يسهو ، ولا يغفو » .

أحياناً تجد شاحنة (برّاداً) ـ ثمنه عشرون أو ثلاثون مليوناً ـ وتجده منقلباً على قارعة الطريق ، وسبب ذلك أنّ السائق قد نام وهو يقود السيّارة ، والنوم سلطان قهره ، ولكنَّ الله تعالى قال يصف نفسه :

﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

وقيل : « إنَّ الصمد هو الذي يصمد إليه في الحوائج ، ويقصد إليه في الرغائب » ، وقال بعضهم : « الصمد هو الذي لا يزول أبداً » .

هذه المعاني كلُّها مما وردت في أثناء الكتب التي تحدَّثت عن أسماء الله الحُسنى ، أو فسَّرت كلامه جلَّ جلاله ، كلُّ هذه المعاني تشير إلى اسم الصمد .

الله عزَّ وجلَّ وصف نفسه بهذا الاسم ليكون مقصد عباده . أحياناً يسأل الإنسان قوياً ، لكن القوي لا يرغب في أن يلبّي الحاجة ، فقد يحرج لكي يلبّي لك حاجتك ، لكن الله عزَّ وجلَّ عندما قال لعباده : يا عبادي ، أنا صمد في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ أي اقصدوني ، إذاً هناك فرقٌ بين الله جلَّ جلاله ، وبين العبد فالله يغضب عليك إن لم تسأله :

لا تسألنَّ بُنَيَّ آدم حاجةً   وسل الذي أبوابه لا تحجبُ
فالله يغضب إن تركت سؤاله   وبُنَيُّ آدم حين يُسأل يغضب

الله قال لك : أنا صمد ، أي اسألني ، وهذا معنى قول النبيّ الكريم ﷺ في الحديث الصحيح :

عَنِ الأَغَرِّ قَالَ : أَشْهَدُ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُمْهِلُ حَتَّى يَذْهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ ، ثُمَّ يَنْزِلُ فَيَقُولُ : هَلْ مِنْ سَائِلٍ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ ؟ هَلْ مِنْ مُذْنِبٍ ؟ قَالَ : فَقَالَ : لَهُ رَجُلٌ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ ؟ قَالَ : نَعَمْ » . [مسند الإمام أحمد] .

وهنا يقول بعض العلماء : الله جلَّ جلاله اختار هذا الاسم لذاته ، ليقصده عباده في المهمات في دنياهم وفي دينهم .

يقولون لك : دنيا . . نعم ولكن هناك دنيا ضروريّة للآخرة ؛ ففي الدعاء الصحيح : **« اللهمّ أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي »** [رواه مسلم] .

نعم ، أصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا : إذا كانت صحة الإنسان طيّبة ، وذو مال يكفي حاجاته ، وله أهل محصَّن بهم ، وله أولاد ، فهذه دنيا لكن صالحة ، لذلك ما ورد في الدعاء اشتمل على صلاح الدنيا والآخرة : أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا .

وقال بعض العارفين : **« إنّ من أراد أن يتحلّى بكمالات الصمد ، فليقلل من الأكل والشرب ، وليترك فضول الكلام ، ويداوم على ذكر الصمد »** .

ألم نقل قبل قليل : الصمد هو الذي يحتاج إليه كلّ شيء ، وهو

مستغنٍ عن كلِّ شيء . فكلَّما كان الإنسان شرهاً يريد أن يأكل ، وأن يلبس ، وأن يسكن ، وأن يتزوَّج ، وشرهاً للشهوات ، ابتعد عن التخلُّق بأخلاق الصمد ، لكن يقول أحد الأدباء في تصوير بعض العقلاء :

لي صديق كان من أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما عظَّمه في عيني ، صغر الدنيا في عينيه . أي أن تتأدَّب بهذا الأدب ؛ تصغر الدنيا في عينيك ، فكان خارجاً عن سلطان بطنه . . كيف ؟ قال : لا يشتهي ما لا يجد ، ولا يُكثر إذا وجد . . كلام فيه معيار دقيق . . كان لا يشتهي مالا يجد ، ولا يكثر إذا وجد ، تجد المؤمن مؤونته خفيفة ، وظله خفيف ، وحاجاته خفيفة . بل إنَّ النبيّ عليه الصلاة والسلام وصف الزوجة الصالحة بأنَّها قليلة المؤونة ؛ أي طلباتها قليلة تقنع بالقليل . ففي الحديث :

عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **أَعْظَمُ النِّسَاءِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُنَّ مؤنَةً** » . [مسند الإمام أحمد] .

والله أعرف رجالاً كثيرين جداً دمرتهم زوجاتهم . زوجاتهم حملنهم على أكل المال الحرام ، وكُشِفوا وسُرِّحوا وعوقبوا وسجنوا ؛ هذا معنى قول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ [التغابن : ١٤] .

تحمله على كسب المال الحرام . أما عادة النساء في السلف فكانت تقف إحداهن كل يوم مودعةً زوجها قبل ذهابه إلى عمله وتقول له : يا فلان ، اتَّقِ الله بنا فنحن بك ، نصبر على الجوع ، ولا نصبر على الحرام .

من أراد أن يتحلَّى بكمالات الصمد فليقلل من الأكل والشرب وليترك فضول الكلام ، أي الهذر . . من كثر كلامه كثر خطؤه . . فكان صاحب هذا الأديب خارجاً عن سلطان بطنه ، فلا يشتهي ما لا يجد ، ولا يُكثر إذا وجد ، وكان خارجاً عن سلطان الجهالة ، فلا يتكلَّم بما لا يعلم ، ولا يماري فيما علم ، وكان لا يُدلي بحُجَّةٍ إلا إذا رأى قاضياً فهماً ، وشهوداً عدولاً ، وكان يُرى ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جدَّ الجد فهو الليثُ عادياً .

فالتخلُّق بكمالات الصمد . . أن تُقلل تعلُّقك بالدنيا ، أن تُقلل تعلُّقك بِمُغرياتها ، قالوا : دخلت امرأة إلى سوق من أرقى الأسواق في بعض المدن ، فالأصناف التي فيه لا تُعدُّ ولا تُحصى ، قالت هذه المرأة : يا إلهي كم هي الحاجات التي لا يحتاج إليها الإنسان ! !

يقولون لك : فلان فقير ، الفقير له بيت وفيه حاجاته الأساسية ، ولكن مقياس الفقر والغنى عند الناس الكماليّات ؛ الأشياء الثانويَّة ، فعندما يقنع الإنسان بالقليل يكون غنياً .

وكثيراً ما قلت : هناك فقر القدر ، وهناك فقر الكسل . . فقر الكسل مذموم ، لكنَّ فقر القدر معذور . وهناك غنى البطر ، وهناك غنى الكفاية ، اسع لغنى الكفاية لا لغنى البطر . واقبل فقر القدر ، وارفض فقر الكسل . . فالفقر الذي أسبابه الكسل يجب أن ترفضه ؛ لأنَّ علوَّ الهمَّة من الإيمان . أما الفقر الذي أسبابه القدر فيجب أن ترضى به ؛ لأنَّ هذه مشيئة الله . إن سعيت إلى المال لا تسعَ إلى غنى الترف والبطر ، بل اسعَ إلى غنى الكفاية : **« طوبى لمن هدي للاسلام وكان عيشه كفافاً »** **« قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه »** .

ومَنْ تخلَّق بكمالات الصمد ؛ عليه أن يُكثر من ذكر الصمد . مِنْ أحبِّ السور إلى النبي ﷺ سورةُ الإخلاص. . وقد ورد في بعض الأحاديث أنّها تعدِل ثُلث القرآن ، فنلاحظ في شهر رمضان أن الإنسان لتركه الطعام والشراب تصفو نفسه ، ألم يقولوا البطنة تذهب الفطنة ؟

قالوا كذلك : ومما نستفيد من اسم الصمد ؛ أنَّ المؤمن يعرف جيِّداً أنَّ الله هو الذي يُطعِمُ ولا يُطعَم. . فإذا كان الله وحده هو الذي يُطعم ؛ توجَّه إليه وتوكَّل عليه ، ورغب فيما عنده وأيِسَ مما في أيدي الناس .

من عرف أنَّ الله دائمٌ لا يزول ، زهد في حطام الدنيا . كلنا نرى رأي العين أن الإنسان عندما يغتني ، فكلُّ هذا المال يخلفه وراء ظهره لا يستطيع أن يأخذ منه شيئاً إلى القبر. . فإذا توقَّف القلب قال الطبيب لأهله : لقد انتهى ومات ، وعظَّم الله أجركم ، فكتبوا النعوات وقاموا بتشييعه إلى مثواه الأخير ، تخلّت عنه الدنيا فتخلى عنها حتى أخص الأشياء التي كانت له امتنعت عنه كغرفته وأثاثه ومقتنياته الشخصيّة ، فإذا علم الإنسان أنَّ الله حيٌّ لا يموت ، وأنَّ الله لا يزول ، وأنَّ الله باقٍ على الدوام ، وأنَّه الباقي بعد فناء خلقه ، تعلق به وحده لأنه الباقي وغيره فان .

هذا إذاً موضوع الحوائج. . فلا تتعلَّق بالفاني ، ولكن تعلَّق بالباقي . فهناك بيوت جميلة جداً ، وهناك أذواق رفيعة ، الإنسان يشتهي أن يسكنها ولكنَّها هل تدوم ؟ لا. . لا تدوم ، فلا بُدَّ من أن يخرج منها أُفقياً. . مرَّةً واحدة ولا يعود أبداً . والمشكلة أن توازن بين

البيت وبين القبر فهناك تجد بوناً شاسعاً . وهذا هو مصير كلّ حي ، فإذا عرف الإنسان أنَّ اللهَ صمدٌ ، بمعنى أنَّه المقصود ، يقصده . وإذا أيقن أنَّ الله هو الصمد بمعنى الباقي ، لا يتعلَّقُ بالفاني ، وطبعاً هذه الأشياء مهمَّةٌ جداً في فهم البحث وفي سلامة التوجّه والسلوك .

وبعد فالتطبيق العملي نتيجة هذه التعريفات . . فعندك ما هو باق وعندك ما هو فان ، فمن تعلَّق بما سوى الله ، فالمآل مؤلمٌ جداً ؛ وهو أنه يفارقه مهما عاش ، وتاركه قهراً . « **عش ما شئت فإنَّك ميِّت . . . وأحبب من شئت فإنَّك مفارقه** » ، إن أحببت هذه الزوجة ، لا بدَّ من وقتٍ تفارقها أو تفارقك . إذاً كما قال عليه الصلاة والسلام : لو كنت متَّخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام أفضل .

أما الأدب الثالث . . من أدب المؤمن مع هذا الاسم ألا يقصد بحوائجه غير الله ، وألا يُعوِّل إلا على الله . ألا يقصد إلا الله ، وألا يضع الآمال إلا بالله ؛ وهذا معنى قول علي رضي الله عنه : « **لا يخافنَّ العبدُ إلا ذنبه ، ولا يرجونَّ إلا ربّه** » .

الاستدلال الرابع : أن يتخلَّق الإنسان بهذا الاسم ، فيجعل نفسه مقصوداً من قبل الناس للخير ، معيناً لهم على حوائجهم ، أي إنّ الإنسان إذا فتح بابه ، واستقبل أصدقاءه وإخوانه وأحبابه وأقرباءه وجيرانه ، وقام بحل مشكلاتهم ، وأعانهم على حياتهم ، ووفَّق بينهم ، وزوَّج عزبهم ، وأصلح فيما بينهم ، فإذا كان مقصوداً في حوائج الناس يلبي حاجاتهم ويقوم بإسدائها لهم ، فقد تخلَّق بهذا الاسم . ويقول عليه الصلاة والسلام : « **أحبُّ الناس إلى الله تعالى**

أنفعهم للناس ، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور يدخله على مسلم ، أو يكشف عنه كربة ، أو يقضي عنه ديناً أو تطرد عنه جوعاً ، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد ، (يعني مسجد المدينة) شهراً ، ومن كف غضبه ستر الله عورته ، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة ، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تتهيأ له أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام وإن سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل » .

إنّ الإنسان إذا تفكَّر في خلق السموات والأرض ، يرى جانباً من عظمة الله عزَّ وجلَّ ، وقد يرى أسماءه الحُسنى وصفاتِه الفُضلى ، ظاهرةً في الكون ، ظهوراً بيِّناً واضحاً ، فالله سبحانه وتعالى يحتاج إليه كلُّ مخلوق ، يحتاج إليه كلّ شيء في كلِّ شيء ، إذاً هو المقصود ، وهو باقٍ على الدوام . إذاً تعلَّق بالباقي لا بالفاني . وكُلَّما خففت من شهواتك ومتطلَّباتك ورغباتك ، اقتربت من خالقك . وكلَّما فتحت بابك للناس لتقضي حوائجهم ، تخلَّقت بهذا الاسم. . أربعة تطبيقات عمليّة لهذا الاسم الصمد عرفناها : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ .

ونرجو الله أن يوفّقنا لنعيشها عملاً وواقعاً .

* * *



من أسماء الله الحُسنى اسم العظيم . هذا الاسم قد أورده النبيّ ﷺ في حديثيه الشهيرين اللذين ذكر فيهما أسماء الله الحُسنى . وأما المعنى اللُّغوي لكلمة العظيم ، فإذا اشترك شيئان في قاسم مشترك ، ورجح الأول نُسمِّي الأول عظيماً . إذا كان أحدهما زائداً على الآخر في ذلك المعنى المشترك ، سُمي الزائد عظيماً ، نقول : هذا جسمٌ عظيم . . أي له أبعاد . . له طولٌ أطول ، وعرضٌ أعرض ، وعمقٌ أعمق ، نقول : هذا الشيء عظيم .

يمكن أن نقول : فلانٌ عظيمٌ في العلم ، أي يتمتَّع بعلمٍ غزير ، ونقول فلانٌ عظيمٌ في المال ، وفلانٌ عظيمٌ في الملك ، وقد نقول عظيمُ القرية أي سيِّدها ، والعظيم مشتقٌ من العظم . . والعَظْمُ ؛ هو الضخامة والعزُّ والمجد والكبرياء . . ما زلنا في اللغة . . الشيءُ العظيم الشيءُ القوي ، الشيءُ الضخم ، الشيءُ العزيز ، الشيءُ الماجد ، ذو الكبرياء .

أما إذا قلنا : إنَّ الله سبحانه وتعالى عظيم ، فمعنى ذلك : أنه عظيمٌ في وجوده . المخلوقات موجودة ، فالجبل موجود ، والبحر موجود ، والسهل موجود ، والإنسان كذلك موجودٌ ، والحيوانات

موجودة ، والنبات موجود ، لكن هذه الموجودات جميعاً سبقها عدم ، وسوف تنتهي إلى عدم . أما إذا قلنا : إنَّ الله عظيمٌ في وجوده ؛ فنعني أنه لا شيء قبله ، ولا شيء بعده ، هو الحيُّ الباقي على الدوام .

موضوع الفناء موضوعٌ يتَّصف به الخلق ، ولكنْ موضوعُ البقاء من صفات الخالق . موضوع الحداثة من صفات الخلق ، أما موضوع القدم فمن صفات الخالق . أنت موجود والله موجود ، وشتَّان بين الوجودين ، أولاً : وجود الإنسان يسبقه عدم وينتهي إلى عدم ، هو حادثٌ فانٍ ، لكنَّ الشيء الأهم أنَّ وجود الإنسان مفتقرٌ إلى شروطٍ لا يملكها ، فمن منا يملك استمرار وجوده ؟ لا أحد فقد قال تعالى :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] .

وجود الإنسان متعلِّقٌ بشروط ، لو منعت عنه الهواء يموت ، لو منعت عنه الماء يموت ، ولو منعت عنه الطعام إلى أمدٍ معلوم يموت ، لو حرمته من الزوجة يختلَّ توازنه ، لو حرمته من الأولاد يشعر بالقلق ، وجود الإنسان وجودٌ قائم على غيره ، على شروطٍ لا يملكها ، لكنَّ وجود الله سبحانه وتعالى ذاتي لذلك قال تعالى :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ [الإخلاص : ١-٢] .

فشتّان بين الوجودين ، فالله سبحانه وتعالى عظيمٌ في وجوده ، عظيمٌ في علمه ، عِلْمنَا الآن في هذا المكان ، لا يمكن أن يتجاوز لجدران ، ماذا يجري في الشارع ؟ لا نعلم ، ماذا في البيت ؟ لا نعلم ، علمنا محدود متعلِّق بالحواس الخمس ، ومتعلِّق الحواجز ، لكنَّ علم الله سبحانه وتعالى علمٌ مطلق تعلَّق بكلِّ ممكن

فقد قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١٦] .

﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون . فالله سبحانه وتعالى عظيمٌ في وجوده ، عظيمٌ في علمه ، عظيمٌ في قدرته ، هو على كلِّ شيءٍ قدير ، لا يعجزه شيءٌ في السموات ولا في الأرض .

تصور إنساناً ينضوي تحت ظلِّ القدير ، هل يخشى قوياً ؟ إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ يا ربِّ ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟

الله عزَّ وجلَّ عظيمٌ في وجوده ؛ وجودهُ أزلي أبدي ذاتي . عظيمٌ في علمه ؛ بكلِّ شيءٍ عليم . . يعلم الظاهر والباطن ، ما جلا وما خفي ، يعلم دبيب النملة السمراء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء ، إنه بكلِّ شيءٍ عليم .

على كلِّ شيءٍ قدير عظيمٌ في قدرته ، فمثلاً بحسب علم الأطبّاء يقال لك : هذا مرضٌ عضال لا شفاء منه . الإنسان أحياناً يتوجَّه إلى الله عزَّ وجلَّ بالدعاء ؛ فتقف هذه الخلايا التي تنمو نمواً عشوائياً ، وينحسر المرض ، ويظهر الله آياته . . عظيمٌ في قدرته . عظيمٌ في قهره ؛ سبحان من قهر عباده بالموت! قهر الجبابرة ، قهر الطغاة ، قهر الذين نازعوه الكبرياء والعظمة .

عظيمٌ في سلطانه ، عظيم في قهره ، فالله عزَّ وجلَّ سلطانه ممتدٌّ إلى أيِّ مكان ، وفي أيِّ زمان ومع أيِّ مخلوق . . يعني مدير الدائرة ، سلطانه على موظّفيه في أثناء الدوام ، أما إذا تغيّبوا في البيت فسلطانه عليهم لا يزيد على أن يحسم من رواتبهم ، أما سلطان الله على

الإنسان ؛ فكلُّ أجهزته بيد الله ، وكلُّ أعضائه بيد الله ، كلُّ حواسِّه بيد الله ، ذاكرته بيد الله ، ودسَّامات قلبه ، وكليته بيد الله ، يعني أن الإنسان إذا استيقظ صباحاً ، ورأى أنَّه قد سُمح له أن يعيش يوماً جديداً ، وأنَّه معافىً في جسمه ، فهذه نعمةٌ لا يعرفها إلا من فقدها ، الكليتان تعملان بانتظام ، جهاز الهضم بانتظام ، البنكرياس يفرز الأنسولين ، القلب ينبض ثمانين نبضة في الدقيقة ، الدسَّامات في القلب لا تسمح للدم أن يرجع ، فإذا رجع الدم إلى القلب فإن أجرة العملية الجراحيّة لإصلاح ذلك تبلغ ستمئة ألف من الليرات ، وقد تنجح وقد لا تنجح ، وقد تُجرى في القطر أو في خارج القطر ، هذا إذا رجع الدم إلى القلب ، فمَنْ ضبط الدسّامات ؟ فنحن تحت ألطاف الله عزَّ وجلَّ .

يقولون : أصيب فجأةً بعمى ألوان.. فتجده على إشارة المرور الحمراء ينطلق بسيّارته بدلاً من الوقوف ، إذا أصيب الإنسان بعمى الألوان يمنع فوراً من قيادة السيّارة ، وأنتم تسمعون.. وما أكثر الأمراض ، وما أكثر الخلل الذي يصيب بعض الأجهزة ، أو بعض الأعضاء ، فالله سبحانه وتعالى عظيم ، عظيمٌ في سلطانه .

يعني أنت لِكونك جسماً ونفساً.. فأحياناً تشعر بانقباض ، وأحياناً ينشرح صدرك ، وأحياناً يضيق صدرك ، أحياناً تتفاءل ، وأحياناً تتشاءم ، أحياناً يعروك الهمُّ ، فإذا قصَّر العبد في العبادة ابتلاه الله بالهمِّ والحزن .

أحياناً تضعف معنويّاتك ، تضعف أمام عدوِّك ، وأحياناً يقوِّيك عليه ، جسمك بيده ، ونفسك بيده ، ومن حولك بيده ، وتجارتك

بيده ، وزوجتك بيده ، وأولادك بيده.. قال بعضهم : أعرف مقامي عند ربّي من أخلاق زوجتي ، قد يسلس قيادها وقد لا يسلس !!

الله عظيمٌ في وجوده ، عظيمٌ في علمه ، عظيمٌ في قدرته ، عظيمٌ في قهره ، عظيمٌ في سلطانه ، عظيمٌ في نفاذ حكمه.. قد يتمنّى الإنسان مثلاً مئات الحاجات والأشياء فلا تتحقق ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى فعالٌ لما يريد ، إذا أراد شيئاً يقول : كن فيكون . كلُّ شيءٍ وقع أراده الله ، كلُّ شيءٍ أراده الله وقع ، أي أنَّ هذا العظيم ، أيُنسى ؟ أيُنصَرَف عنه ؟ أيُعرَضُ عنه ؟

أرى لزاماً عليّ أن أقول هذه الكلمة : لا يليق بالإنسان أن يكون لغير الله . وما أكثر الناس الذين يعبدون عباداً لله من دون الله ، إما أن تكون عبداً لله.. فعبد الله حُرّ ، وإما أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم!!

وأشدُّ الناس خسارةً من ربط مصيره بمصير إنسان ، لأنَّ هذا الإنسان لا يملك له نفعاً ولا ضرّاً ، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، ولا رِزقاً ولا عطاءً ولا حرماناً .

أرسل عدي بن أرطأة أحد عمال عمر بن عبد العزيز إلى سيِّدنا عمر بن عبد العزيز رسالةً قال فيها : يا أمير المؤمنين إنَّ أُناساً قبلي قد اقتطعوا من مال الله عز وجل مالاً عظيماً ، لستُ أقدرعلى استخراجه من أيديهم ، إلا أن أمسَّهم بشيء من العذاب ، فإن أذنت لي فعلته .

فقال هذا الخليفة الراشد : يا سبحان الله.. أتستأذنني في تعذيب بشر ؟ وهل أنا لك جُنَّةٌ من عذاب الله ؟ وهل رضائي عنك يُنجيك من سخط الله ؟ أقم عليهم البيِّنة ، فإن قامت فخذهم بالبيِّنة ، فإن لم تقُم فادعهم إلى الإقرار ، فإن أقرّوا فخذهم بإقرارهم ، فإن لم يُقرّوا فادعهم

لحلف اليمين ، فإن حلفوا فأطلق سراحهم ، وايمُ الله لأن يلقوا الله بخيانتهم ، أهون من أن ألقى الله بدمائهم ؟ [انظر المناقب ١٠٣ـ ١٠٤]

قيل : العظيم عظيمٌ لأنَّ العقول لا تصل إلى كنه صمديَّته . أحياناً يكون شيء عظيماً ، لكن يُحاط به علماً ، تُدْرَكُ أبعادهُ ، لكن إذا قلت : إنَّ الله عظيم. . العقول عاجزة عن أن تصل إلى كُنه صمديَّته ، لذلك لا يعرف اللهَ إلا اللهُ ، وليس هناك نبيٌّ بما فيهم سيِّد الأنبياء والمرسلين ﷺ عرف الله المعرفة المطلقة ، هو أعرفنا بالله ؛ لكنَّ اللهَ لا يعرفه إلا اللهُ .

فالعظيم ؛ هو الذي تعجز العقول عن أن تُدرك صمديَّته ، وتعجز الأبصار عن أن ترى ـ كما قال بعض العلماء ـ سُرادقات عزَّته .

الآن هناك نقطة دقيقة المعنى جداً. . من الممكن أن يحيط البشر إنساناً عادياً بهالةٍ عظيمة ، فبعض شعوب آسيا المتخلِّفة يأتي كاهن من كهانهم بطفل فيسمونه إلهاً ، ويحاط بالتعظيم ، والإجلال ، والإكبار والتقديس ، . . فصار هذا الطفل عند كبره إلهاً لهم ، ويعظِّمه الناس ، فهو عظيمٌ لأنَّ الناس عظَّموه ، أما هو في ذاته فليس بعظيم ، أما إذا قلت : إنَّ الله عظيم ؛ فلا لأنَّ العباد عظَّموه ، لا لكن ؛ لأنَّه عظيمٌ في ذاته ، هومستغنٍ عن تعظيم العباد له ، ففي الحديث القدسي :

عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ : **« يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ**

بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ اللهَ ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ » . [صحيح مسلم].

أحياناً لسبب ما يُحاط الإنسان بالتعظيم ؛ يبدو للناس عظيماً ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى ليس كذلك ، فهو عظيمٌ ، سواء أَعظَّمه الناس أو لم يُعظِّموه ، أعرفوه أم لم يعرفوه ، أقدَّسوه أم لم يُقدِّسوه .

فقد تجد إنساناً يقال لك عنه : هذا عظيمٌ في المال ، أي حجمه المالي كبير ، اسأل وتحقق عن ماله فتجده مئتي مليون ، أصبح محدوداً ، أو يبلغ ماله ثلاثمئة ، أو أربعمئة ، أو ثمانمئة ، أو ألف مليون ، أو أربعة آلاف مليون ، فقد تحدد الرقم ، لكن إذا قلت إنَّ الله عظيم ، العلماء يقولون : « **لا حدود لعظمته** » .

عظمته لا نهائيّة . وليس في الإسلام كلمة تُعبِّر عن هذا الإطلاق كقولك : الله أكبر . مهما عرفت من قدرته فهو أكبر ، مهما عرفت من علمه فهو أكبر ، مهما عرفت من رحمته فهو أكبر ، مهما عرفت من سلطانه فهو أكبر ، مهما عرفت من جلاله فهو أكبر .

وقيل : العظيم.. هو الذي ليس لعظمته بداية ، على مستوى البشر يقولون لك : فلان هذا كان لا يملك شيئاً.. الآن عظيم بماله ، وقد كان فقيراً ، معنى هذا أنّ العظمة البشرية لها بداية.. فلان ملك ، لقد كان جندياً في بداية أمره مثلاً ، فلان دكتور من أساطين العلم ، كان جاهلاً من قبل ذلك ، فلهذه العظمة بداية ، إذا قلت : إنَّ الله عظيم.. فليس لعظمته بداية ، ولا لجلاله نهاية ، هذا معنى أن يكون الله عظيماً .

وقيل : العظيم الذي لا تهتدي العقول لوصف عظمته ، ولا تحيط بكنهه بصيرة . أي يستحيل أن تحيط بعظمة الله ، من المعاني الدقيقة جداً التي يمكن أن تفسِّر قوله تعالى :

﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر : ٥٥] .

ما ذنب النبي عليه الصلاة والسلام ؟ وقد قال تعالى :

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : ٢] .

وقد قال تعالى كذلك :

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ [التوبة : ١١٧] .

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ ما الذنب الذي ارتكبه النبي ؟! قال بعض العلماء : « هذه خاصَّةٌ برسول الله ﷺ ، لأنّه كلَّما عرف جانباً من عظمة الله ، استحيا من المعرفة السابقة ، وكلَّما ارتقت معرفته بالله ، رأى أنَّه أذنب في حقِّ الله ، حينما عرفه أقلَّ مما ينبغي » .

إذا كنت مثلاً ولله المثل الأعلى.. تتصوَّر إنساناً يحمل شهادة الليسانس ، ثم تفاجأ بأنَّه يحمل الماجستير ، ظننته يحمل ماجستيراً ثم تفاجأ أنه يحمل دكتوراه ، ظننته يحمل دكتوراه ثم تفاجأ بأنَّ له ثلاثين

مؤلّفاً بعض هذه المؤلّفات فريد نوعها في العالم ، فكلّما أدركت جانباً من علمه تكشَّف لك علمٌ لا تعرفه ، إذاً أنت تشعر أنَّك مقصِّرٌ في معرفته ، فربّما كان ذنب النبيِّ عليه الصلاة والسلام ، أنَّه كلَّما تكشَّف له جانبٌ من عظمة الله عزَّ وجلَّ ، شعر أنَّ معرفته السابقة هي ذنبٌ وقع فيه فلزمه الاستغفار جراء ذلك .

وبعد فإنّ كلمة عظيم وردت في مواضع من القرآن الكريم ، الموضع الأول :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

أما الآية الثانية :

﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [الشورى : ٤] .

الآية الثالثة :

﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الواقعة : ٧٤] .

الآية الرابعة :

﴿ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الحاقة : ٣٣] .

ما من مخلوقٍ من بني البشر إلا ما ندر إلا وهو يؤمن بالله ، لكنَّ الإيمان الذي يُنجّي هو أن تؤمن بالله العظيم ، إن آمنت أنَّه عظيم ؛ استحييت أن تعصيه ، وكبر عليك أن تعرض عنه ، العبرة أن تؤمن بالله العظيم ، إنَّك إن لم تؤمن بالله العظيم ، لن تُطيع الله عزَّ وجلَّ ، اسأل هؤلاء الناس الذين يعصون الله عزَّ وجلَّ ليلاً ونهاراً في كسب

أموالهم ، وفي علاقاتهم بالنساء ، وفي عدوانهم على الآخرين ، وفي انحيازهم لمصالحهم ، اسأل هؤلاء الناس : ألا تؤمن بوجود الله ؟ فستجده يقول لك : أعوذ بالله أنا مؤمن .

إذاً كيف تعصيه ؟! لأنَّه ما آمن بالله العظيم. . هو آمن بالله ؛ لكنَّه ما آمن بالله العظيم ، آمن بأنَّ لهذا الكون خالقاً ، لكن ما آمن بالله العظيم ، الإيمان بأنَّ لهذا الكون خالقاً ؛ هذه ضرورةٌ فطريَّة ، أما الإيمان الكسبيّ الذي يبنى على جهدٍ بشريّ ؛ هو أن تؤمن بالله العظيم ، لأنَّ الإيمان بالله العظيم يحملك على طاعة الله العظيم ، وأيُّ إيمان لا يحملك على طاعة الله لا قيمة له ، لا يُقدِّم ولا يؤخِّر ، أرأيت إلى إبليس ، أليس مؤمناً فقد قال :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الحجر : ٣٩] .

وقال في آية أخرى :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٨٢] .

لكن هذه المعرفة وهذه الأقوال لم تغنه شيئاً ، فقد عصى الله وكفر .

وأحياناً تجد راقصة تقول : الله قد وفَّقها بأداء هذه الرقصة ، إذاً فهي مثل إبليس تماماً ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فهل هذا إيمان ؟! هذا إيمان إبليسي ، أي إنَّك إن آمنت أنَّ لهذا الكون إلهاً فهذا إيمان ، لكن لا يرقى بك إلى السعادة ؛ لأنَّه ما حملك على طاعة الله ، كيفَ أنَّ إبليس ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ؟!

وفي الآية الأولى ﴿قَالَ رَبِّ﴾ ولكنّه ما آمن بالله العظيم ، فلو أنه آمن بالله العظيم لخشع قلبه لذكر الله .

فالإنسان أحياناً يسأل يا تُرى حينما قال ربُّنا سبحانه وتعالى :

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحاقة : ٣٠ـ٣٣] .

يا ترى لِمَ استحقَّ النار ؟ لأنَّه ما آمن بالله العظيم ؟ إنّ الجواب الشافي أنَّه حينما لم يؤمن بالله العظيم فقد هان أمر الله عليه ، وعصى أمر ربّه العظيم ، استحقَّ النار على معصية ، وعلى عدوان ، وعلى انحراف ، وعلى إغواء ، فإن لم تؤمن بالله العظيم ، فلن تطيع الله عزَّ وجلَّ ، فالعذاب في النار على المعاصي والآثام ، وعلى البغي والعدوان ، وهذه نتيجة جهل الإنسان قدْر ربّه .

الآن ما هو المنعكس الذي ينعكس على المؤمن من هذا الاسم العظيم ؟

أنت مؤمن . . وهذا موضوعٌ دقيق بالغ الدقَّة . . إن رأيت عظمة الله عزَّ وجلَّ ، تلاشت عظمة نفسك . فأحياناً تجد إنساناً يملك مركبة صنعت في عام ثمانية وأربعين ، فيها كلّ علّة ، فلو رأى مركبة حديثة مصنوعة في عام ألفين وستة ، ويبلغ ثمنها خمسة وعشرين مليوناً ، فهل سيرى نفسه شيئاً بمركبته الأولى ؟ سيتضاءل وسيتلاشى ! !

إذا كان مالكاً بيتاً مئة متر تحت الأرض ، وله اتجاه شمالي ، ودخل إلى بيت مساحته أربعمئة متر ، في أرقى أحياء دمشق ، وله إطلالة جميلة جداً ، وفيه كل أنواع الأثاث الفخم والتزيينات ، فهل بعد ذلك يفتخر ببيته ؟ ويتطاول قائلاً : بيتي . لا فبيته لا شيء إزاء ما رأى ! !

إذا كان يخدم في الجيش ، ويحمل رتبة وكيل العرّيف ـ يضع

شارة سبعة على ذراعه ـ ثم جلس مع لواء ؛ فهل سيقول لك : أنا أخدم في السلك العسكري ؟ وأنا وكيل عريف أم سيسكت ؟ سيسكت قطعاً .

إذا كان معلماً في قرية ، وجلس أمام دكتور في الجامعة ، وهو أعلى أستاذٍ في الجامعة ، وله خمسون مؤلّفاً ، فهل يقول لك هذا المعلِّم : أنا ، وعلمي ، وأقوم بالتدريس في القرية الفلانيّة ، أم سيسكت ؟ سيسكت بالطبع!!

بائع متجوِّل قعد أمام عضو غرفة تجارة ، وحجمه المالي ثمانمئة مليون فهل سيقول : أنا تاجر ؟ ومثله ممرض أمام جرّاحٍ للقلب ، والأمثلة كثيرة فالإنسان أمام خالق الأكوان هل يقول لك : أنا ؟!

فهذا حال الفناء . . إن رأيت الله عظيماً تلاشت ذاتك ، فتجد المؤمن متواضعاً لأنَّه رأى عظمة الله ، فلا يقول : أنا فتذوب أناه ، يا رب! أنت العالم ، ونحن الجهلاء ، ربِّ! أنت القويّ ونحن الضعفاء ، ربي! أنت الغنيّ ونحن الفقراء ، يا رب! نحن بك .

فأوّل أدبٍ يتأدَّبُ به المؤمن مع اسم الله العظيم . . أنَّ الكبر والاستعلاء والغطرسة والاعتداد بالنفس يتلاشى ، وحينما يتلاشى الكبر والاستعلاءُ والغطرسة والاعتداد بالنفس ، يزيده الله عزّاً .

فهل تعتقدون أنَّ هناك في الأرض إنساناً أعزَّه الله ، ورفع ذكره ، وأعلى مقامه كرسول الله ﷺ ؟ أنا لا أعتقد . اذهب إلى المدينة المنوَّرة في أيّ وقت ، فهل من المعقول أن ترى جامعاً يتّسع لثلاثة ملايين إنسان ، جاؤوا من أقطار الدنيا ؛ من باكستان وأمريكا والفلبّين ، ومن أستراليا من الصين من الهند وغيرها ، جاؤوا ليزوروا

هذا الإنسان ، فمَنْ هذا الإنسان وماذا أعطاهم ؟ يقفون أمامه متأدبين يبكون ، أنا لا أعتقد أنَّ في الأرض كلِّها إنساناً رفع الله ذكره وأعلى مقامه وأعزَّه كرسول الله ﷺ ، وفي الوقت نفسه لا أعتقد أنَّ إنساناً افتقر إلى الله ، وتذلل له ، وتلاشى أمامه كرسول الله ﷺ .

فالقضيَّة محيِّرة . . كلَّما ازددت افتقاراً إلى الله ، أعزَّك . كلَّما ازددت افتقاراً وتذللاً وتواضعاً ، رفع الله لك ذكرك . النبيُّ عليه الصلاة والسلام يُذْكَرُ كلّما ذُكرَ الله في قولك : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمّداً رسول الله ، خمس مرات على مدار الوقت في الأرض كلها .

هل هناك إنسان أقسم الله عزَّ وجلَّ بعمره كرسول الله ﷺ :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : ٧٢] .

أنت حينما تفتقر لله ، وحينما تتواضع ، وحينما تقول : يا ربِّ! أنا لا أعلم ، إنَّك أنت العليم ، أنا ضعيفٌ ، في رضاك قوتي ، أنا فقيرٌ أغنني ، أنا جاهلٌ علِّمني ، أنا ضعيفٌ . . أنا أضعف خلقك ، يا ربِّ أنت الكريم العظيم . . يزيدك الله عزّاً .

الأدب الذي ينبغي أن تتأدَّب به مع اسم الله العظيم ، أن تشعر بالفناء أمامه . لذلك إن رأيت إنساناً متغطرساً ، متكبِّراً معتدّاً بذاته يقول لك : أنا فهو هباء لا يساوي شيئاً . . إنَّك لم تؤمن بالله العظيم ، لو آمنت بالله العظيم لتلاشت ذاتك ، ولضعُفت قواك ، ولذلَّت نفسك ، وسبحان الله . . هذه العلاقة المعكوسة . . كلَّما ازددت تواضعاً ، زادك الله عزّاً .

بالأرض كلها ما من فاتح على الإطلاق دخل مدينةً ، نكَّلت به

سابقاً ، وناصبته العداء عشرين عاماً ، إلا ويدخلها متغطرساً ، متكبِّراً متعجرفاً . . فتيمورلنك دخل إلى الشام ؛ فأمر أن يُبنى هرمٌ من جماجم الناس ، خمسون ألف رأسٍ صفت من رؤوس البشر بعضها فوق بعض ، في المكان المسمَّى الآن برج الروس . ليس هناك غازٍ دخل بلدةً إلا واستباحها ، دخل متعجرفاً متغطرساً ، إلا النبيَّ عليه الصلاة والسلام دخل مكَّةَ فاتحاً ، فكادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره ، تواضعاً لله عزَّ وجلَّ .

مع كل إنجازاتك قل : هذا من فضل ربّي ، قل : الله وفَّقني ، الله أكرمني ، الله سمح لي أن أتكلَّم عنه ، الله أطلق لساني ، الله أعانني على طاعته ، أعانني على تربية أولادي ، أعانني على كسب رزقي ، أعانني على الاستقامة ، هذا واقع ؛ مَنْ قدوتك بهذا ؟ سيِّدنا يوسف فقد قال :

﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣٣] .

قد تجد إنساناً ذا شخصيَّةٍ مرموقةٍ جداً ، يقع في شرك امرأةٍ لا تساوي واحداً بالألف من زوجته !! ويُذل وتلوكه الألسن ، ويعاديه أولاده ، ويصبح في الوحل ، أين مكانته ؟ وأين عقله ؟ وأين شخصيَّته ؟

إذاً القضيَّة أن تتأدَّب مع الله بالافتقار إليه ، إذا كان الله عظيماً ، ينبغي أن تتلاشى نفسك وتفنى . وأوضح مثلٍ على ذلك الصحابة الكرام ؛ ففي موقعة بدر قال تعالى عنهم :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] .

أذلَّة في العدة والعدد ، ثلاثمئة رجل فقط من الصحابة ، وقريش

القبيلة العريقة القويَّة ، الأبطال الصناديد ، الفرسان ، والأسلحة ، السيوف الخيول . . ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ .

أما في حنين . . فقد كان أصحاب النبي ﷺ عشرة آلاف ، أقوياء عُدّة وعدداً ، فقالوا لن نغلب اليوم من قلة فقال الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥] .

﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ خطيب من نوادر الخطباء ألقى خطبة في يوم جمعة ، رائعة جداً ، ثمّ نزل ليصلّي بالناس ، فبعد أن قال : الله أكبر . . . نسي الفاتحة . فالله قد ينسيك . . ينسيك أهم شيء بالخطبة ، أو بالصلاة ، فاحذر أن تقول أنا .

لذلك فالمؤمن الصادق إذا أقدم على عمل يقول : اللهمَّ! إني تبرَّأت من حولي وقوَّتي ، والتجأت إلى حولك وقوَّتك يا ذا القوَّة المتين .

أو : اللهمَّ! إنّي تبرَّأت إليك من حولي وقوَّتي وعلمي ، والتجأت إليك بحولك وقوَّتك وعلمك يا ذا القوَّة المتين .

لا تؤثر شيئاً على طاعة الله ، لا تؤثر شيئاً على مجلس علم ، لا تؤثر شيئاً على عمل صالح ، على أداء صلاة .

ورد في الأثر : « **من تعلَّم وعمل بما علم ، ثم علَّم غيره ، فذلك يُدعى في السماء عظيماً** » وقال الفضيل بن عياض : « **عالم عامل معلم يدعى كبيراً في ملكوت السماوات** » .

هو بنظر نفسه فقيرٌ جداً ، أما في السماء فعظيم ، قال : أومثلي ؟!

فأنت قد تكون موظَّفاً من الدرجة العاشرة.. كاتباً.. ، مراسلاً ، موظفاً بسيطاً قد تكون علماً في السماء ، قد تكون عند الله عظيماً ، وعند الناس قد تكون شخصاً مغموراً ، لذلك روي عنه ﷺ : « ابتغوا الرفعة عند الله » .

أجل ، عند الله ؛ لأنَّ مراتب الله عزَّ وجلَّ ؛ تنفعك بعد الموت ، لكنَّ مراتب الدنيا تفنى عند الموت ، فقد يكتبون في النعوات مثلاً.. الطبيب الفلاني ، أو المهندس ، أو عميد أسرتهم ؛ فليكتبوا ما يشاؤون ، لكنَّ العبرة أن يكون عند الله مقبولاً ، أحياناً يكتب في النعوة أكثر من خمسين اسماً كما يكتب آل فلان وفلان وفلان... . إلخ ، ياترى هل هو عند الله مقبول ؟ إن لم يكن في طاعة الله ، إن لم يكن قد عرف الله عزَّ وجل ؛ فأولئك لهم صغارٌ عند الله ، فقد قال تعالى :

﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف : ١٠٥] .

روى الإمام البخاري أنَّ النبيَّ ﷺ كان يدعو عند الكرب بهذه الكلمات :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهمَا قَالَ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو عِنْدَ الْكَرْبِ يَقُولُ : « **لا إِلَهَ إِلا اللهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ** » . [صحيح البخاري] .

هذا دعاء النبيِّ ﷺ عند الكرب.. وهذا الدعاء فيه علم.. فكل شيء بيد الله ، فهو القوي الغني العليم الرحيم الغفور التوَّاب.. حنّان ، منّان .

لا إله إلا الله العظيم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب العرش العظيم .

وورد في الحديث القدسيّ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **يَقُولُ اللهُ سُبْحَانَهُ : الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي ، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي ، مَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ** » . [سنن ابن ماجه] .

أرسلوا مركبة فضائيّة وسمَّوْها المتحدّي ـ اتشالنجر ـ وبعد سبعين ثانية أصبحت كتلةً من اللهب ، وفي داخلها سبعة روّاد فضاء وامرأة طبعاً هي قمّةٌ في العلم والتقنية ومراجعات قبل إطلاقها وعد تنازلي ، وكلّ جهاز مزدوج ، سموها المتحدّي . . فمن تتحدَّون ؟ بعد سبعين ثانية أصبحت كتلة من اللهب .

وكلُّكم يرى كيف أنَّ قلاعاً صامدةً جبَّارةً ، تهاوت كبيت العنكبوت!! وهناك غطرسة ، إنسان فرد يرعب أمّة بأسرها كما تسمعون في الأخبار ، وأنّ واحداً فجّر نفسه فهزَّ الكيان كلّه ، فالله عزَّ وجلَّ يقهر المتجبِّر والمتكبر .

عود على بدء ، العظيم ؛ قد لا تُدركه عامّة العقول ؛ لكنَّ بعض العقول تدركه ، فقل لأحد الناس ما هي الذرَّة ؟ يقول لك : ذرَّة قمح ذرة تراب . لا . . الذرَّة ؛ شيء موضوعه كبير جداً ، وهو موضوع في علم الفيزياء ذو تعقيد كبير جداً ، كلّ عناصر الكون ذرَّات ، وهي تتكوَّن من نويّة موجبة الشحنة ، وجسيم سالب الشحنة ـ إلكترون ـ ومدارات يدور فيها هذا الإلكترون ، الذرَّة : العقول البسيطة لا تحيط بها ، أما جهابذة العلوم فتعرف عنها الشيء الكثير .

فالشيء العظيم هو الذي تعرفه بعض العقول . . الذي تستحيل أن تحيط به كلُّ العقول .

المعنى الثاني . . إن رأيت أنَّ الله عظيم ؛ ينبغي أن تُعظِّم أمره ،

إن رأيت أنَّ الله عظيم ؛ ينبغي أن تتلاشى أمامه فأنت صغير صغير ، إن رأيت أنَّ الله عظيم ، ينبغي أن تعظم أمره ، أن تعظِّم شعائره ، أن تعظِّم كتابه ، أن تعظِّم رسوله ﷺ ، أن تعظِّم الذي آمن به ، فالناس من يعظِّمون ؟ الأقوياء والأغنياء أما المؤمن الضعيف ، فيقولون لك عنه إنَّه درويش أي مغفل ، لكن المؤمن الراقي يعظِّم المؤمنين ولو كانوا فقراء ، ولو كانوا ضعفاء ، النبيُّ سيِّد الخلق يروى عنه : « **اللهمَّ إليك أشكو ضعف قوَّتي وقلَّة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين! إلى من تكلني ؟ إلى عدو يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمري ؟ إن لم تكن ساخطاً علي فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات والأرض وأشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تحل علي غضبك و تنزل علي سخطك ولك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك** » .

سيِّد الخلق ﷺ لما قدم الطائف سخروا منه وضربوه بالحجارة وكذَّبوا دعوته ، وقال له أحدهم : يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك ، وقال الثاني : ألم يجد الله إنساناً غيرك يبعثه رسولاً ؟! وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، وهؤلاء هم عبد ياليل ومسعود وحبيب بنو عمرو بن عمير .

إن رأيت أنَّ الله عظيم فعليك أن تعظِّمه ، تُعظِّم أمره ، تعظِّم نهيه ، تعظِّم كتابه ، تعظِّم نبيَّه ﷺ ، تعظِّم المؤمنين ، تعظِّم الذين يُلقون العلم على الناس ، لا تستخفَّ بهم ، لا تنهش أعراضهم ، لا تُحقِّرهم ، فتجد شخصاً يتلذذ إذا حجَّم إنساناً آخر له دعوة إلى الله ، يظُنُّ أنَّه يفعل شيئاً عظيماً ويقول لك : صغَّرته . ففي

الحقيقة هو الصغير ، فلو أنه عرف الله لعظَّم أولياءه ، فقد قال تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس : ٦٢ـ٦٣] .

فلو كنت راكباً في سيّارة عامّة وصعد إليها رجلٌ له زي إسلامي أجلسه مكانك وقف باحترام فأنت تعظِّم الدين لا تعظِّم شخصاً ، فإذا رأيت إنساناً له مظهر دينيّ ، أو مكانة دينيّة ، لا ينبغي لك أن تحقره وتصغّره هذا مما يعاقبك الله عليه ، هذا الذي يقع في أعراض العلماء يذُمُّهم يطعن بهم ، يصغّرهم دون أن يبالي ؛ فيعاقبه الله عقاباً شديداً لتماديه وتطاوله .

فأولاً يجب أن تعظم الله ، تعظم كتابه ، ورسوله ﷺ وأمره ونهيه ، وتعظِّم شعائره ، والدليل على ذلك قوله تعالى :

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج : ٣٢] .

وكذلك أن تعظِّم المصحف فهو كتاب الله تعالى ، وليكن في مكان عالٍ مرموق في البيت ، لا أن تضعه في أماكن مبتذلة ، تعظيم المصحف دليل تعظيمك لله . تعظيم الصلاة دليل تعظيمك لله . تعظيم الأمر والنهي دليل تعظيمك لله عزَّ وجلَّ ، هذا الموقف الثاني الذي ينبغي أن يقفه المؤمن حينما يؤمن بالله العظيم .

بعض العلماء تكلَّموا على أدب المؤمن مع الله العظيم ، فذكروا أنَّ من غلب على عقله تعظيم الله عزَّ وجلَّ ، خضع لهيبته ، ورضي بقسمته ، ولا يرضى غيره عِوضاً ، ولا يُنازع له اختياراً ، ويبذل في رضاه كلَّ مستطاع ، لأنَّ من أدرك عظمة ربّه ، صغرت عنده الدنيا بما فيها ، فإذا أهمَّه أمرٌ قال : يا عظيم .

في صحيح مسلم من حديث أنس أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين فأعطاه إياها فأتى قومه فقال : أي أسلموا فو الله! إن محمداً ليعطي عطاء من لا يخشىٰ فاقة الفقر .

إن عظَّمت الله عزَّ وجلَّ حقَّ التعظيم ، يستوي عندك التبر والتراب ، تبذل الشيء الكثير بلا وجل من أجل الله عزَّ وجلَّ .

وبعد فمن هم العظماء من العباد ؟ أنبياء الله ، وأولياؤه ، والمؤمنون ، هؤلاء هم العظماء . . أما بيكاسّو الرّسام الفنان الذي بلغ ثمن لوحته مئة مليون . فليس عظيماً . .لأن العظيم ينبغي أن يكون عند الله عظيماً ، فهناك رسَّامون وأصحاب فنون ، وملك الحديد في أمريكا ، وملك الصلب ، وملك البترول وغيرهم عظماء عند أهل الدنيا . . لكن العظيم هو النبيّ ، والعظيم هو الوليّ . والعظيم هو الذي آمن بالله عزَّ وجل ، هؤلاء الذين يستحقّون أن تقول عن أحدهم فلان عظيم .

وفي نهاية البحث فإنّي أنبه على معنيين اثنين ، أن تتلاشى نفسك أمام عظمة الله وأن تُعظِّم أمر الله ونهيه وكتابه ونبيّه وأولياءه ، وإذا كان لأحد من الناس دعوةٌ إلى الله عزَّ وجلَّ فلا ينبغي لك أن تطلق لسانك لتنال منه ، وهذا من لوازم إيمانك بالله عزَّ وجلَّ ، فلو أن شخصاً له مظهرٌ إسلامي فمن المفروض عليك أن تحترمه احتراماً للدين .

هذه بعض المعاني التي تنطوي حول اسم الله العظيم ، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علّمنا وأن يُلهمنا الخير .

* * *

الحَكَمُ

من أسماء الله الحُسنى الحكم . والحَكَم بفتح الحاء والكاف . والحَكَمُ ، والحاكم بمعنىً واحد ، إلا أنَّ فقهاء اللغة يقولون : أيَّة زيادة في المبنى ؛ لا بدَّ من أن يقابلها زيادةٌ في المعنى .

أصل الحَكَمِ المنعُ . حكمه أي منعه . والحكمةُ : هي الحديدة التي تمنع الفرس من السفاهة . هكذا جاء في معاجم اللغة . والحَكَمُ اسمٌ من أسماء الله الحُسنى كما جاء في حديث رسول الله ﷺ ، ولا تنسَ أنَّ الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

أسماؤه حُسنى ، وصفاته فُضلى ، وكمال الله مُطلق ، أيُّ اسم إن بحثت عن وجوه الكمال فيه فقد أصبت ، وإن خطر ببالك غير ذلك فقد أخطأت ، قال بعض العلماء : « الحَكَم ؛ صاحب الفصل بين الحقِّ والباطل » .

أحياناً الباطل له جولةٌ وصولة ، ربما سمح الله له أن يعلو ، ربما أرخى الله له الحبل ، لكن إلى أمد . لأنَّه حَكَم ؛ ولا بدَّ من أن يزهق الباطل ، لأنَّ الله موجود . لو أنَّ الباطل استشرى وامتدَّ وطغى وبغى إلى أمدٍ طويل ، هذه الفكرة تتناقض مع وجود الله ، أن يستشري

الباطل ، وأن يمتدَّ ويمتدّ وأن يطغى وأن يبغي ، أن يضع كلَّ الخطط فتنجح ، هذه الحقيقة تتناقض مع وجود الله ؛ لا بدَّ من أن يظهر الله آياته ، وما أكثر الآيات ، والآيات نراها كلَّ يوم .

والله سبحانه وتعالى ، ألقى على النبيّ ﷺ هذا القرآن الكريم ، فهو آياته ، وكلامه . وخلق الكون ، والكون آياته . وأفعاله كلّه آياته . أفعاله كلُّها تدلُّ على كمالاته ، على عدالته ، على حلمه ، على رحمته ، على قدرته ، على علمه ، فلك أن تعرف الله من آياته الكونيَّة ، ولك أن تعرفه من آياته القرآنيّة ، ولك أن تعرفه من آياته التكوينيَّة .

صاحب الفصل بين الحقِّ والباطل. . أحياناً زوجان ؛ كلٌّ يدَّعي أنَّه مظلوم ، وكلُّ طرفٍ معه الحجج والبراهين والوقائع ، لكنَّ المظلوم فعلاً يوفِّقه الله ، والظالم يسحقه الله . . شريكان ؛ كلٌّ يدَّعي أنَّه على حق ، وأنَّ شريكه الآخر ظلمه ، ويأتي كل منهما بالحجج التي تؤيّد حقه ، وقد يفتري ويخترع أدلَّةً غير صحيحة ، يوهم الناس ، ولكنَّ الله هو الحكم . فالشريكان ؛ الظالم يُهلكه الله ، والمظلوم يوفِّقه الله . توفيق الله للمظلوم ؛ هو حُكْمُ الله فيه . إهلاك الظالم حُكْمُ الله فيه ، وكذلك زوجان افترقا ، توفيق أحدهما في زواجٍ آخر ، حُكْمُ الله فيه . هلاك الثاني في زواجٍ آخر ، حُكْمُ الله فيه .

إنسان يدَّعي أنَّه ورع ، وأنَّه على حق ، علامة حكم الله له أنَّه يوفِّقه ، وعلامة حكم الله على آخر مبطل أنَّه يخذله . . فالله صاحب الفصل بين الحقِّ والباطل ، بين البارِّ والفاجر .

قد يتوفّى أبٌ ويترك أولاداً ، أحد أولاده الأقوياء يأخذ المال

كلَّه ، ويحرم إخوته ، تدور الأيّام ، هؤلاء المظلومون إخوة ذاك الأخ الباغي الظالم ، يوفَّقون في أعمالهم ، وهذا الذي أخذ المال الحرام ، يُتلف الله ماله ، وأحياناً يُضطرُّ إلى أن يعمل عند أحد إخوته. . فالذي أخذ المال كلَّه وحرم إخوته منه ، يخذله الله ، ويتلف ماله ، فيُضطرَّ إلى أن يعمل عند إخوته الذين حرمهم من إرث أبيهم ، فالله هو الحَكَمُ .

وهناك حكم نهائي يوم القيامة ، لكنّ الحكم في الدنيا هو نصر الله أو خِذلانه ، توفيقه أو عدم توفيقه ، تيسيره أو تعسيره ، وما أكثر الشواهد ، حياتنا زاخرةٌ بهذه الشواهد. . الذي كسب مالاً حلالاً قليلاً ، يبارك الله له فيه . والذي كسب مالاً حراماً كثيراً ، يتلِفُ الله ماله . الذي برَّ والديه يهبه الله أولاداً أبراراً . والذي عقَّ والديه يهبه الله أولاداً عاقّين ؛ هذا حكم الله له .

فالله سبحانه وتعالى هو الحكم ، صاحب الفصل بين الحقِّ والباطل ، صاحب الفصل بين البارِّ والفاجر ، المجازي كلَّ نفسٍ بما عملت ، وهناك آيات كثيرةٌ جداً تؤكِّد هذا المعنى. . فقد قال تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] .

وقد قال تعالى :

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [السجدة : ١٨] .

وقال تعالى :

﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم : ٣٥ـ٣٦] .

مثلاً شابٌّ مؤمنٌ مستقيمٌ ، ويخاف الله ويرجو رحمته ، ويتحرّى

الحلال ، ويبحث عن زوجةٍ صالحة ، لا يكذب ، تراه ضابطاً لجوارحه ، ضابطاً لدخله وإنفاقه ، وشابٌ آخر متفلّتٌ لا عقيدة تردع ، ولا دين يمنع ، ولا استقامة ، ولا عبادة ، ولا حلال ولا حرام ، يفعل ما يشاء . فإذا تساوى هذان الشابّان في التوفيق وفي النصر والتأييد ، وفي التمتُّع في الحياة الدنيا . إن تساويا ولم يكن هناك فرقٌ بينهما ، هذه الفكرة تتناقض مع وجود الله ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ .

إنسان دخله حلال ؛ أيعقل أن يُعامل كما يُعامل صاحب الدخل الحرام ؟! إنسان ضبط سلوك أهله وأولاده وبناته ؛ أيعقل أن يُعامل من قبلهم كما يُعامل إنسان تفلّت من أوامر الشرع ، وأطلق لزوجته ولبناته العنان ؟

هذا مستحيل فالحَكَمُ توفيقه حُكْمٌ ، تيسيره حكم ، تعسيره حكم ، إلقاء الأمن في قلب المؤمن حُكم . إلقاء الخوف والفزع في قلب المشرك حكم . أن يُقدِّر للإنسان حياةَ ضنك ؛ معيشةً ضنكاً حكم ، أن يقدِّر للإنسان حياةً طيّبة حكم ، أن ينصرك حكم ، أن يخذلك حكم ، إن دعوته فاستجاب لك فدعاؤك صادق ومخلص ، وإن لم يستجب فهناك سببٌ حال دون أن يُستجاب لك حكم .

وما أكثر . . . ما كنت أكثر المثل تلو المثل : أب عنده ولدان ، ولد بار ، والثاني عاق ، فإذا دخل البار رحَّب به وسأله عن أحواله كأن يقول : أين أنت وكيف حالك ؟ وكيف أولادك ؟ وكيف أهلك ؟ هل تناولت طعام الغذاء ؟ أما إذا دخل العاق يتمنّى ألا يدخل عليه ، فانكماش الأب من ولده العاق حكم ، وترحيبه بولده البار حكم ،

التوفيق حكم والتعسير حكم ، إلقاء الأمن في قلب المؤمن حكم ، وإلقاء الفزع في قلب المشرك حكم .

لكن هذا المعنى أوسع مدى وأرحب بينَ مخلوقاتِ الله سبحانه . . ولربما استعصى على المرء أن يصدق أنَّ شاةً قرناء لو نطحت شاةً أُخرى جلحاء لاقتصَّ منها ، أبداً ، الحكم بين مخلوقاته لا بين بني البشر فحسب ، ولا بين الإنس والجنِّ فحسب ، بل بين كلِّ مخلوقاته أياً كانوا ، اقرأ إن شئت قول الله تعالى :

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾

[آل عمران : ١٧٩]

مؤمن مخلص ، مؤمن مقصِّر ، هل هما عند الله سيّان ؟ لا . . لابدَّ من أن يُميِّز الله بينهما ، يضع الأول في ظرف فيتألَّق ، يضع الثاني في ظرف فيسقط ، امتحنهما وفرَّق بينهما .

المميِّز بين الشقيِّ والسعيد بالعقاب والثواب ، « **ما من مخلوقٍ يعتصم به من دون خلقه ؛ يعرف ذلك من نيَّته ، فتكيده أهل السموات والأرض ، إلا جعل له من بين ذلك مخرجاً ـ فأن يجعل الله له من بين ذلك مخرجاً حكم ـ وما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دونه يعرف ذلك من نيَّته إلا جعل الأرض هويّاً تحت قدميه ، وقطَّع أسباب السماء بين يديه** » ، أن يجعل الأرض هويّاً تحت قدميه حكم نعم ، هو حكم .

قال أحد العلماء : « **الحَكَم ؛ هو الحاكم المحكِّم ، والقاضي المسلَّم ، لا رادَّ لقضائه ، ولا معقِّب لحكمه** » .

في الدنيا قد يحكم القاضي ، ولكنَّ محكمة النقض تنقُض حكمه ، وقد يحكم رئيس محكمة النقض ، ولا يُصدَّق حكمُه ،

لكنَّ الله سبحانه وتعالى لا معقِّبَ لحكمه ، وإذا أراد الله بقومٍ سوءاً فلا مردَّ له ، لا تعقب لحكمه .

كنت قد ذكرت ، ولعلي ذكرته في كتاباتي وأحاديثي أكثر من مرة : أنَّك لو التقيت رسولَ الله ﷺ وهو سيِّد الخلق وحبيب الحقّ ، وعرضت عليه مشكلتك ، وكانت خصومةً بينك وبين أحد الناس ، وانتزعت من فمه الشريف حكماً لمصلحتك ، ولم تكن محقّاً لم تنجُ من عذاب الله ، فمن هو الحَكَم إذاً ؟ هو الله .

قال العلماء : « **الحكم ؛ هو الذي لا يقع في وعده ريب** » ، إذا وعد وفىٰ . . لأنَّ ربنا عزَّ وجلَّ يطمئننا ، إذا حدَّثنا عن المستقبل ، جاء الفعل ماضياً ففي قوله تعالى :

﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ [النحل : ١] .

﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ . . لقد جاء . . ﴿ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ ، معنى ذلك أنَّه لم يأتِ ، لكن ليقين وقوعه أتى ، وقال تعالى :

﴿ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي ﴾ [المائدة : ١١٦] .

لم يقل الله بعد . . : فالحكم إذاً ؛ هو الذي لا يقع في وعده ريب ، ﴿ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴾ ، ﴿ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ ﴾ ، ولا في فعله عيب . . أكرر : لا في وعده ريب ، ولا في فعله عيب .

« **والحكم ؛ هو الذي حكم على القلوب بالرضا والقناعة** » . . هذه الدنيا بمنزلة مرحلة إعداديَّة بالنسبة للحياةِ الأبديَّة ، والمؤمن عرف أنَّها حياةٌ دنيا ، حياة إعداد ، حياة تمهيد ، لذلك رضي عن الله ، رضي عن حياته ، عن عقله ، عن إمكاناته ، عن دخله ، عن بيته ، عن زوجه ، عن أولاده ، عن بناته ، فهو راضٍ . . من الذي ألقى في قلبه

الرضا ؟ الله سبحانه وتعالى ، لقربه من الله ألقى في قلبه السكينة والرضا .

قال : « **الحكَم ؛ هو الذي حكم على القلوب بالرضا والقناعة ، وعلى النفوس بالانقياد والطاعة** » .

من بعض معاني هذا الاسم العظيم : الحكم . . النّافذ حكمه ، فالإنسان أحياناً يصدر تعليمات فلا تنفَّذ ، أو تنفَّذ في مركز المدينة ، وفي أطرافها لا تنفَّذ ، ما أكثر التعليمات التي تصدر والتي لا تنفَّذ . فبالطبع ليس كلُّ إنسان حكمه نافذ . ولو أنَّ الإنسان أراد أن ينفذ حكمه ، لاحتاج إلى جهاز كبير جداً ، يعني الساعة الثالثة في منتصف الليل لا يوجد شرطي مرور ، فإذا كانت الإشارة حمراء يمكنه أن يتجاوزها ويتخطّاها ، وبذلك نكون قد خرقنا حكم قانون السير ، فمن غير المعقول وضع شرطي عند كلِّ إشارة ليلاً ونهاراً . إذاً الحكم لم يُنَفَّذْ ، فالإنسان أضعف من أن يُنفِّذ حكمه ، أما الله سبحانه وتعالى ، فالحكم النافذ حكمه ، ولا يحول دون تنفيذه حائل .

لذلك عظمة الدين . . أنَّ أساسه الوازع الداخلي ، لأنَّ المؤمن يعلم أنَّ الله معه ويراقبه ، وفي القصَّة المشهورة عن سيِّدنا عبد الله بن عمر والراعي . . قال له : بعني هذه الشاة ، قال : ليست لي ، قال : خذ ثمنها ، قال : ليست لي . . والله إنني في أشدِّ الحاجة إلى ثمنها ، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدَّقني ، فإني عنده صادق أمين ؛ لكن أين الله ؟

وإني أعتقد أنَّه ما من نظامٍ وضعيٍّ ، إلا ويعتمد على الرادع لا على الوازع . والردع مرتبط بأشخاص ، أو بأجهزة ، أو بآلات ،

يعني من الممكن أنه إذا انقطعت الكهرباء في إحدى المدن التي توصف بالرقي ، والمجتمع الحضاري ، فمن الممكن أن ترتكب في ليلةٍ واحدة مئتا ألف سرقة ، لقد انقطعت الكهرباء في إحدى مدن الغرب ولمدّة ساعاتٍ معدودة وارتكبت مئتا ألف سرقة في تلك الليلة ، فلا يوجد الوازع ، ولكن هناك الرادع . والرادع أساسه المراقبة ، فلمّا انقطعت الكهرباء أُلغي الرادع فتفلّتت النفوس ، أمّا عظمة هذا الدين فهي أنَّه مبني على الوازع .

أرسل لي أخٌ أراد ألا أعرفه ، رسالةً قال لي فيها : والله لقد أرجعت لورثةٍ عشرين مليون ليرة ، وهم لا يعلمون عنها شيئاً ، وقد مات أبوهم فجأةً وأبوهم من النوع الذي لا يُعلِم عن أمواله إطلاقاً ، وقد رددت المبلغ لهم كاملاً . ما الذي جعله يردُّ هذا المبلغ ؟ الوازع أم الرادع ؟ فالرادع غير موجودٍ ، فليس هناك إيصال بالمبلغ ، وليس مداناً بشيءٍ أمامهم إطلاقاً ، ولا هناك علمٌ لأحد بالمبلغ ، ولا عند أحدٍ خبرٌ أبداً ، لكنَّ الوازع الديني حمله على أن يردَّ هذا المبلغ .

تجد عند المؤمنين مواقف لا تصدَّق ، لكنها معقولةً جداً ؛ لأنَّ المؤمن يراقب الله عزَّ وجلَّ . إنسان متزوج شعرت امرأته كأنَّه متزوِّج من أُخرى ، هكذا شعرت وبعد أن تقصَّت فإذا توقُّعها في محلِّه ، ولم تفاتحه في هذا الأمر ، ثم توفي هذا الزوج ؛ فمن شدَّة ورعها أرسلت حصَّة ضَرَّتها بعد الوفاة ، ومن شدَّة ورع الثانية قالت : والله طلَّقني قبل أن يموت . ولم تأخذ شيئاً ، هذا هو الإسلام .

الحكَم ؛ هو النافذ حكمه ، الذي لا رادَّ لقضائه ، ولا معقِّب لحكمه ، والذي يفصل بين الحقِّ والباطل .

ولدى متابعة شرح هذا الاسم الحكم تثور لدينا نقطةٌ مهمّة جداً . . فلو أنَّ أباً ارتكب ابنه غلطاً ما ، فضربه ولم ينطق ببنت شفة ، فالضرب لم يُفِدْ . . فمن لوازم إقامة العدل ، ومن لوازم التربية الصحيحة ، أن يُبيِّن الأب لابنه لماذا ضربه ، ماذا فعل ؟ ، فعل كذا وكذا فاستحقَّ العقاب ، لكن قال العلماء : الحكم ؛ هو الذي يبيِّن لكلِّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ أو شرٍّ ، كيف يبيِّن ؟ . . أحياناً الإنسان يُلقى في رُوعه ، فعندنا وحي للأنبياء ، وهناك وحي إلهام فقد قال تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [القصص : ٧] .

وهناك وحي غريزة ، فقد قال تعالى :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [النحل : ٦٨] .

وأيضاً هناك وحي أمر لقوله تعالى :

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة : ٥] .

أما الوحي إلى النبيّ ؛ فهذا وحي الرسالة ، وليس لنا علاقة به في بحثنا هذا ، لكن الإنسان تأتيه أحياناً مصيبة ، ويلقى في قلبه أنَّها من أجل كذا فيعرف حقيقة ما يجري له ولعله يعتبر ! .

فهناك إنسان خالف مخالفة بسيطة ، فبحسب ثقافته الدينيّة ، وأقوال أساتذته أنّه لا بدَّ له من مصيبة فبدأ ينتظر ، فصحته سليمة ، ولا شيء حدث لأولاده وزوجته ، فلم يصبه شيء على الرغم من مخالفته البسيطة ، ففي الصلاة ناجى ربَّه فقال : يا ربِّ ، لقد عصيتك فلم تعاقبني . قال : وقع في قلبه ، أُلقي في قلبه ؛ أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدرِ ، ألم أحرمك لذّة مناجاتي ؟

وهناك أخ من إخواننا لديه معملٌ بسيطٌ للملابس ، زاره شخص من المسجد ليشتري بعض القطع من هذه الألبسة ، والمعمل يبيع بالجملة ، فهذا الطلب رآه مهيناً ، فلا يبيع أربع قطع ، فقال له : أنا لا أبيع بالمفرَّق . يقول صاحب هذا المعمل : والله ثلاثون يوماً متواليةً ، لم يدخل معملي إنسانٌ ، ثم وقع في قلبه لماذا لم تبع فلاناً ؟

فمعنى الحَكَم : الله عزَّ وجلَّ مربٍّ ، يعاقب ، ويُلقي في روع الإنسان لماذا فعل معك كذا وكذا .

أحد الأشخاص تأخر في أداء زكاة ماله ولم يؤدّها ، فسيّارته أُصيبت بحادث وهذا شيء طبيعي . أما أن تأتي أجرة التصليح مع الطلاء مع قطع الغيار مطابقة لمبلغ الزكاة بدقّة على مستوى الليرة الواحدة ، وهو نفسه مبلغ التصليح ، فهذا تعليم من الله . . بخلت بزكاة مالك فدفعت المال بلا طائل ، فالله عزَّ وجلَّ حكم يعاقب ، ويُلقي في رُوع الإنسان أنَّه فعل كذا وكذا وهذا جزاء وناله .

إن عملت عملاً طيّباً ، يُلقي في روعك أنَّه راضٍ عنك ، وإن عملت لا سمح الله عملاً سيّئاً ، يريك مناماً مخيفاً أحياناً ، أو انقباضاً فتشعر بضيق ، والدنيا كلُّها لا تسعه ، فضيق القلب ، أو انشراح الصدر هو من أساليب ربنا التربويّة ، فهو يربّي ، فإن كان عملك طيّباً تجدك منطلقاً ، والناس قد يكونون في همّ وغم ، وأنت مستثنى وليس لك علاقة بشيء ، وإذا لم يكن عملك طيباً فهناك انقباضٌ ومرارة وضيق .

أما من أجمل الآيات دلالةً والمتعلِّقة بهذا الاسم فهي قوله تعالى :

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ [الأنعام : ١١٤] .

أحياناً يكون مع شخص وثائق.. فيقول لك : إن لديه ومعه وثائق ، والقاضي يعرفه ، ويترافع عني المحامي فلان ، وما أدراك ما فلان ، وهو مطمئن ، فهل اتّخذ هذا الإنسان الله حكماً ؟ لا.. لقد اتخذ القاضي حكماً ، فقد يفاجأ بحكم غيرمتوقَّع ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ .

فالإنسان ليس له الحق في أن يحتكم إلى غير الله ، فإذا احتكم إلى غير الله فقد حَكَّم في أموره مَنْ ليس حاكماً ، فأحياناً الذي اعتمدت عليه يخيِّب ظنَّك ، وقد قال تعالى :

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴾[يونس : ١٠٩] .

لذلك أجمل دعاء أن تقول إذا ألمَّ بك مكروه ، أو نزلت بك ظُلامة : حسبي الله ونعم الوكيل .

فالله ينصرك ، والله عزَّ وجلَّ من أسمائه الحق.. فما معنى الحق ؟ معنى الحق أنّه لا بدَّ من أن يظهر الحقّ ، لا بدَّ من أن يظهر الحقّ لأنّه هو الحق ، فلا تخشَ أحداً ، فالعاقبة للمتقين ، والأيام تدور ولا تستقر إلا على إنصاف المظلوم ، وعلى إهلاك الظالم ، وعلى رفعة المؤمن ، وعلى إذلال الكافر ، وهذا التاريخ أمامكم .

أصحاب النبيّ ـ رضوان الله عليهم ـ الذين التفّوا حوله ، وعزَّروه ونصروه ، ودافعوا عنه ، وآمنوا به ، وأحبّوه ، وافتدوه بأرواحهم ، أين هم الآن ؟ في أعلى عليين ، والذين حاربوه وخذلوه وأخرجوه ، وقاتلوه وكذَّبوه أين هم ؟ في أسفل السافلين ، هذا هو التاريخ .

سيِّدنا عمر بن عبد العزيز.. كيف سمعته ؟ كالنجم في السماء ،

كلّ شيء له نهاية ، والعاقبة للمتقين ، وقد قال تعالى :

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

قال تعالى ﴿ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ ، معنى ذلك ؛ أنَّ هناك وقتاً أمضيته فيه ظلمٌ ويكون الإنسان مظلوماً . فالسيِّدة عائشة ألم تُظلم ؟ فلماذا أخَّر الله الوحي شهراً ؟ من أجل أن تُكشف النفوس . أخَّر براءتها شهراً بأكمله ، المؤمنون ظنّوا بأنفسهم خيراً ، والمنافقون روَّجوا هذا الخبر وأشاعوه وأرجفوا في المدينة ، الله عزَّ وجلَّ كشف النفوس على حقيقتها . لو أنَّ هذا الخبر أُشيع في المدينة ، وفي اليوم التالي جاءت البراءة ، فبذلك يكون أربع أخماس الناس لم يمتحنوا ، لكن لا ، والخبر كان ينتشر ويزداد انتشاراً ، والتهمة كبيرة جداً فهي تهمة الفاحشة! وهي زوجة رسول الله ﷺ وابنة الصدّيق ، الطاهرة العفيفة والبريئة ، ولكن الخبر شاع ، والنبي ﷺ مقيَّد ليس معه دليل إثبات ولا دليل نفي ، وزوجته ، وهي أقرب الناس إليه ، وهي عِرضه ، وما زال الخبر ينتشر ويشيع ، فانظروا إلى دقَّة قول الله ﴿ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ حتى حرف غاية . . أي أنّ هناك وقتاً فقد تكون مظلوماً ، وقد يكون المبطل هو الأقوى ، وكلمته هي النافذة ، وأنت لا أحد يسمع لك ، والناس كلُّهم ضدّك ، ممكن ذلك فعليك أن تصبر ﴿ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ ، وبعد ثلاثين يوماً نزلت براءتُها . . وفصل الله القضية واتضحت الحقيقة .

والآية تقول :

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ [التين : ٧ ـ ٨] .

كأنه من سياسة الله عزَّ وجلَّ مع عباده ، أو بعبارة أدّق : من سننه

مع خلقه ؛ أنَّه يُرخي الحبل للكل ، بقي بإمكانك أن تفعل ما تشاء ، أن تعصي الله ، وأن تقول كلاماً غير معقول ، وأن تأتي بالإفك والإثم ، وأنت قوي وصحيح ، والفحص الدموي مئة بالمئة ، مالك يزداد ، قوَّتك تزداد ، ولكن هذا الشيء لا يستمر إلى ما لا نهاية ، بل استمراره إلى حين ، فالحبل مرخى إلى أجل ، ففي أيَّة لحظة يُشدُّ الحبل ؛ فإذا أنت في قبضة الله .

والله هذه القصَّة تتكرر كلّ يوم. . . ومن الممكن لإنسان أن يؤذي الناس ، ويكون شديد الذكاء ، ويحتال عليهم إلى حين ، ثم يقع في شرِّ عمله ، ثم يفضحه الله ، فدائماً وأبداً ؛ الطائع لله هو الفائز .

هناك مقولة نصها : **« كفاك على عدوِّك نصراً ؛ أنَّه في معصية الله »** ، لو كنت أضعف منه وهو الأقوى ، لو كان هو الأغنى ، وأنت الأفقر . لو كان هو الأذكى ، وأنت الأقل ذكاءً . فالعاقبة للمستقيم .

دققوا في هاتين الكلمتين من الآية : ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ﴾ أي اصبر إلى أن ، فحتى حرف غاية . . ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ حتى يتصرف ، حتى يقصم ظهر الظالم ، وينصر المؤمن ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ .

سيِّدنا يوسف . . ماذا حكم عليه إخوته ؟ أن يقتلوه ، ألقوه في غيابة الجب ليموت . . بعد حين ماذا كانت النتيجة ؟ دخلوا عليه فإذا هو عزيز مصر ، مقامه كبيرٌ جداً ، فمصر كانت أكبر مملكة وهو رئيس وزرائها فقالوا له :

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف : ٩٠] .

وقال أبوه سيِّدنا يعقوب :

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف : ٦٧] .

لذلك : إذا أردت أن تكون أقوى الناس ، فتوكَّل على الله . وإذا أردت أن تكون أغنى الناس ، فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك . وإذا أردت أن تكون أكرم الناس ، فاتقِ الله .

وإليك بعض حُكم الله في حقِّ العباد :

الآن بعض أهم أحكام الله . . . قال العلماء : حُكم الله ؛ أنَّه ليس للإنسان إلا ما سعى . . الله عزَّ وجلَّ ليس عنده تمنِّيات ، ولا محاباة ، ولا تمييز فقد قال تعالى :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وقال تعالى :

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩-٤٠] .

هذا من حكم الله . . ومن حكم الله ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : ١٣-١٤] .

وكذلك قول الله تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾

[النحل : ٩٧]

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ . . حكم الله . . ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، وقال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ . . حكم الله . . ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ ، وقال تعالى :

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ . حكم الله . . ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ ، من لم يتبع هدى الله عزَّ وجلَّ ، حُكْمُ اللهِ ؛ يَضلُ عقلهُ ، وتشقى نفسهُ .

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ﴾ . . حكم الله . . ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ . . هذا أول حكم : من لم يتبع هدى الله عزَّ وجلَّ ، يندم على ما فات ويخشى من ما هو آت .

هذا هو القرآن بين أيديكم ، أي أنَّ الله عزَّ وجلَّ أعطانا أحكاماً جاهزة ، وقال تعالى :

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ . . حكم ، وقال تعالى :

﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ . . حكم ، وقال تعالى :

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ . . حكم .

ما قولكم أن نقرأ القرآن ونتبع أحكام الله في خلقه ، كلها قوانين فقد قال تعالى :

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس : ٣٣] .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر : ٣] .

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف : ٥٢] .

أيْ : أيّة خيانةٍ على وجه الأرض ؛ لا يمكن إلا أن تُكْشَفَ ، هذا حكم الله ، أيّة مخادعة تعود على صاحبها ؛ فقد قال تعالى :

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء : ١٤٢] .

وأيُّ مكرٍ يعود على صاحبه فقد قال تعالى :

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر : ٤٣] .

هذه كلُّها أحكام الله عزَّ وجلَّ . . إن الله مع الصابرين ، إن الله مع المتقين ، إن الله مع الصادقين ، فقد قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] .

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٤] .

حكم الله على المعتدين ؛ أنَّه لا يستجيب لهم لأنه لا يحبهمهذا حكم الله عزَّ وجلَّ . . فقد قال تعالى : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ .

قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

هذا هو حكم الله ، فالمؤمن . . مؤمن ومذعن ، قضيَّة أعطى الله فيها حكماً ، إن وضعتَ هذه القضيَّة على بساط البحث ، فلست مؤمناً . . ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ﴾ . هذا حكم الله عزَّ وجلَّ وكفى نعم أكرر وأقول : إن وضعتها على بساط البحث فلست مؤمناً .

عن الرَّبيع بْن نَافِعٍ عَنْ يَزِيدَ يَعْنِي ابْنَ الْمِقْدَامِ بْنِ شُرَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ شُرَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ هَانِىءٍ أَنَّهُ لَمَّا وَفَدَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مَعَ قَوْمِهِ سَمِعَهُمْ يَكْنُونَهُ بِأَبِي الْحَكَمِ ، فَدَعَاهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ فَلِمَ تُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ » ؟ فَقَالَ : إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِيَ كِلا الْفَرِيقَيْنِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَا أَحْسَنَ هَذَا فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ » ؟ قَالَ : لِي شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ اللهِ ، قَالَ : « فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ » ؟ قُلْتُ : شُرَيْحٌ ، قَالَ : « فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ » . [سنن أبي داود] .

هذا من لطف النبيِّ ﷺ فالله هو الحكَم ، وأنت لست حكَماً .

لِمَ تُكنى أبا الحكم ؟ لأنَّ قومي يحتكمون إلي وحكمي منصف ، فقال له الرسول ﷺ : ما أحسن هذا . . جيِّد . وعرف منه أسماء أولاده واسم أكبرهم شريح فسماه أبا شريح . . هذا من أدب النبيِّ ﷺ مع ربِّه . فهذا الاسم لله عزَّ وجلَّ ، هو الحكَم ، أما الإنسان فإذا صار حكماً أي صار قاضياً واستلم القضاء فهو أحد ثلاثة .

عن خَلَف بْن خَلِيفَةَ حَدَّثَنَا أَبُو هَاشِمٍ قَالَ : لَوْلا حَدِيثُ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : « **الْقُضَاةُ ثَلاثَةٌ اثْنَانِ فِي النَّارِ وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ ، رَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ جَارَ فِي الْحُكْمِ فَهُوَ فِي النَّارِ** » ، لولا أن النبي قال ذلك لَقُلْنَا : إِنَّ الْقَاضِيَ إِذَا اجْتَهَدَ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ . [سنن أبي داود] .

أي قاضيان إلى النار . . إنسان حكم بلا علم ، وإنسان حكم على علم ظلماً ، كلاهما في النار . . والذي عرف الحقَّ فحكم به فهو في الجنَّة .

أحدهم علَّق على هذا الموضوع قائلاً : اليوم : قاضيان في النار ، وقاضٍ في جهنَّم . أي لم يبقَ أحد من القضاة إلا ودخل النار إلا من رحم ربك ، على كلٍّ القضاء شيء مخيف ، لأنَّ الظلم ظُلماتٌ يوم القيامة .

اسم الله الحكَم ، يقتضينا أن نحتكم إلى الله ، فهذا أول موقف . . أما إذا حُكِّمنا . . فعلينا أن نحكم بالعدل ، يجب أن نحتكم إلى الله

لأنَّه يعلم كلَّ شيء ، يعلم السرَّ وأخفى ، ويقتضينا إذا حُكِّمنا في قضيَّة ألا ننحاز مع أحد .

. . أحد القضاة وكان معروفاً في مدينته أنَّه يُحِبُّ الرُّطب في بواكيرها ، طُرِق بابه ، فتح الغلام الباب ، رأى رجلاً معه طبقاً من رطب - وهذا شيء نفيس جداً في بواكيره ، وهو غالٍ كثيراً ، ومن نوع جيِّد - فرجع إلى القاضي قال له : يا سيِّدي بالباب رجل ومعه طبقُ رُطب . فقال له : صفه لي . قال : صفته كيت وكيت . فعرف أنَّه أحد المتخاصمين عنده ، فقال : رُدَّ الطبق إليه . بعد حين قابل الخليفة وطلب إعفاءه من منصب القضاء . قال : ولِمَ وأنت الورع النزيه العالم الفقيه المجتهد ؟ قال : لقد جاءَني قبل أيَّام رجل أهداني طبقَ رطبٍ ، وفي اليوم التالي جاء مع خصمه ليحتكما إلي ، تمنيَّتُ أن يكون الحقُّ مع صاحب الطبق الذي قدَّمه إلي ، هذا مع أنِّي رددته فكيف لو قبلته ؟ . . . كان القضاة هكذا يُحاسبون أنفسهم .

أنت حَكَم بين ابنتك وصهرك ، وتكلَّمت البنت وفق هواها ، فزمجرتَ وأرعدت وغضبت وقلت : هذا الصهر ليس عنده أدب ، وسوف أقوم بتربيته وحرمانه من زوجته ستة أشهر . . فهل سمعتَ منه قبل أن تحكم .

قال أحدهم لأحد الشيوخ : يا سيدي قد لطمني أحدهم كفاً ، فرددته عليه ، أَعَليَّ شيء ؟ قال له الشيخ : لا ليس عليك شيء . ثمَّ ظهر أنَّ الذي ضربه هو أبوه . فالفتوى على قدر الوصف .

فالقضاء دقيق . . سمعت من ابنتك حديثاً وتكلَّمت على زوجها في حديثها وأطالت ، ألا يقتضي الحكم العدل أن تسمع من زوجها ، ماذا

فعلت به ؟ سمعت من والدتك ، فاسمع من زوجتك ـ رأساً طلقها دون سماعها ـ فأنت أحياناً تكون حكماً بين زوجتك وأمك ، وبين ابنتك وصهرك ، هؤلاء أقرب الناس إليك ، أو تكون رئيساً لدائرة وعندك موظفان يتشاجران دوماً ، فإذا سمعت من واحدٍ منهم ، فاستمع للآخر ، ولا تعاقب على الفور بعدما سمعت من الأوّل ، فماذا تعلَّمنا من سيِّدنا سليمان ؟ فقد قال تعالى :

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [النمل : ٢٧] .

فإذا كنت حكماً يجب أن تحكم بالعدل ، وإن احتكمت فلا تحتكم إلا لله ، فكيف تقول لله : يا ربِّ أنا حكَّمتك ؟ كيف تحتكم لله ؟ ثم لا تنصاع للحق . الاحتكام لله يعني أن تنصاع لكتابه ، والاحتكام لرسوله يعني أن تخضع لِلسُّنَّةِ ، إما لكتاب الله ، وإما لسنَّة رسول الله ﷺ فقد قال تعالى :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

وعند النزاع في قضية ما ، . . . قال تعالى :

﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ . . فردُّوه إلى الله ، أي إلى قرآنه ، وإلى رسوله أي سنَّته . فإذا كنت مؤمناً ، فترُدُّ الأمر المتنازع فيه إلى الله ورسوله .

وبعد ، فإن التجربة والاطلاع على أحوال الناس أظهرت أنّه إذا كانت قضيَّته تُحلُّ بالقضاء المدني ، يقول لك أحدهم : نحن في بلد فيه قانون وقضاء ؛ فيذهب إلى المحكمة . وإذا كانت القضيَّة لا تحل في القضاء المدني ، ويعلم أنّها تحل عند العلماء ويذهب إليهم ويقول

لك : أنا أريد حكم الشرع . فلماذا تريد أن تحتكم مرةً للشرع ، ومرَّة لِلقانون ؟ إذا كنت مؤمناً صادقاً ، تحتكم إلى الله دائماً ، إلى كتاب الله وإلى سنَّة رسوله ﷺ . واعلم أن الله سبحانه قال : ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون . فالزم كتاب الله وسنة نبيِّهِ .

* * *

الشَّهِيدُ

مـن أسمـاء الله الحُسنـى الشهيـد . . وقـد ورد هـذا الاسـم فـي الأحاديث التي عدد بها النبيّ ﷺ أسماء الله الحُسنى .

فالشهيد ؛ اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ، والنبيُّ - ﷺ - وهو سيِّدُ الخلق ، وحبيبُ الحق سمَّاه الله في كتابه الكريم شاهداً وشهيداً ، فقد قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٤٥] .

وقال تعالى :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾

[النساء : ٤١]

والذي يعطي ويهب أثمن ما يملك في سبيل الله ، وفي ساحات القتال ، يسُمى شهيداً . . والجود بالنفس أقصى غاية الجود ، والله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم حينما حدّثنا عن بذل المال والنفس في سبيله قدَّم المال على النفس فقد قال تعالى :

﴿ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

في معظم الآيات التي تحدَّثت عن البذل ، جاء بذل المال مقدَّماً

على بذل النفس لأنَّه أسهل ، وفي آية واحدة ، قال تعالى :

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ [التوبة : ١١١] .

هنا تقديم أهميَّة ، قضيَّة بيع قطعي فبدأ بالأهم فالمهم .

معنى شهيد صيغة مبالغة لاسم الفاعل ، شَهِد ، يشهد ، شاهد . . الشهيد صيغة مبالغة اسم الفاعل فمعنى شَهِدَ أي حضر ، شهد هذا الحفل فلان ، أي : حضره فلان . شهد هذه الصفقة فلان ، أي : حضرها فلان . شهد هذه الوليمة فلان ، أي : حضرها فلان . فالشهيد : هو الذي يشهد أي : يحضُر . . والذي يحضُر يعلَم ، والذي يعلَم يُعلِم .

فهناك معان ثلاثة تُستفاد من كلمة شهيد ؛ . . حضر ، وعَلِم ، وأعلَم . فالله سبحانه وتعالى بهذا المعنى شهيد ، مع كل مخلوق أجل ، مع كل مخلوقٍ شهيد بعلمه ، فقد قال تعالى :

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] .

﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ . . إن كنتم في أطباق الجو ، أو تحت أمواج الماء ، أو في الصحراء ، أو على ظهر اليابسة ، في المدن ، في السفر ، أين ما كنت الله معك . قال العلماء : هذه معيَّةٌ عامَّة ، أي أنَّ الله جلَّ جلاله مع المخلوقات بعلمه .

وقالوا : وهناك معيَّةٌ خاصَّة فقد قال تعالى :

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ١٩] .

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٤] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

معيَّة الله الخاصَّة أي : معهم مؤيِّداً ، وناصراً ، وحافظاً ، وموفِّقاً . إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ فلا أحد معك ، أقرب الناس إليك يتنكَّر لك ، لكنّ الله معكم مؤيِّداً ، معكم ناصراً ، معكم موفِّقاً ، معكم حافظاً ، فقد قال تعالى :

﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف : ٦٤] .

دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في المرضة التي مات فيها فقال له ياأمير المؤمنين! إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال وتركتهم عالةً ولا بد من شيء يصلحهم فلو أوصيت بهم إلي أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مئونتهم إن شاء الله فقال عمر أجلسوني فأجلسوه ، فقال : الحمد لله ، أبالله تخوفني يا مسلمة ؟ أما ما ذكرت من أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة فإني لم أمنعهم حقا هو لهم ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وإنما بنو عمر أحد رجلين : رجل اتقى الله فجعل الله من أمره يسراً ورزقه من حيث لا يحتسب ، ورجل غيَّر وفجر فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه ، ادعوا لي بني فدعوهم ، وهو يومئذ اثنا عشر غلاماً فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه حتى اغرورقت عيناه بالدمع ثم قال بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم ، يا بني! إني قد تركتكم من الله بخير إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله يا بني ميلت رأيي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً

واحداً في النار قوموا يا بني عصمكم الله ورزقكم ، قالوا : فما احتاج أحد من أولد عمر ولا افتقر .

وذكر أن أبا جعفر المنصور قال لعمرو بن عبيد عظني ، قال : بما رأيتُ ، أو بما سمعتُ ؟ فقال : بل بما رأيتَ ، فقال : توفي عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وخلف أحد عشر ابناً ، وبلغت قيمة تركته سبعة عشر ديناراً ، فكفن بخمسة دنانير واشتري له موضع قبره بدينارين وأصاب كل واحد من أولاده ثمانية عشر قيراطاً ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابناً فحصل لكل واحدٍ من ورثته مما خلفه عشرة آلاف دينار ، فرأيت رجلاً من أولاد عمر بن عبد العزيز قد حمل على مائة فرس في سبيل الله ، ورأيت رجلاً من أولاد هشام يسأل الناس .

فالله عزَّ وجلَّ يكون مع المؤمن حافظاً ومؤيِّداً وناصراً وموفِّقاً ، وما توفيقي إلا بالله . ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ وقد قال تعالى : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ ﴾ [آل عمران : ١٦٠] .

وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٢] .

أيَّد . . ونصر . وحفظ . . ووفَّق ، هذه هي المعيَّة الخاصَّة ، إلا أنَّ المعيَّة الخاصَّة مشروطة فقد قال تعالى :

هناك ثمن ﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ .

إذاً ؛ معنى شهيد أي : معك . . روي أن : « **يا موسى أتُحبُّ أن أكون جليسك** » ؟ قال : كيف ذلك يا ربّ وأنت ربُّ العالمين ؟! قال : « **أما علمت أنني جليس من ذكرني ، وحيث التمسني عبدي وجدني** » .

هو معك ، إن ذكرته هو معك .

كـــن مـــع الله تـــرَ الله معـــك واتـــرك الكُـــلَّ وحـــاذر طمعـــك
وإذا أعطـــاك مـــن يمنعـــك ثـــم مـــن يعطـــي إذا مـــا منعـــك

الشهيد مع كل مخلوق بعلمه ، ومع المؤمن بتوفيقه ، وحفظه ، وتأْيِيده ، ونصره. . فهو شهيد ، قال تعالى :

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ [طه : ٤٥] .

فرعون ، كان قَتْلُ الإنسانِ عنده كقتل ذبابة ، ولكن الله تعالى قال لكل من سيّدنا موسى وأخيه هارون :

﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦] .

أنا معكما. . ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ وكل مؤمن إن شعر أنَّ الله معه ، يشعر بقوّة لا حدود لها .

قال الصديّق لرسول الله ـ ﷺ ـ وهما في الغار : يا رسول الله : لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا . فقال : « يا أبا بكر ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما » ؟ وهي معية الله عزَّ وجلَّ ، الإيمان. . أفضل الإيمان ؛ أن تعلم أنَّ الله معك حيثُ كنت .

إذاً الشهيد هو معك. . معك عِلماً إذا كنت مخلوقاً عاديّاً . ومعك حافظاً ، وناصراً ، وموفِّقاً ، ومؤيِّداً ، إن كنت مؤمناً ، أو صابراً ، أو متَّقياً .

من لوازم الشهيد ؛ أنَّه يعلم. . ومن لوازم الشهيد ؛ أنَّه يُعلِم . حَضَرَ ، عَلِم ، يُعلِم. . هو حاضرٌ مع كلّ مخلوق ، في كلِّ زمانٍ ومكان ، وهو عالمٌ به .

قال بعض العلماء : « **الشهيد ؛ الأمين بشهادته ، الأمين في أداء شهادته** » أي شهادة دقيقة جداً ، فأحياناً الإنسان قد يحضر ويقول لك : والله لم أشعر ماذا فعلوا ، كنت معهم ولكنِّي غفلت عنهم . إذا كان الله عزَّ وجلَّ شهيداً فلا تخفى عليه خافية ، ولا حركة ، ولا سكنة ، ولا خاطر ، ولا صراع أبداً فنفوس العباد مكشوفةٌ له ، فقد قال تعالى :

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] .

وبعد ، فإنّ المعنى الفرعي الآن : الشهيد ؛ الأمين في شهادته ، أي : لا يغيب عن علمه شيء ، البالغ الغاية في علمه بالأمور الظاهرة . فهو شهيد حاضر ، وشهيد يَعلم ، والآن الشهيد يُعلِم . . فقد قال تعالى :

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

هنا السؤال كيف يشهد ؟ . . إنسان من جنس البشر ، يشهد لك بلسانه ؛ فيقول لك : أنا كنت في المكان الفلاني ، وفعلاً حدث ما حدث ، يشهد لك بلسانه ؛ ولكنَّ الله جلَّ جلاله كيف يشهد لك ؟ ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

قال : عرفت الله من نقض العزائم . الإنسان الغافل الشارد المشرك ؛ يأخذ بكلّ الأسباب ويعتمد عليها ، ويظُنُّ أنَّ الأمور تجري على ما يريد ، ثم يفاجأ أنَّ الله أبطل كلَّ مسعاه . .

ألا ترون في كلّ مكانٍ وزمان ؛ أنَّ الله يشهد لخلقه ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

﴿هُوَ﴾ أي بالتعبير المألوف ـ لا حيلة لِذَكِيّ مع الله ـ ، النجاح بالتوفيق لا بالذكاء . نجاح الإنسان بتوفيق الله ، وتوفيق الله باستقامته على أمره ، فالله يشهد .

وأمثلة على ذلك. . . أب توفّي وترك خمسة أولاد ، أكبر الأولاد أخذ كلّ الثروة ، كيف يشهد الله ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يوفّقُ المظلومين ويمحق الظالم ، أما بحسب قوانين الأرض ، فالذي استولى على كل المال يجب أن ينمو كلُّ هذا المال عنده ، والذي حُرِمَ منه ، يجب أن يعيش فقيراً بائساً ، يشهد الله للناس أنَّ الأمر بيده .

هو أخذ المال كلَّه. . أتلف الله المال وأتلف صاحبه ، والذي حُرِمَ منه وليس له إلا الله وفَّقه الله ، وكم من أخٍ استولى على كلِّ الثروة ، ثمّ عمل عند إخوته فيما بعد أجيراً فقد أتلف الله ماله كلّه !! وعلى هذا فقس ، يشهد الله لخلقه ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ، فالأمر بيده .

تجد الأقوياء. . يأتيهم بأس الله ـ جلَّ جلاله ـ ويدمِّرهم جميعاً والضعفاء ينصرهم . الأغنياء إن أدَّوا زكاة مالهم ، يبارك لهم في مالهم ، إن لم يؤدُّوا الزكاة يمحق مالهم .

الإنسان أحياناً لا يملك من الدنيا شيئاً ، لكن يملك استقامته ، فالله عزَّ وجلَّ يكرمه ويعلي مكانه ، يرزقه ، ينصره ، يؤيِّده . فعندما ينصر ربنا إنساناً ضعيفاً وفقيراً ، نَصْرُ اللهِ لهذا الضعيف الفقير شهادةٌ من الله لخلقه ؛ أنَّ الأمر بيده ، ليس بالمال ، ولا بالسلطان ، ولا بالذكاء ، لا بالحسب ، ولا بالنسب ، ولكن بطاعة الله عزَّ وجلَّ .

وها أنا ذا أوضح معنىً دقيقاً. . هناك بالحياة قواعد ماديَّة ، هذه القواعد الماديَّة تخرق ، فمثلاً : بحسب الحسابات المادية لو أقرضت

مئة ألف قرضاً ربوياً واستعدتها مئة وعشرين وهذه حسابات الآلة الحاسبة ، ولكن الله قال :

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [البقرة : ٢٧٦] .

أقرضت إنساناً مئة ألف . . وبحسب التضخُّم النقدي رُدّت لك أقلّ بعشرين ألف ، لكن ربنا عزَّ وجلَّ بألطافه الخفيّة يحفظ المال ، ويُنمّي المال ، ويحفظ صاحب المال ، يحفظ له أهله ، وأولاده ، وصحّته ، ويؤيِّده ، ينصره ، يوفِّقه ، فقد قال تعالى :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾ [البقرة : ٢٤٥] .

معناها أنَّ الله شهيد أي : يشهد . أي : يحضر ، وحاضر ، وعالم والآن يُعلم ، يُعلمنا أن الأمر بيده ، لا بذكائكم ولا بأموالكم ولا بأحسابكم ولا بأنسابكم ولا بتجمعاتكم ولا بكل ماتملكون ، الأمر بيد الله ، الله مع المحسن ومع الطائع ومع المستقيم ينصره ويؤيده لأنه شهيد ويشهد لنا .

يعني أقرب الأمثلة التاريخية . . النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أخرجه قومه إلى المدينة ؛ فقريش أقوى قبيلة في الجزيرة . . وكذلك فقريش لديها أموال وفيها أبطال وفيها عتاد وفرسان وعدد ، والنبي ﷺ ضعيفٌ مستضعف .

لم يستطع إنقاذ عمار بن ياسر من التعذيب يقول : « صبراً آل ياسر فإنَّ موعدكم الجنة » . لا يستطيع أن يتدخل ، وعندما هاجر هُدر دمه ، لمن كانت العاقبة ؟

فما معنى أنَّ الله شهيد ؟ أي أنَّ قريشاً بخيلها وصولتها وقوّتها

وفرسانها ومؤامراتها ، وشدَّة بأس رجالها ؛ دمَّرها الله عزَّ وجلَّ ، ونصر النبيّ ﷺ . . وهذا الشيء يتكرر .

أي أنَّك إذا أردت أن تكون أقوى الناس ، فتوكَّل على الله . فالله عزَّ وجلَّ شهيد . . حاضر ، عالِم ، مُعلِم . . شهيد ، يشهد لك .

فمثلاً . . تجد شاباً مستقيماً يعرف الله ويخافه ، ويتحرَّى الحلال ، ويرجو رضا الله ، ويخاف سخطه ، لا يعصيه ، يغُضُّ بصره ، يضبط لسانه ، يضبط سمعه وبصره ، لكنَّه فقيرٌ ، وتجد شاباً آخر ذا قوَّة ومنعة ومال وأهل ودعم ، الله عزَّ وجلَّ ينصر المستقيم ، ويُدمِّر المنحرف . ما معنى ذلك ؟ إنَّ الله يشهد . . ألم يقل الله عزَّ وجلَّ :

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] .

شيء دقيق المعنى جداً . . فكلام ربنا كقوله تعالى :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾

[النحل : ٩٧]

فهذا قانون سماوي ، زوال الكون ، أهون على الله من أن يُضيِّع مؤمناً . إنَّ هذا الإنسان القوي الكافر المنحرف ، الذي يخطط لمستقبلٍ رائع . تحقيق ما خطط له على المدى البعيد يتناقض مع وجود الله ؛ لذلك يفاجأ الإنسان بأحداث مذهلة .

فقِلاع عُمِّرت سبعين عاماً ، تهاوت كبيت العنكبوت . أليس هذا من فعل الله عزَّ وجلَّ ؟ ليريكم آياته ؟ الله شهيد يشهد لنا ﴿ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ العوام يستخدمون هذه الكلمة : « ما في غير الله . . الله كبير » ، فهذه الكلمات لها مدلول عميق . . يقولون لا إله إلا الله ، هو

المعطي ، هو المانع ، هو القابض ، هو الباسط ، هو المعز ، هو المذل ، هو الرازق ، هو الحافظ ، إلخ . . . فهذه الكلمات لها مدلول عميق ، فليس هناك سوى الله ، فهناك إنسانٌ قويٌّ جداً ويؤتى من مأمنه . . كقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : ١٢] .

الشهيد : هو الحاضر الذي لا يغيب عنه شيءٌ في ملكه . . فقد قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

والله قد قال لي ذات مرَّة أحدهم كلمة أعجبتني كثيراً قال : الحمد لله على وجود الله ووجوده يفوّت على أهل المكر مكرهم ، فأحياناً تجد الإنسان لئيماً يتجاهل إمكاناتك ، يتجاهل عطاءاتك ، يتجاهل ميّزاتك ، يضايقك ، ولكن الله شهيد ، اصنع المعروف مع أهله ومع غير أهله ، إن أصبت أهله أصبت أهله ، وإن لم تُصب أهله فأنت أهله .

إذا كنت تعلم أنَّ الله يعلم ، فليست هناك مشكلة إطلاقاً . يكفيك أنَّ الله يعلم . . فأحياناً يكون للإنسان عملٌ عظيمٌ لكنَّه لا يظهر . ويُعتَّم عليه بشكل مقصود فإذا احضر لم يعرف وإذا غاب لم يفتقد ، ولكن الله شهيد .

فإذا كان الله شهيداً ، فليست هناك مشكلة . . . الحمد لله على أنَّه يشهد كلّ شيء ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ، فلو أفترضنا أن موظفاً . . والمدير العام الذي بيده ترفيعه ، وزيادة رواتبه ، ودعمه ، وتقليده المناصب العليا ، يعلم إمكانات هذا الموظَّف ،

ويعلم عطاءاته ، ويعلم دقَّته في عمله ، فإذا كان الحاجب لا يعرف . . نقول عرف أم لم يعرف فذلك لا يضيره في شيء .

فأجمل كلمة قالها سيِّدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ عندما جاءه رسولٌ من معركة نهاوند ، فقال : حدِّثني ماذا حدث ؟ قال له : والله مات خلقٌ كثير . فقال له : من هم ؟ فذكر له بعض الأسماء . فقال له : من أيضاً ؟ فقال له : إنَّك لا تعرفهم . فبكى عمر وقال : ما ضرَّهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم .

أنت عملت عملاً طيِّباً ، والناس لم يقدِّروك . . ولم يقدِّروا عملك ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ، فعلامة المخلص ؛ أنه لا يبحث عن تقدير الناس ، ولا عن انتزاع إعجابهم . . لا بل يهمّه أنَّ الله يعلم وانتهى كلُّ شيء ، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي .

هو شهيد حاضر ويعلم . . . قال العلماء : إذا كان العلم مطلقاً فهو العليم . . شهيد يعني عليم علماً مطلقاً ، أما إذا أُضيف إلى الأمور الباطنة فهو الخبير ، أما إذا أُضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد .

الله يشهد ما ظهر ، وخبير بما بطن ، ويعلم ما ظهر وما بطن .

العلم مطلقاً شهيد ، العلم مطلقاً عليم ، العلم بظواهر الأشياء شهيد ، وببواطنها خبير .

بعض العلماء يقول : « الشهيد ؛ الذي لا يغيب عنه شيء ، ولا يعزُب عنه مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماء ، مطّلعٌ على كلِّ شيء ، مشاهدٌ له ، عليمٌ بتفاصيله » .

فأنت أحياناً تلتقي مع مدير عام بمؤسسة يعرف الأمور الكبيرة ، أما دقائق ما يجري فلا يعرفها ، ويقول لك ليس عندي علم . لكن

مقام الأُلوهيّة يقتضي أن يعلم كلَّ التفاصيل ، أدق أدق خواطر الإنسان يعلمها الله .

أحياناً الإنسان يعلن عن شيء ويُبطن خلافه . فيزوره شخص ويعلن أنَّ لهذه الزيارة سبباً ، كأن يقول : لقد بلغني عنك أنَّك مريض ، ويكون قد أتى في الحقيقة لأن له ديناً عنده ، وليطالبه به ، فأظهر بذلك شيئاً وأخفى شيئاً آخر . . ولكن الله عزَّ وجلَّ يعلم السرَّ وأخفى ، يعلم ما أعلنت ، ويعلم ما أسررت ، ويعلم ما خفي عنك . . ما خفي عنك أنت ذاتك والله سبحانه وتعالى هو الشهيد ؛ لأنَّه يشهد على الخلق يوم القيامة .

وبعد ، فأحدث طريقة في التحقيق أن تصوِّر المخالف وأن تعرض عليه الصورة ، فانتهى الأمر بذلك ولا يستطيع أن يتكلَّم بكلمة واحدة ، يقولون له : أنت في الوقت الفلاني وفي الشارع الفلاني خالفت . فلو قلت لهم : لا . . لم أكن هناك . أظهروا لك صورة سيّارتك ، وهذا هو التاريخ ، وهذا هو الشارع . فينتهي كل شيء . . فإذا عُرض على الإنسان عمله مصوَّراً ، يصمت .

فقال بعض العلماء : « **الله شهيد ، يشهد لعباده يوم القيامة ، يُشهدهم أعمالهم** » . . وهذا معنى جديد . . يُشهدهم أعمالهم فقد قال تعالى :

﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١٤] .

تفضَّل هذه أعمالك ، طلَّقت ظلماً ، قبضت هذا المال ظلماً ، دلَّست بهذه الصفقة ، أخفيت هذا العيب ، أكلت هذا المال ولا يحقُّ لك أن تأكله ، سهرت في المكان الفلاني ، أطلقت بصرك في المكان

الفلاني ، كل الأعمال ، وبالتعبير الحديث أعمالك مسجَّلة على هيئة فيلمٍ ملونٍ وناطقٍ مع التاريخ والساعات ، والمكان والزمان . تكلم . . ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ . . هذا معنى جديد ؛ يُشْهِدكَ أعمالك يوم القيامة .

لذلك ، إن علمت أن الله يراقبك ؛ فهذا أكبر دافعٍ لك على طاعة الله . . قال الله تعالى :

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٥٢] .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج : ١٧] .

بالمناسبة ؛ هل تصدق أنه من أجل أن تعلم ؛ أن الله يعلم ؛ هو علَّة وجودك على وجه الأرض فقد قال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

في الحقيقة ؛ أسماء الله تسعة وتسعون ، لكنَّ الله اختار من أسمائه كلها اسمين العلم والقدرة . إن علمت أن الله يعلم : وأنه سيحاسب ، وأنه قوي ، لابد من أن تستقيم على أمره .

أنا أضرب أمثلة كثيرة ؛ ممكن وأنت راكب مركبتك ، والإشارة حمراء ، والشرطي واقف معه دراجة ، وسيارة الضابطة واقفه فيها ضابط ، والقانون صارم ، والعقوبة شديدة ، وأنت إنسان عادي ليس لك قوة . . هل يمكن أن تتجاوز الإشارة ؟ لا ، فهذا شيء مستحيل ، إن علمت أن الله يعلم ، وسيحاسبك ؛ مستحيل أن تعصيه ؛ فإن عصيته فلضعف في علمك أنه يعلم ، أو لضعف في علمك أنه

سيحاسب ، أما إذا أيقنت أنه يعلم وسيحاسب ، لا يمكن أن تعصيه فهذا المعنى الثاني .

لو حللت المعصية تحليلاً علمياً . . الإنسان يتجاوَز الإشارة الحمراء الساعة الثالثة في الليل يقول لك : لايوجد أحد لأن الذي يحاسبك لايعلم ، وينطلق بسيارته غير عابىء بالإشارة الحمراء إذا كان أقوى من الشرطي ومن رؤسائه ، أما إذا كان ضعيفاً ، والشرطي يقف أمامه ، هل يستطيع أن يتجاوز الإشارة ؟ لا ، هذا قانون نفسي . . أي أنت لو علمت أن الله يعلم ، ولا تخفى عليه خافية . . وأنه سيحاسب ـ لا بدَّ من أن يحاسب ـ لا يمكن أن تعصيه ، فالله عز وجل شهيد ، حاضر ، عالم ، يُعْلِم .

ذُكِرَ اسم الشهيد في القرآن الكريم تسع عشرة مرة . . الله سبحانه وتعالى يقول في سورة النساء :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٣٣] .

كل حادث ، وكل أمر ، الله عزَّ وجلَّ شهيد ، ويعلم ، وسيفصل بين خلقه يوم القيامة . فأحياناً يكون الإنسان طليقَ اللسان ، ولديه قوَّة حجَّة ؛ ولو بالباطل فيقنع الآخرين ، مثل هؤلاءِ إذا كانوا منحرفين في حياتهم وكانوا معتدين على الآخرين ؛ الله عزَّ وجلَّ يسلبهم هذا لسلاح ، يقول تعالى :

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾ [يس : ٦٥] .

الله عزَّ وجلَّ شهيد . . وقال تعالى :

﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

[فصلت : ٢١]

وقال تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ ، هذه أول آية. . أي هو رقيبٌ عليكم .

فبربّكم ، إذا كنت بحضرة إنسان من علية القوم ، فهل تتكلَّم بأيّة كلمة أمامه ؟ إذا زارك ضيفٌ من علية القوم ، وهو شخصٌ محترمٌ ، عالم ، عميد الأسرة مثلاً ، مكانته كبيرة ، منصبه رفيع ، أخلاقه عالية ، أي أنه شخصٌ متفوّق ؛ إن في علمه ، أو في مرتبته ، أو إلى آخر الصفات. . فهو ضيفك وأنت أمامه ، فهل تتكلَّم بأية كلمة ؟ هل من الممكن أن تتكلَّم بكلمات بذيئة أمامه ؟ أيُمْكن أن تخاصم أهلك أمامه ؟ أيمكن أن تُطلق لسانك بالسباب أمامه ؟ إنسان من جنسك ولكن له مكانة ، فأنت إذا أيقنت أن اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد وهو معك فلا يمكن أن تفعل ، فأحد أكبر أسباب الانضباط شعور الإنسان أنَّ الله معه. . أفضل إيمان المرء أن يعلم أنَّ الله معه حيث كان ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي كان رقيباً عليكم .

وفي آل عمران يقول تعالى :

﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران : ٩٨] .

بعضهم يقول لك : دبرت الأمر وعملت كل ما ينبغي وأوقعته في الفخ ، أخفيت عليه العيب ، مرّتْ البضاعة بالرغم من العيب الخطير الموجود فيها! يظن نفسه ذكياً ، والله عزَّ وجلَّ ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ ، ﴿ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ أي شهيد ، حاضر ، يعلم يُعْلِم ، سيُجازي ، فمعنى ذلك أنَّك لم تكن ذكياً .

والله آلاف الوقائع والحوادث ، إنسان ظن أنَّ هذا العمل يخفى

على الله فعله ، وظن نفسه ذكياً ثم كُشف ودفع ثمنه غالياً ، ولقي جزاء عمله ، ودمَّره الله عزَّ وجلَّ ، معنى ذلك أنَّه لم يكن ذكياً .

أقول هذا مراراً . . الانحراف عدوان ؛ فقد يستمر ذلك إلى حين ، أما دائماً فلن يستمر ، لا بدَّ من أن يكشفه الله ، وأن يلقى صاحبه جزاء عمله في الدنيا قبل الآخرة ، وهذا من آيات الله ، هذا من دلائل قدرته عزَّ وجلَّ ، فقد قال تعالى :

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [يوسف : ٥٢] .

سيِّدنا عيسى ـ عليه وعلى نبيِّنا أفضل الصلاة والسلام ـ في سورة المائدة يقول الله سبحانه وتعالى سائلاً إيّاه ثمّ يجيب :

﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

[المائدة : ١١٧ ـ ١١٨]

في سورة النساء :

﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٧٩] .

فهذا محمد ﷺ ، فبالطائف كذَّبوه ، وسخروا منه ، وردّوا دعوته ، وأغروا سفهاءهم به ، آذوه ، وضربوه . وجاء بعد الطائف حادث الإسراء والمعراج ، رفع الله نبيَّه إلى أعلى عليين ، أعلمه أنَّه سيِّدُ الخلق وحبيب الحق . . قال تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١] .

سمع دعاءك وأبصر ما جرى لك في الطائف ، وقال تعالى :

﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ﴾ [الأنعام : ١٩] .

أحياناً الإنسان يجهِّز شهوداً أقوياء ، يقول لك : فلان يعرف الموضوع ، وفلان كان حاضراً ، وفلان معي منه إقرارٌ ، وفلان كتب لي تصريحاً ، ولكن هناك أقوى من كلِّ هذه الشهادات ؛ وهي أن يشهد الله لك أنَّك مستقيم ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ، إذا شهد الله لك أنَّك على الحق هذه أكبر شهادة .

هذه الآيات وردت في كتاب الله إنّها تسع عشرة آية ورد فيها اسم الشهيد . .

تومىء إلى شهادة الله لهذا الإنسان :

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس : ٦١] .

وأنت تصلِّي يعلم الله أنَّك تصلّي ، وتقرأ القرآن ، تسبِّح ، تذكر ، تستغفر ، تغُضُّ البصر ، تأمر بالمعروف ، كلُّ عملك في علم الله ، وهو يشهد عملك . . لكن الله يشهد بما أنزله إليك ، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾ . يكفي أنَّ الله يشهد ، وفي سورة يونس : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس : ٤٣] .

وقال تعالى :

﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة : ٩٤] .

وقال تعالى :

﴿ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ﴾ [الأنعام : ٧٣] .

أي يشهد لما ظهر ، ويعلم لما ظهر ولما بطن. . وقد قال تعالى :

﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[التوبة : ١٠٥] .

وقال تعالى :

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾

[الرعد : ٨ـ ٩]

وقال تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ﴾ [السجدة : ٦] .

وقال تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر : ٤٦] .

وقال تعالى :

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

[الحشر : ٢٢]

وقال تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة : ٨] .

ملخَّص هذا الاسم الجليل أنَّ الله معكم أينما كنتم ، معكم بعلمه ، ومعكم بتأييده ، إن كنتم على طاعته ، معكم بعلمه ، ومعكم

بنصره وحفظه وتأييده وتوفيقه ؛ إن أقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وآمنتم برسله ، وعزَّرتموهم ، وأقرضتم الله قرضاً حسناً .

من لوازم أنَّه معكم أنه يعلم ما تفعلون ، يعلم ظاهر العمل ، وباطن العمل . ونيات صاحب العمل ومؤدّى العمل ، وخلفيّة العمل ، عملك بكلّ تفاصيله ، وملابساته ، وخلفيّاته ، وأهدافه ، ومراميه ، في علم الله عزَّ وجلَّ .

ثم هو يُنبئك عن عملك في الدنيا والآخرة ، ينبئك عن ذاته ، يشهد لك أنَّه لا إله إلا هو ، أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد .

وقد ورد في الأثر : « **أن يا عبدي خلقت لك السموات والأرض ولم أعي بخلقهن ، أفيُعييني رغيفٌ أسوقه لك كلَّ حين ؟ وعزَّتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأُسلِّطنَّ عليك الدنيا ، تركض فيها ركض الوحش في البريّة ، ثم لا يَنالُك منها إلا ما قسمته لك ، ولا أُبالي ، وكنت عندي مذموماً ، أنت تريد وأنا أُريد ، فإذا سلَّمتني فيما أُريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تُسلِّمني فيما أُريد أتعبتُك فيما تُريد ثم لا يكونُ إلا ما أُريد** » .

إذاً شهيد . . يعلم ، وشهيد . . يُعْلِم ، ينبئك أنه لا إله إلا الله ، وينبئُك عن عملك بحبِّه لك ، فإذا كان هناك شخصٌ مستقيمٌ يشهد الله له أنَّه مستقيم من خلال التوفيق ، وإذا كان إنسان ماله حرام ، يشهد الله له بأنَّ ماله حرام من خلال التدمير . . يدمِّر له ماله . فقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ .

المعيشة الضنك ، شهادة الله للمنحرف ؛ بأنَّ هذا القرآن كلامه ،

ثمّ هو يشهد لك عن ذاته ، وعن أفعاله ، وعن كلامه ، ويشهد عملك في الدنيا والآخرة ، إذاً هو سبحانه حاضر . . ويَعْلَم . . ويُعْلِم ، هذا هو الشهيد .

أخيراً ، أدب المؤمن مع هذا الاسم . . إذا علمت أنَّ الله معك ، وأنَّه شهيدٌ عليك ، وأنَّه يسمع كلامك ، ويرى حركتك ويعلم باطنك ؛ لا بدَّ من أن تتأدَّب معه . فالأدب مع الله من نتائج إدراك العبد أنه يوقن أنَّ الله على أفعاله شهيد .

* * *

الغَنِيُّ والمُغْنِي

من أسماء الله الحُسنى اسم الغني والمُغني .

الغنيُّ والمُغني : اسمان من أسماء الله الحُسنى ، إلا أنَّ أكثر الذين بحثوا في هذين الاسمين ؛ بحثوا فيهما معاً ، وذكروهما معاً ، فكان الجمع بينهما من تقليد العلماء الذين درسوا أسماء الله الحُسنى ، إذاً فنحن مع الاسم الغني والمُغني ، وأن نقول : الاسمان الغنيُّ والمغني مَعاً فهو الصواب .

الغنى ـ لغةً وواقعاً ـ ضدُّ الفقر ، والغنى له معانٍ عديدة . . أحدها عدم الحاجة إطلاقاً ، وليس ذلك إلا لله تعالى . الله وحده الذي لا يحتاج إلى أحد ، بل إنَّ الله وحده يحتاج إليه كلُّ شيء في كلِّ شيء . الله وحده لا يحتاج إلى أحد ، إذاً غنيّ . . غنيٌّ عن خلقه ، آمنوا ، كفروا ، أحسنوا ، أساؤوا ، قدَّروا ، لم يُقدِّروا ، عرفوا جهلوا ، جحدوا ، ألحدوا ، غنيٌّ عن خلقه ، فقد قال تعالى :

﴿ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] .

شأن المخلوق أنَّه يحتاج إلى ربِّه في كلِّ شيء ، شأن العبد أنَّه يحتاج إلى ربِّه في كلِّ شيء ، وشأن الربِّ أنَّه لا يحتاج إلى أحد .

لذلك كتطبيقٍ سريعٍ لهذا الاسم . . كلَّما استغنيت عن الناس ،

شعرت براحةٍ نفسيّة . كلَّما استغنيت عما في أيدي الناس ، أحبَّك الناس . كلَّما استغنيت عن أموالهم ، وعن عطاءاتهم ، وعن ما يخصُّونك به ، شعرت بكرامة . دقق النظر في هذه الأقوال الثلاثة . . احتج إلى الرجل تكن أسيره ، استغنِ عنه تكن نظيره ، أحسن إليه تكن أميره . لذلك من بعض الأدعية اللطيفة : اللهمَّ لا تجعل حوائجنا إلا إليك ، ودُلَّنا بك عليك .

الغنيُّ هو الذي لا يحتاج إلى أحد ، وهذه ليست إلا لله . أما العبد فإنه يحتاج ، إلا أنَّه إذا احتاج إلى ربّه بقي عزيزاً ، أما إذا احتاج إلى عبيده كان ذليلاً لهم .

الإمام الحسن البصري من كبار التابعين وله هيبةٌ لا توصف ، وله مكانةٌ عليّة ، سُئِلَ مرةً : بِمَ نِلت هذا المقام ؟ قال : باستغنائي عن دنيا الناس ، وحاجتهم إلى علمي .

أما إذا تعلَّم الإنسان العلم الشرعي ، ثم احتاج إلى دنيا الناس واستغنوا عن علمه ، فوالله هذا منتهى الذل . . أن يستغني الناس عن علمك ، وأن تحتاج إلى دنياهم فهذه مصيبة ، بل هي فاقرة ، لكنَّ الإمام الحسن البصري نال هذا المقام الرفيع باستغنائه عن دنيا الناس ، وحاجتهم إلى علمه .

والحقيقة أنّ المؤمن إذا أقبل على الله عزَّ وجلَّ ، يشتقُّ من هذا الاسم معاني كثيرة ، فهو يشعر أنَّه غنيٌّ عن المطامع . الطمع أذلَّ رقاب الرجال ، كما يشعر أنّه غنيّ عما في أيدي الناس ، لا يشتهي ما لا يجد . . لي صديقٌ كان من أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما عظَّمه في عيني ، صِغرُ الدنيا في عينيه ، كان لا يشتهي ما لا يجد ،

ولا يُكثر إذا وجد . خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدرها هماً . . من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر .

الله غنيّ . . لا يحتاج إلى خلقه . والمؤمن باتصاله بالله عزَّ وجلَّ يشتقُّ من هذا الاسم قيَماً أصيلة ، يصبح غنياً عن الناس ، لا ينظر إلى ما عندهم ولا يطمع بما في أيديهم ، ولكنّ بعض الناس يدخل إلى أحد البيوت ، تجده ينظر إلى كل ما فيه من أشياء ويسأل : كم ثمن هذه الثُريّا ؟ ومن أين اشتريت هذه ؟ وكيف حصَّلت هذه ؟ تشعر بضعفه وتشعر بدنوّه . . لكن هناك إنسان لا يأبه لكلِّ هذه المظاهر . . ربما يركب مركبة فخمة فلا بدَّ من أن يسأل عن ميِّزاتها وعن سرعتها ، وعن مصروفها وعن ثمنها ، وكيف سجّلتها لدى الدوائر الرسميّة ؟ وهل هي مستأجرة أم ملك لك أم سياحية ؟ وما وضعها ؟ يبدو أن نفسه قد تاقت لها . . المؤمن المتصل بالله يستغني ، يشعر بغنى .

دخلوا على سيِّدنا أبي عبيدة عامر بن الجراح ، وكان قائد الجيوش الإسلاميّة في بلاد الشام ، رأوا في غرفته قدر ماءٍ مغطىً برغيف خبزٍ ، وجلداً يجلس عليه ، وسيفاً معلَّقاً في الحجرة . قيل له : يا أبا عُبيدة ما هذا ؟ قال : هو للدنيا وعلى الدنيا كثير ، ألا يُبلِّغنا المقيل .

ازهد بما في أيدي الناس ، يحبَّك الناس . . ارغب بما عند الله ، يُحبَّك الله ، فالله إن أحببت ما عنده أحبَّك ، وإن زهدتَ بما في أيدي الناس ، أحبَّك الناس .

فالغني هو الله الذي لا يحتاج إلى أحد ، وجوده ذاتي أما الإنسان فهو يحتاج ؛ لكن بين أن يحتاج الله عزَّ وجلَّ ، ويحتاج إلى ما عنده ، وبين أن يحتاج إلى خلقه فالهوة عميقة . إذا احتاج إلى ما عند الله

علا ، وإن احتاج إلى خلقه دنا. . احتج إلى الرجل تكن أسيره ، استغنِ عنه تكن نظيره ، أحسن إليه تكن أميره .

وجدير بي أن أذكّر بهذا الحديث فهو أدقُّ ما في هذا الموضوع .

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مِحْصَنٍ الأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : قَالَ : رَسُولُ اللهِ ﷺ : « **مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، آمِناً فِي سِرْبِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا** » [سنن الترمذي] .

لا تنسوا. . أنْ خذ من الدنيا ما شئت ، وخذ بقدرها هماً . إذا كان لديك آلة بسيطة فإصلاحها سهلٌ ، أما إذا كانت تعمل بالحاسوب وتعطَّلت ، ولا يوجد من يصلحها لك ، يستولي عليك الهمّ ، فكلَّما كانت الآلة شديدة التعقيد ، فإصلاحها يكون صعباً وهمّاً أكبر. . هذه قاعدة. . خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدرها هماً .

يقول الله عن ذاته ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ . وهذه لها معنى دقيق. . فأحياناً يستغني الإنسان عن الناس ، ولأنَّه مستغنٍ عنهم ، يترفَّع عنهم ، ويستعلي عليهم ، وأحياناً يحتقرهم ، ويؤذيهم بقوله . لكنَّ الله ـ جلَّ جلاله ـ مع أنَّه غنيٌّ عن خلقه ؛ يستجيب لهم ويعطيهم ، ويعفو عنهم إلخ. . فهو ذو الكمال المطلق .

تجد غنياً بعيداً عن الله ، به كبرٌ ، وغطرسة ، واستعلاء ، وتأفف. . وأحياناً تجد غنياً على حجمه المالي الكبير متواضعاً ، قريباً منك. . العظمة أن تكون مستغنياً عن الناس ؛ وأنت معهم ، تصغي إلى حديثهم ، تتعاطف مع مشكلاتهم ، يعنيك ما يعنيهم ، يؤلمك ما يؤلمهم ، ترجو لهم ما ترجو لنفسك . وهذه صفة عالية جداً ، الأنبياء كانوا مع الخلق ، يمشون في الأسواق ، يعيشون معهم ،

لذلك قالوا : هناك برجٌ عاجيٌّ فكري ، وهناك برجٌ عاجيٌّ أخلاقي . . فالبرج العاجي أصلاً مذموم . . يقولون لك : فلان يعيش في برج عاجي ، أي أنه ليس واقعياً ، بعيدٌ عن هموم الناس ، إذا ابتعدت عن هموم الناس وعن حياتهم اليوميَّة ، وعن مآسيهم ، وعن آلامهم ، وعن طموحاتهم فأنت في بُرجٍ عاجيٍّ فكري . أنت تعيش في الأحلام وهذا لا يليق بالمؤمن . أما إذا ابتعدت عن سقطاتهم وانحرافاتهم ومعاصيهم فأنت في برجٍ عاجيٍّ أخلاقيّ .

فالمؤمن ينأى بأخلاقه عن سقطات مجتمعه ، أما بفكره فإنه يعيش معهم ؛ يألم لألمهم . . سيِّدنا عمر جاءته هديَّةٌ من أذربيجان ، فقال لرسول عامل أذربيجان : ما هذه ؟ قال له : هديَّةٌ . . طعامٌ أهداه إليك عاملك على أذربيجان ، ففتح العُلبة ، فوجد فيها طعاماً نفيساً جداً . فسأل رسول عامله على أذربيجان : هل يأكل عندكم عامَّة المسلمين هذا الطعام ؟ قال : لا هذا طعام الخاصَّة . أخرجها من فمه وقال : قل لصاحبك كيف يعنيك أمر المسلمين إن لم تأكل مما يأكلون ؟ حرامٌ على بطن عمر أن يذوق طعاماً لا يطعمه فقراء المسلمين ، خذ هذه الهديَّة ووزعها على فقراء المسلمين في المسجد النبوي . ولم يأكل منها شيئاً .

سيِّدنا عمر حينما كانت مجاعة في المدينة ، ترك اللحم أربعة أشهر ، فقرقر بطنه فخاطبه قال : قرقر أيُّها البطن أو لا تُقرقر ، فوالله لن تذوق اللحم حتى يشبع منه صِبْيَةُ المسلمين .

المعنى الأول . . أنَّ الله هو الغني ، أي هو الذي لا يحتاج إلى أحد . شأن الخالق أنَّه غنيٌّ عن خلقه ، وشأن المخلوقات أنَّهم

مفتقرون إلى ربِّهم . لذلك قالوا : الربُّ ربٌّ ، والعبد عبدٌ . شأنُك يا رب أنَّك غنيٌّ عنا ، وشأنُنا أننا مفتقرون إليك ، لكن ما أحلى وما أجمل وما أكرم أن تفتقر إلى الله ، وما أصعب وما أقسى أن تفتقر إلى عبدٍ لئيم .

سيِّدنا علي كرَّم الله وجهه سُئِل ما الذل ؟ قال : أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يَرُدُّه . ثمّ قال : والله والله مرتين لحفر بئرين بإبرتين ـ هذا مستحيل ـ ، وكنس أرض الحجاز في يومٍ عاصفٍ بريشتين ـ أيضاً مستحيل ـ ، ونقل بحرين زاخرين بمنْخَلين ، وغسلِ عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين ، أهون عليَّ من طلب حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين .

وبعد فالمؤمن غنيٌّ بالله ، عبارة في الفقه تُعجبني . . هل يجوز أن تُعطي طفلاً صغيراً زكاة مالك وله أبٌ غني ؟ قد يقول القائل : هذا طفل ليس معه مال ، لا يملك قرشاً واحداً في جيبه . يجيب الفقهاء عن هذه المسألة : الطفل الصغير الفقير غنيٌّ بغنى أبيه . فما دام أبوه غنياً فهو غني ، غنيٌّ بأبيه ، ولو سحبنا هذه القاعدةَ على موضوع بحثنا هذا . . فالمؤمن فقير لكنَّه غنيٌّ بالله ، غنيٌّ بربِّه ، لذلك تجد أحياناً إنساناً مطمئناً ويقول لك : أنا أملك كذا من المال . . أو معي كذا من الأسهم ، فالرد المناسب الرائع : كن بما في يدي الله ، أوثق بما في يديك .

فأحياناً تجد إنساناً معتمداً على توفيق الله وعلى حفظه ، ومتوكِّلاً عليه ويثق بما عند الله ، هذا أغنى ممن يملك ملايين كثيرة ، بالداخل وبالخارج جامداً وسائلاً ، فهذا أغنى حقاً .

المعنى الثاني من معاني الغني . . قال العلماء : قِلَّة الحاجات ،

وهو المشار إليه في قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى : ٨] .

أي أنَّ الإنسان محتاج إلى طعام ، إلى شراب ، إلى مسكن ، إلى ثياب ، إلى أوانٍ ، إلى سرير ، الإنسان يحتاج إلى آلاف مؤلَّفة من الحاجات ، مثلاً لو اشترى بيتاً فمَلَكهُ وهو مفروش ، وعنده مركبة مثلاً ، وله محل تجاري مورداً لرزقه ، ويملك بيتاً في المَصِيْفِ ، عنده ألبسة كثيرة جداً ، ولديه مال سائل ؛ هذا بالمعنى الثاني غني ، فبيته ملكه البيت مفروش ، وعنده وقود للتدفئة ، وعنده أجهزة ومركبة وطعام ، ومال سائل . لكن هذا يحتاج إلى طبيب ، ويحتاج إلى معلّم لابنه لكن حاجاته قليلة ، أما أكثر الحاجات لديه فموجودة .

فالمعنى الثاني للغني قالوا : قِلَّة الحاجات. . وهو المشار إليه في قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ . أغناك ، فإذا أغنى الله رسوله ﷺ لم يعُد النبيّ الكريم ﷺ محتاجاً إلى الله ؟ لا . . الحاجة إلى الله ثابتة ، ودائمة ، ثم إنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام أشار إلى هذا المعنى بشقٍّ آخر فقال :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ » [صحيح البخاري] .

فأحياناً الإنسان يكون لديه نفسٌ عظيمة تبتغي الوصول إلى الله ، وأمور الدنيا عندها ثانويَّة ، فهو مستغنٍ عن دنيا الناس ؛ لكنَّه مفتقرٌ إلى فضل الله ، هذا شأن الصدِّيقين ، والمؤمنين الكبار ، فالغنى غنى النفس .

أحياناً تجد شخصاً ذا نفس عفيفة ، تقول له : هل يلزمك شيء من المكان الفلاني ؟ يقول لك : شكراً . لا يطلب شيئاً ، وتجد

شخصاً يقول لك : أين ذاهب ؟ إلى أين أنت مسافرٌ ؟ أحضر لي كذا وكذا . فلا يترك إنساناً إلا ويسخّره ، وقد يحرجه ويشقّ عليه ، فكلَّما قلَّت طلباتك ، ارتقى مقامك . حتى النبي الكريم قال :

عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « **أَعْظَمُ النِّسَاءِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُنَّ مؤُونَةً** » [مسند الإمام أحمد] .

حين توفي شيخ الأزهر ، لفت نظري تحقيقٌ كتب عنه وعن بيته وهو شيء مدهش . . فهو يسكن في بيت صغير ، فكم قدّر ما تحت يده من ميزانيّة ؟ تحت يده مبالغ كبيرةً جداً جداً ، ويسكن في بيت في الطابق الرابع ، وقد أجرى عمليّتين في ركبتيه ، بسبب التهاب المفاصل ، ولم يتمكَّن من أن يبدل بيته ، ذا المساحة الصغيرة والمرتفع بالنسبة إليه . وشيخ الأزهر مرتبته في مستوى رئيس الوزارة ، وتحت يده أموالٌ طائلة ، ولكن عنده غنى نفس . . وهذا هو الغنى ، وفيه عفَّة ، وخرج في جنازته عدد كبير من المشيِّعين .

فالغنى غنى النفس ، فالإنسان المؤمن يستغني بالله ؛ فلا يحتاج لشيء ما دام عنده طعامٌ يأكله ، وشرابٌ يشربه ، ولباسٌ يستره ، وبيتٌ يسكنه ويؤويه فقد حاز الدنيا بحذافيرها .

المعنى الثالث : الغني ؛ الذي عنده الشيء الكثير من متاع الدنيا ، فهو يملك بيتين أو ثلاثة ، وسيّارتين أو ثلاث ، ومئة من التحف والمقتنيات وكلُّها أجنبية الصنع ، والكثير من الأحذية والملابس من الدرجة الأولى . . ثمن الحذاء ثمانية آلاف أو نحو ذلك .

وكخلاصة : المعنى الأول للغنى ألا نحتاج إلى أحد . . من ؟ هو الله وحده . . شأن الله أنَّه لا يحتاج إلى أحد ، شأن العبد أنَّه

يحتاج ، إن احتاج إلى الله عزَّ وجلَّ علا ، وإن احتاج إلى خلقه دنا .

المعنى الثاني : قلَّة الحاجات.. عنده كلُّ شيء ، حاجاته قليلة لكنَّه يحتاج إلى طبيب لأسنانه ، ولو كان معه ملايين ! يحتاج إلى طبيب صحَّة ، إلى أستاذ لأولاده ، يحتاج إلى صاحب مهنة معيَّنة لإصلاح خللٍ طرأ في بيته .

المعنى الثالث : أن تكْثُرَ مقتنياتك.. فهذا الغنى بالنسبة للمعنى الثالث ، وألفت النظر إلى قوله تعالى :

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ [النساء : ٦] .

إذاً أيها المؤمن فلتقلّل من مقتنيات الدنيا لديك .

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ ، اليهود حينما سمعوا قول الله عزَّ وجلَّ تعاظمتْ أنفسهم الخبيثة ، وسقطوا في مستنقع الضلال ، قال تعالى :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾

[البقرة : ٢٤٥]

قالوا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران : ١٨١] .

فقال الله عزَّ وجل : ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ .

هذه معاني الغنى في اللغة.. معانٍ ثلاث .

أحد العلماء يرى أنَّه من معاني الغني : هو الذي لا تعلُّق له في ذاته . أي أنّ ذاته لا تتعلَّق بشيء . فأنت متعلِّق بالحرارة وبالبرودة مثلاً.. فإذا كان البرد شديداً ؛ فأنت بحاجة إلى معطف ، وإذا كان الحرُّ شديداً ؛ فأنت بحاجة إلى جهاز تكييف ، وإذا كنت جائعاً ؛ فأنت بحاجة إلى الطعام ، وإذا كان هناك عطشٌ ؛ فأنت بحاجة إلى ماء ، وإذا كنت بلا مأوى ؛ فأنت بحاجة إلى بيت ، وبحاجة إلى

سرير ، وإلى أن تنام . فقد ترى سيارة ثمنها ملايين ، وقد انقلبَتْ على جانب الطريق ؛ والسبب أنَّ السائق قد نام ؛ وحاجته إلى النوم أودت به في هذا الحادث ؛ فأنت محتاج للنوم ، محتاج إلى الطعام ، وإلى الشراب ، وإلى جو مريح ، وإلى هواء ، وإلى ثياب ، وإلى مأوى ، وتحتاج إلى زوجة .

فالإنسان يعتاد الحياة الزوجية فتُؤنسهُ زوجته وتخدمه ، فالأكل تعدّه له واللبس تغسله والطعام تحضّره . وهي تحسن عشرته كذلك ، فإذا سافرت أو مرضت يقول لك : تغيَّرت حياتي . فأنت مفتقر إلى زوجة . مفتقر إلى طفل . . يقول : هذا الطفل ملأ البيت بهجة . فأحياناً لا ينجب الزوجان ؛ فتجد البيت أصبح كهفاً مظلماً ، فالأطفال لهم ضجيج ولهم لعب ولهم مطاليب ، لكن يملؤون البيت فرحةً .

فكم حاجة أنت تحتاج إليها ؟ تحتاج إلى زوجة ، وإلى ولد ، وأن تشرب ، وأن تأكل ، وأن تنام ، وتحتاج إلى ثياب ، وأن تأكل شيئاً ذا مذاق حلو ، أو لكأسٍ من الشاي لتشربه ، وتحتاج إلى فاكهة لتأكلها ، فلو مكثت شهراً من غير أن تأكل الفاكهة ، تشعر بحاجتك الأساسيّة إليها . . فأنت محتاج إلى مليون حاجة ، أما الغني الحقيقي فإن ذاته لا تتعلّق بشيء ، فأنت مربوط بأشياء لا تقدر ولا تحصى .

مثلاً معك كميّة من الذهب ، فتجدك متتبّعاً للأسعار هل غلا الذهب أم هبط سعره ؟ وإذا اشتريت بضاعة فتسأل نفسك هل هناك بالسوق منافس لك ؟ وما هي أسعار البضاعة ؟ وأنت بحاجة إلى أن تربح ، فيومياً لديك آلاف الحاجات ، لكن الغني الحقيقي هو الذي لا يتعلّقُ بشيء . . ذلك هو الله ففي الحديث القدسي :

« لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً ، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً » [صحيح مسلم] .

وقيل : من تعلَّق بغيره فهو محتاجٌ إليه .

وقيل : الغنيُّ ؛ هو الذي لا يحتاج إلى شيء ، وهو المستغني عن كلِّ شيء ، المفتقر إليه كلُّ شيء .

وقيل : الغنيُّ ؛ هو الغنيُّ بذاته عن العالمين ، المتعالي عن جميع الخلائق في كلِّ زمنٍ وحين ، الغنيُّ عن العباد ، المتفضِّل على الكلِّ بمحض الوداد .

هذا هو الغنيّ . . . ورد اسم الغنيّ في القرآن الكريم في مواطن كثيرة . . في سورة البقرة قال تعالى :

﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾

[البقرة : ٢٦٣]

أي : إنَّ الله عزَّ وجلَّ غنيٌّ عن صدقةٍ يتبعها أذى . . هذه الصدقة لك وليست لله ، أمرك أن تدفعها من أجل أن تقبل عليه ، فإن أتبعتها بالمنِّ والأذى ؛ لا قيمة لها ، هو غنيٌّ عنك ، وقال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٧] .

أيضاً . . غنيٌّ عن صدقةٍ تكرهها . . أكلةٌ عافتها نفسك ، وتصدَّقت بها . . فالله غنيّ عن هذه الصدقة ، أمرك أن تُعطي مما تحب ؛ من

أجل أن تقبل عليه ، من أجل أن ترقى عنده ، فإن فعلت ما لا تُحِب ، فهو غنيٌّ عن هذه الصدقة ، وقال تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ ﴾ أي من لم يحُجَّ البيت ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . فإن تحج فأهلاً وسهلاً بك ، وإن كنت لا تريد أن تحج حرمت نفسك الخير ، والمعاني دقيقة فكل آية لها معنى .

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ ﴾ [الأنعام : ١٣٣] .

أمْعن النظر في قوله تعالى : ﴿غني حميد﴾ . مع أنَّه غنيٌّ عنك ، لا يعاملك معاملةً إلا وتحمده عليها ، وفي هذه الآية ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ ﴾ . مع أنَّه غنيٌّ عنك يرحمك . . هذا الكمال .

وفي سورة يونس قال تعالى :

﴿ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ ﴾ [يونس : ٦٨] .

الإنسان يتمنّى ولداً حتى يُعينه في الكِبَر ، وهذه هي سنَّة الله في خلقه . فتجد الشاب يصعد سلم البناء قافزاً كل عشر درجات معاً ، وبعد فترة يصعد درجة درجة ، ثم يضع رجله فوق الدرجة ويرتاح دقيقتين ، ثم ينقل رجله الأخرى ويرتاح كذلك دقيقتين ، ثم بعد ذلك لا يستطيع الصعود ؛ فينتقل إلى بيت أرضي غير مرتفع ، فالله عزَّ وجلَّ غني أما الإنسان فمفتقر .

﴿ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ ﴾ فنحن بحاجة إلى أولاد لأنَّ الإنسان فانٍ ، وبابنه يشعر بامتداد أثره ، فالابن يُعوِّض نقص

أبيه ، فإذا لم يكن قد درس ، فيكون حريصاً على أن يُدَرِّسَ ابنه . وإذا لم يتجر يقول لك : لا أريد أن أجعله موظفاً . وإذا لم يكن الأب متعلِّماً للغة من اللغات ، يقول لك : أريد أن أعلِّم ابني اللغة . فالإنسان أحياناً يعوض نقصه بابنه ، ويحقق فيه امتداده وذلك لأنَّه فان ؛ فيقول لك : هذا من أثري ، يخلفُني ، ذِكْرٌ لي بعد أن أموت . فالإنسان بحاجة إلى ولد .. ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ ليس بحاجة إلى ولد .

وفي سورة إبراهيم يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

وقال تعالى :

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ [الحجرات : ١٧] .

وقال تعالى :

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد : ٣٨] .

وفي سورة العنكبوت قال تعالى :

﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦] .

يقول لك : يا أخي أنا صليت التراويح كلها في رمضان ؛ فهذه لك .. دفعت نصف مالي صدقة ، فهذه لك ، قرأت ختمة قرآن ؛ فهذه كذلك لك ﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان : ١٢] .

وقال تعالى :

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [لقمان : ٢٦] .

معنى أنَّه غنيٌّ عنك ؛ هو كامل ، لا يُعاملك معاملةً إلا ويستحق أن تحمده عليها ، فأحياناً الإنسان يكون مستغنياً ؛ ولا يلزمه أحد من الناس ، فيطرق بابه فيستقبل القادمين ، ويرحِّب بهم ويضيِّفهم ، ويصغي ويتواضع ويخدم ، وهو ليس محتاجاً إليهم فهذا من كماله .

وفي سورة فاطر قال تعالى :

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر : ١٥] .

﴿ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ ، لعلّي أبيِّن لكم هذه الحقيقة : الله هو الغني ، وأنت فقير حقيقةً وليس تواضعاً . . فإذا كان أحد الناس يملك مئة مليونٍ ، ونقطة من الدم تجمَّدت في شرايين مخِّه فقد شُلَّ عن الحركة ، أيُمكن أن يحدث ذلك لملك ؟ نعم أليس هو فقيراً ؟ بلى وألف بلى .

فقد درس رجل في فرنسا ، وحصل على الدكتوراه في العلوم ، ووصل إلى منصبٍ رفيعٍ جداً ، وتزوَّج وتملك بيتاً وسيّارات ؛ وأقام الحفلات والسهرات ، وكان طليقاً في لسانه وجميلاً وأنيقاً . وبعد حين فقد بصره وهو في ريعان شبابه ، فكان يأتيه البريد الخاص بعمله إلى البيت ، ويقرؤونه له ، ويشرحون له مضامين المعاملات ، التي يريدون منه أن يوقِّعها . وهو يقول لمن يقرأ له المعاملة : اكتب مع الموافقة . . ثم يوقِّع عليها . ظل شهراً على هذا الحال ، وبعد ذلك ليس من المعقول أن يستمر في مثل هذا العمل ؛ فأعفي من منصبه ، زاره صديق لي . . فقال له : يا فلان والله أتمنّى أن أجلس على

الرصيف ، وأن أتسوَّل ولا أملك من الدنيا إلا معطفاً على كتفي ، وأن يُردَّ لي بصري . والله هذه كلمته وبالحرف الواحد .

أنت مفتقر إلى عين ، مفتقر إلى سمع ، مفتقر إلى توازن ، مفتقر إلى كُليتين تعملان . ذهب شخص لغسيل كليته فقالت له الممرِّضة : لا تشرب الماء طوال هذه الأسبوع ؛ فالجهاز معطَّل عن العمل . فهل هذا قليل يعني أن يمتنع عن شرب الماء ؟ فعندك كلية تعمل بصمت ، لا تحتاج إلى الانتظار في الدور ، ولا إلى أجرة تدفعها ، ولا ضجيج ولا تثقيب شرايين ، وغسيل الكلية مرتين في الأسبوع كل اثنين وخميس وباستمرار ، أفلست غنيًّا ؟ أولسْت سعيداً ؟

الغدَّة النخاميَّة وزنها نصف غرام ؛ تفرز اثني عشر هرموناً أحد هذه الهرمونات يحقق توازن السوائل ، فتشرب في اليوم أربعة أو خمسة أكواب من الماء وتقوم بإخراجها ، فلو اختلَّت هذه الغدة تحتاج لشرب أربعة صفائح من الماء ، فلا تستطيع مغادرة صنبور الماء ولا الحمام وهذا يصبح عملك كل يوم وليلة ! فهل أنت غني ؟ !!

قال لي أحد الإخوة : زارني طبيب فلما جلس بالغرفة وأخذ بالحديث وضع يده على مفتاح الكهرباء ، وضغط عليه فانطفأت الثريا وقال له : هكذا الإنسان كبسة على الزر وتنتهي حياته . . أنت وأموالك ومكانتك وصلاحيَّاتك ؛ بكبسة زر ، وينتهي كل شيء ، سكتة دماغيَّة ، فيصبح في عداد الأموات! فأين بيته الفخم ؟ ومركبته الفخمة ؟ ومنصبه الرفيع ؟ وأين مكتبه التجاري ؟ وأين وجوده الصارخ بالمجتمع ؟ فهل أنت غني ؟! أم أنت فقير ؟!! أنت فقير إلى شرايين مرنة ، لو تصلَّبت ، تنتهي حياتك وتموت ، فقير إلى شرايين

مفتوحة ، ولو أغلقت ؟ يقول الطبيب مثلاً : خمسة شرايين مسدودة ؛ فلا بدَّ من عمليّة قلب مفتوح ، فهل أنت غني ؟ نعم ، أنت غني ولكن بفضل الله وحفظه !!

قال لي شخص : فجأةً اهتزت الصورة أمامي لمسافة عشرين سنتيمترٍ ، كل الصور من حولي اهتزّت ، وفقدت التوازن الحركي ، ولا بدَّ من إنسان يسير بي ، وكذلك فقدت التوافق الحركي ، فلا أستطيع الإمساك بكأس ، وإن أردت ذلك ذهبت يدي لمكان آخر ! ذهب إلى فرنسا مكث فيها ستة أشهر ولا أمل في الشفاء.. صورة مهتزَّة ، فقد التوافق الحركي ، وفقد التوازن.. فهل أنت غني ؟ فكم من ضرورات أنت بحاجة لها ؟

من كان له خبرة بالطب ، ونظر إلى التحاليل وقرأ : أسيد أوريك مرتفع ، وكوليسترول زائد ، وكذلك الشحوم الثلاثيَّة ، والمفاصل متيبِّسة ، والغضاريف مهترئة ، فكيف تكون غنياً ؟ فالإنسان فقيرٌ!! لِمَن ؟ لله سبحانه ، وكلَّما عرف ضعفه يصبح متواضعاً ، فليس الإنسان غنياً ولكنه يتواضع ، لا ولكن أنت فقيرٌ والله هو الغني ، وإن اعترفت بفقرك أصبحت غنياً . أغناك الله وأمدَّك بقوةٍ وبحيويَّةٍ ، وأعطاك عافيةً ، وأعطاك ذاكرةً ، وما بكم من نعمة فمن الله .

توفي منذ فترة أحد إخواننا ، قال لي ابنه : خرج من معمله ذات يوم ولم يستطع التعرف إلى بيته ، وضاع عنه لمدة ساعة ، أصيب بمرض فَقْدِ ذاكرة جزئي ، وليست الذاكرة كلّها ولكن فقد عنوان بيته . معمله بالقدم وبيته في حي خورشيد ، وبعد ساعة من البحث عن بيته لم يجده ! لكن يتذكر بيت ابنه فذهب إليه وقال له : يا بني ،

أين بيتي دُلني عليه ! لي قريبة في أعلى درجات الذكاء ، وفجأةً فقدت الوعي ، دخل عليها ابنها وهو أقرب الناس لها ، فقالت له : من أنت ؟! فهل أنت غني ؟ لا بل مفتقر ، فالله هو الغني وأنت الفقير . إن عرفت فقرك أغناك الله ، وإن ادعيت الغنى أفقرك الله ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ ، وقال : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ .

قال تعالى :

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الحديد : ٢٤] .

﴿ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ فأحياناً والعياذ بالله يكون الإنسان ضعيف التفكير ، يحضر دروس العلم أوّل مرّة ثمّ يعتادها ، ويلتقي مع إخوان مؤمنين فيُسرَّ فتتغيَّر حياته كلّها ، فيصلي ، ويقرأ القرآن ، ويستقيم ويغُضَّ بصره ، ويدقق في تحصيل دخله وإنفاقه ويعيش في جنَّة . ويأتي إنسان بشكل مقصود أو غير مقصود فيُسيء له ، فيريد أن ينتقم منه ، فيترك الدروس كلّها ويترك الصلاة . فأين ذهب عقلك ؟ إذا إنسان أساء لك والجامع مفتوحٌ للجميع ، فليس عندنا اصطفاء في الجامع ، والباب مفتوحٌ لمن يحضر ، فإذا أساء شخص لك ؛ فالله ليس له علاقة بذلك ، فيريد أن ينتقم ، فيترك الصلاة والدروس ويدبر مولياً لأنَّ أحد الأشخاص أساء له ، فأين عقلك ؟ وأين رشدك ؟

فإذا كنت طالباً في كليّة الطب ، وعلّقت آمالاً كبيرة على هذه الكليّة ، وأساء لك أحد الطلاّب ، فهل تهجر الكليّة وتخرج منها ؟!

وكل مستقبلك في هذه الكليّة ؟ فستصبح طبيباً ، وتفتح عيادة ويأتيك المرضى ، وتأخذ ألوفاً مؤلَّفة ، إذا أساء إليك أحد الطلاَّب تدمر حياتك ، لو أساء لك أستاذ ، فلن تترك ولو أساء لك عميد الكليّة فلن تترك ، هذا المؤمن ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ .

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة : ٦] .

هذا هو الغني ، أما المُغني فهو : الذي يُغني من يشاء أن يُغنيه :

ولو كانت الأرزاق تجري مع الحِجا هلكنَ إذاً من جهلهِنَّ البهائم

تجد شخصاً شعلة من الذكاء ، ولا يملك مالاً ! وإنساناً على بساطته وفطريَّته ، تجد رزقه وفيراً . فالله هو الرزَّاق وهو الغني ، فمعنى المُغني أنَّه يُغني من يشاء .

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء : ١٨] .

المُغني ؛ هو الذي يُعطي الغنى لعباده ، إما أن يعطيهم الكفاية ؛ أي أغناهم عن السؤال ، أو يُغني بعض عباده عن بعض . . فالحقيقة إنَّ الحوائج لله ، لا تكون إلا لله ، فعندما يهبها لك ربُّنا عزَّ وجلَّ من خلال رزقٍ تملكه أعزَّك . أما إذا جعلك تحتاج إلى إنسان أذلَّك . . لذلك في الدعاء تقول : « **اللهم اجمعنا عليك وفرِّقنا عليك ، اللهمَّ لا تجعل حوائجنا إلا إليك** » .

ربُّنا سبحانه وتعالى هو المُغني بمعنى : أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثم هدى ، أعطاك قدمين تمشي بهما ، أعطاك سمعاً ، أعطاك بصراً ، أعطاك حركة ، أعطاك يداً ، مفاصل ، أصابع ، رسغاً ، مرفقاً ، كتفاً ، أعطاك جهازاً للهضم ، جهازاً للأمعاء ، جهاز دوران ، جهاز

إفراز ، أعطاك هيكلاً عظمياً ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أي: كل ما يصلحك ، أعطاك إدراكاً وذاكرة ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ .

والمُغني ؛ هو الذي أفاض الغنى على عباده ، وسهَّل لهم المراد ، وما من غنيّ في الوجود ، إلا وهو من جناب الحقّ ممدود ، الغنى الحقيقي من الله عزَّ وجلَّ . . وهو المُغني لأوليائه من كنوز أنواره . . وبذا فقد انتهينا إلى نوع ثانٍ من الغنى ؛ فقد أغناك بالعلم .

فقد أطلعني أخ على مجلَّة فرنسيَّة ، فيها صورٌ عن مقاطعة في الهند ، يعبدون ليس الأبقار ولكن الجرذان ، وتبيِّن الصورة معبداً ضخماً وأكثر من ثلاثمئة جرذٍ يعطونهم الحليب ، اللبن ، القمح ، البرغل ، يأكلون مع الجرذان في طبقٍ واحد . . امرأة تضع على رأسها خماراً والجرذان يقفون على رأسها وكتفها ، يعبدون الجرذان كآلهة! وهو تحقيق علمي ، موثَّق .

فهل ذلك ممكنٌ ؟ أممكن ذلك ؟ نعم ، عند من يزيغ عن الحق والفطرة ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ فهناك من يعبد البقر وأشياء أخرى ، ولكن الله عرَّفك بذاته ، لِتعبده هو ، فهو الذي خلقك ، تعبد خالق الكون ، خالق السموات والأرض . . وهناك من يعبد البقر ، أو الشجر ، أو الحجر ، أو الشمس ، أو يعبد القمر . . والله سبحانه وتعالى كرَّمنا وأغنانا عن هذه الخرافات ، وعن هذه السخافات ، وعن هذه التُّرَّهات .

إما أن يُغنيك بالدنيا ، وإما أن يُغنيك بمعرفته ، يُغنيك بتقريبك إليه ، يُغنيك بإلقاء النور في قلبك ، يُغنيك بأن يُعطيك رؤيةً صحيحة ، فتكون لك حكمةٌ بالغة ، وسدادٌ في الأقوال ، وصوابٌ في الأفعال ؛ هذا هو الغِنى .

الحقيقة إذا أردنا أن نصل إلى ملخَّص الدرس.. المُغني ؛ هو الذي أغنى عبده بمعرفته.. فأنت غني بمعرفة الله ، أغناك بمنهجه ، بين يديك منهجٌ صحيحٌ مئة بالمئة ، فليس لديك مفاجأة . أغناك بالقرب منه ، أغناك بإلقاء النور في قلبك ، أعطاك رؤيةً صحيحة ، وحكمةً بليغة .

اسم المُغني لم يَرد بلفظه في القرآن الكريم . ولكن ورد في سورة التوبة في قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٢٨] .

وبعد ، فالله هو المُغني ، غنيٌّ ويُعطي الغِنى لمن يشاء . لكن الغِنى الحقيقي أن تعرفه ، فسيِّدنا ربيعة خدم النبيَّ ﷺ أياماً عديدة ، قال له : « **يا ربيعة سلني فأعطيك** » قال له : أنظرني حتى أنظر . بعد أيام قال له : « **ماذا يا ربيعة** » ؟ قال : إنّي أسألك أن أكون رفيقك في الجنَّة فقال له : « **من أمرك بهذا ؟** » قال : « ما أمرني به أحد ، ولكني علمت أن الدنيا منقطعة فانية وأنت من الله بالمكان الذي أنت منه فأحببت أن تدعو الله لي » ، ما قيمة الدنيا ؟ أنا أريد شيئاً دائماً في الجنَّة ، أن أكون معك في الجنَّة .

فلذلك الغنى الحقيقي أن تصل إليه ، أن تعرفه ، أن تُقبل عليه ، أن تلوذ بحماه ، أن يكون قلبك مهبطاً لتجلِّياته ، يطمئنك ، يكرمك ، يُوفِّقك ، يقرِّبك منه ، يسعدك ، وفي سورة النور قال تعالى :

﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [النور : ٣٣] .

﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ فالزواج ليس شيئاً سهلاً فمن عنده بيتٌ وزوجة ، ورزق وأبناء ، والبيت فيه ما فيه من نِعَم ، فالله إذاً أغناك بهذه الزوجة ؟ وجعلها ستراً لك فلا تقس عليها كثيراً ، ولا تقرِّعها فهي هديَّة الله إليك ، لا تكفر بنعمة الله ، الزواج نعمة ، هناك من يزعج زوجته حتى يجعلها تترك البيت !! هذه نعمة الله فلا تضيّعها .

وأحياناً تجد امرأة ولها زوج ، وعندها أولادٌ ، تعمل أعمالاً منفّرة إلى أن تُطلَّق فهذه كفرت نعمة الزواج !! ﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أحياناً يغنيك بالمال ، تحصل على شهادة فتُعيَّن في وظيفة ، وتحصل على راتبٍ في آخر كلّ شهر ، فلا تمدَّ يدك لأحد ، أو تتقن مهنة تدر عليك دخلاً وفيراً ، فأغناك الله بالمال ، وأغناك بالعلم . . وأغناك بالصحّة ، فكل أعضائك سليمة ، أغناك بزوجة ، أغناك ببيتٍ ﴿ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ ، وفي سورة النجم قال تعالى :

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ [النجم : ٤٨] .

أي أعطى . . . وفي سورة الضحى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ .

هذه الآيات كلُّها عن المُغني . . قال بعض العلماء : « **إغناء الله لعباده على قسمين ؛ منهم من يغنيه الله بتنمية الأموال وهم العوام ـ** يقولون لك : الله متفضل ، ويضع يده على جبينه بعد أن يقبّلها ـ **ومنهم من يغنيه بتصفية الأحوال وهم الخواص** » .

وهذا الأخير هو الغني الحقيقي قريب من الله ، عنده علم وعنده حكمة وعنده شفافية ، فالنبيُّ عليه الصلاة والسلام وقف خطيباً على نخلة ، قطعت له نخلة فخطب عليها ، فلما صنعوا له منبراً ، ووقف ليخطب على المنبر حنَّت النخلة إليه ، فوضع يده عليها إكراماً لها .

وقال : « **إني لأعرف حجراً بمكَّة كان يُسلِّم علي قبل أن أبعث** » .

عَنِ الْحَسَنِ بْنِ سَعْدٍ مَوْلَى الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ : أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثاً لا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَداً مِنَ النَّاسِ ، وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِحَاجَتِهِ هَدَفاً أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ قَالَ فَدَخَلَ حَائِطاً لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ فَقَالَ : « **مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ ؟** » فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ : لِي يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ : « **أَفَلا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ** » .

[سنن أبي داود]

فالله عزَّ وجلَّ قد يعطيك شفافية ، فتتفاعل مع المخلوقات ، وتتناغم مع الكون ، وتتذوّق الجمال ، جمال الفجر ، جمال الشجر ، جمال البحر ، أن تتذوّق الجمال فهذا غنى ، أحياناً يكون لديك نفس واسعة الصدر عندك قلب كبير ، وعندك مشاعر وأحاسيس رقيقة ، وعندك رضا ، وعندك حلم وتوازن فهذا غنى .

تجد شخصاً عنده الكثير من المقتنيات الثمينة ، ويملك بيتاً فخماً ولكنَّه إذا غضب ، يصبح مثل الوحش ، فهذا فقيرٌ ، أحمق ، أرعن . الحلم غنى ، الحكمة غنى ، معرفة الله غنى ، وطاعتك لله غنى ؛ أن تصلّي الصلوات الخمس غنى ، أن تصوم رمضان غنى ، العوام يغنيهم الله بتنمية الأموال ، والخواص بتصفية الأحوال .

من أدب المؤمن مع اسم المُغني : أنَّ من عرف أنَّ الله تعالى هو الغنيُّ المُغني ، استغنى عن كلِّ شيء بالاعتماد عليه .

ما لي سوى فقري إليك وسيلةٌ فبالافتقار إليك ربي أضرع
إذا كنت في كلِّ حالٍ معي فعن حمل زادي أنا في غنى

من أدب المؤمن مع الله عزَّ وجلَّ أن تعتمد عليه وحده .

من مسالك التخلُّق بالغني والمُغني ، أنَّ التخلُّق بالغنى يناسبه إظهار الفاقة والفقر إلى الله تعالى أبداً .

فأنت في الأصل فقير ، الله هو الغني ، فإذا عملت إنجازاً ما ، فقل : هذا من فضل الله . وإذا نجحت لا تقل « ذاب لب مخِّي » لا . . ليس كذلك بل قل : الله وفقني وأعانني ونجحت . أسست عملاً ما ونجحت ، فلا تقل : أنا خططت له وجمَّعت خبرات متراكمة ، لا . . . لا تقل ذلك بل قل : الله عزَّ وجلَّ وفقني ، وسمح لي أن أنجح في هذا العمل . فأنت في الأصل فقير ، فإذا عزوت الغِنى إلى ذاتك ، فأنت مخطىء . إذا عزوت الفضل إلى الله ، فأنت قد تأدَّبت مع الله الغني لفقرك في الأساس . وكلَّما افتقرت إلى الله ، زادك غنىً ، وكلَّما تذللت إليه ، زادك عزاً . فهذه العمليَّة معكوسة ، كلَّما خضعت إليه زادك رفعاً .

قال العلماء : التخلُّق بالمعنى الدقيق باسم الغني . . أن تكون بما في يدي الله ، أوثق منك بما في يديك ، وأن تُحسن السخاء والبذل لعباد الله تعالى ، أن تثق بالله ، وأن تُغني . . الله غني ومُغن ، أن تستغني بالله عمن سواه ، وأن تُغني من حولك ، أعطِ . . فمن لوازم التخلُّق بأخلاق الله عزَّ وجلَّ ؛ أن تُعطي . كما أنَّ الله يُغني عباده ، أنت أغنِ من حولك .

فإذا كنت تملك معملاً ، أو مشروعاً ؛ فإذا كان العاملون عندك في

كفاية ، ووسعت عليهم واشتروا بيوتاً ، وتزوَّجوا فهل هذا غلط ؟ تجد من يقول لك : لحم هذا من خيري لا . . فإذا أغنيت من حولك فأنت أغنى واحد ، أنت تعرف الله عزَّ وجلَّ ، بعض الناس يحبون أن يكون كلٌّ من حولهم أغنياء ويعطوا حتى لا يبقى فقير .

كثير من الإخوان لديهم معامل ومؤسسات . فإذا زوَّج هذا ، ووفر لهذا بيتاً ، وأعطى هذا مساعدة ، إن رزقه الله مولوداً ، وهذا لديه مشكلةٌ أو نزل به مرضٌ فأجرى له عمليّة على حسابه الخاص ، فهذا صواب . كما أنَّ الله مُغنٍ فتأدَّب مع هذا الاسم وأغنِ من حولك ، فتكون أنت أغنى الناس ، ولن تضام .

* * *

العَفُوُّ

من أسماء الله الحُسنى العفوّ. . وقبل أن نمضي في الحديث عن هذا الاسم العظيم لا بدَّ من وقفةٍ مع موضوعين ، موضوع التوبة ، وموضوع العفوّ .

فالله سبحانه وتعالى فتح لعباده باب التوبة ، هو يعلم أنَّ عباده يصيبون ويُخطئون ، يقبلون ويدبرون ، يحسنون ويُسيئون ، ذلك لأنَّ الله سبحانه وتعالى ركَّب فيهم الشهوات ، وما ركَّب فيهم الشهوات إلا ليرقوا بها إلى الله ، لكنَّ هذه الشهوة إن لم يصحبها نورٌ من الله عزَّ وجلَّ ومنهجٌ قويمٌ تهتدي به فإنَّها مدمِّرة ، فالشهوات قوةٌ محرِّكة ، أو قوةٌ مدمِّرة .

إذاً لا بدَّ من أن تكون التوبة من أجل أن تُرَمِّم ، ولو تصوَّرنا أنَّ الله سبحانه وتعالى لم يفتح باب التوبة ، وإنسانٌ وقع في إساءة فماذا يفعل ؟ يزدادُ إساءةً ، يفجر ، لأنَّه أيِسَ من رحمة الله ، لهذا يقول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

أعظم ما في هذا الدين أنَّ الإنسان مهما بلغت إساءته ، ومهما

بلغت معاصيه ومهما تفاقمت ذنوبه ، ومهما شرد عن ربِّه ، ومهما انغمس في المعاصي فبمجرَّد أن يقول : يا رب لقد تُبت إليك . يقول الله عزَّ وجلَّ : لبَّيك عبدي وأنا قبلت .

فباب التوبة مفتوح لمن غلبته نفسه ، لمن زلَّت قدمه ، لمن طُمِست بصيرته ، لمن آثر الشهوة فباب التوبة مفتوح. . ماذا يُكمِّل فكرة أنَّ هذا الباب مفتوح ؟ يكمّلها أنَّ الله عفوّ. . لولا أنَّه عفوٌّ ما فتح باب التوبة .

في القرآن آية كريمة تتحدَّث عن التوبة. . يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٧] .

الأكمل والأولى والأصح والأصوب أنَّه لمجرَّد أن وقع الإنسان في ذنب أن يتوب فوراً إلى الله عزَّ وجلَّ ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ فكلَّما قلَّت المسافة الزمنيّة بين الذنب والتوبة كانت التوبة أسهل ، وكلَّما جهِل الإنسان أنَّ هذا ذنب كانت التوبة أسهل ، فإذا علم أنَّه ذنب وفعله ، ثم إذا فعله تراخى عن أن يتوب كانت التوبة أصعب ، التوبة تسهُل إذا ضاقت المسافة الزمنيّة بين الذنب والتوبة ، وتسهُل إذا رافقها جهل ، قال الله تعالى :

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام : ٥٤] .

لأنَّ الله عفوٌّ كريم فتح لعباده باب التوبة ، فالإنسان ليس له عذر في التراخي عن توبته ، فمهما ارتكب من ذنوب فقد قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٤٨] .

يغفر كلَّ الذنوب دون الشرك بالله ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ وقد قال تعالى : ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ .

ولا يعرف قيمة التوبة إلا من ذاق طعم التوبة ، حينما يتوب إلى الله يشعر أنَّ الله قبله ، وأنَّ الله أنسى حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلَّها خطاياه وذنوبه .

وبعد فإن اسم العفوّ ماذا يعني في اللغة ؟ العفوّ اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ورد في الأحاديث التي ذكَّر فيها النبيّ عليه الصلاة والسلام أصحابه بأسماء الله الحسنى ، ومن هذه الأسماء اسمُ العفوّ . . العفوُّ مشتق من العَفْو ، فالعفوُّ اسم من أسماء الله الحُسنى ، والمصدر هو العَفْو ، ومعنى المصدر في المعاجم اللغويَّة : القصدُ لتناولِ الشيء .

العفْو . . القصدُ لتناول الشيء . يُقال : عافاهُ . . واعتفاهُ ، أي قصده . . العافون : القاصدون ، القاصدون باب الكريم يقال لهم عافون ، ورد هذا في الأشعار وفي لغة العرب . هذا معنى « **العافون** » أي : القاصدون العطاء .

والمعنى الثاني . . هذا من عفو مالي : أي من حلاله وأطيبه ، عفو المال حلاله وطيِّبه .

والمعنى الثالث . . أعطيته عفواً . . من غير سؤال .

والمعنى الرابع . . عفا مال فلان . . أي كثُر .

والمعنى الخامس . . العافي هو الذي يمحو ويزيل .

خمسة معانٍ للعفو . . القصدُ ، عفو المال حلاله ، أعطيته عفواً من غير سؤال ، عفا مال فلان أي زاد وكثُر ، العافي هو الذي يمحو ويزيل ، ومنه قولهم : عفت الرياح الآثار إذا محتها وأزالتها . . العفوُّ محو الذنوب ، وفي الدعاء الذي يدعوه ﷺ حين يصبح وحين يمسي : « **اللهمَّ إنّي أسألك العفو والعافية** » . أي ترك العقوبة والسلامة .

وبالطبع البحث المنهجي في أسماء الله الحُسنى يقتضي أن نفهم المعنى اللغوي أصلاً ، وفي قاموس تاج العروس : العفو أقلُّ من الصفحِ ، لأنَّ الصفح أبلغ من العفو ، والصفحُ لا تأنيب معه ، قد أعفو عن إنسان وأؤنِّبه . فقد يعفو إنسان ولا يصفح .

يقول أحد العلماء : « **العفوُّ منه العفو** » . . والآن قد دخلنا باسم الله الأعظم . . العفوُّ هو الذي يمحو السيِّئات .

أحياناً يكون للإنسان في جهة من الجهات صحيفة مسجَّلة فيها سيِّئاته وسلبياته فإذا أُحرِقت ، أو شُطبت ، أو طُويت ، أو أهمِلت ، انتهى الأمر وغدا أبيض الصحائف ، العفوُّ هو الذي يمحو السيِّئات ؛ لهذا روي عنه عليه الصلاة والسلام :

« **من تاب إلى الله توبةً نصوحاً ، أنسى الله حافظيه وجوارحه ، وبقاع الأرض كلّها خطاياه وذنوبه** » .

لذلك فالمؤمن الصادق يُحدِثُ عند كلِّ ذنبٍ توبةً ، وكلَّما ارتقى الإنسان تقِلُّ ذنوبه عدداً وتقلُّ حجماً ، فإذا ارتقى أكثر يكادُ يبتعِدُ عن مقارفة الذنوب كلّيّة إلا ما كان عن غير قصدٍ أو عن زلةٍ لم تكن متعمَّدة .

العفوُّ هو الذي يمحو السيِّئات ، ويتجاوز عن المعاصي ، وهو قريبٌ من اسم الغفور ، ولكنَّه أبلغ منه ، فإنَّ الغُفران يُنبىء عن

الشرّ ، على حين أن العفو يُنبىءُ عن المحو . . وجدت مشكلة فغفرت ولم يعاقب الله عزَّ وجلَّ عليها ، هو غفور ، أما عفوٌّ فأبلغ من المغفرة فقد أنساها لصاحبها ، ومحاها من ذاكرته ، محاها من صحائفه .

المغفرة . . ذنبٌ وقعت فيه لكن ربَّنا سبحانه وتعالى لم يُعاقبك عليه لأنَّه غفور ، أما العفو فأبلغ من الغفور ، فهذا الذنب لعلَّه يؤلمك ، لعلَّك إذا تذكَّرته تستحي من الله ، لعلَّه يُقلقك . . العفوُّ محا هذا الذنب كُليّةً من صفحة نفسك . فلو أنّ صحيفة مملوءة بالذنوب وكلّ ذنب له عِقاب ، نكتب في أسفلها : صاحب هذه الذنوب لا يُعاقب . . هذه هي المغفرة ، أما أن نأخذ هذه الصحيفة ونمزِّقها ونُلغي وجودها ، فهذا هو العفو ، فالمغفرة ألا تعاقب على ذنب ، أما العفو فأن يُمحى هذا الذنب من صفحة نفسك ومن ذاكرتك ، فسيِّدنا يوسف عندما التقى بإخوته الذين كادوا له حينما كان صغيراً ، وألقوه في غيابة الجبّ وأرادوا له أن يموت ، فعندما التقى بهم ماذا قال ؟

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[يوسف : ٩٢] .

هذه مغفرة . . لكن عندما قال الله عز وجل :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[يوسف : ١٠٠]

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ ولم يقل من الجبِّ ، الآن هل غفر لهم أم عفا ؟ لقد عفا . . لأنَّه ما أراد أن يُذكِّرهم بعملهم ، فقد تجاهل عملهم كليّةً ، لو ذكَّرهم بعمله ولم يُعاقبهم لكان غفوراً ، لكنه لم يذكِّرهم

بعملهم إطلاقاً ، وهذا من فضل الله عزَّ وجلَّ هو عفوٌّ وغفور .

أحد العلماء يرى أنَّ العفوَ له معنيان . . « **المعنى الأول هو المحو والإزالة** » . . عفت الديار إذا درست ، فقد كان العرب ينصبون خيامهم في الصحراء ، وهذه الخيمة يحفرون حولها خندقاً لئلا يدخل الماء إليها إذا هطلت الأمطار ، ويسمّون هذا الخندق النُؤي ، فإذا ارتحل العرب من مكان إلى مكان بقيت آثار الديار على شكل مستطيلات ، ودوائر ، ترمز إلى الخنادق التي حُفرت حول الخيام ، بعد حين تأتي الرياح فتعفوها أي تمحو آثارها . . وهذا هو أصل معنى العفوّ .

فالمعنى الأول هو المحو والإزالة . . يقال عفت الديار إذا دَرَسَت وانطمست معالمها ، وذهبت آثارُها . . وعلى هذا فالعفو في حقِّ الله تعالى إزالة آثار الذنوب ، آثار الذنوب أي تذكُّرها ، وتذكُّر الذنب يحجب عن الرب ، ولو أنَّ الله لم يُعاقب ، لكن لمجرَّد أن تذكر ذنبك تستحي من ربِّك ، فمن أسماء الله الحُسنى أنَّه عفو يُنسيك هذا الذنب ، وهذه من رحمة الله بنا .

فهل هناك أحد لم يقُل كلمةً غير مناسبة طوال حياته ؟ يقول لك : ظللت أسبوعاً كلَّما ذكرت هذه الكلمة ذبتُ خجلاً . . وبعد ذلك نسيها ، فلو أنّها بقيت ماثلةً أمامه لأهلكت صاحبها ، فمن رحمة الله بنا أننا ننسى ، والنسيان رحمة كبيرة جداً ، فأحياناً يقف موقفاً حرجاً ويتكلَّم كلمةً غير لائقة ، أو يسمع كلمة قاسية ، جارحة ، فيقول لك : لم أنم الليل . . فكم ليلةً لم ينم الليل ؟ ليلةً واحدة فقط ، وفي الليلة الثانية تذكَّرها ولكنَّه نام ، وفي الليلة الثالثة نسيها ، وبعد أسبوع نسيَها تماماً .

لو أنَّ المواقف المحرجة ، والكلمات الجارحة ، والمواقف المهينة التي ساقها الله للإنسان رحمةً به لا ينساها أبداً لأهلكتهُ ، لكن الله عزَّ وجلَّ يُنسي ، فالنسيان من العفوّ ومن دلائل عفوه أنَّه يُنسيك هذا الذنب ، ولعلَّ فناء الإنسان في القبر ومع هذا الفناء يفنى دماغه ، ومع فناء الدماغ تفنى ذاكرته ، ومع فناء الذاكرة ينسى ذنوبه ، فإذا أحياه الله يوم القيامة أحيا نفساً طاهرةً مشرِقةً محبةً طائعةً لله ، فالماضي الذي سبق إيمانه وسبق اصطلاحه مع الله يصبح نسياً منْسيًّا .

وقد دخلنا الآن في موضوع دقيق. . فالإنسان كانت له في الدنيا جاهليّة ثم تاب إلى الله توبةً نصوحاً ، أعماله في جاهليّته مع أنَّه تاب منها توبةً نصوحاً ، وغفرها الله له ، وأنساه إيَّاها ، لكنَّه إذا ذكرها يتألَّم أشدَّ الألم ، أما حينما يموت المؤمن تائباً وتفنى ذاكرته ، ومع فناء ذاكرته فنيت ذنوبه أصلاً فلم يعد لها وجود ، فقلب المؤمن طاهر ، نفسه التي بين جنبيه طاهرة منيبة ومستقيمة ومقبلة ، أما الذاكرة فقد فنيت وفنيت معها الذنوب ، فيأتي يوم القيامة ، ولأنَّه مات تائباً لا يُذكِّره الله بذنوبه إطلاقاً .

فقد يقول أحدهم عن نفسه إنَّه تائب منذ عشر سنوات ، أو أنه من عشرين سنة سائرٌ في طريق الإيمان ، لكن قبل عشرين سنة لعلَّه أخطأ ، أو زلَّت قدمه ، فهذا الماضي في الدنيا تَذَكَّره ، ولكن في يوم القيامة ، إن كنت قد تبْت فلا تذكره أبداً ، وهذا من رحمة الله بالإنسان .

لذلك العفو في حقِّ الله تعالى إزالة آثار الذنوب بالكليّة ، فيمحوها الله من ديوان الكِرام الكاتبين ، فلو افترضنا أنّ إنساناً له

صحيفة أعمال سوداء ، ومن يشرف على هذه الصحائف أراد أن يُكرِمه فماذا يفعل ؟ يأتي بهذه الإضبارة فيحرقها أمامه ، فلم يبقَ أصل لهذه الذنوب فقد انتهت إلى فناء ، وهذا للتقريب .

فالله سبحانه وتعالى يمحو ذنوب العبد التائب من ديوان الكِرام الكاتبين أي الملائكة الذين يكتبون ، ولا يُطالبه بها يوم القيامة ، ويُنسيهم إيّاها ، حتى من جذر قلوبهم كي لا يخجلوا عند تذكُّرها ، ويُثبِّت مكان كلِّ سيِّئةٍ حسنة قال تعالى :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٧٠] .

يجب أن نستفيد ، وأن نسعد بهذا الاسم العظيم .

المعنى الثاني في حقِّ الله تعالى :

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ ﴾ العفوَ أي الفضل ، فالله عزَّ وجلَّ يمحو ذنوب عباده ويتفضَّل عليهم بفضله ، هذا أسموه التخلية والتحلية ، التطهير والتعطير ، العفو والرحمة ، يمحو ويُكرم ، يطهِّر ويعطِّر ، يشفي ويزكِّي . . إذاً معنى العفو معنيان ؛ معنى سلبي ، ومعنى إيجابي ، السلبي المحو ، والإيجابي العطاء .

أحياناً يغسل الإنسان كأساً لها رائحة كريهة مثلاً ، أو بقايا طعام ، أو بقايا شراب ، فإن غسلها جيداً وبعد أن غسلها ملأها شراباً طيباً فهذا من معاني العفو . . فالعفو لا يعني أنه محا الذنوب ، وستر

العيوب فقط ، لا . . بل أعطاك من فضله ما شاء فوق ما محا ، هذا معنى جديد للعفو أي عفا محا ، وعفا أعطى ، هذا من عفوِ مالي . . أي حلالهِ وطيِّبِهِ ، أعطيته عفواً . . أي من دون سؤال ، فمن معاني العفو العطاء ، والمعنى السلبي المحو ، والمعنى الإيجابي العطاء .

وقال بعضهم : **« العفو هو أن تزول عن النفوس ظلمة الزلاَّت برحمته ، ووحشة الغفلات عن القلوب بكرامته »** ، وقيل : **« العفو الذي أزال الذنوب من الصحائف ، وأبدل الوحشة بفنون اللطائف »** . . إزالة ، وعطاء .

أحد الأئمة يقول : **« العفوُّ هو الذي يمحو آثار الذنوب ، ويُزيلها بريح المغفرة ، فهو يمحو الذنوب من ديوان الحفظة ، حتى إنّه يُنسيها من قلوبهم ومن قلوب المذنبين . . أو هو الذي يترك المؤاخذة على الذنوب ولا يُذكِّر بالعيوب »** .

هذه كلُّها من معاني العفو . . فما عليك إلا أن تقول يا رب لقد تُبت إليك . . فإذا قال العبد : يا ربِّ وهو راكع . قال الله : لبَّيك يا عبدي . وإذا قال العبد : يا ربِّ وهو ساجد . قال : لبَّيك يا عبدي فإذا قال العبد وهو عاصٍ : يا ربِّ تبتُ إليك وأنا عاصٍ . قال : لبَّيكَ ثم لبَّيك ثم لبَّيك .

فلتوضيح الفكرة . . الأب إن كان عنده أولاد أبرار طائعون وواحد منهم كان شارداً وعاقاً ، ففرح الأب برجوع ابنه إليه وتوبته إليه أضعاف مضاعفة عن فرحه بهؤلاء الأبرار ، لأنَّهم سلكوا الطريق الصحيح وانتهى الأمر إلى خير ، أما هذا الشارد فيتألَّم الأب له أشدَّ الألم ، فإذا عاد فرح الأب بعودته ، ومن هنا روي عنه عليه الصلاة والسلام :

« لله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد ، ومن الضال الواجد ، ومن الظمآن الوارد » .

اسم العفوُّ ورد في القرآن الكريم في آياتٍ كثيرة تزيد على تسعٍ وثلاثين آية. . ومن هذه الآيات قال تعالى :

﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [النساء : ٩٩] .

كلمة ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ . . أو ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ . هذه الكينونة تفيد أنَّ أسماء الله الحسنى قديمةٌ قدم الله عزَّ وجلَّ ، منذ أن كان الله كان عفواً غفوراً . . منذ أن كان الله كان عليماً حكيماً . . منذ أن كان الله كان على كلِّ شيءٍ قديراً ، أي أنَّ أسماءه متلازمةٌ مع وجوده .

وقال تعالى : ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء : ١٤٩] .

طبعاً المقولة الثابتة : تخلَّقوا بكمالات الله . فإذا كان الله عفواً يجب أن تكون أنت عفواً ، إذا كان الله حليماً يجب أن تكون أنت حليماً فقال تعالى : ﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ أي أنت ما تقرَّبت إلى الله بمثل أن تتخلَّق بكمالات الله .

وفي سورة الحجّ قال تعالى :

﴿ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [الحج : ٦٠] .

أي حينما يُظلم الإنسان . وفي سورة المجادلة قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [المجادلة : ٢] .

هل أدركتم حكمة تلازم اسم العفوّ مع الغفور كثيراً ؟ الغفور لم يعاقبك ، أما العفوّ فقد أنساك الذنب كلَّه ، وهذا منتهى الإكرام ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ .

قال العلماء : ورد اسم العفو مع اسم الغفور ، وورد مع اسم القدير ، ولله المثل الأعلى فالإنسان أحياناً لا يستطيع أن يعفو ، فهناك من هو أقوى منه يحاسبه ويؤاخذه ، فإن كان هناك من لا يستطيع أن يعفو ، فإنّ الله عزَّ وجلَّ قال : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ . . أي قدير أن يعفو عنك كلَّ الذنوب ، فقد قال تعالى :

﴿ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ ، ولذلك ورد في قوله تعالى على لسان سيِّدنا عيسى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٨] .

فالعزيز. . أي أنَّك لو غفرت لهم فلا تستطيع أية جهة في الكون أن تسأل : لِمَ غفرت لهم ؟ لأنَّ الله سبحانه وتعالى إلهٌ عظيم ، ومن شأن الإله العظيم ألا يُسأل عما يفعل ، فالله وحده قديرٌ أن يعفو عنك دون أن يُسأل .

وهناك نقطةٌ بالغة الأهميّة في طريق الإيمان ، يقول لك إنسان أحياناً أنا قد تبت إلى الله من هذا الذنب ، لكن عندما تكون هناك توبة عقب توبة ويعقبها توبة للذنب نفسه ، فتضعف ثقة الإنسان بنفسه ، وربما وقعت بينه وبين الله جفوة ، والإنسان حكيم نفسه فإذا وقع انهدامٌ بينه وبين الله ، أو جفوةٌ بينه وبين الله فما العمل ؟ دققوا النظر فيما سأقوله :

إنسان ارتكب إساءة في حقِّ إنسان ، فما دامت هذه الإساءة قد

ارتكبها ولم يستسمح هي حجابٌ بينه وبين هذا الإنسان ، لو أنَّه قدَّم له هديَّةً ثمينة ففي الأعم الأغلب أنَّ هذه الهديَّة تُنسي الذي أساء إليه تلك الإساءة ، فماذا حدث ؟ حدث ترميم وجبر ، وإعادة توازن ، وإعادة علاقات ، وحدث محو . . وهذا معنى مهم جداً ويحتاج إليه كلُّ مؤمن .

قال عليه الصلاة والسلام :

« اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » .

السيِّئة هل ينبغي أن نتوب منها أم نتبعها بحسنة ؟ فأحياناً الإنسان يقع في الذنب نفسه مرَّةً أو مرتين ، ففي المرَّة الثانية يخجل ولو تاب ، فما الذي يُذهب عنه الخجل ؟ أن يُتبعها بحسنة . فعوِّدوا أنفسكم أيها المؤمنون أنَّ كلَّ ذنب وقعت فيه عن غير قصدٍ بإمكانك أن تتبعه بعملٍ صالح ، وهذا العمل الصالح يُنسي صاحبه هذا الذنب ، واعتقد أنّ العمل الصالح الذي قام به سيفرحه .

فإذا أحرم الإنسان عند الحج بعمرةٍ ثم تمتَّع إلى الحج ، فعليه هدي جبرٍ ، أما إذا جمع بين الحج والعمرة قارناً فعليه دم شُكرٍ ، لأنَّ الله قد قوّاه ومكَّنه من أن يعتمر ويتابع إحرامه إلى الحجّ ثم يحُجّ ، وهذا قارن وعليه دم شكرٍ ، أما إذا اعتمر ثمَّ تحلل من عمرته ولبس الثياب المخيطة وتعطَّر وأكل وشرب وحلق رأسه واغتسل وقصَّ شعره وأظافره ، وفي اليوم الثامن من ذي الحِجَّة أحرم بالحجّ ، فيقال هذا متمتِّع ، والمتمتِّع عليه هديٌ ، هديُ جبرٍ . . والقارن عليه هدي شُكرٍ . . وسائر الكفَّارات في الإسلام هدفها أنَّ هذا الشرخ الذي

وقع ، وهذه الهوَّة ، واختلال التوازن الذي وقع يرمم بهذه الصدقة .

وقد ورد أنَّ الإمام أبا حنيفة رحمه الله تعالى ألزم نفسه أن يتصدَّق بدينار ذهبٍ عن كلِّ يمينٍ يحلفها صادقاً بها ، لأنَّ الله تعالى يقول :

﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ في قوله تعالى :

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة : ٨٩] .

فأهم شيء في هذا البحث أنَّ الله عزَّ وجلَّ عفوّ ، وغفور ، فالغفور لا يُعاقب . . والعفو يُنسي الذنوب ، لكنّك أنت حينما تزلُّ القدم بك مرةً أو مرّتين في الذنب نفسه ينشأ بينك وبين الله حجاب ، وهذا الحجاب ما الذي يَهتكه ؟ العمل الصالح . . فعوِّد نفسك أن تعمل العمل الصالح كلَّما غفلت ، أو أخطأت ، أو تسرَّعت ، أو تكلَّمت كلمةً ، أو فعلت شيئاً لا يُرضي الله عزَّ وجلَّ .

لذلك قال تعالى :

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود : ١١٤] .

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « سِتَّةَ أَيَّام ثُمَّ اعْقِلْ ، يَا أَبَا ذَرٍّ مَا يقَالُ لَكَ ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ السَّابِعُ قَالَ : أُوصِيكَ بتَقْوَى اللهِ فِي سِرِّ أَمْرِكَ وَعَلانِيَتِهِ ، وَإِذَا أَسَأْتَ فَأَحْسِنْ ، وَلا تَسْأَلَنَّ أَحَداً شَيْئاً وَإِنْ سَقَطَ سَوْطُكَ ، وَلا تَقْبِضَنَّ أَمَانَةً » .

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ

قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ الله عَنْهم يَقُولُ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ حِينَ ذَكَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ ، ثُمَّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي مثل هَذَا الْقَيْظِ عَامَ الأَوَّلِ : « سَلُوا اللهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ وَالْيَقِينَ فِي الآخِرَةِ وَالأُولَى » .

وكان سيِّدنا عمر رضي الله عنه إذا أصابته مصيبةٌ كان يقول : الحمد لله ثلاثاً ، الحمد لله إذ لم تكُن في ديني ، والحمد لله إذ لم تكُن أكبر منها ، والحمد لله إذ أُلهمتُ الصبر عليها .

وبعد هذا الشرح الواضح فمن التخلُّق بأخلاق العفو . . أن تعفو عمن ظلمك ، وأن تُعطي من حرمك ، وأن تصل من قطعك ، هذه أخلاق المؤمنين فقد قال تعالى :

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٤ـ٣٥] .

سيِّدنا الصديق . . . إنسان افترى على ابنته السيِّدة عائشة رضي الله عنها كذباً وروَّج أنَّ ابنته زانية في حديث الإفك . . فهل هناك إساءةٌ أشدَّ من أن يُسيء الإنسان إلى عِرض أخيه وهي بريئةٌ وطاهرةٌ وعفيفة ؟ ومع ذلك مسطح روَّج هذه القصَّة وأشاعها في المدينة ، وتأخَّر الوحي في تبرئة السيِّدة عائشة ثلاثين يوماً ، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام لا يدري ماذا يفعل ، وسيِّدنا الصديق كان يُحسن لهذا الإنسان ، فلمَّا وقع في هذه الإساءة الكبيرة الإجراميَّة نوى أن يَكُف عن الإحسان إليه ، فجاء قول الله تعالى :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٢٢] .

فقد ورد في الأثر :

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الإفْكِ مَا قَالُوا فَبَرَّأَهَا اللهُ مِمَّا قَالُوا كُلٌّ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنَ الْحَدِيثِ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ﴾ الْعَشْرَ الآيَاتِ كُلَّهَا فِي بَرَاءَتِي ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ : وَاللهِ لا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئاً أَبَداً بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الآيَةَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : بَلَى وَاللهِ إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَقَالَ : وَاللهِ لا أَنْزِعُهَا عَنْهُ أَبَداً .

وعاد إلى ما كان عليه وهذا شيء فوق طاقة البشر . . إنسان روَّج الخبر السَّيِّء عن ابنته وأرجف في المدينة ، ثم يُعاتبه الله لماذا كفَّ عن مساعدته ؟ هكذا أخلاق المؤمنين. . . وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم .

الحقيقة أنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يأمرنا أن نعفو عن المسيء فحسب ، بل أمرنا أن نُحسن إليه ، فقد قال تعالى :

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣ـ١٣٤] .

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وكذلك الآية الكريمة التي تقول : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ .

من كان حظُّه عظيماً من الاتصال بالله عزَّ وجلَّ فليحمد الله كثيراً ، فسبحان الله عندما يعفو الإنسان عن أخيه يملأ الله قلبه أمناً وإيماناً ، أما حينما ينتقم منه فإن الله يملأ قلبه خوفاً وجفوةً ، فالمنتقم يُعاقبه الله عزَّ وجلَّ ، باللعنة والطرد من رحمته وجفوة قلبه والقلق الذي يأكل قلبه ، أما الذي يعفو يملأ الله قلبه أمناً وإيماناً ، فما دمت قد عفوت عنه اشتريته ، ولأن يربح الإنسان إنساناً خيرٌ له من أن يربح الدنيا وما فيها .

فالإنسان حينما تعفو عنه تربحه . . فسيِّدنا النبي ﷺ أمر بقتل بضعة أشخاص يوم فتح مكة لأنَّهم أساؤوا إساءةً ما أساءها أحدٌ قبلهم إلى الإسلام وإلى دين الله عزَّ وجلَّ ، منهم عكرمة بن أبي جهل . . ثم جاء عكرمةُ مسلماً تائباً مستغفراً ، فالنبي ﷺ بالغ بإكرامه .

فالخلاصة أنّ هذه الأسماء الحسنى يجب أن تزيدنا حباً بالله عزَّ وجلَّ وتخلُّقاً بهذه الأخلاق .

* * *

الجامع

من أسماء الله الحُسنى الجامع . . فقد ورد هذا الاسم في الأحاديث التي ذكر فيها الرسول ﷺ أسماء الله الحُسنى .

أما معنى هذا الاسم في اللغة . . فالجمع هو الضَّم ، جمعتُ يديَّ أي ضممتهما ، تجميع أجزاء الشيء بعضها إلى بعض هو الجمع ، ويوم الجمع هو يومِ القيامة ، كلُّ الخلائق يجمعها الله عزَّ وجلَّ للحساب ، فالله سبحانه وتعالى في هذا اليوم يجمع الأوَّلين والآخرين ، ويجمع الإنس والجن ، ويجمع أهل السماء وأهل الأرض ، ويوم الجمع أيضاً يجمع الله سبحانه وتعالى العبد وعمله .

قد تلتقي بإنسان في مكانٍ ما يقول لك : أنا اسمي فلان ، وأحمل الشهادة الفلانيّة ، ولي المؤلَّف الفلاني ، فلو طلبت إضبارته في دائرته لوجدت هناك عقوبات وأعمالاً لا تُرضي ، فأنت لم تكتشف حقيقته ، أما إذا جُمع مع أعماله فإن التقييم يكون صحيحاً .

أعود وأقول يوم الجمع يوم القيامة ، يجمع الله فيه بين الأولين والآخرين ، بين الإنس والجن ، بين أهل السماء وأهل الأرض ، يجمع بين العبد وعمله فقد قال تعالى :

﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١٤] .

الإنسان أحياناً يُفتضح في مكان فينتقل إلى بلدة أخرى ، وفي هذه البلدة لا أحد يعرفه ، أما إذا انتقلت المعلومات عنه إلى تلك البلدة فقد جُمع مع عمله ، شيءُ مخيف أن يُجمع الإنسان مع عمله ، أن يكون عمله كلُّه مسطوراً في كتاب ، وأنَّ هذا الكتاب يرافقه إلى أيِّ مكانٍ انتقل إليه .

وسُمي يوم الجمع لأنَّ الله سبحانه وتعالى يجمع بين الظالم والمظلوم ، بين القوي والضعيف ، بين المعطي والآخذ ، بين المتكبِّر والمتواضع ، بين القوي الظالم والمستضعف المظلوم ، يجمع بينهم ليقتصَّ الله للضعيف من القوي ، للمظلوم من الظالم ، للمستضعف من المستكبر ، ويجمع الله سبحانه وتعالى في هذا اليوم بين كلِّ نبيٍّ وأمَّته ، كلُّ نبيٍّ يأتي مع أُمَّته ليكون شهيداً عليهم فقد قال تعالى :

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧] .

ويجمع الله عزَّ وجلَّ في هذا اليوم بين ثواب أهل طاعته ، وعقاب أهل معصيته ، وسمّى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يوم الجمع ، لأنه يجمع فيه كلَّ هذه الخلائق من أوَّلها إلى آخرها ، يجمع الإنس والجن ، يجمع أهل السماء وأهل الأرض ، يجمع كلَّ عبدٍ مع عمله ، يجمع بين الظالم والمظلوم ، والمستكبر والمستضعف ، والقوي والضعيف ، ويجمع كلَّ نبيٍ مع أمَّته ، ويجمع بين ثواب أهل الطاعة وعقاب أهل المعصية ، ذلك يوم الجمع .. فمن هذا الاسم يشتقُّ اسم الجامع .. فمن الذي جمع هؤلاء ؟

فأحياناً تقف عقبة في سبيل إحقاق الحق ، ذلك أنَّ الطرف الآخر

لـم يُبلَّـغ لعـدم وجـود عنـوان معـروف للتبليـغ عليـه ، فمـاذا يفعـل المظلوم ؟ أقام دعوىٰ ، فكيف يحضر الطرف الآخر ويأتي به إلى ساحة القضاء وهو ليس له عنوان وإبلاغه مستحيل ؟ لكن الله سبحانه وتعالى ولله المثل الأعلى يجمع ، يجمع القوي مع الضعيف ، والظالم مع المظلوم ، والمستكبر مع المستضعف ، هذا معنى . . لأنَّ يوم القيامة هو يوم الجمع فالله سبحانه وتعالى جامعٌ ، أي يجمع كلَّ هذه الخلائق ليحاسبها .

والله سبحانه وتعالى جامعٌ بمعنىً آخر . . هو جمع الكمالات كلَّها ، ذاتاً ، وصفاتٍ ، وأفعالاً ، وكما تعلم أنَّ كلَّ إنسانٍ يتفوَّق في جانبٍ من جوانب الكمال ، أما أن يجمع الكمالات كلَّها فهذا مستحيل ، أما أن يجمع الاختصاصات كلَّها فهو أشدُّ استحالةً ، أما أن يجمع الحِرف كلَّها فمستحيل ، كذلك أما أن يجمع الخبرات كلَّها فهذا مستحيل .

فالإنسان له حرفةٌ واحدة ، واختصاصٌ واحد ، وتفوُّق واحد ، واهتمام واحد ، ونشاط واحد ، أما أن يجمع كلَّ الكمالات ، يجمع كلَّ الاختصاصات فلا ، فعندما يتقن الإنسان عملين يُدهشنا . . نقول : مـا شـاء الله هـذا لـه اختصـاص علمـي وحـرفـة يـدويَّـة ، أو تجـارة وتدريس ، يعجبنا أن يجمع الإنسان بين شيئين .

لكنَّ الله سبحانه جلَّ في عُلاه جمع الكمالات كلَّها ، أجل جمع كل ذلك أسماؤه كلُّها حُسنى . . فالإنسان لا يستطيع أن يتفوَّق إلا في جانب ، إلا أنَّ النبيّ ﷺ جمع الكمالات كلها ، جمع الكمالات البشريَّة كلَّها ، وكل صحابي من صحابته حاز على بعضها ، فهذا

تفوَّق في شجاعته ، وهذا في حلمه ، وهذا في جوده ، وهذا في عفوه ، وهذا في عبادته ، وهذا في قيادته ، لكنَّ النبيَّ ﷺ كان بطلاً في كلِّ الاختصاصات ، فلذلك مدح فقيل فيه :

وأجمل منك لم تر قطُّ عيني وأكمل منك لم تلِدُ النساءُ

كان عليه الصلاة والسلام في أعلى درجات الأدب ، في أعلى درجات الحلم ، في أعلى درجات الرحمة.. في أعلى درجات الوقار ، في أعلى درجات الهيبة ، في أعلى درجات العلم .

يا أيُّها الأُميُّ حسبك رتبةً في العلم أن دانت لك العُلماءُ

فالنبيُّ ﷺ جمع هذه الكمالات البشريَّة كلها ، والله سبحانه وتعالى جمع الكمالات كلَّها في ذاته ، وفي صفاته ، وفي أفعاله .

وبعض العلماء له في اسم الجامع وقفةٌ متأنِّية يقول : « **هو المؤلِّف بين المتماثلات والمتباينات والمتضادات** » .

وكمثالٍ في حياتنا الواقعيَّة أن يجمع إنسان مئة ألف من الناس دفعة واحدة فهذا مستحيل فقد يجمع خمسة آلاف ، ثلاثة آلاف ، فجمع الناس يحتاج إلى طاقات كبيرة جداً ، يحتاج إلى ملكات قياديَّة ، يحتاج إلى تفوُّق ، من أجل أن تجمع الناس إليك .

كم إنسان في هذه الأرض ؟ ستة آلاف مليون كلُّهم من بِنيةٍ واحدة ، والدليل أنَّ الدواء الذي يُصنع في كندا يستعمل في أستراليا ، وأنَّ المسكِّن الذي صنع في فرنسا يؤثِّر في اليابان ، وأنَّ الدواء المضاد للالتهاب إذا صنع في اليابان يؤثِّر في البرازيل ، فمعنى ذلك أنَّ بنية الخلق واحدة ، جمع بين المتماثلات ، إلا أنَّه من سعة الله عزَّ وجلَّ أنَّ كلَّ إنسانٍ نسيج وحده ، فالإنسان لكرامته على الله عزَّ وجلَّ

جعله فرداً فهو فردٌ في شكله ، فردٌ في قِوامه ، فردٌ في ملامحه ، فردٌ في لونه ، فردٌ في قُزحيَّة عينه ، فردٌ في تركيب دمه ، فردٌ في بصمته ، فردٌ في رائحة جلده ، فردٌ في نبرة صوته ، فالله عزَّ وجلَّ جامع وواسع ، جمع المتماثلات وواسعٌ جعل كلَّ إنسانٍ نسيج وحده ، وله طابعٌ خاص لا يشركه فيه أحد .

أما المتباينات . . فقد جمع بين السماء والأرض ، والطول والعرض ، وجمع الماء . . البحر واليابسة . . فعند الساحل تجد هذا هو البحر وهذه هي اليابسة ، يجمع بين المتباينات . . ماءٌ ويابسة ، بحرٌ ونهرٌ ، جبلٌ وسهلٌ ، سهلٌ وغورٌ ، ساحلٌ وداخل . . فالأشكال متباينة ، والطعوم متباينة ، فكم لوناً موجوداً في الكون ؟ لو نظرت إلى طاقة من الورد فكم لوناً فيها ؟ قرأت قبل أيّام أنَّ في البحر وحده مليون نوع من الأسماك أي ألف ألف نوع من السمك ، هذا جمع بين المتباينات .

فتجد سمكة شفافة صغيرة من أسماك الزينة ، وسمكة سوداء ، وأخرى عملاقة طولها ثلاثون متراً وتزن مئة وخمسون طناً وهو الحوت الأزرق ويعيش في المحيط الجنوبي ، ويستخرج منه تسعون برميلاً من زيت الحوت ، وخمسين طناً من الدهون ، وخمسون طناً من اللحم ، ويزن لسانه أربعمئة وخمسون كيلو غراماً مثلاً ، . . وإذا أرضع وليده فالرضعة الواحدة تبلغ ثلاثمئة كيلو غرام ، وإذا أراد أن يأكل فإنه يلتهم في الوجبة المعتدلة أربعة أطنان ، فبداخل الحوت بحر وتعوم فيه سمكة سوداء طولها سنتيمتر واحد تزيينيّة .

وهناك سمكةٌ كأنَّها باقة من الورد ، وهناك سمك يمشي على أربع

أرجل في أعماق المحيطات وقاعها ، وهناك سمكٌ يدافع عن نفسه بشرارة صاعقة كهربائيّة تبلغ ستة آلاف فولط ، وهناك سمك يهرب من عدوِّه عن طريق سحابة سوداء كأنَّها حبر أسود ، وهذا الذي يستخرج منه حبر المطابع ، وهناك سمك له ضوء يهتدي به أثناء سيره في أعماق المحيطات ويجذب إليه فريسته ليأكلها ، فإذا قرأ الإنسان موسوعة عن البحار يرى العجب العجاب ، وهناك سمكةٌ من نوع الأفعى طولها سبعة وعشرون متراً ، وهناك خنزير البحر ، وقنفذ البحر ، والدلفين وهو من أذكى الحيوانات وهو صديق الإنسان ، فسبحانه وتعالى جعله في السواحل ومهمته أن يُنقذ الغرقى ، وأن يدُلَّ ربَّان السفن ، فهو كالقائد ، وهو أليفٌ للإنسان بدرجة غير معقولة وصديقٌ له ، فإذا كان رأى غريقاً أنقذه ، أو تائهاً أرشده وهو مشهور .

فكم نوعاً من الأسماك ؟ وكم نوعاً من الأطيار ؟ وكم نوعاً من الأزهار ؟ كم نوعاً من الأبصال ؟ الجواب أنّه كثير كثير . . فقد جمع الله بين المتماثلات كالإنسان ، فهو متماثل في بُنيته مختلف في طباعه ، والمتباينات كذلك . . فتخيَّل كم شكلٍ لورقة النبات . . فهناك ورقة مثل الإبرة وورق دائري ، وورق مثلَّث الشكل ، وورق مستطيل ، وورق له طرف مسنن ، وورق له طرف مستقيم ، وورق له ثنيّات كورق بعض نخيل الزينة ، فلو حاولت أن تستقصي أشكال أوراق النباتات فلن تنتهي منها ، فورق صغير ، ونبات دائم الخضرة ، ونبات متساقط الأوراق ، ونبات جذري ، ونبات ساقي ، ونبات أساسه الورق ، شيء لا يُعدُّ ولا يُحصى ، فإذا دخلنا في شرح نبات واحد كالقمح مثلاً فكم نوعاً له ؟ ثلاثة آلاف وخمسمئة نوع . .

والعنب له ثلاثمئة وثلاثون نوعاً.. فليس هناك فاكهة أو محصول زراعي إلا ينقسم إلى مئات بل بضع مئات من الأنواع .

وبعد ،... فاسم الجامع أنَّه جمع بين المتباينات ، وجمع بين المتماثلات ، وجمع بين المتضادَّات ، فأحياناً هناك شيءٌ مضادٌّ للشيء الآخر.. كالحرارة والبرودة ، ظلامٌ دامس ثم بعد حين شمسٌ مشرقة.. يا رب أين الليل إذا جاء النهار ؟! ففي العصر شمس جميلةٌ جداً وهي شمس الأصيل ، وفجأةً غابت وأصبح الظلام دامساً ، وأين النهار إذا جاء الليل ؟ ويقال : درجة الحرارة أربعون درجة مئويَّة ، وفجأة تأتي موجة من البرودة فتلطّف الجوّ كثيراً ، موجة من الحرّ فيتخفف الناس من ثيابهم وفجأة تعقبها موجة من البرد.. فحرٌّ وبرد ، ورطوبة ويبوسة ، هذه كلُّها متضادَّات يجمع بينها .

فهو سبحانه يجمع بين المتضادَّات ، وبين المتباينات ، وبين المتماثلات .

شيء آخر.. الجمع مع الوساطة.. فمثلاً الحجر ، وهو أساسي في حياتنا ، فبناؤنا من الحجر ، والحديد هذا أساسي كذلك في حياتنا ، فكيف تستطيع أن تجمع بين الحديد والحجر ؟ لو أردت أن تُثبت سور حديدياً على جدار حجري فكيف ذلك ؟ خلق الله لك معدناً للجمع بينهما وهو معدن الرصاص ، فتجد الرصاص ينصهر ببساطة عند الدرجة مئة مئويَّة ويصبح سائلاً ، فإذا حفرنا حفرةً في الجدار الحجري كشكل ثمرة الكمثرى ـ الإجاصة ـ وسكب فيها الرصاص الذي من خصائصه التمدُّد بعد البرودة ، فإذا تمدد ليس في الأرض جهةٌ تستطيع قلع هذا القضيب الحديدي من الحجر إلا بقطعه

بالمنشار . فكيف جمع بين الحجر والحديد ؟ عن طريق معدن الرصاص .

وقد تجد متضادَّات جمعت بعضها مع بعض من خلال أجسام ثالثة وسيطة .

هناك شيء آخر في الاسم الجامع . . . فأحياناً سبحانه وتعالى يجمع ولكن مع الجمع هناك تنسيق . . فليس من السهولة أن تكون مديراً لمؤسسة ويعمل لديك مئتان من الموظَّفين وكلُّهم في مكان واحد ، وكل إنسان يعمل في عمله دون أن يتضارب عمل مع عمل آخر ، أو أن يتناقض عمل مع عمل ، أو يزدوج عمل مع عمل ، الجمع مع التنسيق .

فكذلك الحيوانات والحشرات . . فالنحل يتحرَّك نحو حقول الأزهار ، فكيف يتحرَّك ؟ تجد النحلات المستطلعات تتعرَّف بادىء ذي بدء إلى موقع الحقول وتعود وترقص ، وطريقة رقص هذه النحلات يُحدِّد بعد الحقل عن خليَّة النحل ، وتواتر الرقصة يُحدِّد غزارة المحصول ، وجهة الرقصة يحدِّد جهة المحصول ، فهذه النحلات تنظر إلى الراقصات فتعرف جهة الحقل ، وبُعد الحقل ، وغزارة الحقل ، فتنطلق النحلة وتقع على الزهرة وتمتصُّ رحيقها ، وبينما هي تمتصُّ رحيقها تُلقِّحها ، فالنحل له وظيفة التلقيح أيضاً ولعلَّها من أخطر الوظائف ، النحلة حينما تعود إلى خليَّتها . . إذا كان موسم الأزهار كثيفاً فلا تدخل إلى الخليَّة بل تُعطي حمولتها من الرحيق وحبوب اللقاح لنحلةٍ على باب الخليَّة من أجل توفير الوقت . . وهناك نحلةٌ حارسة ، ونحلةٌ وصيفة ، ونحلةٌ منظِّفة ، تنظِّف

الخلايا ، ونحلات تصقلها ، ونحلات تُلمِّعها . . تنظيف ، وصقل ، وتلميع . . هناك نحلات مستطلعة ، وهناك نحلات مغذِّية ، وظائف رائعة جداً وتنسيق بديع ، فهناك ملكة واحدة في كلِّ خليَّة فإذا نافستها ملكةٌ أخرى قُتِلت ، والذكور لها وظيفة ، والإناث لها وظيفة ، والحارسات لها وظيفة ، ونحلات موكَّلة بتهوية الخليَّة ، فلا تسمح لنحلة بالدخول للخليَّة إلا إذا ألقت كلمة السرِّ وإلا تُقتل . . فكيف جُمعت هذه النحلات ؟ كيف كان التنسيق بينها ؟!

أحياناً الإنسان إذا كان عنده عشرة موظَّفين فإذا استطاع أن يجعلهم جميعاً يعملون بتنسيق فيكون إدارياً ناجحاً جداً ، أحياناً يكون العاملون كثُراً وهم قليلون في الإنتاج ـ كثيرون وقليلون ـ أحياناً القدرة على تشغيل أعداد كبيرة من الأشخاص من دون أي تضارب أو ازدواجيَّة ومع التنسيق فهي قدرة عالية جداً ، فالله عزَّ وجلَّ اسمه الجامع . . جمع الأجزاء ونسَّق بينها .

فمثلاً الإنسان حرٌّ في اختيار مهنته أليس كذلك ؟ فتجد مدينة مثل دمشق كم خطاطاً فيها ؟ لو أن فيها مثلاً عشرة آلاف خطاط لماتوا من الجوع . . ولكن ليس فيها سوى خمسة أو ستة خطاطين ، فمن الذي حدد عددهم ، تجد المهن النادرة أصحابها قلائل ، وتجد المهن كثيرة جداً وكل إنسان حر في اختيار مهنته ، ولكنَّك تجد في النهاية تنسيقاً عجيباً ، والمهن موزَّعة توزيعاً بالتساوي ، فتجد هذا له اتجاه لمهنة الميكانيك ، وهذا للدراسة بالجامعة ، وهذا للبيع والشراء ، وهذا مهندس ، وهذا طبيب ، وهذا محام ، وفي النهاية تجد المحصِّلة أنَّ لدينا أطباء ومهندسين ومحامين وأصحاب حرف ومدرسين ودعاة ، فتجد في هذا الكون تنسيقاً عجيباً مع أن الإنسان مخيَّر ، فبالرغم من

أنَّه مخيَّر هناك تنسيق عجيب ، فمعنى الجامع هنا أنَّه جمع عباده وألَّف بينهم ، ومعنى التأليف هو التنسيق .

وإليك معنى آخر . . أنَّ الله سبحانه وتعالى جمع قلوب الأحباب فقد قال تعالى :

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٣] .

فقد جمع القلوب . . فزوج وزوجة . . فهذا من أسرة وهذه من أسرة ، هذا من بيئة وهي من بيئة أخرى ، هذا له ثقافة مغايرة وهي لها ثقافة ، يتزاوجان ، فتجد أقرب إنسان إلى الرجل في الحياة زوجته وأقرب رجل في حياتها زوجها ، فمن ألَّف بين القلوب فقد قال تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] .

من آياته الدالَّة على عظمته ، أنّ الإنسان يلتقي مع شبيهه ، مع مثيله أو صنفه ، مع من يلتقي ؟ يلتقي مع من يشبهه في فكره وفي قيمه وفي أخلاقه فمن ألَّف بين القلوب ومن جمع بين الشتات ؟ هذا من معاني اسم الجامع .

لو افترضنا أن طائرة احترقت ومات فيها إنسان ، فكيف يجمع الله رفاته ؟ رفاته التي احترقت تجمع يوم القيامة فقد قال تعالى :

﴿ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ [القيامة : ٤] .

كيف ؟ . . وقد قال تعالى :

﴿ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴾ [المرسلات : ٣٨] .

الجمع واسع جداً.. جمع خلقه، جمعهم في الدنيا، فقهرهم على أن يجتمعوا.. ولندقق متأمّلين.. قهرهم على أن يجتمعوا، فالإنسان مهما يكن ذكياً فهل بإمكانه أن يعيش وحده؟ فهو يحتاج إلى خبزٍ ليأكله، فلو كان يعيش وحده لاحتاج إلى أن يزرع، أن يحرث الأرض وأن يسمِّدها ويقلِّبها ويحصد محصولها، وأن يطحن وأن يخبز فمعنى ذلك أنه يبذل جهداً مستحيلاً، ويحتاج إلى ثياب، لكنَّ الله سمح لك أن تُتقن حاجة وأن تفتقر إلى الكثير من الحاجات، فأنت مقهور، أن تجتمع فهو الذي جمعنا، قال تعالى:

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠].

﴿ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠) ﴾.

وقيل: « **الجامع هو الذي يجمع أجزاء الخلق بعد تفرُّقها عند الحشر والنشر للحساب والجزاء، أو يجمع الخلق في موقف القيامة** ».

وقال بعض الأئمَّة ومنهم الإمام الرازي في تعريف الجامع:

« **هو الذي يجمع قلوب أوليائه إلى شهود عظمته، ويصونهم عن ملاحظة الأغيار برحمته** ».

اسم الجامع اسمٌ عظيم وهو اسمٌ ذو معانٍ كثيرةٌ جداً.. ولعلَّ من أجلِّ معاني هذا الاسم أنَّه يجمع الخلق ليحاسبهم، وأنت من أجل أن تعرف عظمة هذا الاسم حاول أن تدعو مئة شخص لعقد قران، فهذا يحتاج إلى اتصال هاتفي، وهذا ليس لديه هاتف، وهذا ذهبت إليه

فلم تجده ، فالأمر صعب ولا يعرف قيمة الجمع إلا من أراد أن يجمع حتى يخبر المئة مدعو يقول لك : هلكت.. فقد بذلت جهداً فوق طاقتي.. وهذا فقط للإعلام فكيف أن يأتوا جميعاً إليك ؟ . فاسم الجامع لا يعرفه إلا من أراد أن يجمع الناس على احتفال أو لقاء ، وهذه صورة مصغّرة جدًّا ، فالأمر صعب جدًّا ، أما ربنا عزَّ وجلَّ فكلُّ هؤلاء الخلق يجمهم يوم القيامة ليحاسبهم في وقت يسير وعلى صعيد واحد .

قال أحد العلماء : « **الجامع في وصفه تعالى بمعنى الحاشر للخلق والناشر لهم يوم القيامة للثواب والعقاب** ».. يجمعهم ويُحاسبهم.. بل إنَّه يجمع لحومهم المتفرِّقة.. هذا مات في البحر غرقاً ، وهذا مات في الجو احتراقاً ، وهذا دفن في صحراء ، وذاك دفن في سفح جبل ، حتى لحوم هؤلاء الموتى نفسها تجمع يوم القيامة.. وجلودهم المتمزِّقة ، وعِظامهم النخرة ، وهو الجامع بين الأشكال والأمثال ، وبين المختلفات والأضداد كالجماد والنبات والحيوان .

فمثلاً الماء.. فاسأل كل علماء الفيزياء والكيمياء يقولون لك : أوكسيجين وهيدروجين وهما غازان ، ولكن الهيدروجين شديد الاشتعال والأوكسيجين ناز يساعد على الاشتعال ، والماء جمع بينهما وبه تُطفأُ النار.. اسم الجامع فبالماء تطفأ النار ، والماء أساسه غازان أحدهما شديد الاشتعال ، والثاني يساعد على الاشتعال وقد جُمِعا في الماء ، والدليل إذا كان لديك مدفأة تعمل على الوقود السائل ، ضَعْ عدَّة نقاط من الماء مع الوقود يجعل الشعلة تتألَّق ويحدث شبه انفجارات لتحلل الماء إلى غازين ، وهذان الغازان ساعدا على الاشتعال ، حتى أعلمني بعض الإخوة في بعض الأفران يضعون نقطة

من الماء بنظام معيّن مع الوقود السائل ليزداد اشتعاله.. فكيف جمع الأوكسيجين والهيدروجين بالماء ؟

نضرب لكم أمثلة بسيطة لا تحتاج إلى بحوث علميّة.. فالدجاجة ماذا تأكل ؟ تأكل كل شيء حتى الفضلات ، وحتى فضلات الإنسان ، وتعطيك بيضاً ، وهذا البيض شيء مدهش فهو يحتوي على أربعة عشر فيتاميناً ، وبروتينات ، ومواد دهنيّة ، ومواد كلسيّة ، والدليل أنَّ هذه البيضة تنقلب إلى فرخ صغير ـ صوص ـ ، معنى ذلك أنَّ فيها خلقاً كاملاً ففيها من العناصر التي يتكون منها هذا المخلوق كالمنغنيز والحديد والكالسيوم والمواد البروتينيّة والمواد الدهنيّة والعديد من المواد.. فلو أنت قمت بجمع طعام الدجاجة ووضعته بين أيدي أكبر علماء الأرض وأعظم المخابر وتركتهم يعملون ليلاً نهاراً يطحنون ويضيفون مواد كما يشاؤون ولكن في النهاية هل يستطيع الخلق جميعاً أن يصنعوا من هذا الطعام التي تأكله الدجاجة بيضة ؟

الأبقار ماذا تأكل ؟ تأكل مواد نباتيّة وتعطينا حليباً ، فهل في إمكان أهل الأرض جميعاً أن يصنعوا من هذه الحشائش التي تأكلها البقرة حليباً خالصاً سائغاً للشاربين ؟ مستحيل أن يفعلوه.. فكيف جمع هذه المواد ؟ فقد أطلعني أخ يعمل في هذا المجال على بحث عن حليب الأبقار ، فثدي البقرة عبارة عن غدَّة كالقبّة مغطَّاة بشبكة من الأوعية الدمويّة بالغة الدقَّة ، وهذه القبّة مجموعة من الخلايا تسمَّى الخلايا الثديية ، وهذه الخليّة تأخذ حاجتها من الدم ، والدم ماذا فيه ؟ فيه مواد كالبروتين والعناصر المعدنيّة الكالسيوم والمنغنيز والحديد ، وفيه مواد سكريّة ومواد دهنيّة وشحوم ، وحمض البول وهو الفرث ، فالفرث يطلق على أنواع ثلاث.. فرث سائل ، وفرث صلب ، وفرث

غازي ، فالإنسان عندما يستنشق الأوكسيجين ، وهذا الأوكسيجين يتفاعل مع الدم ، فتحترق المواد بهذا الأوكسيجين ، والناتج عن هذا الاحتراق هو غاز الفحم أي ثاني أوكسيد الكربون وهذا الغاز هو فضلات أي فرثٌ غازي ، وحمض البول فرثٌ سائل ، والروث فرثٌ صُلب فقد قال الله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل : ٦٦] .

هذه الخليّة الثديية ، كيف جمعت هذه المواد فيها بنسب رائعة تتناسب مع حاجة الإنسان ، هذا عمل اسم الجامع .

قيل : « **هو الجامع قلوب أوليائه إلى شهود تقديره ، ليتخلَّصوا من أسباب التفرقة فيطيب عيشهم ، لأنَّهم لا يرون الوسائط ولا ينظرون إلى الحادثات إلا بعين التقدير** » .

وقيل : « **الجامع سبحانه هو الذي جمع بين الكثيف واللطيف ، جمع بين قلوب المؤمنين ، ألَّف بين أرواحِ المحبِّين ، هو الذي جمع في الإنسان روحاً من نور وجسماً من ظُلمة ، ونفساً أمّارةً وعقلاً مستضيئاً** » .

فأوضح شيء نأخذه اجتماع القلوب. . الأمُّ وابنُها. . ما هذا الجمع ؟ فقد لا يهدأ لها عيش إلا إذا كان معافى ، لا تشبع إلا إذا شبع ، ولا تنام إلا إذا نام ، لا تسعد إلا إذا سعد ، من جمع هذه العواطف والقلوب ، ووحّد بينها ؟

أحياناً يجمعك الله جلَّ جلاله مع إنسان على غير ميعاد ، فملاحظة دقيقة جداً فقد تركب سيَّارة بعد انتظارك لها لفترة ثم تمشي على

قدميك فإذ بهذا الإنسان تراه تجاهك ، فكيف حرَّك الله هذا الإنسان وحرَّك الآخر وكيف التقيا في ذاك مكان ؟ وأحياناً هذا اللقاء قد ينتج عنه خير كثير ، وهذا من تسيير الله عزَّ وجلَّ أن يجمعنا على غير ميعاد .

فقد ذكر لي أحد الإخوة وكنا في دعوة فوجدَّته مهتماً اهتماماً كبيراً بما أقول ، فقال لي : في إحدى المرَّات كنت أسير أمام مسجد الشيخ عبد الغني النابلسي ، فأذَّن المغرب ، فدخلت لأُصلِّي ، فوجدت جمعاً غفيراً ، فجلست وقد ألقيت درساً . . وكنت أعاني من مشكلة وأقسم بالله لو أنني حدثتك عن مشكلتي مئة مرَّة ، وكلَّفتك أن تضع لها حلولاً ، ما سمعت معالجةً لمشكلتي مع طرح حلولها كما سمعت في هذا الدرس . . وأنا والله لا أعرفه ، فقلت سبحان الله الملهم ، فكيف ساقه الله إلى باب هذا المسجد ؟ وكيف دخل إليه ، وكيف أُلهمت أن أُعالج قضيَّةً يُعاني منها ، وأن أطرح حلاً لها ؟ . هذا الجمع من قبل الله عزَّ وجلَّ . . فهذا الموضوع يمكن أن نذكر عليه ألف قصَّة أو أكثر ، كيف أنَّ الله جمعك مع فلان ومع فلان ، فقد قال تعالى : ﴿ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٤٢]

﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ﴾ . . فأحياناً الإنسان قد يضيع منه شيء يقول : اللهمَّ يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيني وبين حاجتي . . فيلتقي بحاجته ويجدها .

ولقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم قال تعالى :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾

[آل عمران : ٩]

سيجمعنا جميعاً ليحاسبنا . . وفي سورة النساء قال تعالى :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ .

وفي سورة النساء أيضاً قال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٨٧] .

وفي سورة الأنعام قال تعالى :

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢] .

وفي سورة الكهف قال تعالى :

﴿ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾ [الكهف : ٩٩] .

وفي سورة سبأ قال تعالى :

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [سبأ : ٢٦] .

وفي سورة الجاثية قال تعالى :

﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٦] .

وفي سورة الشورى قال تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى : ٢٩] .

وفي التغابن قال تعالى :

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التغابن : ٩] .

وأخيراً فإنّ من آداب العبد مع هذا الاسم كما قال أحد الأئمة . . أن تجمع بين الآداب الظاهرة في الجوارح ، والحقائق الباطنة في القلوب ، فمن كمُلت معرفته ، وحسُنت سيرته فهو الجامع .

لذلك قيل : الكامل من لا يُطفأ نورُ معرفته ، ونور ورعه ، والجامع من جمع بين البصر والبصيرة ، من جمع بين الحقِّ وأهله ، والدنيا والآخرة ، والحقيقة والشريعة ، هذا مما ينبغي أن نفعله اقتداءً باسم الجامع .

وبعد ، هذا الذي تكلَّمت عنه حول اسم الجامع هو غيضٌ من فيض ، وكلُّ واحدٍ منا ينبغي أن يسير في أنماط التفكير التي يمكن أن يستزيد منها في معرفة اسم الجامع .

* * *

الوَاجِدُ

من أسماء الله الحُسنى الواجد ، وقد ورد هذا الاسم في الأحاديث الشريفة التي ذكر فيها النبيُّ المصطفى ﷺ أسماء الله الحُسنى .

الواجد من حيث اللغة . . فيه معنى الغنى من الجِدى أي الغِنى ، والواجد فيه معنى العلم كما في قوله تعالى :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى : ٧] .

وجدك أي علمك ، والواجد أيضاً في معنى الشعور النفسي ، فالوجد : الغضب . . أَوَجَدْتَ علي ؟ قال : غضبت مني .

يُروى أنَّ سيِّدنا عمر رضي الله عنه كان عنده أبو الحسن سيِّدنا عليٌّ كرَّم الله وجهه ، فجاء رجل من أهل الكتاب يرفع شكوى إلى سيِّدنا عمر على سيِّدنا عليٍّ بن أبي طالب ، فما كان من هذا الخليفة العظيم إلا أن قال لسيِّدنا علي : يا أبا الحسن قم فقف إلى جنب الرجل . . ليستويَ الخصمان . . فلمّا حكم بينهما رأى سيِّدنا علياً كرَّم الله وجهه قد تغيَّر فقال : يا أبا الحسن أوجدت علي ؟ قال : نعم . قال : ولِمَ ؟ قال : لِمَ ناديتني يا أبا الحسن ولم تقل لي يا علي ؟ لقد كرَّمتني وفضَّلتني عليه . وليس هذا من العدل المطلق ، فقد كان أصحاب النبي رضوان الله عليهم يُحاسبون أنفسهم حساباً لا يُصدَّق .

فسيِّدنا أبو حنيفة النعمان وهو من التابعين رفض أن يقف في ظلِّ بيتٍ مرتهنٌ عنده لئلا ينتفع بظلِّ البيت ، لأنَّ كلَّ رهنٍ جرَّ نفعاً فهو ربا . . أي فيه شبهة الربا . وعلى كلٍّ ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعةٍ من مخلِّط ، ومن لم يكن له ورعٌ يصدُّه عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ اللهُ بشيءٍ من عمله .

الوجد . . شعور نفسي ، إما أنَّه الحب ، وإما أنَّه الغضب . . أوجدت عليَّ . . أغضبت عليَّ ، أما : وجد فلانٌ بفلانة . . أي أحبَّها .

ما زلنا في اللغة . . فالواجد فيه معنى الغنى من الجِدى وهي السَّعة والغنى ، وفيه معنى العلم كما في قوله تعالى ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ والقول : وجدتُ العلم نافعاً . وفيه معنى الحبُّ ، وفيه معنى الغضب .

الآن . . الموجود خلاف المعدوم ، هناك المعدوم ، وهناك الموجود . . فما سوى الله عزَّ وجلَّ ممكن الوجود ، أي سبقه عدم وسينتهي إلى عدم ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الأزليُّ الأبديُّ ، هو القديم الباقي ، هو الذي لا شيء قبله ، ولا شيء بعده .

ما سوى الله عزَّ وجلَّ معدوم ، أي سبقه عدم ، وسينتهي إلى عدم في الدنيا ، أما النفس البشريَّة فقد سبقها عدم ، وسوف تبقى إلى أبد الآبدين في جنَّة ربِّها ، أو في النار ، في الآخرة . . وهي وحدها النفس البشرية في الدنيا قد سبقها عدم وستنتهي إلى عدم عند الموت ، ولكنَّ النفس البشريَّة في الآخرة ، سبقها عدم وهي خالدةٌ في جنَّة ربِّها في نعيمٍ لا ينفد ، أو في عذابٍ لا ينفد .

هناك معنى آخر للوجد.. وجدتُ طعم الشيء أي أدركته ، لكن هناك معانٍ أخرى لكلمة الوجد.. فالواجد هو الغنيُّ الذي لا يفتقر ، فالمؤمن هو عبد الغنيِّ ، عبد الرزَّاق ، عبد الرحيم ، عبد القويّ ، عبد الحكيم ، عبد الوليِّ ، عبد الرؤوف ، فإذا كنت مع الله فهذه أسماؤه الحسنى .

الواجد.. الغنيُّ الذي لا يفتقر ، والواجد هو الذي لا يضلُّ عنه شيء ، فأحياناً الإنسان لضعفه يقول : بحثت عنه كثيراً فلم أجده ، أي احترت في أمري فأين أجده ، فاته الشيء غاب عنه ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى هو الواجد الذي لا يضلُّ عنه شيء ، ولا يفوته شيء ، الله جلَّ جلاله الواجد.. قال : « **هو الذي يجد كلَّ ما يطلبه ويريده** » .

فالإنسان قد يطلب آلاف الطلبات ولا يجدها ، يريد آلاف الأهداف ولا يُحصِّلها ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى لا يضلُّ عنه شيء ولا يفوته شيء ، وهو الذي يجد كلَّ ما يطلبه ويريده ولا يُعوزه شيءٌ من ذلك ، ولا يُعجزه شيء ذلكم الله ربُّ العالمين ، أي شتَّان بين من يكون عبداً لغير الله ومن يكون عبداً لله .

ولندقق في معنى ما أقول.. ففي الإنسان ضعفٌ فطريٌّ خَلْقيٌّ ، فقد أراده الله ضعيفاً ، وهذا الإنسان الضعيف لا بدَّ من جهةٍ يلجأُ إليها ، يعتمد عليها ، يلوذُ بها ، يحتمي بها ، يتقوَّى بها كي تطمئنَّ نفسه ، فإما أن تلوذَ بالله ، فإما أن تلجأ إلى الله ، فإما أن تعتزَّ بالله ، فإما أن تقبل على الله ، وإما أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم ، تتوهَّمه قوياً فتخضع له ، تتوهَّمه يرفعك فتُقبل عليه ، تتوهَّمه قادراً على أن يفعل

كلَّ شيء فتبيعه دينك بدنياه ، فلأنَّ الإنسان في ضعف فلا بدَّ من أن يُكمِّل ضعفه ، فإما أن يعبد الله ، وإما أن يعبد غير الله ، فيعبد الأقوياء أو الأغنياء أو الأشخاص الذين يتوهَّم أنَّهم يفعلون ما يُريدون وهذا هو الشرك بعينه .

أحد الأئمة يقول : « **الواجد هو الذي لا يُعوزه شيء ، والذي يحضره ما لا تعلُّقَ له بذاته لا يُسمَّى واجداً ، والذي لا يحضره ما لا يتعلَّقُ بكمال ذاته لا يُسمَّى واجداً** » .

أما الذي يُعوزه شيء فهو الفاقد وليس الواجد . . فأحياناً الإنسان يفتقد أشياء كثيرة ، فيفتقد من حوله فقد يفتقدهم ولا يجدهم ، يفتقد حاجات كثيرة لا يُحصِّلُها ، لكن هناك تعليقاً لطيفاً وهو أنَّه من فاته ما ليس بحاجةٍ به إلى وجوده لا يُسمَّى فاقداً . . فلو أنَّك فاتك شيء لا تحتاج إليه إنَّك لا تُسمَّى فاقداً ، أما إذا فاتك شيءٌ أنت في أمسِّ الحاجة إليه فعندئذ تُسمَّى فاقداً ، فالإنسان فاقد ، فقد يفقد مقوِّمات حياته ، قد يفقد صحَّته ، قد يفقد ماله ، قد يفقد أهله ، قد ينفضُّ الناس من حوله ، قد يتخلَّى عنه أولاده ، فاقد ، لكنَّ الله واجد . . فإذا شيء أراده فهو في قبضته ، وكل شيء طلبه قادرٌ عليه .

أما الواجد فهو الذي يجد ما هو بحاجةٍ إليه ، أو ما هو مكمِّلٌ له ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى يحتاج إليه كلُّ شيء في كلِّ شيء ، وبه يكمل الشيء ، ثم إنَّ بعض العلماء يقول : « **الواجد كلُّ ما لابدَّ منه في صفات الألوهيَّة وكمالها فهو موجودٌ لله تعالى** » .

فمن بعض التعبيرات نقول : من لوازم كمال الله تعالى أنَّه يعلم ، ومن لوازم كمال الله أنَّه قادر ، من لوازم كمال الله أنَّه مريد ، من

لوازم كمال الله أنَّه فعَّال ، فالواجد هو الذي يجد كلَّ صفات كماله ، صفات كماله واجدةٌ له .

ليس إلا الله هو الواجد المطلق . . تعلمون أنَّ الإنسان إذا اتصف بصفةٍ فهذا الاتصاف نسبي ، أما إذا اتصف الله عزَّ وجلَّ بصفةٍ أو سمَّى اسمه باسمٍ فهذه التسمية أو ذاك الاتصاف مطلق .

أي لو أنَّ إنساناً واحداً من بين خمسة آلاف مليون إنسان الآن يعيشون في القارَّات الخمس ظُلِم ظلماً حقيقياً لا ظلماً ظاهراً فالله سبحانه وتعالى لا يُسمَّى العادل ، أما أن يكون هناك ظلم ظاهري فهذا كثير لقوله تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٩] .

فالظالم لنفسه قد يسوق الله له ظالماً يظلمه ليُعيده إلى جادةِ الصواب ، ليدفعه إلى باب العبوديَّة ، أما الظلم الحقيقي المطلق فلا وجود له ، ولو وجد لما كان الله عادلاً ، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ عدالته مطلقة ، فلو حكم قاضٍ مئة حكمٍ ، لو كانت الأحكام تسعون بالمئة منها عادلة يسمَّى القاضي عادلاً ، أما ربنا عزَّ وجلَّ لأنَّه مطلق ، فهو كمال مطلق ، وعدل مطلق ، وقدرة مطلقة ، وغنى مطلق ، فلا يليقُ بحقِّ الله عزَّ وجلَّ النسبيَّة في الأسماء ولا في الصفات ، فالنسبيَّة من شأن الإنسان ، أما الإطلاق فمن شأن خالق الإنسان .

فربنا عزَّ وجلَّ عدالته مُطلقة وقدرته مطلقة فلا يُعجزه شيء ، وعلمه مطلق فلا يغيب عنه شيء ، واجدٌ لكلِّ شيء ، كلُّ شيءٍ في قبضته ، كلُّ شيءٍ رهن إشارته ، كلُّ شيء مقهورٌ له . . ذلكم الله ربُّ العالمين .

فأحياناً يكون الإنسان ضعيفاً ، ولكن إذا كان الله معه ليس ضعيفاً. . فأحبُّ أن أضع فكرةً بين أيديكم ونحن في أمسِّ الحاجة إليها. . فمن يراقب الأحداث قد يجد بين أُناسٍ وأُناسٍ آخرين بوناً شاسعاً ، ومسافةً كبيرةً ، والهوَّة تتفاقم بينهما وكمثال على ذلك. . جهل ، علم ، ضعف ، قوَّة ، تخلُّف ، تقدُّم ، يقول لك : نحن ضِعاف . لكن لو كنت مع الله ، وكان الله معك ، كنت أقوى من أقوى قويٍّ ، لأنَّ الله مع المؤمنين ، إذاً فمهما يكن هناك من أخطاء أو من ضعف فهذا الضعف يُرَمم ، لأنَّ الإنسان حينما تضعُف معنويَّاته يضعف عمله فقد قال تعالى :

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾. . وقال تعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

فأخطر شيء يصيب الأُمَّة أن تضعُف ، أن تستخزي ، أن تتطامن أمام عدوِّها ، المؤمن مع الله وإذا كان الله معك فأنت أقوى الأقوياء ، وإذا كان الله معك فأنت أعلم العلماء ، وإذا كان الله معك فأنت أحكم الحكماء. . فالله عزَّ وجلَّ قال :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

الله عزَّ وجلَّ ما كلَّفنا أن نُعدَّ القوَّة المكافئة ، لكن أمرنا أن نُعِدَّ القوة المتاحة ، وهناك فرقٌ كبير بين القوَّة المكافئة والقوة المتاحة ،

إننا إن أعددنا القوة المتاحة تولَّى الله إمدادنا بما نحتاج إليه كي ننتصر على أعدائنا ، فالقضيَّة قضيَّة إيمان ، قضيَّة شعور أنَّ الله لا يتخلَّى عن المؤمنين ، بل إنَّ كلَّ خطَّةٍ يضعها الكافر وتبدو لنا محكمةً ، وتبدو لنا مدعَّمةً بقوَّةٍ جبَّارة ، إنَّ كلَّ خطَّةٍ يضعها الكافر تستوعبها خطَّة الله عزَّ وجلَّ ، ولا يُنفَّذ منها إلا ما يسمح الله به . . هذا شعور المؤمن ، هذا المؤمن الموحِّد ، هذا المؤمن الذي لا تضعُف معنويَّاته ، ولا نفسه أمام أعدائه .

إذاً الله عزَّ وجلَّ واجد مطلقاً . . يجب أن نقف على هذا التعبير . . اتصاف الله بصفاته الفُضلى ، وأسمائه الحُسنى اتصافٌ مُطلق ، أي عالم لا يُعجزه شيء ولا يغيب عنه شيء ، قدير قدرته متعلِّقةٌ بكلِّ شيء .

هناك بعض العلماء الذين يستخدمون هذه العبارة : الواجد . . من الوجد ، والوجد عندهم ما يجده الإنسان وما يُصيب قلبه من الأحوال .

والحقيقة نحن بحاجةٍ إلى علمٍ ، وإلى حال ، فالعلم شيء والحال شيء آخر ، فالعلم هو إدراك الحقائق ، أما الحال فهو الاتصال بالله عزَّ وجلَّ ، فالحال وقود والعلم مِقود ، أنت بالعلم تُسيِّر ذاتك تسييراً صحيحاً ، لكنَّ الحال يدفعُك إلى الله عزَّ وجل . . الحال هو ثمرةٌ من ثمرات الاستقامة والعمل الصالح ، فأنت استقمت ، أنت عملت عملاً صالحاً . . ماذا تتوقَّع من الله عزَّ وجلَّ ؟ أن يملأ قلبك غنىً ، فغنى النفس حال ، أن يملأ قلبك أمناً ، أن يملأ قلبك رضاً ، أن يملأ قلبك ثقةً بالله عزَّ وجلَّ ، أن يملأ قلبك حُباً ، أن يملأ قلبك قرباً ،

فحال الثقة بالله ، والطمأنينة ، والحب ، والشوق . . هذه أحوال ، وهذه الأحوال هي غذاء القلب ، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قال : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

كما أنَّ عقلك بحاجةٍ إلى علم ، قلبكُ بحاجةٍ إلى ذكر ، فالذكر يُطمئن القلب ، لذلك جناحان لا يستغني المؤمن عنهما معاً ، جناح العلم ، وجناح الحال ، الحال يُدَّعى ، لكن نحن نقول : الحال هو السكينة التي يُلقيها الله في قلب المؤمن مكافأةً له على استقامته ، وعلى طاعته ، وعلى عمله الصالح . . يمكن أن تدَّعي أنَّك قريب من الله ، لكنَّ هذه الدعوى لا قيمة لها ، هذا شيء يعرفه من ذاقه .

فالوجد . . ما يجده الإنسان ، ويصيب قلبه من الأحوال ، وأنتم تعلمون علم اليقين أنَّ الإنسان عقب عمل صالح ، عقب تلاوة قرآن ، عقب صلاة متقنة ، عقب ضبط النفس ، عقب ضبط اللسان ، أو إذا ضحَّى بشيء ، فعل شيئاً لله عزَّ وجلَّ يشعر بسعادة ، وهذه السعادة هي الحال ، فيصحُّ أن تسمِّيها سكينة ، أو تسمِّيها رحمة ، أو تسمِّيها قرباً ، أو تجلِّياً ، أو تسمِّيها أنَّ الله سبحانه وتعالى قذف في قلبه نوراً ، فيقولون : فلان قلبه منوَّر . . فلا شكَّ أنَّ المؤمن الصادق المستقيم المخلص له أحوالٌ يتميَّزُ بها من سائر الناس ، يتميَّز بشكلٍ صارخ ، بشكلٍ واضح ، والدليل قوي وهو قول الله تعالى :

﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾

[المعارج : ١٩-٢١]

أصل جبلَّته هلوع . . فما معنى هلوع ؟ الله قد فسَّرها لنا فقال : ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ . . أي شديد الجزع أي كثير الخوف ، ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ

﴿ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ يخاف مرَّتين ، يخاف من خطرٍ ، يخاف من خطرٍ داهم ، ويخاف على ما في يده ، الخوف من خطرٍ داهم يجعله جزوعاً ، والخوف على ما في يديه يجعله بخيلاً حريصاً :

﴿ ۞إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج : ١٩ـ٢٢] .

المصلِّي ليس جزوعاً وليس هلوعاً وليس منوعاً ، هذا هو الحال ، معنى الحال ، أي أنت تسعد به وهو غير علمك وتصوُّراتك الصحيحة عن الكون وغير ثقافتك الإسلاميَّة ، وغير معرفتك لمنهج الله هو شيء آخر ، قلبك ممتلىء محبَّةً لله ، قلبك ممتلىء طمأنينة ، قلبك ممتلىء سعادة ، قلبك ممتلىء رضا ، قلبك ممتلىء رحمة ، إنَّ مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى ، فإذا أحبَّ الله عبداً منحه خُلقاً حسناً .

إذاً الوجد في المصطلح هو الإنسان الذي أصابه الوجد ، أي ما يجده من أحوال في قلبه ، فقد يشعر الإنسان أحياناً بانقباض ، أو يحسّ بكآبة ، أو بانطلاق ، أو يحسّ بالغنى الحقيقي ، يكون إنسان من عامة الناس ودخله محدود ، يشعر أنَّه غنيّ وأنَّ الله سبحانه وتعالى تفضَّل عليه بالمعرفة ، وتفضَّل عليه بالقرب ، وأمدَّه بالتوفيق ، هذا الشعور بالغنى والشعور بالطمأنينة ، والشعور بالرضا ، والشعور بالأمن ، فقد قال الله عزَّ وجلَّ :

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام : ٨١ـ٨٢] .

لو أنَّ الإنسان تتبَّع الآيات التي تشير إلى الحال.. فمثلاً المشرك قال تعالى عنه :

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥١].

﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ [الأحزاب : ٢٦] .

الآن الضيق.. قال تعالى :

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٨] .

هناك ضيق.. إذاً فقد قال تعالى :

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩].

وقال تعالى أيضاً :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

أحوال القلب... القلب يضعف ، يقوى ، يذلّ ، يعتزّ ، يتضعضع ، يتماسك ، ينهار ، يصمد ، يُحب ، يكره ، ينقبض ، ينشرح ، هذه هي الأحوال ، والحقيقة أنَّ أحد أكبر ثمرات الإيمان عند المؤمن هذا الحال الذي في قلبه.. شعور الغنى.. المؤمن لا يخاف إذا خاف الناس وهذا أكيد ، لا يقلق إذا قلق الناس ، لا يستخزي إذا استخزى الناس ، لا يذِل إذا ذلَّ الناس ، لأنَّه مع الله والله هو العزيز هو القوي .

اجعــل بــربِّــك كــلَّ عِــز ك يستقـــــرُّ ويثبـــــتُ
فـــإذا اعتـــززت بمـــن يمـــو تُ فـــإنَّ عـــزَّك ميِّـــتُ

قـال بعضهـم : « **الـوجـد . . مكـاشفـة الأسـرار ، ومشـاهـدة المحبوب** » .

هناك شيء في لدين فوق الصلاة والصيام والحجِّ والزكاة ، وفوق غضِّ البصر والتزام الأمر والنهي ، هذا هو الإشراق ، هذا القرب من الله . . هذا هو الدين . . مكاشفة الأسرار ، مشاهدة المحبوب ، ألم يقل أحد المذنبين مناجياً ربه : يا ربِّ لقد عصيتك فلم تعاقبني !! فوقع في قلبه : أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدر ، ألم أحرمك لذَّة مناجاتي .

بربِّكم . . . استقامتكم ، وإخلاصكم ، وإلتزامكم ، وخوفكم من أن تعصوا الله عزَّ وجلَّ ، هذا الحرص على طاعته ألا يُلقي في قلبكم الأمن والطمأنينة ، والبشر والسعادة ، هذا هو الوجد الذي تحدَّث عنه بعضهم .

يقول أحد العلماء : الواجد إما أن يكون بمعنى الغنى ، كما في الحديث الشريف : « **ليُّ الواجد يحلُّ عرضه وعقوبته** » .

أي مماطلة الغنيِّ ظلمٌ . . ليُّ أي المماطلة ، الواجد أي الغني . . ظلمٌ .

أو بمعنى العلم . . كما في الآية الكريمة :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [النور : ٣٩] .

وجدتُ العلم نافعاً . . أي علمت العلم نافعاً ، أو بمعنى الحزن . .

وجد فلانٌ على فلان. . أي غضب منه وحزن منه .

بعض العارفين يقول : الواجد هو الذي لا يحتاج إلى شيء ، منزَّهٌ عن أن يحتاج إلى شيء لأنَّه يجد كلَّ شيء ، ليس بحاجة إلى شيء من افتقد شيئاً احتاجه ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى لا يفتقد شيئاً ، إذاً هو الواجد ، كلُّ الكمالات موجودٌ له .

فأحياناً يقولون لك : فلان ذو علم ولكنَّه غضوب ، حليم ولكنَّه جاهل ، يفتقد إلى أشياء كثيرة .

قال : « **الواجد نافذُ المراد** » ، جميع أحكامه لا نقص لها ، فكما قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد : ٤١] .

الواجد. . هو الله وحده ، وما سوى الله عزَّ وجلَّ لا يكون واجداً إنَّما يُسمَّى فاقداً ، فالله واجد وما سواه فاقد ، الله عزَّ وجلَّ لا يحتاج إلى شيء لأنَّه يجد كلَّ شيء ، والإنسان يحتاج إلى كلِّ شيء لأنَّه فاقدٌ إلى كلِّ شيء ، هذه حقيقة الإنسان وهذا حجمه الحقيقي .

إن وجد في الإنسان بعض الكمالات ، فهو فاقدٌ لأكثرها ، إذا فهو يغلب عليه أنَّه فاقد ، وحينما توجد فيه بعض هذه الكمالات ، الله وحده الذي أوجدها فيه. . إنَّ مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى فإذا أحبَّ الله عبداً منحه خلقاً حسناً ، حتى الصفات الأخلاقيَّة في الإنسان هي من الله عزَّ وجلَّ .

قال : متى أشرق على قلبك نور اسم الواجد. . فهذه الأسماء الحسنى إذا اقترب الإنسان من الله عزَّ وجلَّ يشتقُّ منها بعض الكمال. .

إذا أشرق على نفسك نور اسم الواجد وجدت جميع الكمالات موجودةً لله تعالى مفقودةً عند غيره .

لذلك المؤمن لا يرى الكمال إلا في الله ، لذلك لا يحبُّ إلا الله ، وما سوى الله يُحسن إليهم ، يفي بعهدهم ، يُنجز وعده معهم ، ويفعل كلَّ شيءٍ معهم ، أما قلبه فمعلّقٌ بالله عزَّ وجلَّ .

قالوا : الواجد.. هو الغني الواجد كلَّ ما يطلب ، المدرك كلَّ ما يُريد ، القادر على تنفيذ مراده.. يعلم كلَّ شيء.. من العلم.. ويقدر على كلِّ شيء ، ولا يفوته شيء ، ولا يستعصي عليه مطلوب ، رفيع القدر ، عظيم الشرف ، كامل القدرة ، واسع الجود والعطاء .

هذا اسم الواجد.. لكن هناك وجود بمعنى علم ، ووجود بمعنى غنى ، الوجود بمعنى العلم.. أحياناً أنت من خلال الحواس تجد ، تضع هذا الطعام على لسانك تقول طعام مالح ، وجدت ملوحته حينما تذوَّقته ، فوجدانك لطعم ملوحته عن طريق لسانك.. لمسته فرأيته ناعم الملمس هذا الوجدان عن طريق الحسّ ، نظرت إليه فرأيته جميلاً ، فهذا الوجدان بمعنى العلم عن طريق الحواس.. وجدت طعمه بلساني ، وجدتُ خشونته ببناني ، أو أحياناً الإنسان يجد بقوَّة الشهوة.. يأكل فيشبع ، يجد الشبع لأنَّه يشتهي الطعام .

أحياناً يجد بقوَّة الغضب.. فيوجد عنده طبع نفسي معيَّن يتألَّم ، أو يُسر ، فإذا وجد الألم بسبب قوَّة الغضب أو بقوَّة الرِضا ، وأحياناً يجد عن طريق عقله.. يقول لك : فكَّرت فوجدت .

فهناك وجدان حسّي ، ووجدان غضبي ، ووجدان شهواني ، ووجدان عقلي.. لكنَّ الله سبحانه وتعالى اسمه الواجد منزَّهٌ عن أن

يجد بأداة ، أو بوسيلة ، الله جلَّ جلاله منزَّهٌ عن الوسيلة ، لأنَّ الوسيلة تُعبِّر عن ضعف.. أنا ضعيف لذلك أستعين بوسيلة ، فالإنسان الذي يستخدم المنظار ، لماذا يستخدمه ؟ لأنَّ عينه لا تكفي لرؤية المسافات البعيدة فيستخدم المنظار.. إذاً ضعفه تجسَّد في استعانته بالمنظار.. هذا هو الضعف ، فالله سبحانه وتعالى واجد ، لكنَّ هذا الاسم من أسمائه الحُسنى لا يليقُ به أن يكون عن طريق آلةٍ أو أداةٍ أو جارحةٍ أو ما شاكل ذلك .

الله سبحانه وتعالى وحده الواجد وما سواه فاقد.. لذلك قال بعضهم : الموجودات ثلاثة أضرُب.. موجودٌ لا مبدأَ له ولا منتهى وهو الله وحده وليس ذلك إلا للباري تعالى ، وموجودٌ له مبدأٌ ومنتهى كالناس في النشأة الدنيا ، وموجودٌ له مبدأٌ وليس له منتهى كالناس في النشأة الآخرة ، في جنَّة الخُلد إلى أبد الآبدين .

اسم الواجد لم يرِد في القرآن الكريم وقد ورد في الحديث الصحيح ، إلا أنَّه ورد في القرآن الكريم مادَّة الوجد فقد قال تعالى :

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

[ص : ٤٤]

أي إنا علمناه صابراً.. ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وقال تعالى :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾

[الضحى : ٦ ـ ٨]

الآن.. لكي يكون المؤمن موصولاً بنفحات اسم الواجد ينبغي أن يكون واجداً لكلِّ ما يُراد منه.. أي تحرَّى ليجد كلَّ ما أراده الله تعالى منه ، فالإنسان إذا سعى وإذا طلب قال تعالى :

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ۝١٩ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾

[الإسراء : ١٩ـ٢٠]

اسم الواجد من أسماء الله الحُسنى ، الواجد هو الغني ، والواجد هو العالم ، والواجد هو المستغني عن كلِّ شيء ، والواجد هو الذي لا يفوته شيء ، وكلَّما تعمَّقنا في فهم أسماء الله الحُسنى كنَّا أقرب إلى الله ، وكنَّا أكثر استفادةً من معرفة الله لأنَّ هذه المعرفة تنعكس علينا قرباً ، وسعادةً وتوفيقاً .

* * *

المُبْدِئُ المُعِيدُ

من أسماء الله الحُسنى المُبدىء المُعيد .

فضلاً عن أنَّ هذين الاسمين وردا في حديث رسول الله ﷺ حينما ذكر أسماء الله الحُسنى ، فإنَّ هذين الاسمين يُذكران معاً دائماً ، وقد نوَّهت من قبل إلى أنَّ العلماء في بعض الأسماء يرون أنها تذكر معاً ، كأن تقول : المعطي المانع ، القابض الباسط ، الخافض الرافع ، المُعزّ المُذل ، الضار النافع ، إنَّه يضُرُّ لينفع ، ويخفض ليرفع ، ويُذلُّ ليُعز ، ويقبض ليبسط ، ويمنع ليعطي .

وهذان الاسمان . . المبدي المعيد أَلِف العلماء أيضاً أن يذكروهما معاً في بحثٍ واحد ، ولا بدَّ من أن أُنوِّه مرَّةً ثانية إلى أنَّ معرفة الله عزَّ وجلَّ تقتضي أن تعرف أسماءه الحسنى . . لذلك قال تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

والذي يدعوك إلى معرفة الله ، أو الذي يدعوك إلى محبَّته ، والانقياد لأمره أن تعرف أسماءه الحُسنى ، لأنَّ النفوس جبلت على حُبِّ الكمال ، والله سبحانه وتعالى جمع الكمالات كلَّها .

وستعرف أين ورد هذان الاسمان في القرآن الكريم ؟ وبالطبع فإنَّ

أسماء الله الحُسنى قد وردت في الكتاب والسنَّة ، لكن بعض الأسماء ورد بالنصِّ الدقيق ، وبعضها ورد بالجذرِ ، أي بالفعل ، كما مر بنا في البحث السابق ، فالله سبحانه وتعالى واجد. . لكنه ورد في القرآن الكريم : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص : ٤٤] .

فلم يرد في القرآن اسم الواجد لكن ورد فعل وجد ، من الوجود ، وقد ذكرت ماذا يعني كلمة الواجد. . أي الغني ، الواجد الذي يعلم ، الواجد الذي وجد عليه أي غضب منه ، وقد بيَّنت ما يتناسب مع أسماء الله الحُسنى من هذا المعنى .

يقول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف : ٢٩] .

يقول بعض العلماء وهذا القول حق ورائع : « **الشريعة عدلٌ كلُّها ، رحمةٌ كلُّها ، مصلحةٌ كلُّها ، فأيَّة قضيَّةٍ خرجت من العدل إلى الجور ، من المصلحة إلى المفسدة ، من الرحمة إلى خلافها فليست من الشريعة ، ولو أُدخلت عليها بألف تأويلٍ وتأويل** » .

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾. . . : بدأكم. . . تعودون ، المبدىء المعيد.

في هذه الآية وردت الإشارة إلى اسم الله المبدىء وإلى اسم الله المعيد ، وفي سورة الأنبياء قال تعالى :

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

وفي سورة النمل قال تعالى :

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل : ٦٤] .

وفي سورة العنكبوت قال تعالى :

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى الْأَرْضِ فَانظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْءَاخِرَةَۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] .

وفي سورة الروم قال تعالى :

﴿ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الروم : ١١] .

وفي السورة نفسها قال تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم : ٢٧] .

وفي سورة البروج قال تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج : ١٣] .

فالإنسان أحياناً يقول : والله قد فعلت هذا الأمر ولكنّي لا أستطيع أن أُعيده . أي جاءته معونةٌ خاصّة خارجةٌ عنه ، فإذا كلفته أن يعيده لا يستطيع ، فالإنسان من ضعفه أحياناً تأتيه بوارق ، حالات استثنائيّة ، إشراقات ، فهو لا يملك هذا الإشراق دائماً ، فكل من يعمل في أعمال الفكر أو الإبداع ، يعرف أن الإبداع لا يأتيهم متى يشاؤون ، الإبداع قد يوافي الرجل ، وقد لا يوافيه ، فمعنى ذلك أنَّ الإنسان مفتقر ، أحياناً يبدع في إلقاء كلمة ، يبدع في قراءة ، يبدع في فكرة ، يبدع في اكتشاف ، لكن قد لا يبدع أحياناً .

قال بعضهم : **« العبقريَّة تسعٌ وتسعون بالمئة عرق ، وواحد بالمئة إلهام »** ، وهذا الشيء ثابت فكل الأدباء والكتَّاب والشعراء ، حتى كل الأعمال التي تتسم بالإبداع أصحابها يعترفون أنَّه في بعض اللحظات يأتيهم إشراق ، في بعض اللحظات تأتيهم معونة ، في بعض اللحظات يتألَّقون ، ولكنَّ هذه اللحظات لا يملكونها ، تأتيهم أو لا تأتيهم ، ولذلك الذي فعلته اليوم بإشراقةٍ أو بإبداعٍ أو باستثناءٍ لا تملك أن تُعيده وهذا من ضعف الإنسان ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى كلُّ شيءٍ خلقه يعيده مرَّةً ثانية كما ورد في الآية الكريمة :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ .

في اللغة العربيَّة بدأ وابتدى بمعنى واحد . . ولكن لي تعليقٌ على هذا الكلام هو أنَّ كلَّ زيادةٍ في المبنى تدُلُّ على زيادةٍ في المعنى وهذا في أصل اللغة ، فسوف غير السين مع أن الزيادة فقط هي (س) ، فكلمة سأفعل كذا ، غير سوف أفعل كذا ولا شكَّ في ذلك ، مثلاً : كتب غير اكتَتَبَ . . فكتب أي كتب رسالة ، واكتتب أي اتَّخذ الكتابةَ مهنةً له .

بدأ الله الخلق . . أي خلقهم وأوجدهم ، فلانٌ لا يبدى : ولا يُعيد أي ليست له حيلة ، لا يفعل شيئاً بادىء ذي بدء ، وليس بإمكانه أن يُعيده ، إذاً ضعيف ولا حيلةَ له ، قاصر .

وفي سورة سبأ قال تعالى :

﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ : ٤٩] .

الباطل ضعيف ، الباطل زهوق وقد قال تعالى :

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء : ٨١] .

والله عزَّ وجلَّ عندما قال ﴿ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ زهوق على وزن فعول أي شديد الزهوق ، وصيغة المبالغة دائماً في اللغة تعني شيئين ، تعني الكمَّ وتعني الكيف ، أي أنَّ أكبر باطل زهوق ، وأكثر باطل زهوق ، فلو كان هناك مليون باطل ، وبالطبع هناك باطل اعتقادي ، وباطل فكري ، وباطل سلوكي ، أي شيء خلاف المنهج فقد قال الله تعالى :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

فالحق واحد لا يتكرر ، الحقُّ واحد كما أنَّ بين نقطتين يمرُّ مستقيم واحد فقط ، ولو مررنا مستقيماً آخر لانطبق على الأول ، فبين نقطتين يمرُّ مستقيم واحد ، والحق كذلك واحد ، فالحقُّ لا يتعدد ، أما الباطل فإنه يتعدد . . فبين نقطتين يمرُّ ألف خط منحن ، وألف خط منكسر ، فالباطل يتعدد أما الحقُّ فلا يتعدد .

والآية الكريمة التي وردت في سورة البقرة أيضاً تؤدي المعنى ذاته قال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

الظلمات جمع . . والنور مفرد ، فالحقُّ واحد ، فهذا الذي لا يُبدىء ولا يُعيد هو ضعيف ، مفتقر ، ولا حيلة له ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى يبدي ويعيد .

الحقيقة كلمة يُبدي . . تشير إلى معنى المبدع . . فالإنسان حينما

يخترع شيئاً لا يخترع من فراغ بل من مثال سابق ، حتى إنَّ الذي اخترع العجلة وكما قال بعضهم لا بدَّ أنَّه رأى شجرة تتدحرج على الأرض فاستنبط من الشجرة العجلة ، والذي اخترع الغوَّاصة رأى السمكة في أعماق البحر ، فعلى مستوى البشر ليس هناك إنسان اخترع شيئاً وأبدع شيئاً إلا على مثالٍ سابق ، حتى أنَّ الكتّاب الخياليين إذا أرادوا أن يصوِّروا قصَّة خياليَّة في العالم الآخر ، يصوِّرون أشخاصاً وهؤلاء الأشخاص على مثالٍ سابق ، فيصوِّرونه له رأس وله يدان وله رجلان وله جذع ، ولكن مع بعض التعديلات .

والمهندسون الذين يصممون الأبنية هناك عدَّة أشكال في ذهنه ، فأول شكل ، والثاني والثالث والرابع والخامس وبعد السادس مثلاً تجده يعيد الشكل الأول ، فالقدرة على إحداث شيء من غير مثال سابق عند الإنسان محدودة للغاية ، فلا بدَّ من مثال سابق ، لكن ربنا عزَّ وجلَّ عندما قال عن نفسه إنَّه هو المبدع أي خلق الكون على غير مثالٍ سابق .

فمثلاً فكرة النبات . . فأنت إذا أردت أن تصنع شيئاً يتكرر فكيف ؟ تقول : نكثِّرهم . لكن ربنا سبحانه وتعالى جعل بداخل الثمرة بذرة ، وهذه البذرة تزرع وتنتج شجرة ، والشجرة تثمر هذه الثمار ، فمبدأ البذور في الكون هذا إبداع وهو على غير مثالٍ سابق ، مبدأ الألوان كذلك . . فهناك ألوان والعين تحتاج إلى نور ، فالله خلق كل شيء على غير مثالٍ سابق .

فمعنى كلمة المبدىء فيها معنى المبدع ، فالإنسان له رأس وجذع وله أطراف ، وله يدان ورجلان ، وهو يرى ويسمع ، وينطق

ويتحرَّك ، وهو ينام ويجوع ويعطش ، من قال إنَّ الإنسان بحاجة إلى أن يشرب ؟ ؟ الله عزَّ وجلَّ . . من خلق هذا الإنسان على أنَّه يحتاج إلى أن يشرب ؟ من خلق الماء ؟ فالإنسان خلق على أن يشرب أوجد الله ماء ، فهو مخلوق كذلك على أن يتنفَّس وهناك هواء .

بل إنَّ الجنين في بطن أمِّه له رئتان وليس بحاجةٍ إليهما إطلاقاً لأنَّ دمه يتجدد عن طريق الأم ، فهذا الأكسجين يأخذه من دم أمِّه عن طريق المشيمة ، فمعنى ذلك أنَّ هناك خالقاً مبدعاً خلق له الرئتين ليستعملهما حينما يولد .

من جعل الكون كُرات ؟ فالكرة شكل هندسي له خصائص ، ومن جعل الكون يتحرَّك ؟ هذه الحركات المغلقة ، من خلق قوى الجاذبيّة ؟ من خلق النور والظلام ؟ من جعل الحياة أساسها الماء ؟ فهذا كلُّه مبدع على غير مثالٍ سابق .

نحن ألفنا الكون ، ألفنا القوانين ، ألفنا الخصائص ، فإذا أردنا أن نتحرَّك نتحرَّك وفق مثلٍ سابق فقد قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] .

الله عزَّ وجلَّ سمَّى الإنسان الذي يصنع شيئاً سمَّاه مجازاً خالقاً ، وسمح لذاته العليّة أن يوازنها مع مخلوقاته فقال :

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ .

لكن بين خلق الإنسان وخلق الله بونٌ شاسع .

الإنسان يصنع من كلِّ شيءٍ شيئاً ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى يصنع كلَّ شيءٍ من لا شيء ، فقال تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ،

وربُّنا عزَّ وجلَّ سمح لذاته العليَّة أن يوازنها مع مخلوقاته فقال تعالى :

﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٢] .

الآن هناك حاسوب ، وهذا الحاسوب الذي اخترعه الإنسان شيء مذهل ، يقرأ أربعمئة وخمسين مليون حرفاً في الثانية الواحدة ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ . . أي أنَّه ليس هناك زمن فهو القائل سبحانه :

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .

فهنا أردت أن أقف قليلاً عند كلمة مبدىء . . أي مبدع ، وأضيف على هذا المعنى معنىً آخر ، وهو أنَّ الله سبحانه وتعالى لكرامة الإنسان عنده ، هو مبدع الكون بطريقةٍ يستطيع الإنسان بها أن يبدع .

فمثلاً هناك نباتات مقزَّمة فهذا إبداع ، وكذلك شجرة فاكهة ضخمة تقزَّم وتصبح في حجم صغير ، وكثيراً من النباتات الآن مثل الليمون والبرتقال والرمان توضع في أُصص صغيرة جداً فهذا إبداع ، ولكن ربَّنا عزَّ وجلَّ جعل الكون بطريقةٍ إذا أراد الإنسان أن يبدع ، إنه يُبدع فيه .

اللغة مثلاً مؤلَّفةٌ من حروف معدودة ، ولكن من هذه الحروف المعدودة يمكنك أن تبدع كلمات غير محدودة ، فأصبح المبدىء هو المبدع ، والمبدع هو الذي يوجد الشيء على غير مثالٍ سابق ، فليس هناك مثال سابق للمبدع سبحانه .

فالإنسان يمشي وله يدان . . فهذا الشكل شيء رائع جداً ، لكن هناك أكثر من ستة آلاف مليون إنسان ، فلا يوجد إنسان مثل الآخر . . فالله يبدع ، فبصمة الإبهام إبداع ، وقُزحيَّة العين إبداع ، وكيمياء الدم

إبداع ، ونبرة الصوت إبداع ، ورائحة الجلد إبداع ، فالإنسان متميِّز برائحة جلده ، ونبرة صوته ، وقُزحيَّة عينه ، وبصمة إبهامه ينفرد بها ، والآن اكتشف العلماء الزمر النسيجيَّة وهي غير الزمر الدمويَّة ، فأثناء نقل الأعضاء لا بدَّ من حدٍّ أدنى من التوافق النسيجي ، وإلا هذا العضو المزروع يلفظ ولا يقبله الجسم ، فكم زمرة نسيجيَّة مكتشفة إلى الآن ؟ اثنان ونصف مليار زمرة نسيجيَّة أي ليس هناك سوى شخص آخر في هذا العالم يشبهك من حيث الزمرة النسيجيَّة .

فأنت عندك زمرة نسيجيَّة ، وزمرة دمويَّة ، وبصمة إبهام ، وكيمياء دم ، ورائحة جلد ، ونبرة صوت وقُزحيَّة عين تتميَّز بها عمَّن سواك ، فالله عزَّ وجلَّ اسمه الفرد ، ومن تفضُّله على هذا الإنسان أن جعله فرداً لا مثيل له ، فلك مكانتك عند الله عزَّ وجلَّ .

فالمبدىء . . هو المبدع ، أي خلق خلقاً على غير مثالٍ سابق . . كان الله ولم يكن معه شيء ، ثم خلق الأشياء .

لو قلنا لك : صمم لنا ورقة شجر . فإذا قمت بإجراء المحاولة فسترسم ورقة دائريَّة ، أو ورقة مثلَّثة ، أو مستطيلة ، أو ورقة مسننة ، أو ورقة نحيلة وطويلة ، أو ورقة قصيرة وثخينة ، عدَّة أمثلة ترسمها ، ولكنَّك لو دخلت لحديقة وراقبت فقط أشكال أوراق النباتات لوجدت أعداداً لا تُحصى من أشكال أوراق النباتات ، ودقق نظرك في الأزهار فهي كذلك لا تُحصى .

دخلت إلى أحد المعارض التي خصصت لعرض الفراشات بمصر وعلى ما أذكر فقد ضمّ المعرض أربع قاعات علقت على جدرانها كلِّها فراشات وكل واحدة غير الأخرى ، وكل واحدة أجمل من الثانية شيء

لا يصدَّق ، أشكال متباينة ، وألوان مختلفة فهو سبحانه مبدع على غير مثالٍ سابق .

هذا الكون معرض لأسماء الله الحُسنى ، فكلَّما زدت هذا الكون نظراً وتأمُّلاً تعرَّفت إلى الله أكثر فأكثر ، إنَّ هذا الكون بابٌ واسع تدخل منه على الله ، وطريقٌ قصير تصل به إليه .

فالمعنى الأول . . المبدىء . . المبدع الذي خلق فأبدع على غير مثالٍ سابق ، أما الإنسان . . فقد قرأت موسوعة عن الطيور ففي المقدمة كتب المؤلِّف قائلاً : إنَّ أرقى طائرة صنعها الإنسان حتى الآن لا ترقى إلى مستوى الطائر . فأحد أنواع الطيور يطير ستَّة وثمانين ساعة طيران بلا توقُّف ، ونحن إذا طرنا بطائرة سبع ساعات فوق مياه المحيط الأطلسي نقول : هذا شيء يفوق عجائب الدنيا السبع .

وبعض الطيور تقطع سبعة عشر ألف كيلومتر ولا تضلُّ الطريق بلا بوصلة ودون الاستعانة بمراكز البث المنتشرة في أنحاء المعمورة ، فالطائرة تعرف موقعها من خلال هذه المراكز وبالاتصال المستمر مع هذه المحطات الأرضيَّة ، ويعرف منها حوادث الطائرات بالساعة والدقيقة ومكان الوقوع إذا انقطع اتصال الطائرة بالأرض ، ولكن هذا الطائر الذي يطير من شمال الكرة الأرضيَّة إلى جنوبها ، من شمال بريطانيا إلى جنوب إفريقية ، وحينما يعود لو أنَّه أخطأ في زاوية العودة بمقدار درجة واحدة لهبط في هولندا ، ولو أخطأ زاوية أُخرى لجاء في ألمانيا .

والأغرب من ذلك هذه الطيور التي تبني أعشاشها . . تُعشش في البيوت ، والتي تهاجر إلى الجنوب وتعود ، كطائر مثلاً وصل إلى

جنوب إفريقية وسيعود ، وهو مثلاً في دمشق في بيت من بيوت الصالحيّة ، لو أخطأ نحو اليسار درجة واحدة لجاء بمصر ، ولو أخطأ نحو اليمين درجة لجاء بالعراق.. لكنه إذا عاد فإنّه يصل إلى عُشِّه الذي بناه في دمشق ، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يهدي .

كلَّما تأمَّلت في خلق السموات والأرض ذابت نفسك خشوعاً لله عزَّ وجلَّ وتعظيماً له .

وقال بعضهم : **« المبدىء هو الذي ابتدأ العباد بالفيض والمدد ، وهو نِعم السند »** .

أحياناً تُهدى هديَّة ابتداءً فتنتبه فتردُّ عليها ، ولكن لمن الفضل ؟ الفضل لمن بدأ.. لأنّ ردَّ الفعل أقلُّ من الفعل.. فربنا عزَّ وجلَّ أنعم عليك بنعمة الوجود ، فأنت موجود ، وبدأ فضله عليك بنعمة الإمداد ونعمة والهُدى والرشاد ، وهو قد بدأك بالفضل فقد قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

لم يقل : يحبونه ويحبُّهم بل قال : ﴿ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾.. حينما خلق الإنسان ولم يكن من قبل شيئاً مذكوراً بدأه بالفضل وقد قال تعالى :

﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

إلى متى أنت باللذات مشغولُ وأنت عن كلِّ ما قدَّمت مسؤولُ

أيضاً المبدىء.. المُظهر . قال : أظهر جميع الخلق من العدم إلى الوجود .

فالمعنى الأول للمبدىء.. هو المبدع . أي خلق على غير مثالٍ سابق .

المعنى الثاني للمبدىء.. هو الذي بدأك بالإحسان فأوجدك .

المعنى الثالث.. هو الذي أظهرك ، فقد كنت في حيِّز العدم أي عدماً فأظهرك .

وقال بعض العارفين بالله : « **المبدي هو الذي يقذف في قلب عبده النور فيشرق** » ، أي كان إنساناً خاملاً تافهاً بعيداً ، ضائعاً شارداً ضالاً ، فلمَّا ألقى في قلبه النور انتبه وصار شيئاً مذكوراً ، فالله عزَّ وجلَّ يرفع الإنسان ويسمو به ، ألم يقل في كتابه الكريم :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : ١-٤] .

كان إنساناً خاملاً.. فأحياناً تجلس مع إنسان تجد همومه سخيفة جداً ، وأحياناً أخرى تجالس إنساناً آخر فتدهش ، فهناك أشخاص اتصالهم بالله ومعرفتهم باليوم الآخر وسعيهم إلى الدار الآخرة وبذلهم وتضحياتهم جعلت من شخصيَّتهم شخصيَّاتٍ فذَّة .

فهذا الصحابي الجليل سيِّدنا ربيعة مثَل ناطق ، فعندما خدم سيِّدنا رسول الله ﷺ وقد انتهى وقت الخدمة فقد أذَّن العشاء وصلَّى النبي ﷺ وأوى إلى فراشه ، ولكنَّ ربيعة لم يستطع أن يغادر بيت النبي .

والحقيقة المؤمن كما في الحديث الصحيح : « **أولياءُ الله الذين إذا رؤوا ذكر الله** » فهناك سر ، فهذا الاتصال بالله عزَّ وجلَّ ، هذا النور الذي يسري إلى قلب المؤمن يجعله كالكوكب الدُّريِّ مشعاً من

حوله ، فسبحان الله المؤمن له هيبته وشخصيَّته ووقاره ، وله الأنوار من حوله ، فكلُّ إنسان التقى بمؤمن صادق يسري في كيانه ما يشبه التيار الكهربائي ، ويشعر برعشة ، ووجل .

فقد دخل على النبي الكريم رجل فأصابته رِعدة ، فقال له : « **هوِّن عليك إنما أنا ابن امرأةٍ من قريش كانت تأكل القديد بمكَّة** » .

الظاهر بيبرس وهو بطل من الأبطال ردَّ التتار ومع ذلك قال : والله ما استقرَّ مُلكي حتى مات العزُّ بن عبد السلام ، والعزُّ كان أحد العلماء في عصره ، وقد كان له من قوَّة الشخصيَّة والهيبة وقوَّة التأثير ما دعا الظاهر بيبرس إلىٰ أن يقول هذا القول .

روي أن الحجاج بني داراً بواسط وأحضر الحسن ليراها فلما دخلها قال : الحمد لله إن الملوك ليرون لأنفسهم عزاً وإنا لترى فيهم كل يوم عبراً يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده وإلى فرش فينجده وإلى ملابس ومراكب فيحسنها ثم يحف به ذباب طمع وفراش نار وأصحاب سوء فيقول : انظروا ما صنعت فقد رأينا أيها المغرور فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ؟ أما أهل السموات فقد مقتوك وأما أهل الأرض فقد لعنوك بنيت دار الفناء وخرجت دار البقاء وغررت في دار الغرور لتذل في دار الحبور ، ثم خرج وهو يقول : إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ليبينه للناس ولا يكتمونه .

وبلغ الحجاج ما قال فاشتد غضبه وجمع أهل الشام فقال يا أهل الشام أيشتمني عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تنكرون ؟ ثم أمر بإحضاره وهو يحرك شفتيه بما لم يسمع حتى دخل على الحجاج فقال يا أبا سعيد أما كان لإمارتي عليك حق حين قلت ما قلت ؟

فقال : يرحمك الله أيها الأمير إن من خوَّفك حتى تبلغ أمنك أرفق بك وأحب فيك ممن أمنك حتى تبلغ الخوف وما أردت الذي سبق إلى وهمك والأمران بيدك العفو والعقوبة فافعل الأولي بك وعلى الله فتوكل وهو حسبنا ونعم الوكيل فاستحيا الحجاج منه واعتذر إليه وأكرمه وحياه .

وفي رواية أخرى : فلما دخل قال له الحجاج ها هنا فأجلسه قريباً منه وقال : ما تقول في علي وعثمان قال أقول قول من هو خير مني عند من هو شر منك ، قال فرعون لموسى : (فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) علمُ علي وعثمان عند الله .

قال : أنت سيد العلماء يا أبا سعيد! ودعا بغالية وعطر بها لحيته فلما خرج تبعه الحاجب فقال له : ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه قال قلت :

يا عدتي عند كربتي! ويا صاحبي عند شدتي! ويا ولي نعمتي! ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب! ارزقني مودته واصرف عني أداه ففعل ربي عز وجل .

فالمؤمن له هيبةٌ كبيرةٌ جداً من اتصاله بالله .

وقد قيل للحسن البصري : بِمَ نِلت هذا المقام ؟ قال : باستغنائي عن دنيا الناس وحاجتهم إلى علمي .

فعندما يكون العالم مريض النفس يستغني الناس عن علمه ويحتاج إليهم هو لدنياه.. تسقطُ مكانته ، وتسقط قيمته.. فما نال الحسن البصري هذا المقام إلا باستغنائه عن دنيا الناس وحاجتهم إلى علمه .

فمن بعض معاني كلمة مُبدي أنَّ الله يُلقي على هذا المؤمن هيبةً ، ويلقي في قلبه نوراً ، مما يجعله كريماً عزيزاً .

أما اسم المعيد. . ففي اللغة : العَوْدُ هو الرجوع ، كالعودة. . ومن كلمات السلف الصالح اللهمَّ! ارزقنا إلى بيتك معاداً وعودةً ، والعَوْدُ : هو الرجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه ، والمُعيدُ من الرجال العالم بالأمور . ففي الجامعة عندنا مصطلح اسمه المُعيد ، وقد كان الطالب المتفوِّق يُعيد الدرس على زملائه ، فلتفوُّقه استوعب الدرس ، فإذا كان هناك طالب ضعيف فيستمع من المعيد إلى الدرس ، وهو يُعيد الدرس على قُرنائه ، فالمعيد هو العالم بالأمور .

والعائدة هي المعروف. . اللهمَّ لا تحرمنا عوائد فضلك ، فالعائد هو المعروف أي يعود نفعه على من فعله ، فإذا فعل إنسان معروفاً فيعود عليه الخير. . فالعود هو المعروف لأنَّ الإنسان إذا فعل المعروف عاد عليه الخير ، والعائدة هي المعروف والصلة .

والمعاد. . الآخرة : « **اللهمَّ أصلح لي ديني الذي هو عصمةُ أمري ، وأصلح لي دُنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي** » .

فالمُعيد هو الذي يرجع بعد أن انصرف عن الشيء. . والمُعيد هو العالم بالأمور ، والعائدة المعروف لأنَّه يعود على صاحبه بالخير ، والمعاد هو الدار الآخرة ، فقد قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [القصص : ٨٥] .

﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ ﴾ أي سوف يرجع بك أو يعيدك ، وقد قال

تعالى : ﴿ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه : ٥٥] .

أما المُعيدُ في صفة الله تعالى فهو كما قيل : « **هو الذي يُعيد الخلق بعد الحياة إلى الممات** » .

كلُّ الناس هلكى ، كلُّ من عليها فان ، كلُّ شيءٍ هالك إلا وجهه ، فالإنسان مهما علا لابدَّ من أن يعود إلى التراب ، لا بدَّ من دخول القبر ، الليل مهما طال فلا بدَّ من طلوع الفجر ، والعمرُ مهما طال فلا بدَّ من نزول القبر .

فالمُعيد هو الذي يُعيدنا إلى الموت بعد أن أحيانا فالموت نهاية كلّ حي ، فالموت يأتي فجأةً والقبر صندوق العمل ، هذه هي النهاية والمصير .

قال العلماء : « **ثم يُعيدهم بعد الموت إلى الحياة** » : ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ ، فهو ينقُلك من الحياة إلى الموت ، ومن الموت إلى الحياة ، لو كان الموت نهاية كلّ حي وهو فناء وانتهى أمر الإنسان بعده لكانت القضيّة إذاً سهلة جداً ، ولكن الموت بداية حياة فقد قال تعالى :

﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ [الفجر : ٢٤ـ٢٦] .

قال العلماء أيضاً : المُعيد هو الذي يُعيد الخلق للحساب . . فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية : ٢٥ـ٢٦] .

هناك عودة ، وهناك سؤال ، ومحاسبة ، ودقّة بالغة وعرض للأعمال ، والمعيد هو الذي يُجازي كلَّ مخلوقٍ بعمله وقوله ، ويُحاسبه على نعمه وطوله .

ورأي الإمام الرازي في هذا الموضوع « **أنَّ المعيد هو الذي يُعيدُ الأشياء بأعيانها** » ، فهذا الجسم الذي فني إلى ذرَّات ، فالذرَّات نفسها تجتمع ويُعاد خلقها من جديد ، فلو أنَّ الإنسان أُحرق كما في الهند وأُلقي رماده في الآفاق ، فهذه الذرَّات يُعيدها الله سبحانه وتعالى ، لو أنَّه أُلقي في البحر ، أو لو أنه احترق في الجو ، فذرَّات الإنسان التي خلقها الله يُعيدها هي هي ، وقد استنبط الإمام الرازي هذا من قوله تعالى :

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٩] .

فالذرَّات نفسها يُعيد خلقها . . وقد قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت : ٢١] .

معنى ذلك الجلد نفس تشهد على صاحبها ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ ، فإذا ارتكب الإنسان معاصي بأعضائه ، فهذه الأعضاء نفسها تجتمع ويُعاد خلق الإنسان منها ثانيةً وتشهد عليه .

يروى أنَّ سيِّدنا داود كان يبكي فأوحى الله تعالى إليه قال : لم تبكي يا داود ؟! إن كان بكاؤك خوفاً من النار فقد أمَّنتك ، وإن كان رجاء الجنَّة فقد أعطيتك ، وإن كان لحديث الخصم فقد أرضيتك ، فزاد داود بالبكاء وقال : إنما أبكي لما فاتني من صفاء ذلك الوقت الذي ولّى ، فاردده عليّ . فقال له ربُّه جلَّ جلاله : هيهات يا داود لا سبيل إلى ردِّ ذلك الوقت .

فالوقت لا يعود . . الدنيا ساعة اجعلها طاعة ، فمستحيل أن

تستعيد الوقت ، فالوقت إذا مضى لا يستعاد ، لذلك ما مضى فات والمؤمَّل غيب ، ولك الساعة التي أنت فيها .

من أدب المؤمن مع اسم المُعيد أن يُكثر من ترداد هذا الاسم كي يتذكَّر العودة إلى الله عزَّ وجلَّ ، فهناك عودة إلى الله .

أحد الأشخاص اتَّفق مع شخص آخر على أن يقرضه ثلاثمئة ألف ويُسجِّل له بستاناً جميلاً جداً كرهن ، فلما لم يستطع المستقرِض أن يرُدَّ القرض ، قال له الآخر : كلُّ إنسان معه حقُّه ، وكان ثمن البستان مليوناً . فصاحب هذا البستان تألَّم ألماً شديداً لدرجة أنَّه أصيب بأزمة قلبيَّة وشارف على الموت ، فأوصى ابنه قائلاً : يا بني إنِّي إن مِت سِرْ بالجنازة أمام هذا الذي اغتصب مني البستان وأوقف الجنازة أمام دكَّانه ، وادخل إليه وأعطه هذه الرسالة ، وبعد موت الرجل وكان بيته بطرف المدينة فانتقلت الجنازة إلى الطرف الآخر وسارت إلى جانب دُكَّان المغتصب ، وأوقف ابنه الجنازة أمام الناس ودخل إلى هذا المغتصب وقال : هذه الرسالة من هذا الميِّت ، قبل أن يموت كتبها لك . ففتحها فقرأ ما كتبه المتوفَّى فيها قائلاً : إنني ذاهبٌ إلى الله ، فإذا كنت بطلاً فلا تأتِ إلينا ، سوف أُقاضيك هناك .

إذاً معنى المُعيد أننا لا بدَّ من أن نعود إلى الله وسوف نُحاسب ، لذلك الغنى والفقر بعد العرض على الله ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ . وقد قال تعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧ـ ٨] .

وللمزيد من البيان. . . المُبدىء ، أقول : إنّ الإنسان إذا عرف أن

بدايته من ماءٍ مهين ، وأنّه خرج من عورةٍ ودخل في عورة ثم خرج من عورة ، هذه هي البداية ، ثم بعد هذا الخلق سوف يُعيده الله إلى الموت ، وبعد الموت يُعيده الله إلى الحياة ، فالبداية أي أصل خلق الإنسان الأول من تراب ، وأصل خلقه بالذّات من ماء مهين ، والنهاية موت وبعد الموت هناك حياة أبديَّة ، فأدب المؤمن مع هذين الاسمين المبدىء المعيد أن يذكر بدايته ونهايته .

لذلك . . طوبى لمن ذكر المبتُدى والمنتهى . . ذكر المبتدى أي أنَّه كان نقطة من ماء مهين ثم صار طفلاً ضعيفاً ثم كبر واشتدَّ عوده ثم بدأ يقول : أنا وأنا ، ثم يعود إلى ما كان عليه من الضعف والجهل ، ثم يطويه الردى ثم يُعيده الله تارةً أُخرى ليحاسبه على كلِّ أعماله . . فالله يبدأ الخلق ثم يعيده لتجزى كلُّ نفسٍ بما تسعى فقد قال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [الروم : ١١] .

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴾ [طه : ١٥] .

فالله عزَّ وجلَّ هو المبدىء والمعيد ، بدأك بالإحسان إليك حيًّا وأعادك إلى ما كنت عليه من العدم عند الموت ، ثم أعادك من العدم إلى الحياة لتلقى جزاء عملك .

* * *

الحَمِيدُ

من أسماء الله الحُسنى الحميد.. هذا الاسم ورد في أحاديث رسول الله ﷺ المتعلّقة بأسماء الله الحُسنى.

وبعد فهذا الاسم مشتقٌ من مادة الحمد، أما كلمة مادة، فهذه كلمة معجمية.. أي المعجم مؤلّف من مواد، فالحمد: حاءٌ، وميمٌ، ودالٌ، هذه مادة الحمد، فيها حَمِدَ، ويحْمَدُ، وحامد، ومحمود، الحمد، الحميد، هذه كلها مشتقات.. فكلمة الحميد مشتقةٌ من مادة الحمد، والحمدُ نقيض الذم، تحمده أو تذمُّه، الحمد متعلق بالكمال، والذم متعلق بالنقص، أنت بفطرتك تحمد الكامل وتذمُّ الناقص، فموطن الحمد الكمال، وموطن الذم النقص، فلأنَّ الله سبحانه وتعالى كاملٌ كمالاً مطلقاً فهو يحمد، ولأن الإنسان المنحرف منحرفٌ وناقصٌ فهو يذمُّ، فالحمد نقيض الذم، وعلينا أن لا ننسى أن القرآن الكريم كلُّه مجموعٌ في الفاتحة، وأن مطلع الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢].

إلا أن الحمد لله ربِّ العالمين.. الحمد في هذه الآية مفروغٌ منه، ولكن بعض الناس ضلّت بهم السّبل فجعلوا الحمد لغير الله تعالى، وهذا بيان ذلك:

إنّ الإنسان يشرب كأس الماء ، ويأكل الطعام ، ويأوي إلى بيت ، ويلتقي مع أهل بيته ، هذه نعمٌ لا يختلف فيها اثنان على وجه الأرض فالجائع يأكل فيشعر أن الطعام نعمة ، والعطشان يشرب الماء القراح البارد فيرتوي ويشعر أن الماء نعمة ، والمشرَّد إذا أوى إلى بيته يشعر أن المأوى نعمة ، فهذه النعم لايختلف عليها اثنان على وجه الأرض ولكن أناساً عزو هذه النعم إلى البقر فعبدوها من دون الله ، وأناساً عزوها إلى الشمس ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى هو صاحب الحمد : وإنّ الحمدَ هو الشيء الثابت ، والقاسم المشترك ، والشيء الذي لايختلف عليه اثنان . . ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ .

المنعم هو الله ، فالحمد نقيض الذم ، وقيل الحمد والشكر لافرق بينهما ، والأصح كما يقول علماء اللغة : إنَّ الاختلاف في المبنى ، دليل الاختلاف في المعنى . . الشكر غير الحمد .

قيل : الفرق بين المعنيين ، أن الحمد يكونُ عن يدٍ وعن غير يد ، أما الشكرُ فلا يكون إلا عن يد . . ما معنى ذلك ؟ أي إذا أسدى إنسان إليك معروفاً ، أنت تشكره ، أما إذا أسدى إنسان إلى إنسانٍ معروفاً فأنت بفطرتك العالية تقدِّرُ هذا المعروف ، فأنت تحمده ، مع أن معروفه لم يصل إليك .

فنحنُ نحمدُ صاحب اليد ، صاحب الإحسان ، نحمدُ الكامل ، أصابنا كماله أو لم يصبنا ، ونشكرُ الذي أكرمنا ، فالشكر متعلقٌ بنعمةٍ وصلت إليك ، أما الحمد فمتعلقٌ بالإنسان الكامل وصلت إليك نِعَمُه أو لم تصل .

والمعنى الثالث. . قيل : الحمد أعمُّ من الشكر. . الحمد الشعور المتغلغل في أعماق النفس بالإمتنان .

حدثني رجل مُحسن ، قال : طفل صغير أصيب بحادث وهو فقير ، وهذا المُحسن أجرى له سبع عشرة عمليةً جراحيّة إلى أن استطاع أن يقف على قدميه ، فهذا الطفل الصغير عرف أن هذا الإنسان هو المحسن ، فعبَّر عن شكره بشكلٍ لا يوصف لهذا المُحسن وهو طفلٌ صغير ، فالأجدر بك أيها الإنسان أن تعرف قدر الله الذي أحسن إليك كل الإحسان .

وإني أرجو أن أكون صادقاً فيما أقول : أحياناً تشعر أن كل خلية في جسمك تحمد الله عزَّ وجلَّ ، بل إن كل قطرةٍ في دمك تحمدُ الله عزَّ وجلَّ ، تحمده على أن أوجدك ، لو لم يوجدْك هل لك عنده شيء ؟ أوجدك ، وأمدك ، وهداك إليه ، وأراد أن يسعدك في جنةٍ إلى أبدِ الآبدين ، لذلك آخرُ دعواهم أن الحمد لله رب العالمين. . كما قال تعالى :

﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] .

إن لم يكن الحمدُ متغلغلاً في أعماقِ أعماقِ نفسك ، وإن لم يلهج لسانُك بالثناء على الله عزَّ وجلَّ فأنت لست مؤمناً ، لأنَّك تقرأُ الفاتحة في اليوم أعتقد زهاء ثلاثين مرة ، وفي كل مرة تقول : الحمد لله ربّ العالمين ، الحمد لله ربّ العالمين ، فعندما يقرأ الإنسان الفاتحة ، يستشعر هذه النعم ، إذ أوجدك ، وهداك إليه .

أي عندما أنت تقرأ أنَّ أُناساً في بعض البلاد في شرقِ آسيا يعبدون

الجرذان ، وأنت تعبد الله الذي خلق الأكوان ، وزوّدك بمنهج واضح ، والطريق تعرف نهايته ، تعرف ماذا بعد الموت ، الله جلَّ جلاله خلقك ليسعدك ، فالحمد من ألزم لوازم المؤمن .

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ : بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَاعِدٌ مَعَ أَصْحَابِهِ إِذْ ضَحِكَ فَقَالَ : « أَلا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ ؟ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ وَمِمَّ تَضْحَكُ ؟ قَالَ : « **عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ حَمِدَ اللهَ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ ، وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ إِلا الْمُؤْمِنُ** » .

أحياناً الإنسان يشربُ كأسَ ماءٍ بارد . . كان عليه الصلاة والسلام تعظمُ عنده النعمة مهما دقَّت . . ولا بد من قول الحمد لله ، طريق سالك ، والكليتان تعملان بانتظام ، والماء موجود ، فاعتبروا يا أولي الأبصار .

أقام إنسان بإحدى دول الخليج لفترة طويلة ، وهي قصة قديمة ، أراد أن يعود إلى بلده أي إلى سورية ، لم يكن الطريق معبَّداً كما هو الآن فضلَّ الطريقَ في الصحراء ، ووجدوه على بعد خمسة كيلو مترات ، وقد مزّق بأظافره جلد وجهه من شدة العطش ، ووجدوا زوجته وأولاده في المركبةِ ميتين .

قطرة من الماء تعدل الحياة فأنت تشرب الماء القراح ، فإذا الإنسان شرب كأساً من الماء وقال : ولا بدّ من قول الحمد لله رب العالمين هذا إيمان . . كان سيدنا عمر إذا أكل حمد الله . . مرةً جاءه رسول من أذربيجان فأراد الرسول أن يتنعَّم بتناول طعام الغداء عند

سيدنا عمر ـ وقد كان خيَّره ـ أتأكل مع فقراء المسلمين أم تأكلُ في بيتي ؟ قال له : في بيتك . فليست هناك نسبة في نظر الضيف بين طعام عمر وطعام فقراء المسلمين ! فإذا في بيته الملح والخبز فقط ، فقراء المسلمين يأكلون اللحم الطيِّب ، قال : يا أمَّ كلثوم ماذا عندكِ من طعام ؟ قالت : والله ما عندنا إلا خبزٌ وملح ، قال : فأكل عمر وضيفه هذا الطعام وقال : الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا .

عن أبي عبد الرحمن البجلي قال سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ فقال له عبد الله : ألك امرأة تأوي إليها ؟ قال : نعم! قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال نعم! قال : فأنت من الأغنياء . قال : فإني لي خادماً ، قال : فأنت من الملوك [رواه مسلم موقوفاً] .

لست مضطراً إلى أن تغسل كليتيك ، فيقول : هذا صحيح لست مضطراً إلى أن تغيِّر دساماتِ قلبك في بريطانيا ، وتدفع أجرة عملية مليون ليرة ، فالسعادة عندما يكون الإنسان في صحة جيدة ، وعنده قوت يومه .

لذلك ذات مرة سأل ملك وزيره وكان ملكاً جباراً قال له : من الملك ؟ فقال الوزير : أنت . فقال له الملك : لا . . الملك هو رجلٌ لا يعرفنا ولا نعرفه له بيتٌ يؤويه ، وزوجة ترضيه ، ودخلٌ يكفيه . هذا هو الملك .

النبيّ ﷺ قال :

« مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ ، آمِناً فِي سِرْبِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا » .

استيقظت فوجدت أنَّ أجهزة جسمك سليمة ، قمت من فراشك ، سرت إلى الوضوء توضأت ، وصليت إذاً أنت ملك ، الله عزَّ وجلَّ سمح لك ان تعيش يوماً جديداً ، عافاك في بدنك ، أذن لك أن تذكره وتشكره .

أحياناً تجد في أثناء أذان الفجر إنساناً يغسل سيارته في الساحات العامة ، فهل هذا الوقت وقت غسيل السيارات !! أم وقت ذكر لله عزَّ وجلَّ ؟ فإنه لا يعرف الله ، سيارته وغسيلها أهم عنده من أداء الصلاة .

لذلك قيل : ليس الولي الذي يطير في الهواء ولا الذي يمشي على وجه الماء ، ولكنَّ الوليَّ كلَّ الولي الذي تجده عند الحلال والحرام . . أن يجدكَ حيثُ أمرك ، وأن يفقدك حيثُ نهاك .

فالحمد أعمُّ من الشكر . . فالحمد يعني أنّ كيانك ، ذرَّات جسمك ، خلاياك ، قطرات دمائك كلُّها عليها أن تشكر الله سبحانه وتعالى :

وجدناك مضطّراً فقلنا لك : ادعُنا نُجبك . . فهل أنت حقاً دعوتنا ؟
دعوناك للخيرات أعرضت نائياً فهل تلقى من يحسن لمثلك مثلنا ؟
فيا خجلتي منه إذا ما قال لي : أيا عبد سوء أما قرأت كتابنا ؟
أما تستحي منّا ويكفيك ما جرى ؟ أما تخشى من عُتبنا يوم جمعنا ؟
أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً إلينا وتنظر ما به جاء وعدنا

الحمد لله يجب أن يدخل في كيانك كلِّه ، يجب أن يتغلغل في ذرَّات جسمك ، في خلاياك ، في قطرات دمك ، لأن وجودك نعمة ،

وإمدادك نعمة ، وهدايتك نعمة ، وأنت نعمةٌ من نعم الله عزَّ وجلَّ ، وقد قال الله تعالى :

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

حتى عندما يصلي الإنسان أية فريضة من الصلاة فليحمد الله أن وفّقه لطاعته ، فهذه نعمة .

أجل ، الهداية نعمة ، يقول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] .

أي حينما تؤمن وتشكر ، أنت تحقق الهدف من وجودك ، لأن هذا الكون مسخرٌ لكَ تسخيرين ، تسخيرَ تعريف ، وتسخيرَ تكريم ، إنك إن آمنت حققت المعرفة ، وإنك إن شكرت حققت الشكران .

الحمد أن ترضى عن الله عزَّ وجلَّ ، وقد قال الله تعالى :

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٩] .

مرّت بنا هذه العبارة من قبل . . . الحزن خلاَّق ، المصيبة تفتّق العبقريَّات ، أما الرخاء والنعيم والطعام والشراب فإنه يؤدي إلى الخمول والقعود والجمود ، فالإنسان يجب ألا يتألَّم من المصيبة ، لعلَّ المصيبة هي الباعث الحثيث إلى الله عز وجل .

فإنَّك لاتكون مؤمناً إلا إذا رأيت أفعال الله كلَّها تستحقُّ أن يُحمد عليها ، أحياناً يكون الموسم ممطراً ، والفواكه رخيصة ، والجو لطيف ، أحياناً غلاء ، أو حر شديد ، أو زلزال ، أو فيضان ، أو

براكين ، أو يذيق الله بعض الناس بأس بعض ، أفعاله كلُّها يحمد عليها .

كـن عـن هـمـومـك معـرضـاً وكـل الأمـور إلـى القضـا
وابشـر بخيـرٍ عـاجـلٍ تنسـى بـه مـا قـد مضـى
فلَـرُبَّ أمـرٍ مسخـطٍ لـك فـي عـواقبـه رضـا
ولـربَّمـا اتسـع المضيـق وربَّمـا ضـاق الفضـا
الله يفعـل مـا يشـاء فـلا تكُـن معتـرضـا
الله عـوَّدك الجميـل فقس على مـاقـد مضـى

وبعد : فالحمد. . هو الرضا ، والحمد هو الجزاء ، والحمد هو قضاء الحق ، أن ترضى وأن تجازي وتكافىء وأن تقضي الحق ، هذا من معاني الحمد .

والمحْمَدَة. . الخصلة التي يحْمَد عليها الإنسان ، وجمع محمدة محامد ، والتحميد : هو حمد الله عزَّ وجلَّ بالمحامد الحسنة وهو أبلغ من الحمد ، ومنه الاسم الشريف ، محمَّد ﷺ ، فهو النبي المحمود الذي كثرت خصاله المحمودة .

فالنبيُّ ﷺ محمَّد مشتق من الحمد وهو مفعَّل ، ومفعَّل صفة تلزم من كثُرَ منه فعل ذلك الشيء فمحمَّد مفعَّل لأنه حُمِد مرَّة بعد مرة ، كما تقول : كرَّمته فَهو مكرَّم ، وعظَّمتُهُ فهو معظَّم ، إذا فعلتُ ذلك به مراراً .

والتحميدُ. . هو حمدُ الله أو كثرة الحمد ، والحَمْدَلَةُ ، فلان حَمْدَلَ أي قال : الحمد لله ، سَبْحَلَ أي قال : سبحان الله ، حَوقَلَ أي قال : لا حول ولا قوةَ إلا بالله ، دَمْعَزَ أي قال : أدام الله عزَّك ،

حَيْعَلَ أي قال : حيَّ على الفلاح ، هلَّلَ أي قال : لا إله إلا الله ، كَبَّرَ أي قال : الله أكبر ، هذه صيغة النحت في اللغة العربية ، الحَمْدَلَةُ هي أن تقول الحمد لله ربِّ العالمين .

وليعلم كلّ مؤمن أنّه لا بدَّ من الابتلاء ، فإن ساق الله لهذا الإنسان مصيبةً ، وتلقَّاها بصبرٍ جميل ، وقال : الحمد لله ربِّ العالمين ، نجح مئة على مئة ، والصبر عند الصدمة الأولى ، لذلك المؤمن لا ـ سمح الله ولا قدَّر ـ لو ساق الله له مصيبة ، لمجرد أن الله ساقها له يقول : الحمد لله ربِّ العالمين. . نجح .

الإمام الرازي يرى أن معنى الحميد وهو اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ، هو بمعنى حامد ، أي لم يزل سبحانه بثنائهِ على نفسه ، أي يحمد نفسه ، لماذا يحمد نفسه ؟ طبعاً الإنسان لا يحقُّ له أن يحمد نفسه ، لأنه ليس له هذه المرتبة ، والمؤمن لا يتحدَّث عن نفسهِ أبداً لماذا ؟ سيدنا الصديق مرةً أثنى عليه بعض الأشخاص ، فدعا دعاء رائعاً ، قال : اللهم أنت أعلم بي من نفسي ، وأنا أعلم بنفسي منهم ، اللهمَّ اجعلني خيراً مما يقولون ، واغفر لي مالا يعلمون ، ولا تؤاخذني بما يقولون .

والإنسان المؤمن الصادق لا يمدحُ نفسه أبداً ، بل الناس يمدحونه ، أما أنت فلتتهم نفسك دائماً كلَّما بالغت في اتهامها كنت موفقاً أكثر ، لكن الله يمدح نفسه ليعرِّفنا ذاته ، ولكي نصل إليه ، ولكي نقبل عليه ، ولكي نطمع في مغفرته ، ولكي نطمع في عطائه ، ويمدح نفسه كي نطمع في جنَّته ، فهناك فرق بين الإنسان الضعيف الحادث الفاني الفقير الجاهل لا ينبغي أن يمدح نفسهُ ، ولكن الله

حميد بمعنى حامد ، يحمدُ نفسه لخلقهِ ، لكي يعرفوه يحمد نفسه لخلقه ليقبلوا عليه فيسعدوا بإقبالهم ، ويحمد نفسه لخلقه ليتجهوا إليه ، ويحمد نفسه لخلقه لينالوا من عطائه . . قال الله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النحل : ٦٠] .

فمثلاً إذا كنت إنساناً كريماً جداً ، وكنت بمظهر لا يشير إلى غناك ، وإنسان فقير يتلوى جوعاً ، تجد نفسك مضطراً إلى أن تقول له : أنا معي اطلب ما تشاء فأنا معي . أنت الآن تقول له : أنا معي مال ، فهل هدفك أن تفتخر ؟ لا . . بل أنت تقدّم نفسك ليستعين بك ، فهذه حالات نادرة .

الإنسان أحياناً يلبس ثياباً لا تدلُّ على غناه يرى شخصاً يتلوى جوعاً يقول له : أنا معي اطلب ما تشاء ، معي مبلغ كبير اطلب ، وسأعطيك فهل هو يفتخر بهذا القول ؟! لا . . بل يعرِّف هذا الفقير بأنه قادر على عطائه ، فالله عزَّ وجلَّ . . حميد ، أي حامد ، يحمد نفسه لخلقه كي يعرفوه ، وحميد بمعنى محمود ، أي محمودٌ بحمد نفسه وبحمد عباده له ، فالله عز وجل محمود ، يحمده الخلق كله .

وقال بعض العلماء : **« الحميد هو المحمود ، والله تعالى هو الحميد بحمده بنفسه أزلاً وبحمد عباده له أبداً ، من قبل أن يخلق الخلق حمد ذاته ، فلما خلق الخلق حمده خلقه »** .

قال : **« الحميد يرجع هذا الاسمُ إلى صفات الجلالِ والعلوِّ والكمالِ منسوباً إلى الله عزَّ وجلَّ »** ، الله عز وجل له أسماء جلال ، وأسماء كمال ، وأسماء جمال ، وأسماء قهر ، فالله عزَّ وجلَّ جبار ، قال تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٨] .

ومن أسمائه الجميل واللطيف والرحيم ، وهناك أسماء جمال ، وأسماء جلال ، وأسماء قهر . . المتعالي والعزيز والمتكبر ، فهذا الاسم اسم الحميد منسوب إلى أسماء صفات الجلال والعلوّ والكمال .

قالوا الحميد له معنى آخر : « **الحميد هو مستوجب الحمد ومستحقه** » .

إذا دعيت إلى وليمة غداء ، والطعام نفيس جداً ، وعلى المائدة عشرون شخصاً ، بعد أن تنتهي من الطعام تشكر من ؟ تقول للشخص الذي يجلس بجوارك ؟ لا ، فهذا مدعو مثلك ، أم تبحث عن صاحب الوليمة الذي دعاك وتكلف وجاء بهذا الطعام النفيس ودعاك إليه ؟ فمِن حمق الإنسان أن يشكر إنساناً مدعواً مثله ، من هو المستوجب الحمد في هذه الوليمة ؟ صاحب الدعوة ، لذلك الإنسان يسأل من الدَّاعي ؟ وعندما ينتهي يقول له : أكل طعامكم الأبرار ، فهذا فيما بين الناس بعضهم بعضاً . . فمن الذي يستوجب الحمد وحده ؟ الله جلَّ جلاله لأن كلَّ النعم من عنده .

قال العلماء : « **هو مستوجب الحمد ومستحقُّه ، وهو أهل الثناءِ بما أثنى على نفسه الذي يحمد على كلِّ حال** » .

هناك عبارة شهيرة : الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه .

يُحمد على كل حال ، يُحمد على العطاء وعلى المنع ، وعلى الرفعة ، وعلى الخفض ، وعلى الإعزاز ، وعلى الإذلال ، يُحمد على كلِّ شيء ، وأُذكّر أنّ الله يذلّ ليُعزّ ، ويضرّ لينفع .

وقيل : « **الحميد الذي يوفقك لفعل الخيرات ويَحمدُك عليها** » . .

هذا معنى دقيق جداً . . يُعينك على فعل الخير ويَحمدُك عليه .

إذا أراد ربك إظهار فضله عليك ، خلق الفضل ونسبه إليك . أعطاك مالاً وأعطيت من هذا المال ، وبعد هذا يحمدُك الله على إنفاقك والمال منه .

ألا ترون في بعض الأحيان ، حينما يأخذ الطفل من والده ثمن الهدية لأمه ، ثم يعطيها لأمه ، فنحن نشكر هذا الطفل على هذه البادرة الطيبة ، ولكن المال من الأب ، والأب أثنى عليه ، أعطاه ثمن الهدية وجعله يعطيها لأُمه ، فإذا الأبُ يثني على ابنه على هذه الهدية ، وثمن الهدية منه .

لذلك إذا أراد ربّك إظهار فضله عليك ، خلق الفضلَ ونسبه إليك ، أنت لك الطلب ، يا ربّ! أضرع إليك أن توفقَني أن أدعوَ إليك ، فالله تعالى يلهمك ويطلق لسانك ، ويجمع النّاس حولك ، يجعل بعض الأفئدة تهوي إليك ، فهذا فضل من الله عزَّ وجلَّ ، قال الله تعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

قال : « **الحميد هو الذي يوفقُك للخيرات ويحمدُك عليها ، ويمحو عنك السيئات ولا يُخجِلك بذكرها** » ، أي ينسيك إياها . . فهل أحد مبرأ من موقف ارتكب فيه خطأً في زمانه ؟ لو لم ينسه لاحترق كلما ذكره ، ولكنه بعد أيّام ينساه ، فالله عز وجل يُنسيك ويمحو عنك السيئة ، ويغفرها لك ، ثم ينسيك إياها ، من أجل أن تقبل عليه ،

هذا هو الحميد ، وقيل : « الحميد . . هو الحامد بنفسه ، المحمود بحمده لنفسه ، وبحمد عباده له » .

هذا الاسم العظيم ورد في آياتٍ كثيرة . . ورد في سورة البقرة . . قال الله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٧] .

قد يعطي إنسانٌ شيئاً ما يكرهه أو تعافه نفسه لفقير ، فثوابه معدوم ، طعام لم يعد محبباً له ، يرسله إلى فقير ، أما إذا أعطيت طعاماً نفيساً أو أكلة محببة عندك لإنسان فقير فالله تعالى يقبل عطاءك ويُثيبك عليه ، قال تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ لا ينسى لك هذا المعروف .

يا ابن آدم! مرضت فلم تعدْني ؟ قال : يا رب! كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين ؟! قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ، أما علمت أنَّك لو عُدْتَهُ لوجدتني عنده [رواه مسلم] .

أنت عندما تعطي شيئاً نفيساً لإنسان مؤمن ، فقير ، جائع ، الله عزَّ وجلَّ ﴿ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ . . يغنيك ، ويحمدك على هذا العمل ، لذلك قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ .

وفي سورة هود :

﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود : ٧٣] .

إنّ أيّ إنسان دعا إلى الله ، وبذل وقته ، وماله ، وصحّته ، وطاقاته ، لنشر الحقّ ، فهل يضيِّعه الله عزَّ وجلَّ وينساه من فضله! ، يسلمه لأعدائه ؟ ، يخزيه ؟ لا ، أبداً قالت خديجة لرسول الله عليه الصلاة والسلام : **فو الله لا يُخْزِيك الله أبداً** .

موقف السيدة خديجة أقوى دليل على الفطرة ، إن هذه المرأة التي كانت زوجة النبيّ عليه الصلاة والسلام ، حينما رأت من النبيّ ﷺ الصدق ، والأمانة ، والعفاف ، والطهر ، وخدمة الخلق ، كان عليه الصلاة والسلام يقري الضيف ، يُعين الضعيف ، يتصدَّق ، يعين على نوائب الدهر ، قالت له السيدة خديجة : **فو الله لا يخزيك الله أبداً** .

هذه الكلمة أرجو أن يُصغي إليها كلّ مؤمن. . . والله زوال الكون أهون على الله من أن يخزي مؤمناً ، أنت آمنت به ، واستقمت على أمره ، وعاهدته ، واصطلحت معه ، وتسعى جهدك لطلب رضاه ، تتحرى الحلال ، تبحث عما يرضيه فهل يخزيك ؟. . لا والله. . فو الله لا يخزيك الله أبداً .

تفاءلوا أيها المؤمنون ، النبيّ ﷺ كان يحب التفاؤل ، لا يحبُّ التشاؤم ، الله جلّ جلاله لا يتخلّى عن المؤمنين ، لكن يؤدِّبُهم ، يبتليهم ، أما في النهاية فيكرمهم ، ويعطيهم ، الآية الكريمة التي يقشعر منها الجلد. . قال الله تعالى :

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى : ٥] .

معنى ذلك أنَّك الآن في طوْر المعالجة ، انتظر ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ .

الله حميد ، ويحمدكم على عملكم ، هو يحمد ، ومحمود كما قلنا حامد ومحمود ، حميد بمعنى حامد أي يحمد ذاته ويحمد خلقه ، إذا أعطوا ، وبذلوا ، ونصحوا ، وآسوا ، ضحوا ، والتزموا ، وصبروا فإن الله يحمدهم ، يحمدُ نفسه ليعرفوه ، ويحمدهم ليذكروه ، وهو محمودٌ في أفعالهِ كلِّها .

في سورة إبراهيم قال تعالى :

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم : ١] .

هذا الصراط صراط الله عزَّ وجلَّ ، الصراط المستقيم هذا يوصلك إلى العزيز الحميد ، العزيز هو الذي لا ينال جانبه ، العزيز القوي ، العزيز الفرد الواحد الصمد ، العزيز الذي لا إله غيره ، يحتاج إليه كل شيء في كل شيء ويستحيل الإحاطة به ، عزيزٌ حميد. . دقيق المعنى. . هو عليٌّ عظيم وفي الوقت نفسه يكافىء على كلِّ معروف .

قد يكون شخصٌ عالي المقام ولعلوِّ مقامه ، ليس لديه وقت ليعرف ، ماذا قُدِّمَ له ؟. . . أما ربُّنا عزَّ وجلَّ على علوِّ مقامه ، وعلى عظمة ذاته ، إن عباده إذا فعلوا معروفاً حمدهم عليه ، عزيزٌ حميد .

وفي سورة الحج :

﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [الحج : ٢٤] .

أصعب شيء أنْ تُسدي إلى إنسان معروفاً ، ثم تفاجأ أنَّ هذا

الإنسان تنكَّر لك ، وجحد فضلك ، وأدار لك ظهر المِجَنّ قال مالك بن فهم الأزدي :

أُعلِّمه الرماية كلّ يوم فلما استدَّ ساعده رماني
وكم عَلَّمْتُه نظم القوافي فلما قال قافيةً هجاني
أعلمه الفتوة كل وقت فلما طرَّ شاربه جفاني

فإذا تعامل الإنسان مع الله ، فلا تجد عنده مشكة ، لو تعامل مع قويّ ، أو مع إنسان آخر ، أحياناً يقول لك : أنا أخلصت له ، وبذلت من أجله الغالي والرخيص ، ومع ذلك كان لئيماً ، وكان جحوداً ، تنكَّر لي ، أدار لي ظهره ، لم يعبأ بي ، وتخلَّى عني ، فهذا شيء لا يحتمل أن تُسدي إلى إنسان معروفاً ، ثمّ يتنكَّرُ لك . . ولقد قال الله تعالى : ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ .

أما إذا أقبلت على الله ، فلن يضيِّعك . . السيدة هاجر نادتْ زوجها سيدنا إبراهيم لما تركها وإسماعيل ولده في واد غير ذي زرع قالت له : الله الذي أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذاً لا يُضَيِّعُنا ، هذا هو شعور المسلم أنَّ الله لن يضيع عبده ، قال الله تعالى : ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [الحج : ٦٤] .

هذا معنى جديد ، هو غنيٌّ عنّا ، ومع أنه غنيٌّ عنّا يعاملنا معاملةً نحمده عليها .

تجد إنساناً أحياناً يغتني ، فيترفَّع ، ويتأفَّف ، ويستغني ، وينسى أقرباءه الفقراء ، وينسى جيرانه ، فهو إذاً غنيٌّ غير حميد ، أما ربنا عزَّ وجلَّ فهو غنيٌّ عنا ، وعن عبادتنا ، وعن طاعتنا ، وعن ذكرنا ، وعن

ابتهالنا ، ومع ذلك لا يعاملنا إلا بما نحمده عليه ، الله هو « **الغني الحميد . عزيز حميد ، حميد مجيد** » .

قال الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [لقمان : ١٢] .

هذه « غني حميد » دقيقة الدلالة جداً . . هو غنيٌّ عنا ومع ذلك كاملٌ في معاملته ، لا يعاملنا إلا معاملة نحمده عليها .

في سورة سبأ قال تعالى :

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ : ٦] .

إنّ علينا نحن المسلمين أن ندقق النظر عند كلمة « عزيز حميد ، غنيٌّ حميد ، حميدٌ مجيد » ، وندرك أبعادها وأثرها علينا ، وفي سورة فاطر قال تعالى :

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [فاطر : ١٥] .

وبعد ، من الحميد من العباد ؟ قال العلماء : من استقامت عقيدته ، واستقامت أخلاقه ، وأعماله ، وأقواله ، وأفعاله .

من هو الذي يُحمد على عقيدته وعلى أخلاقه وعلى أعماله وعلى أقواله ؟ هو النّبيُّ عليه الصلاة والسلام ، رسول الله ﷺ هو من العباد الحميد ، سمَّاه الله محموداً ، محمودٌ عند ربّه ، ومحمودٌ عند الخلق ، ومحمودٌ عند نفسه ، بعد النّبي عليه الصلاة والسلام يأتي الرُّسل والأنبياء والصدّيقون والأولياء والعلماء ، كلّ واحدٍ منهم حميدٌ بقدر سلامة عقيدته ، واستقامة أخلاقه ، وصلاح أعماله ، وسداد أقواله .

فأنت تُحمد على قدرِ سلامة عقيدتك ، واستقامة أخلاقك ، وصلاح أعمالك ، وسداد أقولك ، فكلَّما ارتقيت في سلَّم الكمال تحمد على هذا الكمال ، أي هناك علاقة طرديَّة بين الكمال والحمد ، من هو الحميد المطلق ؟ هو الله عزَّ وجلَّ .

الإنسان كامل في ألف موقف ، فتزل قدمه في موقف يبقى عند الناس كاملاً ، أما ربنا عزَّ وجلَّ فكماله مطلق. . إذاً هو الحميد المطلق .

بعضهم يقول : « **الحميد من العباد هو من حسنت عقيدته ، وأخلاقه ، وأعماله ، وأقواله ، من غير نقصٍ ولا خلل** » .

قال العلماء : « **لم تظهر خصائص اسم الحميد في العباد جليةً ، واضحةً في فردٍ في الوجود ، إلا النّبي عليه الصلاة والسلام** » .

وأجمل منك لم تر قطُّ عيني وأكمـل منـك لـم تلـد النسـاءُ

قال : الناس على أطباقٍ ثلاثة في علاقتهم بحمد الله عزَّ وجلَّ ، العامَّة : يحمدونه على إيصال اللَّذات الجسمانية . أكل ، وشرب ، وبيت ، وزوجة ، ويقول لك : الله مفضل ، العوام يحمدون الله على اللذائذ الحسيَّة. . والخواص يحمدونه على اللَّذات الرؤحانية . قرأت قرآن ، وشعرت بتجليات وسكينة ، أو صليت صلاة متقنة ، شعرت أنّك اقتربت من الله ، تفتَّقت معان لطيفة حينما قرأت القرآن. . هؤلاء الخواص : يحمدونه على اللَّذات الروحانية .

قال العلماء أيضاً : أما خواص الخواص المقربون يحمدونه لأنه أهلٌ للحمد . إما أن تحمده على نعمةٍ حسية ، أو على نعمةٍ روحية ، أو لأنه أهلٌ للحمد .

قالوا : أدب المؤمن مع الحميد سبحانه.. هو أنَّه يمدح الله عزَّ وجلَّ دائماً ، ويثني عليه ، ويحمده على كلِّ شيء .

ولندقق النظر بعد كل هذا الشرح فقد قال العلماء : « من حمد الله ولم يتحَقَّق من هذه النعم حمده تقليداً ، فهذا الحمد غير مقبولٍ منه » ، ما الدليل ؟ قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ١٦٩] .

هل تحققت من نِعم الله ؟ لذلك الحمد لا يقبل إلا إذا كان عن تحقُّق.. فهل تحققت من نعمة الوجود ؟ نعمة الإمداد ؟ نعمة الهدى والرشاد ؟ وإلا حمدك هو الحمد التقليدي .

أنا أحياناً أسأل إنساناً ملحداً أقول له : كيف صحتك ؟ يقول : الحمد لله . وهو ملحد ينكر وجود الله ، يقول لك : الحمد لله . هذا الكلام لامعنى له إطلاقاً ، لا بدَّ من أن تقول الحمد لله وأنت متحقِّقٌ من نعم الله عزَّ وجلَّ.. أوجدك وأمدَّك وهداك إليه .

لذلك كان النّبيُّ الكريم ﷺ تعظم عنده النعمة مهما دقَّت .

الفرق بين الكافر والمؤمن فرق دقيق ، فالكافر يشهد النعمة وينتفع بها ، والمؤمن يشهد المُنعم من خلال النعمة .

الفرق بين المؤمن والكافر ، الكافر مع النعمة ، أما المؤمن فهو مع المنعم ، الكافر يستمتع بالدنيا ، بيت فخم وأثاث جميل ، وطعام طيب كلّ شيء من أعلى مستوى ، يستمتع بها أشدَّ الاستمتاع ، هو مع النعمة ، لا مع المُنعم ، المؤمن مع المُنعم هذا هو الفرق ، وهو فرق صارخ .

قال العلماء : ورد أنَّ داود عليه السلام قال لربه : يا إلهي كيف

أشكرك ؟ وشكري لك نعمةٌ منك عليّ . أي إذا شكرتك هذه نعمة جديدة تضيفها إليّ ، فقال الله عزَّ وجلَّ لهذا النّبي الكريم : الآن شكرتني .

قال موسى : يا رب! كيف شكرك آدم ؟قال : علم أن ذلك مني فكان ذلك شكره [البيهقي في الشعب] .

إذا علمت أن هذه النعم من الله وأنك إذا شكرتهُ عليها ، اكتسبت نعمة جديدة فقد شكرت الله عزَّ وجلَّ . . روي في الأثر القدسي « ابن آدم! إنك إذا ذكرتني شكرتني ، وإذا نسيتني كفرتني » .

آخر كلمة أقولها وأختم بها البحث : الشكر الحقيقي له ثلاثة مستويات ، أول مستوى : أن تعرف أنَّ هذه النعمة من الله ، هذا مستوى جيد ، الأرقى منه أن تقابل هذه النعمة بامتنانٍ وحمدٍ بلسانك وقلبك ، أما الثالثة أرقى وأرقى وهي أن تقابل هذه النعمة بعملٍ صالحٍ . . والدليل :

﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] .

الخلاصة إذاً أن تعرف أن هذه النعمة من الله هذا مستوى ، وأن تثني على الله بلسانك وبقلبك هذا مستوى آخر ، أما أن تقابل هذه النعمة بعملٍ جليل لخدمة الخلق فهذا معنى قوله تعالى : ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ .

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علمنا ، وأن يلهمنا الخير .

* * *

البَرُّ

من أسماء الله الحُسنى البَرّ. . البَرُّ اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ورد في الأحاديث الشريفة التي أُدرجت فيها أسماء الله تعالى .

والبرُّ. . هذه الكلمة باؤها مثلَّثة. . ومعنى ذلك أي أنَّ هناك بَرٌّ ، وبُرٌّ ، وبِرٌّ ، فالبُرُّ هو القمح. . والبِرُّ هو الإحسان. . والبَرُّ هو اليابسة في الأصل ، أما البَرّ إذا كان اسماً من أسماء الله الحُسنى فهو بالفتح ، أي فاعل البِرّ ، والبِرّ هو الإحسان ، أي المحسن فقد قال تعالى :

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الطور : ٢٨] .

أي هو المحسن .

البِرُّ هو الصِلة ، إسداء المعروف ، المبالغة في الإحسان ، البَرُّ هو المُحسن ، فلان بارٌّ بأبويه إذا كان محسناً لهما ، البَرُّ من الخلق من تتوالى منه أعمال البِرّ ، فهناك مبالغة فمن تتوالى منه أعمال البِر من الخلق يسمَّى براً ، أما إذا كان هذا الاسم منسوباً إلى الله عزَّ وجلَّ فالبرُّ هو مطلق الإحسان .

البِرُّ بالكسر. . الصلة والإحسان ، فلان يبَرُّ والديه أي يصلهما بإحسانه ، وفلان يبَرُّ رحمه أي يصلهم ، والصلة : العطاء مع اتصال ، عطاء مع زيارة ، والله جلَّ جلاله يقول :

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : ٨] .

هذه الآية دقيقة المعنى جداً ، قد تلتقي في عملك وفي محيطك ، وقد تلتقي مع أقربائك بنماذج لا يُناصبونك العِداء ، ولا ينكرون عليك تديُّنك ، بل إنَّهم أضعف من أن يتمسَّكوا بما أنت عليه ، هؤلاء يُقدِّرونك لكنهم ليسوا ملتزمين ، لم يصطلحوا مع الله بعد ، لم يقبلوا عليه ، ليسوا ملتزمين ، لكنَّهم لا يُناصبونك العداء ، بل يقدِّرون فيك هذا الاتجاه الطيِّب ، هذا التديُّن الصادق ، مثل هذه النماذج من الناس من الجريمة أن تُسيء إليهم ، هؤلاء يقدِّرون ، منصفون ، يتمنَّوْن ، وهم غير ملتزمين ، فلا تعنِّفهم ، لا تناصبهم العِداء ، استمل قلوبهم إليك ، لقوله تعالى : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ .

أن تبَرُّوهم أي أن تُحسنوا إليهم ، فإذا لم يكن يصلّي ولكنه لا يُعاديك ، أنت إن أحسنت إليه حملته على الصلاة ، أنت إن أحسنت إليه حملته على حضور مجلس علم ، أنت إن أحسنت إليه حملته على الطاعة .

أن تجد إنساناً غير ملتزم لكنَّه لا يعاديك ويقدِّر فيك تديُّنك ، يكبر فيك استقامتك ، لكنَّه لم يصطلح بعد مع الله ، هذا النموذج ينبغي أن تُحسن إليه ، وينبغي أن ترعاه ، ينبغي أن تُمِدَّ إليه يد المساعدة ، ينبغي أن يرى فيك تواضُعاً ، وانفتاحاً وإحساناً لأنَّه قد ورد في الأثر القدسي : أن يا داود ذكِّر عبادي بإحساني إليهم فإنَّ النفوس جُبِلت على حبِّ من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها .

وإنّ كثيراً من المؤمنين ممّن هم في أرقى مستويات الإيمان ، سبب إيمانه ، والتفاته إلى الله ، وإقباله عليه موقفٌ أخلاقي من مؤمنٍ ، فإنَّه يوم كان متفلّتاً ، وغير ملتزم التقى بمؤمن ، فأحسن إليه ، وتلطَّف معه ، وأكرمه ، فانشرح قلبه للإيمان .

فقد قرأت قصَّة عن عدَّة فتيات في بلد عربي اشتُهرن بالفن ، فهؤلاء الفتيات تُبن إلى الله عزَّ وجلَّ وتحجَّبن واصطلحن معه ، وشكَّلن مجتمعاً صغيراً واعتزلن الفن ، إحدى اللواتي لم تستقمن ولم تصطلح مع الله ولم تتُب بعد تاقت إلى أن تعرف حياة هؤلاء النسوة اللواتي اصطلحن مع الله ، فذهبت لزيارتهن . . والنقطة الدقيقة في هذه القصَّة أنَّهنّ رحبن بها واستقبلنها ورأت بأُمِّ عينها مجتمع الصدق والوفاء والحب والاستقامة والطهر والعفاف والالتزام ، ولأنَّهُنَّ استقبلنها ورحَّبن بها وأرينها ما هنَّ عليه من تواصل ، ومن حب ، ومن وئام ، ومن مودَّة ، ومن عفاف ، ومن طهر ، انضمَّت إليهن ، حينما طرقت بابهُن لم تكن ملتزمة ، لو رفضنها وطردنها لبقيت شاردةً ، بقيت بعيدةً في سكة التيه والضلال .

فأقول وبهذه الدقَّة . . لو أن إنساناً ليس ملتزماً إطلاقاً أراد أن يزورك ، أراد أن يلتقي بك ، أراد أن يرى على أيِّ شيءٍ أنت ، فينبغي أن تفتح له صدرك وأن تُرحِّب به ، وينبغي أن يرى من كمالك ومن تواضُعك ، ومن كريم خصالك ، ومن حبِّك له ، هذا الموقف الأخلاقي هو الذي سوف يجُرُّه إليك ، هذا الموقف المتواضع هو الذي يحمله على التوبة ، ورحم الله أبا الفتح البستي إذ قال :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

أنت لم تكن ملتزماً وقد منَّ الله عليك ، واصطلحت معه ، وأقبلت عليه ، ألا تُحبُّ أن يكون الخير عاماً ؟ كيف كنت بعيداً عن الالتزام وجاء أُناسٌ تقرَّبوا منك وحملوك على طاعة الله ، كما فُعِل بك افعل مع غيرك ، كما ذكَّرك الله ، ذكِّر غيرك ، كما أحسن الله إليك أحسن إلى عباده ، كما أنعم الله عليك بنعمة الهدى أنعم على عباده بنعمة الهدى ، لا تكن مغلقاً ، لا تكن محدوداً ، لا تكن متعصِّباً ، لا تكن متشنِّجاً من هؤلاء غير الملتزمين ، فماذا يحدث لو رأوا منك الكمال ؟

أبو حنيفة النعمان له جار يغني طوال الليل ، بحيث يعكّر على الإمام ليله ، ولا يستطيع أن ينام ، ويقول :

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا ليوم كريهةٍ وسداد ثغر

أُلقي القبض عليه ، فذهب أبو حنيفة إلى السجن يشفع له ، فلمّا رأى الأمير عيسى بن موسىٰ أبا حنيفة النعمان بمهابته يأتي ليشفع لجاره ؛ فأطلق سراح من معه في السجن في تلك الليلة إكراماً له ، وفي طريق العودة إلى البيت قال : يا فتى هل أضعناك ؟ تقول دائماً أضاعوني وأيَّ فتىً أضاعوا فهل أضعناك ؟ . فكان هذا الموقف الأخلاقي سبب توبته .

عن أنس رضي الله تعالى عنه أن غلاماً من اليهود كان يخدم رسول الله ـ ﷺ ـ فمرض فأتاه رسول الله ـ ﷺ ـ يعوده فقعد عند رأسه فقال له : أسلم ، فنظر إلى أبيه وهو عنده ، فقال له : أطع أبا القاسم فأسلم ، فخرج رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يقول : (**الحمد لله الذي أنقذه من النار**) [رواه البخاري] فكانت هذه العيادة سبب إيمانه ، وإسلامه واصطلاحه مع الله .

فالبطولة لا أن تكون مكافئاً . . ليس الواصل بالمكافيء ، لكنَّ الواصل من إذا قطعه الناس وصلهم ، بطولتك لا أن تَرُدَّ على زيارةٍ بزيارة ، أو هديَّةٍ بهديَّة ، أو لقاءٍ بلقاء ، أو وليمةٍ بوليمة ، فليس لك فضل بذلك ، أما البطولة أن تبادر ، ألم يروَ عن النبي عليه الصلاة والسلام :

« أمرني ربِّي بتسع . . خشية الله في السرِّ والعلانية ، وكلمة العدل في الغضب والرضا ، والقصد في الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعني وأعطي من حرمني وأعفو عمن ظلمني » .

هذا الذي يقرب الناس إليك ، وهذه الآية دقيقة دلالتها جداً ، قال تعالى :

﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ .

أَنْ تَبَرُّوهُمْ أي أن تحسنوا إليهم ، وما دمنا في هذا الموضوع أذكر لكم آيةً أخرى ، يقول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة : ٨] .

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ﴾ لا تحملَنَّكم عداوة قوم . . وأعداؤكم هم الكفَّار . . على ألا تعدلوا معهم ﴿ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ ، إن عدلتم معهم قرَّبتموهم إلى الله ، وتقرَّبوا منكم ، أما إن ظلمتموهم أبعدتموهم عن الله .

فلو أن إنساناً يصلِّي وأساء لنفَّر الناس من دينه ، أو إنساناً يصوم

وأساء نفَّر الناس من دينه ، إنسان يؤدِّي زكاة ماله ، لو أساء نفَّر الناس من دينه ، فأنت إما أن تكون مقرِّباً ، وإما أن تكون منفِّراً ، إما أن تكون جامعاً ، وإما أن تكون مفرِّقاً .

وفي سورة آل عمران قال تعالى : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

« الْبِرُّ ».. مطلق عطاء الله ، إحسانه لكم في الدنيا ، إحسانه لكم في الآخرة ، سعادةٌ تملأُ القلب ، صِحّةٌ تحفظ الإنسان ، هيبةٌ تعين الإنسان على معيشته ، كلُّ أنواع الخير ينطوي تحت بكلمة البر ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾.. أي إذا توهَّمت أنَّ الجنَّة ركعتان تؤدِّيهما ودرهمان تنفقهما وأنتهى الأمر عند ذلك الحد ، وافعل بعدها ما تريد فأنت مخطىء كل الخطأ.. لا.. إنَّ سلعة الله غالية ، إنَّ سلعة الله غالية ،إنَّ سلعة الله غالية فاسمع قول الله تعالى :

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ الشيء النفيس ، الوقت الثمين ، المال الذي جمعته من كدِّك الحلال ، الشيءُ الذي بذلت جهداً فيه للوصول إليه ، هذا ينبغي أن تُنفقه.. ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ .

شاهد آخر : الحجُ المبرور ، ونحن ما زلنا في كلمة البِر ، والبَر ، والبُر.. اسم الله تعالى البَرُّ.. أي المُحسن لأنَّه يعطي البِر ويعين عليه وهو الإحسان ، الحجُ المبرور هو الذي لا يخالطه شيءٌ من المآثم ، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام يقول :

« الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا ، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلا الْجَنَّةُ » [متفق عليه] .

أي حجٌ لم يخالطه إثم ، لا رفث ، ولا فسوق ، ولا جدال في الحج . . والحجُّ المبرور ليس له ثوابٌ إلا الجنَّة فقد قال تعالى :

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

البر . . التقوى ، وهذا من معاني البر فقد قال تعالى :

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [المائدة : ٢] .

وقيل البر . . التقوى . . التوسُّع في فعل الخير ، وقيل اسمٌ جامعٌ لكلِّ الطاعات ، ولكلِّ أعمال الخير المقرِّبة إلى الله ، أو اسمٌ جامعٌ لمرضيِّ الخصال . . وهذا شيء دقيق جداً فالتقوى . . اسمٌ جامعٌ لكلِّ الطاعات ، اسمٌ جامعٌ لكلِّ القربات ، اسمٌ جامعٌ لكلِّ الخصال الفاضلة ، اسمٌ جامعٌ لكلِّ الأفعال المرضية . . والبر هو التقوى ، وفي قاموس تاج العروس . . البر خيرُ الدنيا والآخرة .

خيرُ الدنيا ما يُيَسِّره الله تعالى للعبد من الهدى والصِّحة وراحة البال والطُّمأنينة والرِّزق النفسي ، وفيها من السرور والسعادة والهيبة ، وفيها الزوجة الصالحة والأولاد الأبرار والدخل الحلال .

وخير الآخرة . . الفوز بجنَّة الله وما فيها من النعيم المقيم ، النعيم الدائم ، ومن حورٍ عين ، ومن وِلدانٍ مخَلَّدين ، من جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار ، من فواكه وهم مكرمون ، وفيها النظر إلى وجه الله الكريم ، والفوز برضوان الله عزَّ وجلَّ الذي هو أكبر من كلِّ شيءٍ في الجنَّة ، فقد قال تعالى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ٧٢] .

فالبِر اسم جامع لخيريّ الدنيا والآخرة .

النبيُّ عليه الصلاة والسلام حينما قال :

« وما يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ ويتحرّى الصدق حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً . . . وَما يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ ويتحرّى الكذبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً » [متفق عليه] .

خير الدنيا والآخرة منطو بكلمة البر . . فقد قال تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ .

عليكم بالصدق ، فإنَّ الصدق يهدي إلى البر ، وأرقى أنواع الصدق أن تكون صادقاً مع الله ، ثم يلي ذلك أن تكون صادقاً مع نفسك ، ثم يلي ذلك أن تكون صادقاً مع الناس .

أن تكون صادقاً مع الله . . فإنَّك إذا عاهدّته على التوبة ألا تنتكس بعد التوبة ، وإذا عاهدته على الطاعة ألا تعصيه بعد العهد ، وإذا قبّلت الحجر الأسود في بيته العتيق وفاوضته وذرفت عنده الدموع ، وعاهدته وقتها ألا تعصيه في بلدك ، الصدق أن تنفِّذ هذا العهد .

إنَّ الصدق يهدي إلى البر . . . أي إلى الصلاح ، إلى خير الدنيا ، إلى خيري الدنيا والآخرة ، إلى الخير المطلق .

قال العلماء : زمزم هذا النبع الذي تفضَّل الله به على السيِّدة هاجر وعلى المسلمين من بعد ذلك ، يسمَّى هذا النبع برَّةً . . لكثرة منافعها وكثرة مائها وسعة خيراتها .

البَر أبلغ من البار . . نقول مثلاً علاَّمةٌ وعالم ، العلاَّمة أبلغ ، البر أبلغ من البار وإن كانا بمعنى واحد وهو المحسن ، فلو قلنا : فلان بارٌّ بوالديه . وأما إذا قلنا : فلان بَرّ أي تتالى بِرُّه ، وتوالى إحسانه ، وكثر عطاؤه ، وكثر خيره وطاب ، البر أبلغ من البار .

أما البرُّ في حقِّه تعالى فهو فاعلُ البِرِّ والإحسان ، يحسن إلى عباده بالخير ، فالله عزَّ وجلَّ لماذا خلق الخلق ؟ خلقهم ليسعدهم ، خلقهم ليحسن إليهم ، خلقهم ليكرمهم ، أصل الخلق إحسان ، ففي الأثر : « **إني والإنس والجنَّ في نبإٍ عظيم . . أخلق ويُعبد غيري ، وأرزق ويشكر غيري** » [الحكيم الترمذي] .

مشروع الكون كلِّه هدفه الإحسان ، فقد قال تعالى :

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود : ١١٩] .

فالبَرُّ . . في حقِّه تعالى أي فاعل البِرِّ والإحسان ، يحسن إلى عباده بالخير .

وأحد العلماء يقول : « **البَرّ . . المحسن بالبِرِّ المطلق** » ، فأحياناً المصيبة إحسان ، فتجد إنساناً شارداً غافلاً تائهاً ومنحرفاً ، والله عزَّ وجلَّ بَرّ أي إحسانه مطلق يسوق له بعض الشدائد ليحمله على التوبة ، وإذا حمله على التوبة وتاب إليه قبله وأكرمه ، فكلُّ مصائب الدنيا تنطوي تحت اسم البَر .

طفل يتيم تُوفِّي والده وله جار محسن ، لمحه مرَّةً يسرق فاكهةً من دكان ، فأمسك بيده وعنَّفه ووبَّخه وذكَّره بالقيم الأخلاقيَّة وصار يتابعه ، إلى أن انضبط هذا الطفل وتابع دراسته وكبرت سنُّه ونجح في

حياته ، فبقي سنواتٍ عديدة يقول : لولا هذا الإنسان المُحسن الذي أدَّبني ونبَّهني وراقبني وعنَّفني ما كنت فيما أنا عليه .

وكذلك الله سبحانه وتعالى يكشف لعبده المؤمن يوم القيامة عن كلِّ شيءٍ ساقه له في الدنيا من متاعب ، لا شكَّ أنَّ هذا الإنسان يذوب من شدَّة الامتنانِ إلى الله عزَّ وجلَّ ، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ .

لا أريد أن أطيل في هذا الموضوع ، لكن كل مسلم يعلم لولا أنَّ الله تداركه باللطف ، وبالتأديب أحياناً ، وبالتخويف أحياناً ، أحياناً مرضٌ يبدو أنَّه عُضال ، أحياناً فقرٌ مدقع ، أحياناً إنسانٌ قاهر يُضَيِّق عليه هذه كلُّها تضييقاتٌ تنطوي على الرحمة ، ويؤكِّد هذا قول الله عزَّ وجلَّ :

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام : ١٤٧] .

قيل : البَر . . هو الذي لا يصدر عنه القبيح . وهذا التعريف سلبي ، فالبر لا يمكن أن يصدر عنه شيءٌ قبيح .

وقد ذكر الإمام الرازي أقوالاً : « **البر . . هو الذي منَّ على المريدين بكشف طريقه ، وعلى العابدين بفضله وتوفيقه** » .

أي أنّ عابداً منَّ الله عليه بقبول العبادة ، وأن سالكاً إلى الله يسَّر له الطريق إليه ، وأنّ إنساناً أراد الإحسان مكَّنه من الإحسان ، البر المحسن يعطي كُلاً سؤله ، فقد قال تعالى : ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء : ٢٠] .

قيل : « **البَر . . هو الذي منَّ على السائلين بحسن عطائه ، وعلى العابدين بجميل جزائه** » .

وقيل : « البَر . . الذي لا يقطع الإحسان بسبب العصيان » .

إذا قال العبد : يارِبِّ وهو راكع . قال له الله : لبيك يا عبدي ، فإذا قال : يا ربِّ وهو ساجد . قال له : لبَّيك يا عبدي . فإذا قال : ياربِّ وهو عاصٍ . قال الله له : لبَّيك ثم لبَّيك ثم لبَّيك .

وأنت حينما ترى أمّاً لها ابنٌ شارد عنها بعيد ، ولها أولاد بَررة معها دائماً ، كلُّ قلبها مع الشارد ، كلُّ تعلُّقها مع الشارد ، فإذا عاد هذا الشارد إليها فيوم عودته عيد عندها وأي عيد ، لذلك الله عزَّ وجلَّ كما روي في الحديث الشريف : لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده من العقيم الوالد ومن الضالِّ الواجد ، ومن الظمآن الوارد .

وقيل : « البَر . . هو الذي يحسن إلى السائلين بحسن عطائه ، ويتفضَّل على العابدين بجزيل جزائه ، لا يقطع الإحسان بسبب العصيان وهو الذي لا يصدر عنه القبيح ، وكلُّ فعله مليح » .

مرَّةً ثانية . . البَر هو الله عزَّ وجلَّ ، أما البِر فهو خير الدنيا والآخرة ، لذلك من الأدعية اللطيفة : اللهمَّ اجعل نعم الآخرة متَّصلة بنعم الدنيا ، فهناك حالات رائعة جداً . . كإنسان متَّعه الله بالصحَّة ، ومتَّعه بالعمر المديد ، ومتَّعه بالعمل الصالح ، ومتَّعه باليقظة الفكريَّة ، ومتَّعه بالحب ، فلما توفي انتقل إلى الجنَّة ، هذه النعم العظيمة في الآخرة اتصلت بنعم الدنيا ، لأنَّ الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ .

اسم البَر ورد في القرآن مرَّةً واحدة فجاء في سورة الطور :

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ، ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن

﴿قَبْلُ﴾ هم في الجنَّة الآن ويتحدَّثون عن ربِّهم ﴿نَدْعُوهُ﴾ في الدنيا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ . أي بَرٌّ رحيمٌ بنا في الدنيا والآخرة .

ورد هذا الاسم مشتقاً في سورة مريم ، في قوله تعالى :

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم : ١٤] .

وفي السورة نفسها ورد على لسان سيدنا عيسى :

﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم : ٣٢] .

معنى ذلك أنَّ الإنسان إذا أراد الله تأديبه في حياة أمِّه ربَّما كان بعض هذا التأديب لأمِّه . لذلك ورد في الأثر القدسي أنَّه إذا ماتت الأم قال الله سبحانه وتعالى : « **عبدي ماتت التي كنا نكرمك لأجلها ، فاعمل صالحاً نكرمك لأجله** » .

أي إنَّ جزءاً من إكرام الله لك في حياة أُمِّك من أجل أُمِّك ، لأنَّ الله إذا أدَّب عبده في حياة أُمِّه فإن نصف التأديب لأمِّه .

فأحياناً أبٌ يتألَّم من ابنه فيدعو عليه ، فإذا استجاب الله دعاءه تألَّم ألماً أشدَّ . . فلا تتمنّ ذلك . . ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ .

شعور الأب حينما يكون ابنه شارداً منحرفاً ، شقياً ، بعيداً عن الدين شعور أسًى لا يوصف ، فقد يتألَّم ألماً يوجعه ويقعده ، لو أنَّ الدنيا كلَّها بيديه وأنفقها من أجل أن يصلُح ابنه لفعل ، فمن رزقه الله ابناً صالحاً ، وطاهراً ، منيباً ، مصلياً ، عفيفاً ، سلوكه حسن ، هذا الأب عليه أن يُقبِّل الأرض شكراً لله عزَّ وجلَّ .

سبحان الله فالإنسان كلَّما تذلل إلى الله ارتقى عند الله ، فمنذ يومين أخ كريم له مشكلة كبيرة جداً ، فلجأ إلى قيام الليل ، يصلّي قيام الليل وفي السجود دعا ربَّه لحلِّ هذه المشكلة ، والقصَّة من

أغرب القصص حُلّت بشكلٍ هيّن ولا عنت فيه ، وقد ذكر لي التفاصيل ومن غير المعقول أن تُحلَّ بهذه الطريقة ، ومن شدَّة تأثُّره وبينما هو يجلس في المسجد قام وسجد لله عزَّ وجلَّ شكراً .

فالمؤمن إذا أصابه خير ، أو له مشكلة حُلّت ، له قضيّة فُرجت ، أو شبح مصيبة أزيح عنه ، أو شيء ناله ، وقام وصلَّى لله صلاة الشكر وسجد فهذا من مكارم الأخلاق ، فقد تأثَّرت . . قام وسجد وشكر الله على حلِّ هذه المشكلة ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ .

ورد هذا الاسم مشتقاً في آيةٍ ثالثة في سورة عبس قال الله تعالى :

﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس : ١٥ـ١٦] .

فالبَر أي المحسن ، مطلق الإحسان . . يجوز أن تقول فلان بَرٌّ سعيد . . فالنبي ﷺ قال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا ، فَالنَّاسُ رَجُلانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللهِ ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللهِ وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ ، وَخَلَقَ اللهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ ، قَالَ اللهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [رواه الترمذي] .

قال العلماء : يجوز أن تقول فلان بَر . . فالعبد يكون براً بقدر ما يفعل من البر ، وأفضل إنسان عليك أن تبرَّه أبوك وأمُّك ومن علَّمك ومن زوَّجك ، فقد أتألَّم أشدَّ الألم من صهر يناصب عمَّه العِداء ، فقد زوَّجك ابنته وربَّاها عشرين سنة ، أطعمها وسقاها وأكرمها وعالجها وأدّبها وأعطاها لك هديّة ، فليس لك همٌّ بعد ذلك إلا إغاظته ؟! فهذا منتهى اللؤم .

لذلك قالوا : أبٌ أنجبك ، وأبٌ زوَّجك ، وأبٌ دلَّك على الله .

أبٌ أنجبك.. الأب النسبي ، وأبٌ زوَّجك.. وهو عمُّك والد زوجتك ، وأبٌ دلَّك على الله وهو من أخذ بيدك إلى الهداية ، فهذه الزوجة التي عندك في البيت ، وهذا أبوها فإن أسأت إليه أسأت إليها ، فليس هناك إنسان إلا وهو يحبّ أمّه وأباه ، فإذا أسأت إلى أُمّها وإلى أبيها أسأت إليها ، فإذا أردتَّها أن تموت في حبّك وأنت تسيء إلى أُمّها وأبيها فهذا فعل إنسان غبي ، واعلم أنّها لن تحبَّك ، فإذا أردت أن تُكافئها على إخلاصها بإخلاصٍ أكرم أبويها ، قال مالك بن فهم الأزدي :

أُعلِّمه الرماية كلَّ يومٍ فلما استدَّ ساعده رماني
وكم علَّمته نظم القوافي فلما قال قافيةً هجاني

إذا لم يكن في الإنسان خير لأمّه وأبيه ولمن علَّمه ولمن زوَّجه فليس فيه خير لأحد ، لأنَّ هؤلاء لهم فضلٌ كبير .

سيِّدنا عبد الله بن رواحة عندما رأى صاحبيه قد استُشهِدا في موته قال :

يا نفس إلا تُقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليتِ
إن تفعلي فعلهما رضيتِ وإن تولَّيتِ فقد شقيتِ

لو حسبنا الوقت الذي قال فيهما البيتين لكان عشر ثوان ، إذن تردد عشر ثوان في بذل روحه .

قال لرسول الله ﷺ : « أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل شهيداً ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قتل شهيداً » . ثم صمت النبي ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه كان في عبد الله بن

رواحة بعض ما يكرهونه قال : « ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً » . ثم قال : **لقد رفعوا إليَّ في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبيه فقلت : بم هذا ؟ فقيل لي : مضيا وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد ومضىٰ** . [رواه الطبراني ورجاله ثقات] .

درجته نزلت لتردده لعَشِرْ ثوانٍ . . ثم مات شهيداً ، إحسان الله كبير جداً ، فإذا ترددت في خدمة إنسان بإنفاق ، أو بصدقة ، أو ترددْت بأداء صلاة ، أو بحضور مجلس علم فهذه مشكلة كبيرة .

قالوا : من أدب المؤمن مع هذا الاسم العظيم . . أن تكون أعماله كلُّها خيِّرةً ، أي يتخلَّق بأخلاق هذا الاسم ، إن فعل هذا غُرِست محبَّته في قلوب العباد .

ألوان بِرِّ الله لعباده كثيرة . . قال بعض العارفين : « **سبحان ربِّي الحنان المنَّان ، الذي منَّ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة ، والذي منَّ على المؤمنين بأن جعلهم من أصحاب اليمين ، وهو الذي ألهمهم القيام بالأعمال الصالحة ، وهو الذي رزقهم القبول ، وقبول أحسن ما عملوا ، وهو الذي يتجاوز عن سيِّئاتهم** » .

قال العلماء : حظُّ العبد من هذا الاسم البَر أن يكون مشتغلاً بأعمال البِر ، كما قال العلماء « **تخلَّقوا بكمالات الله** » .

الله عزَّ وجلَّ بَر . . أي محسن ، أنت ينبغي أن تشتغل بأعمال البِر ، وقد جمع الله أعمال البِر في آيةٍ واحدة في سورة البقرة ، قال الله تعالى :

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ لا بدَّ من أن تقتطع من وقتك وقتاً كي تؤمن بالله .

فالجانب الاعتقادي . . ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ .

أما الجانب العملي فأوّله البذل . . ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ .

أما العبادات الشعائريّة . . ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ .

وأما العبادات الأخلاقيّة . . ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾ .

ولعلَّ النبيَّ ﷺ مستلهماً هذه الآية قال :

« عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً » [رواه مسلم] .

قال العلماء : من شرط البر أن تبذل الأحسن . . كما قال الله تعالى :

﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ .

﴿ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ ، أحياناً أغلى شيءٍ عليك الوقت يجب أن تنفقه في سبيل الله ، أحياناً أغلى شيءٍ عليك مكانتك يجب أن توظِّفها في خدمة الحقّ .

قال العلماء : من تخلُّق العبد بهذا الاسم أن يكون مشتغلاً بأعمال البر واستباق الخيرات . . وهناك معنى سلبي . . وألا يضمر الشرَّ لأحد وألا يؤذي أحداً ، فإنَّ البَر هو الذي لا يؤذي .

روي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت النبيَّ ﷺ يقول : « **البِرُّ لا يبلى ، والذنب لا يُنسى ، والديَّان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تَدين تُدان** » .

أي أنَّ المؤمن معطاء ، وغير المؤمن أخَّاذ ، المؤمن بالتعبير الحديث اتخذ قراراً استراتيجياً أن يُعطي . . يُعطي من وقته ومن ماله ومن خبرته ، والكافر رغبته مبنيَّة على الأخذ .

ما زلنا في الحديث عن أدب المؤمن مع اسم البَر . . قالوا : المؤمن متى عرف أنَّ الله هو البَرُّ الرحيم ينبغي أن يكون باراً بكلِّ أحد كما يقول أحد العلماء ، لا سيَّما بوالديه لحديث : « **رضا الربِّ في رضا الوالدين ، وسخطه في سخطهما** » [الطبراني عن ابن عمرو] .

حُكي عن موسى عليه السلام لما كلَّمه ربُّه رأى رجلاً في أعلى مكانةً عند الله فتعجَّب من علوِّ مكانته ، فقال : يا رب . . بِمَ بلغ هذا العبد ذاك المكان ! ؟ فقال : إنَّه كان لا يحسُد عبداً من عبادي على ما آتيته ، وكان براً بوالديه .

لأنَّ الله عزَّ وجلَّ قال :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

قالوا : من كان الله باراً به عصم عن المخالفات نفسه ، وأدام بفنون اللطائف أُنسه ، ووفَّر في طريقه اجتهاده ، وجعل التوفيق زاده ، وجعل قصده سداده ، ومنبع سلوكه إرشاده ، وأغناه عن أشكاله بأفضاله ، وحماه عن مخالفته بيمن إقباله .

هذا الاسم متعلِّق بالإحسان ، بالحركة ، فأحياناً تجد المؤمن له خصائص عقائديَّة ، أو خصائص أخلاقيَّة ، وكذلك خصائص سلوكيَّة ، أن ماذا فعلت ؟

أنواع البِر لا تُعدُّ ولا تُحصى ، فهناك المساكين والفقراء ، وهناك العناية بالأيتام والأرامل ، وهناك معاونة العجزة ، وأيضاً هناك الدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف ، وتعليم العلم ، وتعلُّم العلم ، فأنواع البرّ لا تعد ولا تحصى ، فالاسم حركي ، أي أنّ هذا الاسم متعلِّق بأعمالك الصالحة ، ولا تنس أن حجمك عند الله بحجم أعمالك الصالحة ، وأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأحقاف : ١٩] .

* * *

محتوى الجزء الثاني

* * *